بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اسم المؤلف : **السيد عمار الحكيم**

عنوان الكتاب : **القيادة والإدارة**

شرح عهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ **لمالك الأشتر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

الطبعة الثانية : **٢٠٢٣**

الترقيم الدولي : ISBN: 978-9922-92-102-0

العراق - بغداد- الجادرية جسر ذي الطابقين

شارع المتنبي - مقابل مقهى الشابندر - قرب مصرف الرشيد

٠٧٧٠٢٦٨٢٥١٨

inky. publishing@gmail. com

القيادة والإدارة

شرح عهد أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ
لمالك الأشتر رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ

السيّد عمّار الحكيم

الجزء الثاني

المقدّمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين أبي القاسم المصطفى محمد ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحبه المنتجبين الميامين .

إنّ أهم وثيقة إسلاميّة ركزت على موضوع النظرية الإسلاميّة في القيادة والإدارة ، وأوجزت الفهم الإسلاميّ لها ، هو عهد أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لمالك الأشتر ، وهو وثيقة تأريخيّة مهمة سلطت الأضواء على العديد من الملامح الأساسيّة لموضوع القيادة والإدارة ، في الأصول والمباني والسياسات والوسائل ، وكذلك السلوك والأخلاق المطلوبة في عمليّة القيادة والإدارة ، فنجدها مجتمعة في هذا العهد وفي هذه الوثيقة التأريخيّة المهمة .

وما زالت هذه الدروس الكبيرة التي قدّمها أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الوثيقة المهمة ، مثار الاهتمام والدراسة والمراجعة لدى أهم مراكز البحوث والدراسات والجامعات العالميّة في القيادة والإدارة . وقد أكّد سماحة السيد (عمار الحكيم) مرارًا في لقاءاته المتكررة أنّ القيادة في المنظور الإسلاميّ ليست حكرًا على شخص واحد ، ولا يمكن أن تُختزل في موقع واحد ، وإنما هي منظومة من الأدوار والممارسات التي تبدأ من المواطن البسيط في أدواره ومواقعه وصولًا إلى الأدوار المتقدمة والخطيرة التي يمارسها القادة في سلسلة المراتب القياديّة .

وقال سماحته إنّ عهد أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لمالك الأشتر يختزل هذه النظرية في أبعادها المختلفة ، ولذلك سعى إلى أن يقف عند هذا العهد ودروسه المعطاء ، والتأثير الكبير الذي تركه أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كرجل مارس هذه التجربة في الوقت نفسه ، وتميّز وتألّق في الوعي ومستوى العلم والعصمة التي تجعل الإنسان بعيدًا عن الانحرافات والانزلاقات ، ويقدم الرؤية الصحيحة في القيادة والإدارة .

إنّ هـذا العهـد المهـم والتأريخيّ بـات مرجعًا ومصـدرًا مهمًا من مصـادر الرؤية الإسـلاميّة في القيادة والإدارة ، وتعدّاها ليشـمل الرؤية الإنسـانيّة أيضًا ، بعد أن شقّ طريقه اليوم إلى المعاهد العالميّة ووقفت على كل مفردة من مفرداته ، وبعد أن أصبح وثيقة معتمدة لدى الأمم المتحدة .

وقد بدأ سـماحة السـيد الحكيم سلسلة من اللقاءات للاستفادة والاستزادة من هذا العهد الشريف ، والتعرف على الرؤية الإسلاميّة في الإدارة والقيادة والحكم ، لا سيَّما أننا اليوم بأمسّ الحاجة لاسـتحضار هذه الرؤية ، إذ نبني تجربتنا السياسـيّة الوليدة في العراق ، مستثمرين الزخم الكبير والإيجابيّات الهائلة المتوافرة في هذا البلد الكريم ، وفي مقدمتها الإرادة العراقية الصلبة ، لبناء مشروع تعددي يُحترم فيه الإنسان وتُحترم فيه الحريات ، وينطلق العراقيون لبناء تجربتهم الفريدة .

وقد تحدّث سـماحته في الجزء الأوّل من هذا الكتاب عن تسـعة عشـر مقطعًا من مقاطع هذا العهد الشريف . وفي الجزء الثاني نستعرض حديث سماحته عن المقاطع التسـعة المتبقية من العهد الشـريف ، وعن الخاتمة التي تناولت المرجع في سياسات المنظومة القياديّة وكيفية تحقيق النجاح فيها .

وربما يعترض شـخص ويقول : لماذا يُصرف كل هذا الوقت الطويل في الحديث عـن النظرية الإسـلاميّة فـي الإدارة والقيادة في حين أنّها أبحـاث تخص القادة وكبار المسؤولين وليس عموم المواطنين ؟ .

والجواب : إنّ هذه الأبحاث ترتبط بنا جميعًا ، وإن كانت مرتبطة بشكل مباشر بقادة البلـد ، فحينمـا تكون الثقافة العامّة هي ثقافة المعرفـة التفصيليّة لطبيعة هذه العلاقة ، سيتعرف كل مواطن على حقوقه وواجباته والتزاماته تجاه المسؤول وتجاه قيادة البلد ، فهذه المعطيات والمعلومات مفيدة لنا جميعًا ، في أي مسـتوى من المستويات ، وفي أي عمل من الأعمال .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مؤسسة إنكي للدراسات والبحوث

تمهيد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد ، وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين .

يتعرض هذا العهد الشريف إلى مجمل الأصول والمباني والسياسات والسلوكيات والأخلاقيّات التي يجب أن يتمتع بها كلّ من يتصدى للمسؤولية ، في أي موقع من المواقع ، فالقيادة والإدارة ليست مواقف قياديّة بحتة ، وهي ليست شطارة ، وليست لعبًا ، وليست مكائد وخداعًا وغشًا وتزويرًا للوصول إلى الطموحات والأهداف التي يضعها الإنسان لنفسه ، بل المهم هو أن يصل الإنسان إلى الأهداف الشريفة بوسائل شريفة ، فالغاية لا تبرر الوسيلة ، وإنما يجب أن تتحقق الأهداف من خلال الوسائل الشريفة ، فالوسائل الشريفة تحقق الأهداف النبيلة والشريفة ، ولذلك فالقيادة فيها فنون ، وفيها خطوات ، وفيها رؤية ، ولكنْ فيها أخلاق أيضًا ، وفيها روح ، وفيها قيم ، وفيها مبادئ ، وهذه هي النظرة إلى القيادة في الرؤية الإسلاميّة التي يختزلها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا العهد الشريف .

إن القيادة ليست المواقع العليا فقط ، كأن يقود الإنسان بلدًا ما ، أو يقود تيارًا سياسيًّا كبيرًا ، كلا ، فالقيادة تشمل كل مستويات التصدّي ؛ فالمسؤول عن شركة يقود هذه الشركة ، والمسؤول عن مصنع يقود هذا المصنع ، والمسؤول عن فرقة أو لواء أو فوج أو سريّة أو أي مجموعة من الناس يكون قائدًا لهم ، والشخص المعني بعائلة ، بزوجته وأولاده ، هو يدير شؤونهم ويقودهم ، إذن فالقيادة بهذا المعنى الواسع تشمل كل حالات التصدّي .

كلٌ منا في مساحته ، إذا كان مسؤولًا عن عدد من الناس ، واحد أو اثنين أو خمسة آلاف أو مليون أو مليار ، هو بالتالي يقود هؤلاء ويتحمل مسؤوليتهم ، وهذه القواعد والضوابط والمعايير تنطبق عليه بحجم مسؤوليته ؛ فكلما كان حجم المسؤولية أكبر ، لزم أن يكون التزامه بهذه المعايير أشد وأوضح وأوثق ، وإلاّ كانت النتائج في عدم الالتزام كارثية ، فهذا المسؤول عن خمسة إذا أخطأ فالخطأ يكون على نطاق خمسة أفراد ، وذلك المسؤول عن خمسين مليونًا إذا أخطأ فستنعكس آثار خطئه على خمسين مليون إنسان . . وهكذا .

تحدثنا في الجزء الأوّل من هذا الكتاب عن تسعة عشر مقطعًا من مقاطع هذا العهد الشريف . وكان المقطع التاسع عشر في (صفات القاضي المؤهل) ، وذكرنا أن القاضي يجب أن يتسم بأربع عشرة سمة :

الأولى : (اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ) ، فالقاضي يجب أن يكون الأفضل علمًا وأخلاقًا وسلوكًا وإيمانًا وتقوى .

والثانية : (مِمّنْ لاَ تَضِيقُ بِهِ الأُمُورُ) ، فيجب أن يتّسم القاضي بالحكمة والهدوء ، ولا يأخذه الانفعال .

والثالثة : (وَلاَ تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ) ، فالقاضي يجب أن يكون بعيدًا عن المماحكة والجدل .

والرابعة : (وَلاَ يَتَمادَى فِي الزَّلَّةِ) ، فإذا أخذ قرارًا ثم تبيّن له أنه كان مخطئًا فعليه أن يتراجع عن قراره .

والخامسة : (وَلاَ يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ) ، فحينما يتبيّن له الحق يعيد النظر بموقفه ، ولا يضيق صدره ، ويعالج الآثار المترتبة على قراره الخاطئ .

والسادسة : (وَلاَ تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَع) ، فيجب أن يكون القاضي بعيدًا عن الطمع ، مترفّعًا عنه

والسابعة : (وَلاَ يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْم دُونَ أَقْصَاهُ) ، فلا يصدر الحكم بناءً على ظواهر الأمور ، بل يحرص على اكتشاف عمق الحقيقة .

والثامنة : (وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ) ، فعلى القاضي أن يحذر ويتريّث حينما تُعرض عليه قضية فيها شبهة .

والتاسعة : (وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ) ، فعلى القاضي أن يكون ممن يأخذ بالحجّة والدليل والبرهان ويتجنب :

الاعتماد على الذوق والمزاج والاستلطاف أو الاستهجان الشخصيّ ، (أنا لا يروق لي ذلك ، أنا أحب ذلك ، أنا أشمئز من ذلك ، أنا آنس بذلك ، . . .) .

الاعتماد على احتمالات غير منطقيّة وغير واقعيّة.
التعويل على نظرات وخلفيات علميّة متغيرة.
الركون إلى مغالطات وتأويلات، وما شابه ذلك.

والعاشرة: (وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّمًا)، أي أقلهم ضجرًا ومللًا بمراجعة الخصم، فصاحب الحاجة أعمى، والغريق يتشبث بكل شيء، والمتخاصمون يعيشون حالة قلق مستمر، ويسعون بكل الوسائل للتأثير على القاضي في كلمة، فيرسلون الوسائط والمعارف والمحامين، ويطرحون أمورًا مختلفةً ومتناقضة من أجل استمالة القاضي في قراره، ويكثرون المتابعة، وعليه أن يتحمل ذلك دون كلل أو ملل.

والحادية عشرة: (أَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الأُمُورِ)، الصبر والتحمل ومواصلة الجهد والنظر في الموضوع تساعد على اكتشاف الحقيقة، جاء في غرر الحكم (١/ ١٩٧): (الصبر أفضل العُدد)، أي الوسائل، وجاء في المصدر نفسه(٣/ ٢٩٠): (بالصّبرِ تُدرَكُ الرّغائب)، والرغائب: هي الأمور التي يرغب فيها الإنسان ويطمح إليها.

والثانية عشرة: (وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ)، أي: أمضاهم وأقطعهم للخصومة، فالاحتياط والتدقيق والصبر لحين الوضوح لا يعني التردد في إصدار الحكم بعد وضوح الموقف وتكشّف الحقيقة؛ لأن التأخير في إصدار الحكم مع وضوحه يمنع صاحب الحق من الوصول إلى حقه بأسرع وقت، ويدفع الخاسر للدعوى لمزيد من الضغط وتهييج الرأي العام وبذل الجهد في التأثير على قرار القاضي ويخاطر بإحقاق الحق وسمعة القضاء.

والثالثة عشرة: (مِمَّنْ لاَ يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ)، فيجب أن يكون القاضي قوي الشخصيّة، واثقًا بنفسه، لا يغره مدح المادحين المتملقين.

والرابعة عشرة: (وَلاَ يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ)، أي لا يؤثر فيه الإغراء، ولا يستميله الآخرون فيحيد عن الحق.

ونبدأ أبحاثنا في هذا الجزء بالمقطع العشرين الذي يتحدث عن ضمانات نزاهة القضاة؛ أي كيف نضمن مؤسسة قضائيّة نزيهة، لا ينخرها الفساد، حتى تكون قادرة على الفصل بين الناس بعدالة وبشكلٍ سليم؟.

وقد حدّد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقطع الحادي والعشرين من هذا العهد الشريف، المعايير المطلوبة لاختيار كبار المسؤولين وذوي الدرجات الخاصة في الدولة، وبدأ قبل استعراض المعايير بتحديد الآلية التي يتم بها اختيار المسؤولين، وذكر أن الاختبار هو المدخل الصحيح للاختيار، ويجب أن يُختبر الأشخاص لكي يتم اختيارهم على أساس

التأكد من توفر هذه المعايير فيهم، وليس على أساس المحاباة والمحسوبية والمنسوبية، أو على أساس القناعات الشخصية والمزاجية للمسؤول الأعلى، فيختار من يريد ويقرب من يشاء ويبعد من يشاء على خلفية مزاجية، أو على أساس المحاباة، أو على أساس الأمزجة الشخصيّة والرأي الخاص للمسؤول، فهذا غير صحيح، واعتبره أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خيانة وجناية.

ثم انتقلنا للحديث عن معايير اختيار المسؤولين عند أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التي تمثل معايير في النظرية الإسلاميّة للقيادة والإدارة، واستعرضنا ثمانية معايير ذكرها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بعد الآليات ومعايير الانتخاب.

بعد ذلك انتقلنا للحديث عن ضمانات سلامة الأداء، وقلنا: من الممكن أن تتوفر في شخص كل هذه المواصفات، ويكون مؤهلًا، ويعيّن في موقع المسؤولية، وبعد أن يضمن الموقع لنفسه، وبسبب التحدّيات، والمنزلقات، والامتيازات، يمكن أن يتغير بمرور الزمن، فلا بُدَّ من وجود ضمانات تضمن عدم تغير هذا المسؤول الذي يمتلك الشروط التي عيّناها، وأن تبقى هذه الشروط متوفرة فيه على طول مدّة المسؤولية وتكليفه بهذه المهمة.

وهنا يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ثلاثة عناوين أساسيّة لتحقيق هذا الضمان: الرقابة، والتفتيش، والمتابعة، بهذه الخطوات الثلاث يُمكن ضمان نزاهة المسؤول وسلامة أدائه على الأمد الطويل، ما دام متصديًا ومتحملًا للمسؤولية، وأن يفي بواجباته، ويحافظ على تحقق المواصفات والمعايير المطلوبة فيه، ثم قلنا إنّ هذا النص يحمل العديد من الإضاءات:

الإضاءة الأولى: مكانة وأهمية الرقابة والتفتيش والمتابعة.

الإضاءة الثانية: فلسفة الرقابة والتفتيش والمتابعة.

الإضاءة الثالثة: آليات الرقابة والتفتيش والمتابعة، وقلنا إن فيها آليتين؛ سريّة وعلنيّة.

ثم انتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى المقطع الثاني والعشرين، الذي تحدّث فيه عن الطبقة الثالثة، وهي طبقة دافعي الضرائب، ويسمّونها اليوم في مصطلحاتنا (الطبقة الوسطى) أو ذوي الدخل الميسور المتمكنين، من رجال الأعمال، والصناعيين، والمزارعين، ومن له دخل وقادر على دفع الضريبة، وتحدثنا عن: (السياسات الضريبيّة، والاتجاهات الضريبيّة، والإعفاءات الضريبيّة)، واستعرضنا النص في الإعفاء الضريبيّ، الذي يتحدث عن أن دافع الضريبة إذا مرّ بأزمة في تجارته، أو في مصنعه، أو في أرضه التي يزرعها، وتعثّرت إيراداته، فهنا يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مالكًا الأشتر بأن يتساهل

معه ، وقلنا إن هذا يرتبط بفلسفة الإسلام ؛ فلسفة الرؤية الإسلاميّة للضريبة ، وذكرنا أيضًا أنّ هناك منهجين في الضريبة ؛ منهج يفكر بمدخولات وإيرادات الدولة ، فالمهم أن تحصل الدولة على موارد بأي ثمن وبأي طريقة ، حتى لو كان ذلك بطريقة إفقار الناس ، وهذا منطق جباية الأموال بأي ثمن ، والمنهج الآخر ، الذي يعتمده الإسلام ، ليس منهج التفكير بملء خزينة الدولة ، وإنما ملء جيوب الناس ، فما دام الناس متمكنين ، وما دامت تجارتهم ، وصناعتهم ، وزراعتهم ، واستثماراتهم ، ومداخيلهم عالية ، فسوف يدفعون من هذه المداخيل ضرائب للدولة ، وبالتالي ستحصل الدولة على المزيد من الموارد ، فبدلًا من أن يكون التفكير بالموارد المالية للدولة ، يكون التفكير بكيفية تعظيم موارد الناس ، دافعي الضريبة ، وكلما عظمت مواردهم دفعوا للدولة ضرائب أكبر .

وتحدّث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقطع الثالث والعشرين من هذا العهد المهم ، وهذه الوثيقة التأريخيّة المهمة ، عن الكتّاب ، وذكر أن الكتّاب يمثلون شريحة مهمة ضمن الطبقات الاجتماعيّة ، وهم جزء من طبقة الموظفين ، التي تشمل القضاة والعمّال ، أي المسؤولين التنفيذيّين في مفاصل الدولة وكبار المسؤولين وذوي الدرجات الخاصة ، وشرحنا مداليل الكاتب ، وأنّ الكاتب ليس مقررًا فقط ، وليس سكرتيرًا ، وليس مدير مكتب ، بل الكاتب هو موقع قد لا يكون له ما يقابله في هياكلنا الإداريّة المعاصرة ، ولكن هو أشبه ما يكون بمجلس الوزراء في حكم ملكي ، فالملك له الإشراف والرؤية ، ثم يقوم رئيس الوزراء وفريقه بأدوار في صناعة السياسات واتخاذ القرارات ، والإجراءات ، والمتابعات ، ويُطلعون الملك عليها ، ويأخذون رأيه فيها ، باعتبار أن النظام الإسلاميّ نظام ولاة ، فهناك الخليفة ، وهو الحاكم ، ويقوم بتنصيب ولاة ، وبالتالي فالكتّاب يمارسون مثل هذا الدور المحوريّ والأساسيّ ، فالكتّاب هم كبار مسؤولي الدولة وذوو الدرجات الخاصة ، ويتحملون مسؤوليات جسيمة ، وقد يكون الكاتب هو ثاني موقع بعد الحاكم ، وهم أذرع الحاكم وعيونه التي من خلالها يدير الأعمال والمهام المختلفة .

ثم تطرقنا إلى أهمية ومكانة الكتّاب ، وإلى دور الكتّاب والمهام التي يُمكن أن نتصورها في مؤسسة الدولة ، والتي يُعنى بها الكتّاب بشكل خاص ، وإلى أنواع الكتّاب ، بحسب طبيعة المهمة التي يقومون بها ، من مراسلات أو خطط سريّة أو ذات طابع عام وعلنيّة ، أو ماليّة ، إلى غير ذلك مما ذكرنا .

ثم تحدثنا في موضوع الكتّاب في عدّة محاور ، بناءً على ما ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ : المحور الأوّل في اختيار هؤلاء الكتّاب ، والمحور الثاني في النهي عن الاختيار

بـلا معايير ، أو عبر معايير خاطئة وغير سـليمة ، والمحور الثالث : المعايير المطلوبة في الاختيار ، و المحور الرابع : تقسيم العمل

وتحدّث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقطع الرابع والعشـرين عن التجار والصناعيين ، وذكرنا أنهم يمثلون الطبقة الرابعة من الطبقات الاجتماعيّة الخمس التي اسـتعرضها أمير المؤمنيـن عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وهم من يحرّكون عجلـة الاقتصاد بتجارتهم وصناعتهم وإنتاجهم ، ويوفرون احتياجات الناس الحياتيّة .

في هذا المقطع تحدثنا في المحور الأوّل عن تنمية التجارة والصناعة ، ورؤية الإسلام في هذا المجال ، وكانت هناك إضاءتان :

الإضـاءة الأولـى : الرؤية الإسـلاميّة للتجـارة والصناعة ، وكيف أن رجـال الأعمال والصناعيين يُنظر لهم على أنهم مسـالمون يبحثون عن السـلم والاسـتقرار ، ويجب أن يُدعموا لتحريك عجلة الاقتصاد وتوفير احتياجات الناس .

الإضـاءة الثانيـة : التخطيط لتنمية التجارة والصناعة ، نظرًا للموقع المتميز الذي تحتله هـذه الطبقـة ، هذا القطـاع التجاريّ والصناعيّ ، ودورهم الأساسـي فـي تحريك عجلة الاقتصاد ، وتوفير مصالح الناس ، فلا بُدَّ من توفير الأرضية لنجاح هذا العملّ .

ثـمَّ تطرق أميـر المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقطع الخامس والعشـرين للحديث عن الطبقة الخامسـة والأخيرة ، وهي طبقة المتعففين ، من الفقـراء وفاقدي المعيل ، وذكر ضرورة الاهتمـام بهـذه الطبقة المسـحوقة ، وفصّل فـي أصنافها ، ودعا إلى تأسـيس دائرة تُعنى بالرعاية بهؤلاء ، وفي زماننا أصبحت وزارة العمل والشؤون الاجتماعيّة ، هي المختصة برعاية هؤلاء ، كما دعا إلى الاهتمام بالأيتام والعجزة وفاقدي المعيل ، بتفصيل كثير في كل هذه العناوين ، وأكّد على تثبيت حقوق هذه الطبقة ، والعمل بهذه الحقوق وضمانها .

ثم قدّم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقطع السـادس والعشـرين تسـع توصيات للحكام والمتصدين ، من أجل تيسير إنجاز مهامهم

التوصية الأولى : ضرورة فسح المجال للاعتراض

التوصية الثانية : ثقافة الخدمة في المنظومة القياديّة والإداريّة

إذ يجـب علـى الحكومـة أن تكون حكومة خادمة ، والمسـؤول ، القيـاديّ ، المدير ، مهما كان مستواه ، علوًا وانخفاضًا ، ومهما اتسعت أو ضاقت مسؤوليته ، يجب أن يتّسم بأخلاقيّة الخدمة ، أن يكون خادمًا .

التوصية الثالثة : مباشرة القائد شخصيًا لبعض الأمور

التوصية الرابعة: في (إدارة الوقت وأهميته في النجاح القياديّ)، وتضمّن الحديث عن أهميّة إدارة الوقت لتحقيق النجاح إضاءتين:

الإضاءة الأولى: (أهميّة إدارة الوقت)

الإضاءة الثانية: (تقدير الأضرار الناتجة عن عدم التخطيط الزمنيّ المحدد)

التوصية الخامسة التي يقدمها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا العهد، هي (بناء الذات والتوجه إلى الله (سبحانه وتعالى))، فحينما يتحمل المتصدي والمسؤول مسؤولية عدد من الناس قد يقل أو يكثر، يتحتم عليه أن يتعامل بمسؤولية أكبر، ويرسخ العلاقة مع الله (سبحانه وتعالى)، وبناء نفسه بشكل سليم، وضبط مشاعره، والسيطرة على سلوكه، وهذه تساعده كثيرًا في حسن الأداء القياديّ، فالجانب الروحيّ، له أثر بالغ في تحقيق النجاح في المهمة القياديّة والإداريّة.

التوصية السادسة: (الاعتدال في العبادة)، وذكرنا فيها إضاءتين، الإضاءة الأولى: (مراعاة الناس في العبادة الجماعية)

والإضاءة الثانية: (سيرة المعصومين في العبادات الجماعية)، نلاحظ أن سيرة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، في العبادات الجماعيّة، والممارسات الدينية الجماعية، كصلاة الجماعة والجمعة وغيرهما، وفي الأدعية الجماعية، تتصف بالوسطية والاعتدال.

وتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، في التوصية السابعة عن (التواصل مع الناس)، وجعلنا الحديث عنها في قسمين، القسم الأول: (تواصل المسؤول مع من هو مسؤول عنهم)، إذ يؤكد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه التوصية وجوب تواصل المسؤول مع الناس مهما كانت مسؤوليته، فيجب أن يرى من هو مسؤول عنهم، ويختلط بهم، ويطلع على أحوالهم ومشكلاتهم، ويشرح لهم مواقفه، ويسمع وجهات نظرهم، واعتراضاتهم، وملاحظاتهم، وانتقاداتهم، وتوصياتهم، واقتراحاتهم.

التوصية الثامنة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في (خطورة الخواص في استغلال مواقع المسؤولية)، وتنقسم هذه التوصية إلى قسمين:

القسم الأول في (التحذير الشديد من استغلال الخواص والمقربين لمواقع المسؤولية)، وجاء القسم الثاني في (ضرورة الالتزام والمساواة بين القريب والبعيد في الحقوق).

وجاءت التوصية التاسعة في (ضرورة المصارحة والمكاشفة والشفافية مع الناس)، وتحدثنا عنها بإضاءتين، الأولى: (دور الوضوح والمكاشفة والمصارحة في المنظومة الإداريّة والقياديّة)، وقلنا إنّ المصارحة من أهم مفاتيح النجاح القياديّ، فعلى المتصدي

أن لا يكـون طلسـمًا ولغـزًا للناس ، فهـم لا يعرفونه ، ويجب أن يتواضـع لهم ، ويتكلّم معهم ، ويصارحهم ، ويوضّح لهم .

وتنـاول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقطع السـابع والعشـرين ثلاثة عناويـن ، العنوان الأول : (السلم والحرب وأحكامهما) ، وتحدثنا عنه بثلاث إضاءات :

الإضاءة الأولى : (السلم والحرب في الرؤية الإسلاميّة)

الإضاءة الثانية : (دور السلم في الحفاظ على المجتمع)

الإضاءة الثالثة : (ضرورة الحذر والحيطة من العدو حين يدعو إلى الصلح)

ثم ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عنوان جديد ليتحدث عن موضوع غاية في الأهمية والخطورة في حياة الإنسـان ، وهو (العهود والمواثيق) ، وجعلناه في ثلاثة أقسام ، تناول الأول (الالتـزام بالعهـود والمواثيـق) ، والثانـي (الخطـوط الحمر في موضـوع العهود والمواثيق) ، وتحدثنا في القسم الثالث عن (التدقيق في إبرام العقود والمعاهدات) .

ثم انتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع إلى عنوان جديد ، هو مسألة (استخدام القـوة والقتل وسـفك الدماء) ، وما هو المسـتنكر من ذلك؟ ، ومـا هو الجائز؟ ، وما هي حـدوده؟ ، ونظـرًا لطـول هذا المقطع ، فقد تم تقسـيمه إلى ثلاثة أقسـام ، ولكل قسـم إضاءات ورسائل خاصة به ، لكي نستوفيه بالنقاش والتداول والتدقيق .

تناول القسم الأول (التحذير من سفك الدماء في غير حلّها)

وتحدث القسم الثاني من هذا المقطع المهم عن (خطورة تدعيم الحكم بسفك الدماء)

وفـي القسـم الثالث تحدثنا عـن أمرين ، الأول : عدم القبول بـأي تبرير للقتل العمد ، والثاني : ضرورة تعويض أولياء الدم عند القتل الخطأ .

وجـاء المقطع الثامن والعشـرون من العهد الشـريف ليوضح آفـات الحكم والتصدي والمسؤولية ، وأولها (آفة العجب وحب المديح والإطراء)

والآفة الثانية هي (المنّ والتزيّد وإخلاف الوعد)

والآفة الثالثة هي (التسرع والتهاون في الأمور) .

ويأتي التسرع من حالات الإفراط والاندفاع الزائد ، ويأتي التهاون من حالات التفريط والإهمال ، وكذلك اللجاجة ؛ عندما يكون المسؤول والمتصدي لجوجًا في تحقيق أمور غير واقعية وغير موضوعية .

الآفـة الرابعة هي (عدم المسـاواة بين المسـؤول وعموم النـاس) ، أو بينه وبين من هو مسؤول عنهم ، مهما كانت هذه الدائرة ضيقة أو واسعة .

الآفة الخامسة هي (حالات الانفعال والغضب والسباب والشتيمة)

أما في المقطع الأخير، وهو الخاتمة التي بها ينتهي هذا العهد، فيشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مسألتين:

المسألة الأولى: (المرجع في سياسات المنظومة القياديّة والإداريّة)، وفيه إضاءتان، الأولى: (ضرورة الالتفات إلى مرتكز الحق والعدل)، فالالتفات إلى مرتكز الحق والعدل هو الأساس في المنهج القياديّ والإداريّ في رؤية أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا يمكن أن تنجح أي منظومة لا تعتمد وسائل الحق والعدل، ويلفت أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الانتباه إلى أن تحقيق هذا الهدف - إقامة الحق والعدل - يكون من خلال خمسة أمور:

الأمر الأول: يجب على الحاكم أن يتذكر ويضع نصب عينيه ما كانت عليه الحكومة العادلة التي سبقته في حكم البلاد، ويلاحظ كل ملامح وسمات العدل في الحكومات السابقة، ويتمسك بكل سلوك عادل، وموقف عادل، وخطوة عادلة، وإجراء عادل، وقانون عادل، وكل الإجراءات والسياسات الصحيحة التي سنّها السابقون.

الأمر الثاني: أي خطوات سليمة أُتخذت وساهمت في الدفاع عن الناس، وفي ترسيخ وتعميق حقوقهم، وإشاعة الإنصاف بينهم.

الأمر الثالث: الإجراءات والسياسات والمواقف والحلول والمعالجات التي اتخذها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في قضايا مشابهة.

الأمر الرابع: الأسس والمناهج التي وضعها القرآن الكريم في مواجهة المشكلات والعقبات التي يتعرض لها الناس.

الأمر الخامس: المنهج الذي يتّبعه والخطوات التي يسلكها علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في إدارة وقيادة الدولة.

المسألة الثانية التي يشير إليه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خاتمة عهده لمالك الأشتر، هو النجاح في القيادة والإدارة؛ كيف نحقق النجاح في المنظومة القياديّة؟

وفي حديثه عَلَيْهِ السَّلَامُ حول هذا الأمر أربع إضاءات:

الإضاءة الأولى: (المعيار في قياس حجم النجاح في المنظومة القياديّة)

والثانية: (مفتاح التوفيق في القيادة والإدارة)

والثالثة: (مداخل كسب رضا الله (سبحانه وتعالى) لتحقيق التوفيق والنجاح)، كيف نكسب رضا الله (سبحانه وتعالى)؟ يستعرض أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ خمسة معايير:

الأول: تحصيل العذر عند الله (عز وجل)، بأن يكون الله (سبحانه وتعالى) راضيًا عن هذا المسؤول، وعاذرًا له؛ لما قدّم، وتحصيل العذر عند الناس أيضًا؛ أي تشعر الناس بأن هذا المسؤول لم يقصّر، وأنجز ما عليه، وهم سعداء بمسؤوليته.

الثاني : أن يحظى الحكم بالسمعة الطيبة ، إذ يذكرهم الناس بخير .

الثالث : أن يترك بصمته في الإعمار ، والتوسعة ، والمشاريع ، والخدمات ، وتطوير أوضاع البلاد ماديًا وقيميًا ؛ التزام الناس ، أعرافها ، تقاليدها ، قيمها ، مبادئها ، أي سواء في جانب الإعمار ، أو في الجانب المعنوي ، فيجب أن يترك الحاكم بصماته ، أن يترك أثرًا إيجابيًا ؛ على مستوى تطور البلاد ، وزيادة وعي الناس ومعارفهم .

الرابع : إتمام النعمة في المنظومة القياديّة ، في بُعديها المادي والمعنوي ، وفي بُعديها الفردي والاجتماعيّ ، فقلة النعم تكشف عن سوء في الإدارة والتدبير ، وعدم وجود الرؤية الصحيحة في قيادة الأمور وتدبيرها .

الخامس : مضاعفة العزة والكرامة وحرمة الناس ، وترسيخ وتعزيز السيادة الوطنية ، العزة والكرامة للفرد ، والسيادة للمجموع .

والإضاءة الرابعة : (العواقب والمآلات) ، فكل من يتصدى لموقع قياديّ يجب أن ينظر إلى العاقبة ، إلى المآلات ، إلى هذا الخط ؛ إلى أيّ المآلات والعواقب يُفضي هذا السلوك القياديّ .

هذا هو منهج ورؤية أهل البيت عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ ، رؤية الإسلام في القيادة والإدارة ، وإذا ما اُعتمدت فسوف يستطيع الحاكم من خلالها أن يحقق الهدف ؛ بإشاعة العدل والإنصاف والالتزام بالحق في المنظومة القياديّة والإداريّة .

المقطع العشرون

ضمانات نزاهة القضاة

((ثُمّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ ، وافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلّتَهُ ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النّاس ، وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لاَ يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصّتك ، لِيَأْمَنَ بذلكَ اغْتِيَالَ الرّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ . فَانْظُرْ فِي ذلكَ نَظَرًا بلِيغًا ، فَإِنّ هذَا الدّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الأشْرَارِ ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى ، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا)) .

يتحدّث أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا المقطع - الذي سنبدأ أبحاثنا به في هذا الجزء - عن ضمانات نزاهة القضاة؛ كيف نضمن مؤسسة قضائيّة نزيهة، لا ينخرها الفساد، لكي تكون قادرة على الفصل بين الناس بعدالة وبشكلٍ سليم؟.

يُشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بشأن ضمانات نزاهة القضاة إلى ضرورة الاهتمام بالقضاة ورعايتهم، ليتيسر لهم أداء مهامهم، فيقول:

(ثُـمَّ أَكْثِـرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ): في حينها كان الوالي هو المسؤول عن القضاء أيضًا، فهو الذي يعيّن القاضي، وهو مسؤول عنه، ولكن في زماننا هذا أصبح الفصل بين السلطات الثلاث - التشريعيّة والتنفيذيّة والقضائيّة - هو القانون الذي تسير عليه الدول، فالسلطة القضائيّة غير السلطة التنفيذيّة، وهما غير السلطة التشريعيّة، فالحاكم - الذي هو المسؤول التنفيذيّ الأول في البلاد - غير مسؤول عن القضاء في زماننا، ولكن في مستويات أدنى يتولى مسؤول الشركة مثلًا الفصل في بعض النزاعات الإداريّة داخل الشركة، وذلك إما بشكل مباشر أو من خلال تعيين مسؤول لمتابعة المشاكل والخصومات الداخليّة، فمن الممكن على مستوى الدولة أن يوجد فرز، وبدلًا من أن تُرفع النزاعات والخصومات إلى رئيس الدولة، تُرفع إلى رئيس القضاء، فقاضي القضاة - الذي هو رئيس السلطة القضائيّة - يجب أن يراعي هذه التفاصيل في ما يخص القضاة، وأمّا ما يخص المستويات الأدنى، فالحاكم هو المسؤول، ويجب عليه أن يأخذ هذه الأمور بنظر الاعتبار.

(ثُـمَّ أَكْثِـرْ تَعَاهُـدَ قَضَائِهِ)، أي يجب عليك - أيها الحاكم - مراقبة القضاء بنفسك أو من خلال شخص متخصص أو لجنة متخصصة، عليك أن تراقب وتدقق في أداء القضاة، لتتأكد من أنهم يفون بواجباتهم بشكل سليم، ويجب أن تتأكد من وجود الأربع عشرة صفة التي ذُكرت في حق القضاة؛ لأن الإنسان أحيانًا يمتلك هذه الصفات، ويتم اختياره على أساسها، ولكن عندما يجلس ويعجبه المقعد، تتغير نفسيته وأخلاقه شيئًا فشيئًا، ولا يبقى على العهد الذي كان عليه، فلا يكفي في القاضي أن تكون فيه هذه الصفات يوم تعيينه وانتخابه، بل يجب أن تبقى هذه الأوصاف متوفرة فيه دائمًا حتى يتم اعتماده قاضيًا، لذلك يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمالك الأشتر: راقب القضاة ودقق في أدائهم، وتأكد من أن هذه الأربع عشرة صفة لم تزل مستمرة ومجسدة في سلوكهم اليوميّ.

(وافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ) : افسح له : افتح له في البذل ، أشبعه ، أعطه ما يكفيه ، لئلا يبقى في حيرة برزقه وهو قاض يحكم بين الناس ، إذا قال في قضية ما : هذا باطل ، ذهب مليار دينار من هذا لذاك ، وإذا قال : هذا حق ، أخذ مليار دينار من هذا وأعطاه لذاك ، وفي كل قضية يوجد مال ، وتوجد قضايا حساسة وخطيرة ، ومصالح للناس ، فإذا كان هذا القاضي فقيرًا فسوف تؤثر فيه الرُشى ، وتغير من قناعاته ومساراته ويدب الفساد ، ولذا عليك أن تشبع القاضي لئلا يكون محتاجًا ، فيجب أن يكون راتبه عاليًا ليستطيع أن يكون حياديًا ويتخذ القرار الصحيح .

(وافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ) : أي يُسحب منه أي عذر وأي حجة للانحياز وعدم قول الحق ، فلا تبقي له حجة وذريعة لعدم الحكم بالحق ، فيجب أن يكون في راحة من وضعه المعيشي لكي يتفرغ للقضاء بين الناس والحكم بينهم .

(وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ) : أي (تَقِلُّ) مع حالة الاستغناء ، عندما يكون مستكملا لاحتياجاته ، (حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ) ، لأنّ عنده ما يكفيه ، ففي حالة عدم الحاجة إلى الناس سيتصف قرار القاضي بالمصداقية ، ولا ينحاز لأحد الأطراف ، بل يبقى محايدًا وموضوعيًا في النظر إلى الأمور واتخاذ الأحكام القضائيّة السليمة .

(وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لاَ يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ) : أي يجب أن يكون القاضي أقرب الناس إليك ، بحيث يرى الوزراء والمسؤولون والذين حول الحاكم أن القاضي أقرب إليه منهم ، وأنّ من يريد أن يتقرب للحاكم يأتي إلى القاضي ، والمفروض في الدولة أن يوجد من يستطيع أن يطلب من القاضي أن يتوسط له عند الحاكم لقضاء حاجته ، فالعلاقة يجب أن تكون مباشرة ، والآخرون يتوسطون عند القاضي لكي يشفع لهم عند الحاكم ليسهل أمورهم ، وليس العكس ، وعندما يكون القاضي هو الأقرب فإنه سيشعر بالثقة ، لأن القضاء فيه طرفان متخاصمان دائمًا ، لأنهما لم يكونا ليأتيا للقاضي لو كانا متفاهمين ، وطالما أنهما قد أتيا فهناك خصومة ، وكل واحد منهما يرى الحق معه ، فإذا أعطى القاضي الحق لأحدهما خرج الآخر غير راض ، وإذا لم يعط الحق لأيّ منهما خرجا معًا غير راضيين ، ولن يعترف أيّ منهما أنّ خصمه على حق ، بل سيقول : ظلمني هذا القاضي ، وهو منحاز وغير عادل ، فكل شخص يرى الحق من زاويته ، وإذا لم يعطه القاضي ما يريد فسيقول إنه ظالم ، فمسؤولية القاضي وموقعه ودوره تخلق له الأعداء ، وكل متخاصم لا يحكم له القاضي يشهّر به ويكتب تقريرا إلى الحاكم ليشي به ، وبأية لحظة يمكن أن يُعفى القاضي ، ما يضطره إلى المجاملة والانحياز وحينئذ تذهب نزاهة القضاء ، أمّا إذا كان القاضي هو الأقرب للحاكم ، فسيكون مطمئنًا من هذا الجانب .

(لِيَأْمَـنَ بِذلَـكَ اغْتِيَـالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْـدَكَ) : الاغتيال مرّة يكون جسـديًّا ، ومرّة يكون معنويًّـا ، يعنـي : يجب عليكَ أيها الحاكم أن تقرب القاضـي إليك ، ليكون في مأمن ولا يجـرؤ أحـد علـى اغتياله عنـدك ، لأنه أقرب عندك مـن الآخرين ، ولا يجـرؤ أحد على أن يذكر القاضي بسـوء في محضرك ، وشـعور القاضي بأن لا أحد يسـتطيع الإسـاءة إلى سـمعته ، يجعلـه في أجواء تُمكنه من الحيـاد والموضوعيّة في اتخاذ القرار ، إذن في هذا المقطع ، يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ إلى قضيتين :

القضيـة الأولى : أهمية الإشـراف ، والرقابـة ، والمتابعة لأداء القضـاة ، والتأكد من الاستمرار في توفر المواصفات والمعايير والشروط المطلوبة للقضاء فيهم ، تلك الأربع عشـرة صفة التي تحدثنا عنها ، وهذا موضوع أساسي ، يتطلب أن يتدخل الحاكم ويطّلع على التفاصيل ، وهذا الحاكم - وهو في زماننا إذا تكلمنا عن قضاة أو مؤسسـة قضائيّة : رئيـس مجلـس القضاء - يجـب أن يكون هو المهتم بهذا الأمـر ، وإذا كان الحديث عن مسـتويات أدنى ، فالمسـؤول يجب أن يراقب هذا الأمر بدقة وبشكل واضح ؛ أي إشراف على المسـار القضائيّ ، وإشـراف على طبيعة الأحكام القضائيّة التي يصدرها القاضي ؛ مـا هـي هذه الأحكام؟ هل هو متشـدد ، أو متسـاهل؟ وهل هو موضوعـي ومحايد ، أو هـو منحـاز؟ ويكفي فـي تقييم ذلك أن نرى فهرسـة الأمور ، فإن كانـت كلها قد أخذت الحد الأدنى ، ورأينا القاضي يفتح الأبواب ويسـهل الأمور ، فحينئذ لا تبقى هيبة للقضاء والقانون ، وإن كان القاضي متشددًا وموضوعيًّا ويدرس كل حالة بما يكتنفها من ظروف ويعطيها استحقاقها ، فهو يحرص على هيبة القضاء ، ولهذا نرى في القانون أنّ حكم تهمة معينة من ثلاث سنوات إلى سبع سنوات ، والفرق بين الحكم الأدنى والحكم الأعلى أربع سـنوات ، ومعنى ذلك أنّ الحكم يتفاوت بحسـب الظروف والأجواء ، فيمكن أن يكون الحـد الأعلى وهو سـبع سـنوات ، أو يكـون الحد الأدنى وهو ثلاث سـنوات ، أو يكون بينهما ، ولهذا يجب أن يُدقق سلوك القاضي وطريقة تعامله مع المتخاصمين ، ويجب أن تتم مراقبة جميع تصرفاته القضائيّة بشكل صارم ومستمر ، كمدى التزامه بآداب وأخلاقيّة العمليّة القضائيّة ، وكيفية مزاولة مهامه .

رُوي في (مستدرك الوسائل) أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ ولّى أبا الأسود الدؤلي القضاء ، ثـم عزلـه بعد حين ، فقال له : (لم عزلتني؟ وما خنتُ ولا جنيت) ، الله يعلم أني ما خنت فـي أي خطـوة قمت بها أو في أي حكم أصدرته ، وما ارتكبت جريمة ، وكنت موضوعيًّا تمامًـا فـي عمليّة إصدار الأحكام القضائيّة التي كُلفت بها في جميع الملفات ، فأنا أعرف نفسـي أني لسـت خائنًا ولا مجرمًا ، فلماذا عزلتني يا أمير المؤمنين؟ فقال عَلَيْهِ‌السَّلَامُ : (إني

رأيت كلامك يعلو كلام خصمك)[1]، صوتك يعلو على المتخاصمين، وهذا المتخاصم محتاج لك، وكان صوتك مرتفعًا على صوته، ولم تراع وضعه، وصحيح أنك كنت عادلًا، ولكن هذا لا يكفي وحده، فأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يشكك في عدالة أبي الأسود، ولكنه أشكل على أدائه، إذ كان يجب عليه أن يخفض الجناح للخصوم؛ لأنّ هذا من آداب القضاء، ولا يجوز أن يستعلي و يتكبر عليهم، ولا يرفع صوته عليهم، فهذا إنسان لديه مشكلة وخصومة، واضطر إلى أن يأتي إليك، وهذا لا يمنع من أن تتعامل معه بطريقة سليمة وهادئة، وهكذا كانت مراعاة هذه الآداب سببًا لمثل هذه الخطوات عند أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفي كتاب الوسائل في رواية طويلة يوضح فيها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لشريح القاضي معايير وحدود وآداب القضاء، جاء فيها - موضع الشاهد -: (وإيّاك أن تُنفذ قضية في قصاصٍ أو حدٍ من حدود الله أو حق من حقوق المسلمين حتى تعرض ذلك عليّ)[2]، يا شريحٍ، عليك مراعاة هذه الآداب والسياقات والقواعد العمليّة، ثم اذهب واحكم بين الناس، فعندما تصدر أحكامك القضائيّة اعرضها عليّ أولًا، لأتأكد من سلامتها وبعد ذلك نفّذها، وفي زماننا تكون المراجعة في أحكام الإعدام فقط، إذ يجب أن يذهب حكم الإعدام إلى الرئيس ليصادق عليه، لكي يراجع ويتأكد من عدم وجود مشكلة أو نقص في الوثائق والأدلة وإلى آخره، فالملف يُرسل إلى الرئيس في كثير من الدول، وهذا السياق معتمد في حكم الإعدام فقط، أما ما كان دون حكم الإعدام فلا يراجعه الرئيس، وقد كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مع كل مشاغله واهتماماته يراجع جميع الأحكام التي يصدرها القضاة، ولكن قد تكون هذه المراجعة ليست لكل القضاة بل لشريح القاضي فقط، الذي أبقاه لأسباب معينة، ولم تكن عنده ثقة كافية به، وتوجهات شريح القاضي معروفة، فقد يكون هذا هو السبب؛ هناك شك بصدقيته، وتوجد مصلحة تتطلب إبقاءه في الموقع، لذلك قال له: اعرض عليّ كل الأحكام، في قصاص، في حد من حدود الله، في حق من حقوق المسلمين، لأراها وأتأكد من صحة الحكم لكي تنفذ.

(ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ)، لا تجعل المتابعة وإعادة التقييم مرة واحدة كل ستة أشهر، أو كل سنة، بل (أكثر)، فهذه العملية تحتاج إلى استمرار، إلى متابعة دائمة، لكي يشعر القاضي بأن عين الحاكم عليه في كل ما يقوم به، فيدفعه ذلك إلى التدقيق في قضائه

---

١. مستدرك الوسائل ١٧: ٣٥٩ ح٦.

٢. وسائل الشيعة ٢٧: ٢١٢ ح١.

وفـي قراراته، فلا يظلم أحدًا، لأن العدل أسـاس الملك، فـإذا كانت الأحكام القضائيّة غير عادلة اهتز الحكم، واهتزت شرعيته، وقد تضيع الآثار الوضعية حتى لو كان الحاكم شخصًا جيدًا، ومنظومة الحكم جيدة، ونظام الحكم جيدًا، فنظام الحكم الذي يُظلم فيه الناس عند التخاصم والترافع، نظام معرّض إلى الانهيار، وهذه سـنّة إلهيّة، لذلك على الحاكم أن يدقق في القضاء، فإنّ جزءًا من مشاكلنا ومصائبنا ووضعنا في زماننا وفي نظمنا – ومنهـا فـي بلدنا – هو أننـا لا نعطي الأهمية الكافية للقضاء وللتدقيق في رفع التظلمات بشـكل صحيح، وفي صدقية القرارات القضائيّة وعدم تأثرها بأي ضغوط أو رشـاوى أو مـا إلـى ذلك، لماذا؟ لأن القضاء بيـده أرواح الناس وأموالهـم وأعراضهم وممتلكاتهم وسمعتهم، وستكون النتائج كارثية عند الإخلال بعمل القضاء، لذلك نحتاج إلى تدقيق الأحكام القضائيّة، لأنّ القضاء على تماس مع سمعة الناس، وأعراضهم، وممتلكاتهم، ولذا يجب أن يكون النظر في كل قضية في غاية الدقة.

القضية الثانية: الرعاية الماديّة والمعنويّة للقضاة، وقد أشـارت هذه العبارة المباركة إلى ثلاث خطوات أساسيّة:

الخطوة الأولى: (وافْسَـحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ): أعطه من العطاء ما لا يبقي له حجة، ليستغني عمّا في أيدي الناس، ولا تكون عينه على أموالهم.

الخطـوة الثانيـة: (وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ): يجب أيضًا أن تعطيه عطية لا يكون معها محتاجًا لأحد، وعندها سـوف لا تكون عينه على هدية، وهي في الحقيقة رشـوة تأتـي بألـف طريقة، والحاجـة تعني الطلب، فالإنسـان عندما يحتـاج يطلب، والطلب يعني الانحياز وعدم الحياد، فمن الذي يدفع أكثر سـينحاز له، وعندها تذهب الشـفافية والمصداقية من الحكم القضائيّ.

الخطـوة الثالثـة: البعد المعنوي، (وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْـكَ مَا لاَ يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ): يجب أن يكون القاضي في مأمن، فلا أحد يسـتطيع أن يسـيء إليه أمام الحاكم ويخاطر بموقعه، وعندما يكون هو الأقرب الى الحاكم، فهذا سيعالج المسألة إلى حد كبير، فلا يوجد شخص من موقع سياسيّ أو نفوذ حكوميّ، يستطيع أن ينال من القاضي أمام الحكام أو يقلل من قيمته إذا كان موضوعيًا، والحاكم هو من يدقق فقط، ولا يسمع كلام أي من المتخاصمين في حق هذا القاضي.

هذه هي الرؤية الإسلاميّة في ما يتعلق بالتعامل والتعاطي مع القاضي والقضاء.

استغلال الدين للمآرب الشخصيّة

ثم ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى إلفات النظر إلى قضية في غاية الخطورة والأهميّة، وهي استغلال الدين للمآرب الشخصية، في إشارة للواقع المزري الذي كانت تعيشه مصر، قبل إيفاد مالك الأشتر، وحين كان يتولى قيادة هذه المنطقة الحيوية والحساسة من العالم الإسلاميّ، ولاة فاسدون، كعمرو بن العاص وآخرين، ممن اعتاشوا على الدين واستغلوه لمآرب خاصة، ولم يوظفوا إمكانياتهم وقدراتهم لخدمة الدين، فهنا يقف أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عند هذه الظاهرة السلبية والخطيرة، إذ يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

(فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَرًا بلِيغًا): أي انظر نظرة عميقة ودقيقة وواعية لما سأقول، فهذه قضية حساسة ومهمة وخطيرة جدًا.

(فَإِنَّ هذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الأَشْرَارِ): يصف الدين بأنه كان أسيرًا، ومعلوم أن الأسير سجين لا حول له ولا قوة، يتصرف به سجّانه كيف شاء، وخاصة إذا كان هذا السجّان إنسانًا شريرًا، وهو تشبيه رائع لحال الدين قبل تولّي علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للخلافة.

وإنما يكون الدين أسيرًا حينما يستغله من أسروه ويجعلونه سُلّمًا للوصول إلى طموحاتهم الشخصية في الزعامة والقيادة، وذلك باستغلال مشاعر وعواطف الناس الدينية لمآربهم الخاصة، إمعانًا في الإضلال وطمس الحقيقة وصرف المسلمين عمّن نصّبه الله (سبحانه وتعالى) ورسوله لتولّي الأمر.

وتكون مصيبة الدين أعظم حينما يكون أسيرًا بأيدي الأشرار، وربما كان الخطب أهون لو كان أسيرًا بيد غير الأشرار، لأنّ الأشرار سيعمدون إلى إنزال أقصى الأضرار بالدين، عقيدة وشريعة، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

ويصف أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من يستغل الدين بالأشرار، لأنهم يستغلون الدين لمآربهم الدنيئة، وتارة يكون هذا الاستغلال على المستوى الشخصيّ، وتارة يكون على مستوى أكبر، وهو استغلال الدين من قبل جماعات وأحزاب وحكومات لغاياتها الفئوية.

ويستغل الشخص الدين لمآربه الشخصيّة، عندما تكون بيئته التي يعيش فيها بيئة إيمانيّة، فيظهر التدين والالتزام لإخفاء سلوكياته المنحرفة، أو للحصول على مكاسب معينة من خلال رفعه شعارات دينيّة، ليلتف بعض الناس حوله، ويتحرك بهذا القطيع في اتجاه بوصلة مصالحه الشخصيّة.

وتارة قد تتظاهر جماعات وأحزاب بمظاهر دينيّة من أجل الاستحواذ على السلطة والبقاء فيها، وهذا ما كان يعنيه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في ذلك الحين، وكما نعرف فإنه

في الصدر الأوّل من الإسلام كان كثير من الولاة من حيث الواقع غير ملتزمين، فقد كانوا يحتسون الخمور، ويرتكبون كثيرًا من المحرمات، وينساقون مع الهوى والشهوات، ولكنهم كانوا يحافظون على الظواهر الدينية، لأن الجيل الأوّل في الصدر الأوّل من الإسلام، أمة مسلمة ومتدينة، لا تقبل أن تجد الحاكم غير متدين، لذلك حتى أولئك على كل فسادهم كانوا يتظاهرون بالتدين، وقد نقلت لنا كتب التأريخ أن الوليد بن عقبة والي الكوفة من قبل عثمان قد صلى بأهل الكوفة صلاة الفجر وهو سكران - أجلكم الله - أربع ركعات ثم التفت إليهم وقال: ألا أزيدكم[٣]؟!.

إذن كان هؤلاء الولاة يأتون إلى المسجد وهم سكارى ويؤمّون المصلين، ويقيمون الصلاة، ويحافظون على هذه الظواهر الدينية، وقد أراد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا أن يؤشر إلى هذه الحالة الكارثية، التي كان أهل مصر يعيشونها حين كان الوالي عليهم غير ملتزم، ولكن يتظاهر بمظهر الدين ويستغل مشاعر الناس الدينيّة لمآربه الخاصة، وهذه قاعدة تنطبق على كل زمان ومكان، ولا يستثنى منها أحد، وكان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ناظرًا إلى معالجة تلك الواقعة الخارجيّة، فهنا كل من يريد أن يكسب وجاهة ونفوذًا وتأثيرًا باسم الدين، ويستغل المشاعر الدينية للناس المؤمنين ليصل إلى مآربه الخاصة، ليست عنده قرابة مع الدين، ولا يعرف الله، وليس عنده ضمير، ولكن يتظاهر بمظاهر إيمانيّة ودينيّة لكي يغري الناس، ويضحك عليهم، ويجرهم إلى حيث يريد.

ويصبح الدين أسيرًا بيد الأشرار عندما:

أولًا: (يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى): حين يغلب هواه في النظر إلى الدين، وفي تفسير وتأويل الدين، يأخذ ما يناسبه ويترك ما لا يناسبه، فيأخذ الأمور التي تفيده بالدين ويتكلم بها، فما دمتم متدينين ينبغي أن تسيروا خلفي، ويترك الأمور التي لا تناسبه ويهملها ويغفلها، لكي لا يعاب عليه ولا يضغط عليه بهذه الأمور، فيأخذ بعض الدين ويترك البعض الآخر بحسب هواه، والأساس والبوصلة هو هواه؛ ملذاته وطموحاته ورغباته الشخصيّة، ثم يأتي ليروض الدين، فينتقي منه ويجتزئ المفاهيم والنصوص الدينيّة التي تناسبه، ويغفل الجانب الآخر، فهذا ليس متدينا، ولا مهتما بالدين، بل مهتم بنفسه، ومصالحه، ويسير باتجاه ما تمليه عليه هذه المصالح.

---

٣. الاستيعاب ٤: ١٥٥٤.

ثانيًا : (وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا) : مثل هذا يريد أن يصل إلى الدنيا بالدين ، يطلب الدنيا بالدين ؛ بالمظاهر الدينيّة وبمفاهيم دينية معينة ، فيستدرج مشاعر المتدينين لكي يحصل على دنياه ، وإلاّ فهو ليست له علاقة بالدين والقيم الدينيّة من قريب أو بعيد .

وهذا النص يشير إلى حقيقتين :

الحقيقة الأولى : وجود شخصيات مزدوجة ، وتتحول أحيانًا إلى حالة جماعيّة ؛ إلى أحزاب وتيارات وحكومات ، فيتظاهر هؤلاء الأفراد بالقداسة والتدين في بيئة متدينة ، لكي يراهم الناس بهذا النحو ، فيظنونهم متدينين ، فترى أحدهم يبالغ أمام الناس في صلاته ، ولكنه عندما يصليها في البيت وحده يصليها بسرعة ، أما في المسجد فتراه يتكلف في قراءته ويطيل صلاته ، ويحرص على الإتيان بالمستحبات والأوراد ، لكي يقول الناس عندما يرونه : إن فلانًا ما شاء الله متدين جدًا ، ولكنه عندما يكون وحده في البيت يصلي كنقر الغراب ، ويقرأ القرآن على عجل ، هذه هي الازدواجية عند البعض ؛ إذ يكون أمام الناس بنحو ، وبنحو آخر في حياته الشخصيّة الخاصة بعيدًا عن الأنظار ، مثل هؤلاء الناس يستغلون الدين ، يمتطون الدين لمآربهم وقضاياهم الشخصيّة ، وهذا أمر خطير جدًا ، ولذلك يقول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ : (فَانْظُرْ فِي ذلِكَ نَظَرًا بِلِيغًا) ، دققوا كثيرًا في هذه القضية ، فليس كل من يدّعي التدين هو متدين ، وليس كل من يظهر بمظهر التدين والالتزام هو بالفعل متدين ، وليس كل من يظهر نفسه حريصًا على الدين والمتدينين والقيم الدينية معناه أنه بالفعل كذلك ، فدققوا في سلوك الناس ، في حياتهم ، في طريقتهم ، في تعاطيهم ، لكي تميزوا بين من هو صادق في هذا الانتماء والادّعاء ، وبين من هو كاذب يستغل الدين لمآرب شخصيّة ، وهذا أمر خطير وحساس للغاية ، ومن يقع فيه فهو من الأشرار ، ويجعل الدين أسيرًا لنزواته وهواه وطموحاته الخاصة . . إلى غير ذلك .

يقول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ عن هؤلاء ، ممن يستغلون الدين لمآربهم ، في رسالة له إلى معاوية : (فعدوت) يعني وثبت (على طلب الدنيا بتأويل القرآن)[٤] ، إنك تبحث عن دنياك بتأويل الآيات القرآنية بما يناسبك ، ونعلم جيدًا أن كمًّا هائلًا من الأحاديث قد وُضعت في عهد معاوية في ضرورة ووجوب طاعة الحاكم ، برًا كان أم فاجرًا ، مؤمنًا كان أم فاسقًا ، وتعلمون أيضًا أنّ بعض الصحابة وكثيرا من التابعين كانوا أحياء في عهد معاوية ، وكان معاوية يجزل العطاء لكل من يقول إنه سمع حديثًا عن رسول الله

---

٤ . نهج البلاغة ٣ : ١١٢ كتاب ٥٥ .

صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِۦوَسَلَّمَ في هذا الموضوع، وهناك قصص نقلها التأريخ، أنّ من كان يقول إنّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِۦوَسَلَّمَ لم يقل مثل هذا الحديث ولم نسمع بذلك، يعطونه كيسًا من الفضة أو الذهب ليقول نعم قد قال ذلك، أو قد سمعت بعضه ليُعطى كيسًا آخر.

روى ابن أبي الحديد المعتزلي عن شيخه أبي جعفر الإسكافي قال: (وقد رُوي أنّ معاوية بن أبي سفيان بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أنّ هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾، وأنّ الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾، فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم، فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف درهم، فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف درهم، فقبل)[٥].

وهكذا وُضعت الكثير من الروايات من أجل أن تجعل الأمة مطيعة للحاكم كائنًا من كان؛ برًا أم فاجرًا، مؤمنًا أم فاسقًا، ومهما كان هذا الحاكم فهو خليفة الله على الأرض وتجب طاعته، فمثلًا روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِۦوَسَلَّمَ قال: (من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه، فإنه ليس أحد من النّاس خرج من السلطان شبرًا فمات عليه إلاّ مات ميتة جاهلية)[٦]، مع أنه مخالف لصريح القرآن الكريم الذي أمرنا أن نعرض عليه الحديث لنعرف صدقه من كذبه[٧]؛ فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾[٨].

وسار الأمر على هذا المنوال ألفا وأربعمائة سنة، وما زالت مدارس إسلاميّة مهمة تعتمد إلى اليوم على هذه الروايات وهذه النصوص، وأفتى الكثير من الفقهاء بوجوب طاعة الحاكم وحرمة الخروج عليه بمجرد استيلائه على السلطة بأي أسلوب كان، ومهما فعل من ذبح وقتل وسجن ونهب للأموال، وإلى أين قاد الأمة، وأدخلها في الحروب، فمهما فعل الحاكم تجب طاعته.

---

٥. شرح ابن أبي الحديد ٤: ٧٣.

٦. صحيح البخاري ٧: ٨٧، كتاب الفتن، باب قول النبي: سترون بعدي أموراً تنكرونها. صحيح مسلم ٦: ٢١، كتاب الإمارة، باب من فرّق حكم المسلمين وهو مجتمع.

٧. انظر: كنز العمال ١: ٩٦، ح٩٩٢ - ٩٩٤. بحار الأنوار ٢: ٢٢٥ ح٢.

٨. سورة هود: الآية ١١٣.

وقـد نقـل ابن حجر الفتوى بحرمة الخروج على السـلطان الجائـر ووجوب طاعته، قال: (وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأنّ طاعته خيـر من الخروج عليـه، لما في ذلك من حقن الدماء وتسـكين الدهماء، وحجتهم هذا الخبر)[٩].

من أين أتت هذه النصوص؟ ومن أين أتت هذه الثقافة بالرغم من مخالفتها الصريحة للقرآن الكريم؟ إنها ثقافة دينية تسـتند إلى الأحاديث الموضوعة على لسـان رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فقـد اسـتغلوا الدين ووضعـوا الأحاديث وأوّلوا الآيات وفسـروها بما يحلو لهم وما يناسبهم.

لقـد كان لآية الله العظمى السـيد البروجردي (قدس سـره) - وهو مـن كبار مراجعنا العظـام - مقولة عجيبة، إذ يقول: إذا اغتابني إنسـان عادي فإنـي أبرئه الذمة، ولكن إذا اغتابنـي طالـب علم أو رجل دين فلا أبرئه الذمـة، فقال له من كان حاضرًا من الطلاب: سـيدنا، الأقربون أولى بالمعروف، أنت مرجع ونحن طلابك، وإذا خرجت من أفواهنا كلمة لا سـمح الله فنحن أولى ببراءة الذمة من غيرنا، فقال لهم: كلا، فالإنسـان البسيط عندما يغتابني يقول هذا المرجع ويغتابني، ولا يسـقطني، بل يسـقط نفسه عندما يغتاب المرجع، ولكن طالب العلم قبل أن يغتابني ولئلا تقول له الناس كيف تغتاب وأنت طالب علم؟ يجعلني أولًا موردًا للاسـتغابة، فيفسقني، والفاسق يجوز اغتيابه، ثم يغتابني بعد ذلك، فلذلك غيبة طالب العلم أشد وأسوأ من الغيبة التي يقوم بها الإنسان العادي.

وفي كلامه هذا إشـارة إلى أن الإنسـان الذي على إلمام بالمباني الشـرعيّة والفقهيّة، يعرف كيف يروّض ويسـخر الدين والنص الدينيّ لمآربه الخاصة، وهناك أناس متدينون يرتكبـون كل موبقة، ويوفرون لها الغطاء الشـرعيّ بطريقة أو بأخـرى، ليظهر للناس أنّ عملـه هذا شـرعيّ، وعندما يُقال له: كيف تكذب وأنـت تعلم أنّ الكذب حرام؟ وكيف تغتـاب وأنـت تعلـم أنّ الغيبة حرام؟ وكيف تتحدث بسـوء عن الآخريـن وأنت تعلم أنّه حـرام؟ وكيـف تغير الحقيقة؟ وكيف وكيف..؟ يأتيك الجـواب: بينما لا يعرف الناس العاديـون ذلـك، ولكن الطلبة يعرفون هـذه التخريجات الفقهية كما يسـمونها ويفعلون كل مـا يريـدون، وذلك بالتحايل والالتفاف غير السـليم وغيـر الصحيح على النصوص الدينيّـة واسـتغلال الحالة الدينيّة، لذلك يقول أميـر المؤمنين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لمعاوية: (عدوت

٩. فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١٣: ٥.

على طلب الدنيا بتأويل القرآن)، يا معاوية، إنك تبحث عن دنياك، فأتيت بالآية القرآنيّة وأولتها وفسرتها بما يناسبك ويحلو لك.

وبهذه الرؤية الاستغلالية استغل هؤلاء الدين، وهم يتمسكون بالقشور ويتركون الأصل واللب، مع أنّ الدين فيه فلسفة، وفيه روح، وفيه حقيقة، وفيه جوهر، وهؤلاء يتركون الجوهر ويتمسكون بالقشور، ببعض الظواهر؛ لأن الناس لا ترى الحقيقة والجوهر، بل ترى القشور، فيهتم أحدهم بالخاتم والمسبحة واللحية أكثر من اهتمامه بجوهر الدين والمفاهيم الدينية الحقيقية، ولذا تجده أبعد الناس عن حقيقة الدين، ولكنه متمسك بهذه الظواهر، وهناك من يضع التربة على النار لكي يحدث أثرًا في جبهته، ليوهم الناس أنّ هذه العلامة هي من أثر السجود، ومثل هذا يتفنن كثيرًا في الظواهر والقشور والشكليات، وحيثما كان موكب أو عزاء أو إطعام تجده حاضرًا، ولا يأكل بالضرورة، بل ليخدم الحاضرين، وهو لا يصلي، فيأخذ القشور لأنها هي التي تنفعه بإقناع الناس بأنه متدين، ويترك الجوهر وحقيقة الدين، هذا شأن وحقيقة هؤلاء الناس نستجير بالله من ذلك.

لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تشبيه لطيف لهؤلاء الناس، إذ يقول إنّه مثل من يلبس (الفرو) بالمقلوب، إذ يلبس الإنسان الفرو ليدفئ نفسه، ولكن شكله من الداخل مقزز، ولذلك يضعون له جلدا فيكون مظهره أنيقا، ولكن الذي يلبسه مقلوبا لا يحصل على الدفء، ولا على المظهر الأنيق، فيقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في نهج البلاغة: (ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوبًا)[١٠]، فهؤلاء قد أخذوا بعض الشكليات بطريقة مشوهة ومعوجة ومنحرفة ومنقوصة بحسب هذا أو ذاك، فالظاهر ظاهر إيماني، والواقع بعيد كل البعد عما هو تدين والتزام وإيمان.

الحقيقة الثانية: خطورة استغلال الدين للمطامع والأغراض الشخصية، للهوى، للدنيا، للسطوة، للنفوذ، للتأثير، لأخذ الوجاهات الاجتماعيّة، هذا أمر خطير وحساس جدًا، وللشهيد المطهري مقولة معروفة في هذا المقام، إذ يقول: «البعض منا يدافع عن الإسلام الذي يكون هو فيه حجة الإسلام»، يريد إسلامًا ويدافع عن إسلام تأتي فيه الناس لتقبّل يده، أمّا إذا صاح بالناس: التزموا بالدين وكونوا متدينين، وتركوه وقلدوا غيره، فهذا الدين لا يريده ولا يدعو له، بل هو يتحدث عن إسلام تأتي فيه الناس لتقبّل يده، ومثل هذا لا يفكر إلا بنفسه، ويستغل الدين لمآربه الخاصة، يقول الله تبارك وتعالى

---

١٠. نهج البلاغة ١: ٢٠٩ الخطبة ١٠٨.

في سـورة البقرة: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[١١]، يختار من الدين ما يعجبه ويترك ما سواه، كلا، ليس الأمر كذلك، فعلينا أن لا نعرض الدين على سلوكنا، بل يجب أن نعرض سـلوكنا على الدين، فالدين هو المسطرة، وينبغي لنا أن نزن أنفسنا قياسًا إلى القيم والمفاهيم الدينيّة، لا أن نكون نحن المسطرة، ونأتي الى الدين ونلوي عنقه لكي نروضه لما نريد وما نشتهي وما نتمنى، والمتدين الحقيقي هو من تفوح منه رائحة التدين، في فكره وسلوكه وكلماته ومعاملاته، وفي كل شيء، ويكون الدين حاضرًا في كل تفاصيل حياته، أمّا من كان الدين عنده مجموعة قيم ومفاهيم يتحدث بها، ولكن عمله شيء آخر، فهذا ليس متدينًا، نسأل الله ((سبحانه وتعالى)) أن يبعد عنا مثل هذه الانحرافات، وهذا الاستغلال للدين الذي يحذّر منه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١١. سورة البقرة: الآية ٨٥.

المقطع الحادي والعشرون

آليات ومعايير اختيار كبار مسؤولي الدولة

((ثُـمّ انْظُـرْ فِـي أُمُـورِ عُمّالِـكَ ، فَاسْـتَعْمِلْهُمُ اخْتِبَـارًا وَلاَ تُوَلِّهِـمْ مُحَابَـاةً وأَثَـرَةً ، فَإِنّهُمَـا جِمَـاعٌ مِـنْ شُـعَبِ الْجَـوْرِ وَالْخِيَانَـةِ وَتـوَخّ مِنْهُـمْ أَهْـلَ التّجْرِبَـةِ وَالْحَيَـاءِ ، مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَـاتِ الصّالِحَـةِ ، والقَدَمِ فِـي الإِسْـلاَمِ الْمُتَقَدّمَـةِ ، فَإِنّهُـمْ أَكْـرَمُ أَخْلاَقًـا ، وَأَصَـحُ أَعْرَاضًـا ، وَأَقَـلُّ فِـي الْمَطَامِـعِ إِشْـرَافًا ، وَأَبْلَـغُ فِـي عَوَاقِـبِ الأمُـورِ نَظَـرًا . ثُـمّ أَسْـبِغْ عَلَيْهِـمُ الأَرْزَاقَ فَـإِنّ ذلِـكَ قُـوّةٌ لَهُـمْ عَلَـى اسْـتِصْلاَحِ أَنْفُسِـهِمْ ، وَغِنـىً لَهُـمْ عَـنْ تَنَـاوُلِ مَـا تَحْتَ أَيْدِيهِـمْ ، وَحُجّـةٌ عَلَيْهِـمْ إِنْ خَالَفُـوا أَمْـرَكَ أَوْ ثَلَمُـوا أَمَانَتَـكَ . ثُـمّ تَفَقّـدْ أَعْمَالَهُـمْ ، وَابْعَـثِ الْعُيُـونَ مِـنْ أَهْلِ الصِّـدْقِ وَالوَفَـاءِ عَلَيْهِـمْ ، فَـإِنّ تَعَاهُـدَكَ فِـي السّـرّ لأُمُورِهِـمْ حَـدْوَةٌ لَهُـمْ عَلَـى اسْـتِعْمَالِ الأَمَانَـةِ ، وَالرِّفْـقِ بِالرّعِيّـةِ . وَتَحَـفّـظْ مِـنَ الأَعْـوَانِ ، فَـإِنْ أَحَـدٌ مِنْهُـمْ بَسَـطَ يَـدَهُ إِلَـى خِيَانَـةٍ اجْتَمَعَـتْ بِهَـا عَلَيْـهِ عِنْـدَكَ أَخْبَـارُ عُيُونِـكَ ، اكْتَفَيْـتَ بِذلِـكَ شَـاهِدًا ، فَبَسَـطْتَ عَلَيْـهِ الْعُقُوبَـةَ فِـي بَدَنِـهِ ، وَأَخَذْتَـهُ بِمَـا أَصَـابَ مِـنْ عَمَلِـهِ ، ثُـمّ نَصَبْتَـهُ بِمَقَـامِ الْمَذَلّـةِ ، وَ وَسَـمْتَهُ بِالْخِيَانَـةِ ، وَقَلّدْتَـهُ عَـارَ التُّهَمَـةِ)) .

ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى المقطع الحادي والعشرين، وكما قلنا في ما مرّ في عنوان الطبقات الاجتماعيّة، فإنّ طبقة الموظفين تتكون من: أولًا: القضاة، وثانيًا: العمال، أي كبار المسؤولين، وثالثًا: الكُتّاب، كما شرحنا ذلك من قبل، وبعد أن انتهى من وضع معايير القضاة، ينتقل إلى معايير اختيار العمال، وهم كبار مسؤولي الدولة، وطبعًا - وكما ذكرنا - فإنّ كبار مسؤولي الدولة يمكن أن يكونوا ولاة، أي محافظين، أو حكام مقاطعات، وتسمى الآن في بعض النظم الإداريّة ولايات، ونحو ذلك، ويمكن أن ننزل هذا العنوان ليشمل المدراء العامين والدرجات الخاصة، وهي معايير لكل من يتصدى ويتحمل مسؤولية، سواء كان مديرًا أو وكيلًا أو وزيرًا أو رئيس هيأة أو ما شابه ذلك، فالبحث في المعايير التي يجب توافرها في كبار المسؤولين وأصحاب الدرجات الخاصة والمواقع الحساسة، ومن يتولى الملفات المهمة.

يقع البحث في هذا المقطع في أربعة محاور:

المحور الأوّل

آلية اختيار كبار المسؤولين

قبل أن يتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن معايير اختيار كبار المسؤولين، يتحدث عن آلية اختيارهم، ثم ينتقل إلى المعايير، فيقول إن الآلية في الاختيار يجب أن تكون الاختبار، فمن أجل اختيار الشخص المناسب يجب أن نختبره أولًا، فالاختبار قبل الاختيار.

(ثُمّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمّالِكَ): هؤلاء الأشخاص الذين نريد تعيينهم في مسؤوليات مهمة، ونجعلهم في مواقع حساسة، ونتتخبهم وزراء ووكلاء ومدراء عامين ورؤساء هيئات ومسؤولين عن ملفات مهمة وحساسة، هؤلاء حين نريد أن نختارهم: (فَاسْتَعْمِلْهُمُ اخْتِبَارًا)، اخترهم بالاختبار، بالامتحان، دقق في أوضاعهم قبل أن تعيّنهم في مكان ما.

(وَلاَ تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وأَثَرَةً) : أي مجاملة ، أي يجب أن لا يكون الأساس في الاختيار هو المحاباة ؛ هذا من عشيرتي ، وهذا من حزبي ، وهذا من جماعتي ، وهذا وصّى به فلان ، أو جاءت تزكية بحقه من الجهة الفلانية ، فهذه كلها غير كافية في الاختيار ، وهذه محاباة وانحياز عاطفي ، ولا يصح أن تكون معيارًا في الانتخاب ، بل يجب أن تكون الآلية هي الاختبار الحقيقي الذي تتكافأ فيه الفرص بين من يعرض عليهم المنصب ، فلا نختار مسؤولًا على أساس المحاباة والانحياز القبليّ أو السياسيّ أو الحزبيّ أو أي شيء آخر .

(وأَثَرَةً) : ولا ينبغي أيضًا أن نختارهم على أساس الاستبداد في الرأي ، والاعتداد برأينا الشخصيّ ومزاجنا وقناعاتنا الخاصة ، بعيدًا عن المشورة مع من يمكن التشاور معهم لاختيار الأفضل ، مهما كانت الرؤية والانطباع والقناعات لدينا جيدة ، فقد تخفى عنا في هذا الشخص أُمور تتبين بالاختبار ، وهناك أشخاص يوحي الانطباع الأولي عنهم أنهم أكفاء ، ولكن قد يسقطون بالاختبار ، ويظهر عدم توفرهم على المعايير المطلوبة ، وهناك شخص قد يبدو لأول وهلة أنه ليس كفوءًا ، ولكن عندما تضعه على طاولة التشريح وتختبره تراه هو الشخص المناسب لتسنم المسؤولية ، وجزء من هذه الانطباعات ناتجة من شخصية الناس ، فهناك شخص يتزلف بطريقته ويبالغ في تصوير قدراته ، وهو بارع في التعبير عن إمكانياته وتسويقها ، ويعرف كيف يسوق نفسه ، مع أنه قد يكون قليل الكفاءة ، ولكنه بما لديه من القدرات والإمكانيات والجهد الذي يبذله في التعريف بنفسه ، لديه القدرة على إظهار نفسه وإمكاناته ، ليبدو أنه إنسان عبقري جدًا ، بل عبقري زمانة ، وهو في الحقيقة إما جاهل أو غير مهتم ، وعلى نقيض ذلك الإنسان القدير الكفوء ، فإنه يحترم نفسه ، وهو يعتز بقدراته وإمكانياته ؛ لأن كل شيء مكشوف أمامه ، ويمكن أن لا يُعرف فيُظلم ، فلا بُدَّ من الاختبار ؛ لأنه يجعل الجميع على المحك ، وبه يتبين الأقدر والأكفأ اللائق للتصدي .

(فَإِنَّهُمَا) : أي المحاباة والاعتداد بالرأي الشخصي والمزاجي ، (جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ) ، فاختيار المسؤول على خلفية المحاباة ، أو الاعتداد بالرأي الشخصي من دون مشورة وفرضه على الناس في موقع المسؤولية ، فيه ظلم وخيانة ، هكذا يعبر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، فلا بُدَّ من الاختبار .

إذن يشير هذا النص إلى وجوب النقاط التالية:

النقطة الأولى: الاختبار

ويمكن الكلام في هذه النقطة ضمن الأمور التالية:

أولًا: ضرورة الاختبار، وهذا منهج إسلاميّ، فعندما يُراد اختيار شخص للمسؤولية، فيجب أن تفتح الفرصة للتنافس بين المرشحين على أساس المعايير الموضوعية؛ هل يمتلك الخبرة للموقع الذي تريد أن تجعله فيه؟ هل هو مختص في هذا المجال؟ هل هو ملمّ بالمهمة التي تناط به؟ هل يستطيع تأديتها بشكل جيد؟.

ثانيًا: توفر البيئة النفسيّة والذهنيّة عند المرشح لإنجاح المهمة، فهناك أحيانًا مختص، ولكنه في ظرف نفسي خاص، وفي حالة معينة؛ كأن يكون مصدومًا، أو محبطًا، فلا تتوفر له هذه الأجواء، لذلك لا يستطيع تحقيق النجاح.

ثالثًا: القدرة على اتخاذ القرار، فهناك مسؤول يطلب العافية، وكل ما يهمه هو أن يقال له: معالي الوزير، سيادة المدير، سعادة السفير، فكل همه الكرسي والموقع، وينأى بنفسه عن أي قرار يوجع الرأس، ويثير الاعتراضات، ويسبب المشاكل، لأنّ تصحيح وتقويم الاعوجاج لا يخلو من ألم أحيانًا، كالعظم المعوج الذي يضطر الطبيب إلى كسره أولًا ثم يعدله، ولهذا فمثل هذا المسؤول يبتعد عن تصحيح الأمور؛ لأنّ في ذلك ضربًا لمصالح البعض الذي سيظهر امتعاضه وعدم ارتياحه، وهو لا يحب أن يكلف نفسه سماع الاعتراضات والقيل والقال، والمهم عنده هو عبور المرحلة، فهو مسؤول المهمة، وليس مهمًا عنده مقدار ما ينجز منها، وكل همه موقعة وامتيازاته ومصالحه، وأن تقول الناس عنه: ما شاء الله، لا يوجد من هو أحسن منه، أما هل أنجز العمل أو لا فليس مهمًا، وقد رأينا ذلك عندما جاء بعض الوزراء وقلمه بيده للإمضاء على معاملة كل من يعطي ورقة، من غير أن ينظر إلى الطلب هل هو قانوني أو غير قانوني؟ هل يخدم الدولة أو لا يخدمها؟ هل هو مفيد أو مضر؟ إذ يقول: أنا موافق بحسب السياقات، ودع غيري كالوكيل والمدير يخبر صاحب الطلب أنه مرفوض بحسب السياقات، ليقول الناس إنّ الوزير إنسان طيب، ولكن من هو تحت أمرته لم يقبل، فالمهم أن يكون محبوبًا للجميع حتى لو خربت الوزارة، أو ذهبت المديرية إلى الهاوية، أو ضاعت المهمة. إذن فالقدرة على اتخاذ القرار أمر حيوي ومن الضروري توفره في المسؤول.

رابعًا: الإرادة في اتخاذ القرار، فهناك مسؤول لديه القدرة على تشخيص المصلحة، ولكنه يخاف أن يتخذ قرارًا، وهو يختلف عمن لا يعرف ولا يقدر على تشخيص

المصلحة، فمنشأ التردد هو الخوف لا الجهل، ولهذا يجب أن لا يكون المسؤول شخصية مترددة لا يقدر على أن يتخذ قرارًا.

خامسًا: القدرة على تشخيص الظروف والملابسات التي تحيط به وبمهمة العمل، ويستطيع أن يدير الأزمة، ويحوّل المحنة إلى منحة، والتحدي إلى فرصة، ولو ألقيته في النار لوجد سبيلا لحل المشكلة، وعلى نقيض ذلك هناك من يقول: اجعلوني مديرًا في بيئة لطيفة، في سويسرا مثلًا، أو مكان آخر مريح، وانظروا كيف أُسيّر الأمور!.

إذن هناك رجل إدارة أزمة، ففي أي موقع وضعته أصلح لك الأوضاع وخرج بنتائج جيدة، وفي أسوأ الظروف، فهو يستطيع أن يتعامل مع الظروف المحيطة به، ولا يتراجع ولا يتردد ولا يخاف، ويسير بوضوح ويقرر ويمتلك تجارب في المهمة التي تناط به، ويستطيع أن يدير الأمور ويوصل الفريق أو المجموعة التي يقودها إلى بر الأمان وإلى النتائج المرجوة.

إنّ موقع المسؤولية ليس حقل تجارب، لكي نضع فيه أي شخص ثم نقول: لنجعله في هذه المسؤولية ثم نرى ماذا سيفعل؟ كلا، إنّ مثل هذا عندما يُجعل في موقع المسؤولية وهو لا يجيد شيئًا، سوف تختلط عليه الأمور، ولا ينجز شيئًا، ويفشل فشلًا ذريعًا، ولكننا نرى البعض كما يقول المثل: «يتعلم حجامة برؤوس اليتامى»، فاليتيم ليس له ولي يحاسب الحجّام إن أخطأ، ولذا فهو لا يخشى أحدًا حين يتعلم هذه المهنة وإن كان فيها أذى للآخرين، ولو جئنا بهذا المثل المعروف وطبقناه على واقعنا المرير، لوجدنا أنفسنا لم نجانب الواقع، ولم نخطئ الحقيقة، ولذا فقد أُبتليت الناس بأمثال هؤلاء المسؤولين، ويتذرع من أتوا بهم بأنهم جاؤوا ليتعلموا! فهل لدينا جامعة؟ هل لدينا ورشة تدريبيّة؟ أو هذه مسؤوليات خطيرة؟.

سادسًا: أن تكون لدى المسؤول قدرة استكشافية، في تحديد البوصلة والاتجاه حين تعلو الغبرة وتغيب الرؤية، وأن تكون لديه القدرة على أن يشخص الموقف الصحيح لكي يحقق النتائج.

سابعًا: أن يكون من أهل التقوى والكرامة الإنسانيّة الذي يحترم نفسه، فالإنسان الذي يحترم نفسه لا يتعمد الخطأ، ولا يتجاوز، ولا يسرق، ونحن نحتاج الى أصحاب الكرامة الإنسانية، نحتاج إلى من هو عارف بقيمة نفسه وشخصيته، لأنّنا في اختبار دقيق، وعندما نضع شخصًا في مسؤولية ما، يجب أن نرى إن كانت هذه المسطرة تنطبق عليه، وهل يمتلك هذه المقومات؟، فالاختبار هو النقطة الأولى.

النقطة الثانية: تجنب المحاباة

لا محاباة ولا أثرة ولا احتكار ولا استبداد بالرأي وفرض الرأي الشخصيّ في اختيار المسؤول بعيدًا عن هذه المعايير، وإلاّ فهي جناية وخيانة وظلم، فهي:

أولًا: جريمة بحق الشخص الذي نجعله على رأس المسؤولية في هذا المنصب، لأننا عندما وضعناه مسؤولًا عن قضية لا يقدر عليها، نكون قد أحرجناه وأوقعناه في الخطأ، ودمرنا مستقبله، وشوهنا صورته أمام الناس، ولو تركناه حتى ينضج ويتطور ويصبح في مستوى المسؤولية ثم أعطيناه الموقع، لكان له مستقبل جيد، ولكن عندما وضعناه في موقع أكبر من قدرته وأخذ يتخبط، صار في نظر الناس إنسانا فاشلا وفاسدًا.. إلى آخره، فنكون قد ظلمناه، فاختيار الشخص غير المناسب يكون أول مظلوم فيه هو الشخص الذي اخترناه، لأننا قد قلدناه مسؤولية ليس أهلًا لها ولا يقدر عليها.

ثانيًا: هي ظلم وجناية بحق صاحب القرار أيضًا، لأنه عندما يضع شخصًا غير مؤهل، فأولًا سيكون شريكه في الفشل، وبالتالي ترجع عليه المسؤولية أيضًا، فهو المسؤول الأعلى ويضع مسؤولين دونه، ويعتبر نجاحهم نجاحًا له وفشلهم فشلًا له، وحينئذ لا ينجز المهمة التي يريدها، ولا يتحقق الهدف الذي يريده، فالذي يضع شخصًا لا يتمتع بهذه المعايير فهو يخون نفسه ويجني عليها، من حيث لا يشعر.

ثالثًا: هي خيانة وجناية بحق المؤسسة، المنظومة، العمل الذي وضعته مسؤولًا عنه، لأننا عندما وضعنا مسؤولًا غير كفوء على رأس هذه الدائرة، الوزارة، الهيأة، فهذه جريمة بحق هذه المؤسسة، لأنها لن تستطيع أن تفي بواجباتها تجاه الأمة وستبقى متعثرة، وسيصيبها الضرر والعطل، وهذه خيانة وجريمة بحقها.

رابعًا: هي خيانة وجريمة بحق الإمكانات البشريّة والماديّة، التي جعلنا هذا مسؤولًا عنها، فالمسؤول غير الكفوء سيبدد الأموال، ولا يوظف الإمكانات والطاقات البشريّة الموجودة تحت مسؤوليته توظيفًا صحيحًا، بل سيبعثر هذه الطاقات، فمثلًا، هناك مسؤول تحت أمرته ألف عامل، ولكن العمل يتراجع، والنفقات تزداد، فلو اُستبدل بآخر كفوء، فإنه سيخفض عدد العاملين إلى مئة، ويقلل النفقات إلى الربع، وينتج عملًا أفضل، وهذه هي الكفاءة التي أتاحت للمسؤول الثاني الوصول إلى نتائج أفضل وعمل مضاعف بعُشر العاملين وبربع الإمكانات، فالمسؤول غير الكفوء يبعثر الإمكانات ويهدرها.

نحن اليوم على مستوى بلدنا، وخلال الستة عشر عامًا الماضية، ودعكم من المبالغات وكلمات المغرضين، كم من الأموال بُدّدت وضاعت؟ وكم من ميزانيات

الدولـة تبعثرت؟ كل ذلك بسـبب وجود إدارة غير كفوءة هنـا أو هناك، فكم من الأموال صُرفت في غير موردها؟ وأنا لا أتكلم عن الذي سرق، بل عن مسؤول لا يريد السرقة، وهو وطني شـريف، ولكنه غير كفوء، فيبدد الإمكانات ويصرفها في غير محلها ويضيع ثروات البلد، فهو يريد أن يخدم ولكنه لا يعرف كيف يكون ذلك، فتضيع إمكانات الدولة نتيجة هذا الوضع.

خامسًـا: هي خيانة بحق الأمة، بحق الشـعب، بحق الجهة المسـتفيدة من عمل هذا الشـخص؛ لأن هذا المسـؤول غيـر كفوء، أي غير قـادر على تقديـم الخدمات، وكل المسـؤوليات هي من أجل خدمة الشـعب، ولذلـك فالمحاباة وفـرض تعيينات مزاجية بعيـدة عـن المصالح العامة، وعن المعاييـر المنصفة والصحيحـة، فيها إجحاف وظلم بحـق كل هذه المسـاحات، لذلك يجـب أن يتم الاختيار على أسـاس معايير موضوعيّة وعلميّة واضحة، فما هي هذه المعايير؟ هي ما سـيتحدث عنه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الفقرة التالية.

المحور الثاني

معايير اختيار كبار المسؤولين وذوي الدرجات الخاصة في الدولة

يشرع أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ باستعراض المعايير الخاصة باختيار كبار مسؤولي الدولة وذوي الدرجات الخاصة ، ويضع ثمانية معايير لاختيار أي مسؤول يرشح للتصدي لإحدى المسؤوليات الكبيرة في الدولة ، فاذا ما توفرت فيه بحسب رأي الحاكم أو أغلبيّة أعضاء اللجنة المشكلة من قبله لاختيار المسؤولين ، فحينئذ يتم اختياره ليكون مسؤولاً رفيعًا في الدولة ، ومتصديًا لمهام أساسية وخطيرة .

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقاً وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَاقاً وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَراً)

(وَتوَخَّ) ، أي اطلب ، ابحث ، (وَتوَخَّ مِنْهُمْ) ، ابحث فيهم واختر منهم .

أولًا : (أَهْلَ التَّجْرِبَةِ) ، أصحاب التجربة والممارسة والسابقة والخبرة .

ثانيًا : (وَالْحَيَاءِ) ، أي أن يكون ممن يمتلك صفة وخُلق الحياء ، وسنشرح ماذا يُقصد منها .

ثالثًا : (مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ) ، أن يكون ذا نشأة صحيحة .

رابعًا : (والقدَم فِي الإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ) ، أن يكون عنده سابق عهد في اعتناق الإسلام ، أي لديه قدم في الانتماء إلى الإسلام والمشروع الرساليّ .

خامسًا : (فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا) ، أي يجب أن تتوفر فيه الأخلاق ، القيم الأخلاقيّة .

سادسًا : (وَأَصَحُّ أَعْرَاضًا) ، أن يكون من ذوي السمعة الطيبة ، مشهورًا بالسمعة الحسنة وليس بشيء آخر والعياذ بالله .

سابعًا : (وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَافًا) ، أن لا يكون إنسانًا طماعًا ، يسيطر عليه الجشع والطمع ، فيوظف المسؤولية للوصول إلى أغراضه وأطماعه .

ثامنًا: (وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ نَظَرًا)، أن تكون لديه نظرة عميقة وقراءة دقيقة للأمور، لكي يستطيع أن يأخذ بدفة القيادة ويدير المهمة المناطة به بشكل سليم وصحيح.

هذه هي الصفات الثمان التي يستعرضها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ويطلب توفرها في أي شخصية يتم اختيارها للمسؤولية، وسنحاول أن نقف عند كل صفة من هذه الصفات، وندقق في المقصود منها.

أولًا: اختيار أصحاب التجربة

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لمالك: (وَتوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ)، أي ابحث بين أهل مصر عن أناس من أهل التجارب والخبرة والاختصاص في مجالات التصدي والمسؤولية، فلا تجلب طبيبا بيطريا وتضعه مسؤولًا عن التجارة، فماذا يعرف هذا عن التجارة؟ ولا تجلب إنسانًا في مهمة ما وتضعه مسؤولًا عن مهمة أخرى لا يدري ما هي، ولا تجلب مهندسًا وتضعه مسؤولًا عن الصحة، فهو لا يعرف في الصحة شيئًا، بل يجب أن تختار من كانت لديه خبرة وتجربة واختصاص في المهمة التي تناط به، لكي لا يصبح الموقع والمسؤولية حقل تجارب، فيبقى يجرب ويخطئ ويتعلم على حساب حياة الناس.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في غرر الحكم: «الأمور بالتجربة»[١٢]، أي أن نجاح الأمور يكون من خلال التجربة السليمة والاختصاص الذي يكسبه الإنسان في التعاطي مع أي قضية.

وفي رواية أخرى: «رأي الرجل على قدر تجربته»[١٣]، أي كلما كانت له تجربة أكثر، كان رأيه أعمق، وأدق، وأصح، إذ التجربة المنبثقة من العلم، من المعرفة، من الاختصاص، يقضي المتعلم في الحصول عليها وقتا طويلا.

وفي حكمة أخرى من حكمه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من حفظ التجارب أصابت أفعاله»[١٤]، أي من كانت لديه تجارب كافية، كان فعله مصيبًا، وينتهي إلى نتائج سليمة وصحيحة.

وورد في كتاب الخصال للشيخ الصدوق عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «لا يطمعنّ عشرة في عشرة»، عشرة رجال لا ينبغي أن يطمعوا في عشرة أشياء، ثم يستعرضها،

١٢. غرر الحكم: ح٣٦، ٣٧، نقلاً عن ميزان الحكمة ١: ٣٧٦.

١٣. عيون الحكم والمواعظ: ٢٦٩.

١٤. غرر الحكم: ح٣٦، ٣٧، نقلاً عن ميزان الحكمة ١: ٣٧٦ ح٤٩٥.

وموضع الشاهد: «ولا يطمعنّ قليل التجربة المعجب برأيه في رئاسة»[١٥]، يعني لا ينبغي أن يطمع صاحب التجربة القليلة، ومن كان معجبًا برأيه ويرى نفسه شخصًا عظيمًا واستثنائيًا، أن يكون رئيسًا أو زعيمًا، وهذه واحدة من مشاكلنا؛ إذ تجد شخصًا لو سألته: ماذا تحب أن تتسنم من منصب؟ لقال: لو عيّنوني رئيس قسم أو رئيس شعبة فهو نعمة من الله، وهي غاية رغبتي، لأنّ تجربته لا تسمح له بالطموح الى أكثر من ذلك، وفجأة يتصلون به ويقال له: لقد جعلناك وزيرًا في الوزارة الفلانية! وهو ليس لديه طموح أن يكون مديرًا عامًا، ولكن الحزب الفلاني أو الجماعة الفلانية نصبته وزيرًا، فلبس أجمل ثيابه وذهب لمجلس النواب وصوتوا له وأصبح وزيرًا، وهو لا يعرف طريق الوزارة، ولا يعرف أسماء المديريات التي فيها، ولم يدخل أبدًا إلى هذه الوزارة، ومع ذلك صار وزيرًا مباشرةً، ولو سألته: هل تعرف شيئًا؟ لقال: لا والله، ويدخل في اليوم الأول وينظر في أرجاء الوزارة وهو لا يعرف شيئًا، وخلال أسبوع، عشرة أيام، يصدّق نفسه وهواه ويقول: لا والله، أنا أفهم جدًا ولم أكن أعلم، وكم ظلمت نفسي في هذه الحياة، هكذا هي البيئة الإداريّة مع الأسف، فهي بيئة تملق وانتهازية.

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «القليل التجربة المعجب برأيه»، ليست لديه تجربة ويرى نفسه شيئًا، «لا يطمعنّ في رئاسة»، ينبغي أن لا تتطاول عنقه ويبرز صدره للزعامة والرئاسة، لأن زلاته وأخطاءه ستكثر ومثله سيسقط لا محالة، وفي مقابل ذلك القليل الخبرة أيضًا، ولكنه يتواضع للخبراء، ويسمع منهم، ويأخذ بنصيحتهم، فإنه سيتعلم ويصبح جيدًا في منصبه ولو بعد حين، وقد تدوم له الرئاسة، لكن قليل الخبرة المعجب برأيه الذي لا يسمع من أحد ويفرض قناعاته، ستكثر أخطاؤه وزلاته ويسقط.

إنّ التجربة شيء كبير، فهي تراكم للخبرة، إضافة إلى الاختصاص، فتعطي الإنسان قدرة على اتخاذ القرار الصحيح.

ثانيًا: اختيار أصحاب الحياء

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (وَتوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ)، أي وأهل الحياء، والحياء صفة مهمة يجب أن تتوفر في من نختاره للمسؤولية، والمراد بالحياء هنا حياء العقل، لا حياء الجهل، فعندنا حياءان: حياء الجهل وحياء العقل كما سنشرح.

---
١٥. الخصال للشيخ الصدوق: ٤٣٤ ح٢٠.

والحياء يعني الحياء الناتج عن بينة، عن رؤية، عن عقل، وقد ورد في كتاب الكافي الشريف عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: (الحياء حياءان: حياء عقل، وحياء حمق)، أحمق لا يفهم، ويخجل من نفسه ولا يعرف ماذا يفعل، وهناك من يفهم جيدًا ولكنه مؤدب، يخجل، فلا يكسر أحدا، ولا يجرحه، وهذا الحياء يعني سعة الصدر، وآلة الرئاسة سعة الصدر، وهذا الحياء يعطيه فرصة لنجاح المسؤولية، (فحياء العقل هو العلم، وحياء الحمق هو الجهل)[١٦]، فحياء العقل حياء عن علم، عن بيّنة، عن دراية، استحياء من دون كسر ولا جرح.

وقد ورد في غرر الحكم عن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قوله: (أصل الرؤية الحياء)، الرؤية الصحيحة تبدأ من الحياء، (وثمرتها العفة)[١٧]، عندما يكون لإنسان حياء بعقل ورؤية يصير عفيفًا، عفة اللسان، وعفة العين، وعفة السلوك.

وورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قوله أيضًا: (الحياء يصدّ عن فعل القبيح)[١٨]، الإنسان الذي يخجل لا يرتكب الخطأ عن عمد، ولا يقتحم الأمور السيئة، إذ يستحي من ربه، ومن نفسه، ومن أهله، ومن عشيرته، ويخاف على سمعته، فالحياء شيء مهم جدًا لمن يريد أن يتصدى للمسؤولية.

إذن فالحياء كابح يمنع الإنسان من الوقوع في الخطوات السيئة والحرج وما شابه ذلك، والإنسان صاحب الحياء لا يخرج عن الحد المسموح به اجتماعيًا، فلا يقتحم المحظور والممنوع، فالإنسان الذي يستحي تكون لديه حدود في عمله لا يتجاوزها، وقد ورد في تحف العقول عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حديث يشير إلى آثار الحياء، هذا الحياء الناتج عن عقل وبينة، قال: (أمّا الحياء فيتشعب منه اللين)، الإنسان الذي يستحي يصبح لينًا غير قاس، لأنّ القسوة فيها كسر للآخرين، ولا يمكن أن تصدر من الإنسان الذي لديه حياء، (والرأفة)، الإنسان الذي يستحي يكون رؤوفًا، يرق قلبه للناس، (والمراقبة لله في السر والعلانية)، الذي يستحي يخاف الله، سواء كان وحده أو كان بين الناس، فدائمًا يكون الله سبحانه حاضرًا أمامه في السر والعلانية.

(والسلامة)، الحياء يؤدي إلى سلامة النفس وطهارتها، فالإنسان الذي يستحي لا يخطئ فيبقى طاهرًا نقيًا، (واجتناب الشر)، فالإنسان إذا كان من أهل الشر فلا تجده

١٦. الكافي ٢: ١٠٦ ح٦.

١٧. غرر الحكم: ح٣٩٣٩، ٥٥٢٧، نقلاً عن ميزان الحكمة ١: ٧١٧ ح٩٨٩.

١٨. عيون الحكم والمواعظ: ٢٨.

ذا حياء، فهو عادةً إنسان يقتحم كل شيء ولا يخجل من شيء، أما الذي يستحي فلا يرتكب شيئًا من الشرور ويجتنب الشر، (والبشاشة)، فترى الذي يستحي بشوش الوجه، (والسماحة)، الذي يستحي يصفح عن الناس، ويتغاضى عن أخطائهم ولا يقف طويلًا عندها، (والظفر)، جعل الله تعالى الظفر والتوفيق والنجاح للإنسان الذي لديه حياء، (وحسن الثناء على المرء في الناس)، الإنسان الذي يستحي ويحترم نفسه، ترى الناس كلها تمدحه ويكون محترمًا بينهم، (فهذا ما أصاب العاقل بالحياء)، هذه الخصال تحصل لصاحب الحياء عن عقل، عن معرفة، (فطوبى لمن قبل نصيحة الله وخاف فضيحته)[١٩]، هنيئًا للإنسان الذي يأخذ بالنصيحة من الله (سبحانه وتعالى) ويتجنب الفضائح، فيكون الحياء حاضرًا في سلوكه اليومي.

ثالثًا: الاختيار من أهل البيوتات الصالحة

من أوصاف ومعايير من يتم اختيارهم للقيادة، أن يكونوا من أهل البيوتات الصالحة، فالتنشئة تؤثر كثيرًا في سلوك الإنسان، وهذا الذي يتربى في تنشئة صحيحة وأسرة صالحة، وفتح عينه على الالتزام بضوابط الحلال والحرام والصح والخطأ، هذا الإنسان الذي ينشأ على هذه الشاكلة، يصبح سلوكه مستقيمًا، فسلوك الإنسان خاضع لتربيته دائمًا، فحيث توجد التربية الصالحة يوجد السلوك المستقيم، أمّا إذا أُهمل الطفل، ومهما فعل يجد من يبرر له فعله لأنه طفل صغير، فسوف لا يكون سلوكه مرضيًا، ولذا يجب تعليمه؛ لأن الإنسان في سن الطفولة يتقبل التعليم والتربية بسهولة، ولكن إذا بنيت لديه قناعات وطبائع خاطئة فمن الصعب أن يتغير بعد ذلك.

مما يؤسف له أننا في مجتمعاتنا نهمل تربية أبنائنا، وكحالة عامة، نحن لا نهتم كثيرًا بتربية وتنشئة أبنائنا، فينشؤون على عادات خاطئة، فنرى طفلًا بعمر أربع سنين أو خمس، يتفوه بكلمات تقشعر منها الجلود، لا يتفوه بها الكبير إلاّ في حالة الغضب، فمن أين تعلمها؟ لا بُدَّ من أنه تعلمها من بيئة ملوثة، من المدرسة، من الواتساب، من الفيس بوك، ونرى اليوم بيد كل طفل جهازًا يتصفح به من غير رقيب، ولا نعرف على ماذا يطلع، وماذا يقول، وماذا يسمع، فيُبنى بناءً خاطئًا وسلبيًا جدًا مع الأسف الشديد، بينما البيئة الإيمانيّة، البيئة الصالحة، تؤدي إلى

---

١٩. تحف العقول: ١٧.

تنشئة صحيحة، وتُنتج سلوكًا صحيحًا، وهذا ما نحتاج إليه، فترى شخصًا ليس لديه تأريخ سيئ، قد نشأ وتربى في عائلة صالحة، تربية سليمة مستندة إلى منظومة من القيم والفضائل، فمثل هذا لا يضيّع نفسه، وعلينا أن نحمّله المسؤولية ونختاره للمنصب، فلو صار مديرًا، أو وزيرًا، فإنه سيحترم تأريخه وتربيته ونفسه أكثر من الكرسي، فلا يضعف أمام الإغراءات.

رابعًا: اختيار أصحاب القدم الرساليّ

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في بيان هذه الخصلة: (والقدَم فِي الإسْلاَم الْمُتَقَدِّمَةِ)، أي أن يكون له سابق عهد بالإسلام، القِدم تدرج يجعل الإنسان ينسجم شيئًا فشيئًا مع المنظومة القيمية في المكان الذي يعيش فيه، فمثلًا، في القوات المسلحة لا توجد إلاّ في العراق، ترقية الضباط كل ثلاثة أو أربعة أشهر درجة، مع أنه في العالم كله، لا تحصل مثل هذه الترقيات إلاّ كل أربع أو خمس سنين، ولو لاحظنا الجيوش الجرارة في الدول العظمى، كم فيها من الضباط برتبة فريق، فإننا لا نجد إلاّ بضعة عشر ضابطًا، وكذا لو عددنا من هم في رتبة لواء، فإننا لا نرى إلاّ عددًا محدودًا جدًا ممن هم في هذه الرتبة العسكريّة العالية، أما لو لاحظنا ذلك في العراق، فإننا سنجد العجب العجاب، إذ هناك المئات من الضباط ممن يحملون هذه الرتب، فما القصة؟ هل هو من أجل كسب ولاء هؤلاء الضباط وشرائهم؟ وعندما يُمنح الناطق الرسمي مثلًا رتبة فريق، فلا يبقى قيمة لهذه الرتبة.

إذن فالتدرج شيء مهم في الحصول على الدرجات الوظيفية والرتب العسكريّة، بحسب القوانين والمعايير المتعارف عليها دوليًا، وينبغي مراعاة هذا التدرج في جميع المجالات، ففي الطب تدرج، وبين الأساتذة الجامعيين تدرج، وهكذا في جميع الوظائف، وهذا التدرج يعطي فرصة للتشبع بالمشروع، بالمنظومة، بالقيمة الحاكمة في المكان الذي هو فيه، فإذا أردت أن تضع مسؤولًا، فلا يجوز أن تجلبه من الشارع وتضعه مسؤولًا أو وزيرًا، لأن هذا الشخص سيضيّع نفسه ودائرته بسبب جهله وأخطائه، وسيقع في مطبات كبيرة ويورطك، ويورط الدولة، ويورط الناس، وقد رأينا في بلدنا الآثار المدمرة لمثل هذه الحالات من عدم مراعاة الضوابط المتعارفة، إذ كلما تعمقت جذور الإنسان في مكان، صار انتماؤه لذلك المكان أقوى، وتتركب شخصيته بشكل صحيح، ويكون مثله كمثل الشجرة التي

نزرعها ؛ كلما امتدت عروقها في بطن الأرض ، ارتفعت إلى عنان السماء وأصبحت قوية وشامخة .

خامسًا: اختيار أصحاب الخلق الرفيع

قـال أميـر المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في بيان هـذه الصفة : (فَإِنَّهُمْ أَكْـرَمُ أَخْلاَقًا) ، يجب أن يتحلـى المسـؤول الذي يراد اختيـاره لمنصب ما ، بمنظومة قيـم أخلاقيّة تؤهله للقيام بوظيفته بشكل صحيح ، فالمسؤول أو الخبير الذي يفقد الأخلاق الفاضلة لا يسـتطيع أن يحقق الهدف المرجو منه ، لأن الأخلاق أمر مهم جدًا في نجاح المهمة القياديّة ، إذ المسؤولية سلطة ونفوذ وإمكانات وأموال وقرار وأوامر ونواهٍ ، والعيون كلها مسلطة عليه ، ومن لا يتحلى بأخلاق فاضلة سيضعف أمام كل هذه المغريات ، ويسـتخدم نفوذه في غير مجالاته الصحيحة ، ويسـيء إلى نفسـه ، وإلى المنظومة القياديّة التي يقودها ، وإلى الناس ، وسـينزلق وينحرف ، فيجب أن يتمتع المتصدي بالأخـلاق الفاضلة لكـي ينجح في مهمته القياديّة ، وهذا أمـر مهم جدًا ، وقد روي عن الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قوله : (من حسـنت خليقته طابت عشـرته)[20] ، فمن كان ذا أخلاق سليمة ، كانت العشرة معه طيبة ، وذلك أنه هادئ الطباع ، لطيف المعشر ، لا يجرح ، ولا يكسر ، ولا يرفع صوته ، ولا يسيء ، ويعرف حدوده ، ومن كان كذلك يكون نصيبك منه الراحة .

وعلـى نقيـض هذا ، هناك قرين – أعوذ بالله – إذا عرف سـرًا من أسـرارك تجده على كل لسـان ، وإذا صدرت منك زلة فضحك على رؤوس الأشـهاد ، فضلًا عن الـكلام الجارح الذي تسـمعه منه ، فأنت دائمًا فـي حالة توتر معه ، فعليك التخلص منه سـريعًا ، فأيّ رفقةٍ هذه التي لا يُكتم لها سـر ، ولا تُحفظ لها مروءة ، ولا يُتعامل معها بشكل صحيح؟ ، ومع الأسف يحصل كل ذلك أحيانًا تحت عنوان الصداقة ، فأين القيم الأخلاقيّة في مجتمعنا التي ورثناها عن آبائنا؟ .

إذن ، يجـب أن نتعلـم كيف يتعامل بعضنا مع بعض ، وكيف يحفظ بعضنا حرمة بعض ، وكيف يحترم أحدنا شخصية الآخر ، وهذا أمر مهم جدًا أيضًا .

يقـول البعـض إن المنصـب يغير الناس ، فمثلًا ، نسـمع عن شـخص كان جارًا لشـخص مدة عشـرين سـنة ، كان خلالها وديعًا ولطيفًا ، وفجأةً عندمـا صار مديرًا

---

٢٠ . عيون الحكم والمواعظ : ٤٤٣ .

عامًّا أصبح لا يرد السلام، فما السبب؟ هل الموقع يغير الناس؟ البعض يقول ذلك، ولكن الحقيقة أنّ الموقع لا يغير الناس، بل الموقع يكشف الناس ويعريهم، فهذا دكتاتور صغير، ولكنه كان خائفا، فلا يوجد لديه غطاء، فاضطر إلى أن يمشي مستقيمًا، وحين جاءته مسؤولية وحماية وسيارة وغيرها ظهر على حقيقته، وقد كانت حقيقته كذلك منذ البداية، ولكنه لم يجد الظرف المناسب لظهورها، وأما من كانت حقيقته سليمة، فلو أعطيته ملك الدنيا كلها فلن يتغير.

سادسًا: اختيار أصحاب السمعة الطيبة

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في بيان هذه السمة: (وَأَصَحُّ أَعْرَاضًا)، أي صاحب سمعة طيبة، هذا الذي يجب اختياره، فهو يخاف على سمعته، ويحذر ما تقول الناس فيه، وكيف تتعامل معه، ويتصرف على أساس أن هذا يجوز وهذا لا يجوز، فهذا الإنسان حريص على سمعته ولا يقبل لنفسه الخطأ، فيتجنب الانزلاق والانحراف، فهو كما نقول في تعبيراتنا اليوم: (ابن حمولة)، و(ابن أصول)، سمعته طيبة، تأريخه نظيف، وحريص على أن يحافظ على هذه السمعة.

ورد في نهج البلاغة، رسالة طويلة وجهها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لحارث الهمدانيّ، نختار المقطع التالي الذي يرتبط بالشاهد: «ولا تجعل عرضك غرضًا لنبال القول»[٢١]، أي لا تجعل سمعتك هدفًا لسهام القول، أي لا ترتكب فعلًا لا يليق بك، فتجعل الناس تتطاول عليك بألسنتها وتنال من سمعتك، فإياك أن تجعل نفسك مرمى لسهام القول، وحافظ على سمعتك، وتجنب الاتهامات وابتعد عمّا يثير الشبهة؛ «رحم الله امرأ جب الغيبة عن نفسه»[٢٢]، «اتقوا مواضع التهم»[٢٣]، أي ابتعد عن القول أو الفعل الذي يجر عليك تهمة أو شبهة، فلا تذهب إلى المكان المشبوه، ولا تصادق الإنسان المشبوه، ولا تنطق بالكلمة التي تُفسر تفسيرات خاطئة، على الإنسان أن يدقق دائمًا بهذه الأمور ويتجنب ما يثير الشبهات، ولا يكفي أن تقول: على الناس أن تحسن الظنّ بي، كلا، أنا الذي يجب أن أتعامل بنحو لا يحرض الناس عليّ، ولا يساء بسببه فهم مواقفي وكلماتي وحركاتي؛

---

٢١. نهج البلاغة ٣: ١٢٩ الكتاب ٦٩.

٢٢. كشف الخفاء: ٤٢٦ ح١٣٦٧.

٢٣. كشف الخفاء: ٤٤ ح٨٨.

«اتقوا مواضع التهم»، هذا الذي يهتم بسمعته يراعي هذه الأمور، ولا يفعل شيئًا يثير الآخرين ضده.

سابعًا: قلة الطمع

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في بيان هذه الصفة: (وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَافًا)، أي ينبغي الاختيار من أهل البيوتات الصالحة، ممن هم أقل طمعًا في استغلال المنصب، وهؤلاء هم أهل القناعة، والقناعة منجم ثرّ العطاء لا ينضب مهما أخذت منه، كما ورد في الرواية الشريفة: «القناعة كنز لا ينفد»[٢٤]، بينما الطماع بئر مظلمة، مهما ألقيت فيها طلبت المزيد، فكلما مكنته أراد الاستحواذ أكثر، فحالة الطمع والجشع لا تقف عند حد، وتأخذ صاحبها إلى الهاوية، وحينما يتسنم الطماع مسؤولية مرتبطة بمصالح الناس، فإنه سيستغلهم أبشع استغلال، ويحلبهم حلبًا لا يدع لرضيعهم قطرة، ولا تجد عنده حدًا لهذا الطمع، فكلما حصل على أكثر طمع في المزيد.

وينبغي الإشارة هنا إلى الفرق بين الطموح والطمع، فالطموح يكون عند الإنسان صاحب الهمة العالية، وأن يكون الإنسان طموحًا ويحمل طموحات عالية شيء مهم جدًا، ومما يُنقل أنّ العلامة الحليّ سأل ابنه الذي كان يدرس في الحوزة: (ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟ فقال: أريد أن أصبح مثلك)، أريد أن أصبح العلامة الحليّ، فقال له أبوه: (أنا أردت أن أصبح في علمي كالإمام جعفر بن محمّد الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ فأصبحت العلامة الحليّ، وأنت تريد أن تصبح العلامة الحليّ، فماذا ستكون؟).

على الإنسان أن يرفع من درجة طموحه، لأنه لا يستطيع الوصول إلى قمة ما يطمح إليه. يجب أن تكون للإنسان طموحات عالية وكبيرة - ولكن ينبغي أن تكون واقعية - ويكافح من أجل أن يصل إليها، وهذا أمر جيد، ولكن لا ينبغي له أن يكون طماعًا ويستحوذ على ما عند الآخرين، ويسعى للحصول على الأشياء بلا جهد ولا عناء، فهذا خطأ فادح وخطيئة كبيرة، وهي ظاهرة سلبية ألفناها في مجتمعاتنا، وقد روي في بحار الأنوار عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «أزرى بنفسه من استشعر

---

٢٤. روضة الواعظين: ٤٥٦.

الطمع» ، أي يهين الطماع نفسه قبل أن يهينها الآخرون ، «ولا أفسد الرجل مثل الطمع»[٢٥] ، لا يوجد ما يفسد شخصية الإنسان مثل الطمع ، نستجير بالله من ذلك .

ثامنًا: اختيار أصحاب الرؤية الثاقبة

وردت الإشارة إلى هذه الخصلة في قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ : (وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَرًا) ، أي اختر من هو أبعد في إدراك ما تؤول إليه الأمور ، وهو من كان أعمق في النظر ، من أصحاب الرؤية الثاقبة ، والقدرة الاستشرافية ، وهذه سمة مهمة يجب أن يتحلى بها المسؤول ، ولكن أين نحن الآن من الاتصاف بهذه الصفة؟ وكيف سنصل إليها؟ وكيف سنطور العمل ونوصله لهذا المستوى؟ .

أيًّا كانت المهمة التي تناط بالمسؤول ، يجب عليه أن يضع رؤية وخططًا وسياسات ، ويؤلف فريقًا ، ويتخذ خطوات ، ويضع جداول زمنية ، ويتسابق مع الزمن من أجل تحقيق المهمة .

فالهدف الكبير الذي يضعه الإنسان لنفسه ويسعى لتحقيقه أمر مهم جدًا ، والإنسان الذي ليس لديه عمق في النظر يفقد حسن التدبير ، وحسن التدبير هو مفتاح النجاح في أي قيادة أو إدارة ، وإذا كنت لا تعرف ماذا تريد أن تفعل ، وماذا تريد أن تحقق بهذه المسؤولية المناطة بك ، فسيؤول أمرك إلى الفشل الذريع ، فإنك لو صرت وزيرًا أو وكيلًا لوزير أو مسؤولًا أو قائدًا عسكريًّا أو آمرًا ، فينبغي أن تعرف أولًا ما هي الأهداف المطلوب منك إنجازها في هذه المسؤولية؟ ، لا أن تقتصر على رؤية الغرفة التي ستجلس فيها وإعادة ترتيبها ، والسيارة والحمايات والأمور الأخرى ، فتغرق في هذه الشكليات التي ليس لها أوّل ولا آخر ، وتأخذ من وقتك ستة أشهر ، فأين أصبحت المسؤولية؟ وهؤلاء الناس المساكين من لهم؟ لهم الله ، وكفى به وكيلًا ، وكفى به رقيبًا ، وكفى به حسيبًا .

أما الإنسان الذي يتمتع بعمق النظر ، فتجده منذ أول لحظة يتحمّل بها المسؤولية ، مستيقظًا إلى الصباح يضع المخططات ، ويدون الأفكار ، ويبحث في المشاكل ، ونقاط الضعف والقوة ، وكيف يطور العمل ، وكل تفكيره وهمه هو كيفية تطوير العمل ، وكيف يضع الأهداف المهمة قبل أن يفكر في نفسه .

٢٥ . بحار الأنوار ٨٧ : ٩٢ ح٩٦ .

إذن من الأمور الأساسيّة عند المسؤول هي أن يمتلك رؤية صحيحة، وأن تكون لديه قدرة على استشراف المستقبل، ومآلات هذه المهمة المناطة به، وأين هو منها، وأن تكون لديه القدرة على تقييم الواقع تقييمًا دقيقًا، وأن يضع اليد على الخلل ونقاط الضعف بشكل واضح ويشخصها، ويحدد بوصلة العمل والمهمة إلى أين، هذه كلها مسائل أساسيّة لتحقيق النجاح حين يتصدى الإنسان لأي مهمة قياديّة.

يقول أحد إخواننا، وهو مدرب مهم وشخصية محترمة: أقمت دورة بعقد حكوميّ لوكلاء وزراء، وكانوا اثنين وثلاثين وكيل وزير، وفي أول يوم عندما كتبت التخطيط الاستراتيجيّ قالوا: ماذا يعني التخطيط الاستراتيجي؟ فبدأت أشرح لهم الرؤية والخطة والفريق والسياسات، وبعدما أكملت الدورة قالوا: هذه المرة الأولى التي نسمع فيها هذا الكلام، وكان من بينهم وكيل وزير مدة خمسة عشر عامًا! وآخر كان وكيل وزير سنوات عديدة، فما هذه الطامة الكبرى التي لا يعرف فيها وكيل وزير معنى رؤية وخطة استراتيجية؟ فماذا كنت تفعل خلال كل هذه السنوات؟ ومعها يصبح من الطبيعي أن تكون هذه هي حال البلد من انعدام الخدمات، إذا كان وكيلنا ليس وكيلًا، ومديرنا ليس مديرًا، ووزيرنا ليس وزيرًا، فمن الطبيعي حينئذ أن لا يسير العمل كما ينبغي ولا نصل إلى أي إنجاز، وكل ذلك سببه عدم الدقة في اختيار المسؤول.

﴿وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَرًا﴾: يجب أن يكون المسؤول أبلغ، وأقدر، في معرفة عواقب الأمور، ولديه عمق نظر، لكي يعالج هذه الأمور، وقد جاء عن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يؤكد هذا المعنى، إذ قال: «أعقل الناس أنظرهم في العواقب»[٢٦]، فالذي لديه رؤية عميقة يستطيع أن يقرأ عواقب الأمور ويعرف النتائج، وإذا ما توفرت هذه المعايير فإنّ المسؤول سينجح ويحقق النتائج المرجوة، وإن لم تتوفر فسوف يفشل فشلًا ذريعًا، ويُفشل تلك الدائرة أو الوزارة التي ينتمي لها، ويضيّع الناس الذين معه.

وأيًا كان مستوى المسؤولية، فإنّ نجاح المسؤول يعني نجاح الشعب والأمة، ووجود الأمل والتفاؤل، وفشل المسؤول يعني فشل الأمة، ووجود الإحباط واليأس، إلى آخره من الظواهر التي نراها في مجتمعنا.

---

٢٦. ميزان الحكمة ١: ٦٠٥ ح٨١٠.

سُئل علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن فساد العامة، أي لماذا يدب الفساد بين الناس؟ فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «إنما هي من فساد الخاصة»، فعندما يكون أصحاب التأثير والنخبة في المجتمع فاسدين، فسيكون الناس مثلهم، إذ الناس على دين ملوكهم، وإذا أردت أن توقف الفساد فلا تلاحق الموظفين، بل انظر إلى الوزير، فإنّ كان لا يمد يده للحرام، فإنّ الوكلاء والمدراء والموظفين لا يجرؤون على مد أيديهم إلى الحرام، فابدأ من الرأس لا من الذيل.

ثم يبيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأقسام الخمسة للخاصة، ويشرح وظيفة كل طبقة منهم، وهذه الأقسام هي: العلماء، والزهاد، والتجار، والغزاة، والحكام.

يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وإنما الخاصة ليقسمون على خمس: العلماء، وهم الأدلّاء على الله»، فالعالم هو الدليل الذي يرشد الناس ويهديهم إلى الله (سبحانه وتعالى).

«والزهّاد، وهم الطرق إلى الله»، الزاهد هو الذي يرسم معالم الطريق إلى الله (عزّ وجل) بخطواته وسلوكه، بعزوفه عن التعلق بالدنيا.

«والتجار وهم أمناء الله»، إذ التاجر هو المؤتمن على مال الله وأرزاق العباد.

«والغزاة وهم أنصار دين الله»، يجاهدون في سبيل الله، وينتصر الله تعالى بهم لدينه.

«والحكام وهم رعاة خلق الله»، فالحكام عليهم أن يهتموا برعاية شؤون الناس، وذلك بخدمتهم ومساعدتهم وحل مشاكلهم وقضاء حوائجهم، لأنهم رعاة خلق الله في أرضه، هذه هي مهام هذه النخب الخمس.

ثم يشرح أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أبواب الفساد لكل واحدة من هذه الطبقات فيقول:

«فإذا كان العالم طمّاعًا»، هذا الذي يدلنا على الله، إذا كان طمّاعًا وهمه الدنيا، «وللمال جمّاعًا، فبمن يستدل؟»، إذا صار همُّ العالم في جمع الأموال، فإذن كيف يستدل العباد على الله؟.

«وإذا كان الزاهد راغبًا، ولما في أيدي الناس طالبًا، فبمن يُقتدى؟»، أي إذا كان الزاهد راغبًا في الدنيا وزينتها، ويريد أن يستحوذ على كل شيء، وقد جعل الدين شعارًا يخدع به البسطاء، فبمن يقتدي الناس حينئذ؟.

«وإذا كان التاجر خائنًا وللزكاة مانعًا، فبمن يُستوثق؟»، فالتاجر الذي هو أمين الله في أرضه كان خائنًا للأمانة، وهمه فقط الحصول على أعلى الأرباح، ويمتنع

عن دفع حق الفقراء الذين جعل الله تعالى رزقهم في هذه الزكاة، فبمن يُستوثق للأمانة؟.

«وإذا كان الغازي مرائيًا، وللكسب ناظرًا، فبمن يُذب عن المسلمين؟»، إذا كان الجندي الذي عليه أن يكون في قمة الإخلاص والوطنية مرائيًا، وخلا عمله من الإخلاص والعمل في سبيل الله، الذي هو مفتاح النصر على الأعداء، فهو يفكر بمصالحه، ويبحث عن واجهات ومواقع، فمن سيدافع عن حمى الإسلام والمسلمين؟.

«وإذا كان الحاكم ظالمًا»، الذي يجب أن يكون عادلًا، ويحل مشاكل الناس بإنصاف، «وفي الحكم جائرًا، فبمن يُنصر المظلوم على الظالم؟ فوالله ما أتلف الناس إلاّ العلماء الطمّاعون، والزهّاد الراغبون، والتجّار الخائنون، والغُزاة المراؤون، والحكّام الجائرون، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٢٧]»، نستجير بالله من ذلك.

---

٢٧. ميزان الحكمة ٣: ٢٤٢٠.

المحور الثالث

ضمانات سلامة أداء المسؤول

ما هي الضمانات لسلامة أداء المسؤول بعد أن يتصدى للمسؤولية؟ .
يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عدة ضمانات :

الضمان الأوّل: الإسباغ عليهم بالمال

يتجلى ذلك في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ : (ثُمَّ أَسْبِغْ) يعني : أوسع ، (ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الأَرْزَاقَ) ، هؤلاء المسؤولون الكبار الذين تضعهم في المناصب الحساسة أعطهم ما يكفيهم ، وقد مرت الإشارة إلى هذا الموضوع عن القضاة ، فهذه المواقع الحساسة حين يكون من فيها محتاجًا تبقى عينه على هذا وذاك ، فيؤثر ذلك في أدائه ، فأعطهم ما يكفيهم ما دمت قد نصبتهم في مهام جسيمة وحساسة وخطيرة ، لكي يشعروا بالاطمئنان النفسيّ والاستقرار ، لأنّ الإنسان عندما يكون رزقه مكفولًا وحياته مضمونة ، يشعر بالاستقرار النفسيّ والاطمئنان ، وهذا الاستقرار يؤثر في تفكيره ، وتخطيطه ، وسلوكه ، وأدائه ، وكلنا قد لاحظنا كيف نكون متوترين حينما يمر يوم وليس في جيوبنا ما يكفي لتغطية نفقاتنا اليومية ، فلا نعلم ماذا نفعل للعائلة والأولاد ومتطلبات الحياة ، فإنه أمر صعب جدًا أن يكون الإنسان في ضيق لا يعرف كيف يوفر متطلبات الحياة .

وهنا يخاطب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا الأشتر وكل حاكم يتصدى لإدارة شؤون الناس ، وليس المسلمين وحدهم : بعد أن دققت في الاختيار واخترت الشخص المناسب ، فالآن يجب عليك أن توفر له المعيشة المناسبة له ، لكي لا يبقى باله مشغولًا بتدبير معيشته ، ويتفرغ للتركيز على المهمة المناطة به وتحقيق الهدف المرجو ، هذا أول حقوق المسؤولين على الدولة ، وكذلك هو من حقوق أي مسؤول على المسؤول الأعلى منه ، أن يوفر له متطلبات الحياة ليستطيع أن يتفرغ وينجح في المهمة المكلف بها .

ثم يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ثلاث نتائج مهمة لعملية توفير متطلبات العيش الكريم للمسؤول، إذ يقول:

النتيجة الأولى: (فَإِنَّ ذلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلاَحِ أَنْفُسِهِمْ): لقد روي عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قوله: «كاد الفقر أن يكون كفراً»[٢٨]، فالفقير قلق ونفسيته مضطربة، ولكي يُصلح نفسه ويصل إلى حالة الاستقرار والتوازن ويفي بمتطلبات المهمة والمسؤولية، ولكي نحصل على شخصية قياديّة مستقرة، يحتاج الى أن يكون في الحد المطلوب لمعيشة مطمئنة ومستقرة، أي أن تكون ظروف المعيشة الكريمة متوفرة ومتاحة له.

وقد تعرض الدين إلى بيان المشكلات التي يتسبب بها الفقر، ومنها تزعزع القيم الدينية، فيكون الالتزام الديني مشكلة للفقير الذي لا يجد قوت يومه، هذا في الجانب الديني، وكذا في الجانب النفسيّ؛ إذ يسبب الفقر الاضطراب النفسي وعدم الاستقرار والطمأنينة، فتحصل مشكلة نفسية للفقير إذا لم تتوفر له متطلبات الحياة الضرورية، وكذا غالبًا ما يكون الإنسان الفقير حاقدًا على الآخرين، عندما يرى الكثير الذي لديهم، بينما هو لا يجد مستلزمات الحياة الضرورية، فيتساءل: لماذا هذا الظلم؟ لماذا يحصل الثري على كل شيء وأنا لا أحصل على شيء؟ فتنمو في داخله حالة من الحقد والغل والغضب على الحياة وعلى الآخرين، ولا ينفك عن ذهنه التفكير لماذا هو في عناء والآخرون في سعة من عيشهم؟ وهذه مشكلة يولدها الفقر عند الإنسان.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حكمه التي تضمنها نهج البلاغة، من وصية لولده محمد ابن الحنفية: «يا بني، إني أخاف عليك الفقر، فاستعذ بالله منه»، لماذا يخاف عليه منه؟ ما هي المشكلات التي يسببها الفقر؟. . يبيّن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذه المشكلات، ويفهرسها في ثلاث:

أولًا: «فإن الفقر منقصةٌ للدين»، يؤثر في دينك، ومبادئك، وقيمك، والتزامك.

ثانيًا: «مدهشة للعقل»، يوجِد الفقر والضغط المعيشي اضطرابًا في العقل، وزوال حالة الاستقرار النفسيّ.

ثالثًا: «داعيةٌ للمقت»[٢٩]، المقت هو الغضب، الحقد، الخصومة، فالفقر يدعو إلى المقت، إذ يجعل الإنسان عدوانيا، غاضبًا على الآخرين، وعلى الحياة، وعلى

---

٢٨. الكافي ٢: ٣٠٧ ح٤.

٢٩. نهج البلاغة ٤: ٧٦، الحكمة ٣١٩.

القدر، ويتساءل لماذا يجب عليَّ أن أعاني من الفقر؟ وفي مرحلة الضغط يخرج كثير من الناس من طوره، ونسقه الصحيح، والإنسان المحتاج يبحث دائمًا عن طريق لرفع حاجته، فأحيانًا يرتمي في أحضان الآخرين من أجل أن يحل مشكلته، فيتزلف إلى من عنده مال، ويضعف أمامه.

يجب على المسؤول أن يعدل بين الناس، لهذا عليه أن لا يطمع في أموال أصحاب الأموال، ولا يطمع في وجاهة أصحاب الوجاهة، لأنّ هذه كلها تولد حالة من التمييز والانقسام الداخلي النفسي في المجتمع، وسببها هو المسؤول الضعيف الذي يبحث عن مخرج، فيرتمي في حضن هذا أو ذاك من ذوي الوجاهات والإمكانات والسعة في الرزق، لكي يحصل منهم على بعض الامتيازات، وقد يتفق أن لا يحصل على شيء من أحد، لأنّه غير محتاج إليه في هذه اللحظة، أو ليست لديه معاملة أو قضية، ولكنه يفعل ذلك تحسبًا لحاجته إليه في الأيام المقبلة، فنرى مثلًا إنسانًا يمشي في طريقه إلى المسجد أو إلى أي مكان آخر، فيقول الناس: هذا الحاج فلان الملياردير، فيقومون إجلالًا له ويسلّمون عليه سلامًا حارًا، مع أنهم غير محتاجين إليه في هذه اللحظة، ولكنهم يبررون سلوكهم هذا بقولهم: إنا نظهر الاحترام له، لأننا قد نحتاج إليه في يوم من الأيام، وسواء كان هذا المسؤول يرمي بنفسه في حضن هذا وذاك لحاجة فعلية، أو لحاجة محتملة لاحقًا، فإن إظهار الحاجة ضعف، والمسؤول الذي تريد أن تضعه في مواقع المسؤولية يجب أن لا يكون ضعيفًا في المساحات التي يتحرك فيها، لذلك يجب على المسؤول أن يوفر فرص المعيشة لمن هم دونه في المسؤولية.

ومن ناحية أخرى، يريد الإسلام من هذا الشخص المسؤول في جميع المستويات، أن يقنع بحالة الكفاف، ويقتصد في معيشته، ولا يكون شرهًا، ولا تكون متطلباته كثيرة لكي لا يشعر بالضعف في أداء واجبه.

فالقضية فيها زاويتان: من زاوية يجب على المسؤول الأعلى أن يوفر المعيشة الكريمة لمن هو دونه، ومن زاوية أخرى يجب على المسؤول الأدنى أن يكون قنوعًا ويقبل العيش بكفاف، وهذا من شأنه أن يخلق التوازن الصحيح.

وقد ورد عن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في غرر الحكم قوله: «من اقتنع بالكفاف أداه إلى العفاف»[٣٠]، الكفاف يُنتج العفاف، والعفة هي حالة نفسية ضد الإسراف، البذخ،

٣٠. غرر الحكم: ح٥٠٤٤، ٦٨٩٨، عيون الحكم والمواعظ: ٤٣٩.

الشـره ، في كل شـيء ، ويجب أن تُعالج هذه الأمراض الخُلقية لكي يحقق صاحبها حالة من الاتزان .

وورد في نهج البلاغة قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ في حكمة له : «من اقتصر على بُلغة الكفاف ، فقد انتظـم الراحـة ، وتبوأ خفض الدعـة»[٣١] ، أي من اعتمد الكفاف فـي حياته فإن حصيلته الراحة ، وإن كان في نظر الناس فقيرا ، ولكنه راض بما قدر الله له ، وذاك الذي يخلو من هذا الشعور يبقى يشكو ، ولو كان مليارديرًا ، وهذه الحالة النفسية متعبة لصاحبها ، على عكس شعور الرضا بقضاء الله وقدره . إذن فالكفاف أمر مهم جدًا ، هذه النتيجة الأولى .

النتيجـة الثانية : (وَغِنىً لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَـا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ) : النتيجة الثانية التي يحصل عليها المسـؤول حين تتوفر له فرص المعيشـة المريحة ، هي غناه عن تناول ما في أيدي الناس ، فالمسـؤول الـذي يتمتع بصلاحيـات وتخصيصات وميزانيـات وأموال تُصرف بتوقيعه بحكم مسـؤوليته ، إذا كان محتاجًا ، فسـوف تبقى نفسـه توسوس له بأن يمد يده إلى تلك الأموال ، والنفس أمّارة بالسـوء ، ويوسـوس له الشـيطان : أليست هذه الأموال مـالًا عامًـا ، ولك حـق فيها أيضًا لأنك عراقـي؟ وهكذا تبدأ عملية التبرير الواسـعة التي تبيح له كل شيء ، حتى يضعف ويمد يده بحكم صلاحيته في التصرف بالأموال المتاحة له ، وبحكم النفوذ الذي عنده كمسـؤول ، فإذا لم يكن مكتفيا فسـوف يضعف ويستخدم صلاحياته والأموال التي تحت تصرفه في غير موضعها ، فيقع في الخيانة والعياذ بالله .

وكذلـك فـي حالـة ضعـف العطاء للمسـؤولين تكثـر الخروقـات ، وترفـع التقارير للمسؤولين بوجود فساد ، كما هو حاصل في بلادنا الآن ، ويتم تشكيل المفتشية العامة ، التـي تبدأ بخمسـة أفراد ، وفجأة يرتفـع العدد في كل وزارة إلى ألف وخمسـمائة مفتش عام في جهاز المفتشـين ، وسيارات بالمئات ، ورواتب مجزية ، وميزانيات مرتفعة ، فقد بدأت هيئة النزاهة صغيرة ، ثم توسعت وأصبحت هناك هيأة نزاهة في كل محافظة ، وفي كل محافظـة بنايـة ، وكل بناية تتكون من خمسـة طوابق ، وكذا الحال فـي ديوان الرقابة المالية ، فهو جهاز كبير يعادل وزارة سيادية ، والله أعلم كم ألف موظف فيه ، ولو جمعت عدد موظفي هذه الأجهزة الرقابية فسـوف تجدهم ألوفًا مؤلفة ، أضف إليهم سـياراتهم ، وامتيازاتهم ، ومقراتهم ، ومكاتبهم ، وحماياتهم ، فكم من الأموال تُصرف لكي نسـيطر علـى ظواهر الفسـاد ، ولو صرفنا جزءًا من هذه الأموال علـى الناس لقضينا على الفقر ،

---

٣١ . نهج البلاغة ٤ : ٨٧ ، الحكمة ٣٦٨ .

ولهذا يجب أن نوفر للمسؤول حياة معيشية كريمة، وأن يقنع هو بالكفاف لكي لا يضطر إلى أن يمد يده إلى الحرام، هذا أولًا.

وثانيًا، أن هذه المؤسسات الرقابية لكي تثبت أنها ناشطة وفاعلة وكفوءة، نرى أنه لا يمر شهر إلا وخرجوا إلى الإعلام وقالوا: لم نجد أحدًا فاسدًا، ومعنى ذلك أنكم فاشلون، فلو كانت لكم مصلحة في إظهار الفساد لفعلتم، وإن لم تستطيعوا أن تجدوا الفاسد، أو كنتم تخشون سطوته، لوجدتم موظفًا بسيطًا وألصقتم به تهمة الفساد، ثم يخرج علينا رئيس هيئة النزاهة ليقول: إنّ لدينا حتى الآن ستة وعشرين ألفًا وخمسمائة وأربعة وثلاثين ملفًا في الفساد، فأين هي؟ وكيف؟ ومن يؤكد ذلك؟ وكل يوم تأتي الأخبار العاجلة بإلقاء القبض على المسؤول الفلاني بتهمة الفساد، وكم تُنتهك من الحرمات؟ وكم من الناس يضيع بهذه القضية؟ كل هذا مردّه إلى مسؤول يشعر بالحاجة فيضعف ويخلق بيئة ملوثة، أما المسؤول المستغني فهو في وضع مستقر، ويُمكن حينئذ أن تخف هذه الظواهر إلى حد كبير، فنحن ننفق إمكانات مادية وبشرية وفكرية واعتبارية كبيرة من أجل السيطرة على هذه الظواهر من دون أن نحل المشكلة من أساسها؛ فإذا صلح الرأس صلح الجسد، أي إذا كان المسؤول مستقيمًا فإنّ كل المنظومة ستكون سليمة، فالقطعة العسكريّة بآمرها كما يقال، هذه هي النتيجة الثانية.

النتيجة الثالثة: (وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ): إن توفير المعيشة الكريمة للمسؤولين يكون حجة عليهم إذا خانوا الأمانة؛ إذ سينبري الحاكم للمسؤول الذي يخون الأمانة، ويقول له: ألم تعلم حينما أخذت رشوة، أو حين مددت يدك إلى المال العام، أنّ هذا بئر مُظلمة؟ وهو مثل نار جهنم، كلما أُلقي فيها فوج قالت: هل من مزيد، وراتبك خمسة ملايين دينار فماذا تريد؟.

إذا ضعف المسؤول أو خان أو غدر، وكنت قد وفرت له مستلزمات المعيشة الكافية، فسيفقد العذر الذي يعتذر به عن سوء فعله، وتكون لك الحجة البالغة عليه، وإنزال العقوبة الصارمة بحقه. وفي يوم ما كان راتب المدير أو الموظف في بلدنا ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف دينار في الشهر، وهو لا يعادل ثمن كيلو لحم، فكان يعيش في حالة عوز مستمر، فعندما يمد يده يقول: ماذا أفعل سأموت وعيالي من الجوع، فكان عذره معه، وحجته معه إذا خان الأمانة، أما اليوم فالموظف أو المسؤول الذي يتقاضى راتبًا قدره مليون ونصف المليون أو مليونان أو ثلاثة ملايين دينار، لا عذر له إن سرق، فالدولة قد وفرت له الكفاف والعيش الكريم، وإذا ما مدّ يده فلا يستطيع أن يتذرع بالحاجة والفاقة، لأنه غير محتاج، وستُغلق كل أبواب التبرير أمامه، ومع الاكتفاء وتوفر فرص المعيشة

المطلوبة، تتاح إمكانية ضرب من يمد يده إلى المال العام بيد من حديد، وبهذا يُغلق باب مهم من أبواب الفساد، وهذا هو الضمان الأول؛ أن توفر له معيشته، فلا يشعر بالحاجة ويعيش نفسية مستقرة.

الضمان الثاني: الرقابة والتفتيش والمتابعة

يتكون هذا الضمان من ثلاث مهام: الرقابة، والتفتيش، والمتابعة، فعندما تتوفر للمسؤول المعيشة الكريمة، وبعد التأكد من انطباق معايير الاختيار عليه سلفًا، يجب أن لا تكتفي بأن تختاره وتجعله في المسؤولية، بل يجب أن تبقى معه لتراقبه، وتقوم بتفتيش عمله، وتتابع سير العمل، وتتأكد أن الخطط الموضوعة تُنفذ بشكل سليم وصحيح، وهذا أمر أساسيّ.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا الضمان: (ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ)، أي افتح عينك، وفتش، وراقب، ولا تترك المسؤول يتصرف كما يحلو له، ولا تجعله مسؤولًا ثم تغمض عينك عنه، (وَابْعَثِ الْعُيُونَ)، أي أرسل الرقباء سرًا ليراقبوا عمله، (مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالوَفَاءِ عَلَيْهِمْ)، لا ترسل شخصًا يُشترى ويُباع، بل أرسل من كان من أهل الصدق والوفاء، ليقيّموا لك الواقع، ويأتوك بالخبر اليقين، (فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لأُمُورِهِمْ)، أي عندما تراقبهم في السر وتتأكد من حسن أدائهم لعملهم، كأن ترسل مفتشًا يراجع المسؤول كمواطن بسيط مثل باقي المراجعين، ليرى كيف يتعامل معه ومع الآخرين، (حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الأَمَانَةِ)، أي في هذا العمل حثٌّ وتشجيع لهم على استعمال الأمانة؛ أن يتعاملوا بأمانة مع مسؤولياتهم، فلا يغدرون، ولا يخونون، ولا يتهاونون، ولا يتباطؤون، عندما ترسل مفتشين متخفين يقيّمون أداء المسؤول الذي وضعته في مكان ما، فينظرون في استعمالهم الأمانة؛ هل هم أمناء في أداء واجباتهم؟ وهل يرفقون بالمواطنين الذين يراجعونهم؟ وهل يتعاملون بشكل سليم مع المواطنين في إنجاز معاملاتهم بلا كسل أو ضجر أو تأجيل؟ فهل يُعقل أن تنفق الدولة خمسمائة مليار دولار على موظفين همهم إهانة المواطن؟ وهناك دولة تنفق عُشر هذا المبلغ مع احترام كامل لكرامة المواطن.

لذلك إذا أردنا أن نردم الفجوة بين الطبقة السياسيّة والشعب، فلا يكفي أن يكون لدينا سياسيّون يتحدثون بكلام طيب، أو يكون لدينا نزيهون وأناس يمتلكون الكفاءة، بل ينبغي أن يكون تعامل المنظومة الإداريّة مع المواطن تعاملا طيبًا وكريما ومحترما، بعيدًا عن البيروقراطية، وإلاّ فسيبقى الشعب دائمًا في حالة من السخط والغضب من دولة

فاشلة، لا يُحترم فيها وقت، ولا يُحترم فيها إنسان، ولكل مسؤول اجتهاده، ولا تعرف كيف تتعامل معه.. إلى آخره.

(حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الأمَانَةِ)، سيكون هذا مشجعًا لهم على أن يكونوا أمناء على العمل، ويؤدوا بشكل سليم، (وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ)، ويكون تعاملهم تعاملا ليّنا مع من يراجعهم.

الإضاءات المهمة في هذا النص

وفي هذا النص عدة نقاط وإثارات مهمة ينبغي الإشارة إليها:

الإضاءة الأولى

مكانة وأهميّة الرقابة والتفتيش والمتابعة

الرقابة والتفتيش والمتابعة، ثلاث مهام أساسية يجب أن تتوفر لضمان نجاح العمليّة القياديّة والإداريّة، وعمل المنظومة بشكل سليم.

ومن نتائج هذه المهام الثلاث أمور:

الأول: توجب انسيابية في العمل، فالمؤسسة ستعمل جيدًا إذا كان هناك رقيب على رأسها ومفتش يتابع الأمور بشكل دقيق.

الثاني: تُشخص مكامن الضعف وتضع المعالجات المطلوبة لهذا الضعف والخلل في المؤسسة، فالمسؤول لا يريد دائمًا أن يرى نقاط ضعفه، ولكن عندما يأتي أحد من خارج المنظومة يراقب ويتابع ويفتش، فسوف تتبين حينئذ مواطن الضعف.

الثالث: تجعل المسؤول دائمًا تحت هاجس المراقبة، فهو لا يدري أي مواطن هو المفتش السري الذي أرسلوه، فيضطر إلى احترام الكل، ويتعامل مع الجميع بشكل صحيح، ويحل مشاكلهم بانسيابية كاملة، لكي يضمن عند حصول عملية التفتيش والتدقيق أن لا يُكتب بحقه شيء يسيء له ويعرضه إلى المساءلة، فلا يتهاون ولا يتطاول ولا يتمدد في مساحات ويأخذ صلاحيات تتجاوز الممنوح له قانونا، ولا يقع في خطأ متعمدًا.

الرابع: ضمان البوصلة والمسارات والأهداف التي وُضعت لكل مهمة ومؤسسة وعمل، فعندما يُراقب المسؤول دائما؛ ماذا فعل؟ وماذا نفّذ؟، سيبقى سير المؤسسة ضمن الأهداف المرسومة لها.

الخامس: تساعد عمليّة الرقابة والتفتيش على التماسك الداخليّ وقوة المؤسسة، وتزيد من التزام المسؤول بسياقاتها الموضوعة لها، فتتحول المؤسسة إلى بناء مؤسسي قوي ورصين وسليم.

السادس: تماشي الرقابة والتفتيش مع الطبع الإنسانيّ، فالإنسان بطبعه يخطئ، وأحيانًا يتطاول، وأحيانًا ينحرف والعياذ بالله، وأحيانًا يصاب بالرتابة والبرود في العمل، ويستخدم البعض بطبعه السلطة للابتزاز وأخذ الرشى والإساءة، وهذا طبع الإنسان، فوجود مؤسسة رقابية ومفتشين يراقبون على الدوام، يمنع الموظفين ويحفظ المسؤولين من الوقوع في شباك هذه الانحرافات في أداء واجباتهم ومسؤولياتهم، ويقول الله ((سبحانه وتعالى)) في سورة يوسف: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾[٣٢]، فمن طبع الإنسان أن يُستغفل ويُستدرج إلى السوء والخطأ، وإلى الدعة والتهاون، ووجود رقابة يساعد في ضبط الوضع بشكل أفضل.

ورد في نهج البلاغة كتاب لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عامله في أذربيجان الأشعث بن قيس، يقول فيها: «وإن عملك ليس لك بطعمة»، الطعمة هي الطعام الذي يُرسل للجيران أو غيرهم، ويستخدم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه المفردة لهذا العامل؛ «إن عملك ليس لك بطعمة»، أي ليس هبة تعطيها لمن تشاء وتستخدمها كما تريد بنزواتك، «ولكنه في عنقك أمانة»، المسؤولية أمانة، فعندما كُلفت بمسؤولية وتحملتها فأنت مؤتمن على هذا العمل، أيًا كان مستواك، فأدّها بشكل صحيح، فهي أمانة في عنقك.

«وأنت مُسترعى لمن فوقك»، أنت تحت رعاية المسؤول الذي فوقك، وعليه أن يراقبك، وعليك أن تسأله وتستشيره، فهناك منظومة، والمؤسسة جزء منها ويجب أن تسير باتجاه واحد.

«ليس لك أن تفتات في رعيته»، تفتات: أي تستبد، فليس لك أن تستبد في رعيته، فكما وضعك مسؤولًا في هذا المكان، فعليك ألا تكون دكتاتورًا على الناس، ولا تعمل وفقًا لآرائك الشخصية، بل عليك أن تعمل بحسب توجيهات الذي عينك ووضعك في هذا المكان، و(تفتات) من (الفوت)، أي يظن أن المسؤول غير موجود فيتصرف على هواه.

«وفي يديك مال من مال الله (عز وجل)»، هذه الأموال التي في يديك، بحكم المسؤولية أو الصلاحيات الممنوحة لك، هي أموال الله، فيجب أن تكون دقيقًا فيها،

---

٣٢. سورة يوسف: الآية ٥٣.

«وأنت من خزّانه»، أنت خازن لهذا المال الذي تحت يدك، مؤتمن عليه، «حتى تسلّمه إليّ»، وضعتك مسؤولًا هنا لكي تكون في خدمة الناس، وضمن السياقات والمعايير والشروط التي وضعتها لك، وهذه الأموال ترسلها لي لكي أصرفها في المصالح العامة.

«ولعلّي لا أكون شرّ ولاتك لك»[٣٣]، لأني أراقبك، وأطلب منك الالتزام بالتعليمات، وأمنعك من أن تنحرف وتسيء وتمد يدك إلى المال العام، فهذا لا يعني أني سيئ، فأنا أمير المؤمنين، والحاكم الأعلى، والمسؤول الأعلى، وهذا يعني أنّ المراقبة وإن كانت مزعجة، والتفتيش وإن كان مزعجًا، ولكن هذا لخيرك ومصلحتك ونجاحك وحفظك، فلا تبتئس، ولا تنظر بعين سلبيّة لهذا الموقف الذي يصدر منا.

الإضاءة الثانية

فلسفة الرقابة والتفتيش والمتابعة

لماذا الرقابة والتفتيش؟ هل هي نتاج أزمة ثقة بالمسؤول أن نخاف من خيانته ولا نعلم متى يغدر بنا؟ وهنا يتبادر السؤال: لماذا وضعتم في المسؤولية من لا يوثق به وتركتم الموثوق به والأمين؟ ولماذا نتمسك بمن يُشك بأمانته، وبمن لا يوثق به ولا يُعتمد عليه؟ وهذا الأمر يكشف عن أنّ المعايير الثمانية غير متحققة، وأننا قد اعتمدنا على من ليس أهلًا للثقة، وعلى شخص غير محترم.

الحقيقة أنّ ما يُفهم من هذا النص، هو أنّ فلسفة هذه الخطوات الثلاث - الرقابة، التفتيش، المتابعة - لا تنشأ من أزمة ثقة بالمدير أو المسؤول الذي نضعه في موقع المسؤولية، لأننا ينبغي أن نكون قد أحرزنا المواصفات فيه، وإنما تنشأ من النقاط التالية:

النقطة الأولى: الاطلاع على حجم العمل وتقييم حجم النشاط، والمسؤول الذي يعمل جيدًا هو الذي يتصل بالمفتش، ليطلعه على نشاطه الصحيح، وعمله الدؤوب، وإنفاقاته القليلة، وعطائه الكبير، وهمته العالية، فكل مسؤول ناجح وكفوء وقدير في أي مكان، يتمنى أن يأتي المفتش، وكذا الوزير الناجح يريد من الله أن يُستجوب في مجلس النواب، ولسان حاله يقول: إنّ الاستجواب فرصة جيدة ليطلع الشعب على إنجازاتي، حيث تُطرح الأسئلة التي تشغل بال المواطنين في بث مباشر والأضواء مسلطة والشعب ينظر، فهذا ميداني لكي أقول ماذا أنجزت في هذه الوزارة، ويصبح الاستجواب منصة

٣٣. نهج البلاغة ٣: ٦، الكتاب ٥.

ومنبرًا للتعريف بالإنجازات ، إذن فأول فوائد الاستجواب هو الاطلاع على حجم العمل الذي يقدمه كل مسؤول ، لكي لا يستوي المسؤول الكفوء مع غيره ، ويختلط الحابل بالنابل ، فالاستجواب لا يخيف المسؤول الناجح ، بل على عكس ذلك هو يرغب في أن يُتفحص عمله ، ولا داعي للقلق لمن كان عمله جيدًا ويؤدي واجباته بشكل صحيح ، ولا ينبغي أن يخشى من الاطلاع على العمل والجهد المبذول من قبله ، بل هي فرصة مهمة لمن يقوم بعمله بشكل صحيح ، وهي نقطة قوة .

النقطة الثانية : التأكد من سياقات العمل ، وانسيابيته ، ففي كل مؤسسة أو منظومة قرارات وإجراءات وسياقات وضوابط وتعليمات ، وفيها تفتيش ومراقبة ومتابعة ، وكلها وسائل تجعلنا متأكدين من أن هذه المنظومة تسير ضمن سياقاتها الصحيحة ، وهذا أمر جيد .

النقطة الثالثة : دعم الفريق المسؤول ، فإنه إذا تبيّن من خلال التفتيش أنّ الفريق المسؤول ضعيف ، فسوف تُدرس أسباب هذا الضعف ؛ هل هو بسبب قلة في المهارات مثلًا ، وأنّ القضية الفلانية تحتاج إلى اختصاص معين ؟ فيكون من نتائج التفتيش إدخال الموظفين في دورة تدريبية ليطوروا مهاراتهم ، وحينئذ سيستفيد الفريق المذكور من هذه الدورات ويصبح أكثر كفاءة ، إذن أصبح التفتيش سببًا في توصية بدورات تطويرية مثلًا ، يستفيد منها هذا الفريق ، أو إذا تبيّن من خلال التفتيش ضعف الإمكانات ، وأنهم يحتاجون إلى أجهزة معينة وإمكانات لتأدية واجباتهم بشكل جيد ، ورفع التعثر في أداء المهام ، وحينئذ تكون التوصية من المسؤول الأعلى بمنحهم الإمكانات ليمضي عملهم بسلاسة أكبر .

إذن أصبح التفتيش سببًا لجلب الإمكانات وتسهيل المهام والواجبات ، وهذا أيضًا أمر جيد ، وكذا الحال في أي مشكلة أخرى إذا ظهرت ، إذ ستُتخذ موقف لحلها ، وهذا بحد ذاته سيكون مفيدًا للعمل ، إذن فالتفتيش هو دعم للفريق المسؤول .

النقطة الرابعة : تشخيص مكامن الضعف في المنظومة ، وهي غير نقاط الضعف في الفريق المسؤول ، فمثلًا أنّ هذا العمل لا يسير بانسيابية بسبب البيروقراطية الشديدة ، لماذا هذه البيروقراطية ؟ لأنّ نظام الحكم هو الذي أراد ذلك ، فطلب من المواطن كذا وثيقة لإنجاز المعاملة الفلانية ، فمثلًا يُطلب كذا خطوة ممن يريد الحصول على إجازة سياقة أو على جواز سفر وهكذا ، فتستغرق شهرين أو أكثر ، وحينئذ ينفتح الباب على مصراعيه للتلاعب واستغلال المواطنين .

إذن علينـا أن نراجـع السـياقات لنختصـر المسـافات ونقلل الإجراءات، فتسـتغرق المعاملة يومين بعد أن كانت تسـتغرق شـهرين، وهكذا تكون نتيجة التفتيش إذا ثبت أن هناك مشكلة في المنظومة، من تلكؤ أو تعطيل أو غير ذلك، أنْ تُتخذ الإجراءات السليمة لتخفيف مثل هذه المشكلات ومعالجتها.

النقطة الخامسة: خلق الكابح الداخلي، فعندما يشعر المسؤول بأنّ هناك عيونا تراقبه، سيبقى حذرًا من مخالفة القوانين والضوابط، كما لو دخلت في مكان وقيل لك إنّ هناك كاميرا، فستكون حذرًا، فإنّ حركات الإنسان وسكناته عندما يكون تحت المراقبة غير ما تكون وهو بعيد عن الأنظار، ومجرد الشـعور بأنّ هناك تفتيشًـا ومتابعة وعيونًا، سيجعله يحسـب لكل شـيء حسـابه، وهذا بحد ذاته يكون كابحًا داخليًا لكيلا يتساهل المسؤول ويتهاون في أداء وظيفته بشـكل صحيح، والإنسـان بطبعه إذا فقد الشعور بالرقابة، يركن إلـى الارتخـاء والتهاون والتسـاهل في أداء المهام، وكلمـا كان هناك ضبط أكثر، كانت النتائج أفضل، وهذه هي فلسفة الرقابة والتفتيش والمتابعة.

الإضاءة الثالثة

آليات الرقابة والتفتيش والمتابعة

كيف تتم كل واحدة منها؟ يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آليتين:

الآلية الأولى: سرية الرقابة والتفتيش والمتابعة

أي تكون عملية الرقابة والتفتيش والمتابعة غير معلنة، وغير واضحة لمسؤولي الدائرة أو المؤسسة، ويمكن أن تحصل عبر ثلاث قنوات:

القناة الأولى: وضع عيون في داخل المنظومة، إذ يتم اختيار أشخاص غير معروفين يضعهم المسؤول الأعلى، وهذا ليس عيبًا، ولا وشاية، بل على هذه المنظومة واجبات يجـب أن تفـي بها، ويتحمل المسـؤول الأعلى كامـل الصلاحيات في مراقبـة أداء هذه المنظومة وهذا الفريق وهذه المجموعة، فحين يكلف شـخصًا بأن يكون عينًا له في هذه الدائـرة، ويقوم هذا الشـخص بوظيفته بالإضافة إلى عملـه الاعتيادي داخل المنظومة، فهذا ليس وشاية، بل خدمة أخرى يقدمها للمنظومة، لأنه يشخّص الأخطاء ويعالجها، ومثله مثل الجهاز الصغير الذي يوضع ليلًا ونهارًا على جسد من يعاني اختلالًا في ضربات القلب، لكي يراقب دقات قلبه ويسـجلها، ولا يحق للمريض أن يأتي بعد شـهر ويقول:

ليـس لكــم علاقة بقلبي ، لأنّ الطبيب المعالج هو الذي وضع هذا الجهاز ، لكي يبيّن في أي ســاعات مــن النهار أو من الليل يحصل الاختلال في دقـات القلب ، ثم يقوم بتحليل التقرير الطبي ليصل إلى تشـخيص المشـكلة ، فيعالج اختلال ضربات القلب ، ونرى أنّ الناس الذين يعانون هذه المشكلة يدفعون أموالًا للحصول على هذا الجهاز ، وهذا العين في داخل المؤسسة مثل هذا الجهاز ؛ يكتشف مكامن الخلل في المؤسسة ويوصلها إلى المسـؤول لكي يعالجها ، وهذا ليس انتقامًا ، أو تسـجيلا لنقاط الضعف على الآخرين ، وليس للتشفي ، بل من أجل أن تنجح هذه المؤسسة في واجباتها ، وهذه العيون هي أحد المداخل لهذه الآلية ، آلية الرقابة السرية .

القنـاة الثانية : إرسـال مفتشـين غير معروفين ، مـن خارج المؤسسـة ، فيدخل بهيئة المواطـن العـادي الذي يراجـع الدائرة أو غيرها من مؤسسـات الدولة ، في أي وقت من أوقـات الـدوام الرسـمي ، فمثلًا يدخل إلى المستشـفى على أنه مريـض لينظر كيف هي الأوضـاع ؟ ، وكيـف يتعاملون مع المريض ؟ ، وهـل يوجد طبيب مقيم أو لا ؟ وكيف هو العـلاج الـذي يُعطـى للمريض ؟ وكيف هي أخـلاق العاملين في التعامـل مع المرضى ؟ فيكوّن صورة واضحة عن مستوى الأداء في هذه المؤسسة الصحيّة .

القنـاة الثالثـة : الطلـب من النـاس أن يفصحـوا عن آرائهـم ، فمثلًا نجـد في بعض المؤسسـات صندوقًا معلقًا مكتوبا عليه صندوق الشـكاوى ، ويسـتطيع المراجعون إلى هذه المؤسسـة تدوين ملاحظاتهم وشـكاواهم واقتراحاتهم ووضعها في هذا الصندوق الـذي يمتلك مفتاحه المفتـش العام فقط ، ويقوم بفتح الصندوق بين مدة وأخرى ويطلع على ما وُضع فيه ، فالمراجعون الذين تعامل معهم العاملون بشـكل سـليم ، سـيكتبون مديحًا وإطراء ، وإذا كان التعامل مع بعض آخر غير جيد فسيكتبون ذلك أيضًا ، والنتيجة أنّ الناس هم المستفيدون ، فإذا كان التعامل أو أداء الواجب سيئا ، فإنّ أول من يشخص ذلك هو الجهة المستفيدة .

إذن ، فـإن أي آليـة ، من اسـتطلاعات أو اسـتبيانات ، أو صناديق من هـذا النوع ، أو أي طريقـة أخـرى ، لأخذ آراء النـاس الذين يراجعون هذه المنظومة أو هذه المؤسسـة ، لمعرفة مدى رضاهم عن مستوى الخدمات الموجودة ، فهي في منفعة المواطنين ، لأننا نعلم جميعًا عدم وجود مؤسسة مثالية ، وهي بحاجة مستمرة إلى المراقبة والتفتيش ، لأن واجبهـا خدمـة الناس ، وحين يكون الناس غير راضين عن أدائها فما هي فائدتها حينئذ ، إذا لم تحقق كل هذه الإمكانات النتيجة المرجوة من وجودها ؟ .

إذن فالتفتيش السري، الرقابة السرية، المتابعة السرية، تتم بإحدى هذه الطرق الثلاث.

الآلية الثانية: التفتيش العلني

يكون التفتيش العلني من خلال ثلاث قنوات أيضًا:

القناة الأولى: إيفاد مفتش رسميّ معلن، وتُخبر الدائرة المعنية بقدوم مفتش إليهم في اليوم الفلاني، إذ تمتلك كل وزارة لجانًا تفتيشية تقوم بمهام التفتيش بتوقيت ثابت للدوائر التابعة لها، وبحسب سياقات قانونية معروفة لديها، وتأتي هذه اللجنة بشكل رسميّ وتقوم بعملية التفتيش في الوقت المقرر، وكذلك المفتشون العموميون قد يقومون بمثل هذا الدور، ليروا مستوى أداء العمل ويطلعوا على دقة وصحة التقارير التي ترسلها الدائرة عن أوضاعها وتفاصيلها وأرقامها، فيدخلون بالتفاصيل ويتعرفون على طبيعة الإنجاز.

القناة الثانية: مطالبة الوزارة المؤسسات والشركات والدوائر بتقديم تقارير دورية عن نشاطاتها، بأن يكتبوا مثلًا كل شهر أو شهرين، أو كل سنة، تقريرًا عن نشاط مؤسساتهم، ويسمى بالتقرير الشهري، أو التقرير الفصلي، أو التقرير نصف السنوي، أو التقرير السنوي، وهو تقرير تكتبه المؤسسة أو الشركة أو الدائرة تحدد وتوضح فيه نقاط الضعف، نقاط القوة، الإنجازات، الإخفاقات، المقترحات لرفع مستوى الأداء، فهذا طريق للتفتيش العلني.

القناة الثالثة: التفتيش المفاجئ، وهو لا يتم بواسطة إيفاد مفتش بمهمة مباشرة في وقت معلن مسبقًا، بل هو تفتيش مفاجئ ولكنه معلن، وهو أيضًا ليس كما في النقطة الأولى، بل تفتيش دوري تقوم به لجان متخصصة بشكل دوري، كل ثلاثة أشهر أو ستة أشهر، أو كل سنة، فتوجد جولات دورية للتفتيش والرقابة والمتابعة في كل الأحوال تقوم بها الوزارة.

إذن، إما أن تتم خطوات الرقابة والتفتيش والمتابعة هذه بشكل سري، أو تتم بشكل علني، ولكل واحدة منهما طرقها الخاصة لتحقيق هذا التفتيش.

فوائد التفتيش السري

نتطرق إلى فوائد التفتيش السري وميزاته؛ لماذا يكون التفتيش والرقابة والمتابعة بشكل سري؟ وما هي فوائده؟ ويمكن تلخيص ذلك بالنقاط الآتية:

الفائدة الأولى : الدور الوقائي

إنّ فـي التفتيـش السـري دورًا وقائيًا ، لأنّ العاملين والمسـؤولين لا يعلمـون بوجود عيون عليهـم يراقبونهـم ، وإن علمـوا فهم لا يعرفونهم ، وهـم لا يعلمون أيضًا هل هـذه العيون من داخل المؤسسـة أو من خارجها؟ ، أو هل بعضهم من داخل المؤسسـة وبعضهم من خارجها؟ وهـذا بحـد ذاته كابـح داخلي يحول بينهم وبين ارتكاب أي مخالفـة قانونية ، فيخاف أن يطلب رشوة من أي أحد ، ويخاف أن يقوم بأي إساءة أو خطأ ، إذن فهذا النوع من الرقابة له دور وقائي في عدم تهاون المسـؤولين والعاملين في أداء دورهم الوظيفي بشـكل كامل وصحيح ، وعدم التسـيب والتسـاهل والارتخاء والتقصير في أداء الواجبات والمهام ، لأنهم لا يعلمون هل هذا المراجـع أو الموظـف عين عليهم أو لا؟ ويبقون في حالة من الشـك دائمًا إزاء كل شـخص لا يعرفـون حق المعرفة إن كان مفتشًـا أم لا؟ فيبقى الموظـف قلقًا ، وهذا القلق يجعله يقدّم عملًا أفضل في كل الأحوال ، وحتى الأنبياء الذين هم مع الله سـبحانه دائمًا ، يعيشـون مع اسـم من أسمائه الحسنى «الرقيب» ، في سرهم وعلانيتهم ، ولا يغفلون عنه طرفة عين أبدًا ، وهكذا فإنّ وجود العيون يجعل المسؤول حريصًا على أداء عمله بالشكل المطلوب .

لقـد أمر الله ((سـبحانه وتعالى)) شـيخ الأنبياء نوحًا ، (عليه وعلـى نبينا وآله أفضل الصلاة والسـلام) ، كمـا يقص علينا القرآن الكريم ، ببناء سـفينة وهو في صحـراء قاحلة لا يوجد فيها ماء ، فماذا يمكن أن يسـتفيد من هذه السـفينة في الصحراء؟ ولكنه أمر إلهيّ لا بُدَّ من الامتثال له وطاعتـه ، وأخبره المولى الجليل أنه سـيأتي طوفان يغرق أهـل مصر بأجمعهم ، وجاء الطوفان ولو بعد حين وأخذ كل شيء .

لقد صنع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ سفينته في صحراء قاحلة ، في وسط أمة لم تكن منصاعة له تسعمائة وخمسـين سـنة ، حتى وصل إلى حد اليأس من اسـتجابتهم لرسـالته الإلهيّة ، وتوجه الى ربه : ﴿قَـالَ رَبِّ إِنِّـي دَعَوْتُ قَوْمِـي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِـرَارًا﴾[٣٤] ، فقد دعا قومه ألف سـنة إلا خمسـين عامًا إلـى التوحيد وعبادة الله الواحـد الأحد ، فأعرض النـاس إعراضًا كبيرًا خرج عن حدود المتعارف ، فجعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا صوته ، وغطوا وجوههم بثيابهـم لئـلا يروا وجهه ، وهربـوا مذعورين مدبرين عنه ، ومع ذلك كلـه جاء الأمر الإلهيّ بأن يصنع السـفينة وهو جالس في الصحراء ، وهم يمرون عليه ضاحكين مسـتهزئين ، فهم يرون أنّ ما يقوم به عمل جنوني .

---

٣٤. سورة نوح : الآية ٥ .

لقد جاء الأمر الإلهيّ: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[٣٥]، أتى الخطاب الإلهيّ أن يا نوح لا تكترث بهؤلاء المستهزئين، فنحن نسمع ونرى، هذا في البُعد الإيجابيّ (بأعيننا)، نحن أعيننا عليك، أنك تنفذ الأمر الإلهيّ، وهذه طاعة، وهذا الكلام من الله (سبحانه وتعالى) لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ جعله يتشجع، ويتخلص من الإحباط والانكسار النفسيّ، فالناس كانت تسخر منه، وهو أيضًا لا يعلم لماذا يصنع سفينة في جوف الصحراء؟.. (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)، الفلك: السفينة.

إذن، وجود عين يحفز العامل على العمل، ويلعب دورًا وقائيًا، وهذه الفائدة الأولى للتفتيش السري.

الفائدة الثانية: المساحة الأوسع للمفتش

إنّ للمفتش السري حرية أكبر في الكتابة، لأن اسمه لا يخرج إلى العلن، فلا يتعرض لما قد يتعرض له المفتش العلني، لأنّ هذا المسؤول الذي تضرر من التقرير ربما سيتابعه ويثأر لنفسه، أما عندما يكون المفتش خفيًا فإنه في مأمن، وكونه في مأمن من أي عتاب أو ملاحقة، يجعله يكتب الحقيقة كما هي، ويعطيه حرية أكبر ومساحة أوسع للتقييم.

الفائدة الثالثة: تفويت الفرصة على التصنع والتظاهر

يعطي التفتيش العلني الفرصة للمسؤول بأن يتصنع ويتظاهر بأمور غير واقعية، أما إذا كان التفتيش سريًا وفي أي لحظة، فمن الممكن أن تتحول هذه الأمور إلى سياق عمل ثابت ودائم، لأنه في أي لحظة قد يأتي مفتش، وقد يكون أحد العاملين عينًا ويرفع تقارير مستمرة، وهذا يجعل المؤسسة والمنظومة تعمل دائمًا بشكل سليم ولا تتصنع الجودة، وهذا بحد ذاته أمر جيد، ويوجد فرق كبير بين أن يعمل الإنسان بشكل جيد، وبين أن يتصنع الجودة في ظروف ما وفي لحظة ما لأسباب معينة.

الفائدة الرابعة: خطوة استباقية لاكتشاف الأخطاء

إنّ التفتيش السري خطوة استباقية قبل أن تقع الأخطاء وتنحرف المؤسسة، فتحصل المشكلات وتبدأ التظاهرات والاحتجاجات والاعتصامات، فالتفتيش السري المستمر يرصد المشكلة عندما تظهر منذ البداية، فيتيح الفرصة لمعالجة الخطأ بسرعة وتصحيح المسار، أما إذا زاد الانحراف، فكيف تعود هذه المؤسسة إلى سياقها الصحيح؟ فأحيانًا يصبح السلوك الخاطئ هو الشيء الطبيعي، أي يتحول إلى سياق عمل وثقافة، وإذا

---

٣٥. سورة هود: الآية ٣٧.

تقنن وأصبح ثقافة، فمن الصعب جدًا تغييره حينئذ، فهذا التفتيش السري حالة استباقية لاكتشاف الأخطاء من بدايتها، لتصحيحها وإبقاء المؤسسة في الإطار الصحيح بلا مشكلات ومنغصات.

ورد في نهج البلاغة، في رسالة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لعثمان بن حنيف، الذي كان واليًا على البصرة، عندما جاء مخبر سري وأخبر أمير المؤمنين أن الوجهاء وأصحاب الأموال وجّهوا دعوة إلى والي البصرة لحضور مأدبة طعام لم يحضرها سواهم، وقد استجاب لهم، وقدموا له أصنافًا من الطعام اللذيذ، وكانوا يريدون بعملهم هذا أن يغض النظر عن أعمالهم، فهم يتقربون منه ليستحي منهم فلا يقف ضدهم عند ارتكابهم ما يحاسبون عليه، أو يقبل وساطتهم في أمر ما في المستقبل.

عندما ينظر المواطن العادي للقضية، وهي أنّ رجال أعمال وجهوا دعوة للمحافظ لحضور مأدبة طعام، وقد لبى المحافظ هذه الدعوة، فهذا الأمر يجعل المحافظ بنظر المواطن في صف طبقة رجال الأعمال، في مقابل طبقة الفقراء الأكثر عددًا، وقد ينظر إليها المحافظ ورجال الدولة على أنها شيء مقبول ظاهرًا، ولا تعتبر خرقًا كبيرًا للعرف الاجتماعيّ، لأنه لبى دعوة مواطن، ولكن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ نظر إلى هذه القضية من جهة أنّ هذا الوالي قد لبّى دعوة تاجر وليس دعوة فقير، ووُضعت له أنواع الطعام المختلفة، وإذا سكت عن هذه القضية فهذه بداية انحراف، والله وحده يعلم إلى أين سيصل الحال بعد ذلك، وتعرفون أن الخط المستقيم عندما يصبح خطًا أعوج ولو بدرجة قليلة، فإنه كلما امتد أكثر صارت الفاصلة أكثر، وهكذا الانحرافات تبدأ صغيرة، ثم تتسع شيئًا فشيئًا، وكلما مشى في هذا الطريق أكثر، أصبح الفاصل أكبر.

لقد عرف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذه الخطوة، أن هذا الوالي بدأ يخطو في طريق الانحراف عن المهمة والمسار الصحيح، فأرسل له رسالة قال له فيها:

(يا ابن حنيف، قد بلغني)، وصل لي الخبر، إذن كان عند أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مخبر سري، أو عين يرصد له الأخبار.

(قد بلغني أن رجلًا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبةٍ)، ثم يذكر فيها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ألوان الطعام اللذيذ الذي كان في تلك المأدبة، لأنه قد جاءه تقرير تفصيلي بها، ثم طلب من الولاة أن يقتدوا به في أمور دنياهم، ومنها ذاك المقطع المعروف: (ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمرين)، بهذين الثوبين، (وبطعمه بقرصين)، رغيفين، (ألا

وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد. . .)[٣٦]، إلى آخر ما هو معروف من تلك المقولة.

فهذه الحالة الاستباقية تتيح للمسؤول الأعلى التدخل في بداية حصول الانحراف، ليوقف الانحراف ويعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، هذه هي فوائد التفتيش السري.

فوائد التفتيش العلني

لمعرفة فوائد التفتيش العلني، نقرأ هذه الرسالة من أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لأحد ولاته، واسمه كعب بن مالك، يأمره فيها بالتفتيش العلني، إذ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: (أما بعد، فاستخلف على عملك)، أريد أن أرسلك بمهمة أخرى، فلا تباشر بنفسك مهمة وبيدك مهمة أخرى فتضيع إحداهما، بل ضع نائبًا عنك في المهمة الأخرى، وهذا درس قياديّ، فأي انشغال جديد يجب أن لا يضيّع الانشغال الأول، لذلك أمره بأن يضع نائبا عنه ليؤدي واجباته الفعلية، لأنه يريد أن يكلفه بمهمة ثانية.

(واخرج في طائفة من أصحابك)، خذ مجموعة من فريقك، مستشاريك، خبرائك، (حتى تمر بأرض السواد)، أرض السواد هي العراق، أي اذهب إلى العراق، وفتش، وراقب، وتابع، (كورةً كورة)، أريد منك أن تفتش العراق قطعة قطعة، من شماله إلى جنوبه، وترى ماذا يحصل هناك؟، وكيف يعمل المسؤولون؟، (فتسألهم)، وتسأل الناس، (عن عمالهم)، عن مسؤوليهم كيف يخدمونهم؟ وهل هم راضون عن مسؤوليهم؟ لتعرف رأي الناس في مسؤوليهم في كل منطقة، (وتنظر في سيرتهم)، وفي كل منطقة انظر ما هي الخطوات التي فعلها المسؤول؟، ما هي آلياته في العمل؟، ما هي النقاط المهمة الإيجابيّة والسلبيّة لديه؟، وسجل كل شيء.

ونفهم من هذا النص أمورًا في التفتيش العلني:

الأمر الأوّل: يجب إيفاد مفتش قدير وخبير، لكي يستطيع اقتناص الحقائق بالعمق الذي يذكره أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الأمر الثاني: أن لا يذهب هذا المفتش وحده، لئلا تلهيه المؤسسة بالأكل والهدايا، ويرجعوه صفر اليدين مما أُرسل به من تقييم عملهم وجرد سلبياتهم، بل اذهب مع فريق، ويمكن استنتاج أسباب ذلك بما يلي:

---

٣٦. نهج البلاغة ٣: ٧٠، كتاب ٤٥.

أولًا: الاستفادة من الاختصاصات، فالخبير المالي يتفحص الأمور المالية، والخبير في الإدارة يتفحص الشؤون الإداريّة، وهكذا بقية الخبراء في التخصصات الأخرى، فعندما تدخل إلى أي منطقة للتفتيش، ومعك فريق باختصاصات مختلفة، فكل مختص منهم يفتش في اختصاصه.

ثانيا: قد تكون المساحة التي تجري عملية التفتيش فيها كبيرة، وهنا تأتي الحاجة لوجود فريق العمل، ليدخل كل واحد منهم في زقاق، ويأخذوا كل المعلومات المطلوبة بوقت قصير، وينتقلوا إلى منطقة أخرى، وهكذا، فمن الممكن أن تكون السرعة في إنجاز التفتيش هي السبب في صحبة الفريق.

وأيًا كانت الأسباب، فالمهم هو أن لا تذهب وحدك وخذ فريقًا معك، ومن الممكن أيضًا أن تكون كل هذه الأسباب حاضرة في اصطحاب الفريق.

الأمر الثالث: التفتيش (كورة كورة)، أي فتش تفتيشًا تفصيليًا، فعندما تدخل إلى مكان يجب أن تطّلع على كل شيء، فالتفتيش الشامل والعيّنات الواسعة، هي التي تعطي تقييمًا موضوعيًا ودقيقًا للأمور.

الأمر الرابع: الاستفسار من الناس، فلا تسأل المسؤول عن نفسه، بل اسأل الناس ماذا يقولون عنه، لأنّ الإنسان يحاول دائمًا أن يزين عمله ويظهر نفسه بأنه ناجح قد حقق أفضل الإنجازات، فانظر ماذا يقول الناس؟ ماذا تقول الجهة المستفيدة؟ فهذا شيء مهم.

الأمر الخامس: دراسة آليات العمل وسياقاته وطريقة الإدارة، وانظر للذي نجح.. لماذا نجح؟ والذي فشل.. لماذا فشل؟ وهذا منهج قياديّ.. يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لكعب بن مالك: لقد ذهبت وفتشت وكتبت لي: إن الوضع في القرية الفلانية خراب في خراب، والناس كلها غير راضية عن مسؤوليها، والناس في تلك القرية راضون، أما كيف يعرف المسؤول الأعلى أو الحاكم صحة تقييم المفتش وفريقه، لتتحقق فوائد التفتيش العلني، فإنّ ذلك مرهون بكيفية عمل المسؤولين المحليين؛ هل هي التي سببت المشكلات، أو حققت الإنجاز؟ أو هناك أسباب أخرى؟ فالمسؤول يجب أن يكون ملمًا بكل التفاصيل لكي لا يظلم أحدًا من فريقه أو ممن يضعه في المسؤولية، لأنّ التصدي للمسؤولية فيه ضريبة، فاليوم، مثلًا، كل واحد منكم إذا كان لطيفًا ومحبوبًا في الوسط الوظيفي الذي يعمل فيه، عندما يضعونه مسؤولًا ويريد أن ينجح، فعليه أن يطبق الضوابط، وسيصبح مكروهًا عندهم، فأحيانًا يكون مكروهًا لأنه يعمل جيدًا، بينما يريد الآخرون أن يتسيبوا، إذن لا يكون عدم الرضا دائمًا دليلًا على فشل المسؤول، بل ربما كان دليل استقامة، ولذا على المسؤول أن يحسّن علاقاته العامة، لذلك يطلب أمير

المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الكثير من انطباعات الناس، إذ يريد أن يعرف كيف يدير هذا المسؤول عمله، ما هي آلياته؟ ما هي سياقات عمله؟ لكي تكون نتائج المهمة سليمة وناجحة.

انظروا إلى عمق المنهج القياديّ في المنظومة القياديّة الإسلاميّة، فبعد ألف وأربعمائة سنة من التطور في القيادة والإدارة، لو أردنا اليوم أن نكتب في فن القيادة والإدارة، فلا يوجد لدينا شيء نضيفه لكل هذه الأمور وهذا التدقيق، وهذا العمق الذي كان ينظر به أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منذ ذلك الحين.

الإضاءة الرابعة

دور الرقابة والمتابعة والتقييم

تتناول الإضاءة الرابعة دور الرقابة والمتابعة والتقييم؛ أي النتائج التي يحققها هذا الأمر، فما الذي يتحقق بالرقابة والتفتيش والمتابعة؟.

يمكن اختزال هذه النتائج ضمن الأمور التالية:

الأمر الأوّل: أنّ هذه الخطوات الثلاث تساعد على الأمانة في أداء المسؤولية، فالمسؤول الذي يعرف أنه تحت النظر، وأن هناك مراقبة دائمة له، وتفتيشًا مستمرًا لعمله، ومتابعة لقراراته وسلوكه، هذا الأمر يوجد نوعًا من الحماسة لدى المسؤول في أن يحافظ على الأمانة ويؤدي الواجب بشكل سليم.

الأمر الثاني: حفظ الحدود والحرمات في العمل.. الالتزام بالسياقات والإجراءات والضوابط والتعليمات المرتبطة بتلك المهمة، فيصبح العمل عملًا مؤسسيًا، عملًا منهجيًا، يعرف كل واحد فيه حدود مسؤوليته، ودوره، لأنه يعرف أنه ما إن يتخطى حدوده حتى يُسجّل الرقيب والمفتش هذه المؤاخذات والمخالفات ويعرضها على المسؤول الأعلى لمساءلته.

الأمر الثالث: تساعد هذه الأمور في إنجاز المهام، وأداء الحقوق بشكل سليم وكما هو مخطط لها في تلك المسؤولية وتلك المهمة.

الأمر الرابع: تحفظ الأشخاص وتميّز بين الكفوء وغيره، بين العامل وغيره، بين من يُعطي جهده وبين المتسيب، فإذا وُجد التفتيش والرقابة الدائمة، فقد وُجد التقدير؛ فهذا مبدع قد حقق إنجازًا كبيرًا، وذاك متباطئ، ولا ينبغي أن يُنظر لهما سواسية، والحال أنهم ليسوا سواسية في الواقع، فالبعض أداؤه جيد والبعض ليس كذلك، ومن خلال الرقابة والتفتيش والمتابعة يتبين الصالح من الطالح، فيُعطى كلّ ذي حقٍ حقه.

الأمر الخامس : سيادة القيم الأخلاقيّة السليمة في العمل ، وذلك حينما يعرف كل موظف مهمته ومسؤوليته ومساحته ، ويؤدي واجباته بشكل سليم ، ويتعاملون مع الناس بشكل طيب ، إذن فالحفاظ على الأمانة ، ولين التعامل ، أمر يجعل البيئة القياديّة بيئة أخلاقيّة ، ويجعل المتصدين يتعاملون ضمن القيم والمبادئ الأخلاقيّة والسلوك المستقيم .

الإضاءة الخامسة

أوصاف المفتشين

تتناول الإضاءة الخامسة والأخيرة أوصاف وسمات المفتشين في عمليّة الرقابة والتفتيش والمتابعة ؛ ما هي الأوصاف التي ينبغي أن يتسم بها المفتش العام الذي يُرسل للتفتيش ، أو المعنيون بأمور الرقابة ؟ .

يُشترط فيهم ما يُشترط في غيرهم من الأوصاف الثمانية التي ذُكرت ، وزيادة على هذه الأوصاف هناك شروط أخرى يجب أن تتوفر فيهم ، كما وردت في قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :

الصفة الأولى : (وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ) : يجب أن يكون المفتش صادقًا ، لا يلفق ، ولا يتلاعب ، فلا يكبّر الخطأ الصغير ويصرخ : وإسلاماه ! لأن لديه مشكلة مع هذا الشخص ، ويهوّن الإنجازات الكبيرة ويقلل منها ، مع أنّ هذا العمل الذي أدّاه هذا الشخص يُعد معجزة إداريّة قياديّة ، ولكن المفتش يسخفها ويقلل من قيمتها ، إذ يصغّر الكبير ويكبّر الصغير ، ويهوّن القضايا الإيجابيّة المهمّة ويضخّم القضايا السلبيّة الصغيرة ، لأن هذا الشخص لا يعجبه ، وفي مقابل ذلك ، وفي الاتجاه الآخر ، عندما يرى خطأ فادحا من شخص آخر له معه مصلحة أو من حزبه وما إلى ذلك ، فإنه يقلل من أهمية الخطأ ويصغّره في تقريره ، وإن وجد زلة صغيرة لدى شخص ليس له مصلحة معه ، فإنه يقلب الدنيا رأسًا على عقب ، ويكتب تقريرًا يضخم فيه من ذلك الخطأ ، أي يتعامل بمزاجه ، ولا يتحلى بالصدق في عمله ، بينما من شروط المفتش أن يكون صادقًا ، وإذا لم يكن كذلك فلا ينبغي أن يكون في هذا الموقع ، لأن المفتش عين المسؤول الأعلى ، ويجب أن ينقل له الأمور بصدق ، لا يزيد ولا يُنقص ، لا يكبّر ولا يصغّر .

يجب أن يكون المفتش مرآة للمسـؤول، ينقل له الحقيقة كما هي، فالمرآة لا تكذب أهلهـا، وتريك نفسـك كمـا أنت لا زائـدًا ولا ناقصًا، والمفتش يجـب أن يكون كذلك صادقًا، واضحًا، لا يزيد ولا ينقص.

الصفة الثانية: (وَالوَفَاءِ): يجب أن يكون المفتش وفيًا، لا يخون، ولا يعطي صورة غير واقعية، فإذا كان الواقع إيجابيًا فلا يعطي صورة سـلبيّة، وإذا كان الواقع سـلبيًّا فلا يعطـي صـورة إيجابيّة، لأنّ هذه خيانة، وعلى المفتـش أن يكون وفيًا وأمينًا لا يغدر ولا يخـون، وقد رأينا في بلادنا كم جرّ من يسُـمى بالمخبر السـري علـى الناس من بلاءات ومشـكلات ومظالـم، لأنه مخبر سـري لا أحد يعرفه فيكتب ما يعجبـه، وقد يطلب منه مسؤول أن يكتب شيئًا ما، فقُطعت الرقاب، ودخل أناس السجون سنين طويلة، وهناك أناس أُنتهكت أعراضهم وسمعتهم، وبعد سنين فتحوا له باب السجن واعتذروا منه لأن الخبـر كان غير صحيح، فبعد كل هذه السـنين والأضرار الماديـة والمعنوية يقولون له: نرجو المعذرة، لذلك فإنّ عدم الدقة في اختيار المفتشين والعيون والرقباء يؤدي إلى مثل هذه النتائج الكارثية.

وقـد ورد فـي رواية عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قولـه: (من أهل الأمانة والقول بالحق عنـد النـاس)، أن يكون أمينًا، وفيًا، أي لا يخون، وأن يقـول الحق، وليس هذا فقط، بـل يجـب أن يكـون معروفًا بقول الحق عنـد الناس، فالناس تعرف أنـه صادق، فيجب أن يكـون معروفـًا بذلك لكـي يطمئن الناس للتقييمات التي يقدمهـا والصورة التي ينقلها للمسؤول الأعلى.

المحور الرابع

العقوبات

(وَتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِداً فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ)

النقطة الخامسة من هذا المقطع في اختيار المسؤولين، هي العقوبات التي تترتب على الرقابة والتفتيش والمتابعة، وهذه مسألة مهمة جدًا، فإنّ الجهد الذي يبذله المفتش في التحقيق والمتابعة وكتابة التقرير النهائي في تقييم العمل، وتحريه الصدق والموضوعية، لا يصح أن يكون مآله عندما يصل إلى المسؤول الأعلى أن يقول: الحمد الله، هذا إنجاز عظيم، ضعوه في الأرشيف، فماذا استفدنا؟ هذا الذي تعب وأنجز وحقق هذه الطفرة الكبيرة في العمل، كيف تكون نتيجة عمله بعد ذلك أن يؤرشف فقط، من غير أن يترتب عليه أي أثر؟ وكذا لو كان التقرير في الاتجاه الآخر، وكان ذا نتائج خطيرة، كما لو تبين أنّ المسؤول الفلاني سارق، أو متباطئ، أو متهاون، فكيف يُحفظ في الأرشيف؟ وما هو الأثر الذي يترتب على هذا؟ فكل هذه الخطوات من المتابعة والتفتيش والتقييم ليس لها قيمة إذا لم يترتب عليها أثر، سواء كان سلبيًا أم إيجابيًا.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَتَحَفَّظْ مِنَ الأَعْوَانِ)، الأعوان: أي المنظومة القياديّة، (تحفّظ)، أي احذرهم ودقق في أمورهم، ولا تتركهم بلا رقابة يعملون ما يشتهون، (فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ)، إذا مدّ أحدهم يده إلى المال العام، أو أساء استغلال الموقع والسلطة لمآرب شخصيّة أو عائليّة أو عشائريّة أو حزبيّة أو مناطقيّة، أو أساء التعامل مع الناس، فلم يحفظ أمانة المسؤولية التي كُلف بها.

(اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ)، أي أكد جميع المفتشين الذين أرسلتهم القضية نفسها، وأجمعوا كلهم على أنه فاسد، ورأوا أنّ الملفات والحسابات المالية كلها مشبوهة ومشكوك فيها، وأن هناك تلاعبًا كبيرًا في المال العام، وكل مفتش يرسله

الحاكـم يكتب الأمر نفسـه ، فاجتمعت كلمة المفتشـين والعيـون كلهم على هذا الخرق وهـذه الخيانة التـي صدرت منه ، (اكْتَفَيْتَ بِذلِكَ شَـاهِدًا) ، أي علـى الحاكم أن يكتفي بشهادة هؤلاء المخبرين والمفتشين والرقباء الذين أجمعوا على ثغرة وخلل في عمل هذا المسؤول ، (فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ) ، وهنا يجب على الحاكم أن يعاقبه في بدنه ، (وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ) ويحاسـبه بما يناسـب حجم الخيانة ، أي يجب أن تكون العقوبة بنفس حجم التعدي على المال العام ، وعلى الصلاحيات والمهام .

(ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ) ، أي أن لا يكتفي الحاكم من المسؤول بعد كل هذه الجرائم التي ارتكبها ، بأن يعيد الأموال المسروقة فقط وينتهي كل شيء ، كلا ، بل يجب أن يهينه ، ويذله ، ليصبح عبرة لمن اعتبر ، (وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيانَةِ) أي يعلن الحاكم للرأي العام ويصدر به بيانًا يقول فيه : إنّ فلانًا خائن ، ليعرف الناس أنّ هذا التحقيق والتدقيق والتفتيش كانت له ثمرة ، وهي التشهير بأن المسؤول الفلاني خائن وسارق ، لا أن يغيب فجأةً عن الأنظار ولا يعلـم النـاس مـاذا فعل بـه الحاكم؟ ؛ هل عاقبـه أو لم يعاقبـه؟ ، إذن يجب أن يعلن الحاكم ذلك ليعرف الناس أنه لا يتساهل مع الخونة ، (وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ) ، في العصور الماضية كانوا يضعون شـيئًا في رقبة الخائن ويطوفون به في المدينة على أنه فاسـد ، وفي مقابـل ذلـك هناك مسـؤول حقق إنجازا مهمًا ، ويجب أن يمنحوه وسـام شـرف تكريمًا لجهده وإخلاصه ، أما إذا كان خائنًا فيجب أن يقلدوه وسام الخيانة ، ما يُظهر حجم التهمة والعار الذي أصابه من جرائها .

الإضاءات المستفادة من هذا النص

يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في جانب العقوبات إلى عدة إضاءات :

الإضاءة الأولى

مراقبة فريق التفتيش

ينبغـي مراقبـة فريق التفتيش وعـدم التهاون في هذه المراقبـة ، والفريق هم مجموعة الموظفين الذين يعملون مع المسؤول ، وهؤلاء الموظفون أو العاملون الذين تحت أمرة المسـؤول ، مهما كانت ثقته بهم عالية ، يجب أن يبقوا تحت المراقبة ، فإنّ حسـن الظن بهم ، وإغماض العين عنهم ، والتهاون في مراقبتهم ، خطأ كبير ، بل يجب على المسؤول أن يراقب العاملين معه ، بالرغم من ثقته بهم ، ويتأكد من سلامة أدائهم وعملهم ، وهذه

المراقبة المستمرة للعاملين، وشعورهم بأن مسؤولهم لا ينفك عن مراقبتهم، من خلال الزيارات المفاجئة، وزرع العيون، هذا الشعور يمنعهم من الانزلاق في الانحرافات، والأخطاء، والتمدد، والتهاون، وهذا بحد ذاته يكون كابحًا مهمًا وأساسيًا لهم، وحين ذاك يحتاج إلى معاقبة، وبالطبع فالعقوبة ليست هي الخطوة الأولى كما تبين، بل تسبقها الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: إعطاؤهم معاشات جيدة، لكي يعيشوا حياة كريمة، هكذا قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ يجب في المنظومة القياديّة أن تكون حياة العاملين مكفولة، ويجب أن تكون المعيشة الكريمة متوفرة.

الخطوة الثانية: أن يتعامل المسؤول معهم برفق واحترام وتقدير، ويعطيهم قيمتهم، فكما تعرفون، فإن المسؤول أحيانًا في المنظومات القياديّة العسكرية أو المدنية، لكي يثبت نفسه، يهين الذين تحت أمرته، مع أنه من ركائز المنهج الإسلاميّ في الإدارة والقيادة احترام العاملين معه وتقديرهم، ولا ينبغي أن يسمعهم الكلمة غير اللائقة، والعبارة النابية، ولا يظهر إهانتهم، وعلى عكس ذلك، فإنّ إكرامهم تعزيز للثقة بينه وبينهم، ولهذا فإنّ التعامل معهم برفق ومحبة أمر مهم.

الخطوة الثالثة: يجب أن يشعر العامل في المنظومة القياديّة وفي كل المواقع، بأنّ كرامته محفوظة، فهو ليس عبدا عند المسؤول، بل هو يعمل معه، ومؤمن بمشروعه، ويريد أن يخدمه، ويريد أن يعيش، فلماذا هذا التعامل القاسي؟ ولماذا هذه الإهانة؟ ولماذا هذه الإساءة؟ ولماذا هذا الإذلال؟.. إنّ المنهج الإسلاميّ يوفر للعامل المعيشة المناسبة، فيجب أن تتعامل معه باحترام، وتحفظ كرامته، هذا هو الأساس، لكن إذا لم تكن كل هذه الوسائل مجدية، وكان يحظى بكل ما مرّ في الخطوات السابقة، ومع ذلك مدّ يده للسرقة من المال العام أو من الناس، مع أنه لا ينقصه شيء، فراتبه مليون دينار، ولم يُقصّر معه في شيء، وكان تعامل المسؤول معه مهذبًا ومحترمًا، وكرامته محفوظة، فلا تبقى له حينئذ حجة، فماذا عساه أن يقول عندما يُسأل: لماذا تعتدي على الناس وتمد يدك إلى المال العام؟ إذ لا يبقى له عذر.

إذن، فالأساس استخدام هذه الوسائل الأخلاقيّة في ضبط إيقاع العاملين وتحقيق الاستقامة والأمانة في عملهم وأدائهم، فإذا لم تنفع كل هذه الخطوات، حينذاك لا يوجد طريق إلا العقوبة.

لاحظوا ماذا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عيون الحكم والمواعظ: «من لم تصلحه الكرامة»، هناك من الناس من لا ينصلح إذا تعاملت معه بكرامة، ولا تستقيم مواقفه

بالكرامة ، «أصلحته الإهانة»[٣٧] ، فحينئذ لا تنفع معه إلا الإهانة والاحتقار ، لأنك عندما تستعمل معه اللين والاحترام والتقدير لا تجد منه استجابة ، ولكن عندما تهينه تجده يستجيب ويعمل بالشكل المطلوب ، وكما قيل قديمًا ، فالحر تكفيه الإشارة ، والعبد إلاّ بالعصا ، فالإنسان الحر يعرف واجباته من نظرة ينظر بها المسؤول ، أو من إشارة يؤشر بها ، فهو يعرف واجباته من أول يوم وضعوه فيه مسؤولًا في موقع ما ، ولا يحتاج إلى أن يقول له المسؤول الأعلى منه : افعل أو لا تفعل ، وإذا غفل فإنّ إشارة بسيطة تكفيه ليتنبه ويقوم بإنجاز واجباته التي كُلف بها ، أما العبد وغير الحر فلا تنفع معه إلا الإهانة ، كما قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، فمن لا يريد أن ينصلح بالإكرام ، فالمسؤول مضطر إلى أن يتعامل معه بهذه الطريقة .

الإضاءة الثانية

دور العقوبة وتأثيراتها

لا معنى للرقابة والتفتيش والمتابعة والتقارير ، إذا كانت ستوضع بعد ذلك على الرف وتُحفظ ، ولا قيمة لها حينئذ ، بل قيمتها حينما يترتب عليها الأثر ، سلبًا أو إيجابًا ، مدحًا أو قدحًا ، فيجب الأخذ بنتائج التفتيش في كل حال ، فيوجه كتاب شكر لمن أنجز إنجازًا جيدًا ، ويترقّى رتبة من كان إنجازه مهما جدًا ، ويُقام لمن كان إنجازه أعظم احتفالٌ احتفاءً بإنجازه ، ويكرّم علنًا على رؤوس الأشهاد ، لأنه قام بالخطوة الفلانية ، وأنجز الإنجاز الفلاني ، وفي الاتجاه الآخر السلبيّ ، يتدرج في العقوبة بحق من ارتكب مخالفات ، فيبدأ بإلفات نظر ، فإن لم ينفع فتحذير ، فإن لم ينفع فتوبيخ ، فإن لم ينفع فإجراءات إداريّة صارمة ، فإن لم ينفع فتجميد في العمل ، فإن لم ينفع ففصل من العمل ، إذ يجب اتخاذ موقف .

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في نهج البلاغة : «وإذا لم أجد بدًا» ، إذا فعل الحاكم كل ما يستطيع من إظهار الاحترام والأخلاق والكرامة والتقدير مع من هم تحت أمرته ، ولكن لم ينفع ذلك كله ولم يرَ نتيجة ، «فآخر الدواء الكي»[٣٨] ، فحينئذ لا بُدَّ من إنزال العقوبة

٣٧. عيون الحكم والمواعظ : ٤٢٦ .

٣٨. نهج البلاغة ٢ : ٨١ ، خطبة ١٦٨ .

الصارمة، وإرجاع الأُمور إلى نصابها بقوة القانون، فهناك من لا ينفع معه إلا العقوبة والقوة.

وورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قريبًا من هذا المعنى، قوله: «من لم يصلحه حسن المداراة»، هناك بعض الناس لا يُصلح ولا يستقيم بمعاملته بالأخلاق الحسنة والأدب والاحترام، ولا ينفع معه حسن المداراة، «أصلحه سوء المكافاة»[٣٩]، انصلح واستقام بالعقوبة وسار في الطريق الصحيح، والعبد إلاّ بالعصا، فحال هذا الصنف من الناس حال العبد المملوك الذي تُستعمل معه العصا إذا تخلف عن أداء عمله بشكل صحيح.

الإضاءة الثالثة

التحري

هو التأكد من ثبوت الخيانة قبل إنزال العقوبة، فلا ينبغي للمسؤول بمجرد أن تصل إلى أسماعه كلمة، أن يبادر مسرعًا إلى اتخاذ الإجراءات، إذ يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ)، عيون وليس عينا واحدة، فلا بُدَّ من التدقيق، لأنّ للناس حرمة وكرامة، ولا يجوز ترتيب الأثر على تقرير واحد، ولا يحق للمسؤول أن يبيع من كان يخدم معه سنين بسبب كلمة سمعها، بل عليه أن يتأكد، ويرسل المفتش الثاني، والثالث، والرابع، فإذا اجتمعت كل المصادر، وكل العيون، وكل المفتشين، وتطابقت المعلومات كلها على نفس الكلام، أي مصادر متعددة ولكن الرواية واحدة، حينئذ تتضح الأمور بشكل كامل، وعندها يستطيع أن يتخذ الموقف ويعاقب.

إذن، لا بُدَّ من التروي والتدقيق والتحري والتأكد من ثبوت الخيانة، أما لماذا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذا الكلام؟ فذلك لأن تحمل المسؤولية يجعل الإنسان في مرمى السهام، فما دام بعيدًا عن مواقع المسؤولية فلا أحد ينال منه بالكلام، ولكن حين يصبح مسؤولًا فهناك أناس تحسده، وأناس تتضرر من إجراءاته، وأناس تنظر لمصالحها، لذلك فالمسؤولية تخلق خصومات وعداوات، والكثير منها ليس بوجه حق، فالمسؤولية تعرّض الإنسان إلى الكثير من سهام الاستهداف والتسقيط والشائعات والاتهامات والادّعاءات الباطلة، فإذا جاء كل مخبر أو أي شخص بتقرير أو قال كلمة

---

٣٩. عيون الحكم والمواعظ: ٤٤٤.

وقبلنا بها، وأسرعنا بعقوبة من يتصدى للمسؤولية، فلن يبقى أحد، ولهذا يجب أن تُجرى عملية تدقيق في هذه المسألة، وعندما يتأكد الأمر حينئذ يُتخذ الإجراء.

الإضاءة الرابعة

التناسب بين العقوبة وحجم الخطأ

يجب أن يكون هناك تناسب بين حجم الخطأ والتجاوز والتهاون والخيانة وحجم العقوبة، فلا ينبغي أن يعاقب كل من أخطأ ويُطرد من وظيفته، وقد قضى سنين معك في الخدمة، وأنجز أشياء جيدة، فلا يجوز أن تُمحى كلها بخطأ واحد ويُطرد من عمله، بل يجب أن تكون العقوبة متناسبة مع حجم الخطأ، فمن ارتكب خطأ لأول مرة يجب إعطاؤه فرصة مع تحذير، أو إلفات نظر، فإن أخطأ مرة ثانية فحينئذ تكون العقوبة أشد، فإن أخطأ مرة ثالثة فعندها حلّت بساحته العقوبة، فإن «آخر الدواء الكي»، كما يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وتشمل العقوبة الخطوات التالية:

أولًا: مصادرة الأموال المسروقة، الممتلكات المُعتدى عليها، فإذا كانت من المال العام ترجع لبيت مال المسلمين، وإذا كانت من أموال الناس أُرجعت إلى أصحابها، فهذا المسؤول المعتدي سرق أموالًا وارتشى وضغط على الناس لابتزازهم، فأول إجراء يُتخذ بحقه هو مصادرة ما بحوزته من أموال وإرجاعها إلى أصحابها.

ثانيًا: تعويض المتضررين نتيجة الظلم الذي لحق بهم؛ بسمعتهم، أو تجارتهم، فمن رُمي في السجن خمس سنين وتوقفت تجارته، وطُلقت زوجته، وتشتت أولاده، فلا يكفي أن نقول له: نرجو المعذرة وفي أمان الله، بل لا بُدَّ من التعويض، ومحاسبة من تسبب له في ذلك، فإن كان هو المخبر السري، فهذا يعني أنّ سجنه ناتج عن خطأ، ويجب أن يُدفع له التعويض من بيت مال المسلمين، وإن كان ناتجًا عن وشاية شخص تعمد إيذاءه، فالمتعمد هو الذي يدفع التعويض عن الأضرار التي لحقت به.

ثالثا: العقوبة البدنية، وقد تكون بالسجن، وقد تكون بالتعزير أو الجلد، أو أي شيء آخر من العقوبات التي تتناسب مع حجم الخرق الذي ارتكبه والخيانة التي صدرت منه.

رابعًا: وسمه بالخيانة، وهذا يعني حرمانه من الحقوق المدنية في تعبيراتنا الدارجة اليوم، وحرمانه من الحقوق المدنية يعني أن هذا ليس له حق المواطنة، وقد يصل الحال في بعض الدول إلى أن تسحب منه الجنسية، وفي العرف العشائريّ إذا فعل أحد أبنائها

هذا الفعل، فهو يشين سمعتهم، فيعلنون البراءة منه ويسقطون انتماءه لعشيرتهم، فهذه كلها إجراءات يُمكن أن يتحقق منها الوسم بالخيانة.

خامسًا: تقليده عار التهمة، أحيانًا تصل الجريمة والخيانة إلى مستوى يجب معه أن يُشهر بهذا المسؤول الفاسد، الخائن، المجرم، فتخرج صورته مع بيان رسمي في وسائل الإعلام، ليعرف الناس حقيقته، أي يفضحونه أمام الرأي العام، وأما فائدة هذه الفضيحة للمسؤول المجرم الفاسد فهي:

الفائدة الأولى: ترسيخ مبدأ العدالة، بأن يعرف الناس بالجريمة التي ارتكبها هذا المسؤول، سواء كان وزيرًا، أو رئيسًا، أو قائدًا، أو ضابطًا، لأنه ارتكب خيانة عظمى، فيُفضح ويُكشف، وحينئذ يشعر الناس بأنهم سواسية أمام القانون، وأنه توجد عدالة في هذا البلد.

الفائدة الثانية: إشعار الناس بهيبة الدولة، أي أنّ الدولة أكبر من كل المسؤولين، وأنّ أكبر مسؤول إذا لم يلتزم بالقانون فسوف يُحاسب، وهذا من شأنه أن يعطي قوة وهيبة للدولة، وعندها لا يشعر المسيء فيها بالأمان.

الفائدة الثالثة: الاعتبار، فيصبح المسؤول الفاسد عند حلول العقوبة به عبرة لمن اعتبر، وحينئذ لا يتجرأ أحد على الإساءة مرة ثانية، فلو حوكم بعض رؤوس حيتان الفساد في البلد، فسيعرف الجميع حدوده، أما لو بقينا نحاسب الموظفين الصغار فقط، فلن نكافح الفساد بهذه الطريقة، بل يجب أن نبدأ بمكافحة رؤوس الفساد وحيتانه، إذن فالاعتبار مهم جدًا.

بعد أن تصدى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للخلافة، رأى من كان قبله قد وزع أموال بيت المال ليس وفقًا لضوابط ومعايير العدالة، فمن حاز هذه الأموال لم يكن سارقًا، بل الحاكم هو من أعطاه إياها، ولكن ليس ضمن الصلاحيات والمعايير، وليس على أسس صحيحة، أي وهب الأمير ما لا يملك، فقد كانت هذه الأموال للمسلمين جميعًا، وهي ملك الله، وتسمى بالمال العام، فلا يجوز للحاكم أو المسؤول أن يمنحها لهذا وذاك بلا وجه حق، وقد عرف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ما فعله من كان قبله، بقوله: «ألا وإن كل قطيعةٍ»، القطيعة: الهبة، المنحة، المكرمة، «أقطعها عثمان من مال الله»، من بيت المال، مرة يعطي الحاكم من ماله الخاص، فهذا مباح له، ولكن عندما يعطي من بيت المال، فهذا ليس من حقه، وليس له أن يوزع أموال الناس بهذه الطريقة، إذن للحاكم أن يكون سخيًا وكريمًا في ماله الشخصي، لا من المال العام، فالمال العام لا يتم التصرف به بمزاجية، وأما المال الشخصي فافعل به ما تشاء، وقد قال أمير المؤمنين

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في عثمان الذي كان حاكمًا على المسلمين قبله إنه أعطى أموال بيت المال ليس وفقًا لضوابط العدالة.

«مـردودٌ علـى بيت مال المسـلمين»، كل من أخـذوا من أموال بيت مال المسـلمين فليعيدوهـا، وليـس لهم أن يقولوا: إنّ الخليفة هو من أعطانا إياها، لأنه لم يعطكم إياها بوجه حق، وعليكم أن ترجعوها إلى بيت المال، لأنها ليست من حقكم.

«فإن الحق قديم لا يبطله شيء»، عندنا قاعدة حقوقية تقول: الحق لا يسقط بالتقادم، أي أنّ هـذه حقـوق المسـلمين دُفعت إليك بغيـر وجه حق فأرجعها، ولا يسـقط حقهم فيهـا وإن مـرت الدهـور، «ولو وجدته»، فإذا لـم يرجعوه ووجدته، «تفـرق في البلدان لرددته»[٤٠]، من أرجعه فقد رضخ للحق، أما بشأن من لم يرجعه، فلو وجدته متفرقًا في البلدان، هذه أموال مسروقة، سواء كانت في العراق، أو في أي بلد آخر، أو في مجاهيل الأرض، فهـذه أموال الشـعب لا تسـقط بالتقادم، فأخرجها من بطـن الذي أخذها حتى لـو كان فـي أقصى الأرض إن اسـتطعت، لذلك فإنّ هذه العقوبات تمثل مكملًا أساسـيًا لسـلامة الأداء، وفـي منظومـة اختيار القادة والمسـؤولين الكبار فـي الدولة والدرجات الخاصة، وكما ذكرنا، فإن هذه وإن كانت معايير للدرجات الخاصة أو كبار المسؤولين في الدولة، ولكنها نفسـها تنطبق على جميع المسـتويات القياديّة، كل بحسـبه وبحسب مسؤوليته.

---

٤٠. شرح الأخبار ١: ٣٧٣، نهج السعادة ١: ١٨٦.

طبقة دافعي الضرائب

((وتفقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ ، فَإِنَّ فِي صلاَحِهِ وَصلاَحِهِمْ صَلاَحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ ، وَلاَ صَلاَحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلاَّ بِهِمْ ، لاَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ ، وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلاَبِ الْخَرَاجِ ، لأَنَّ ذلِكَ لاَ يُدْرَكُ إِلاَّ بَالْعِمَارَةِ ، وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَة ، أَخْرَبَ الْبِلاَدَ ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قَلِيلاً ، فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلاً أَوْ عِلَّةً ، أَوِ انْقِطَاعَ شِرْب أَوْ بَالَّة ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْض اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بما تَرْجُو أَنْ يصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ ، وَلاَ يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلادِكَ ، وَتَزْيِينِ وِلاَيَتِكَ ، مَعَ اسْتِجْلاَبِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ ، وَتَبَجُّحِكَ باسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ ، مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ ، وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ فِي رِفْقِكَ بِهِمْ ، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ ، فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا ، وإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلاَةِ عَلَى الْجَمْعِ ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِم بِالْعِبَرِ)) .

يرتبط هذا المقطع بدافعي الضرائب، وقد ذكرنا أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ تحدث عن الطبقية الاجتماعيّة في الإسلام، وأنها تقوم على أساس المهن، وذكر خمس طبقات أساسيّة، يُمكن أن تتفرع منها طبقات أخرى، وكل طبقة منها يمكن أن تكون ضمنها طبقات أخرى أيضًا، وكانت الطبقة الأولى: الجند والقوات المسلحة، والطبقة الثانية: العمال، موظفو الدولة، كبار المسؤولين، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام: الموظفون، منهم القضاة، ومنهم العمال، ومنهم الكتّاب، بتفصيل شرحناه سابقًا، والطبقة الثالثة هي طبقة دافعي الضرائب، والطبقة الرابعة هم رجال الأعمال والاقتصاديون والصناعيون، والطبقة الخامسة هم الفقراء وذوو الدخل المحدود.

ثم بدأ بالتفصيل في كل طبقة من هذه الطبقات، والحديث عنهم وعن شؤونهم، وعن الرؤية الإسلاميّة في ما يرتبط بأوضاع كل طبقة من هذه الطبقات، فتحدث عن القوات المسلحة، ثم عن الموظفين، بدءًا من القضاة، ثم العمال، وهم كبار مسؤولي الدولة والمحافظون والحكّام والولاة وما إلى ذلك، وقد تحدثنا في هذا الأمر، وسنتحدث في موضوع الكتّاب لاحقًا.

انتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الطبقة الثالثة، وهي طبقة دافعي الضرائب، وكما هو معروف فإنّ أغلب موارد الدول هي من الضرائب التي تفرضها على الأفراد والشركات الخاصة والعامة، وهي أموال الجباية التي تحصل عليها الدول من الخراج أي الضريبة، وأما النفط والثروات من هذا النوع، فكلها طارئة على اقتصادات الدول المنتجة لها، ولم تكن معروفة في القرون السابقة، وهي ليست دائمة بل ستنضب في يوم من الأيام، وفي هذا اليوم فإنّ أكثر الدول الصناعية في العالم تتألف مواردها وموازنتها من الضرائب، ولذلك كانت الضريبة في الرؤية الإسلاميّة تشكل الدخل الأساسيّ للدولة، ومن خلالها يتم الإيفاء بكل الواجبات والمهام، ولعلَّ هذا الأمر هو الذي دفع أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للتحدث عن هذه الطبقة المهمة في المجتمع، وهي طبقة دافعي الضرائب، وقد تحدث عَلَيْهِ السَّلَامُ عن هذه الطبقة في العديد من الأمور والاتجاهات:

الأمر الأول

السياسات الضريبية

مـا هي طبيعة السياسـات التي يجـب أن تُعتمد في جباية الضرائـب؟ ، فيها يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(وَتفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ) : يوصي مالكًا الأشـتر بأن يدقق في أمر الخراج ، أي الضرائب ، ووضع السياسـات الصحيحة ، وتأكد من أن جباية الضرائب تتم بشكل عادل ومنصف ، ليـس فيـه إجحاف على النـاس ، (تفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ) ، دقق ، وادرس ، وضع السياسـات الصحيحة والملائمة في شـؤون الضرائب ، ويجبَ أن تضع سياسـات منصفة ، عادلة ، صحيحة - وكلمة الخراج تسـتخدم بمعنى كل أنواع الضرائب ، وتستخدم بمعنى خاص لخراج الأرض - ثم بيّن عَلَيْهِ السَّلَامُ كيفية هذا التفقد ، بقوله :

(بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ) : أي يجب أن تعود السياسات الضريبية بالنفع أولًا لأهل الضريبة ، لدافعي الضريبة ، فدافع الضريبة يجب أن يستفيد ، وتكون السياسة الضريبية عادلة منصفة وليست ظالمة مجحفة ، وتساعده على أن ينمو اقتصاديًا ، وأن يطور رأس ماله ، وتساعده علـى تحريـك عجلة الاقتصاد ، فكلما زاد عمله زادت أمواله ، وكلما زادت أمواله زادت الضرائب ، وزادت إيرادات الدولة ، وكلما زادت إيرادات الدولة أمكنها أن تقدم خدمات أكثر وأفضل بهذه الأموال ، فالدولة بمسـاحتها العريضة والواسـعة لديها قوات مسـلحة وقـوى أمنيّة تتسـلم رواتب ، ولديهـا جهاز قضائيّ ، وبرلمان ، وهو الجهاز التشـريعيّ ، وكان يسـمى سـابقًا مجلس الشـورى وأمثال ذلك ، وعندنا خدمات تقـدم للمواطنين ، كالخدمـات الصحيـة والخدمات التعليمية وغيرها ، وعندنا نفقـات في أبعاد اجتماعيّة ، وأبعاد أخلاقيّة ، وأبعاد دينيّة ، كل هذه من شؤون الدولة ، فمن أين يمكن إدارة أمورها؟ من موارد الدولة ، فما هي هذه الموارد؟ هي الضرائب ، فكلما لفت نظرك أمر عن دافعي الضرائـب فيجب أن توليه اهتمامًا ، وتضع سياسـات سـليمة لهم ، وتسـاعدهم على أن يطـوروا وضعهـم الاقتصـاديّ والماليّ ، لأنهم هم من يدفـع الضرائب ، وهم من لديهم

المـال ، فالفقيـر ليـس عليه ضريبـة ، بل هي على أصحـاب الأموال ، مـن ذوي الدخل المتوسـط والعالـي ، فهؤلاء الذين يدفعـون الضرائب ، ولذا ينبغي أن تكون السياسـات الضريبية سـليمة ، وتسـاعدهم على تقوية الاقتصاد ، وعلى تنميـة أموالهم ، وعلى دفع مشاريعهم إلى الأمام ، فإذا توفرت لديهم إيرادات أكثر ، دفعوا ضرائب أكثر ، وهذا يعني موارد أكثر للدولة ، هذه هي المعادلة ، وهكذا ينظر الإسلام ، وليس كيف يستنزف أموال الشعب .

إن رجل الأعمال أو من لديه المال ، إذا أخذت أمواله فلن يستطيع أن يعمل ، وإذا لم يعمل سـوف تتوقف موارده ولن تكون هناك ضريبة يدفعها ، وسـتتراجع الدولة ، ولكن إذا كانت السياسـة الضريبية سياسـة تشـجع على نمو المال ، وإنعاش الاقتصاد وتحريك عجلتـه ، فإنّ ذلك يسـاعد على نمو الدولة وزيـادة قدرتها على تقديم الخدمات ، فرجل الدولة لا ينزعج إذا كان لدى الناس أموال ، بل ينبغي أن يكون سـعيدًا ويتمنى للناس أن تكـون لديهـا أموال أكثر ، لأنه كلما كثرت أموالهم دفعوا أكثر ، وكلما دفعوا أكثر صارت لـدى الدولة أمـوال أكثر ، فتكون قادرة على أن تحقق مهامها وواجباتها بشـكل أفضل ، لذلـك يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ : (وَتَفَقَّدْ أَمْـرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ) ، يجب أن يكون أول أهداف السياسـات الضريبيـة هـو إصلاح حال دافعـي الضرائب ، فهؤلاء يجب أن تسـاعدهم ، وتقويهم ، وتنميهم ، وتدعمهم ، وتنصفهم .

لماذا الاهتمام بدافع الضريبة أولًا ؟ يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(فَـإِنَّ فِي صلاَحِهِ) ، في صلاح الخـراج وهو الضريبة ، (وَصلاَحِهِمْ) ، صلاح دافعي الضرائـب ، إذا كانـت السياسـات الضريبيـة معقولة ، وإذا كان دافعـو الضرائب في حال طيبـة ، والضرائـب غير مجحفة وتنمي وضعهم ، وتسـهل لهم أمورهـم ، والدولة تقف معهم وتدعمهم اقتصاديًا ، (صَلاَحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ) ، هذه هي فلسفة النظام الضريبي ، فإنّ الدولة تأخذ هذه الأموال لكي تخدم مواطنيها ، سواء من يدفع الضرائب أو من لا يدفع ، فـإذا أصلحـت أمور دافعي الضريبة وزادت بذلك مـوارد الدولة ، فالذي لا يدفع الضريبة من الفقراء سيسـتفيد من أموال دافعي الضرائب ، والدولة سـتتمكن من تحقيق أغراضها فـي خدمـة المواطنين ؛ فصـلاح الضريبة وصلاح أمـور دافعيها ، صـلاح لبقية الطبقات الاجتماعيّة التي تستفيد من هذه الضرائب ، وموارد الدولة في خدمة المجتمع .

(وَلاَ صَـلاَحَ لِمَـنْ سِـوَاهُمْ إِلاَّ بِهِـمْ) : لا صلاح لذوي الدخل المحـدود ، للفقراء ، للجهات المسـتفيدة من الضرائب ، إلا حين يكون دافع الضريبة مسـتفيدًا ولديه عائدات يدفع منها ضريبة للدولة ، لتوظف الدولة هذه الأموال في إصلاح شـؤون البلاد والعباد ،

فصلاح الآخرين، صلاح الجهات المستفيدة من الضرائب، لا يتحقق إلا إذا كان دافعو الضريبة مستفيدين، ليستطيعوا أن يطوروا وينموا إمكانياتهم.

(لاَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ): فإنّ الشعب يعيش على الضرائب ودافعي الضرائب، فمن لديه المال يدفع الضرائب، والدولة تأخذ هذه الأموال وتخدم بها المجتمع كله، الفقير والغني، واليوم في المدارس لا يقال: إن كنت غنيًا فادخل المدرسة، وإن كنت فقيرًا فأعانك الله، كلا، فالمدرسة مفتوحة للجميع، وكذلك الجامعة، والخدمات للجميع، والماء والكهرباء للجميع، فيستفيد منها من يدفع الضريبة ومن ليست عليه ضريبة، فالكل عيال على الدولة بمواردها، ومواردها من الضرائب، فأصبح الجميع يستفيدون من هذه الضرائب التي يقدمها دافعو الضرائب.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

يمكن استفادة عدة إضاءات من هذه الفقرة:

الإضاءة الأولى

مكانة الضريبة في الإسلام

تمثل الضرائب المصدر الأساسيّ والرئيس لإيرادات الدولة، فإذا وُجدت ضرائب وُجدت دولة قوية تقوم بواجباتها، وإن لم توجد ضرائب فالدولة ضعيفة، وستنهار بسرعة، لأنها حينئذ لا تستطيع أن تدفع رواتب موظفيها، ولا تستطيع أن تلبي شؤون وحاجات قواتها المسلحة، وشؤون وحاجات الوزارات والدوائر والهيئات، وتتعطل كل الخدمات، ومن هنا كانت للضرائب مكانة مهمة وكبيرة وأساسيّة، ولذلك يجب أن تعتمد السياسة الضريبية على أساس تطوير الاقتصاد وتنميته، وتحريك العجلة الاقتصاديّة، لأنه كلما نما الاقتصاد زادت الموارد، وزادت معها الضرائب، فتزداد بذلك موارد الدولة، فتستطيع الدولة أن تقوم بواجباتها بشكل أفضل في توفير الخدمات، وفي مجال الأمن، والتعليم، والصحة، والاقتصاد، والثقافة، وحتى في المجالات الأخرى كالمجال السياسيّ، وذلك من خلال تمويل وزارة الخارجيّة، والسفارات، والمجال الديني من خلال بناء المساجد ودعم الشعائر الدينيّة وتنمية الحالة الدينيّة في المجتمع،

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٤١) .

ولكي تحصل هذه الأمور على أرض الواقع ، فإنها تحتاج إلى عمل ، وفريق كبير يعمل على تحقيق هذا الأمر ، فإن جميع هذه المجالات تحتاج إلى أموال لكي تتطور وتقوى بشكل مطرد ، وكل ذلك يتطلب أن يكون دافعو الضرائب هم المستفيد الأوّل من السياسات الضريبية ، لكي يستطيعوا أن يستمروا في دفع الضرائب من جهة ، ويزداد حجم الضرائب التي يدفعونها من جهة أخرى ، وبذلك يستفيد كل المجتمع ، إذ كلما كان دافع الضرائب قادرًا على أن يتحرك ويجني مالًا أكثر ، وبالتالي يدفع ضرائب أكثر ، كانت خدمة الآخرين بشكل أفضل ، (لأنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ) ، فالمجتمع كله يعيش على هذه الضرائب ويعتمد على دافعي الضرائب ، ففي العائلة مثلًا ، يكون رب الأُسرة هو المسؤول عن توفير الدخل المالي للعائلة ، وعليه أن يعمل لتوفيره ، فالعائلة تقتات وتعيش على الرزق الذي يجلبه رب الأُسرة ، وهو مصدر المورد المالي لها ، فإذا فقد رب العائلة عمله تجد جميع أفراد العائلة في حزن ، إذ ليس هو فقط من سيتضرر ، بل هم سيتضررون أيضًا ، فإذا توقف عمل رب الأُسرة نجد العائلة كلها تدعو الله أن يرزقه ، وما دام عمله بخير ويجلب الأموال للعائلة ، فجميع أفراد أُسرته بخير ، وكذا الأمر بالنسبة لدافعي الضرائب في المجتمع ، فإذا كانوا هم مصدر الإيرادات المالية للدولة ، والكل يعيش على هذه الإيرادات ، فكلما وفرنا لهم فرص النمو الاقتصادي أكثر ، كانت أوضاع الناس أفضل .

الإضاءة الثانية

دور النظام الضريبي في الإسلام

إن النظام الضريبي هو النظام الذي يستطيع أن يحقق العدالة ، والانتعاش الاقتصادي ، ولذا يجب أن يكون نظامًا قديرًا ، وقويًا ، وهادفًا ، ومنصفًا وعادلًا ، ونظامًا سليمًا وصحيحًا ، وهذه هي الصفات الأساسيّة في أي نظام ضريبي لكي يستطيع أن يحقق الهدف المنشود في تحريك عجلة الاقتصاد .

٤١ . سورة الحج : الآية ٤١ .

(بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ) : يجب أن يكون النظام الضريبي نظامًا يُصلح ويساعد وينمي دافعي الضرائب ، لأنّ هؤلاء يستفيدون منه بشكل كبير لكي تنمو أموالهم وتزداد مداخيلهم ، وتزداد معها الضرائب المفروضة عليهم ، فتزيد مداخيل الدولة وإيراداتها ، ويجب أن لا يهدف النظام الضريبي إلى اتّباع سياسة إضعاف دافعي الضرائب ، أو إفقارهم ، فما داموا يحصلون على المال فهم يدفعون الضرائب ، وكلما نمت وازدهرت أعمالهم استفادت الدولة ، ومن ورائها استفاد المواطنون أيضًا ، وهكذا ينبغي أن تكون السياسة الضريبية والنظرة للضرائب ؛ نظرة تعتمد على الإنصاف والموضوعية والمرونة والواقعية في الأمور .

وسيأتي تفصيل ذلك في المحاضرات القادمة عندما يتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عنها ، وسنرى أهمية هذه الفلسفة ، وكيف أخذت الأولوية في التعاطي مع رجال الأعمال ، والمزارعين ، وأصحاب المشاريع ؟ ؛ كيف تتحملهم الدولة إذا تضرروا؟ ، وكيف تعوضهم ، وتساعدهم على أن يقفوا على أقدامهم من جديد؟ ، كل هذه الأمور تساعد في أن تبقى لدى شريحة دافعي الضرائب القدرة على التحرك وتنمية إمكانياتها ، لكي تستطيع أن تسعف المجتمع في الضرائب .

هذه السياسة الضريبية المنصفة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ، في ذلك العصر الذي كانت فيه السياسة الضريبية لإمبراطوريات الطواغيت والظلمة قائمة على امتصاص خيرات الشعوب ، والاستحواذ على أكبر قدر من أموالها ، وجاءت هذه السياسة الإسلاميّة القائمة على تنمية ثروات الشعوب ، وتقوية دافعي الضرائب ، وإنصافهم ، والتخفيف عنهم ، وتقسيط الضريبة عليهم ، والتسامح معهم ، فكانت سياسة مدهشة ، ومختلفة ، فجعلت الناس تتمسك بهذه الرؤية الإسلاميّة ، ليس من قِبل المسلمين فقط ، بل حتى من غير المسلمين ممن كانوا من أهل الذمة في البلاد الإسلاميّة ، وكانوا سابقًا تحت الحكم المسيحي ، وكذلك من كانوا تحت الحكم الجاهلي ، وكانوا يرون كيف يتعامل معهم حكامهم؟ ، وكيف تُجبى الضرائب منهم بالقوة؟ ، وكيف تضعفهم وتفقرهم وتسلبهم أي ثروة وأي إمكانات تتوفر لديهم؟ ، ورأوا كيف جاء الإسلام فصارت الضريبة طريقة لتقويتهم وتنميتهم ، فتمسكوا بالإسلام ، وأصبحوا يصرون على أن يحكمهم مسلم بهذه الثقافة وبهذه الطريقة ، لأنها بالنسبة لهم طريقة منصفة ساعدتهم على تنمية أعمالهم ، بالرغم من أنهم يدفعون الضرائب ، ولكن أوضاعهم تحسنت بشكل كبير .

أعـرض هـذه القصة التي يذكرها أبو العباس البلاذري فـي كتابه (فتوح البلدان)[٤٢]، والتي تظهر تعامل أهل الذمة من النصارى واليهود مع الحاكم المسلم نتيجة هذه السياسة الضريبيـة، والإنصـاف في جباية الضرائب، يقول: «حدثني أبو حفصة الدمشـقي قال: حدثنـا سـعيد بن عبد العزيز قال: بلغني أنه لما جمع هرقـل»، هرقل إمبراطور الروم في ذلك الوقت، في الصدر الأول للإسـلام، فقد كانت هناك إمبراطوريتان: الإمبراطورية الرومانيّة البيزنطيّة والإمبراطوريّة الفارسيّة، التي نسميها اليوم القوى العظمى.

«بلغني أنه لما جمع هرقل للمسـلمين الجموع»، جمع هرقل إمبراطور الروم جيوشه ليغزو بلاد المسـلمين، وكان جيشًـا جرارًا مسـتعدًا لقتال المسـلمين، «وبلغ المسلمين إقبالهـم إليهـم»، وصل المسـلمين الخبـر بأن هرقل جمـع الجيوش ليأتـي ويغزوهم، فكان عليهم أن يسـتعدوا للقتال، ويسـتنفروا كل إمكاناتهم لدفـع هذا العدوان عن بلاد المسـلمين، فكانت حرب اليرمـوك المعروفة تأريخيًا، فماذا فعل المسـلمون أولًا؟..

«ردوا على أهل حمص»، التي كان يسكنها المسيحيون، «ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج»، أول ما فعله المسـلمون أنهم ردوا الضرائب التي أخذوها من أهل حمص المسيحيين، لأنهم كانوا من أهل الذمة يدفعون الضرائب، فاستغربوا وقالوا: لديكم حرب تحتاج إلى نفقات وعليكم أن تسـتعدوا لها، فلماذا ترجعون لنا الضرائب؟ فقالوا لهم: إنّ فلسـفة هذه الضرائب في الإسـلام هي خدمة الناس، فنحن نأخذ الضريبة منكم في قبال أن نحميكم ونوفر لكم خدمات، ونساعدكم، ونعمر لكم بلدكم، والآن لدينا حرب وسننشغل بها ولا نستطيع أن نحميكم أو نخدمكم، فهذا هو الغرض من هذه الضرائـب، ونحن الآن لا نسـتطيع تأدية هذا الغـرض، فأرجعنا هذه الضرائب لكم لكي تخدموا أنفسـكم بأنفسكم، وإذا فرغنا من الحرب واستطعنا أن نحميكم فسوف نأخذها منكم، فتعجب أهل الذمة حين رأوا هذا الفرق الشاسع بين المسلمين، وذاك الإمبراطور البيزنطيّ، الذي هو مسـيحيّ مثلهم، ولكنه كان يسـتنزف أموالهم، ويرسـل المفتشـين ليدخلوا بيوتهم ويفتشـوا ويأخذوا ما يريدون، بينما يرجع المسلمون الضرائب لهم، مع أنهم في حالة حرب، ويقولون: لا نستطيع أن نخدمكم أو نحميكم.

«ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا: قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم»، شُغلنا الآن بالحرب ولن نستطيع أن ندافع عنكم ونحميكم أو نخدمكم، لذلك نرجع هذه الضرائب لكم، «فأنتم على أمركم»، هذه أموالكم وأنتم على رسلكم،

---

٤٢. فتوح البلدان ١: ٦٢ ح٣٦٧.

فنحن لا نستطيع أن نحميكم أو نساعدكم ما دمنا مشغولين بالقتال، «فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم»، حكمكم أيها المسلمون وما رأيناه من عدلكم وإنصافكم، «أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم»، نحن كنا مظلومين مضطهدين تحت سلطة الحاكم المسيحيّ، الإمبراطور الرومانيّ، أما اليوم فنرى الحاكم المسلم وهو في معركة، بدلًا من أن يقول: ارسلوا أولادكم ليقاتلوا معنا، يرجع إلينا الضريبة، وهذا الحكم الإسلاميّ العادل، وهذا الإنصاف، أحب إلينا - وأنتم مسلمون ونحن مسيحيون - من الحاكم المسيحي الظالم، فنحن نفضلكم عليه، «ولندفعنّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم»، سنقف كلنا وندافع عن بلاد المسلمين أمام الجنود المسيحيين مع أننا مسيحيون مثلهم، «مع عاملكم»، أي مع حاكمكم على مدينة حمص، سنقف معه ونعطي دمًا معكم دفاعًا عن حكم المسلمين، لأنكم عادلون وذاك المسيحي ظالم، وبالطبع ليس كل مسيحي كذلك، بل هذا الإمبراطور كان ظالمًا.

«ونهض اليهود»، عندما سمع اليهود كلام المسيحيين نهضوا أيضًا، «فقالوا: والتوراة»، يعني قسمًا بالتوراة، «لا يدخل عامل هرقل»، قائد الحاكم المنصوب من هرقل، «مدينة حمص إلا أن نُغلب أو نُجهد»، أي إلا إذا انكسرنا، أو أُسرنا، أو أخذنا الضعف، وما دام فينا نفس يصعد وعرقٌ ينبض فلا ندع جيوش هرقل تدخل إلى حمص، وسنقاتل معكم لأنكم عادلون، وأناس منصفون، وحاكم مسلم منصف أفضل لنا من أن يأتي هذا الإمبراطور البيزنطيّ ويحكمنا ويسيء لنا ويظلمنا.

إذن فهذه السياسة الضريبية السليمة لها تأثيراتها الإيجابيّة في المجتمع، وتأثيراتها في انشداد الناس نحو الدولة، وهذه ليس لها حساب ولا تقدر بمال، ولو قارنا بين هذه السياسة الضريبية العادلة، وما دفعناه في مواجهة الإرهاب، فكم من مليارٍ صرفنا، وكم من ألفٍ من الناس قُتلوا، وقد كان كل ذلك بسبب السياسة الخاطئة التي مهدت لدخول الإرهاب إلى بلدنا، فلو لم يكن هناك أناس غاضبون أو ساخطون يرون أنفسهم مظلومين، ففتحوا أبوابهم لهؤلاء الإرهابيين لكي ينقذوهم، لما جاء هؤلاء الإرهابيون بزعم نصرة وحماية طائفة معينة في العراق، وإنقاذها من حكومة تظلمها.

إنّ العدل جعل المسيحيّ واليهوديّ يقاتلان دفاعًا عن حكم الإسلام ضد الحكم المسيحيّ، ويقول النص: «فأغلقوا الأبواب وحرسوها»، أغلقوا أبواب حمص، ففي تلك العصور كانت كل مدينة تحاط بسور له بوابات، فوقفوا على أبواب المدينة وحرسوها، «وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود»، كل سكان المدن الذين كانوا من أهل الذمة قاموا بنفس الدور ونفس العمل، «وقالوا: إن ظهر

الروم وأتباعهم على المسـلمين» ، إذا جاء الروم وانتصروا على المسـلمين ، «صرنا إلى ما كنا عليه» ، سـنرجع إلى نفس المصيبة التي كنا فيها ، فسـوف يأتون ويعصروننا عصرًا ويأخـذون أموالنـا وممتلكاتنـا ويظلموننا ، فالأفضـل لنا أن نقف مع المسـلمين وندافع عنهـم ، ويبقى الحاكم المسـلم ونعطيـه الضريبة مقابـل أن يحمينا ويخدمنا ويسـاعدنا فـي وضعنـا الاقتصـاديّ ، «وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسـلمين عدد» ، إذا لم ينكسـر المسلمون ولم ينتصر جيش الروم ، وبقي المسلمون حتى لو كانوا ضعافًا فإنا ندعمهم ، لأنهم يتعاملون معنا بالإنصاف والعدل .

«فلمـا هـزم الله الكفرة وأظهر المسـلمين» ، والحمـد لله رب العالمين ، فقد نصر الله (سـبحانه وتعالى) المسـلمين في هذه المعركة ، معركة اليرموك ، وانهزم جيش الروم ، «فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسـين» ، المقلسـين : يعنـي المطربين وأصحاب الفرح من المسـيح واليهـود الفرحين بانتصار المسـلمين ، فلعبوا ودقوا الطبـول والدفوف وعبّروا عن فرحتهم وسـعادتهم بانتصار المسـلمين ، لكي يبقى حاكم عادل لا يجور عليهم ولا يظلمهم ، «وأدوا الخراج» ، وبعد انتهاء الحرب جلبوا أموالهم وقالوا : لقد انتهت الحرب وهـا نحن ندفع لكم هذه الضرائب طواعيـةً ، ورغبةً ، فأين هؤلاء الذين جلبوا الضرائب ودفعوهـا طوعًـا ، وهم يقولون : خذوا هـذه الأموال واحمونا وسـاعدونا ، ممن كانت تؤخذ الأموال منهم بالقوة؟ . هكذا هي السياسات الضريبية السليمة .

وسـار أبو عبيدة إلى قنسـرين وأنطاكيا ، وهي مناطق في تركيا الآن بحسـب الوضع الجغرافي ، ففتحها ، وكانت الفتوحات الإسـلاميّة تسـير بيسـر ، وكان الناس هم الذين يفتحون أبواب مدنهم للمسلمين ، وكان هؤلاء المسيحيون واليهود يقولون عن المسلمين الفاتحيـن : هـؤلاء منصفون ، وأنـاس عادلون لا يجورون ولا يظلمـون ، ولذلك كانت النـاس ترحـب بهم وتفتح لهم الأبـواب ، وكان الناس من أهل الذمة يأنسـون أن يكونوا تحت حكم المسـلمين . فأين تلك الصورة مما نحن فيه الآن؟ الله الله في إسـلامنا ، الله الله في مبادئنا ، الله الله في قيمنا ، فالمشـكلة ليسـت في الإسـلام ، بل المشكلة في بعض المسلمين وسلوكهم الذي جعل الأمور تسير بهذه الطريقة .

يقـول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصيته الخالدة لولديه الحسـن والحسـين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بعـد أن يذكـر مبادئ الإسـلام ويوصيهما بهذه المبادئ : «الله الله أن يسـبقكم بالعمل بها غيركم» ، وكأنه يتنبأ بمثل هذا اليوم الذي يأخذ فيه الكافر هذه الوصايا ويعمل بها ويتطور ويتقدم ، بينما لا يعمل بها المسلمون فتأخروا .

الأمر الثاني

الاتجاهات الضريبية

(وَلْيَكُـنْ نَظَرُكَ فِـي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْـتِجْلَابِ الْخَرَاجِ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ وَلَمْ يَسْـتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا)

يقـول أميـر المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لمالك الأشـتر ومن ورائه لكل حاكـم: (وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِـي عِمَـارَةِ الأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْـتِجْلاَبِ الْخَـرَاجِ)، لا يكن همك مقدار المال الـذي تحصـل عليه من الضرائب، ولا يكن كل جهدك منصبًا على أخذ ضرائب أكثر من الناس، بل يجب أن يكون الاتجاه العام في السياسـة الضريبية هو عمارة الأرض؛ كيف تنمي الاقتصاد وتطوره؟، كيف تشـجع المزارعين على أن يزرعوا الأرض ويحيوها؟، كيف تشـجع الصناعيين على أن يبنوا مصانع؟، كيف تشـجع المسـتثمرين على أن يأتوا ويسـتثمروا رؤوس أموالهـم في بـلادك؟، كيف تحرك عجلة الاقتصـاد؟، كيف تنعش الاقتصـاد؟، هـو ما يجب أن يكـون الاتجاه العام فـي مجمل السياسـات الضريبية التي تضعهـا، لا أن يكـون الهدف هو مقدار ما تحصل عليه من الضرائب، بل الهدف أن تبني وتعمر وتحوّل هذه الضرائب إلى فرصة لمزيد من الإعمار والبناء.

(لأَنَّ ذلِكَ لاَ يُدْرَكُ إِلاَّ بَالْعِمَارَةِ)، لا تسـتطيع أن تضمن ضرائب دائمة إلا بالإعمار، فمـا دام المصنع يعمل وينتج فسـوف يوفر لصاحبه أرباحا وسـيدفع لـك ضرائب، وإذا سـاعدت الفلاح وأعطيته الأسـمدة والمبيـدات والبذور والماكنة، وأوصلـت له المياه ووفـرت لـه الكهربـاء واشـتريت منـه المنتـج الزراعي بسـعر معقول، فحينها سـتكون لـه مصلحـة بـأن يزرع، لأنـه يربح من هذا العمـل، وما دام يربح فسـوف يدفع ضريبة، فالطريقـة الصحيحة للحصول علـى الضرائب الدائمة، لتكون للدولـة موارد ثابتة، هي عمـارة البلاد، وإنعاش الاقتصاد، وتحريك المشـاريع الاقتصادية، (لأَنَّ ذلِكَ لاَ يُدْرَكُ

إِلاَّ بَالْعِمَـارَةِ)، فـلا ضرائب من غير عمارة للبلاد، لأن عمارة البلاد تعني وجود موارد، وبالتالي ستكون هناك ضرائب.

(وَمَـنْ طَلَـبَ الْخَـرَاجَ بِغَيْرِ عِمَـارَة)، أما من كان همه كيف يأخـذ المال من الناس، مـن دون أن يسـاعدهم على تحريك مشـاريعهم الاقتصادية وتنميتهـا وتطويرها لتعظيم مواردهم، فمثل هذا المنهج سيؤول إلى تخريب البلاد، (وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَة، أَخْـرَبَ الْبِـلاَدَ)، هذا منهج يؤدي إلى خراب البلاد، إلى خراب البنى التحتية، إلى انهيار البلد والمشاريع الاقتصاديّة، (وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ)، وسيُهلك المواطنين أيضًا، لأنّ عليهم أن يدفعوا الضرائب من غير أن تكون لديهم أرباح، وهذا سيؤدي بهم إلى الفقر والإفلاس.

(وَلَمْ يَسْـتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قَلِيلًا)، الحاكم الذي يعمل بهذه الطريقة يخرب البلد، ويضيع الناس، وسـيكون عمر حكمه قصيرا، إذ سـتنهار حكومته، لأن النظام قائم على أساس ماكنـة موظفيـن، وعمال، وجيوش، وقضاة، وعاملين في مجـالات مختلفة، والدولة التي لا تمتلك أموالًا سـتضمحل، وسـيؤول أمر عامليها إلى التبعثر والتشـتت، فلا يبقى شيء وينهار الحكم.

إذن يُذكّر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمنهج الإسلاميّ في الإدارة والحكم، والهدف الأساسـي للحاكـم الصالح هـو إقامة العـدل والإنصاف بين النـاس، وأن يوفر لهم فـرص التقدم والتطور في مشـاريعهم وحياتهم، ليكونوا سـعداء آمنين في ظل تلك الدولة. فالسعادة، والإنتاج، والنمو الاقتصادي، والازدهار، والحكم العادل، هي الأهـداف التي يسـعى إليها أي حاكم صالح، وهنا يذكّـر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الهـدف المهـم في الحكم، ويذكر أن السياسـة الضريبية والاتجاه الضريبي يسـيران فـي تعزيز وترسـيخ هذا الهـدف، وليس بالضد من هذا الهـدف، فالاتجاه الضريبي يجب أن يستهدف تنمية ومضاعفة مداخيل الناس، فيجب تعظيم موارد كل مواطن، وزيـادة إمكاناتـه وفرصه، ومعيار نجاح الحاكم الصالح هو أن يرى هل وضع الناس الآن في تراجع، أو في تقدم وتطور؟.. هل إمكاناتهم، وممتلكاتهم، ومدخراتهم، ومواردهم، زادت أو نقصت؟ فإذا كانت في تزايد فمعنى ذلك أنّ حكمه ناجح، وإذا كانت في تناقص فمعناه أنّ حكمه في تراجع، إذن فالأسـاس هو كيف تصبح للناس ثروة أكبر، وإمكانيات أكبر، وحياة أفضل؟، والاتجاه الضريبي يجب أن يخدم هذا التوجه ويحقق هذا الهدف.

إذن هناك اتجاهان في جباية الضرائب كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

الاتجاه الأول: تعاظم الأرباح لدافعي الضرائب، ونمو تجارتهم واقتصادهم، ويكون جلّ تفكير الحاكم كيف يزيد أرباح الناس؟؛ كيف يزيد تجارتهم، وينمي إمكانياتهم؟، وبشكل طبيعي، كلما نمت هذه الأرباح سيأخذ ضرائب أكثر، وستحصل الدولة على إيرادات أكبر، وهذا هو المنهج في كيفية تسخير الإنتاج لتحقيق أرباح إضافية، ثم يأتي الاتجاه الضريبي لدعم الاقتصاد ودعم الإنتاج، وعمارة الأرض وما إلى ذلك، ولنضرب لذلك مثالًا بسيطًا: من الممكن أن يذهب شخص إلى محل تجاري ويقول له: كم سعر هذه البضاعة؟ فيقول له: مائة ألف دينار، ثم يذهب لمحل آخر فيقول له: إن سعرها تسعون ألفًا، فيسأله: من أين استوردت هذه البضاعة؟ فيذكر له اسم البلد، ويسأل الآخر عن ذلك أيضًا فيذكر له اسم البلد نفسه، فإذا كان الاستيراد من بلد واحد فهذا يعني أنّ الشراء بنفس السعر، وعندما يسأله: لماذا تبيعها بتسعين؟ لماذا تبيعها بسعر أرخص؟ يقول له: أنا أبيعها بتسعين لأن من في السوق يبيعونها بمائة، فمن أجل تحقيق أرباح أكبر أبيعها بسعر أرخص؛ إذ تتعاظم مبيعاتي وتصبح أربعة أضعاف ما يبيعه الآخرون، وعندما تحسب الأرباح تجد أن من يبيع بسعر أغلى يربح أقل، ومن يبيع بسعر أرخص يربح أكثر، لأنه يعوض قلة الربح في كل وحدة مباعة بكثرة عدد المبيعات، إذ الناس تبحث عن الأرخص، وعندما ترى نفس البضاعة تباع بسعر أرخص في مكان آخر تذهب وتشتري منه، فيزيد ربحه، وعندما تأخذ الدولة ضرائب أقل، تندفع الناس نحو الإعمار والبناء وما شابه، ولكن إذا لم توفر الخدمات للقطاع الخاص؛ فلا توفر للفلاح الماء والبذور والمبيدات الكافية للزراعة، ولا توفر الوقود والكهرباء والمواد الأولية للصناعيين بشكل كاف، وفوق ذلك كله تشتري منهم محصولاتهم الزراعية ومنتجاتهم الصناعية بسعر زهيد، وعندما يحسبون نفقات الإنتاج مع الأرباح يجدون أنفسهم لا يربحون إلا قليلًا، لا يسد رمقهم، بل يخسرون في أحيان كثيرة، فيضطرون إلى ترك الزراعة والصناعة، فالفلاح الذي لا يربح لماذا يزرع؟ والصناعي الذي لا يربح لماذا يصنع؟ وحينئذ لا يمكن للدولة أن تحصل على أي ضرائب، إذ لا زراعة ولا صناعة لتأخذ عليهما ضرائب، أما إذا أخذت الدولة ضرائب أقل، وساعدت الفلاح والصناعي ووفرت لهم كل مقومات النجاح، فزرع الفلاح بشكل واسع، وأنتج الصناعي منتجات أوفر وأفضل، وحصلوا على أرباح أكبر، اندفع كثير من الناس لممارسة الزراعة والصناعة، وعمرت الأرض، وامتلأت الأسواق بالمنتجات الصناعية، وتوفرت السلة الغذائية للبلد، وحصلت على الاكتفاء الذاتي من المنتجات الصناعية، وازدادت الأرباح، وتوفرت فرص العمل

للعاطلين، وانطلق الناس للعمل بما ينفعهم وقلت الجرائم، ولم نحتج إلى المزيد من العاملين في جهاز القضاء وأجهزة الأمن الداخلي، وفضّل أكثر الناس العمل الحر لما فيه من أرباح كبيرة، وتحركت عجلة الاقتصاد في مجالات الخدمات والبناء والتعليم والصحة، وأصبح للقطاع الخاص دور أكبر في توفير هذه الخدمات، ورُفع عن كاهل الدولة عبء كبير في توفير هذه الخدمات.

واليوم في بلدنا مثلًا، نرى الأمور تجري على عكس ذلك، فيضطر الفلاح إلى ترك الزراعة ويأتي ليطلب تعيينا في سلك الجيش أو الشرطة، وكذلك الأمر بالنسبة لأصحاب الحِرَف والصناعات والعاملين في مجال الخدمات، فضلًا عن البطالة المستشرية بين خريجي الثانويات والمعاهد والجامعات، إذ صار همّ الجميع هو التعيين والحصول على راتب شهري من الدولة مهما كان قليلًا، واُعتبر الضامن الوحيد لاستقرار الحياة المعيشية للإنسان، وعندما يقال للفلاح: اذهب وازرع في أرضك، يقول: إن نفقات الزراعة أكثر من أرباحها، وأحيانًا لا يوجد فيها ربح، وفي الحالات الاستثنائية كحرق المحاصيل والجفاف والجراد ونحو ذلك نتحمل عبء الخسائر الفادحة، وكذا الحال بالنسبة للقطاعات الأُخرى، ولكن إذا حققت الزراعة أرباحًا مجزية، فإنّ كثيرًا من الناس ستتوجه إلى العمل فيها، وحينها تنتعش الزراعة وما يرتبط بها من ازدياد الثروة الحيوانية والصناعات الزراعيّة، وسيدفع هؤلاء الضرائب نتيجة الوفرة المالية التي حصلوا عليها.

هذا هو الاتجاه الأول؛ وهو اتجاه تعاظم الأرباح، إذ يَنصّب جلّ اهتمام المسؤول على كيفية زيادة الإنتاج، وكيفية تحريك العجلة الاقتصاديّة للبلد، وكيف يحصل الناس على أموال أكثر، وإذا ما تحقق هذا الهدف فحينئذ سيدفع هؤلاء المنتجون كل ما يُطلب منهم من ضرائب، ومهما كانت هذه الضرائب أقل، فإنّ الدولة ستكون هي الرابح في الأمد الطويل، فضرائب أقل تعني أرباحًا أكثر للناس.

الاتجاه الثاني: هو الاتجاه الذي ليست له علاقة بالاقتصاد، وتحريك عجلة الاقتصاد، إذ يكون همّ الحاكم أن تكون خزائن الدولة مملوءة بالأموال، وكل همّه كيف يأخذ المال من الناس؟.

في هذا الاتجاه لا يهتم الحاكم بدافع الضريبة؛ هل لديه عمل أو لا؟ وإذا وُجد لديه عمل، هل يربح أو لا؟ وهل يستطيع دفع الضريبة أو لا؟ وإذا دفع الضريبة هل يستطيع الاستمرار في عمله أو لا؟ ليست له علاقة بكل هذا، والمهم عنده كيف يجبي الأموال؟، ومثل هذا المنهج ليست فيه مرونة، وسيؤدي إلى مضاعفات خطيرة، وسيشعر الناس بأن لا مصلحة لهم في التجارة ولا في الأعمال الأُخرى، وسيتعطل الاقتصاد، وينهار البلد،

ويعيش الناس في حالة من الفقر والفاقة، ولا تحصل الدولة أيضًا على ما يكفي من موارد مالية لسد نفقاتها الضرورية، فالكل خاسر في هذا المنهج.

وفي هذا الاتجاه ثلاث سلبيّات كما يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

الأثر السلبيّ الأوّل: (أَخْرَبَ الْبِلاَدَ)، تعطلت المشاريع كلها، فلا صناعة، ولا زراعة، كما هي أوضاعنا في بلدنا اليوم – وإن بدأ الوضع يتحسن الآن – فكم مصنعًا يعمل ويربح؟ وكم فلاحًا يشعر بأن الزراعة مربحة فيذهب ليزرع أرضه؟ فلا أحد يزرع منذ سنين، وتوقفت جميع المصانع، وانحصرت مواردنا في النفط فقط، وهذا يعني أن المجتمع كان معطلًا، فالنفط ليس من شأنه تحريك عجلة الاقتصاد، وفي يوم ما في بلادنا كانت موارد النفط كلها توضع في صندوق سيادي، لتُستثمر في المشاريع الإستراتيجيّة للبنى التحتية، ولا يؤخذ من هذه الأموال شيء خارج هذا الغرض، بل كانوا يعتبرونها خارج السياق، وهذا هو الشيء الصحيح؛ إذ يجب أن نُصفر حاجتنا إلى النفط، ولتذهب كل أموال النفط إلى البنى التحتية، إلى الأجيال القادمة، إلى مشاريع إستراتيجيّة، وحياة المجتمع يجب أن تؤمّن من خلال المجتمع نفسه وتحريك عجلة الاقتصاد، هذه المشكلة الأولى.

الأثر السلبيّ الثاني: (وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ)، سيؤدي إلى أضرار كبيرة بدافعي الضرائب، وعجزهم عن تطوير وتنمية مشاريعهم الاقتصاديّة، وبالتالي سيتوقف العمل ولن يستطيعوا أن يدفعوا الضرائب، وينهار الاقتصاد بهذه الطريقة.

الأثر السلبيّ الثالث: (وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قَلِيلًا)، ونتيجة ذلك أن لا يستقيم الحكم ولا يستمر، وستفلس الدولة وتنهار، إذ لا يبقى لها مصدر تستقي منه الموارد لسد نفقاتها، بعد أن تتوقف أعمال الناس ومشاريعهم، فحين لا تكون هناك أرباح، فهذا يعني انتفاء مصادر الضريبة، وعندها ستعلن الدولة إفلاسها وتنهار.

لقد أُعلن في بلادنا مؤخرًا أن الوافدين لبلدنا من الزوار من البلد الفلاني أُسقطت عنهم الرسوم الضريبية المفروضة على كل وافد، وهي أربعون دولارًا عن كل شخص، ومع أنّ هذا الإجراء هو اتفاق متبادل بين الدولتين، ففي المقابل لا يُؤخذ من زوارنا أي رسم ضريبي، وبالإضافة إلى الأبعاد المعنوية العالية التي تحظى بها سمعة الشعب العراقي، وخاصة في مراسم زيارة الأربعين، ولكن قد يعترض البعض ويقول: لو كان عدد الوافدين من ذلك البلد مليون شخص، وكنا نأخذ رسمًا عن كل واحد منهم، فسيكون مجموع المبلغ المستوفى أربعين مليون دولار، ولو كان عدد الوافدين خمسة ملايين، فسيكون المبلغ المستوفى مائتي مليون دولار في السنة، ويعد هذا المبلغ خسارة للدولة،

فما الذي جعلك تلغي سعر التأشيرة وتكبد الدولة خسارة ماليّة كبيرة هي في أمس الحاجة إليها في هذه الظروف البالغة الحساسية؟ .

إن مثـل هـذا الاعتراض يصدر مـن أصحاب الاتجاه الثاني ، الاتجـاه الضريبي الذي يفكـر فقط فـي الأموال ، في حين يقول أصحاب الاتجاه الأوّل : عندما تسـتوفي أربعين دولارًا عـن زائـر من ذلك البلد – الـذي يعاني من ظروف اقتصادية صعبة ويعيش حصارًا اقتصاديًا كبيرًا – فسـوف يمتنع الكثير منهم عن الزيارة بسـبب التكاليف ، أما عندما تكون من دون رسم ضريبي ، فسوف يسارعون إلى الحصول على تأشيرة الدخول ، ومن وراء ذلك سنحرك عجلة الاقتصاد في كثير من مفاصل العمل الاقتصاديّ ، منها حجز التذكرة على شـركة الطيران العراقية بثلاثين دولارًا ، فإذا دخل البلاد فسـوف يحتاج إلى استئجار وسيلة نقل ، ويسكن في فندق ، ويأكل في مطعم ، ويتسوق من الأسواق العراقيّة ، فحين تنازلنـا له عـن أربعين دولارًا ، جاء وأنفق خمسـمائة دولار ، فأيهمـا أكثر؟ وبالمجموع سنحصل على أكثر من مليار دولار ، ولكن ليس في خزينة الدولة بل في جيوب الناس ، فهل تعامل الدولة بهذا المنطق يعتبر خسارة؟ أليس ما تحقق يعتبر ربحًا لا خسارة؟ . إذن نحن ربحنا أضعافًا مضاعفة كدولة وشـعب ، وإذا حقق الشـعب أرباحًا بتشغيل المطاعم والفنـادق والسـيارات وغيرها ، وزادت فرص العمل ، وانتعشـت الحركـة الاقتصاديّة ، فهؤلاء هم من سـيدفعون ضرائب للدولة ، وسـتحصل الدولة على المائتي مليون دولار التي تخلت عنها من تأشـيرة الدخول ، ولكن ليس من الوافدين الأجانب بل من شـعبها ، وهي جزء من الأرباح التي يحصل عليها أصحاب النشاط الاقتصادي في النقل والمطاعم والفنادق والأسواق .

إذن فالاتجـاه العـام فـي تحصيـل الضرائب إسـلاميًا ، هو كيفية تنميـة الاقتصاد ، إذ تنحصـر الرؤية الإسـلاميّة فـي كيفية تنمية الاقتصـاد وتحريك عجلتـه ، لتعظيم الموارد الماليّة للمواطنين ، وهذا هو الطريق الأفضل للحصول على الضرائب .

الأمر الثالث

الإعفاء الضريبي

(فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً أَو انْقِطَاعَ شِرْبٍ أَوْ بَالَّةٍ أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَئُونَةَ عَنْهُمْ فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ وَتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ مَعَ اسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ)

الأمر الثالث في هذا المقطع هو الإعفاء الضريبي، وهذا أيضًا منهج إسلاميّ؛ إذ يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلًا)، أراد موظفو الضريبة جباية ما بذمة المواطن من استحقاق ضريبي، فاعتذر بحصول مشاكل في عمله أنفق بسببها ما لديه من مال ولم يبقَ بحوزته ما يدفعه للضريبة، (أَوْ عِلَّةً)، أو اعتذر بحدوث عطل في مصنعه توقف العمل بسببه، أو اعتذر بأي عذر آخر، وكان هذا العذر مقنعًا، من آفة أو علة حدثت في تجارته، أو زراعته، أو صناعته، فعطلت تجارته أو صناعته أو زراعته أو ما شابه، ولم يستطع أن يدفع الضرائب.

(أَوِ انْقِطَاعَ شِرْبٍ)، تعلمون أنّ الأراضي على نوعين؛ نوع يُسقى بماء الأنهر، وهناك أراضٍ تُسقى بماء المطر، وهذه الأراضي التي تُسقى بماء الأنهر قد تتعرض إلى جفاف وشحّ في المياه، ومعنى الجملة: أنّه بسبب شحّ المياه لم يستطع الفلاحون أن يزرعوا، فكيف إذن تطلب منهم الضرائب مع عدم وجود المحصول الكافي لديهم؟، (أَوْ بَالَّةٍ) بالّة: من البلل، يعني (أو انقطاع بالّة) أي: أو انقطاع مطرٍ في الأراضي التي تُسقى بماء المطر، ففي الأرض التي تُسقى بماء النهر يقول: يوجد لدينا شحّ في المياه، وفي الأرض

التي تُسقى بماء المطر يقول : انقطع المطر هذه السنة ولم نستطع أن نزرع ما يكفي ، فليس لدينا محصول لندفع الضرائب .

ويمكن أن يكون قوله (أو بالّةٍ) ليس بمعنى انقطاع بالّة ، بل معناه أنهم شكوا من (بالّة) ، أي من زيادة المطر ، فزيادة المطر تؤدي إلى تلف الزرع ، وكذلك هطوله في أوقات معينة غير مناسبة للزرع .

(أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ) ، الإحالة : الفساد ، أي يزرع الفلاح الزرع ولكنه يفسد ، (اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ) ، غمر الأرض سيل فتلف الزرع كله وتعفن ، فاعتذر الفلاح بأن السيول غمرت زرعه هذه السنة وأتلفته ، لذلك هو عاجز عن دفع الضريبة .

(أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ) ، أو تلف الزرع من العطش الذي يؤدي إلى فساد الزرع وعدم ظهوره ، ففي حالات كهذه ، التي يكون فيها دفع الضريبة ثقلًا على دافع الضريبة ، بسبب أمر طارئ أو مشكلة ، أي عانى هذا الإنسان من مشكلة ولم يستطع أن يحقق ربحًا في تجارته ، أو صناعته ، أو زراعته ، فليس لديه مال ليدفع لكم ، يا مالك الأشتر - أيها الحاكم - إذا لم يكن يملك ما يدفعه لك ، (خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِما تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ) ، في حالات كهذه لا تضغط عليهم ولا تصر ، بل خفف عنهم ، وقدّر الأمر ، فإذا حصلت مشكلة منعت هؤلاء الناس من دفع الضريبة بشكل كامل ، فليس عليك أن تخفف عنهم فقط ، بل عليك أن تخفف عنهم (بِما تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ) ، أي أن تساعدهم ، فإن جاءتهم آفة زراعية مثلًا فأرسل لهم المبيدات ، وإن تلف زرعهم فأرسل لهم البذور ، وإذا غمرت المياه أرضهم فأرسل لهم مضخات لسحب الماء لكي تعود الأرض إلى وضعها ، وإن توقف مصنع فساعد صاحبه ليعمل من جديد ، إذن على الحاكم مساعدة الناس ليستطيعوا أن يعالجوا المشكلة التي حلت بهم ، فيعود الإنتاج كما كان ، وفي ظل الإنتاج يستطيع الحاكم الحصول على الضرائب المطلوبة ، فوظيفة الحاكم التخفيف عن الناس ، بإلغاء الضرائب ، أو خفضها ، بحسب الحاجة والظروف ، وأن يساعد الناس على إصلاح المشكلة التي حلت بهم ، وهذا الإجراء يؤدي إلى النتائج التالية :

أولًا : (فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلادِكَ) ، سيقدّر الناس لك عندما تراعي ظروفهم ، وسيعود الفلاح بحماسة ليزرع في الموسم الجديد ، وسيشغل الصناعي مصنعه بإنتاجيّة كاملة ، لأنه يرى نفسه مسنودًا من الدولة ، فيبذل جهدًا كاملًا في تحقيق إنتاجيّة كبيرة ، ويعود الفضل إلى الحاكم ، في بلد كل مصانعه تعمل وكل أراضيه مزروعة ، واليوم عندما نسافر إلى بلدٍ ما ، ونرى الأسواق والزراعة والمصانع ، نقول : هذه دولة جيدة ، والحاكم فيها جيد ، لأنّ الحاكم بسياساته الصحيحة هو الذي وفر بيئة إنتاجيّة سليمة .

ثانيًا: (وَتَزْيِينِ وِلاَيَتِكَ)، عندما تُعمّر البلاد في ظل حكمك، فهذا يعني أنّ ولايتك ناجحة، وحكمك ناجح، ففي حكم علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بدأت الناس تأكل من الحنطة البر - والبر هو أحسن أنواع الحنطة - ففي ظل ذلك الجوع، استطاع أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وخلال أربع سنوات من حكمه، أن يوصل الوضع المعيشي للناس إلى هذا المستوى، فبدؤوا يأكلون خبز البر بعد أن كانوا يأكلون خبز الشعير، وهذه كلها تُسجل للحاكم عندما يتحرك الاقتصاد بشكل سليم.

ثالثًا: (مَعَ اسْتِجْلاَبِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ)، عندما يتحرك الاقتصاد، وتعمر البلاد، ويُسجل النجاح لك - أيها الحاكم - ولحكومتك، فسوف تستجلب حسن ثنائهم، لأنّ في ذلك ترسيخا للهوية الوطنية، وتعزيزا للانتماء، عندما يشعر الناس بأن الحاكم وأعضاء حكومته عينهم على شعبهم؛ يساعدونهم، يدعمونهم، يسندونهم، يقللون مشاكلهم، وهذه أمور تعزز الهوية الوطنية، عندما يكون هناك شعور بأنّ هذه حكومة عادلة ومنصفة بحق شعبها، تحترم شعبها، وتحقق له الكرامة.

رابعًا: (وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ)، يا مالك، عندما يعم العدل والإنصاف أرجاء مملكتك، وترى الناس راضية وفرحة، فإنك سوف تتبجح وتفرح، لأن شعبك راض عنك، وهذا شيء كبير، فحين يكون الشعب راضيا عن حكومته وقيادته، متمسكا بهم، فحينذاك من حق الحاكم أن يتبجح ويفرح بهذا الأمر، وهو يرى كيف عمّ العدل والإحسان والإنصاف في بلاده، (بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ)، الاستفاضة: يعني الانتشار، وأنت تتبجح وتفرح بأنك نشرت العدل بين هؤلاء الناس، وسعيد بأنهم أصبحوا أقوياء.

(مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ)، أي زيادة قوتهم، وهذه الزيادة في قوة الشعب وإمكاناته، سيستند إليها الحاكم في يوم ما، لينشر العدل في ربوع دولته ويحقق الرفاهية الاقتصاديّة لشعبه، لأنه كلما زادت مواردهم فسوف يدفعون ضرائب أكثر، وستزداد موارد الدولة، وتقوى الدولة بمواطنيها.

(بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ)، الإجمام: هو الاسترخاء، الرفاهية، فعندما توفر فرص الحياة الكريمة لشعبك، ويزدهر الاقتصاد، ويكون لدى الناس مال وعمل، فحينها إن وقعت الدولة بظرف صعب في يوم ما واستنجدت بالناس، فسوف يقولون: إن هذه الدولة وقفت معنا وتستحق أن نقف معها اليوم؛ نعطيها الدم، ونعطيها المال، ونعطيها أعز شيء لدينا، فهؤلاء سيقفون معك بالقوة التي حصلوا عليها من رعايتك، وبما وفرت لهم من الراحة والرفاه.

(وَالثِّقَـةَ مِنْهُـمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ فِي رِفْقِـكَ بِهِمْ)، الثقة التي تحصل عند الشعب بالحاكم وحكومته بسبب عدلها وإنصافها، ولأنها ترفق بمواطنيها، وتسهل عليهم أمور حياتهم، وتقدّر ظروفهم، (فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ)، إذا مررت بمشكلة أو ظرف ما واستنجدت بشعبك، واضطررت إلى أن تضغط عليهم، فسوف يأتونك طوعًا وبطيب خاطر، ويدفعون لك ما تفرضه عليهم من زيادة في الضرائب، لأنهم يذكرون أنّ الحكومة وقفت معهم في يوم الشدة، فعليهم الآن أن يقفوا معها، ويتحملوا هذه الضغوط التي تحصل في الظروف الطارئة، (طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ)، بطيب خاطر، لأنهم يساعدون حكومتهم.

(فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ)، العمران والبناء والراحة والرفاه والمال، فالإنسان عندما يكون في راحة يتحمل إذا جاءه ضغط، أما إذا كان في شدة فسينهار عند تعرضه لأبسط ضغط، على عكس الإنسان الذي لديه نعمة، وهذا مثل الصحة والسقم والعياذ بالله، فالإنسان ذو البدن السليم تكون بنيته قوية، ويستطيع مقاومة الفايروسات، أما إذا كان مصابا بالسرطان لا سمح الله، فمن الممكن أن يقضي عليه فايروس صغير، لأنه ليس لديه قدرة دفاعية ولا يستطيع أن يتحمل، وينهار عندما يتعرض لأبسط مرض، وهكذا الإنسان الذي لديه مال وتجارة ويعيش حياة كريمة، إذا حلّ به أمر طارئ أو ضغطت عليه الحكومة، فإنه يستطيع أن يدفعها بسهولة، أما الإنسان الفقير فإنّه يعجز عن دفع أبسط قضية، (فإن العمران محتملٌ ما حملته)، يعتبر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ العمران كالحصان القوي، يحتمل ما يوضع على ظهره من الحمل الثقيل، أي أنّ حالة الرفاه والرخاء تتحمل أثقال الضرائب إلى حدٍ كبير.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

هناك العديد من الإضاءات التي يمكن الاستفادة منها في هذا النص:

الإضاءة الأولى

المرونة في جباية الضرائب

لا يوجد شيء قاطع ومحدد في مقدار الضرائب في الرؤية الإسلاميّة؛ بأن يدفع، مثلًا، كل من يمتلك مصنعًا مبلغا ثابتًا، فالضرائب ترتبط دائمًا بحجم الفوائد والإيرادات التي يحصل عليها دافع الضرائب، ثم توضع نسبة معقولة ومنطقية من الضريبة على هذه

الإيـرادات، وأحيانًـا - وإن حصل صاحب هذا المصنـع وأمثاله من دافعي الضريبة على هـذه الإيـرادات - تحدث لديه مشـكلة، فيأتـي ويقدم الأدلة التي تثبت حصول مشـكلة أدّت إلى أن يختل التوازن لديه هذا الشـهر، أو عانى مشـكلة ماليّة معينة هذه السـنة، أو حصل على الربح ولكن حياته الشخصيّة تأثرت في جوانب أخرى، ففي الرؤية الإسلاميّة تُحسب كل هذه الأمور، لأنّ الأساس هو أنّ الدولة تعين الإنسان الذي يتعرض لمكروه، ويسـاعده الحاكـم على أن يقف علـى قدميه من جديد، وينمي ويطـور إمكانياته الماليّة لكي يسـتطيع أن يسـهم في إعمار البلد من ناحية، وفي توفير مداخيل أفضل للدولة من ناحيـة أخرى، وهذه المرونة في الدفع الضريبي تمثل منهجًا إسـلاميًا مهمًا في النظر إلى هذه المسألة.

الإضاءة الثانية:

نتائج المرونة في جباية الضرائب

الإضاءة الأُخرى هي النتائج الكبيرة التي أشار إليها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، الحاصلة بسبب هذه المرونة في جباية الضريبة والتعاطي مع هذا الموضوع، وهذه النتائج هي:

النتيجة الأولى: إنّ هذه المرونة والإنصاف وتقدير ظروف دافعي الضرائب وأحوالهم ومشـاكلهم، وأخذهـا بنظر الاعتبار في تحديـد الضريبة المطلوبة، سـواء إلغاءً وإطفاءً للضريبة، أو تخفيضًا، أو تقسيطًا، أو تأجيلًا، إلى آخره من الإجراءات التي تُتخذ في هذا السـياق، تؤدي إلى تحسـين علاقة الشـعب بالحكومة، وتترك انطباعًا حسنًا لدى الناس وحسن ظن وثقة بالحكومة، وأنها ليست حكومة جائرة، بل هي حكومة تقدر ظروفهم، نعم لا يُمكن إدارة البلاد بلا ضرائب، وقلنا: إنّ النفط وأمثاله من المعادن - كما هو في بلادنا - هي حالة طارئة، وهذا النفط سوف ينفد في يوم من الأيام، واليوم إذ نمتلك نفطًا، فالمفروض أن لا ننفق أموال النفط في الميزانية التشـغيلية، وهي رواتب موظفي الدولة ونفقـات الدولـة الأخرى، لأن هذه الأمـوال هي رأس مال البلد، وثـروة وطنيّة، يجب أن تُنفق في مشـاريع إسـتراتيجية، بأن توضع في صندوق خاص للإسـكان والإعمار، وهكـذا كان الحـال في العراق في العهد الملكي؛ إذ كانت جميع أموال النفط تذهب إلى صندوق الإعمار، ولا يُنفق منها في تشغيليات الدولة دينار واحد، ثم بعد ذلك تدخلت الحكومـات المتعاقبـة واسـتولت على أموال النفـط، وأنفقت أغلبها في المشـاريع غير الاسـتثمارية؛ كشراء الأسلحة وتوسـيع أعداد أفراد القوات المسلحة، وتوسيع الأجهزة

الأمنيّة والاستخباراتية، وتوسيع الإنفاق على الأجهزة القمعيّة والحزبيّة، مع إهمال القطاع الخاص، مما أدى إلى جذب القطاع العام لأعداد كبيرة من العاملين ونشوء ظاهرة البطالة المقنعة، وأخيرًا إنفاق أموال هائلة على الحروب العبثية التي شنها النظام السابق طيلة عشرة أعوام، ثم الحصار الذي فُرض على العراق الذي شلّ الاقتصاد العراقي أكثر من عشر سنوات، إذ حُرم العراق من الاستقلال في أموال ثروته النفطية وشُرّع له قانون جائر يسمى النفط مقابل الغذاء، ووصل استثمار هذه الأموال في تحريك عجلة الاقتصاد إلى الصفر، ثمَّ أُنفق الكثير من هذه الأموال بعد سقوط النظام السابق على تحسين الوضع المعيشي للناس، وتسديد الديون التي بقيت في ذمة العراق للكويت، وذهب الكثير منها أيضًا في جيوب الفاسدين، من خلال المشاريع الوهمية وصفقات الفساد الكبرى مع شركات هزيلة في جميع مناحي الحياة الاقتصادية، بلغت مئات المليارات من الدولارات، وما زالت دوامة الفساد هي المهيمنة على الوضع الاقتصادي.

إذن يجب أن تعتمد نفقات الدولة التشغيلية على الأموال المتجمعة من الضرائب، هذا هو الأمر الطبيعي، وهو ما عليه اليوم دول كبرى تشكل الضريبة موردها الأساسيّ، وبالتالي إذا كانت الدولة تراعي الناس في هذا المورد الأساسي، فإنّ الناس أيضًا سيثقون بها ولا يبحثون عن طرق ملتوية للتملص من دفع الضريبة، وإنما سيدفعون الضريبة لأنهم يعرفون أنها تُصرف في محلها.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا الشأن:

(فَإِنَّهُ ذُخْرٌ)، انتهاج هذه المرونة بتقدير ظروف الناس، هو ذخر، (يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ)، سيُعيد الناس لك - أيها الحاكم - هذا فضل التعامل معهم بمرونة، فعندما تتساهل معهم ستزداد مواردهم ويستطيعون بها الوقوف على أقدامهم من جديد، فيطورون مصانعهم، ويعيدون زراعتهم إذا أكلها الجراد أو غمرتها المياه أو أصابها الجفاف أو أي سبب آخر، ويعمرون البلاد، وفي عمارة البلاد هذه مصلحة للدولة أيضًا، إذ ستكون دولة عامرة بمشاريعها الاقتصاديّة، وتتحرك فيها عجلة الاقتصاد بشكل سليم.

(وَتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ)، نسمع اليوم بشكل متكرر: ماذا قدمت الحكومة خلال المائة يوم، أو خلال الأشهر الستة، أو خلال السنوات الأربع؟ ما هو البرنامج الحكومي؟ وكم نُفذ منه؟ فيقاس دائمًا نجاح الحكومات وفشلها بنسبة إنجازها، فهل ينبغي على الحكومة أن تنجز كل شيء بمفردها؟ أو يجب عليها أن توفر مناخًا سليمًا لحركة الاقتصاد، والناس هي التي تعمل؟ فإذا كان يكفي من الحكومة توفير أجواء تحرك الاقتصاد، فبالتالي كل مشروع إعماري، وكل مول، وكل فندق، وكل مستشفى، وكل جامعة، تُبنى من القطاع

الخاص ، ولكن يعتبر ذلك نجاحًا للحكومة أيضًا ؛ لأنها وفرت المناخ والبيئة المناسبة ، فانطلقت الصناعة ، والزراعة ، والتجارة ، والاستثمارات ، وما إلى ذلك ، هكذا ينبغي أن يُنظر ، وعندما نزور أي مدينة أو دولة في العالم ونتجول في شوارعها ونرى بناء ، فلا أحد يسأل هل هذا ملك للدولة أو للقطاع الخاص؟ بل يقول : إن هذه الدولة عامرة بالبنيان ، وهذه حكومة ناجحة تدير الأمور بشكل سليم .

النتيجة الثانية : من نتائج هذه المرونة أيضًا أنّ الشعب يدعم الحكومة ، ويتبناها ، ويقف إلى جانبها ويساندها ، لأنها حكومة منصفة ، عادلة ، تراعي مواطنيها ، لذلك يبادل الناس هذه الحكومة الدعم والإسناد والنصرة ، (مَعَ اسْتِجْلاَبِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ) ، يثنون على حكومتهم حين يرونها حكومة راعية ، خدومة ، منصفة بحقهم .

النتيجة الثالثة : من شأن هذه الخطوة توسيع نطاق العلاقة الاجتماعيّة ، وهو الهدف الأساسيّ لإقامة العدل ، والحكم بين الناس بالعدل ؛ وهو أهم أهداف الحاكم في الرؤية الإسلاميّة ، (وَتَبَجُّحِكَ) افتخارك ، (بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ) ، بهذه الخطوة – المرونة الضريبية – التي تشيع العدل والإنصاف بين الناس ، فلا تضغط على من كان في مشكلة ولا يستطيع دفع الضريبة الآن ، لأنّ كل أمواله مبعثرة أو ضاعت لسبب أو آخر .

النتيجة الرابعة : توفير الخزين الكافي من القوة للاستفادة منها أيام الملمات ، فالشعب المنهك ، الفقير ، الذي ليس لديه قوت يومه ، لا يستطيع تقديم الدعم المادي للمقاتلين دفاعًا عن نفسه ، فمثلًا عندما جاء (داعش) وتأسس الحشد الشعبي اندفع الناس لتقديم المساعدة والدعم المادي للمقاتلين ، وقد تحقق ذلك فعلًا ، ولو كان الناس متمكنين ماديًا لكان دعمهم أكبر بكثير ، ومثال آخر : حين يأتي سيل ويغرق بعض المدن ، ويُطلَب من الناس المساعدة ، ولكن لا أحد يستطيع أن يساعد ، لأنّ الشعب منهك وفقير ، أما الشعب الذي استطاع أن يدير اقتصاده بشكل جيد ، واستثمر النعمة التي حباه الله تعالى بها ، فكانت لديه تجارة مزدهرة ، واقتصاد ناجح ، وإيرادات كبيرة ، ومشاريع ناجحة ، فهو شعب قوي ، وبالتالي تكون هذه قوة للدولة أيضًا في الملمات ، وهذا معنى قولنا إنها خزين كاف من القوة للدولة ، فكلما قويت البنية الاقتصاديّة للشعب ، كانت قوة حقيقية للدولة أيضًا ، فحينما تأتي أزمة أو ملمة من الملمات ، أو تحد من التحديات ، يستفيد الناس من خزين القوة هذا لدعم الحكومة وحل المشكلة .

(مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ) ، بما وفرت لهم ، (مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ) ، عندما تعاملت معهم بإنصاف ، ولم تفرض عليهم ضرائب قاسية ، وتساهلت معهم في

هذه القضية، فإنك وفرت لهم فائض قوة استطاعوا به أن يعيدوا إنتاج أنفسهم ويطوروا مشاريعهم، وهذا كله ذخر للدولة لاحقًا يمكن أن تستفيد منه.

(وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ)، أصبحت لديهم ثقة بك، لأنك تساعدهم وتدعمهم، وتطور مشاريعهم الاقتصاديّة، (بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ)، لأنك تعاملت بالعدل والإنصاف مع هؤلاء، (وَرِفْقِكَ بِهِمْ)، وتعاملت معهم برفق ولين، عندما كانت المرونة في جباية الضرائب منهجًا لك.

النتيجة الخامسة: ضمان الإسناد الشعبي الطوعي للحكومة في الأزمات، فالشعب الذي يثق بحكومته ويحترمها، ويراها راعية له، هذا الشعب، مستعد لأن يفدي حكومته ودولته ووطنه بحياته في الملمات طواعيةً، ويقدم بسخاء أي دعم مالي، وأي تضحية مطلوبة، لأنّ الوطن عنده فوق كل اعتبار، (فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ)، قد تحل بك في وقت لاحق مشكلة، وتضطر إلى أن تعول على الناس، وترجع إليهم، (احْتَمَلُوهُ)، تحملوا المسؤولية، (طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ)، عن طيب خاطر، بتطوع، وهذا في حد ذاته مؤشر على محبوبية الحاكم ومقبوليته، وهكذا تسير الأمور حين تكون العلاقة بين الحاكم وشعبه علاقة محبة ومودة وإنصاف.

النتيجة السادسة: توفير الغطاء المالي لتنفيذ الخطط والبرامج الإصلاحيّة للدولة، فإذا أرادت الدولة أن تبني مرفقًا من المرافق، فلا توجد دولة تبني من أموالها، إلاّ في العراق والدول النفطيّة، والشيء الطبيعيّ أنّ الناس هم الذين يبنون، بل وصل الأمر إلى أبعد من ذلك؛ حين صارت الدول تحارب بالمرتزقة، وهم أُجراء يحاربون من أجل الحصول على أجر معين، وقد رأينا جنودًا يقاتلون تحت إمرة قوات التحالف، وهم ليسوا من دولها، ولكنهم يقاتلون بالأجرة، وهو أمر عجيب، فحتى الحروب أصبحت بالإجارة؟ نعم، كل شيء تحول إلى قطاع خاص، واليوم تقوم الشركات الأمنيّة بأدوار لا تقوم بها الحكومة، فهناك شركات أمنيّة دوليّة عملاقة تدخل الحروب، وتحافظ على أمن الدول، والشركة الأمنيّة قطاع خاص، مع أنّ الأمن من أصعب الأشياء، فكيف بما هو دونه؟ وفي بعض الدول لا تجد مستشفى تملكه الدولة، بل لا تجد مدرسة تملكها الدولة، ولا تجد منشأة معينة من المنشآت تملكها الدولة، فكل شيء مملوك للناس، ولا تملك الدولة شيئًا، وتنحصر وظيفة الدولة في أخذ الضرائب، وإدارة وتنظيم الحياة في شتى مجالاتها والإشراف عليها، إلاّ القوات المسلحة والمؤسسات الأمنيّة الأخرى، ففي كل بلد تكون حكومية صرفة، لا يحق للناس التدخل في شؤونها، نعم قد يتعاقدون مع القطاع الخاص في بعض تفريعاتها، ولكن كثيرًا من الأعمال التي تقوم

بهـا الحكومـة في بلدنا اليـوم لا تقوم بها الحكومات الأخرى، وكـذا الأمر في منظمات المجتمع المدني، وهي منظمات تُموّل من الحكومات للقيام بأدوار معينة، لأنّ الحكومة لا تستطيع أن تتحرك وتوسع من موظفيها ومساحتها، ونحن في العراق لدينا سبعة ملايين موظف ومتقاعد، وهي حالة ليست صحيّة.

إذن كلمـا كانـت موارد الناس أكبـر وإمكانياتهم الماليّة أعظم، اسـتجابوا للحكومة حينمـا تطلب منهم شـيئًا، واليوم في أغلـب دول العالم المتطورة، حتـى الطرق العامة مملوكـة للنـاس وليس للحكومة، ووظيفـة الدولة هي أخذ الضرائب، فمن أراد السـير في هذا الطريق السـريع فعليه أن يدفع مبلغًا معينًا من المال، إذ تقترح الحكومة مشـروعًا معينًا على القطاع الخاص، كإنشـاء طريق سـريع بين المـدن، وتتفق معهم على إنجازه والاسـتفادة من أرباحه مدة خمسـة عشـر عامًا مثلًا، وبعدها تعود ملكيته للدولة، فأي سـيارة تسـير فيه فعليها أن تدفع مبلغًا معينًا من المال، فكل شـيء بيد الناس، وإذا كان الناس يثقون بالحكومة، فإنّ أي مشـروع تعرضه الحكومة للاستثمار، يسارع الناس إلى الاسـتثمار فيـه، لأنهم يثقون بهذه الحكومة، ويعلمون أنهـا لا تظلم ولا تغدر، ويمكن أن تقـف معهـم وتدعمهم وتسـاندهم، فتكون النتيجة إعمار البلـد، وتطوره، وازدهار الاقتصاد، فيكون كل شيء على ما يرام، هذه هي النظرية الإسلاميّة في الضرائب.

الإضاءة الثالثة

البعد الأخلاقي للنظرية الاقتصادية في الإسلام

لا ينظر الإسـلام للاقتصاد على أنه (١+١=٢) فقط، فالمعادلة ليست كلها أموالًا، وليست كلها أرقامًا، بل القضية فيها بُعد عقائدي، وأخلاقي، يربط الاقتصاد بالمنظومة الأخلاقيـة، فلا ينظر الإسـلام إلى الاقتصـاد بمعزل عن معتقدات النـاس والتزاماتهم الأخلاقيـة، ولا تنحصر المسـألة عنده في كيفية الحصول علـى موارد مالية، بل كيف يسـخر الإنتـاج لتحقيق زيـادة في ثروات المجتمـع، وكيف يعظّم مـوارد المواطنين، ولذلـك فالمقيـاس لدى الدول في قوة الاقتصاد أو ضعفه، هو قسـمة الناتج الإجمالي علـى عدد السـكان، أي كم تبلغ حصة كل مواطن من هـذا الناتج الإجمالي لمداخيل الدولـة وليس الحكومة، فكل هذا يعتبرونه ضمن إطار الدولة، لذلك نرى الحكومات تدافـع عن القطاع الخاص عندما يتعامـل مع دول أُخرى، فمثلًا وقّعنا بالأمس القريب اتفاقيات وعقودا كبيرة مع شـركات ألمانية، فذهب رئيس وزرائنا إلى ألمانيا ووقع مع

شركة سيمنس الألمانية، ورأينا رئيسة الوزراء الألمانية تقف وراء رئيس الشركة، مع أنها شركة أهلية، ولكنها حضرت للدفاع عن مصالح الشركة، بأن يكون التوقيع مع هذه الشركة الأهلية رسميًا، فهذه الأربعة عشر مليارا ستدخل في كيس الشركة، ولكن الاقتصاد الألماني بالتالي سيتطور، وهؤلاء اليوم يعملون بفلسفة إسلاميّة، حين يطورون اقتصاد بلدانهم وشعوبهم بهذه الطريقة، وحينها ستكون الدولة غنية، ليس بمقدار ما يوجد من أموال في الخزينة فقط، إذ لا يُنظر للأمور من هذه الزاوية.

لقد أولى القرآن الكريم هذا الجانب عناية كبيرة؛ أي النظرة الأخلاقية والعقيدية للاقتصاد، كما في سورة البقرة مثلًا، إذ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، الخطاب للمؤمنين وليس للناس جميعًا، عندما يريد أن يتكلم عن الاقتصاد، ﴿اتَّقُواْ اللّهَ﴾، الشيء الأول هو الأمر بالتقوى، ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾، عندما يريد أن يمنعهم من الربا، والربا هو أخذ الفوائد على المال، يخاطب المؤمنين ويأمرهم بالتقوى، ثم يتكلم عن الربا: ﴿اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾، اتركوا المطالبة بالربا، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، إذن فالإيمان والفوائد الظالمة، الجائرة، لا يلتقيان، فإذا أردت أن تكون مؤمنًا فيجب أن لا تتعاطى بالربا، فلا يجوز أن يقال إن هذا اقتصاد وليس للدين علاقة به، وتعلمون أن البعض في الأسواق لا يراعون الموازين الشرعية، ويعدون المخالفة شطارة، فلك أن تسرق، وتضحك على الناس، وتبيع بضاعة بضعف ثمنها، والحق أنّ هذه ليست شطارة، وهناك دين يجب التقيد بموازينه في كيفية التعاطي، بل الدين يتبين هنا أكثر، فإن «الدين المعاملة»[٤٣]، كما ورد في الرواية؛ كيف تتعامل مع الناس، هل تتعامل من غير مراعاة للاعتبارات الإنسانية والأخلاقية، أو تراعي العدل والإحسان في تعاملك مع الآخرين؟.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾، إذا لم تلتزموا وأخذتم الربا، ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾، الله يفتح عليكم النار ورسوله، وينزل عليكم العذاب في الآخرة، وهنا ربط عجيب بين الجنة والنار والاقتصاد، أي مراعاة البعد الأخلاقي، والبعد العقيدي، والبعد الديني، في الشأن الاقتصادي، فالنظرية الاقتصادية في الإسلام فيها قيم، ومبادئ، وأخلاق، وعقيدة، وليست القضية قضية شطارة ونهب لأموال الناس، ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾، إذا انحرفتم وأخذتم الربا، ثم رجعتم وأردتم أن تعالجوا خطأكم وذنبكم، ﴿فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾، فخذوا رؤوس أموالكم وأرجعوا الأرباح الظالمة إلى أصحابها،

---

٤٣. عجائب الآثار ٣: ١٠٣.

﴿لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ ، هذه هي القاعدة الرئيسة في تحرك رأس المال ؛ فله الحرية الكاملة في الحركة الاقتصادية وممارسة شتى صنوف الاستثمارات المشروعة ، بشرط أن لا يظلم أحدًا ، وله في مقابل ذلك أن لا يُظلم ، فلا يجوز أن تظلم الناس وتأخذ منهم أرباحًا جائرة بغير وجه حق ، ولا يجوز أن تُظلم بأي نوع من أنواع الظلم ، فإن ارتطمت بالربا فلك رأس مالك فقط ، وأرجع الأرباح الجائرة غير المسموح بها إلى أهلها ، فهذه لك وتلك للناس ، فعليك أن لا تعتدي ، ولك أن لا يُعتدى عليك .

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ ، إذا لم يستطع المدين أن يدفع لك مالك في الموعد المحدد ، ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ ، اصبر عليه وتحمله إلى أن يتيسر أمره ويتحسن وضعه ، ولا يجوز لـك أن تراكـم الفائدة وتضاعفها مع حلول كل موعـد ، فيعجز عن وفاء دينك ، ونحن نرى اليوم آلافًا من الناس في السجون ، لعدم قدرتهم على سداد ديونهم ، بسبب هذه النظرية الغربية المطبقة في بلادنا ، أما النظرية الإسلاميّة فتقول : ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ ، إذا تعسّـر أمره ولم يسـتطع سداد دينه ، فيجب عليك الصبر عليه وتحمله إلى أن ييسرها الله عليه .

﴿وَأَن تَصَدَّقُـواْ خَيْـرٌ لَّكُـمْ إِن كُنتُـمْ تَعْلَمُونَ﴾ ، إن أقرضت أحـدًا مبلغًا من المال ، ثـم حان موعد تسـديد القرض وهو عاجز عن الوفـاء ، وهو في ظرف صعب ، وأمهلته ومع ذلك لم يسـتطع أن يرجع لك مالك ، وكنت أنت في نعمة وغنى عن هذا المبلغ ، فيُسـتحب لك أن تُسـقط الدين عنـه وتبرئ ذمته منه ، ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْـرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ، هذا أفضل لك ، وإن لم ترد أن تتصدق وأردت أموالك ، فلا مانع من إعطائه فرصة أخرى وانتظاره وقتًا آخر لعل الله تعالى يرزقه وتصبح لديه قدرة مالية كافية ويدفع لك قرضك .

(وَاتَّقُـواْ يَوْمًـا تُرْجَعُـونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ) ، سـترجع إلى الله تبـارك وتعالى ، وتطلب منه الرحمـة ، فـإن كنت تريد الرحمة حقًـا فارحم في الدنيا لتُرحم فـي الآخرة ، وهنا ربط الاقتصاد بالآخرة ؛ ربط التسـاهل مع الناس في الدنيا ، بتسـاهل الله (سـبحانه وتعالى) معنا في يوم القيامة ، ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ ، كيف تعاملت مـع النـاس في الدنيا يتعامل الله معك في الآخرة ، فإن كنت من أهل التسـامح فسـوف يتسـامح معـك في يـوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، وإن لم تكن من أهل التسـامح ، فلن يتسامح معك في الحساب يوم القيامة من غير ظلم لك .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ ، دين إلى أجل محدد ، فمـرة يكـون الدين مفتوحًـا ، أي غير محدد بأجل معين ، فهنا متى ما اسـتطعت فعليك

إرجـاع مـال الدين الذي في ذمتك ، ومرة يكون الديـن محددًا بوقت معين ، فلصاحب الديـن مطالبة المدين عند حلـول الأجل ، ومن أجل الحيلولة دون إنكار المدين للدين وحـدوث نـزاع بين الطرفيـن ، يقول الله تبـارك وتعالـى : ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْـنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَـمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾[٤٤] ، لتكن بينكم وثيقة مكتوبة يوقّع فيها الطرفان مع شـهود ، وحينها لا يسـتطيع المدين الإنـكار ، إذن فتدوين هذه التعاملات ، وتوثيقها ، ووضع الشـهود عليهـا ، تخلصنـا من القيـل والقال والادّعـاءات ، والآية طويلة تتحـدث عن تفاصيل وأحكام كثيرة في ما يخص الدين .

وورد في سـورة آل عمران الحديث عن مسـألة الربا أيضًا ؛ إذ قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًـا مُّضَاعَفَةً﴾ ، اجتنبوا التعاملات الربوية ، بأن تأخذوا أضعافًـا مضاعفـة من الفوائد على مقـدار القرض ، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُونَ﴾ ، لا تفرطـوا بتقـوى الله والآخـرة من أجـل بعض المال ، فـإن التزمتم وتركتـم الربا مخافة الله (سـبحانه وتعالى) ، فلعله يهديكم سـبيل الرشـاد في حياة نظيفة خالية من الظلم ، فـكل الحديـث عـن الاقتصاد ، والحديـث مع المؤمنيـن ؛ إذ يقول سـبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا﴾ ، ضمـن معايير إيمانية ، ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِـدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُـولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٤٥] ، ربط الجانب الاقتصادي والأرباح بالآخرة ، بالطاعة لله ولرسوله ، بالجنة ، والنار ، هذه هي الخلفية الأخلاقية والعقيدية للاقتصاد في الرؤية الإسلاميّة .

وورد فـي سـورة الكهف ما يعـزز هذا البُعـد الأخلاقي للاقتصاد في الإسـلام ؛ إذ قـال تعالى : ﴿وَاضْـرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْـنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِـنْ أَعْنَابٍ﴾ ، هناك قصة لطيفة في هذه الآيات ، ومشـهد قصصي مهم في القرآن ، لشـخصين أحدهما كافر والآخر مؤمن ، وكان للكافر جنتان ، والقرآن يسمي البستان جنة .

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ ، للكافر منهما ، ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ ، تتداخل هاتان الجنتان ، وتحتويـان مـا لذّ وطاب من الأعنـاب ، ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْـلٍ﴾ ، وأحطنا هاتين الجنتين بالنخيـل ، ﴿وَجَعَلْنَـا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ ، وكان بين هاتين الجنتين أنـواع من الزرع ، ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ﴾ ، كل واحدة من الجنتين ﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ ، أعطت ثمرها كاملا ، سـبحان الله ، أعطـى الله جـل جلاله هذا الكافر ، بسـتانين ، فيهما أنواع الفواكـه والزروع ، وقد آتت

٤٤ . سورة البقرة : الآيات ٢٧٨- ٢٨٢ .

٤٥ . سورة آل عمران : الآيات ١٣٠ - ١٣٢ .

ثمرها، ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾، من غير أي نقص، فلم تنقص من ثمارها شيئًا، ولم تصبها آفة زراعية ولم تطرأ عليها مشكلة، بل سار كل شيء بسلام، والمالك كافر، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾، وفوق كل ذلك أجرى الله تبارك وتعالى في وسط هذين البستانين نهرًا، فيسقي جنتيه منه بلا نصب ولا تعب، أي أنّه تعالى قد أتم نعمته الظاهرة على هذا الكافر.

قد يرى أحدنا أحيانًا مؤمنًا في حال يُرثى لها، بينما الكافر تأتيه النعم من يمينه ومن يساره ومن فوقه ومن تحته، فما القصة؟.. ينبري أحدنا فيقول: هذه جنة الكافر في الدنيا، وهي زائلة بعد حينٍ طال أو قصر، أما جنة المؤمن في الآخرة فلا انتهاء لها، كما قال تعالى: ﴿خالدين فيها﴾.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا﴾، شققنا بينهما، ﴿نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾، وكان لهذا الكافر أموال كثيرة، وهو حائر بها، لا يعلم أين ينفقها، وماذا يفعل بها، ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ المؤمن، المتدين، الفقير، ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، الله أعطاني عشيرة كبيرة، سبحان الله، فقد كان لهذا الكافر فوق النعم التي لديه الكثير من الأولاد، وذلك المؤمن الفقير ليس لديه أولاد، ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، ودخل إلى بستانيه العامرين وهو يتباهى ويرى أنه بشطارته قد حصل على كل ذلك، وبهذا ظلم نفسه وكسر ذلك المؤمن، ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾، هذه الزروع والأشجار، لا أراها في يوم ما تتأثر، وتتعرض للتلف، أو الزوال، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، لا توجد آخرة ولا حساب، ونحن متنعمون في الدنيا، فلا حلال ولا حرام، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾، وإذا جاء ذلك اليوم، ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، سأدفع رشوة للملائكة وأدخل الجنة بأموالي.

(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ)، المؤمن، ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، عندما رآه متغطرسًا، معتدًا بإمكاناته وأمواله وأبنائه وعشيرته، ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾، كنت ترابًا، ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾، والآن صرت تقف على قدميك وتقول: كذا وكذا، أنسيت من أنت؟ وماذا كنت؟ كنت ترابًا، ثم صرت نطفة، والله هو الذي سواك، أتتنكر له؟ أتكفر به؟.

(لَّٰكِنَّا)، يعني (لكن أنا)، عندي كلمة غير كلمتك، أنا الفقير الذي ليس لديه مال ولا أولاد، وليس لديه عشيرة كعشيرتك، ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، لقد أعطاك الله تعالى كل هذه النعم ولم يعطني إياها، ولكني معتز بإيماني وانتمائي لله (سبحانه وتعالى)، ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾، وأعجبتك هذه الجنة وهذه الإمكانات،

﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، عندما ترى هذه النعمة عليك أن ترجعها لله، وتتذكر أنها من عطاء الله (سبحانه وتعالى)، ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، الله شاء ذلك لك، والله أراد فأعطاك، ولم تحصل عليها بشطارتك، ﴿لا قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ﴾، لم يكن هذا ليحصل لولا أن الله أراده، فلو كنت قلت هذا، ولم تقل أنا أكثر منك مالًا، وأنا باق وليست هناك آخرة، لكان خيرا لك.

﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾، ليس لديّ أموال وأولاد مثلك، ولكني مؤمن بالله (سبحانه وتعالى)، ﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾، لعل الله سبحانه يعطيني أحسن من جنتك هذه في الآخرة، ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾، وبسبب هذا التعجرف والاعتداد بالذات، والكفر بالله، والنكران لعطاء الله، أرى أن العذاب سيأتيك، ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾، بلاء محسوبًا ومقدرًا، ﴿مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾، فتُصبح هذه الجنان أرضًا (زلقًا)، أي قاحلة، ملساء، جزاءً لكفرك بالنعمة، ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾، هذا الماء المتدفق والنهر الجاري خلال جنتيك، أرى أنه سيغور في العمق فلا تحصل على الماء وتجف الأرض، فهناك مناطق لو حفرت فيها عشرة أمتار لوصلت إلى الماء، وهناك مناطق لو حفرت مائة متر فلن تصل إلى الماء، فهو ماء غور، أي عميق وغائر في الأرض، ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾، كلما كان الماء في مكان أعمق، كان استخراجه أصعب.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾، وأُهلك ثمره، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾، بعد كل تلك الإمكانات تحقق التنبؤ الذي تنبأ به صاحبه المؤمن، وضاعت كل هذه الجنان، وتحولت أرضه إلى أرض قاحلة لا ماء فيها، ولا زرع، ولا ضرع، فبقي حائرًا، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، خالية من كل شيء، سقط بعضها على بعض، ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، لم يكن هناك من يستطيع إنقاذه من عقاب الله، فلم ينقذه مهندس زراعي، ولا خبير في الآفات، ولا موارد مائية، وكل ما أعطاه الله إياه أخذه منه، لأنه كفر، ولم يقدر أن يربط النعمة بالإيمان، بالعودة إلى الله، بالتقوى والتواضع، الشكر لله، فانظروا جيدًا لهذا البعد القيمي والمعنوي والأخلاقي للاقتصاد في الرؤية الإسلاميّة، ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾، لم يستطع أن يحقق شيئًا لنفسه، ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾، النصرة لله، الله يعز من يشاء، ويذل من يشاء، يرزق من يشاء، ويهب لمن يشاء ما يشاء، وينعم

على من يشـاء ، فكل شـيء بيد الله ، ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[٤٦] ، العاقبة للمتقين ، لأولياء الله .

وورد فـي سـورة القلم هـذا الربط بين الاقتصاد والبُعد القيمـي والأخلاقي ، إذ قال تعالى : ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ ، أعطاه الله النعمة ، فمنعها عن الفقير ولم يعط منها أحدًا ، فهو بخيـل بالخيـر ، وأنا أعـرف ملياردير عراقيا نقل لي عنه أحدهـم ، أنه عندما يدعو أحد أصدقائه يطلب منه أن يجلب العشاء معه من المطعم ، فلا يريد أن يشتري عشاء لضيف قد دعاه بنفسـه ، وهو ملياردير ، ماذا تفعل بكل هذه الأموال؟ ولمن تدخرها؟ اسـتمتع بهـا ، وأعط النـاس منها ، لتفوز في الدنيا والآخرة ، فسـيرثها ابن طائش يبعثرها ، ولن تحصـل علـى دنيـا ولا آخرة ، أو يرثها ابـن مؤمن فينفقها في سـبيل الله فيدخل الجنة ، وتكون حسرة عليك حين تحاسب عليها وتدخل النار بسببها ، وأنت غير متنعم بها في الدنيا .

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ ، متغطرس ، متعجرف ، معتد ، مسيء ، متوغل في الآثام ، ﴿عُتُلٍّ﴾ ، جـاف ، غليظ ، لا يُحتمـل ، لا أهله يحتملونه ، ولا الناس ، ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ ، هـذه كلهـا أوصاف لشـخص محدد كما جاء في شـأن نزول هذه الآيـات ، ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ، الله أعطاه أموالا وذرية ، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[٤٧] ، فأصابـه مـا أصابه جـزاء كفره ، والآيات طويلة ، والمشـهد طويـل ، ولا أريد أن أطيل عليكم .

وورد أيضًـا الربـط المذكـور في سـورة الحديـد ، حيث قـال تعالى : ﴿آمِنُـوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، دعوة من الله (سبحانه وتعالى) للإنسان للإيمان به وبرسوله ، ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ ، ربط للإنفاق بالإيمان ، ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ ، هذه الأموال التي عندكم ليست لكم ، بل أنتم مسـتخلفون فيها ، والله تعالى وضعها عندكم ، فهذا المال مال الله ، وإن كان مسـجلا بأسـمائكم ، ولكنه ليس لكم ، بل هو لله عز وجل ، وأنتم مسـتخلفون فيه ومؤتمنـون عليه ، فتصدّقـوا ، وأعطوا ما أوجب الله عليكم فيه من الحقوق ، وسـهّلوا علـى الناس ، فهنا ربـط بين الاقتصاد والعطاء ، والمنظومة الأخلاقيـة ، ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٤٨] .

---

٤٦ . سورة الكهف : الآيات ٣٢ – ٤٤ .

٤٧ . سورة القلم : الآيات ١٢ – ١٥ .

٤٨ . سورة الحديد : الآية ٧ .

وورد في سورة المعارج ما يؤكد هذا الربط ؛ قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ ، جعل الله تعالى في أموال من ذكرهم في الآيات السابقة على هذه الآية ، وهم المؤمنون ، حقا إلزاميا عليهم أن يدفعوه للفقراء وإلاّ استحقوا العقاب ، وليس لطفا منهم ، ﴿حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٤٩] ، حق في هذا المال الذي هو مال الله ، للسائل والمحروم .

لذلك لا ينظر الإسلام إلى المال ، والتعاقدات ، والتجارة ، والأرباح ، نظرة مالية بحتة ، بل ينظر إليها نظرة فيها بعد أخلاقي ، وفيها بعد قيمي ، وفيها دوافع إنسانية تتدخل بها العقيدة ، ولذلك تقسم الأحكام الشرعية في الرسائل العلمية في نظامنا التشريعيّ إلى أربعة أقسام : الأول : العبادات ، ونحن نظن أن الدين صلاة وصوم وحج فقط ، وهذه كلها عبادات ، وهي تشكل ربع المنظومة الفقهية ، والثاني : المعاملات ، والثالث : العقود ، والرابع : الإيقاعات ، فالدين إذن على أربعة أقسام ، والعبادات القسم الأول منه ، وهناك ثلاثة أقسام أخرى ، وهذه كلها دين أيضًا ، وفيها حلال وحرام وواجب ومستحب ومكروه ، والمحرمات في النظام الاقتصادي الإسلاميّ هي جزء بسيط جدًا من المحرمات التعبدية ، والله يقول لنا : لا تفعلوا هذا الشيء ، من غير أن يكون لدينا فلسفة واضحة عن علة التحريم وحكمته ، فالله تعالى يريدنا أن نتعبده هكذا في ما يقول ، والمحرمات الاقتصادية الناتجة من تعبد هي أحكام ضئيلة جدًا ومحدودة .

الصنف الثاني من المحرمات ، هي التي تجلب الضرر على الشخص ، أو على الآخرين ، فهناك اقتصاد فيه ضرر ؛ إما في إنتاجه ضرر ، أو في تعاطيه وتداوله يكون هناك ضرر ، أو في استهلاكه واستعماله ، فمثلًا لحم الخنزير فيه ضرر ، والناس منهم من يربيه ، ومنهم من يذبحه ويبيعه ، ومنهم من يأكله ، وكل هذه الأنشطة الثلاثة محرمة ؛ تربيته حرام ، وبيعه حرام ، وأكله حرام ، لماذا؟ لأنه مضر ، وقد بدأت الأمراض العجيبة والغريبة تتفشى بين الشعوب التي تأكل لحم الخنزير ، وكذا في الخمر ضرر ، وضرره أكبر من نفعه ، أي أنّ فيه بعض الفوائد ، لكن فيه مضارا كبيرة وعظيمة ، فلا يجوز إنتاجه ، ولا بيعه ، ولا استعماله ، فكلها حرام ، لأن فيه ضررًا ، والله لا يريد للإنسان أن تتضرر ، ويعاقبه إذا أضر بنفسه .

---

٤٩ . سورة المعارج : الآيات ٢٤ – ٢٥ .

أما الصنف الثالث، وهو الصنف الأكبر، فهو يتضمن معاملات اقتصادية فيها تجاوز للعدل والإنصاف، للمنظومة القيمية والأخلاق في الإسلام، لذلك تكون محرمة، لأنها ليست عادلة، وليست منصفة.

هناك روايات كثيرة في هذا المجال، ويمكن أن تراجعوا هذه الروايات في كتاب بحار الأنوار، الجزء (١٠٠) الصفحة (١٣٨)، في كتاب الدّين، فهناك العديد من الروايات، ففي الباب الأول: الحديث الأول والثاني والرابع، وفي الباب الثاني: الحديث الأول والرابع والعاشر، وبالطبع فإن الدين مثال من الأمثلة، وهناك في الأبواب المختلفة للشؤون الاقتصادية الكثير من الروايات الواردة، والتي تنظر إلى الجانب الاقتصادي نظرة أخلاقية، وقيمية، فالاقتصاد في الإسلام ليس شطارة مالية وأرقامًا فقط، فأكمل دراسة الإدارة والاقتصاد أو التجارة، أو أكون خبيرًا، ثم ألعب كما يحلو لي، كلا، فهناك قيم وأخلاق وعقيدة، وهناك ربط لهذا الأمر الاقتصادي بالجانب العقيدي والأخلاقي.

الأمر الرابع

الانكماش الاقتصادي

قدّم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر تحليلًا لأسباب الانكماش الاقتصادي؛ لماذا يتراجع الاقتصاد؟ . لماذا ينهار الاقتصاد؟ وقد ذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ تحليلًا لذلك قبل أن ينتهي الحديث عن طبقة دافعي الضرائب؛ بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ) : تخرب الأرض حين تُهجر وتترك، فعندما لا يرغب الفلاح في زراعتها ويتخلى عنها تتحول إلى صحراء قاحلة، وطبعًا يخرب ما يرتبط بها من أمور أخرى، كالثروة الحيوانية، وتربية الدواجن، وتتوقف المصانع المرتبطة بها، كمصانع التعليب والألبان ومعجون الطماطم والزيوت وغيرها، وتتوقف التجارة أيضًا، فليس للناس همة ونشاط بالعمل الاقتصادي، فتتعطل المشاريع وتتلكأ، فما هو السبب في مثل هذا الخمول الاقتصادي؟ .

(وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا) : حين يكون الناس فقراء، ولم يكن للعمل بالزراعة أي ربح، بل تكون كلها خسائر، فيضطر الفلاح إلى ترك العمل في أرض لا يربح من زراعتها، وكذا الأمر بالنسبة للصناعي إذا لم يجد في هذا المصنع ربحاً وتحسينا لحياته، بل يرى أنها كلها خسائر، بالرغم من أنه ينفق في هذا المصنع كل ما يملكه، فيتوقف المصنع عن الإنتاج، وهكذا سائر المصالح الأخرى، والإنسان الفقير لا يستطيع أن ينمي عمله، والذي في حالة من العوز لا يستطيع أن يطور مشاريعه الاقتصادية، وهو حائر بنفسه، لأنّ الوفرة المالية هي التي توفر الفرص، ولذلك ترون أنّ من لديه المال تكون لديه قدرة أسرع على تطوير وتنمية إمكانياته، فمن كان عنده محل يصبح لديه اثنان أو ثلاثة أو أربعة، والذي لديه محل واحد وليست لدية وفرة مالية لا يستطيع أن يفتحه، فالوفرة المالية هي التي تساعد على تطوير وتنمية الاقتصاد دائمًا، بخلاف حالة العوز، والفقر، والحاجة، التي قد

تصيب الإنسان، وسيأتي الكلام عن أسباب افتقار الناس؟ ولماذا يتعطل الاقتصاد؟ ولماذا تتعطل المشاريع؟.

يبيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أسباب ذلك بما يلي:

أولًا: جشع المسؤول: يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ)، السبب في فقر الناس، هو انعدام الإمكانات لديهم، فتتعطل مشاريعهم ويتلكأ الاقتصاد وينهار، والسبب في ذلك هو جشع الحكام، جشع المسؤولين، فالمسؤول يسلب المواطن أمواله بشتى الصور؛ كالرشى والضرائب الجائرة، ويضغط عليه، ولا يسهل عملًا إلا لمن يدفع له أكثر، فالجشع الذي يسيطر على نفوس المسؤولين، ورغبتهم في أن يجمعوا الأموال بأي ثمن، وأن يستحوذوا على كل شيء، هو سبب إعواز الناس.

ثانيًا: سوء ظن المسؤول بالبقاء: يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ)، ولهذه الجملة معنيان، الأول: أنها تعني قلقهم إزاء استمرار حكمهم وإدارتهم، فمثلًا، هذا مدير عام لا يعلم بأي لحظة يأتي أمر ديواني بإعفائه، وهذا وكيل، وهذا درجة خاصة، وكلهم قلقون بشأن بقائهم في المسؤولية، لذلك عندما يصل أحدهم إلى المسؤولية يريد منذ اليوم الأول أن يستحوذ ويأخذ، حتى إذا جاء أمر ديواني بإعفائه في يوم ما، يكون مسيطرًا ومتمكنًا ماليًا، فهو يفكر منذ اليوم الأول في عائلته إلى أي دولة يخرجها؟، وفي أي بلد يفتح حسابا مصرفيا؟، وكيف يسرق؟، وكيف ينقل الأموال، ليسبق مجيء الأمر الديواني بإعفائه من منصبه بجمع ما يستطيع من أموال؟، وهكذا تؤدي حالة القلق عند المسؤول تجاه مستقبله الوظيفي ومكانته، إلى حالة من الجشع، فيقوم بالضغط على الناس وأخذ الأموال بأي شكل.

المعنى الثاني: نستطيع أن نفسر جملة (وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ) تفسيرًا معاكسًا، أي تصورهم أنهم باقون ومستمرون، فالمسؤول الذي يجلس في المنصب، ويحلو له المقعد، ويرى الناس يحترمونه، يظن أنه سيبقى العمر كله، فلا يخشى شيئًا، ويبدأ بأخذ أموال الناس، لكي يطور ويوسع من تأثيره في الموقع الذي هو فيه، ولا يفكر بآخرته، ولا باليوم الذي سيترك فيه هذا الموقع، فيظلم هذا، ويكسر ذاك، ويسرق، ويبتز الآخرين، ولا يفكر ماذا سيفعل عندما يزاح من هذا الموقع؟ وهو قد حول المجتمع إلى ذئاب يريدون أن يفترسوه، فالموقع يحميه ما دام على رأس المسؤولية، ولكن عندما يخرج من الموقع سيبقى بلا غطاء، فلماذا تفعل هذا أيها المسؤول؟ أليس الأجدر بك أن تتعامل بطريقة يحترمك بسببها الناس ويقدرونك،

سواء كنت في الموقع أو خارجه، عندما يرون أن الموقع لم يغيرك، والمعنى الأول أقرب للنص، (وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ)، يعني قلقهم بشأن البقاء في مواقعهم، فلا يعلمون بأي لحظة يزاحون، وهذا يجعلهم بحالة من الجشع تدفعهم لأخذ أموال الناس بالباطل.

ثالثًا: قلة الاعتبار: يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ)، المشكلة الثالثة أنهم لا يعتبرون، فإنّ أول ما ينبغي للمسؤول التفكير فيه هو أنه (لو دامت لغيرك ما وصلت إليك)، فإن وصول أمر التعيين إليك، معناه أنّ غيرك قد أُزيح وأنت جئت مكانه، فاعتبر، وانظر هل بقي أحد ممن كان قبلك لكي تبقى أنت؟، وهل دامت لأحد لكي تدوم لك؟ ألا تعتبر من هذا التأريخ الطويل؟ فمنذ آلاف السنين، كم من الإمبراطوريات جاءت وانهارت، وكم من ملوك وحكام ومسؤولين ذهبوا ونُسيت أسماؤهم، فأين تريد أن تصل؟ وكم تريد أن تجمع من الموقع، وهناك من جمع أكثر منك؟ وهناك أناس مثل هشام بن عبد الملك الذي كان يقول عندما يرى غيمة: «أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك»[٥٠]، لا يهمني أين تذهبين، ويعني أنه كان يملك العالم كله، فأين هو الآن؟ وأنت - أيها المسؤول - ماذا تريد أن تكون؟ أنت فرح لأنك مسؤول قسم أو مسؤول شعبة أو وكيل أو وزير أو رئيس؟ من هم أكبر منك جاؤوا وجمعوا وذهبوا، واليوم لا أحد يذكرهم، وأنت مثلهم، ولكن المشكلة في قلة الاعتبار التي تؤدي إلى مثل هذه الاندفاعات والإساءات والضغط على الناس.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

الإضاءة الأولى

آثار الانكماش الاقتصادي

نتناول هنا ظاهرة الانكماش الاقتصادي، والانهيارات الاقتصادية، وتأثيرها السلبي في تعطيل عجلة الاقتصاد لدى الشعوب والأمم والدول.

---

٥٠. سبيل الهدى والرشاد ٣: ١٢٨.

عندما يعاني الناس العوز، وشح الموارد والإمكانات، تتعطل مشاريعهم بشكل طبيعي، وهذا الارتباك الاقتصادي ناشئ من سوء التدبير وسوء الإدارة، وشرحنا ذلك سابقا، وأنت أيها الحاكم، أتريد مالًا؟ أتريد دولة؟ فعليك أن تقوي الناس، وتقوي الاقتصاد في المجتمع، فمن كان لديه مليون مكّنه من أن يجعله عشرة ملايين، وحينئذ من الطبيعي أن تحصل على أضعاف ما أعطيتهم، حين تصبح أموال الضرائب عشرة أضعاف، فلماذا تفقر الناس وتستنزفهم؟! بل عليك أن تساعدهم، وتقويهم، وعندما ينتعش الاقتصاد ستزيد الضرائب، لأنه كلما زادت مداخيل الناس زادت موارد الدولة من الضرائب التي يدفعونها، ولكن سوء التدبير والإدارة هو الذي يجعل المسؤول في حالة من الجشع، ويرغب في أن يحصل على جميع ما في أيدي الناس من أموال، ولا يحتمل أن يرى أحدًا قد أنعم الله عليه، أو ميسور الحال، كأن تكون لديه تجارة ناجحة أو شركة وغير ذلك.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في غرر الحكم: «سبب التدمير سوء التدبير»[٥١]، سوء التدبير هو الذي يدمر كل شيء، فينهار الاقتصاد، وتتعطل المشاريع، وإلاّ فإنّ الإنسان المدبر يستطيع في أحلك الظروف، وفي أصعب الحالات، وفي أخطر التحديات، أن يحول التحدي إلى فرصة، والمحنة إلى منحة.

الإضاءة الثانية

أسباب الانكماش الاقتصادي

يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ثلاثة أسباب للانكماش الاقتصادي، لتعطل المشاريع، لتوقف عجلة الاقتصاد:

الأول: الرغبة بجمع الثروة وتكديس الأموال من قبل الحكام والمسؤولين، وجشعهم الذي لا يتوقف عند حد.

الثاني: القلق بشأن البقاء في الموقع وسوء ظنهم بالبقاء، فيدفعهم ذلك إلى استغلال سطوة الدولة والموقع، لأخذ المزيد من الإمكانات والضغط على الناس.

الثالث: عدم الاعتبار من سنن الحياة، والسابقين، وسنن التأريخ، وقلة انتفاعهم بالعبر، حتى قيل تلك المقولة المعروفة: (من لا يعتبر من التأريخ، يكن

---

٥١. غرر الحكم: ح٥٥٧١، ٧٩٠٦، نقلاً عن ميزان الحكمة ٢: ١٣٨٥.

هـو عبـرة من عبـر التأريخ)، أما إذا اعتبـرت بمن كان قبلك، فلن تقـع بالذي وقع فيـه، وهذا منطق عام، فالثروة لا تتكدس عند أحد، وعندما تتكدس الثروات بهذه الطريقـة غير المنضبطة والمنفلتة، فسـيكون ذلك على حسـاب الآخرين، وهذا ما يقوله أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في نهج البلاغة: (فما جاع فقيرٌ إلاّ بما مُتّع به غني)[٥٢]، ولو قنع الناس بما قدر الله لهم، لعاش الجميع وحصلوا على كفايتهم، أما من سيطر عليه الجشع فإنه يأخذ إمكانات على حساب الآخر، فيزداد هذا غنى، والآخر يزداد فقـرًا، وعدم الاعتبار ظاهرة متفشـية لدى الحكام والمتصدين والمسـؤولين، ولا أعلم ما سـرّ هذا المقعد؟ فكل من يجلس عليه ينسـى ويظن أنه أول من حكم وأول من صار مسؤولًا، فيقوم باستغلال السلطة والنفوذ، والتقريع والإساءة.

يقول الشـهيد السـيد محمد باقر الصدر (قدس سـره): نحن ليل نهار نتكلم في ظلم هارون الرشيد وكيف كان يتعامل، فهل أُعطينا ملك هارون الرشيد ولم نسجن موسـى بن جعفـر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ وقد أرانا الزمان كيف أن بعـض الصائمين، المصلين، المتدينين، عندما أُعطوا شيئًا بسيطًا من الملك، وليس ملك هارون الرشيد، صاروا ظالمين، ولذلك فإنّ الشيء المهم عندما نكون في مواقع المسؤولية والتأثير، هو أن لا نتحول إلى أُناس مستبدين ومسيئين، وأن نعتبر من التأريخ.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في نهج البلاغة: «إن لكم في القرون السالفة لعبرة»، اقرؤوا التأريخ، وانظروا إلى الذين من قبلكم ماذا حل بهم، واعتبروا واسـتفيدوا، «أيـن العمالقـة وأبناء العمالقة؟» هؤلاء العمالقة كانوا أناسًـا أشـداء، طويلي القامة وأصحـاب بنية جسـدية قوية، وكانوا مقاتلين شرسـين، وكان هؤلاء يعيشـون في الجزيـرة العربيـة، في منطقة أدوم، في عصر ما قبل الإسـلام، أيام اليهود، وكانوا يقاتلون الصالحين، شاؤول وداود، وهذه معركة طويلة، وكانوا عصابة متوحشة، وكان شـكلهم مخيفـا، وهم شـجعان قضـوا حياتهم في الحـروب، ويبحثون عن الشـر، فصار لهم اسـم مرعب، إلى أن استطاع داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يقهرهم ويكسرهم وينهيهم، وقد كانوا صورة من صور العنف في التأريخ الإنساني.

«أين العمالقة وأبناء العمالقة؟» فمن نكون أنا وأنت؟ فقد ذهب العمالقة، وصاروا خبـرًا فـي التأريخ، فمن نكون نحن؟ «أيـن الفراعنة وأبناء الفراعنـة؟»[٥٣]، انظروا

---

٥٢. نهج البلاغة ٤: ٧٨ الحكمة ٣٢٨.

٥٣. نهج البلاغة ٢: ١٠٧ الخطبة ١٨٢.

لهــؤلاء الطغــاة أين صاروا؟ فإذا كان هؤلاء قد ذهبوا وصاروا خبرًا من الأخبار، فأنا فــي أي موقع كنت، مديرًا كنت، أو مســؤولًا، ما هــي قيمتي؟ وما هو تأثيري؟ وما هي قيمة هذا الموقع قياسًا إلى أولئك؟.

المقطع الثالث والعشرون

طبقة الكتّاب

(ثُمّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتّابِكَ، فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَائِدَكَ وأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُودِ صَالِحِ الأَخْلاَقِ مِمّنْ لاَ تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ، فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلأٍ، وَلاَ تُقَصّرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصّوابِ عَنْكَ، وفِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ، وَلاَ يُضعِفُ عَقْدًا اعْتَقَدَهُ لَكَ وَلاَ يَعْجِزُ عَنْ إِطْلاَقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ وَلاَ يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفسِهِ فِي الأُمُورِ، فَإِنّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ، ثُمّ لاَ يَكُنِ اخْتِيَارُكَ إِيّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَاسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ الظّنّ مِنْكَ، فَإِنّ الرّجَالَ يَتَعَرّفُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلاَةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ، لَيْسَ وَرَاءَ ذلِكَ مِنَ النّصِيحَةِ وَالاْمانَةِ شَيْءٌ، وَلكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وَلُوا لِلصّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامّةِ أَثَرًا، وَأَعْرَفِهِمْ بِالأَمَانَةِ وَجْهًا، فَإِنّ ذلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ للهِ وَلِمَنْ وَلِيتَ أَمْرَهُ. وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا مِنْهُمْ، لاَ يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا، وَلاَ يَتَشَتّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا، وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ).

يمكن دراسة طبقة الكتّاب في عهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لمالك الأشتر من خلال هذا النص الشريف في خمسة محاور:

المحور الأول

التدقيق في اختيار الكتّاب

(ثُـمَّ انْظُـرْ فِي حَالِ كُتَّابِـكَ): أيها الحاكم، دقق في اختيـار كتابك وراقبهم، ولا تتركهم يسيّرون الأمور على هواهم.

(فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ): فالكتّاب الذين تعتمدهم وتسلمهم أسرارك وتعليماتك والضوابط والمراسلات السرية والعامة وإدارة شؤون الدولة، اختر خيرهم، أحسنهم، أكفأهم، أقدرهم، أي دقق في من تختاره، ليكون ساعدك الأيمن وكاتبا من كتّابك، وسنشرح من هم الكتّاب وماذا يُقصد بهم.

(وَاخْصُـصْ رَسَـائِلَكَ الَّتِـي تُدْخِلُ فِيهَـا مَكَايِدَكَ وَأَسْـرَارَكَ): يعني خصّص لهذا النمط من الرسائل والخطط السرية، ومحاضر الاجتماعات التي تكتب بها خططك، اسـتراتيجياتك، تكتيكاتـك، أسـرارك، أولئك الكتّـاب يجب أن يكونـوا على قدر المسؤولية، لأنهم سيعرفون جميع أسرارك.

(بِأَجْمَعِهِـمْ لِوُجُـوهِ صَالِـحِ الْأَخْـلَاقِ): انظـر من هو الأكمـل والأجمع لمكارم الأخلاق، واختره لهذه الشؤون والملفات السرية والخاصة.

(مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ) البطر: الطغيان.

(لَا تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ): أي قربته، وخصصته بموقع خاص، وأطلعته على أسـرارك وخططـك، واسـتراتيجياتك، فهـذا القـرب منـك - أيهـا الحاكـم - واطلاعه على الأسـرار، يجـب أن لا يجعله يطغـى، فاحترامك أو إكرامك له يجب أن لا يؤدي إلى طغيانه.

(فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ) : يجب أن لا يستخدم سرك ورقة ضغط عليك ، فإذا اختلف معك في يوم ما ، لا يضغط عليك ويبتزك بأسرارك ، أو ينشر أسرارك ويفضحك ، ويحرجك أمام الآخرين ، (فَيَجْتَرِئَ) يتجرأ (بِهَا عَلَيْكَ) ، بتلك الأسرار التي ائتمنته عليها واختصصته بها حين قربته منك وأكرمته ، (فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلَافٍ لَكَ) ، إذا اختلف معك ، (بِحَضْرَةِ مَلَإٍ) ، ينشرها على الملأ ، فيشهّر بك ، ويحرجك أمام الآخرين حين يسرب أسرارك .

(وَلَا تَقْصُرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ) : ينبغي أن لا يغفل هذا الكاتب عن الرسائل التي تأتيك ؛ أي رسائل المسؤولين ، الولاة ، المحافظين ، الأجهزة ، القوات ، الناس ، عندما يرسلون رسائل ، ويعطون تقارير عمل ، وأحيانًا يسألون أسئلة ويريدون موقفًا ، أو تعليمات ، فأنت أيها الكاتب عليك أن تحافظ عليها ، ولا تعمل بمزاجك ، ولا تعطل مصالح الناس ، ولا تقصر ، ولا تأخذك الغفلة عن إيصال رسائل الولاة والمسؤولين في الدولة وتقارير عملهم واستفساراتهم وأسئلتهم إلى الحاكم وإطلاعه عليها .

(وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ عَنْكَ) : ثم عندما تعطي الموقف ، فعليه أن يعرف كيف يجيب بشكل دقيق وصائب ، ويوصل كلماتك وتوجيهاتك بأمانة إلى أولئك ، فلا يكتب بمزاجه ، وإياك أن تختار أمثال هؤلاء الكتّاب ، بل عليك اختيار الأمين الذي ينقل توجيهاتك بأمانة حتى لو كانت خلاف رأيه ، ويوصلها إلى الجهات المعنية ، (فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ) ، يأخذ من الآخرين لك ، ويعطي للآخرين منك ، أي يكون أمينًا ، ودقيقًا ، ولا تفوته الأمور ، وبهذه الطريقة يكون كاتبًا تستطيع الوثوق به .

(وَلَا يُضْعِفُ عَقْداً اعْتَقَدَهُ لَكَ) : هذا الكاتب هو من يبرم العقود والاتفاقيات والمعاهدات ، لذلك عليه أن يحرص على إبرامها بصورة صحيحة ، فأي ثغرة في العقد ، تعني أن يتقدم الطرف الآخر في العقد إلى القضاء ، وتصبح الدولة هي المدانة ، ونسبة كبيرة من المرافعات التي ترفعها الدولة للقضاء ضد طرف العقد الآخر ، يُحكم فيها لصالح الطرف الآخر ، في القضايا التي يقع فيها الخلاف بين الدولة وقطاع خاص ، أو مقاول ، أو شركة ، أو دولة أخرى ، أو منظمة ، ويخسر العراق (٨٠٪) من هذه الدعاوى بحكم المحاكم القضائيّة العراقية والدولية ، لأنّ الذي كتب العقد لم يكتبه بشكل صحيح ، ولم يدقق به ، إذ يكتب عشرين صفحة كلها لصالح الحكومة ، ولكن يكتب في السطر الأخير ما يضيّع فيه حق الحكومة

كله في العقد، ويستند القضاء إلى كلمة في العقد يُلغي بها كل ما جاء في الصفحات العشرين، ولذا على الحاكم أن يضع كاتبا ذكيا - أو لجنة لصياغة العقود ومراجعتها قبل التوقيع عليها يعرف بالضبط ماذا تعني كل كلمة، ويصوغ العقود والمعاملات والاتفاقيات بطريقة تضمن حق الدولة ومصالحها ولا يضيعها، (وَلَا يُضْعِفُ عَقْداً)، لا يكتبه بصياغة ضعيفة لئلا يستغل الطرف الآخر نقاط الضعف فيه، (اعتقده لك) يعني عقده لك.

(وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ)، وإذا كانت هناك اتفاقية مضرة، فيجب أن تكون لديه القدرة على أن يُخرج الدولة منها ولا يورطها فيها، وفي كل عقد هناك دائمًا بنود وفقرات لصالح الدولة، وإذا ظهر أنّ الدولة مغبونة من عقد معين، ولحق بها الضرر، فيجب أن يكون في كل عقد واتفاقية نص يُخرج الدولة من هذا العقد أو الاتفاقية، ويحفظ الدولة من الوقوع في المحظور.

(وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ): على الكاتب أن يعرف قيمة نفسه، ويعرف قدراته، وحساسية الموقع الذي هو فيه، وحجم المسؤولية عندما يكون في مثل هذا المكان الخطير والحساس، (وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ)، الذي لا يعرف قيمة نفسه، كيف يمكن أن يعرف قيمة الناس؟ والذي لا يقدّر مواهبه وقدراته وإمكانياته، كيف يقدّر مواهب الناس؟.. إنّ من لا يعرف نفسه من المؤكد أنه لا يعرف الناس، والذي يجهل نفسه يجهل الناس أكثر، فعليه أن يعرف قيمة نفسه ويحترم نفسه، هذه هي المواصفات التي على الحاكم أن يختار الكاتب بموجبها.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

الإضاءة الأولى

أهمية الكتّاب ومكانتهم

يظهر أنّ المقصود من لفظ «كاتب» في هذا العهد الشريف ليس هو مقرر الجلسات، وليس هو الكاتب في قسم القلم، في الدوائر أو في القوات العسكرية، بل يظهر أنه موقع حساس جدًا ومفصلي بحسب الرؤية الإسلاميّة في الهيكل الإداريّ آنذاك، فهو يأتي بعد الحاكم، وهو بذلك يكون أكبر من الولاة، وأكبر من المحافظين، وأكبر من

الدرجات الخاصة، فهو أداة الحكم، والعقل المنفصل، وليس دوره أن يكتب فقط، إذن هو موقع خطير جدًا، قد يضاهي في زماننا مجلس الوزراء مثلًا، لأنه صاحب قرار كما سأشرح، فالكتّاب هم وزراء مجتمعون في مجلس الوزراء.

الكاتب هو من عليه أن يحسن التدبير، ويُحسن الإدارة، يفهم تمامًا فنون السياسة، بمعنى أنه هو من يباشر ويتخذ قرارات سياسيّة، ويعي تمامًا القوانين، والضوابط، والتعليمات الحكومية، بل هو من يصوغها ويطورها، وتكون لديه معرفة دقيقة بسياقات الدولة ويقوم بتطويرها على الدوام بما ينسجم مع المتغيرات، وهذا يحتاج إلى مستوى عال من الكفاءة، والقدرة، والفهم، لكي يفي بهذا الدور الحساس، وقد جاء التعبير عنه في بعض الكتب: «الكاتب عماد الملك»، العمود الذي يستند إليه الحكم، والحاكم، وهو مفتاح نجاح الحاكم، والصلاحيات التي تُعطى للكتّاب هي صلاحيات مجلس الوزراء في زماننا؛ إذ يضع السياسات، ويدير الدولة، فيتعامل مع المفاصل المختلفة، ويوجه، ويبرم اتفاقيات وعقودا ومعاهدات داخلية وخارجية، ويحل مشكلات الناس، وهذه كلها واجبات ومهام مجلس الوزراء، إذن فالكاتب هو الوزير في تعابيرنا، والكتّاب هم مجلس الوزراء، وقد لا يكون الأمر مطابقا تمامًا بالضرورة، لأن الهيكلية كانت مختلفة، ولكن موقعه وحجم صلاحياته أقرب إلى الوزراء ومجلس الوزراء.

الإضاءة الثانية

دور الكتّاب

ما هو دور الكتّاب؟ . . إذا لخصنا المهام الحكومية الأساسية، نجدها هي نفسها مهام الكتّاب:

أولًا: تنظيم التعامل مع أجهزة الدولة؛ أي إدارة أجهزة الدولة بشكل عام ووزاراتها، وإبرام الاتفاقيات والمعاهدات مع الدول، ومع الأطراف الداخلية، كالقطاع الخاص والمقاولين والاستثمارات، ومصالح مع أطراف مختلفة، ووضع السياسات الحكومية للتعامل مع كل هذه الأطراف، وكل هذه من مهام الكتّاب، وامتدادًا إلى المحافظين والمسؤولين والدرجات الخاصة، أمرًا، ونهيًا، وتحفيزًا، ومكافأةً، وعقوبةً، وتهديدًا، ومدحًا، وقدحًا، وترفيعًا، وتجميدًا، وإعفاء، كل

هـذه الأمور وهذه التفاصيل ، أي إدارة مؤسسـات الدولة بجميع تفاصيلها ، من مهام الكتّاب .

ثانيًا : تسـلم إيـرادات الدولة ، وحقوق الدولة من ذوي الشـأن داخليًا وخارجيًا ، ودفع المسـتحقات ، والمكافآت ، والعلاوات ، والترفيعات ، إلى غير ذلك ، لجميع العامليـن فـي الدولة أو الأطراف المرتبطة بها بشـكل وآخـر ، كأصحاب العقود أو ما شـابه ذلك ، والدفاع عن مصالـح المواطنين ؛ حقوقهم ، اسـتحقاقاتهم من الدولة ، أو مـن دول أخـرى ؛ من طـرف خارجي ، أو طرف داخلي ، فهم مـن يتابعها ويحمي هـؤلاء الناس ، ويدافعون عن حقوق الدولة وإمكانياتها ومتطلباتها داخليًا وخارجيًا ، ويتصرفـون بالنفقات الخاصة والعامة ويحمونهـا ، كل هذه من مهام الكتّاب ، لذلك أقول : هي مهمة مجلس وزراء في تعبيراتنا وتعريفاتنا اليوم .

الإضاءة الثالثة

أنواع الكتّاب

نجد هنا أيضًا أنماطا وأنواعا متعددة من الكتّاب :

النـوع الأول : الكتّـاب المختصـون بالشـؤون السـرية الخاصـة ، وبالخطـط الاستراتيجية ، ومن الممكن أن نطلق عليهم في زماننا (المخابرات ، الأمن الوطني ، الاسـتخبارات ، مجلس الأمن الوطني) ، وغيرها من التسميات والتعريفات ، فهؤلاء خزائـن أسـرار البلد ، واسـتراتيجيات البلد تكون في هذه الأروقـة ؛ توثق ، وتدون ، وتصـاغ ، وتتابـع ، وتنفذ ، إلى غير ذلـك ، ومن الممكن في البعـد المدني أن تكون وزارة التخطيط أو غيرها من الوزارات التي تضع التصور العام للتنفيذ في هذه الأمور الخاصة .

النوع الثاني : المختصون بالشؤون العامة للدولة والمواطنين ؛ كحل مشكلاتهم ، ومتابعـة قضاياهـم ، وتدوين عقودهـم واتفاقياتهم ، إلى غير ذلـك ، وهي يمكن أن تعادل الأمانة العامة في مجلس الوزراء في تعبيراتنا ، وزارة العدل ، التسجيل العقاري فـي تسـجيل الممتلـكات ، دائرة الجنسـية والأحوال الشـخصية في تسـجيل الزواج والطـلاق ، وزارة الخارجية في حقل الاتفاقيات والمواثيق والتفاهمات الدولية في ما يخص الوضع الخارجي ، إلى غير ذلك من مؤسسـات ، صحيح أنها اليوم ليسـت في

دائـرة واحدة فقط، بل فـي دوائر متعددة، ولكن هؤلاء نمط من الكتّاب معنيون بهذه الشؤون العامة للدولة.

النـوع الثالـث: الكتّاب فـي الشـؤون المالية، وهـم المعنيون بالأمـور المالية، كـوزارة الماليـة، والبنك المركزي، والمصارف، والـ(TBI) وأمثاله من المصارف التـي تفتح اعتمـادات في تعاقـدات خارجية، إلى غير ذلك من مؤسسـات ومفاصل ترتبط بالسياسـة النقدية والمالية للدولة. إذن فوصف الكتّاب يشـمل مسـؤولين بهذا المستوى، ويتحملون مسؤوليات بهذه الجسامة والسعة.

الإضاءة الرابعة

صفات الكتّاب

هـي المواصفـات التـي يُفترض أن تتوفر فـي الكتّاب، وقد ذكرهـا أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر، ويحتوي هذا المقطع على خمس صفات للكتّاب:

الصفـة الأولى: يقول عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: (فَوَلِّ عَلَـى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ)، يجب أن يكون هذا الكاتـب هو الأكفأ، الأقـدر، الأنزه، الأتقى، الأفهم، الأوثق.. اسـتعرض جميع المعاييـر والمواصفات المطلوبة في أي مسـؤول، واختر لهـذا الموقع أفضلها، فهو يحتـاج إلـى مواصفات أكثـر، لأنه موقع يأتي فـي المرتبة الثانية بعـد الحاكم، وبعد الخليفـة، وبعد المسـؤول الأول، لذلك فهو ذراعـه، وعقله المنفصل، ومن خلاله يمارس إدارة الأمور بشكل كامل، لذلك يجب أن يكون الأعرف بالشؤون الإداريّة، والأوضـاع الحكوميـة إلى غير ذلـك، لكي يتمكن من الإيفـاء بواجباته ومهامه على النحو الأفضل.

الصفـة الثانيـة: يقـول عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: (وَاخْصُصْ رَسَـائِلَكَ الَّتِـي تُدْخِلُ فِيهَـا مَكَايِدَكَ وَأَسْـرَارَكَ بِأَجْمَعِهِـمْ لِوُجُـوهِ صَالِـحِ الْأَخْلَاقِ)، الخطط السـرية، أسـرار الدولة، الإجراءات الخاصة التي تخص الأمن القومي، الأمن الوطني، الإسـتراتيجيات التي يجب أن لا تصل إلى مسامع الأعداء والخصوم والمنافسين، هذه الأسرار يضعها عند أولئـك الكتّـاب، الذين هم أجمع لوجود صالح الأخلاق، أي ليسـت لديهم مكارم أخـلاق فقط، بـل هم أجمع لهذه المكارم، أي من كانوا أوثق، وأشـد أمانةً، وأكثر كتمانًا للأسرار، وأكثر حفظًا لهذه القضايا الحساسة والخطيرة، بمعنى أن المراسلات والوثائق والسياسـات السـرية الخاصة بالدولة، الشؤون العامة، الاستراتيجيات التي

تضعها الدولة في مساراتها، والتي هي قضايا حساسة، يجب أن تسلم لمن تجتمع فيه هذه الشرائط بشكل أكبر وأفضل من بين الكتّاب، أي يجب أن يتم اختيار الأفضل والأقدر والأكثر وثاقة والتزامًا وكتمانًا للسر من بين الكتّاب، ليكونوا مؤتمنين على هذه المهام السرية والخاصة، والسبب واضح؛ وهو أن هذه الأسرار رأس مال كبير، وسلاح فتاك، وإذا صار سر المسؤول عند أحد غير موثوق فإنه سيبقى يبتزه، وليس بالضرورة أن يكون شيئًا سلبيًا، ولكنها الأسرار التي يجب أن لا تصل إلى مسامع الآخرين، فيضع اشتراطات ويبقى يبتز المسؤول، لأنه يمتلك أسراره، ولكي لا يقع المسؤول والحاكم في هذه المشكلة، يجب أن يضع أسراره عند من هو أهل لتحملها، واستيعابها، والحفاظ عليها، ممن لا يستخدمها ورقة ضغط لابتزاز الحاكم.

الصفة الثالثة: يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَلَا تَقْصُرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ)، أن يوصل رسائل أجهزة الدولة إليك، فهناك من لديه استيضاح، أو تقرير عمل، الإيجابيات والسلبيات، الإنجازات والإخفاقات، فيكون الكاتب مرآة يمرر الحقيقة كما هي، فعندما يزيف الكاتب المعلومات، سوف لا تصل المسؤول الصورة الكاملة، بل تصله صورة منقوصة بحسب ما يريدها الكاتب، وهذا خلاف الأمانة، فالكاتب يجب أن يكون مرآة للحقيقة؛ ينقلها كما هي بلا زيادة أو نقصان، فإذا كان الواقع بشعا لا يقول: سيقلق المسؤول بسبب هذا التقرير، لذلك سأوصل له الجوانب الجيدة فقط ليبقى مرتاحًا، كلا، فهذا خلاف الإخلاص، وكيف يرتاح وهو ظرف لا يستدعي الارتياح إذا كانت هناك مشكلة؟ أو في الاتجاه الآخر؛ إذا كانت الصورة جيدة، لا يعطي الكاتب معلومات خاطئة، بل يجب أن يكون مرآة لنقل الحقيقة عما يدور في داخل أجهزة الدولة إلى الحاكم، وبالطبع كلٌ بحسبه؛ فمن الممكن أن يكون هناك مسؤول على مجموعة صغيرة، ويكون لديه كاتب أيضًا، ليكون عقله المنفصل ويمارس هذا الدور له، وليس في الدولة فقط، كآمر فوج لديه شخص يقوم بهذه الأعمال، وإلى آخره، ومن الممكن أن يكون هناك مسؤول عن تيار سياسيّ، ولديه مثل هؤلاء الكتّاب الذين يديرون شؤون ذلك التيار والحزب والجماعة والكيان وما إلى ذلك، أو مدير مصنع، أو شركة، وتتنزل هذه الأمور إلى المستويات القياديّة الأدنى أيضًا.

(وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ عَنْكَ)، وكذلك يجب أن يكون هذا الكاتب مؤتمنا في أن يردّ عليهم بما تريده وتقوله، ولا يجوز أن تعطيه توجيهًا ويكتب شيئًا آخر، أو يؤخره، أو يضرب رأسا برأس، أو يعطي تعليمات غامضة مبهمة تسبب

التقاطعات داخل المنظومة ، ويجب أن تكون لديه نباهة ، وفراسة ، وحنكة ، فعندما يرده تقرير يطلب شيئا من الحاكم ظاهره لطيف ، عليه أن يقرأ ما هو وراءه ، وما بين السطور ؛ لماذا قال هذا المسؤول هذا الكلام ؟ ولماذا طلب هذا الطلب ؟ فقد يكون قال كلمة جيدة ، ولكنه يريد أن يجعلها غطاء ويقوم بعمل ابتزازي ، أو يريد أن يرتكب فسادا ماليا ، أو يقوم بصفقة مشبوهة ، ويريد أن يغطي نفسه بهذا الكلام المنمق ، فالكاتب عليه أن يقرأ ما بين السطور ويكتشف ذلك ، ويعرف ما وراء كل طلب ، ويجيبهم بالأجوبة التي تمنع مثل هذا الانحراف أو الفساد الذي قد يقع فيه المسؤولون ، فيجب أن تكون لديه نباهة يستطيع أن يكتشف بها ويقرأ ما بين السطور ، لكي يعالج الأمور معالجة سليمة ، ولا يوقع الحاكم في مطبات ، وفي توجيه العاملين في الدولة ، وفي القرارات والتعليمات التي يصدرها يجب أن يكون دقيقا ، فيجب أن لا يصدر تعليمات تسبب مشكلات ، ثم يعود بعد يومين ليسحب الكتاب ويعدله ، ويبقى يصدر تعديلات مستمرة ، وكل ساعة يغير قرارًا ويعطي صورة عن ارتباك في رؤية الدولة الإداريّة ، فإنّ تغير تعليمات الدولة وقوانينها كل ساعة ، يعني عدم وجود نضج ، أو دراسة صحيحة ، ويجب على الكاتب أن يمنع مثل هذه الانطباعات التي تخدش هيبة الدولة ، وتعطي انطباعًا أن هذه دولة ركيكة ، ضعيفة ، لا تسير فيها الأمور بشكل منهجي ، وكل ساعة تغير تعليماتها ، فيجب أن تكون لديه قدرة على فهم الأمور ، وخلفياتها ، ومضاعفاتها ، ويدرسها دراسة مستفيضة ، ولا يتخذ خطوة تفتح له بابًا لقضايا كثيرة لم ينتبه لها ، هذه كلها من واجبات هذا الكاتب .

الصفة الرابعة : يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ : (وَلَا يُضْعِفُ عَقْداً اعْتَقَدَهُ لَكَ) ، عندما يبرم العقود والاتفاقيات والمعاهدات والالتزامات لك ، أنت أيها الحاكم ، أي للدولة ، يجب أن يدقق بها ويصوغها صياغة محبوكة ، وأن يستعين بخبراء في القانون ، بأُناس من أهل الخبرة ، لكي لا يكتب شيئا يساء استغلاله ويضر بالدولة من خلاله ، فالعقود يجب أن تُكتب بشكل دقيق .

(وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ) ، وإذا كُتب عقد أو عهد وتبين أن الدولة مغبونة فيه ، وأن الحاكم قد خُدع به ، فيجب أن يضع فقرة في العقود تُخرجك من مثل هذه المواقف ، ويجب أن لا يكون عاجزًا ، فإذا كان العقد لصالح الدولة فبها ، وإن كان فيه ضرر على الدولة ، فيجب أن تكون لديه القدرة على إخراجك من هذا العقد وإبطاله لكي لا تتضرر الدولة .

إن العقود، والمعاهدات والاتفاقيات، سـواء مع مقاولين، أو شركات، مع قطاع خـاص، أو مؤسسـات، أو منظمـات، أو مع دول، على اختـلاف كل هذه الأمور، يجب أن تدار بشـكل سـليم وصحيح لتكون لصالح الدولة، ويجب التنبه لكل كلمة توضع في هذا العقد؛ لماذا؟ وما وراءها؟ ولماذا أرادها الطرف الآخر؟ وأنا ماذا أريد؟ فالدقة في صياغة العهود والعقود شيء مهم جدًا، وكذلك في اللوائح الاجتماعيّة التي تنظم حياة الناس؛ فيجب أن تدقق لكي لا تتسبب في أضرار اجتماعيّة، ولا تحط من هيبـة الدولة وتجرئ الناس عليها، ولا تجعل الدولة في موقف الظلم والاعتداء على النـاس، فعليـه أن يدقق الأمور ويدرسـها من جميع النواحي والجهات، وهذه سـمة مهمة يجب أن تتوفر في الكاتب.

الصفـة الخامسـة: يقـول عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَلَا يَجْهَـلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِـهِ فِي الْأُمُـورِ فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ)، يجب أن يعرف الكاتب نفسه، وقيمته، ومؤهلاته، وقدراته، ويراجعها على الدوام.

عليك -أيها الكاتب- أن تراجع نفسـك؛ هل أنا بنفس الهمة التي كنت عليها يوم تصديت للمسـؤولية؟ هل أنا اليوم بنفس النباهة التي كنت عليها؟ هل أنا اليوم بنفس التركيـز الـذي كنـت فيه؟ هل أنا اليـوم بنفس العمق الذي كنت عليه؟ هناك شـخص عندما يتصدى للمسؤولية يأتي بهمة عالية، ويعمل ليلًا ونهارًا بنشاط ومثابرة، ولكن يبدأ بعد أسـبوع أو أسـبوعين أو ثلاثة يتكاسـل شيئا فشـيئًا، وبعد سنة تجد نفس هذا المسؤول غير ذاك المسؤول في أول تسلمه للمنصب، فيكون نشيطًا في أيامه الأولى ثـم يقـع في الرتابة والروتيـن، وبعدها لا يهتم، ويتهاون، هكذا هـو حال الكثير من المسـؤولين، وأنـت أيها الكاتب، صاحب المسـؤولية الحساسـة، يجب أن تراجع نفسـك دائمًـا، تُراجـع ولا تتراجع، مراجعة للـذات؛ مراجعة للإمكانيـات، لتتأكد من توفر المواصفات والمعايير، ويجب أن لا يكتفي المسـؤول الذي يتصدى لموقع حسـاس ومرمـوق بقدراتـه، بل عليه أن يطورهـا؛ بأن يقرأ، ويراجع، ويشـارك في دورات تطويرية، لكي يؤهل نفسه لأداء أفضل، ويكون مسلحًا دائمًا بجميع الأدوات التي يحتاج إليها لإنجاح المهمة، ويكون على قدر المسؤولية التي كُلف بها.

إن هذا الكاتب لديه اتصال بثلاثة أطراف، وجميع هذه الأطراف مهمة جدًا:

الطـرف الأول: الحاكـم، المسـؤول الأول، فيأخـذ منه تعليمـات، ويوصل له الرؤية.

الطرف الثاني : مؤسسـات الدولة ، فعليه أن يتواصل مع دوائر وموظفين وعاملين ومنظومات إداريّة .

الطرف الثالث : الناس ، والأمة ، والشعب ، ما هي مصالحهم؟ وماذا يريدون؟ .

يجب أن يكون قادرًا على قراءة الأطراف الثلاثة المذكورة ؛ فيقرأ الحاكم وأولوياته واسـتراتيجياته ، ويطبقها في مؤسسـات الدولـة ، ليحقق خدمة أفضـل للمواطنين ، ويكـون بارعًـا في قـراءة الطرفين الآخريـن ، ولا يكفي أن يكون بارعًـا في أحد هذه الأطـراف دون غيرهـا ، بل عليه أن يضع هـذه الأطراف الثلاثة أمامـه ويجمع بينها ، لكي يقرب الشـعب إلى المسـؤول والحاكم ، ويكسـب ثقة الناس بحكومتهم ليلتفوا حولهـا ، ولتحقيق هذه التكاملية الأساسـية في العملية ، يحتـاج الكاتب إلى مهارات وقدرات استثنائية .

المحور الثاني

نفي الاختيار بعيدًا عن المعايير

يحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أن يختار المسؤول الأعلى الكتّاب بدون معايير، أو بمعايير باطلة وخاطئة، فهذا الموقع حساس وينبغي على الحاكم أن لا يختار من يشغله بطريقة عشوائية أو بلا معايير، أو بمعايير خاطئة، إذ يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

(ثُمَّ لَا يَكُنِ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ)، الفراسة: هي قوة النظر، فيقال: فلان لديه فراسة، أي عندما يرى شخصًا ويتمعن فيه جيدًا يعرف أصله ووضعه، ومع ذلك، عليك أيها الحاكم مهما كنت بارعًا في معرفة الناس، أن لا تختار من يشغل منصب الكاتب، الذي هو منصب الحكومة، وتسلمه الدولة ومصيرك، على أساس الفراسة فقط، بل يجب أن يكون تقييمك له ناتجًا عن تجربة، لتعرفه بشكل كامل، والناس لا يُكتشفون من مقابلة، فكلما كان الموقع أخطر تُصبح هذه الآليات غير كافية، وهي معايير خاطئة، ومنها الاعتماد على الفراسة في الاختيار، فهذا لا يكفي.

(وَاسْتِنَامَتِكَ(، الاستنامة: طلب النوم، والنوم يعني الراحة، والثقة، والارتخاء، فلا تعتمد على استنامتك، فإذا أردت أن تسلم شخصا إدارة الدولة وهذه المهمات الخطيرة، فلا تعتمد على مشاعرك الشخصية، فقد ترتاح له ولكنه غير مؤهل للقيام بأدوار خطيرة ومهمة كهذه، فالسكون والثقة والركون نفسيًا إلى شخص ما، لا تعني أنه الأقدر والأكفأ والأنزه الذي يستطيع أن يقوم بهذه الواجبات كلها، فربما تركن إلى شخص لأنه محبوب وطيب، فلا يكون مؤهلًا، ولا يستطيع أن ينجز المهمة التي تكلفه بها.

(وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ)، لا تكتفِ بالانطباع الإيجابي عن شخص ما، ولا تعتمد على حسن الظن في تكليف الناس بمهام خطيرة وحساسة كالكتّاب وأمثالهم.

(فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ)، هناك من هو متملق وانتهازي، فإن عرف أنّ المسؤول إنسان متدين، تجده قبل اسبوعين من المقابلة

قد طوّل لحيته، وملأ أصابعه بالخواتم، وأمسك بكفه مسبحة، وحمى تربة ووضعها على جبهته ليتبين أنه ممن يطيل السجود، وارتدى ثيابًا معينة، وجاء إلى مقابلة المسؤول متظاهرًا بحركات الخشوع والخضوع، فيقول المسؤول: هذا هو الشخص المناسب، من غير أن يبحث في واقعه، وينفذ إلى باطنه، فليس كل من أمسك مسبحة وتختّم يكون إنسانا مثاليا، صحيح أنّ هذه من مظاهر بعض المتدينين، ولكن هذه ظواهر قد لا تعبّر عن واقع إيماني حقيقي، وإن عرف أنّ المسؤول علماني، تجده قد حلق لحيته، وحلق شعره بطريقة معينة، ولبس قميصًا معينًا وفتح أزراره، وذهب بهيأة أخرى ليوحي له بأنه مثله، وهناك أناس بارعون في التلون كالحرباء، ولديهم قدرة رهيبة في النفاق والتأقلم مع الواقع المحيط بهم، فيكون كيفما تطلب الواقع، وعندما يجس النبض ويقرأ اتجاه المسؤول، تجده أكثر منه اندفاعا في ذلك الاتجاه!.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمالك إن الناس قد يتصنعون، ويتظاهرون بأمر غير ما هم عليه حقيقة، والناس أمامك ليسوا كما هم عليه في واقعهم، فعندما يأتون لمقابلتك يأتون مستعدين للقاء، في شكلهم، وحديثهم، فالاعتماد والتعويل على الحدس والانطباعات والفراسة وحسن الظن، هذه كلها مبنية على ظواهر، وهناك من هو بارع في التصنع بها من أجل التزلف والوصول.

(فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ)، تجد ألسنتهم تلهج بعبارات الطاعة والولاء، (وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ)، ذلك التصنع، والتزلف والنفاق، وتلك الانتهازية، والظهور بالمظهر الذي يناسب المسؤول، (مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ)، وهو في الواقع ليس ناصحا، ولا يريد أن يخدم المجتمع، ولا يريد أن يخدم الدولة، بل يريد أن يخدم نفسه، فيتزلف لكي يصل، وكل تفيكره بنفسه، أما الدولة، والتيار، والمشروع، فإلى جهنم وبئس المصير، ولا يهمه إن كان مستفيدًا أن يكون التيار كله منهارا، ويدعو بالويل والثبور إن كان متضررًا وإن كان التيار كله صاعدًا، فليس له همّ إلا نفسه، ومصلحته هي المحور ولا شيء آخر وراء ذلك، ومثل هذا الإنسان لا يصلح أن يكون مؤتمنًا، فالأمانة تقتضي أن تؤدي المسؤولية على النحو الأفضل حتى لو أضرت بك، فهؤلاء الناس الذين يتزلفون لا يفكرون بأمانة، ولا بمصلحة غير مصلحتهم.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

الإضاءة الأولى

مراعاة المعايير الصحيحة في الاختيار

إنّ اختيار المسؤول بعيدًا عن المعايير الصحيحة، أو اختياره بمعايير خاطئة، خطأ لا يجوز ارتكابه، وخطيئة لا تُغتفر، فأنت أيها المسؤول عندما تريد أن تختار مسؤولًا دونك، يجب أن يكون هذا الاختيار على أساس معايير صحيحة، وليس على أساس معايير خاطئة، أو بلا معايير، وكونك القائد العام، والحاكم، والزعيم، والناس تسمع كلامك، لا يعني أن تسيّر الأمور بما يعجبك، فهذا ليس صحيحًا.

وهنا يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى ثلاثة معايير خاطئة:

المعيار الخاطئ الأول: الفراسة: لا تعتمد على فراستك، على حدسك، فلا يكفي أن تعتمد على قراءتك للناس، فهذا موقع ستسلمه شؤون البلاد والعباد، وقد تكون قراءتك لهذا الشخص خاطئة ولو واحدًا بالمائة، ومن ذلك الذي يدّعي العصمة لنفسه ويقرأ الناس على حقيقتها؟.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إن التقييمات السريعة لا تصلح لأن تكون معيارًا لاختيار المسؤولين في المواقع الحساسة، بأن يجري معه مقابلة مدتها نصف ساعة أو ساعة، وقد جاء مستعدًا لهذه المقابلة، لذلك فالتقييمات الخاطفة السريعة لا تكفي، فهي تولد انطباعا أوليا قد يكون صحيحًا وقد لا يكون، فلا يمكن أن تجازف وتعرض العمل إلى خطر، حين تختار شخصيات في مواقع مرموقة بدون تفحص وتأمل وتدقيق، فالفراسة يمكن أن تعطيك انطباعًا سطحيًا، والانطباعات السطحية غير كافية لاختيار المسؤولين.

المعيار الخاطئ الثاني: السكون والاطمئنان والثقة العابرة: هذا معيار غير كاف في الاختيار أيضًا، فقد تراه واثقا بنفسه، أو أعجبتك شخصيته، أو رأيته دافئًا، أو هادئًا، ولو رأيت ماذا يفعل في بيته، فقد تجد عائلته تعيش معه عيشة بائسة، ولكنه جاء أمامك وديعا، فعليك أن تنظر إلى أبعد من الظواهر، فإذا كان يفعل هذا بعائلته، فماذا سيفعل بالناس لو جعلته مسؤولًا عليهم؟ ولكن المسؤول يركن أحيانًا إلى مثل هذه الأمور والاعتبارات، بسبب مشاغله الكثيرة، وهذا الموقع شاغر، وقد يبرر سلوكه هذا بقوله: لدينا الآن في الحكومة العراقية وزارات شاغرة، وقد مرت سبعة أشهر، فاجلبوا لنا أيًا كان وضعوه في هذه الوزارة، فالمشاغل تجعل المسؤول أحيانًا يختار أي شخص ليملأ

الفراغ، أو لكي يتخلص من البريد والتواقيع، وليس مهمًا أن يكون كفوءًا أو غير كفوء، بل المهم أن يعبر هذه الأزمة، أو يكون للمسؤول الأعلى معرفة سابقة به منذ أيام الجامعة قبل خمسة عشر عامًا، مع أنّ الإنسان لا يبقى على حاله خلال هذه المدة الطويلة، والآن يريد المسؤول الأعلى أن يجعله مسؤولا اعتمادًا على انطباعات سابقة؟ أو لأنه من عشيرته، أو جماعته، أو حزبه، أو منطقته، وكل هذا لا يكفي، وهذه الانطباعات التي تولد ثقة عابرة غير كافية، بل يجب اعتماد معايير علمية ومهنية في اختيار المسؤول.

المعيار الخاطئ الثالث: حسن ظن الحاكم بالشخص، نتيجة تزكية بحقه ممن يثق به، فما أدراك أيها الحاكم أن هذه التزكية لم تكن بسبب الإحراج؟، فليس كل من كتب لك سطرين هو يقصد بالفعل ما كتب، ثم إنّ هذا التقييم الإيجابي ليس بالضرورة تقييمًا صحيحًا، فربما كان تقييمك العابر غير صحيح، وقد يكون تقييم الآخر غير صحيح أيضًا، فلا ينبغي عليك أن تعتمد على تزكية في ورقة، أو على انطباع معين يُمكن أن يحصل عن هذا الشخص الذي تريد أن تجعله مسؤولًا.

وهذه هي المعايير الثلاثة الخاطئة التي لا يجوز الاعتماد عليها في اختيار المسؤولين المؤثرين.

الإضاءة الثانية

نتائج الاختيار الخاطئ

يتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن النتائج الكارثية والخطيرة عند الاعتماد على معايير خاطئة، أو الاختيار من غير معيار معين، فإذا كنت أيها الحاكم تعتمد على حدسك، أو على حسن ظنك بشخص، أو على أساس الثقة العابرة والاطمئنان تجاه شخص معين، وجلبت المسؤولين على وفق أسس كهذه، فإنّ النتائج ستكون كارثية وخطيرة، ويمكن أن تؤدي إلى انهيار الحكم، فتضيع المؤسسات، وتضيع الدولة، ويضيع التيار، إذا سلمتها بيد أناس لا تتوفر فيهم المعايير الصحيحة في القيادة والإدارة، لأنّ مثل هذا حين يصبح في هذا الموقع، فإنه سوف يغيّر بحسب ما يحلو له، فإن كان هذا المسؤول غير مخلص، فسوف يوصل لك المعلومات التي يريدها هو، ويحجب عنك المعلومات التي لا يريدها، أو يعطيك صورة عن جزء من الحقيقة، ويبعد عنك الجزء الآخر، وهكذا يتحكم بك بإعطائك معلومات خاطئة، أو منقوصة، أو بتوجيه المعلومات بالشكل الخاطئ، وكل ذلك بسبب الانطباع الخاطئ لدى الحاكم تجاه شخص جعله في سلّم

المسـؤولية ، فيتخذ قرارات خاطئة ، لعدم وصـول المعلومة الكاملة ، ولذا يجب اختيار المسـؤول الـذي يوصل المعلومـة الكاملة ، ليسـتطيع الحاكم اتخاذ القـرار الصحيح ، فالمعلومة الناقصة تؤدي بالحاكم إلى اتخاذ قرار غير سـليم ، وهذا نتيجة اختيار مسـؤول غير مؤهل ، ولا تتوفر فيه المعايير الصحيحة من الأمانة والحرص ، فتكون الآثار كارثية ، فهذا المسؤول الفاقد لهذه المعايير لديه مشكلتان :

المشـكلة الأولـى : ليـس ناصحًـا ، ليسـت لديـه القدرة علـى أن يعطيـك النصيحة الصحيحة .

المشـكلة الثانيـة : ليس أمينًا ، فهو يخونك متى مـا رأى أن مصلحته في ذلك ، مع أنّ النصـح والأمانة قضيتان أساسـيتان فـي النجاح ، وعندما يكون المسـؤول ناصحًا وأمينًا يُرجى منه شـيء ، أما إذا لم يكن كذلك فقد انهارت الدولة ، وانهارت المنظومة ، وضاع الشعب ، وحل الفشل في ربوع الوطن .

المحور الثالث

المعايير المطلوبة في الاختيار

ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى المحور الثالث في حديثه عن الكتّاب، ويتناول المعايير المطلوبة في الاختيار، بعد أن ذكر المعايير الخاطئة التي يعتمدها الحاكم في اختيار المسؤول، وهي معايير مزاجية وغير مقبولة، تعتمد على الحدس، والتقدير، وحسن الظن، والانطباعات الخاطفة، ولا بُدَّ من اعتماد معايير واقعية وسليمة في الاختيار، فما هي هذه المعايير؟.

يتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عنها بقوله:

(وَلَكِنِ اخْتَبِرْهُمْ)، كما قلنا، فإن الآلية الصحيحة هي الاختبار، ولكن ما هي المعايير؟ بماذا يختبرهم؟ (بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ)، لا تجلب أحدا يتعلم الإدارة والقيادة على حساب مصالح الناس، فالدولة ليست حقل تجارب، ولا مصالح الناس حقل تجارب، ويجب اختبار حتى من يجعل في المستويات الأدنى في سلّم المسؤولية، كالمدير، والآمر، ويجب أن يكون من أصحاب التجربة، تفاديًا لتكرار الأخطاء، والقدرة والاستعداد لتفادي حدوث الأخطاء والمشاكل، وفي حالة عدم وجود أصحاب التجربة، فيجب تدريب وتعليم وتأهيل من يراد جعله في المسؤولية، فلا يجوز أن يتعلم المسؤول الجديد على حساب حياة الناس، فإنّها ليست حقلًا للتجارب، بل يجب أن يتعلم وينهي دوراته الكاملة بنجاح، ويأتي مؤهلًا ومدرَّبًا فيتحمل المسؤولية، لذلك يجب على الحاكم عند اختياره مسؤولًا لهذا الموقع الحساس، أن يتحرى اختيار صاحب التجارب السابقة الناجحة، في منظومات إداريّة وقياديّة صالحة.

(بِمَا وُلُّوا)، أي بما تولوا من مهام جسيمة سابقة، (لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ)، في منظومة صالحة، وليس في منظومة ظالمة، لأنه إذا كان يعمل في منظومة ظالمة فسيجلب معه تلك الثقافات والسلوكيات الظالمة، ومثل هذا سيضرك حتى لو كانت لديه تجارب مهنية، لأنه بما يحمل من أخلاقيات عمل وطريقة للتعاطي مع الأمور، لن يستطيع أن

يحقــق النتائــج المطلوبة ، فمن كان يعمل لدى حزب البعث ســابقاً ، لا يمكن أن نختاره لأن لديه تجربة ، بل يكون الاختبار (بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ) . إذن يجب أولًا أن يكون اختيار المسؤول من ذوي التجارب السابقة في منظومات ومؤسسات صالحة ، وفي مهام وغطاءات صحيحة .

(فَاعْمِـدْ لِأَحْسَـنِهِمْ كَانَ فِـي الْعَامَّةِ أَثَراً) ، انظر من كان أكثـر تأثيرًا في عموم الناس ، ومن يذكرونه بخير ، وترك بينهم سمعة طيبة ، فحين تجعله مسؤولًا سيقول الناس : هذا هـو المسـؤول أو الوزير الذي نريد ، وما دام مثل هـذا موجودا في الحكومة ، فإن الأمور ستسير بشكل جيد إن شاء الله ، وسيكون له تأثير بينهم في عمله .

(وَأَعْرَفِهِـمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً) ، يجب أن يكون أعـرف الجميع وجهًا بالأمانة والنزاهة ، فهو وجه معروف ، وجه أبيض ، تحلف الناس برأسه ، بأمانته ، فمثل هذا الإنسان ضعه في المسـؤولية الأكبر ؛ مسـؤولية الكاتب ، (فَإِنَّ ذَلِكَ) ، إذا اعتمدت هذه المعايير ، وجلبت أهل التجارب ، وأهل التأثير بين الناس ، وأهل السمعة الطيبة ، والشهرة بالنزاهة والأمانة ، إذا فعلـت هذا الشـيء (فَإِنَّ ذَلِـكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِـكَ لِلَّهِ) ، دليل على أنك ناصح ، ولا تبحث عن سـلطة وجاه ، فتجمع حولك مجموعة وتشـكل محاور واسـتقطابات ، كلا ، بل تريد أن تخدم الناس ، ومعنى ذلك أنك ناصح لله ، (وَلِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ) ، وأنت ناصح لمن أنت مسـؤول عنهم ، فقائد الأمة مسؤول عن شعبه ، وقائد التيار مسؤول عن تياره ، ورئيس الشـركة مسـؤول عن شركته ، وهكذا في باقي المسـتويات ، فإنّ مقتضى النصح لمـن جعلوك مسـؤولا عنهم ، ومقتضى النصيحة لله (سـبحانه وتعالـى) ، أن تعتمد هذه المعايير ، لكي تستطيع أن تحقق الأهداف المرجوة ، والمهام المناطة بك بشكل صحيح .

الإضاءات المستفادة من هذا النص :

الإضاءة الأولى

معايير اختيار المسؤول

يشـير أميـر المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ثلاثـة معايير ، عندما تريد أن تختار شـخصًا لموقع الكاتـب ، ثـم ننزلها إلى كل موقع مهم ، يجب أن تتوفر في كل متصد لمسـؤولية مهمة ، وهذه المعايير الثلاثة هي :

المعيار الأول: (بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ): يجب أن يكون من يراد جعله مسؤولًا، من أهل التجارب السابقة في مؤسسات صالحة، لكي يستطيع القيام بالعمل بشكل صحيح، فلا تعطى المواقع الحساسة لأناس غير مخضرمين، وغير مجربين.

المعيار الثاني: (فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَراً): من أكثرهم تأثيرًا في الناس، فهنا أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يقول: اعمد لأكفئهم فقط، صحيح أنّ الكفاءة شرط، ويجب أن يكون المسؤول كفوءًا، ويجب أن يكون قديرا، وأن يعرف عمله بشكل جيد، ولكن الكفاءة لا تكفي وحدها، فلا يكفي أن نختار كفوءًا جدًا وعالما نحريرًا، وأستاذا يدرّس في الجامعة، ولكنه لا يعرف كيف يُقنع زوجته وأولاده في البيت، فليست لدية قدرة إقناعية، أي لديه علم ولكن لا يملك قدرة الإقناع، ومواقع المسؤولية مواقع خدمة عامة، مواقع على تماس مع الشعب، ويجب أن يكون المسؤول، إضافة إلى الكفاءة، مؤثرًا في الناس؛ يعرف كيف يتواصل معهم، فهناك من يعمل جيدًا ولكنه لا يعرف كيف يؤثر في الناس، وهناك من لا يعرف كيف يعمل، ولكن عنده طريقة يتعامل بها مع الناس ويقنعهم، فالأول إذا لم يستطع أن يقنع الناس فسوف يخلق فجوة بين الحكومة والشعب، والثاني قد يفرح به الناس ولكنه لا يخدمهم، إذن فالهدف لم يتحقق؛ لأن الهدف من الحكومة هو خدمة الناس، فيجب أن تكون هناك خدمة حقيقية تحتاج إلى كفاءة، ويجب أن يعرف هذا المسؤول الخادم للناس كيف يسوّق خدمته ويقنع الناس ويؤثر فيهم، فهما أمران يجب أن يجتمعا مع بعض؛ الكفاءة والمهنية، والتأثير الاجتماعيّ، أي أن يكون مؤثرًا؛ (فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَراً)، أي يستطيع أن يؤثر في عموم الناس.

المعيار الثالث: (وَأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً): يكون وجهه معروفًا بالأمانة، فهو وجه ناصع يحلف الناس برأسه، بأمانته، ونزاهته، ولم يقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: اختر أكثرهم أمانةً، أو أعرفهم بالأمانة، بل قال: (وَأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً)، لا يكفي أن يكون أمينًا، أو حتى أمينًا جدًا، ولكن الناس لا تعرف أنه أمين، ولذا يجب اختيار: أولًا: من كان أمينًا، وثانيًا: من كان معروفًا عند الناس بالأمانة، ويعرفونه بالإخلاص والنزاهة، فمثل هذا سيكون له تأثير في الموقع الذي تريد أن تضعه فيه، لأن الشخص المعروف بالنزاهة عندما يُجعل مسؤولًا، فهذه رسالة لمكافحة الفساد؛ رسالة نزاهة وشفافية، رسالة للمسؤولين والعاملين ولعموم الناس، معناها أن هذه الحكومة تريد أن تقوم بدور صحيح ونزيه وشريف، ودليل ذلك اختيارها لمواقع المسؤولية أشخاصًا معروفين بالنزاهة، وهذا من فوائد هذا المعيار، فهو يطلق رسائل بمكافحة الفساد، ورسائل تطمين بمسار النزاهة.

الإضاءة الثانية

مداليل الاعتماد على المعايير

هـل لمعايير اختيار الكتاب – المسـؤولين الكبار – مداليـل معينة؟ فإن كانت الإجابة بالإيجاب، فما هي هذه المداليل؟ . . يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، إنه متى اعتُمدت هذه المعايير الثلاثة، فإنّ مداليل ذلك أنه لا توجد عند الحاكم في اختيار المسؤولين اعتبارات من قبيل اختيار من كان من حزبه، أو ابن عشيرته، أو ابن منطقته، كلا، بل هذه المعايير الثلاثة هي الأسـاس عنده في اختيار المسـؤول، وإذا كانت هذه هي المداليل، فإنّ معنى ذلك أنّ المؤسسـة تعمل بشـكل صحيـح، وتريد أن تمكّن الأكفأ والأنزه والأقدر على العمل، وليست لديها طرق ملتوية، أو مسائل خاصة.

كذلـك هنـاك رسـالة مهمة بهذا الشـأن؛ (فَإِنَّ ذَلِـكَ دَلِيلٌ عَلَـى نَصِيحَتِـكَ لِلَّهِ وَلِمَنْ وُلِّيـتَ أَمْرَهُ)، بمجرد أن قمت بمثل هذه الاختيارات الدقيقة، البعيدة عن المحسـوبيات والمنسـوبيات، ضمن معايير صحيحة، فهذا يعني أنك أطلقت رسـالة أن هذا مسـؤول يعمل جيدًا، وليست لديه محاباة، ولا محسوبيات، ولا مصالح خاصة، ويريد أن يخدم الناس، وأنه ناصح لله ولمن كُلف بخدمتهم.

المحور الرابع

تقسيم العمل

تعلمـون أنـه لم يكن في الأحقاب السـابقة مثـل هذا التعقيد، فلا النـاس كانت بهذه الأعداد الغفيرة، ولا الحياة بهذا التعقيد، وكان الحاكم هو الذي يدير الأمور بمسـاعدة كاتبـه، وكان الـولاة موجودين كلّ والٍ في منطقته، ولديه صلاحيات يتولى بها الأمور، وجبايات للضرائب، يُنفق جزءا منها للمنطقة، ويرسل الجزء الباقي إلى المركز، ويجلس الحاكم في مجلس حكمه ويرسل المفتشين على الولاة، ويعطي تعليمات لإدارة شؤون الدولـة، وكانت القضية سـهلة، ثم بـدأت المجتمعات تتعقد وتتسـع، وهنا يطرح أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مبدأ تقسيم العمل، ومعه لا يجوز للحاكم أن يُنصّب كاتبًا، الذي كانوا يسـمونه الوزير الأول، ويجعل كل شـيء بيده؛ فالمال بيده، والتحقيق بيده، ثم أخذت القضايـا تكثر، وبدأ التأجيل والتأخير بالنظر فيهـا، وأخذت تتراكم وتركن جانبًا لا يُنظر فيها بشكل دقيق، لذلك أصبح من المهم تقسيم العمل، لئلا يقع العمل كله بيد شخص واحـد، فيتأخـر البت فـي كثير من القضايا، وتحدث مشـاكل جمة نتيجـة هذا التأخير، وهكـذا اقتضى الأمر تقسـيم العمل وتوزيعه بين أفراد كثـر، وتصنيف ملفات العمل كل ملف بحسـبه، ووضع مسـؤول على رأس كل صنف منها، وهذا يضمن توزيع الأعمال المتشابهة في صنف واحد لسرعة إنجازها، وهكذا اقتضت الضرورة إشراك عدد أكبر من المسؤولين، وظهرت الحاجة إلى الاختصاصات وأهميتها في اختيار المسؤول.

يقـول أميـر المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (وَاجْعَـلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُـورِكَ)، كل مفصل من مفاصـل عملـك، كل مؤسسـة من مؤسسـاتك، كل دائرة مـن دوائـرك، كل مهمة من مهامـك، كل ملف من ملفاتك، (رَأْسـاً مِنْهُمْ)، علـى رأس كل ملف، وعلى رأس كل قضية، اجعل رأسًا منهم، وهذا الرأس، هذا المسؤول عن أي موضوع، عن أي ملف، عن أي دائرة، عن أي قسم، عن أي مهمة، يجب أن يكون من النوع التالي:

(لَا يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا) : لا يتعب من ثقل المسؤولية ، فلا يضعف أمامها ، بل يحتمل المسؤولية الثقيلة ، فيجب أن تختار من يكون قادرًا على تحمل المسؤوليات الجسام ، الثقيلة ، فلا يضعف ، ولا ينهار أمامها ، ولا يقهره كبيرها .

(وَلَا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا) : هناك من يقول لك : اعطني شيئًا واحدًا اركز عليه لكي أستطيع أن أنجزه ، وعندما تعطيه جدولًا يقول لك : لا أستطيع ، أعطني كل ملف على حدة ، فليست لديه قدرة على التركيز إلا على ملف واحد ، وعندما تكلفه بعدد من الملفات يفقد تركيزه ويتشتت ، ومثل هذا لا ينفع لتحمل المسؤولية ، فضع مسؤولًا يستطيع أن ينجز المهام الكبيرة ، وعندما تكثر المهام وتتعدد وتتنوع لا يتضايق ، ولا يفقد التركيز ، ويبقى مسيطرًا ، فيضع الأشياء أمامه ويوزع الأدوار بين أعضاء فريقه ويحرك الجميع ، وقد قيل : إن القائد الناجح ليس هو الذي يركض ليل ونهار ، بل القائد الناجح هو الذي يركّض الناس ليل ونهار ، إذ يخلق فيهم الحماسة ، والأمل ، ويحفزهم ويشعرهم بأهمية العمل الذي يقومون به ، ويعطي فرصًا وصلاحيات للجميع ، ويوزع المهام بين الجميع ، فتراهم جميعا يعملون بجد ، ومعنى ذلك أنّ هذا مسؤول ناجح .

الإضاءات المستفادة من هذا النص :

الإضاءة الأولى

تقسيم المهام واعتماد المعيارية

تعدّ قدرة المسؤول على تقسيم المهام واعتماد المعيارية مفتاح النجاح في الإدارة والقيادة ، فأساس النجاح في أي مهمة قياديّة ، هو تقسيم الأعمال بين الفريق ، والمعيارية في اختيار الفريق ، وتكليفهم بالمهام كل واحد ضمن اختصاصه ، وجود شخصية بهذه المؤهلات ، يستطيع أن يوزع الأدوار ويفعّل الفريق ويجعل الأمور في نصابها الصحيح ، على رأس المنظومة القياديّة الإداريّة في هذا المكان ، أيًا كان هذا المكان ، سواء كان دولة ، أو وزارة ، أو هيئة ، أو إدارة ، أو فوجا ، او مكتبا ، أو حزبا ، أو تيارًا ، أو أي مؤسسة تدار بهذه الطريقة ، ينتج نوعًا من الانسيابية في العمل وإنجازا للأعمال ، إلى غير ذلك ، وهذه الخطوة تحقق المؤسساتية ، وتحقق الانسجام الداخلي ، وتُشعر الجميع بقيمتهم بالعمل ، وتحفز الجميع ليكونوا نشطين وفاعلين ، فتخف التقاطعات داخل المؤسسة والمنظومة ، وتغيب إلى حد كبير الخلافات والصراعات الداخلية .

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في غرر الحكم: «الأمور المنتظمة يفسدها الخلاف»[٥٤]، عندما يدب الخلاف، وكلٌ يجر النار إلى قرصه، وكل يرى أنه يحتكر الرأي الصحيح، يتعطل العمل، لأنّ انسيابية العمل تحتاج إلى انسجام، ويحدث الانسجام حين توزع الأدوار بشكل صحيح ضمن الاختصاصات من قبل المسؤول الأعلى، فيعمل الجميع بانسجام.

الإضاءة الثانية

الكفاءة والقدرة على إدارة المهام

تعدّ الكفاءة، والقدرة على إدارة المهام، وتعدد المسؤوليات بحسب المسؤولين، وبحسب تعدد المهام، مسألة أساسية يجب أن تُلحظ في اختيار المسؤولين في أي منظومة قياديّة، أي اعتبار تنوع المهام والمسؤوليات، وتنوع المسؤولين بحسب اختصاصاتهم، وهنا عندما يتصدى الإنسان الكفوء والقدير إلى مهمة ما، ويتم اختياره ضمن معايير سليمة وصحيحة، يستطيع أن يقوم بالمهام الثقيلة التي يُكلف بها، ويستطيع أن يدير الأزمة، ويدير في الأزمة، وتعرفون أنّ البعض يحسن إدارة المنصب إذا كانت الأمور عادية وتسير على ما يرام، ولكن عندما تحصل أزمة يعجز عن الإدارة، فلا يستطيع إدارة الأزمة، ولا يستطيع أن يمارس الإدارة في ظروف الأزمة، ومثل هؤلاء الناس لا يصلحون لمواقع المسؤولية الجسيمة والخطيرة، وفي أي مهمة من المهام، وهناك المسيطر الهادئ الذي يعرف أهدافه، مهما ازدادت المشاكل، ويعرف أين هو، ويدرس الأمور بشكل سليم، ويتخذ القرارات الجريئة، ويمضي ليحل أكبر مشكلة، وهنا تظهر أهمية المعيارية في الاختيار، فكلما كانت المواصفات أدق، والمعايير المتوفرة في الشخص المسؤول أتم، استطاع أن يدير الأمور بشكل سليم.

---

٥٤ . غرر الحكم: ١١٧٤، نقلاً عن موسوعة أحاديث أهل البيت ٣: ٣٢٨ ح٨، عيون الحكم والمواعظ: ١٩.

المحور الخامس

تكاملية الأدوار

إذا أراد كل واحد منا أن يكون رأسًا ، فسينطبق علينا قول الشاعر :

قـومــــي رؤوسٌ كـلُّــهــم أرأيـــتَ مـزرعـةَ الـبَـصَـل؟

فمزرعة البصل كلها رؤوس ، وتنعدم فيها السيقان والأوراق .

لـو أنّ هـؤلاء الكتّاب ، الذين هم الفريـق المنتخب من الحاكم - مجلس وزراء - أخذ كل واحد منهم ملفاته ، ولم يلتفت لأمر الآخرين ، فلا مهرب من وقوع الخلاف بينهم ، لتداخل هذه الملفات بعضها مع بعض ، فلا بُدَّ إذن من تكاملية الأدوار بينهم

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ : (وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ) ، أي قلت لا علاقة لي به ، فهذه مشكلته وهو المسؤول عن حلها ، وورد في نسخة أخرى من نهج البلاغة (فَتَغَايَبْتَ) بدل (فَتَغَابَيْتَ) ، والمضمون واحد ، سواء كان (فَتَغَابَيْتَ) من الغباء ، أي تظاهرت بأنك لا تدري ، أو (فَتَغَايَبْتَ) ، أي غيّبت نفسك ، وأغمضت عينيك .

(وَمَهْمَـا كَانَ فِـي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْـبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ) ، يعني تغافلـت عنه ، (أُلْزِمْتَهُ) ، أنت من تتحمل مسـؤوليته أيها الحاكم ، أيها المسـؤول الأعلى ، فالمسـؤول في كل مفصل يتحمل مسـؤولية الجميع ، ولا يحق لأي مسـؤول أن يقول لا علاقة لي بقضية ارتكبها أحد مرؤوسيه ، فهو مسؤول عن هؤلاء الذين تحت إمرته ، وأي خلل يحصل في المهمة التي هو مسـؤول عنها ، يجب أن يتحمل مسـؤوليته ، وليس له أن يتنصل بذريعـة أن غيره هو من يباشـرها ، فمعنى التكامل فـي الأدوار ، أنّ الجميع يتحملون المسؤولية .

الإضاءات المستفادة من هذا النص

الإضاءة الأولى

المنظومة القياديّة منظومة واحدة

يجب أن تكون المنظومة القياديّة منظومة واحدة؛ حالات مترابطة، ومتراكمة مع بعضها، فإن وزارات الدولة، ومؤسساتها، وهيئاتها، خاضعة كلها لهدف واحد ولنسق واحد ولقيادة واحدة ولسياسات واتجاهات واحدة، فإذا كان الأمر في كل مؤسسة من المؤسسات كذلك؛ في أي تيار سياسيّ، وفي أي جماعة، وفي أي مهمة، وفي أي مصنع، وفي أي شركة، كان هناك هدف واحد، والجميع يعملون ضمن هذا الهدف، فهي حلقات مترابطة ببعضها، وليست منفكة عن بعضها، فأي خلل يحصل في أي مكان سيتأثر به الجميع، مثل الجسد الواحد، فجسم الإنسان منظومة مترابطة، وأي جزء من بدنك إذا حدثت فيه مشكلة تجد كل الجسد مستنفرا، ويعمل للقضاء على هذا العارض بلا راحة، إلى أن يتم القضاء عليه، وكذلك منظومة العمل، فأي خلل في أي مكان ينعكس على الجميع، وأي نجاح في أي مكان ينعكس إيجابًا على الجميع أيضًا، فالسلبيات تنعكس، والإيجابيات تنعكس، فلا يجوز أن يكون الإنسان في أي منظومة غير مكترث وغير مهتم بالخلل الذي يحصل في أي مفصل من مفاصل العمل، لأنّ مؤسسات الدولة منظومة واحدة وليست جزرا مختلفة متباعدة في المحيط، بل هي كلها حلقات متصلة ومترابطة مع بعضها، وأي إشكالية في أي منها تنعكس على الأخرى.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في رسالته إلى عبد الله بن عباس، حين كان واليًا على البصرة، ويوجد في هذه الرسالة مديح كبير من أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لبني تميم بعنوانهم كقبيلة، ويوصي ابن عباس بهم، إذ يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «فاربع»، ارفق بالناس، ويبدو أنه كان شديدًا على ابن عباس، «فاربع أبا العباس رحمك الله في ما جرى على لسانك ويدك من خير أو شر»، لم أرسلك إلى هناك لكي تسمعهم كلامًا طيبا فقط أو تتساهل معهم، فالحكم يحتاج إلى حزم، وموقف جريء، وخير وشر، ولكن «فاربع»، تلطف ودارِ الناس في ما يصدر منك من خير أو شر، وقم بعملك بكل ما يتطلب العمل، ولكن مع مداراة وليس بغلظة، أو شتيمة، أو إساءة.

«فإنّـا وأنـت» ، أنا علي بن أبي طالـب في الكوفة ، وأنت في البصرة ، «شـريكان في ذلك»[٥٥] ، لأنك إذا أسأت للناس ، وإن كنت في البصرة ، فأنا شريك معك في الإساءة ، لأنـك والٍ من قبلي عليها ، وأنا مسـؤول أيضًا عـن كل خطأ ترتكبه ، وهذه هي التكاملية فـي المسـؤولية ، والتضامنية فيها أيضًا ، فأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول : نحن شـريكان ، فهو يتحمل المسؤولية في أخطاء ولاته ، ويحذره من التعامل بقسوة مع الناس ، لأنّ هذه القسوة تنعكس على أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا ، لأنه شريك في الإساءة معه ، ويتحمل وزرهـا إن لـم ينهَه ويحـذره ، فإن لم ينفع عزله مـن منصبه ، فدعاه للقيـام بعمله ولكن مـع مـداراة الناس ، إذن في نهـج علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، الذي يمثل الرؤية الإسـلاميّة في القيادة والإدارة ، جميع الحلقات ، جميع المستويات الإداريّة والقياديّة ، جميع المراتب ، كلها تتكامل مع بعضها ، والجميع يتحمل المسـؤولية ، من المسـؤول الأعلى إلى المسـؤول الأدنى .

الإضاءة الثانية

المسؤولية التضامنية للإدارة والقيادة

المسـؤولية في الرؤية الإسـلاميّة للإدارة والقيادة تضامنية ، أي أنّ جميع المسـؤولين لديهم مسـؤوليات مشـتركة وتضامنية بعضهم مع بعض ، فإن وُجد نجاح فالكل شـركاء فيه ، وإن وجد فشـل فالكل شـركاء فيه ؛ لأن لهم هدفا واحدا ، والكل يسـير ضمن هذا الاتجاه ، وكل مسؤول أعلى يتحمل المسؤولية اتجاه الأدنى منه ، فإذا كنت مسؤولًا عن خمسـة ، أو عشرة ، أو مئة ، فأنت مسؤول عن كل أخطائهم ، وذاك الذي فوقك مسؤول عنك وعن الآخرين الذين هم دونك في المسؤولية ، وهكذا ، فكل مسؤول أعلى يتحمل كامل المسـؤولية عمن هو دونه في الواجبات والمسـؤوليات ، فالكل يتحمل المسؤولية في تحقيق الهدف ، وهو شـريك لهم في الإنجاز ، وشـريك لهم في الإخفاق أيضًا ، ولا بُدَّ من أن يتعاطى بمسؤولية مع هذه المهام المكلف بها .

لقد ورد عن رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال : «ألا كلكم راع وكلكم مسـؤولٌ عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسـؤول عن رعيته»[٥٦] ، حتى الأمير ، فجميع

---

٥٥ . نهج البلاغة ٣ : ١٨ كتاب ١٨ .

٥٦ . صحيح البخاري ١ : ٢١٥ ، صحيح مسلم ٦ : ٨ .

المراتب والمستويات، يتحملون المسؤولية اتجاه من دونهم في المهام والواجبات، والمسؤولية التضامنية تعني الأمور التالية:

أولًا: كل مسؤول يتحمل من المسؤولية بمقدار مسؤوليته، فكل مسؤول عن قضية معينة يتحمل مسؤولية الإخفاق فيها، وهو شريك في الإنجاز.

ثانيًا: المنظومة تتحمل المسؤولية الكاملة عن أي إخفاق، وهي شريكة في أي إنجاز، في أي مفصل من مفاصلها.

ثالثًا: يتحمل المسؤول الأعلى المسؤولية عمن دونه من مرؤوسيه، إذن، لدينا ثلاثة مستويات من المسؤولية في كل عمل، وفي كل إنجاز، وفي كل إخفاق لا قدّر الله.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «فإني أوصيكم بتقوى الله والعمل بما أنتم عنه مسؤولون»، لم يقل: أوصيكم بعد تقوى الله، بل جعل التوصية بتقوى الله على قدم المساواة مع ما سيوصيهم به، وهو العمل بما هم مسؤولون عنه. أنجزوا واجباتكم بشكل سليم على النحو الأفضل والأحسن، ولا تقصروا في واجباتكم الدينية والدنيوية؛ في واجباتكم تجاه الله، وفي واجباتكم تجاه الناس، «فأنتم به رهنٌ»، أنتم مرهونون بالمسؤولية التي أنتم مسؤولون عنها، ولا تستطيعون أن تتنصلوا منها، أو تتخلوا عنها، فما دمتم مسؤولين في مكان ما، في مهمة ما، فعليكم أن تتحملوا تبعات هذه المسؤولية، «وأنتم إليه صائرون»، سوف تتحملون أعباءها وتبعاتها، سلبًا أو إيجابًا.

«فإنّ الله (عزّ وجل) يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٥٧]»، كل ما تكسبه النفس فهي رهينة به وتتحمل تبعاته ومسؤوليته الدنيوية والأخروية، «وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[٥٨]»، تحذير بشأن واجباتك الشرعية، الأخلاقية، العبادية، الاجتماعيّة، واجبات العمل، فسوف تحاسب عليها كلها، فتعاقب أو تُثاب بحسب إنجازك وعملك، «وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾»، نسألهم كلهم، «﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٥٩]»، لا أحد يخرج منها سالما، فالجميع سوف يُسألون.

« فاعلموا عباد الله أن الله سائلكم عن الصغير من أعمالكم والكبير»[٦٠]، كل أعمالك صغيرها وكبيرها أنت مساءل عنها، ويجب أن تكون على قدر المسؤولية، ولا يوجد

٥٧. سورة المدثر: الآية ٣٨.

٥٨. سورة آل عمران: الآية ٢٨.

٥٩. سورة الحجر: الآيات ٩٢ – ٩٣.

٦٠. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٦٧، بحار الأنوار ٣٣: ٥٤٣.

شـيء في الثقافة الإسـلاميّة اسـمه لا يخصني ، فأنت مسـؤول ما دمت مؤثرًا ، وما دمت متواجـدًا فـي منظومة ، أو ضمن حالة معينة ، فعليك أن تنبّه وتتكلم ، فأنت تتحمل كامل المسؤولية في هذا الأمر .

وعن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ أنه قال : «إن الله تعالى سائلٌ كل راعٍ عما استرعاه» ، كل راع ، كل مسؤول يسأله عما هو مسؤول عنه ، وعمن هم دونه في المسؤولية ، «أحفظ ذلك أم ضيعه؟» ، كُلفت بهذه المسـؤولية ، فأنت مسـؤول عنها ، سـواء حفظتها وقمت بواجبها وأديتها بشـكل سـليم وصحيح ، أو ضيعت المسـؤولية والمهمـة المناطة بك ، «حتى يُسـأل الرجل عن أهل بيته»[٦١] ، المحاسـبة للمسـؤول عن مسـؤوليته في جميع المسـتويات ، وصولًا إلى أدنى مستوى قياديّ ، حتى على مستوى البيت ، فيُسأل الرجل عن زوجته وأولاده ؛ قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَـكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[٦٢] .

الإضاءة الثالثة

تفويض الصلاحيات

لا يجوز للمسؤول أن يحتكر المسؤولية لنفسه ، بل يجب عليه أن يفوض الصلاحيات لمـن هـو أدنى منه في سـلّم المسـؤولية ، وعندما يوزع المسـؤول صلاحياتـه ويمنحها للآخريـن ، فإنّ هذا لا يُخليه من المسـؤولية ، ولا يسـلب المسـؤولية منه ، لأنه يتحمل وزر الخطـأ الـذي يرتكبه من فوّض إليـه الصلاحية أيضًا ، فمعنـى التفويض هو أنه يبقى شـريكًا لمـن خوله في تحمل المسـؤولية ، فأعطه الصلاحية وراقبـه . . أعطه الصلاحية وتابعـه . . أعطـه الصلاحية وأشـرف عليه ، فإن أخطـأ عالج خطأه وصححـه ، وعلّمه وقوّمـه ؛ (وَمَهْمَـا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ) ، هؤلاء الذين تحت إمرتك ، مهما يكن فيهم مـن عيب ، (فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ) ، تغافلت عنه ، أغمضت عينك عنه ، (أُلْزِمْتَهُ) ، فإنك تتحمل المسؤولية أيضًا ولا يمكن لك التنصل منها بذريعة التفويض .

وقد ورد في (تحف العقول) و (بحار الأنوار) ، عن رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ ، في رسـالته لمعاذ بن جبل حين ولاه اليمن ، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ : «واعتذر إلى أهل عملك

---

٦١ . الدر المنثور ٣ : ٦٩ ، كنز العمال ١٦ : ٦ ح١٤٦٣٦ .

٦٢ . سورة التحريم : الآية ٦ .

من كل أمرٍ خشيته أن يقع إليك منه عيبٌ حتى يعذروك»[٦٣]، كل خطأ يحصل في اليمن من عمالكَ، من أجهزتك الإداريّة، من الأجهزة الأمنية، فأنت أيها الوالي مسؤول عنه، وعليك أن تعتذر إلى أهل اليمن من كل خطأ يحصل من أي من أدواتك وأذرعك وأناسك وأجهزة الدولة التي تحت يدك، فإذا أساء شرطي على الحدود في سيطرة في الصحراء لمواطن، فعلى القائد العام للقوات المسلحة أن يعتذر للشعب، وهذا ما هو عليه الآن في الدول الأخرى، فلو خرج قطار من السكة في أقصى البلاد قدّم وزير النقل استقالته، لوجود تسيّب في المنطقة الفلانية، ولإهمال العامل الذي عليه أن ينظم القطارات وعدم أدائه لعمله، لأنّ هذا الوزير لو كان قد وضع منظومة صحيحة للعمل وكان الجميع يعملون بكامل الجهوزية لما حصل خطأ، وبما أن الخطأ قد حصل، فمعنى هذا أنّ قدرته القياديّة ضعيفة، وعليه أن يستقيل، وكذا يستقيل وزير الداخلية إذا حصل خرق أمني في زاوية من زوايا البلاد، وكذا يستقيل وزير التجارة إن حصل تأخير في تسليم البطاقة التموينية للمواطنين، وكذلك على وزير الصحة تقديم استقالته لو تبين أن هناك مستشفى ليس فيه علاج.. وهكذا الأمر في باقي مرافق الدولة.

«واعتذر»، قدّم اعتذارك، «إلى أهل عملك» إلى أهل اليمن «من كل أمرٍ خشيته أن يقع إليك منه عيبٌ»، كل شيء تحتمل أن يحصل فيه نقص في أي مكانٍ في اليمن، حتى لو لم يكن هذا الخطأ قد صدر منك أو من أحد عمالك، «حتى يعذروك»، والناس عندما يرون أن لديك شجاعة الاعتراف والاعتذار فسوف يعذرونك، إذ يرون أنك بالفعل متحمل لكامل المسؤولية، وكم هو لطيف حينما يأتي مسؤول كبير ويقول أمام الإعلام: أنا اتحمل الخطأ الفلاني، وأتحمل كامل المسؤولية عنه، وأعتذر إلى للشعب من هذا الخطأ، فكم سيكون موقفا كبيرا، وعندما يرى الناس المسؤول يعتذر، فسوف يعطونه فرصة ثانية لكي يصلح الأمور، وهذه هي التضامنية في المهام.

٦٣. تحف العقول: ٢٥، بحار الأنوار ٧٤: ١٢٧ ح٣٣.

المقطع الرابع والعشرون

طبقة التجار والصناعيين

(ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا ، الْمُقِيمُ مِنْهُمْ وَالْمُضْطَرِبُ بِمَالِهِ ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ ، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ ، وَجَلاَّبُهَا مِنَ الْمُبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ ، فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ ، وَحَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا ، وَلَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا ، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ ، وَصُلْحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ ، وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ . وَاعْلَمْ - مَعَ ذَلِكَ - أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقًا فَاحِشًا ، وَشُحًّا قَبِيحًا ، وَاحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ ، وَتَحَكُّمًا فِي الْبِيَاعَاتِ ، وَذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلَاةِ ، فَامْنَعْ مِنَ الِاحْتِكَارِ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَسَلَّمَ مَنَعَ مِنْهُ ، وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعًا سَمْحًا ، بِمَوَازِينِ عَدْلٍ ، وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ ، وَعَاقِبْهُ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ) .

انتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الطبقة الرابعة، وهي طبقة التجار والصناعيين، وهؤلاء هم من تتحرك بهم عجلة الاقتصاد، وهم الذين يوفرون البضائع للناس، فالتجار يجلبون أنواع السلع من شتى البقاع، ويوفر الصناعيون بصناعتهم المنتوجات الوطنية لحاجة الناس، وبالتالي ترتبط عجلة الاقتصاد بشكل مباشر بطبقة التجار والصناعيين. ويقع البحث في هذا المقطع في محورين:

المحور الأول

تنمية التجارة والصناعة في الرؤية الإسلاميّة

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في حق التجار والصناعيين:

(ثُمَّ اسْتَوْصِ)، صيغة (الاستفعال) تكون في الغالب بمعنى الطلب، فـ (اسْتَوْصِ): تعني اطلب وأوصِ نفسك بهذا الأمر، أي اهتم، وارعَ، (بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً)، يعني ارعَهم أنت بنفسك، وأوص بهم خيرًا، وألزم مؤسسات الدولة بأن تهتم بهؤلاء الصناعيين ورجال الأعمال وترعاهم، والتجار على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: (الْمُقِيمِ مِنْهُمْ): من كان لديه محل في مكان ثابت، يجلس فيه ويبيع للناس، فيتاجر في مكان ثابت، ولديه مقر ومكتب يجلس فيه.

الصنف الثاني: (وَالْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ): أي المسافر بماله، وهناك تجار يتنقلون بتجارتهم من بلد إلى بلد، فيبيعون بضاعتهم هناك ويجلبون بضاعة من ذلك البلد إلى بلدهم، فتجارتهم في السفر، وليس من خلال مكان ثابت.

الصنف الثالث: (وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ): وفي رواية أخرى (بيديه)، مترفق: يعني العامل اليدوي، فهناك من يمارس تجارته بيده، كالنجار والحداد والبنّاء، فهؤلاء يمارسون عملًا معينًا بأيديهم ويتاجرون بإمكاناتهم وخبرتهم، وكذا المهندس الذي يضع التصاميم للبنايات، والمنشآت، فحيثما ذهبوا كانت تجارتهم بإمكاناتهم الذاتية، ولا توجد لديهم

بضاعة يتاجرون بها، بل يتاجر أحدهم بمهنته ومهارته، بيديه أو ببدنه، على اختلاف النسخ، فهناك، إذن، ثلاثة أنواع من التجارة: تجارة ثابتة، وتجارة متحركة، وتجارة بالخبرات الذاتية.

بعد أن يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا الأشتر برعاية التجار والصناعيين، يبيّن له أسباب هذا الاهتمام بما يلي:

أولًا: (فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ): هم سبب الأرباح والمنافع في المجتمع، فبسبب التجارة، البيع والشراء، يتحرك الاقتصاد، وفي الصناعة تنتج المصنوعات وتباع وتشترى فيتحرك الاقتصاد، وينشط التجار لنقل فائض الإنتاج المحلي من مدينة إلى أخرى، ومن بلدهم إلى البلاد الأخرى، وفي نفس الوقت يجلبون معهم ما تحتاج إليه بلادهم من البضائع والسلع من تلك البلدان، فيؤدي عمل التجار والصناع هذا إلى تبادل الأرباح والمنافع بين الناس، وبالتالي تحريك عجلة الاقتصاد.

ثانيًا: (وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ): يعني ما يحتاج إليه الإنسان لديمومة حياته اليومية، فهم الذين يوفرون احتياجات المواطنين، فعندما يحتاج شخص إلى الملابس يذهب إلى سوق بيع الملابس ويشتري ما يحتاج إليه، والتاجر هو الذي يجلب هذه الملابس إلى السوق، ومن يحتاج إلى أدوات منزلية يذهب إلى السوق ويشتريها، والتاجر هو من يجلبها إلى السوق، وكذا من يريد أن يبني بيتًا، يحتاج إلى مئات الأشياء ليشتريها، والمصنع هو الذي يصنعها، والتاجر هو من يوفرها في السوق، فهؤلاء يوفرون المؤن والاحتياجات المختلفة للمواطنين.

ثالثًا: (وَجُلَّابُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ): التجار هم الذين يسافرون ويجلبون ما يحتاج إليه الناس من البضائع والسلع، سواء كانت زراعية أو صناعية، من الأماكن البعيدة، (وَالْمَطَارِحِ)، المطارح: يعني الأماكن المطروحة البعيدة النائية المتروكة، فالتجار يجلبون بعض البضائع المتوفرة في أماكن نائية بعيدة، فجزء منها مما وراء البحار، وجزء منها من أعالي الجبال، ويأتون بها إلى الأسواق، (فِي بَرِّكَ)، يجلبون قسمًا منها عبر الصحاري والبراري، (وَبَحْرِكَ) ويجلبون قسمًا منها من البلاد التي تفصل بيننا وبينها البحار، (وَسَهْلِكَ)، من السهول التي تكثر فيها القرى والأرياف، وتنتج مختلف الثمار والفواكه والحبوب والألبان واللحوم، يعني ما يحتاج إليه الإنسان، (وَجَبَلِكَ)، من القرى المنتشرة على سفوح الجبال، فيذهب هؤلاء التجار إلى أماكن بعيدة ونائية في أعالي الجبال وبطون الوديان وما وراء البحار، ويتعرضون لأنواع المتاعب من شدة حرارة الطقس وبرودته، ومن أذى السراق وقطاع الطرق، ويجلبون هذه البضائع إلى الأسواق، ليشتريها الناس بيسر وسهولة.

(وَحَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا)، لا يعرف الناس عادة هذه الأماكن ليذهبوا إليها ويجلبوا هذه البضائع، فالتاجر هو الذي يجلبها إلى السوق ويشتريها الناس، (وَلَا يَجْتَرِءُونَ عَلَيْهَا)، لا يجرؤ الناس على الذهاب إلى هذه الأماكن، لشدة خطورة طرقها ووعورتها، وهؤلاء التجار هم من يتحملون المخاطر ويسافرون ويجلبون هذه البضائع.

ثم ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى وصف هؤلاء التجار والصناعيين بالأوصاف التالية:

أولًا: (فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ)، هؤلاء أناس مسالمون، (لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ)، لا يُخشى شرهم وخصومتهم، فالتاجر يبحث عن الأمان والاستقرار، لأنّ ربحه مرتبط بشيوع السلام والأمان في ربوع البلاد، فالاستقرار الأمني والسياسيّ يولد انتعاشًا اقتصاديًا، ويصبح لدى الناس أموال فتشتري منه، فتزدهر تجارته وتكثر أمواله، ولذا فهم لا يسعون وراء الشر، ولا يبحثون عن المشاكل، ولا تُخشى خصومتهم.

ثانيًا: (وَصُلْحٌ)، هؤلاء التجار والصناعيون يبحثون عن السلام والصلح، ولا يبحثون عن الحرب، (لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ)، لا تُخشى منهم فتنة أو مصيبة، فهم لا يبحثون عن المشاكل، بل يبحثون عن الأموال، فكل همّ التاجر وفكره هو من أين يجلب البضاعة؟ وأين يبيعها؟ وكيف يبيعها؟ وبكم يبيعها؟ وكم سيربح؟.

ثم يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا بصفته الحاكم الأعلى لولاية مصر، بالاطلاع على أوضاع هؤلاء الصناع والتجار، فيقول: (وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ)، كما ترعاهم وتدعمهم، عليك مراقبة أمورهم، فلا يرونك بعيدًا عنهم وغير مهتم بشؤونهم فتصيبهم حالة من الجشع، ويرفعون الأسعار، ويسيئون إلى المواطنين، ويبتزون الناس، (وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ)، هؤلاء التجار الذين حولك في المدينة، أرسل عليهم مراقبين وانظر ماذا يفعلون، وبكم يبيعون، (وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ)، وفي الأطراف، في القرى، فالتاجر عندما يكون في العاصمة والمدن الكبيرة، حيث يكون قريبًا من السلطة، وقريبًا من الحاكم، يبيع بالأسعار التنافسية، ولكنه عندما يكون بعيدًا عن المركز في القرى والأطراف، يبتز الناس ويبيع بضاعته بأسعار مرتفعة، لذلك أمره عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يراقب الذين هم أمام عينيه في المدينة، وكذلك الذين في الأماكن البعيدة والنائية، فالمواطن الذي يعيش في مكان بعيد يجب أن لا يُظلم أيضًا، ولا يُجحف بحقه، ولا يساء له ويُضغط عليه، فأنت أيها الحاكم لا تنظر حولك فقط، ولا ينبغي أن يكون كل همك العاصمة والمدن الكبرى؛ كيف تنظفها وتزينها وتنورها لتكون جميلة، وتهمل المدن الصغيرة والقرى النائية، بل يجب أن ترعاها كما ترعى العاصمة التي تتواجد فيها.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

يمكـن أن نسـتفيد عدة إضاءات من هذا النص الـذي يبيّن رؤية أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى طبقة التجار والصناعيين:

الإضاءة الأولى

النظرة الإسلاميّة إلى طبقة التجار والصناعيين

نقـرأ في هذه الفقـرة المباركة من عهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لمالك الأشـتر، النظرة الإسـلاميّة للتجـار والصناعييـن، فهنـاك من ينظر إلى هـذه الطبقة نظـرة نقمة؛ فيصف التجـار بالانتهازيـة، والبحث عن الأموال، وكأن ذلك أمر سـيئ، ويصـف الصناعيين بالرأسـماليين وأصحاب الأموال، وكأن ذلك أمر مشـين، وهذه نظرة سـيئة سـلبية عن كل تاجـر، وعـن كل صناعـي، وعن كل مـن يملك مالًا، هذا هـو موقف البعض؛ فلا يطيـق أن يـرى أحدًا قد أنعم الله عليه وأصبح صاحب ثروة، من تجارة أو صناعة، ولكن الإسـلام يختلـف؛ إذ يـرى أنّ التجارة والصناعة موقع مرموق، موقع أساسـي في البناء الاقتصادي للدولة والمجتمع، فإذا لم يوجد تجار وصناعيون، فمعنى ذلك أنه لا يوجد اقتصـاد فـي البلد، فالتجـار والصناعيون هم الذيـن يحركون الاقتصـاد، ولذلك يكون دورهم مهمًا جدًا، فموقعهم أساسـي، وهم أناس بطبعهم الأولي إيجابيون، سلميون، طيبـون، يبحثون عـن أرباحهم ورواج تجارتهم، ولا يبحثون عن المشـاكل، وبعيدون عـن الحروب والصراعات، وكل فكرهم في تجارتهم وصناعتهم، وكلما كانت الأمور هادئـة وآمنة، زادت تجارتهم وتطـورت صناعتهم وزادت أرباحهم، وازدهر الاقتصاد، فهم دائمًا عنصر سلام، وعنصر خير، وليسوا عنصر فتنة وشر ومعارك وقتال وحروب.

ويبـذل التجـار جهدا كبيرا، لكـي يجلبوا لنا البضائـع من أقاصي المـدن والبلدان، فيذهبـون إلى أعالي الجبـال، وبطون الوديان، ويركبون البحـار ويعرضون حياتهم إلى الأخطار، ويذهبون إلى الصحاري والبراري ويعرضون أنفسـهم للحيوانات المفترسة أو قطاع الطرق، ويجلبون هذه البضائع ويوصلونها إلى الأسواق لتكون تحت متناول أيدي الناس، فهم أناس يتحملون المخاطر والمتاعب، ويفارقون الأهل والأحبة، ويجازفون بأموالهـم وحياتهـم، ويواجهون مشـاكل كبيرة وتحديات ضخمة، مـن أجل أن يوفروا احتياجات الناس ومتطلباتهم، ليكون الناس في راحة، فما أرادوه يشـترونه من السوق، هذه هي نظرة الإسلام.

(فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ وَجُلَّابُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ وَحَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا)، لا يهتدون إلى تلك الأماكن، (وَلَا يَجْتَرِءُونَ عَلَيْهَا)، ولا يجرؤون على السفر إليها، ولكن التجار ذهبوا وتحملوا وجلبوا البضاعة ووضعوها بين يديك في السوق، لذلك يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا الأشتر والولاة والحكام بالتجار، ويطلب منهم أن يوصوا جهاز الدولة بهم أيضًا، وأن لا ينظروا إليهم نظرة السارق والانتهازي، لأنهم عماد الاقتصاد.. فادعموهم ووفّروا لهم متطلبات العمل والنجاح، ولا تدعوا الصناعي المسكين حائرا بتوفير الكهرباء، وحائرا باستيراد الماكنة والمواد الأولية، وحائرا بأمن المصنع الذي يملكه، وحائرا برواتب العمال الذين يعملون في المصنع، وحائرا بتسويق بضاعته... إلى مائة حيرة، وكذا الأمر بالنسبة للتجار، فهم الذين يحركون الاقتصاد ويجب أن تكون لهم رعاية.

الإضاءة الثانية

الواقع التجاري والصناعي في عصر النص وعصرنا الحاضر

من الواضح أن هذه الصورة التي يقدمها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان ينظر فيها إلى الواقع التجاري والصناعي الذي كان في ذلك الزمان، وقد استجدت في العصور الحديثة بسبب التطور التكنولوجي الكبير أمور أحدثت فارقًا هائلًا بين الاقتصاد القديم والاقتصاد المعاصر، نتعرض لها ضمن الأمور التالية:

الأمر الأول: تطور وسائل النقل

كان الناس في القرون الماضية يسافرون على الدواب، ومشيًا على الأقدام، وعندما يخرج أحدهم من العراق يريد أن يذهب إلى الشام، فقد يحتاج إلى أسبوعين أو ثلاثة أو شهر، الله أعلم، خصوصًا إذا كان يسافر ضمن قافلة، أما في زماننا فقد تطورت وسائل النقل، فهناك الطائرات الفاخرة التي تستطيع أن تنتقل باثنتي عشرة أو خمس عشرة ساعة، من هذه الجهة من الأرض إلى الجهة الأخرى، والمسافر خلالها نائم مرتاح، يشرب ويأكل، في أمان وهدوء، فأين هذا من ذاك المسكين الذي كان عندما يسافر من مكان إلى آخر يحتاج إلى أيام على الدواب؟، فوسائل النقل اليوم تطورت كثيرا جدا، وهناك السفن الحديثة الكبيرة، التي عندما تدخل إلى إحداها فكأنك تدخل إلى مدينة، ولا تشعر بأنك في البحر، وكذلك القطارات، وخاصة تلك القطارات

الراقيـة ، والسـيارات بهذه الموديـلات الحديثة ، وأصحاب الأموال هـؤلاء لا بُدَّ من أن يركبوا هذه الموديلات الحديثة والسيارات الفاخرة ، فاليوم أصبح النقل أسهل بكثير مما كان عليه سـابقًا ، سـواء نقل الأشـخاص أو نقل البضائع ، وأكبر بضاعة تشـتريها تدفع ثمنها وترجع ، والشـركة تجلبها لك وأنت في مكانك ، فتعبر المحيطات والبحار وتصل إليـك ، بينمـا كانت البضائع سـابقًا تنقل وعيـن صاحبها عليها خوفًا مـن قطاع الطرق ، لذلك اختلفت وسائل النقل اليوم إلى حد كبير عن وسائل النقل في الأمس القريب وفي القـرون الماضيـة ، حيث كانت الأخطار محدقة من قطاع الطرق ، والعصابات ، أما اليوم فلا توجد أي مخاطر كما كانت موجودة سابقًا على حياة الناس ، وكذلك لم تكن التجارة مضمونة ، فكان نقلها من الصين مثلًا إلى العراق يسـتغرق ثلاثة أشـهر ، ثم تجلس شهرًا للراحة ، وعندما يشـتري التاجر البضاعة لا يعرف كم هو سـعرها في بلده ، ثم يرجع بعد ثلاثـة أشـهر ، وقد تغيرت الفصول ، فقد وصل إلى الصين فـي فصل الصيف ورجع إلى العراق في فصل الشـتاء ، وقد يجد أن سـعرها قد انخفض جدًا عن السـعر الذي اشتراها به ، وكانت هذه البضائع تتعرض للضياع أو التلف ، فلم تكن هناك وسائل مناسبة للحفاظ عليهـا ، ولا مخـازن صحيحة تحافظ عليها من التلف ، وإن وُجدت فهي بشـكل بدائي ، فكان العمل في التجارة مجازفة ، وفيها من المخاطر الشيء الكثير ، فبينما يجلس الناس في بيوتهم ، وكل منطقة مستقرة في مكانها ، ولا يوجد تواصل بينها ، ولا أحد يعرف ماذا يوجـد في المكان الآخر ، يجازف التجـار وينقلون البضائع من مكان إلى آخر ، وينقلون الفائـض مـن بضائع بلدهم إلى البلدان الأخرى ، ثـم يرجعون وهم يحملون الفائض من بضائـع ذلـك البلد إلى بلدهم ، فتتحدد الأولويات والعرض والطلب على أسـاس توازن الأسواق ، وتحول التجارة دون بوار السلع والبضائع في مناطق إنتاجها ، وبذلك تحافظ علـى أسـعارها وتحول دون ارتفاعهـا وانخفاضها بنحو يؤدي إلى اضطراب في أسـواق اسـتهلاكها ، وبذلـك تحافظ التجارة علـى توفير الاحتياجات اليومية للناس في أسـواق مستقرة ، وتحول دون احتكارها في مناطق معينة وزعزعة استقرارها ، ولكن في الماضي لم تكن هناك قاعدة معينة في التحكم بالأسواق المحلية والعالمية ، بينما اليوم كل شيء معروف ، لوجود دراسـات علمية دقيقة حول القـدرة الاقتصادية للمجتمعات ، والكثافة السكانية ، وأي بضاعة تحتاج أو لا تحتاج إليها .

الأمر الثاني : التنافس بين التجار والصناعيين أنفسهم

كان التنافس في العصور السالفة فرديًا ومحدودًا جدًا ، ويكاد ينعدم تأثيره في الأسواق وأسعار السلع والبضائع ، أما التنافس اليوم فهو تنافس شرس وبعيد عن أجهزة الدولة بين التجار أنفسهم ، والصناعيين أنفسهم ، فعندما يجلب أحدهم بضاعة أفضل ويزدهر سوق تسويقها ، وترتبك أسواق البضائع المشابهة ، وربما تتعرض للكساد والخسارة ، فهنا يبدأ التجار الآخرون بالتفكير في إنقاذ أسواقهم وترويج بضائعهم ، وربما يلجأ بعضهم إلى أساليب غير قانونية للتخلص من هذه المنافسة ، وتبدأ الاستعانة بعصابات القتل أو الحرق المأجورة لتدمير منافسهم وإخلاء السوق من هذه المنافسة غير المتكافئة ، بأن يقتلوه ، أو يحرقوا بضاعته ، وربما وقعت هذه التحركات الانتقامية تحت رصد الكاميرات الحرارية ، والأجهزة الأمنية ، فيدخل هذا التنافس غير الشريف تحت طائلة القانون ، وربما أفلت أصحابها من سطوة القانون ، فتتحول حركة المنافسة إلى حالة شديدة من الفوضى ، ولا يُعرف كيف تحصل الأمور ، وكيف يُقتل شخص أو تحترق مخازنه ولا يوجد دليل ، ولا تستطيع الأجهزة الأمنية اكتشاف الفاعلين ، ويُغلق الملف بعد تسجيله ضد مجهول .

الأمر الثالث : التأمين على التجارة والصناعة

لم يكن هناك تأمين على البضاعة في العصور السابقة ، بينما تقوم اليوم شركات التأمين بتعويض التجار والصناعيين لو تعرضت بضائعهم للتلف الجزئي أو الكلي ، مقابل ما تتقاضاه من مبالغ عن السلع التجارية والصناعية ومبانيها وعامليها ، فالصناعي الذي يبني مصنعًا يؤمّن عليه في شركة التأمين ، لذلك حين يحترق أو يُسرق أو يتعرض للتلف ، تدفع له شركة التأمين كل خسائره ، وكذا لو كان قد عمل تأمينًا على بضاعته وتعرضت للتلف ، فإنها تدفع له ثمنها ، أما في العصور السابقة فلم تكن هناك شركات تأمين ، وكان التجار والصناعيون عندما يستثمرون أموالهم في التجارة والصناعة ، فإنهم يجازفون برؤوس أموالهم التي قد تتعرض للتلف أو السرقة ، فيصبحون مفلسين في لحظة ، إذن فالعمل في التجارة والصناعة كان أصعب بكثير في ذلك الوقت بحكم هذه التعقيدات ، أما اليوم ، فبفضل التطور التكنولوجي الكبير وتطور الحياة الاقتصادية ، اختلفت الأمور إلى حد بعيد ، وأصبح العمل بالتجارة والصناعة أكثر أمانًا .

الأمر الرابع : تطور التحديات التنافسية

لقد صرنا في واقعنا الجديد أمام تحديات اقتصادية وتجارية وصناعية مختلفة وجديدة، تنسجم مع هذه التعقيدات وهذا الواقع، فالشركات الكبيرة اليوم تهيمن على الأسواق، ومن الصعوبة بمكان أن تجد الشركات الصغيرة أسواقًا لها للمنافسة غير المتكافئة مع الشركات الكبيرة التي تحتكر الأسواق العالمية، باعتبار أنّ المعمل الصغير تكون الكلفة فيه عالية وأرباحه قليلة، لأنّ جودة بضاعته منخفضة وسعرها مرتفع، أما الشركات الكبيرة فإنّ كلفة منتجاتها تكون أقل، لكثرتها، فتحصل على أرباح أكبر، وهكذا تنهار الشركات الصغيرة أمام الشركات الكبيرة، ثم جاءت بعد ذلك الشركات العملاقة وأصبحت تنافس الشركات الكبيرة، ثم جاءت بعد ذلك الشركات المتعددة الجنسيات، فسيطرت على الأسواق العالمية المفتوحة، وسحقت جميع ما تحتها من الشركات المنافسة، وتوجد اليوم شركات في العالم ميزانيتها أكثر من ميزانيات دول، فمن يستطيع أن ينافسها؟ وهذا متغير جديد لم يكن في ذلك الوقت، إذ كان كل شخص يستطيع أن يذهب ويتاجر، فالتنافس بسيط على مستواهم، أما الآن فلا يستطيع أحد منافسة الشركات العملاقة، لسهولة نقل البضائع بسبب وجود الموانئ والبواخر العملاقة، وهذا التطور وإن سهّل التجارة والصناعة، ولكنه من ناحية أخرى جعل المنافسة صعبة، ففي الماضي كانت كمية البضائع التي تُصنع في هذا البلد قليلة، لأنّ الصناعات كانت يدوية، وهي قد لا تسد حاجة السوق المحلية، أما اليوم فهناك دول ذات كثافة بشرية هائلة وأجرة العمالة فيها رخيصة جدًا، بالإضافة إلى التطور التكنولوجي الهائل الذي تستطيع بواسطته الشركات العملاقة صاحبة رؤوس الأموال الضخمة أن تصنع كميات هائلة من البضائع تكفي لسد حاجة الأسواق العالمية جميعًا، مع تيسر النقل البحري ورخصه، بسبب وجود البواخر العملاقة التي تستطيع الإبحار بسرعة والوصول إلى أقاصي الدول في غضون أيام أو أسابيع، وهكذا يكون سعر بضائعها أرخص من أي منتوج محلي، فلا يستطيع الصمود أمام المنافسة، فينسحب وهو حسير، اللهم إلا إذا تدخلت الحكومات وفرضت ضرائب عالية جدًا على المنتوجات المستوردة، أو منعت استيرادها، لحماية المنتج المحلي. وهكذا سببت سهولة نقل البضائع ورخص الأيدي العاملة في البلدان ذات الكثافة السكانية كالصين والهند، مشاكل كبيرة أمام التجارة والصناعة الوطنية.

كذلك، فإنّ ثورة الاتصالات قد سببت مشاكل جديدة أمام المنتج المحلي، وزادت من ضعفه في الوقوف أمام المنافسة العالمية، فبإمكان كل شخص اليوم أن يدخل الإنترنت ويعرف الأسعار التنافسية لجميع السلع في أرجاء العالم، وهو جالس في مكانه، فجميع

الأسعار معروفة، وكذلك الأنواع والأوصاف والخيارات، ولهذا أصبحت التجارة صعبة جدًا مع توفر هذه المعلومات، وتنافس الشركات بعضها مع بعض في جميع المجالات والحقول الاقتصادية.

الأمر الخامس: ارتباط الاقتصاد بالسياسة

إن التطورات والتعقيدات التي أشرنا إليها آنفا، جعلت الأوضاع الاقتصادية ترتبط بالأوضاع السياسيّة، وأصبح الاقتصادي يؤثر في السياسيّ، وبالعكس، فهذا لن يكون رئيسًا إن لم يكن يملك مالًا ينفقه في الانتخابات، وهو بحاجة إلى من يدفع له الأموال، ومن يقدر على ذلك هي الشركات العملاقة، وعندما يفوز بأموالهم، لا يستطيع أن يدير وجهه عنهم؛ لأنه مدين لهم، فيضطر الى أن يجعل الدولة والاقتصاد في خدمتهم، وهنا تبدأ عملية التأثير الاقتصادي في الوضع السياسيّ بشكل عام، وترون اليوم صراعات اقتصادية بين أمريكا والصين، والآن نقلت الأخبار أنّ الرئيس الأمريكي حدّد حجم التبادل الاقتصادي بين الصين وأمريكا بستمائة وخمسين مليار دولار، وهو يعادل موازنة العراق لسبع سنوات، وهذا هو حجم التبادل التجاري بين الصين وأمريكا لسنة واحدة فقط، وقال: كنا نستوفي ضرائب بنسبة (١٠٪)، ومنذ اليوم ستكون (٢٥٪)، ولو حسبنا مقدار الفرق بين النسبتين، من ستمائة وخمسين مليارا، فسنلاحظ حصول الحكومة الأمريكية على زيادة تبلغ عشرات المليارات من الدولارات بقرار بسيط، وهذه المليارات الإضافية ستؤثر في سعر السلع الصينية في أمريكا، فهو قرار بسيط، ولكن فيه متغيرات هائلة، الله وحده يعلم حجمها، وقد رأيتم كيف أن شركة (كوكل) حجبت تسهيلاتها عن شركة هواوي الصينية التي تستخدم (كوكل)، فأصبحت شركة عملاقة حائرة بنفسها، وهذا التداخل بين السياسة والاقتصاد لم يكن في الماضي، وهذا تحد كبير في الوضع الاقتصادي.

اليوم نرى الجمهورية الإسلاميّة مثلًا تتعرض إلى عقوبات وحصار، وكل من يتعامل معها يعرّض نفسه للعقوبات الأمريكية، من خلال قطع أي علاقة تجارية واقتصادية معه، مما دفع معظم الشركات العالمية ودول العالم إلى قطع علاقاتها التجارية مع ايران، فالشركات والدول لها مصالح مع أمريكا تعادل مئات أضعاف ما لها من مصالح مع إيران، ولهذا فمن غير المنطقي أن تترك المائة وتتمسك بالواحد، وهكذا فجأة وبقرار واحد تحاصر دولة كبيرة، وتبادر الدول والشركات إلى المسارعة بقطع جميع علاقاتها

التجارية معها في غضون أيام، فهذه مستجدات لم تكن موجودة في الوضع الاقتصادي السابق، وأصبح الاقتصاد والسياسة اليوم متداخلين بشكل أكبر.

الأمر السادس: ارتباط التجارة بالعملة الأجنبية

ومن المستجدات في الحياة الاقتصادية اليوم، هو ربط التجارة بالعملة الأجنبية، فحين تذهب إلى الصين وتعطي دينارًا لا يقبلون منك، ويطلبون التعامل بالدولار، فالعالم كله يتاجر بالدولار واليورو، فهل الدولار لنا؟ كلا، فالدولار لأمريكا، وهذا يعني أنك تتاجر بأموال الآخرين وعملتهم، والآخر هو الذي يتحكم بك، فالبنك الفيدرالي الأمريكي هو المتصرف بكل هذه الأمور، واليوم حين نبيع نفطنا نتعامل بالدولار، فأين يذهب الدولار؟ ينزل بحسابات في أمريكا باسم العراق، ولكن البنك الفيدرالي الأمريكي بقصاصة وسطرين يستطيع أن يجمد أرصدة العراق، فعندنا نفط وأموال، ولكن أموالنا بعملة أخرى، والآخر يؤثر ويتدخل ويضغط، وهذه كلها لم تكن موجودة في الماضي.

إن هذه تحديات جديدة وخطيرة، وتتحكم بهذا النظم المصرفية، فكل عشرة آلاف دولار فصاعدًا في أي مكان في العالم، عندما تنقل من مكان إلى آخر، يصل إشعار إلى البنك الفيدرالي الأمريكي، فهناك مراقبون يرصدون حركة البيع والشراء في العالم كله، ويعلمون أين ذهبت الأموال، وهم يسيطرون على الوضع الاقتصادي العالمي كله، بل إن نظام التجارة العالمي يفرض الرسوم والغرامات على الناس، وأصبح طرفا يتحكم بالاقتصاد كله، وهناك دول تنهار وليس مجموعة تجار، هذه كلها أصبحت تحديات من نوع آخر تواجه الصناعيين. وهنا يجب على الرؤية الشرعية، الرؤية الإسلاميّة، للتجارة والصناعة أن تأخذ بنظر الاعتبار جميع هذه المستجدات والحقائق.

الأمر السابع: احتكار الأسواق العالمية

تحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن الطبع الأولي لرجال الأعمال والصناعيين، وبيّن أنّ هؤلاء أهل سلام وصلح، فما دامت الأمور مستقرة فعملهم على ما يُرام، لذلك هم لا يبحثون عن مشاكل ولا حروب، وهذا هو الطبع الأولي لهم، وهذا هو دأب صغار التجار والصناعيين أيضًا، ولكن حصلت في واقعنا أيضًا مستجدات ومتغيرات لم تكن موجودة سابقًا، وصارت اليوم تؤثر بشكل كبير في نواحي الحياة المختلفة؛ إذ غدت الشركات العملاقة تؤثر في السياسة، والاقتصاد، والثقافة، والأمن، وكل شيء، وهي تتوزع في شتى المجالات وتحتكر الأسواق العالمية، فهناك شركات عملاقة لبيع السلاح، من

طائـرات، وصواريخ مضـادة للطائرات، وصواريخ أرض أرض، وغواصات، وسـفن حربيـة، ودبابات، ومدرعات، ومدافع، وأسـلحة متوسـطة وخفيفـة، وتقدر أرباحها بمئـات المليـارات من الدولارات، وتزدهر تجارتها في ظل الحروب، فإن لم تكن هناك حـرب، فهي تقوم بتذكية النزاعـات والصراعات الإقليمية والدوليـة، وتخلق التوترات والحـروب بين طرفيـن أو أطراف متعددة، وتقوم بإيجاد أجواء ضاغطة لحصول سـباق للتسـلح، لبيـع أكبـر كميات من السـلاح، فهي تعيـش على الحروب، وتنمـو تجارتها في ظل الحروب، وأينما وُجِد هدوء وسـلام فهم ينفقون الأموال الطائلة لخلق مشـكلة وإيجـاد حرب بأنفسـهم أو عبر حكوماتهم، فالمتحكم اليـوم، مثلًا، في انتخاب رئيس أمريكا هي شـركات السـلاح، فهي تمتلك المليارات ومسـتعدة للدفع من أجل وصول رئيس يدعم سياساتها، ولذلك فكل مرشح للرئاسة الأمريكية عينه على هذه الشركات، وإذا كان يبحث عن السـلام والمحبة فإنهم يسـعون لإسـقاطه منذ اليـوم الأول، وذلك لتأثيرهم الكبير في وسـائل الإعلام أيضًا، إذ يشـنون حملة إعلامية ضده ويهددونه بنشر الفضائح عنه، فيضطر إلى الرضوخ لهم، ويعمل مع فريقه على زرع الفتن بين الشعوب وافتعال الحروب، لتسـارع الدول والشعوب لشراء السلاح منهم، فيربحوا ويستفيدوا، وهذا واقع جديد لم يكن موجود سابقًا.

كذلك نرى اليوم إرادة لفرض ثقافة معينة على العالم كله، ليعيش العالم في ظل ثقافة واحدة؛ فيرتدي لباسًـا واحدًا، ويأكل الطعام نفسه، فتراهم نشروا (ماكدونالد) وأمثالها من هذه الشـركات، فهناك عشـرات الألوف من الفروع في العالم لهذه الشركات، فأينما تذهب في العالم تجد (ماكدونالد) أمامك، فجميع القوميات، والجنسيات، والأديان، يجـب أن تـأكل (ماكدونالـد)، ويأتي الطعام نفسـه إلـى البلاد الإسـلاميّة، ولكن يقال لـك: ذبـح إسـلاميّ، لحم حلال، إذ يُشـترى الدجاج من البلد، ولكـن الذي يضيفونه لهـذا الدجـاج يأتي مـن هناك، ولا يُنتج في نفس البلد، فعلى الناس أن تسـتذوق الطعام الأمريكي، والسـيجارة الأمريكية، وترتدي الملبس الأمريكي، ولديهم ماكنة سـينمائية ضخمة، اسمها (هوليوود)، وهي مدينة تُنتج مئات الأفلام لكي تخلق ثقافة معينة؛ كيف تتعامل؟، كيف تتصرف؟، كيف تضحك؟، كيف تجلس؟، ويصنعون نجومًا سينمائيين ليكونوا رموزا، فتجد شـبابنا هنا في العراق يحلقون شـعرهم على طريقة هؤلاء.. نحن مسـلمون، وعـرب، ولدينـا ثقافتنا، فما علاقتنا بقصة الشـعر هـذه؟.. إنهم يتدخلون ويعبثون بكل شـيء في حياتنا، حتى قصة الشعر، وطريقة الحديث، وطريقة الضحك، وردود الأفعـال، تحـت غطاء العولمة، فجميع الناس يجب أن يعيشـوا بنفس الطريقة،

وهذه الشركات تستطيع أن تخنق اقتصاد دولة بأكملها، وتعطل مسارا اقتصاديا وتجاريا وصناعيا لأي بلد من البلدان أو شركة من الشركات أو ما شابه ذلك.

إن شركات النفط ليست أقل من شركات السلاح، في قوة التأثير على الاقتصاد العالمي والسياسة العالمية، كشركة (إكسون موبيل) الأمريكية، الشركة النفطية الأولى في العالم، وقد قرأت تقريرًا وتعجبت كثيرًا؛ فإذا سألنا الآن من يملك أكبر خزين واحتياطي للنفط في العالم؟ فسيجيبك بعضهم: السعودية، ويقول بعضهم: أمريكا، أو غيرهما من الدول، ولكن هذا التقرير يقول: إن من يملك أكبر احتياطي لنفط العالم هو شركة (إكسون موبيل)، لماذا؟ لأن السعودية تعاقدت معها، لتستثمر وتضع خمسين مليارًا أو مائة مليار وتستخرج النفط، ولها نسبة (٢٠٪) من نفطها، فما دام النفط موجودا فإن لك(٢٠٪) ولنا(٨٠٪)، ونحن في العراق قبل أسبوع أبرمنا عقدا مع شركة (إكسون موبيل) الأمريكية إلى ثلاثين سنة، إذ تستثمر الشركة أربعة وخمسين مليار دولار لتطوير المنشآت النفطية والغازية في العراق، وعندما ننظر إلى وضعنا في العراق، فليس لدينا أربعة وخمسون مليار دولار ننفقها على النفط، ونحتاج إلى خمسين سنة لنوفر هذا المبلغ، بينما تجلبه هذه الشركة في يوم واحد، وخلال ثلاثين سنة سيربح العراق أربعمائة مليار دولار، وتربح هي اثنين وثلاثين مليار دولار، وأنت العراقي عندما تحسبها تقول: أعطي هذه الشركة اثنين وثلاثين مليارًا، وتعطيني أربعمائة مليار، فأنا الرابح، فنحن لا نملك أربعة وخمسين مليارًا، ومضطرون للتعاقد مع هذه الشركة للاستثمار وتطوير منشآتنا النفطية، فالعراق يرى نفسه رابحًا عندما يتعاقد معها، ولكنها عمليًا أخذت حصة من النفط والغاز في العراق إلى ثلاثين سنة، فإذا تعاقدت معهم ثمانون دولة في العالم بمثل هذا العقد، يصبح ما تمتلكه الشركة من النفط أكثر من نفط السعودية، ونفط العراق، وغيرهما من الدول، فامتلاك شركة للاحتياطي الأول من النفط في العالم، يمثل حقيقة تؤثر في مجمل الوضع الاقتصادي، فهؤلاء يتحكمون بالعالم؛ يريدون حروبا، يريدون مشاكل، يريدون أن يرفعوا السعر أو يخفضوه، فما باتت التجارة أو الصناعة تبحث عن السلام والصلح، كلا، بل هناك تجارة تبحث عن الحروب، وتزدهر في الحروب، واليوم ترمي بعض دول العالم ملايين الأطنان من الحنطة في البحار والمحيطات، بذريعة الحفاظ على الأسعار، وهذه الحنطة التي يرمونها تشبع كل جياع العالم، ولكنهم يقولون: ليست لنا علاقة بالجياع، فهذه الحنطة إذا نزلت إلى السوق فسوف ينخفض سعرها ونخسر، فنرميها في البحر ليبقى السعر مرتفعا، هذه كلها حقائق ومشاكل تجعل

حالة فقدان السلام هي الأساس في نشاطها، وهناك شركات في التجارة والاقتصاد تمارس نشاطها في مساحات كبيرة للبحث عن الربح بهذه الطريقة.

هنا نحتاج إلى مراجعة الموقف الإسلاميّ ضمن هذه المستجدات التي طرأت في الواقع الاقتصادي، فتعقّد الوضع التجاري، والوضع الصناعي، ولذا نحتاج إلى موقف إسلاميّ يتناسب مع هذا الوضع، وما ذكره أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يرتبط بالحالة الأولية؛ وهي إذا كان التاجر مسالمًا يبحث عن الصلح والسلام ويبتعد عن الفتن، فيجب اعتماد هذا النهج، ولكن إذا أصبح هذا التاجر أو الصناعي يبحث عن الحروب والخراب والدمار، فماذا يجب أن نفعل؟ نحتاج إلى مراجعة وتنقيح موقف إسلاميّ لمثل هذه الحالات.

المحور الثاني

ضرورة الرقابة على السوق

تضمـن الرقابة على الأسـواق المنع من التجاوزات الاقتصاديـة ، ولا يكفي تقديم الدعم للقطاعيـن التجـاري والصناعي وحده في إحداث النهضـة الاقتصادية ، فدعم عملية التجارة والصناعة أمر مهم ، إذ يجب أن تُدعم ، وتُسـند ، وتوفر لها التسـهيلات ، لأنها ستحرك عجلة الاقتصاد ، ولكن لا يؤتي هذا الدعم ثماره من دون رقابة وتدقيق وتأكد من مستوى الأسعار ، فـلا يحـق للتاجر والصناعي أن يحددا أسـعار بضائعهمـا بمزاجهما ، إذ يقـول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا الصدد :

(وَاعْلَمْ) يا مالك (مَعَ ذَلِكَ) ، مع الدعم والإسناد للتجار والصناعيين وتوصيتي بالاهتمام بهـم ورعايتهـم ، (أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ) ، يشـير إلى أن هؤلاء لديهم أخطاء وسـلوكيات مضرة ، ولكن ليسوا كلهم ، بل كثيرٌ منهم ، وهذه ثقافة عدم التعميم ، لأنّ فكرة التعميم فكرة خاطئة ، إذ تسمع : كلهم سراق ، كلهم فاشلون ، وهذا الشعب العراقي كله كذا ، وعندما تسمع كلمة (كلهم) ، فضع علامة استفهام ، فليسوا كلهم ملائكة ، وليسوا كلهم شياطين ، فلا تعمم ، بل انظر للظاهرة ما هي؟ وما حدودها؟ فهؤلاء تجار وصناعيون عملهم بالمال ، وهناك مشـاكل لمـن يكون عمله بالمال ، ولكن ليسـوا كلهم ، فبعضهم أنـاس منضبطون حتى لو كان لديهم مال ، ولكن هذا التعميم من الأمراض الشائعة في المجتمع .

(أَنَّ فِـي كَثِيـرٍ مِنْهُـمْ) ، لـدى كثير من التجـار والصناعيين أخطاء تضر بالنـاس ، فما هذه الأخطاء الشائعة؟ .

يبيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذا الأمراض بما يلي :

الأول : (ضِيقـاً فَاحِشـاً) : هـذه واحدة من مشـكلاتهم ؛ فلديهم ضيـق أفق ، ضيق نظر ، وقسـوة وشـدة في معاملاتهم ، إذ يفكر بأمواله فقط ، وليسـت له علاقة بما حوله ، فإذا أردت أن تشتري منه ثلاجة مثلا ، فهو لا يفكر هل عندك ثمنها أو لا ، فيتساهل معك إن كنت فقيرا ، فتراه يتعامل مع الفقير كما يتعامل مع الغني ، ويفكر بأمواله فقط ، فكثير منهم غير مستعد لأن

يتعامل بإنسـانية ويتسـاهل، إذ سيطرت عليه حالة من الجشع جعلته شديدًا في المعاملة، ولا يفكر إلاّ بالربح.

الثاني: (وَشُحّاً قَبِيحاً): الشح: يعني البخل، (شُحّاً قَبِيحاً) بخلًا قبيحًا نعوذ بالله، بخل إلـى حـد القبح، يتجـاوز الحدود كلها، ونرى في بعض القنوات أحيانًا برامج أو مسلسـلات فكاهية في إظهار البخل، وصحيح أنّ ظاهرها للنكتة، ولكن الواقع أن هناك أناسا هم كذلك بالفعـل، فهنـاك أنـاس قمة في البخل نسـتجير بالله مـن هذه الحالة، وهذه ليسـت لها علاقة بالمـال، فكثيـرًا مـا نجد فقيرًا كريم النفس، يجود بما عنـده وإن كان قليلًا، ومن الجود بذل الموجود، ونجد آخر عنده المليارات ولكنه بخيل على نفسه وعلى أهله وعلى الآخرين.

الثالـث: (وَاحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ): احتكار السـلع من أجـل تحقيق منافع وأرباح أكثر، فترى بعض البضائع متوفرة في الأسـواق في الأيام العادية، ولكنها تختفي فجأة في شـهر رمضان، إذ يخبئها التجار لترتفع أسعارها؛ لأن الناس محتاجة لها، وعندما تشح في الأسواق يرفعون أسـعارها ليربحوا أكثر، فجشـع التجار يؤدي إلى احتكارهم للسـلع من أجل رفع أسـعارها والحصول على أرباح أكبر.

الرابع: (وَتَحَكُّماً فِي الْبِيَاعَاتِ): يريد التاجر أن يمسك السوق بيده، ليتحكم بالأسعار، فيرفـع ويخفـض بمزاجه، من غير مراعاة للقوة الشـرائية للناس، وكلمـة (البياعات): جمع بياعة، أي ما يباع، أي البضاعة.

ثم يبيّن عَلَيْهِ السَّلَامُ النتائج السلبية لهذه الأمراض على الشعب وعلى السلطة:

النتيجة الأولى: على الصعيد العام

يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ)، هذه الأمور: الجشـع، ضيق الأفق، الشدة، البخل، الاحتكار، التحكم في الأسعار، كلها تضر بمصالح الناس.

النتيجة الثانية: على الصعيد الخاص

يقـول عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلَاةِ)، شـؤم على الحاكم، الذي يسـعى لإدارة البلد بما يضمن مصالح الناس، فيأتي أربعة تجار ويلعبون بالبلد بمزاجهم، ويتسببون في عناء الناس، هذا عيب يُحسب على الحاكم وسوء في إدارته، إن لم يستطع أن يفعل شيئًا.

ثم يتطرق عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بيان حلول هذه الأمراض الاقتصادية:

يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: (فَامْنَعْ مِنَ الِاحْتِكَارِ)، لا تسمح لهؤلاء التجار بأن يحتكروا، (فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مَنَعَ مِنْهُ)، لا يجوز لتاجر، أن يجعل شـعبا كاملا في ضيق من العيش من أجل الأرباح، ويبقى يبتز شعبا بأكمله ليدفعوا له أموالا أكثر، وعلى الحاكم أن يضرب هؤلاء بيد من حديد.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

لقد احتوى هذا النص على الإضاءات التالية :

الإضاءة الأولى

خطر التجاوزات الاقتصادية

إن تجاوزات التجار والصناعيين على الأسواق ، أحد أهم الأخطار المحدقة بالمجتمعات ، حينما يرفعون الأسعار بمزاجهم ، ويحتكرون بمزاجهم ، ويتجاوزون على مصالح الناس ، وهذا خطرٌ عظيم ، وما قلناه سابقًا من أهمية دعم التجار والصناعيين في مكانه ، لأنه من خلالهم تتحرك العجلة الاقتصادية للبلد ، ولا تساهل في هذا الأمر ، ويجب أن ندعمهم ، ولكن ليس دعمًا مطلقًا ، فهذا الدعم لا ينبغي أن يجعلهم يتجرؤون ويلحقون الضرر بالمجتمع بجشعهم .

(وَاعْلَمْ مَعَ ذَلِكَ) ، مع أهمية الاهتمام بالتجار والصناعيين ورعايتهم ، (أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ) ، هناك أخطار ومشكلات يسببها كثير منهم ، ويشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا إلى وجود أربعة أخطار أساسية في هذه الطبقة :

الخطر الأول : (ضِيقاً فَاحِشاً) ، تصلّب ، تشدد ، حرص على رفع أسعار سلع معينة تكثر حاجة الناس إليها في بعض الأوقات ، أو عند شحها وقلة معروضها في الأسواق ، فلديهم ضيق أفق ، ولا يفكرون إلاّ في مصالحهم ومنافعهم وأرباحهم ، هذه المشكلة الأولى والخطر الأول .

الخطر الثاني : (وَشُحّاً قَبِيحاً) : لديهم بخل شديد بعيد عن كل حالات التسامح والتساهل مع الناس في الأسعار ، فكل ما تفكر به هذه الطبقة هو كيف تجمع مالًا أكثر ، أما الناس فلا تلحظهم ولا تهتم بهم .

يقول أرسطو – الفيلسوف الكبير المعروف – في كتابه (السياسة) في فصل الاقتصاد : (عجيب حال هؤلاء التجار ؛ إذ يطلبون ربحًا غير متناهٍ ، بلا حدود) ، يريد ثروة لا متناهية ، هكذا يقول أرسطو ، فالتاجر ليس له سقف محدد في طلب الربح ، فهم جشعون ، ورغبتهم بالمال غير محدودة ، في مقابل جهد محدود يبذلونه ، سواء أكان جهدًا فكريًا ، أم جهدًا عضليًا يبذلونه في السفر والحركة .

أنت أيها الإنسان ، كم لديك من إمكانية فكرية تريد أن تسخرها في العمل؟ وكم ساعة من جهدك العضلي تريد أن تبذلها خلال أربع وعشرين ساعة؟ . . أقصى وقت يمكن للإنسان

أن يعمل فيه هو ثماني عشرة ساعة، وهي محدودة، ومعك ألف مستشار، تضربها في ثماني عشرة ساعة، فيكون المجموع ثمانية عشر ألف ساعة، وهي محدودة أيضًا، فالجهد الذي يقدمه الإنسان محدود، وعمره محدود، فكم تريد أن تعيش؟ مائة سنة؟. . لقد أصبح الناس يموتون في عمر الستين والسبعين، فالعمر محدود بسقف، والجهد محدود، والفكر محدود، والبضاعة التي يتاجر بها محدودة، والمواد الطبيعية محدودة أيضًا، إذ قدر الخبراء وقت نفاد النفط، والمعادن محدودة وستنتهي، وفائدة البضاعة التي تتاجر بها محدودة أيضًا، وحاجتك الطبيعية للأشياء محدودة أيضًا، وحاجة رجل الأعمال في حياته محدودة مهما أراد أن ينفق ببذخ على نفسه وعائلته، والاحتياجات مهما أنفق على نفسه وعائلته تبقى محدودة وتنتهي، فماذا تفعل بهذا المال اللامحدود؟ لماذا تطلب من كل شيء محدود مالاً غير محدود؟. . تأمل في قول أرسطو: إن هذا ليس له معنى إلاّ أنه مرض نفسي، فالجشع مرض نفسي، فهذا الشخص مريض؛ لأنه يطلب مالاً غير محدود من شيء محدود، ومعنى ذلك أنه مريض، لأنه يطلب أكثر من حاجته، أيًا كانت هذه الحاجة، فهو مرض نفسي يحتاج إلى علاج، وهذا هو الخطر الثاني.

الخطر الثالث: (وَاحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ): احتكار للأرباح، للبضائع، إذ يريد التاجر والصناعي أن يكون السوق بيده، وفي الفتاوى المشهورة لفقهائنا، في باب الاحتكار، حرمة أو كراهة احتكار ما يقوّم حياة الناس، أو الإفتاء بحرمة أو كراهة احتكار عناوين محددة مشهورة، هي: (الحنطة، الشعير، التمر، الزبيب، الزيت، الملح، السمن)، هذه هي الأشياء التي تُذكر في الفتاوى، لماذا؟؛ لأن الروايات كلها تحدثت عن حرمة احتكار كذا وكذا، ولكن العبارة هنا مطلقة: (وَاحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ)، يعني جميع السلع وكل ما تتوقف عليه حياة الناس في ذلك الزمان، زمان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانت حياة الناس قائمة على الحنطة والشعير والملح والزيت، ولكن في زماننا يمكن أن توجد بضائع أخرى تتوقف عليها حياة الناس، فالفكرة ليست حرمة احتكار بضاعة بعينها، بل الفكرة هي حرمة احتكار ما يحتاج إليه الناس من قبل التجار وإضرارهم بمصالح الناس، إذن فالعبارة أعلاه في العهد الشريف تشمل جميع السلع والبضائع التي تتوقف عليها حياة الناس، حتى لو لم تكن من هذه السلع السبع، نعم يجوز له احتكار السلع الترفيهية التي لا تتوقف عليها حياة الناس، ولكن المواد الأساسية كغذاء الناس، وملبسهم، التي تتوقف عليها حياتهم، يُحرم احتكارها، سواءً كانت زراعية أو صناعية أو مستخرجة من الطبيعة، وهذه ليست فتوى، ولكن العبارة مطلقة، وتبقى فتوى الفقهاء محترمة في ما يستنبطون من حكم شرعي.

الخطر الرابع : (وَتَحَكُّماً فِي الْبِيَاعَاتِ) : إنّ هؤلاء التجار والصناعيين يتحكمون بأسعار المبيعات ، رغبة منهم في الهيمنة على السوق والسيطرة عليه ، فيرفعون الأسعار ويخفضونها بحسب ما تقتضيه مصالحهم ، ومصالح الناس كلها مرتبطة بقرار هذه الطبقة ، فيقومون بالاحتكار وبجميع الأعمال الأخرى التي من شأنها ضمان زيادة أرباحهم ، ومنها ما يسعون إليه من حصر الملكية والوكالة بهم ، إذ يحصل أحدهم على وكالة حصرية لبيع سلعة معينة في العراق ، كنوع معين من السيارات مثلًا ، ويتعاقد معهم على عدم إعطاء وكالة أخرى لغيره في العراق ، لكي يسيطر على بيع هذه السيارات ويضع السعر الذي يرغب فيه .

الإضاءة الثانية

ضرورة الرقابة

هناك ضرورة للرقابة والتدقيق في أوضاع السوق ؛ التعاملات الاقتصادية ، العلاقات بين التجار والصناعيين ، وما شابه ، إذ يجب على الدولة أن ترصدها وتراقبها وتدقق فيها ، لكي لا يؤدي الدعم الكبير لهذا القطاع إلى خروج هؤلاء التجار والصناعيين عن السياقات والالتزامات الصحيحة ، فنحتاج إلى هذه الرقابة الجدية عليهم ، لكي لا يرفعوا الأسعار ، ويلحقوا الضرر بالناس ، ولا يضغطوا عليهم في احتياجاتهم الأساسية .

يرى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن هذا الأمر يخلق إشكاليتين :

الإشكالية الأولى : (بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ) : هذا يؤدي إلى الإضرار بالناس ، إذ ترتفع الأسعار ، وتقل فرص العمل ، ويتراجع نمو الاقتصاد في البلد ، وفي كل هذا جور على الناس .

الإشكالية الثانية : (عَيْبٌ عَلَى الْوُلَاةِ) : خزيٌ ، عارٌ ، عيبٌ على الحاكم ، لأنه يكشف عن سوء الإدارة ، وأنه ترك البلد في فوضى ، يتحكم فيه بعض التجار بهذه الطريقة ، على حساب حياة الناس .

ورد في كتاب الكافي الشريف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال : «علامة رضا الله تعالى في خلقه : عدل سلطانهم ، ورخص أسعارهم» ، إذا رضي الله تعالى عن قوم جعل عليهم حاكمًا عادلًا ، ورخّص أسعار بضائعهم ، وهذا أهم شيء في رضا الله تعالى ، «وعلامة غضب الله تبارك وتعالى على خلقه : جور سلطانهم ، وغلاء أسعارهم»[٦٤] ، فغلاء الأسعار

٦٤ . الكافي ٥ : ١٦٢ ح١ .

ورخصهـا معيار مهم لرضا الله تعالى وسـخطه، بمعنى أن الأمـة التي تفي بواجباتها وتتحمل مسؤولياتها وتنتفض لحقوقها، لا ترتفع فيها الأسعار ولا يحكمها ظالم.

وورد فـي المصـدر نفسـه عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال: «غلاء السـعر يسـيء الخلـق»، يؤدي الغلاء إلى سـوء أخلاق الناس؛ لأنّ الإنسـان عندما يعجـز عن توفير الحياة الكريمة لنفسه وعائلته، تتعب نفسيته، وتتوتر أعصابه، فترى الناس لا يطيق أحدهم الآخر، فإذا دخلت مدينة ورأيت أسعارها مرتفعة، فاعلم أنّ الناس فيها تحت الضغط.

«ويُذهـب الأمانـة»، يعم الفسـاد، وتركن الناس إلـى الخيانة، فلا تجـد الأمانة في بلاد أسـعارها غالية، إذ يضعف الكثير من الناس تجاه المال العام، «ويُضجر المرء المسـلم»[٦٥]، يؤدي إلى ضجر الإنسـان المسـلم، فغلاء الأسـعار له تأثيرات نفسية كثيرة، وضرر كبير على المجتمع.

وفي المصدر نفسـه عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، في تفسـير قول الله تعالى في سورة هود، حكايةً عن شعيب عليه وعلى نبينا السلام: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾[٦٦]، قال: «كان سعرهم رخيصًا»[٦٧]، ففي ظل رخص الأسـعار يكون الناس في راحة، أما إذا كانت الأسـعار غالية، فستجد الناس على وشك أن تنفجر في أي لحظة.

الإضاءة الثالثة

المنع من التجاوزات والاحتكار

يجب على الحاكم بتقواه، وبمهاراته القياديّة، وبأجهزته الرقابية، أن يبحث عن أسـباب ارتفـاع الأسـعار والاحتكار، ويضع حلـولا منطقية تحقق التوازن بيـن أمرين؛ فمن ناحية لا تـؤدي هـذه الأدوات الرقابية إلى إجهاض عملية التجـارة واختلالها، بل يجب الحفاظ على النشـاط التجاري والصناعي وتنميته وتقويته، ومن ناحية أخرى، لا يقع الضرر على مصالح النـاس ولا يكـون هناك ضغط عليهـم، فالتوازن بين اسـتمرارية وتنمية القطاعـات التجارية والصناعيـة، والحفـاظ على مصالح الناس، هذا ما يجب أن يتحقق بسياسـة حكيمة متوازنة من الدولة، تستطيع بواسطتها أن تحافظ على الأمرين معًا.

---

٦٥. الكافي ٥: ١٦٤ ح٦.

٦٦. سورة هود: الآية ٨٤.

٦٧. الكافي ٥: ١٦٤ ح٧.

المحور الثالث

تنظيم السوق

ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للحديث عن محور ثالث في هذا المقطع، وهو يرتبط بتنظيم السوق، إذ يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

(وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً): من أجل إنعاش الاقتصاد، تحريك عجلة الاقتصاد، يجب أن تكون العمليات التجارية والاقتصادية عمليات سهلة، فيها انسيابية، وتتحقق فيها مصلحة الطرفين، فيشعر فيها التجار والصناعيون بأن فيها فائدة لهم فيطورون تجارتهم وصناعتهم، ويشعر الناس بأن السعر المطروح، وطبيعة التعاملات، والضمانات الموجودة للبضاعة، والتأمين عليها إلى غير ذلك، تتم كلها بيسر وانسيابية، وتؤدي هذه الحالة من التسامح، ورخص الأسعار، وانسيابية التعامل، والضمانات الكافية، إلى أن يكون البيع بيعًا سمحًا، و«السمح» من التسامح والسهولة واليسر في هذه التبادلات، ويتحقق ذلك كما يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأمرين:

الأمر الأول: (بِمَوَازِينِ عَدْلٍ): يجب أن تراعى معيارية العدل، أي العدالة في التبادل التجاري، فلا يُظلم البائع ولا المشتري، ويحصل الجميع على حقوقهم بشكل منطقي ومعقول.

الأمر الثاني: (وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ): يجب أن لا يكون في الأسعار إجحاف بحق البائع أو المشتري، فلا نضيّق على التاجر ونضع له تسعيرة إلزامية ليس فيها هامش من الربح، يستفيد منها المواطن ويخسر التاجر، فيترك التجارة وتتوقف العملية الاقتصادية، ولا نترك الأمور سائبة بلا رقابة، فيرفع التاجر الأسعار ويستفيد، ولكنه يضر بالمواطن، فالمسألة يجب أن لا يكون فيها إجحاف بل توازن، ويحصل فيها الجميع - البائع والمشتري - على الفائدة.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

الانسيابية والسهولة في التعاملات

الانسيابية، السهولة، طيب النفس في المعاملات الاقتصادية، هذه مسألة مهمة جدًا من وجهة نظر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إذ يجب أن تكون هناك ثقة في السوق؛ في عملية البيع والشراء، وفي العلاقات الاقتصادية، وفي المعاملات بين الأطراف المختلفة، فإذا وُجدت هذه الثقة فسيتم تبادل المليارات حتى من دون ورقة أحيانًا، فمن المهم جدًا أن توجد ثقة بين التجار أنفسهم، وبين التجار والناس، فتكون الكلمة لها قيمة، والسعر الذي يقال معروف أنه هو السعر الحقيقي الذي لا إجحاف فيه، ولا ظلم، ولا دجل، إذن هذه مسألة مهمة جدًا؛ أن تكون هناك أجواء من الثقة، والتعاملات الانسيابية في هذا السوق، ويجب أن يُلحظ الجانب الأخلاقي والإنساني في هذا الأمر؛ (وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً)، فلا ينتج هذه الثقة إلاّ وجود جوانب أخلاقية إنسانية، فرجل الأعمال يفكر بربحه، ولكن يجب عليه أيضًا ملاحظة الناس، لأنّ المواطن يبحث عن الرخيص، ولكنه لا يريد أن يظلم التاجر أيضًا، وهذه الثقة المتبادلة والعلاقة الانسيابية هي التي توجد انتعاشًا اقتصاديًا، ودورة اقتصادية سليمة، فاعلة، نشيطة، إذ يذهب المشتري إلى السوق ويشتري ما يريد، ويبيع التاجر بأسعار أقل لكي يستفيد الناس ويشترون أكثر، وبالتالي يربح أكثر.

هناك روايات كثيرة تشير إلى هذا الجانب، نجد بعضها في كتاب بحار الأنوار، منها ما ورد عن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «قال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: إذا التاجران صدقا وبرا بورك لهما»[٦٨]، الصدق والبر، أي التعامل على الأساس الإنساني والأخلاقي، يوجِد البركة والنماء، والفائدة في التجارة.

وفي المصدر نفسه، عن أبي ذر عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله عز وجل»، ثلاثة يعرض الله تبارك وتعالى عنهم، وهم:

الأول: «المنان الذي لا يعطي شيئًا إلا بمنّة»، هناك من لا يعمل لك معروفًا إلا ويبقى يذكّرك به ويمنّ به عليك العمر بأكمله، والله تعالى لا ينظر إلى المنان.

---

٦٨. بحار الأنوار ١٠٠: ٩٥ ح١٤.

الثاني: «والمسبل إزاره»، كان البعض في عصر صدور النص يرتدي ملابس طويلة تجر في الأرض، وكان هذا دليلًا على التبختر والتجبر، وهذا أمر مكروه من جهتين؛ الأولى أن فيه أبعادًا تخص النظافة، فالملابس الطويلة التي تجر في الأرض تأخذ معها دائمًا الأوساخ والقاذورات، والثانية أنه دليل على التبختر.

الثالث: «والمنفق سلعته بالحلف الفاجر»[٦٩]، أي يحلف كذبًا، ويخبرنا رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في هذه الرواية أنّ الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى البائع الذي يحلف كاذبًا من أجل الحصول على ربح إضافي بالباطل.

وفي المصدر نفسه: عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «غفر الله (عزّ وجل) لرجل كان من قبلكم»، ما هو وصف هذا الرجل الذي يترحم عليه رسول الله ويطلب له المغفرة؟ كان يتحلى بأربع صفات مجتمعة في شخصه:

الأولى: «كان سهلًا إذا باع»، كان يبيع بسهولة ويتسامح مع المشتري.

الثانية: «سهلًا إذا اشترى»، كان سهلًا مع البائع عندما يريد أن يشتري.

الثالثة والرابعة: «سهلًا إذا قضى، سهلًا إذا اقتضى»[٧٠]، وكان متساهلًا إذا أقرض أحدًا أو اقترض منه، فالدنيا لا تستحق أن نعقّد الأمور كثيرًا وندخل في التفاصيل، وما زال في ذاكرتي إلى الآن كلام سمعته من أحدهم عن أحد التجار الكبار؛ أنه ذهب إلى المحل واشترى قارورة زيت بخمسين ألفًا مثلًا، ورجع إلى البيت، وكان قد اشتراها في الليل، وعندما رجع سألوه بكم اشتريتها؟ فقال: اشتريتها بخمسين، فقالوا: نحن نشتريها دائمًا بخمسة وأربعين، فقال: إذن أخذ هذا مني خمسة آلاف إضافية، وأسرع إلى المحل فوجده مغلقًا، ونُقل عن هذا التاجر أنه لم يستطع النوم بسبب الخمسة آلاف، وعند حلول الصباح جاء صاحب المحل ووجد التاجر واقفًا بباب المحل ينتظره، فبادره قائلًا: تضحك عليّ؟ بعتني الزيت بخمسين ألفًا وسعره خمسة وأربعون ألفًا، أرجع لي الخمسة آلاف، وأخذها منه.. ليلة كاملة لم يستطع النوم إلى الصباح، ولكن يغلبه النوم في ليلة القدر، فما هذا الجشع؟ وهذه ليست دعوة لكي نكون مغفلين، ولا نقول إذا ضربك شخص على خدك الأيمن فأعطه خدك الأيسر، كلا، ولكنها دعوة أن لا ننغمس ولا نغرق في مثل هذه التفاصيل، فتسلب منا راحتنا وثقة المجتمع بنا.

---

٦٩. بحار الأنوار ١٠٠: ٩٥ ح١٦.

٧٠. بحار الأنوار ١٠٠: ٩٥ ح١٧.

وفـي المصـدر نفسـه، عن الإمام الصـادق عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ عن آبائه عليهم السـلام، قال: «قال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: مـن باع واشـترى فليجتنب خمس خصـال، وإلا فلا يبيعن ولا يشترين»، إن كنت تريد أن تبيع وتشتري فيجب أن تجتنب خمسة أوصاف، وإن لم تكن قادرا على اجتنابها فلا تبع ولا تشتر، وهذه الأوصاف هي:

«الربـا»، أخـذ الفائـدة على إقراض المال، وفيه إشـارة إلى مطلق أخـذ الربح بطرق محرمة، كالغش والاحتكار.

«والحلف»، القسم بالله جلّ جلاله لترغيب المشتري بشراء بضاعته، وينبغي للمؤمن أن يبتعـد عـن الحلف بالله تعالـى وإن كان صادقًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُـوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُـمْ﴾[٧١]، لا تحلف على كل شـيء، فالقسـم لا يكـون إلاّ في محكمة، وإلا في قضية خطيرة، أو عندما يطلب منه القاضي ذلك، يجب أن لا نقسـم بالله (عزّ وجل) في الأمور البسيطة.

«وكتمـان العيـب»، لا تكتم عيـب البضاعة التي تريد بيعها، فضـلًا عن إخفاء عيبها عن المشـتري، فإن كنت تريد أن تبيع سـيارة مثلًا، فلا تصبغها لتخفي عيوبها، لئلا يأتي المشـتري فيـرى منظرها جيدًا فيشـتريها، ثم بعد يومين يتبين عيبهـا، أو تريد أن تبيع بيتًا فيـه رطوبة، فتصبغه وتخفي عيبه وتبيعه، ثم بعد أسـبوع أو أسـبوعين تظهر العيوب.. وهكذا.

«والحمـد إذا بـاع»، عندمـا تريد أن تبيع فـلا تمدح بضاعتك أمام المشـتري لترغيبه بالشراء.

«والذم إذا اشترى»[٧٢]، لا يكن دأبك ذم البضاعة وإظهار عيوبها عند الشراء لتشتريها بسـعر أقل، وابتعد عن ممارسـة الحرب النفسـية مع البائع لتحصل على ما تريد شـراءه بسعر أقل.

وفـي المصـدر نفسـه، عن أبي عبـد الله عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ أنه أوصى بعـض أصحابه يعمل في التجارة فقال: «عليك بصدق اللسـان في حديثك»، يجب أن يكون حديثك صادقًا، فلا تكذب في التجارة.

«ولا تكتم عيبًا يكون في تجارتك»، بيّن أي عيوب في البضاعة التي تريد بيعها.

---

٧١. سورة البقرة: الآية ٢٢٤.

٧٢. بحار الأنوار ١٠٠: ٩٥ ح١٨.

«ولا تغبن المسترسل» ، وهو الشخص الذي جاءك على رسله واثقًا بأنك لا تظلمه ، ولا تغبنه ، ولا تغشه ، فعليك أن تنصحه في البضاعة التي يريد شراءها منك ، كما وثق بك ، فهناك شخص شأنه التدقيق بما يشتريه ، سواء كان واثقًا بك أو لم يكن كذلك ، وسواء أظهرت له عيوب ما يريد شراءه أو لم تظهرها له ، فهو يدقق في ما يشتريه على كل حال ، ولكن هذا جاءك وهو واثق بك ومعتمد عليك ، فلا تستعمل الشطارة معه ، وتعتبره ساذجًا ، أو تذهب أبعد من عدم إظهار عيوب البضاعة ؛ بأن تختار له البضاعة المعيوبة والرديئة والبائرة فتبيعها له ، فهذا أكثر من كونه لا يجوز ، فهو بمنزلة الربا ، «فإنّ غبنه ربا» ، الذي وصفته الرواية عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ : «درهم ربا أعظم عند الله من سبعين زنية بذات محرم في بيت الله الحرام»[73] ، فغبن المسترسل ، الواثق منك ، مثل الربا ، وربحك من هذا البيع حرام ، لأنه جاء معتمدًا عليك ، وسلّمك ماله ثقة بك .

«ولا ترض للناس إلاّ ما ترضاه لنفسك» ، ما تريده لنفسك اقبله من الناس ، وما لا تريده لنفسك لا تقبله للآخرين .

«وأعط الحق وخذه» ، أعط بالحق وخذ بالحق ، كن حقانيا ، فالشيء الذي ليس من حقك لا تأخذه .

«ولا تخن ، فإنّ التاجر الصدوق مع السفرة الكرام البررة يوم القيامة»[74] ، تحذير من خيانة المشتري بالكذب عليه ، ومن هذه الرواية الشريفة يتبين الخطر المحدق بالتاجر الذي لا يلتزم بهذه الخصال الست في بيع بضاعته ، ثم تبين الرواية عظيم منزلة التاجر الذي يلتزم بهذه الخصال ، بأنه مع السفرة الكرام البررة ، في أعلى عليين في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال : «الرزق رزقان : رزق تطلبه ، ورزق يطلبك ، وإن لم تأته أتاك» ، هناك رزق أنت الذي تركض وراءه ، وهناك رزق يأتيك ويطرق بابك ، «وإن لم تأته أتاك» ، فهو رزقك الذي قسمه الله لك ، فإن لم تذهب إليه أتاك ، «فاطلبه من حلال» ، مهما تفعل بنفسك وتبذل من جهد ، فلن يأتيك إلاّ الرزق الذي قدره الله لك ، فما دام هذا تقديرك ورزقك فاطلبه من وجهه الحلال ، «فإنك أكلته حلالاً إن طلبته من وجهه» ، إذا طلبته من وجهه المحلل وحصلت عليه فستأكله حلالًا ، «وإلاّ أكلته حرامًا» ، وإن طلبته بطرق محرمة فسيأتيك ، ولكن تكون قد أكلته حرامًا ،

---

٧٣ . بحار الأنوار ١٠٠ : ١١٧ ح١٣ .

٧٤ . بحار الأنوار ١٠٠ ، ١٠١ ح٤٣ .

فبما أنه قادم إليك وهو رزقك، فاحرص على أن تحصل عليه بوسائل سليمة وصحيحة لكي تأكله حلالًا طيبا، «وهو رزقك لا بُدَّ من أكله»[٧٥]، سيأتيك رزقك لا محالة، ولا يوجد أحد منا يأكل رزق الثاني، فطالما أن رزقنا معروف، فلنحرص على أن نحصل عليه بالطرق المحللة، لكي نتجنب أكل المال الحرام والعياذ الله.

وورد في السياق نفسه في كتاب (من لا يحضره الفقيه)، عن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «سمعت رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: السماح وجهٌ من الرباح قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك لرجل يوصيه ومعه سلعة»[٧٦]، السماح، أي التساهل في البيع والشراء، هو نوع من أنواع الربح، وبالفعل، فالمشتري يبحث عن بائع سمح بالتعامل، فهذا يبيع أرخص ولكنه يبيع أكثر، فيخرج بربح أكثر.

وورد في (كنز العمال) عن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «من أقال نادمًا»، جاء شخص واشترى بضاعة وذهب إلى بيته ثم ندم عليها، فرجع إلى البائع وطلب منه أن يعيدها، ويرجع له ثمنها، وهنا البائع مخير بين إرجاعها أو عدم إرجاعها، ولكنه لو قبل إرجاعها وفسخ البيع وأعاد البضاعة وأعطاه ماله، «أقاله الله يوم القيامة»[٧٧]، يقول له الله تبارك وتعالى يوم القيامة: عندما جاءك عبدي وأراد أن يعيد البضاعة قبلت منه، وأنا اليوم أقبل منك بضاعتك أيًا كانت، وهذه هي الإضاءة الأولى، وهي الانسيابية والسهولة في التعاملات.

الإضاءة الثانية

المعايير المطلوبة في السوق والمعاملات

يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى وجوب مراعاة معيارين أساسيين في مجمل العملية الاقتصادية، هما العدل، والأسعار غير المجحفة، أي المنصفة؛ وهو قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (بِمَوَازِينِ عَدْلٍ وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ)، أما التضييق الاقتصادي وفرض الحصار على شخص، أو على جماعة، أو على شعب، أو على أمة، لفرض شروط مجحفة، ولإخضاعهم، فهو أمر مرفوض جملة وتفصيلًا من وجهة نظر

٧٥. بحار الأنوار ١٠٠: ١٠٣ ح٥١.

٧٦. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٩٦ ح٣٧٣٥

٧٧. كنز العمال ٤: ٨٦ ح٩٦٥٧.

الإسـلام ، ومثال فرض الحصار على شـخص معين من أجل إخضاعه ، رجل اُبتلي ابنه أو أحد أقربائه بالمرض الخبيث ، ويريد علاجه في الهند ، وليسـت لديه أموال ، فقرر أن يبيع سـيارته أو بيته ، فيأتي شـخص ويريد اسـتغلال حاجته ، فيفرض عليه سعرًا مجحفًا لشرائها ، وليس أمام هذا الرجل إلا الرضوخ والقبول بالثمن البخس الذي أُعطي له ، من أجل إنقاذ ولده أو قريبه من الموت ، وهذا يسـمونه اسـتغلالا مجحفا في لحظة حرجة ، فيشتري منه السيارة أو البيت بسعر زهيد ، ومثال آخر : لو تعرض رجل للإفلاس ، ووقف الدائنون على الأبواب يطلبون أموالهم أو يرمونه في السجن ، وأحيانًا يعلن إفلاسه فتقرر الدولة بيع ممتلكاته وتوزيع أثمانها بين الدائنين ، وهناك أناس قد جعلوا عملهم اقتناص مثل هذه الفرص ، فيسارعون لشرائها بأسعار أقل ، وهذه عملية غير منصفة للبائع ، وليس فيها عدالة ، وهذا لا يجوز ؛ لأنّ البائع مضطر للبيع ، وهو غير راض بالسعر المعروض ، وهذا الاسـتغلال لاضطرار النـاس ومحنتهم بعيد عن المروءة ، والإنسـان الذي يعتاش على ألم الناس وجراحهم ، إنسان غير منصف ، وهذه كلها حالات باطلة في الاقتصاد ، إذ وضع أحد الطرفين الآخر في وضع غير منصف ، ومجحف ، في فرص غير متكافئة ، وهذه غير مقبولة .

قال الله تبارك وتعالى في سـورة النسـاء : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ، يعني لا يأخذ بعضكم أموال بعض بالحرام ، والباطل والحرام أن تأخذه تحت الضغط ، وتحت الحاجة الشديدة ، وفي ظروف غير متكافئة وغير منصفة ، ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَـارَةً عَـن تَـرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ ، بطيب خاطـر ، برضا ، فالذي يبيع إذا قلل من السـعر فلأنه راغـب بأن يبيع لكَ بسـعر أقل ، والذي يشـتري بسـعر أكثر يفعل ذلـك بإرادته ، فأحيانًا ترى طفلًا يبيع في الشـارع ، وأنت لا تريد أن تشـتري هذا الشيء الذي يبيعه ، بل تريد أن تسـاعده ، من غير أن تقول له : هذه مسـاعدة ، فتشـتري منه ذلك الشـيء بسعر أعلى من سعره الحقيقي .

﴿وَلاَ تَقْتُلُـواْ أَنفُسَـكُمْ﴾ ، لا يقتـل بعضكم بعضًـا ، ﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُـمْ رَحِيمًا﴾[٧٨] ، هنـا تشـير الآية إلى حرمة جميع هذه التعامـلات المجحفة والعلاقات غير المنصفة وغير المتكافئة ، وتعتبرها أمرًا باطلًا ، وتشير أيضًا إلى أن الحكم العام في العلاقات الاقتصادية ، في السياقات التجارية ، في المعاملات المشروعة ، هو رضا الطرفين وطيب خاطرهما : ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ .

٧٨ . سورة النساء : الآية ٢٩ .

إن تقليل المعروض من البضاعة في السوق لكي يرتفع سعرها، ورفع الأسعار بشكل غير منصف، والأرباح المجحفة، والتجاوزات الاقتصادية، وعدم الصدق في المعاملات والحلف على شيء كاذب، والدجل، والكيد، والالتفاف في تسويق بضاعة معينة أو شراء شيء، والتلاعب بالبضاعة والأسعار، كلها مصاديق وموارد للتجارة غير المنصفة والباطلة، ومثل هذه الأمور إذا شاعت فسوف تأخذ المجتمع إلى الهلاك، وتوجد أزمة ثقة بين الناس؛ بين التجار وعموم المواطنين، وهنا تتبين قيمة المعيارين اللذين طرحهما أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: العدالة، والأسعار المنصفة، وهما معياران أساسيان ومهمان من شأنهما القضاء على الظواهر الظالمة المذكورة آنفًا، وإيجاد حالة من الثقة بين أطراف العملية الاقتصادية.

وورد في بحار الأنوار في سلوك أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، في رواية تشير إلى هذه التعاملات والثقة المتبادلة، عن أبي جعفر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: (كان علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كل بكرةٍ، (في كل صباح)، يطوف في أسواق الكوفة سوقًا سوقًا)، وكانت أسواقا تخصصية آنذاك؛ سوق النحاسين، سوق الحدادين، سوق النخاسين.. وهكذا كل سوق مصنفة بحسب المهن المعروفة آنذاك، فكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يطوف في جميع الأسواق صباحًا.

(ومعه الدرة على عاتقه، وكان لها طرفان، وكان تسمى السيبة، فيقف على سوق سوق وينادي: يا معشر التجار، قدموا الاستخارة)، قدموا النصيحة لمن يشتري منكم، ليجعل الله البركة ببيعكم.

(وتبرّكوا بالسهولة)، كونوا مرنين متساهلين مع المشتري، فالسهولة تجلب لكم البركة في أرزاقكم، (واقتربوا من المبتاعين)، راعوا المشترين بخفض الأسعار ما استطعتم.

(وتزينوا بالحلم)، يجب أن يكون البائع والتاجر حليمًا، فمن المشترين من هو شديد الطبع، أو لحوح يسأل كثيرا قبل أن يشتري، (وتناهوا عن الكذب واليمين)، لا تكذبوا، ولا تحلفوا، (وتجافوا عن الظلم)، ابتعدوا عن الظلم وكونوا منصفين عادلين.

(وأنصفوا المظلومين)، إذا ظُلم مشترٍ فقفوا إلى جانبه وأرجعوا له حقه، (ولا تقربوا الربا)، لا توجد أرباح في المال الربوي، فهو يأخذ البركة كلها من أموالك، ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾، لترجح كفة ميزانكم عند البيع، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، لا تقللوا من حق الناس، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، لا تفسدوا في الأرض، (يطوف في جميع أسواق الكوفة فيقول هذا)، يكرر هذا الكلام ليسمعه جميع من في الأسواق، (ثم ينشد بيتين من الشعر:

تفنى اللذاذةُ ممّن نالَ صفوتَها   من الحرامِ ويبقى الإثمُ والعارُ

تبقى عواقبُ سوءٍ في مغبّتها   لا خيرَ في لذّةٍ من بعدِها النارُ)[٧٩].

مهما كانت الحلاوة واللذة من المال الحرام فهي فانية لا محالة، وتبقى عواقبها الوخيمة، فلا خير في لذة يتبعها العار في الدنيا والنار في الآخرة، فكان ينصحهم بذلك كل يوم لتكون تعاملاتهم صحيحة.

وورد في (كنز العمال) عن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إذا وزنتم فأرجحوا»، إذا وزنت فأرجح كفة الميزان، أي زد فيها.

وورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في نهج البلاغة قوله: «يأتي على الناس زمان عضوض»، زمان شديد، «يعض الموسر فيه على ما في يديه»، الموسر يعني الغني، صاحب المال، «يمسك البضاعة بخلًا»، لا يتساهل حتى في درهم من الثمن، «ولم يؤمر بذلك»، لم يأمره الله (سبحانه وتعالى) بالتشدد، بل على العكس أمره بالتساهل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، ليرعَ بعضكم بعضا، «تنهد فيه الأشرار»، يرتفع أصحاب الشر في ذلك الزمان، «وتستذل الأخيار»، ويسعون لإذلال أصحاب الخير والقيم والمبادئ ويظنون أنهم أناس بسطاء لأنهم يخافون الله (سبحانه وتعالى)، «ويُبايع المضطرون»، يتعاملون بالبيع والشراء مع أناس في حالة اضطرار، «وقد نهى رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عن بيع المضطرين»[٨٠]، في حين أنه لا يجوز البيع للمضطر والشراء منه، يعني أنّ ابتياع المضطر ليس ابتياعا حقيقيا وإن كان على هيئة البيع، فعمليات البيع والشراء التي يقوم بها المضطر فيها غبن فاحش له؛ فحين يشتري شيئا يستغل البائع اضطراره ويأخذ منه سعرًا زائدًا، وكذا حين يبيع عن اضطرار، إذ يشترون منه بثمن بخس، وكلا الأمرين - بيع المضطر وشراؤه - مرفوضان، وقد نهى عنهما رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

---

٧٩. بحار الأنوار ١٠٠: ٩٤ ح١٠.

٨٠. نهج البلاغة ٤: ١٠٨ الحكمة ٤٦٨.

المقطع الخامس والعشرون

الطبقة السفلى في المجتمع

((ثُمّ اللهَ اللهَ فِي الطّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الّذِينَ لاَ حِيلَةَ لَهُمْ وَالْمَسَاكِين وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزّمْنَى ، فإِنّ فِي هذِهِ الطّبَقَةِ قَانِعًا وَمُعْتَرًّا ، وَاحْفَظْ للهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقّهِ فِيهِمْ ، وَاجعل لهم قِسمًا مِنْ بَيْتِ مَالِكَ ، وَقِسمًا مِنْ غَلاّتِ صَوافِي الاْسْلاَمِ فِي كُلِّ بَلَد ، فإِنّ للأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الّذي للأدْنَى ، وَكُلٌّ قَد اسْتُرْعِيتَ حَقّهُ ، فَلاَ يَشْغَلنّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ ، فَإِنّكَ لاَ تُعْذَرُ بتضييعكَ التّافِهَ لإِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمّ ، فَلاَ تُشْخِصْ هَمّكَ عَنْهُمْ ، وَلاَ تُصَعّرْ خَدّكَ لَهُمْ ، وَتَفَقّدْ أُمُورَ مَنْ لاَ يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ ، مِمّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ وَتَحْقِرُهُ الرّجَالُ ، فَفَرّغْ لأولئكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتّوَاضُعِ ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُم ، ثُمّ اعمَلْ فيهِم بالإِعْذَارِ إِلَى اللهِ تَعَالَى يَوْمَ تَلْقَاهُ ، فَإِنّ هؤُلاَءِ مِنْ بَيْنِ الرّعِيّةِ أَحْوَجُ إِلَى الإنصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي تَأْدِيَةِ حَقّهِ إِلَيهِ . وَتَعَهّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ وَذَوِي الرّقّةِ فِي السّنّ مِمّنْ لاَ حِيلَةَ لَهُ ، وَلاَ يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ ، وَذلِكَ عَلَى الْوُلاَةِ ثَقِيلٌ ، وَالْحَقّ كُلّهُ ثَقِيلٌ ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبّرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ)) .

تطرق أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقطع الخامس والعشرين إلى الطبقة الخامسة من الطبقات الاجتماعيّة كما صنفها عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي طبقة المحرومين، أو الطبقة السفلى في المجتمع، كما يعبر عنهم، متناولًا عدة محاور تتعلق بهذه الطبقة:

المحور الأول

أهمية هذه الطبقة

يأتي الاهتمام بالطبقة المسحوقة، أو الطبقة السفلى في المجتمع والتركيز عليها، من اهتمام الإسلام بالواقع الاجتماعيّ الكلي، بجميع مساحاته وشرائحه، فيقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(ثُمَّ اللَّهَ اللَّهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى)، يا مالك، عندما تذهب إلى مصر، أوصيك بالفقراء والمساكين، بالطبقة المظلومة والمضطهدة، بالمحرومين، فيجب أن تهتم بهؤلاء.

(مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ)، لا حول لهم ولا قوة، وليس بيدهم شيء

(مِنَ الْمَسَاكِينِ)، الفقير هو من لا يملك مؤونة سنته، ولكن المسكين أشد حاجة من الفقير، وهو من لا يملك قوت يومه.

(وَالْمُحْتَاجِينَ)، وذوي الاحتياجات المختلفة، الذين تعرض لأحدهم الحاجة الطارئة فلا يستطيع تلبيتها، كعلاج مريض، أو زواج، أو وفاة أحد أفراد أسرته فيعجز عن الدفن وإقامة مراسيم الفاتحة، أو نفقات دراسة أولاده، ونحو ذلك.

(وَأَهْلِ الْبُؤْسَى)، يعني المنكوبين، وهم المتضررون بسبب السيول والزلازل وغيرها من الكوارث الطبيعية، فتخرب قراهم ومدنهم وتذهب أملاكهم ومقتنياتهم ومواشيهم، ويتحولون إلى أناس معدمين أو شبه معدمين، ويشمل عنوان أهل البؤسى العائلة التي فقدت معيلها، أو كان معيلها مريضًا، أو العائلة التي ليس لها معيل أصلًا، وربما كانت العائلة التي مرض معيلها أشد فقرًا من العائلة التي لا معيل لها، لأنهم ليسوا أيتاما

فيساعدهم الناس ويتصدقون عليهم كأيتام، ولا يستطيع معيلهم أن يقدم لهم قوتهم، فيكون وضعهم صعبًا، وهؤلاء جميعًا من أهل البؤس.

(وَالزَّمْنَى)، يعني ذوي العاهات، وهم ذوو الاحتياجات الخاصة كما نسميهم اليوم؛ ذوو الإعاقة، أو كبار السن، أو المقعدون الذين ليست لديهم قدرة على الحركة.

هذه هي الطبقة السفلى والشرائح المحتاجة التي لا تستطيع أن تدير نفسها، وتوفر معاشها، لسبب من هذه الأسباب التي ذكرنا.

ثم بعد أن يبيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أصناف هذه الطبقة، ينتقل إلى وجود نوعين من الناس في كل صنف من هذه الأصناف، هما القانع والمعترّ.

يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: (فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً)، القانع: هو صاحب الحاجة الذي يطلب من الآخرين أن يساعدوه.

(وَمُعْتَرّاً)، المعتر: هو الذي يظهر لك نفسه، وبلغة الإشارة يظهر لك حاجته، لكنه لا يسأل بلسانه ولا يطلب بيده، فعزة نفسه لا تسمح له بذلك، ولكنه يعرض نفسه عليك، ولسان حاله يقول لك: ترى أني فقير، ولكنه لا يقول شيئًا.

ورد ذكر القانع والمعترّ في الآية الشريفة: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[٨١]، والتمييز بين القانع والمعتر، أنّ القانع هو من يطلب بلسانه أو بيده، فيدق بابك ويقول لك: هل لنا حصة عندكم، والمعترّ هو الذي يدق بابك ويسلم عليك ويقول: هل تحتاج إلى شيء؟ فيريك نفسه ولا يطلب.

ثم ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى كيفية معالجة ما تعانيه هذه الطبقة من فقر وعوز ماليين فيقول:

(وَاحْفَظِ لِلَّهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ)، احفظ حق الله (سبحانه وتعالى) في رعاية عباد الله المحتاجين، فهذا حق الله الذي يجب عليك أن تحفظه فيهم.

(وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكِ)، خزينة بيت مال المسلمين، موازنات الدولة، يجب أن يكون فيها حقل يخص هذه الشريحة الفقيرة لرعايتهم.

(وَقِسْماً مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ)، الغلات تعني الثمار، المزارع، النخيل، الحنطة والشعير، أي إنتاج كل ما يزرع في أراضي صوافي الإسلام، فما هي صوافي الإسلام؟.

---

٨١. سورة الحج: الآية ٣٦.

لقد كانت تحصل في تلك الأزمان أزمات وحروب، فالأرض التي تفتح ويأخذها المسلمون، يكون جزء منها ملكًا للدولة، وجزء منها غنائم للمشاركين في المعركة، إذ لم تكن في ذلك الوقت رواتب ثابتة للقوات المسلحة، فإن كانت هناك حرب فهناك راتب، وإن لم تكن هناك حرب فلا راتب، وعندما تحصل حرب يذهب كل شخص بإمكانياته الذاتية وسلاحه الشخصي ويقاتل، وعندما ينتصرون في المعركة ويحصلون على غنائم توزع بينهم، أما الأراضي التي تفتح بالقتال، فيكون جزء منها للمقاتلين وجزء للدولة، أما الأراضي التي تفتح بلا قتال، فهذه تسمى صوافي الإسلام، أي هي مملوكة للحاكم يصرفها في المصالح العامة، ولا توزع كغنيمة بين المقاتلين، لذلك يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إنّ لهؤلاء الفقراء حصة في الموازنة العامة، ولهم حصة أيضًا بنتاج هذه الأراضي، بهذا الزرع الذي هو خاص بالدولة، وملك لها، فيعدّون من المصالح العامة التي يجب أن يُنفق عليها، فيستحقون قسمًا من غلات صوافي الإسلام من الأراضي المفتوحة بلا حرب.

ثم يبيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّ جميع أفراد هذه الطبقة ينبغي أن يكونوا متساوين في هذا العطاء، من غير تمييز بينهم، إذ يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلأَدْنَى)، يا مالك، ليس الفقير هو من تعرفه فقط، من جيرانك أو أقاربك أو ابن الحاج فلان، بل الفقير من تعرفه أنت، أو يعرفه شخص من معارفك ويخبرك بحاله، وكذلك الذي لا تعرفه أنت ولا أحد من معارفك، ولم يطرق بابك، إذ يجب أن يكون القريب والبعيد على حد سواء؛ القريب الذي لديه واسطة، والبعيد الذي ليست لديه واسطة، القريب الذي يعيش في مدينتك، والبعيد الذي يعيش في القرى والأرياف بعيدًا عن عينك، فالفقير يجب أن يُرعى في جميع الحالات، القريب والبعيد، القاصي والداني، الذي لديه واسطة ومن ليست لديه.

(وَكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ)، كل هؤلاء تجب عليك رعاية حقهم والاهتمام بهم.

ثم يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الحاكم بأن لا يشغله عن هذه الطبقة شاغل، إذ يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ)، لا يُلهينّك عنهم الحكم والكرسي، ولا تنشغل عنهم بوضعك الخاص، فلا عذر لك في ذلك، ولا يكن جوابك لو سئلت عن سبب إهمالك لهم، أنك لم تكن تدري أين هم، أو أنك لم تعرفهم، فإنّ واجبك أن تبحث عنهم؛ أن تتفقد الأحياء الفقيرة، وترسل أجهزتك لتبحث عنهم وتزودك بالمعلومات الكاملة بشأن

أوضاعهم، فالبطر والانشغال بحياتك الخاصة والجلوس في المكاتب، لا تعفيك من عدم رعاية هؤلاء الفقراء والمساكين.

(فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ التَّافِهَ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ)، لا يشفع لك أن تعتذر وتقول: أنا بأي حال؛ انظروا إلى حال العراق، انظروا إلى الإرهاب، انظروا إلى المؤامرات، انظروا بماذا نحن مشغولون، فلدينا مشاغل كبرى، وأمور مهمة وأولويات، ونحن حائرون بالتخطيط لقضايا خطيرة، ولسنا متفرغين الآن للنظر في حال الفقير هل تناول طعام العشاء أو لم يتناوله، فهذه أمور بسيطة، ولا أملك الوقت الكافي للاهتمام بها، فأنا المسؤول يجب أن أفكر بالقضايا الاستراتيجية، كلا؛ فلا انشغالك بنفسك يعذرك، ولا انشغالك بالقضايا الحساسة والخطيرة يعذرك، حين تترك الاهتمام بالفقراء.

انظروا كيف يولي الإسلام الجانب الاجتماعيّ اهتمامًا كبيرا، فإن كنت - أيها المسؤول - مشغولًا، فشكّل لجنة، أو عيّن فريقًا يذهب ويبحث عن الفقراء في الدولة، إذن لا عذر لك، ويجب أن ترعى الفقراء، ولا تعتبرها قضية بسيطة، فالإنسان المقعد الحائر بلقمته ليس من الأمور البسيطة، ويجب أن يأخذ حيزًا مهمًا من حرصك واهتمامك ومتابعتك، ويجب أن لا تقصر في حقهم.

الاضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

رعاية طبقة الفقراء

رعاية هذه الطبقة والاهتمام بها، ليس أمرًا هينًا وشيئًا بسيطًا، وينبغي أن لا يكون هناك أي فقير في المجتمع لا تفتح له الدولة حسابًا، ونحن نتكلم هنا عن وظيفة الدولة، أما وظيفة المحسنين وأهل الخير، فهذا بحث آخر بحثناه في موضعه الخاص؛ ضمن مبدأ الأخوّة الإيمانية، ومبدأ التضامن الاجتماعيّ، ومن لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ويجب على كل مسلم أن يعرف حال جيرانه إلى أربعين دارًا حوله؛ أهم محتاجون أم لا؟ فلعل فيهم محتاجا ولا نعرفه، فلا يجوز لمسلم أن ينام مملوء البطن وجاره جائع، هذا الكلام كله موجود، أما كلامنا الآن فهو في وظيفة الدولة، فهي مسؤولة عن هؤلاء.

وقد صنف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الطبقة إلى أربعة أصناف:

الصنف الأول: المساكين: هم من كانوا تحت خط الفقر، فهذا المسكين حائر بنفسه، لا يستقر ولا يهدأ له بال؛ حائر كيف يدفع الإيجار؟، وكيف يعالج أولاده المرضى؟، وكيف يطعمهم؟، وكيف يلبسهم؟، وكيف يؤمن دراستهم؟.. وهناك من هؤلاء من تجتمع عليه جميع هذه المشاكل، كالفقير الذي لا يملك شيئًا وعنده أربعة أولاد جميعهم مرضى ومن ذوي العاهات، ويعيش في دار مستأجرة، وقد صُبّ عليه البلاء صبًّا، لا يدري من أين يأتيه ويحل بساحته، فالمسكين هو هذا الشخص الغارق في الهموم والمشاكل.

الصنف الثاني: المحتاجون: هم أقل من المساكين، إذ تكون لديهم حاجة لشيء ما، ولكنهم يملكون القوت وما يسد رمقهم، كأن يكون لدى أحدهم راتب، أو عنده ما يدرّ عليه دخلًا محدودًا، ولكن قد يكون عليه دَين، أو لديه مريض يحتاج إلى مبلغ للعلاج، أو توفي أحد أفراد عائلته ويحتاج إلى مبلغ لإقامة مراسم الدفن والفاتحة، أو أمر من هذا القبيل خارج الميزانية، إذن المحتاج هو من كانت لديه حاجة في قضية ما ولا يقدر عليها، ومثل هؤلاء ينبغي على الدولة مساعدتهم.

الصنف الثالث: أهل البؤس والمنكوبون: الإنسان ليس منكوبًا دائمًا، وإنما هي حالة طارئة لم يستعد لها الناس تحدث فجأة، كحريق يلتهم دورهم، أو سيل يغرقهم، أو زلزال يهدم دورهم، فيُنكب عدد من الناس، وتكون هناك صعوبات جمة في إعادة حياتهم إلى طبيعتها.

الصنف الرابع: الزمنى: ويشمل ذوي العاهات، وذوي الأمراض المزمنة، وذوي المشاكل المستعصية، والمعاقين وكبار السن، وهؤلاء لا يقدرون على إدارة شؤونهم.

يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا إلى وجوب توفير الرعاية لهذه الطبقة، ويجب أن تكون الرعاية رعاية لشؤونهم المادية والمعنوية، وأن هذا حق من حقوق الله (سبحانه وتعالى)، فهو الذي جعل لهم هذا الحق، والوفاء بحق الله أن تخدم هؤلاء الفقراء والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى، إذ يقول:

(وَاحْفَظِ لِلَّهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ)، الله (سبحانه وتعالى) ليس بحاجة لهم، بل هي مشيئة الله (سبحانه وتعالى) وحكمته البالغة أن تكون الرعاية لهذه الشريحة المنكوبة، وإسلاميًا يتمتع أبناء المجتمع بحقوق المواطنة المتكافئة، ولا ينبغي التفريق بين شاب وشيخ، فنهتم بالأول دون الثاني، لأنّ الأول له قوة على العمل والخدمة، فهذا غير صحيح، لأنّ هذا الشيخ كان شابًا في يوم من الأيام، وقد أدّى ما عليه اتجاه المجتمع، فلا يجوز أن يُنظر إليه على أنه عالة على المجتمع، وهذا منطق غير مسموح به وغير

مقبول، فجميع المواطنين في المجتمع لهم حقوق متكافئة، وهذا الإنسان الذي وصل به العمر إلى أرذله قد حلّ به ضيم، وفقر، ومرض، وحصلت له عاهة، وقد وصل إلى سن الشيخوخة وفقد قدراته، فلا تسقط منه حقوق المواطنة، ويجب مراعاة هؤلاء والاهتمام بهم في جميع الأحوال، وهذا الفقير، وهذا المنكوب، وهذا المعاق، وهذا الشيخ، له حق الحياة كأي شخص آخر، وله حق الكرامة، إذ ترون أحيانا أن هؤلاء الفقراء يُتعامل معهم تعاملا مهينا، ويُتكلم معهم بخشونة، لأنهم لا يملكون أموالًا، ويُستهزأ بهم ويُسخر منهم، بينما هؤلاء لهم حق أي إنسان في المجتمع؛ حق الكرامة، وحق الحياة، وحق الحرية، وحق الثقافة والتعليم.

وقد يقال إنّ هؤلاء لا يسمعون أو لا يبصرون، إذ فقدوا نعمة السمع أو البصر، فيكون تعليمهم أصعب، فلماذا نبذل جهدًا في تدريسهم وتعليمهم؟ وإذا كان هؤلاء لا يسمعون ولا ينطقون فما فائدة تعليمهم؟ كلا، ليس الأمر كذلك، فهذا له حق التعليم كغيره، حتى لو كلف تعليمه عشرة أضعاف تعليم الآخرين، وواجب الدولة أن تعلمهم، فهؤلاء بشر يجب أن تتوفر لهم كامل الحقوق الطبيعية، من الرفاه، والحياة الكريمة، والمشاركة السياسيّة، ولكن من متناقضات المواقف أن تحرص الحكومة على توفير الصناديق الجوالة في أيام الانتخابات للمقعدين وكبار السن، أو إرسال سيارات الإسعاف إلى أبواب دورهم، لتأخذهم للإدلاء بأصواتهم في أماكن الاقتراع ومن ثم ترجعهم إلى دورهم، ومع ذلك، لا يحق لهؤلاء الترشيح في الانتخابات، لأن من شروط الترشيح أن يكون سليمًا، أما من يمشي متكئًا على العكازة فلا يجوز له الدخول إلى مجلس النواب!.

يجب أن تُعطى حقوق المواطن كاملة؛ في الحريات، والثقافة والتعليم، وفي كل شيء، هكذا ينظر الإسلام إلى هذه الشريحة، فلا يجوز تحقيرهم وإهانتهم وتجاهلهم والاستخفاف بهم والتقليل من شأنهم، ولا يجوز أن يُفعل بهم هذا بسبب فقرهم، وعاهاتهم، فهؤلاء جزء من واقع المجتمع ويجب الاهتمام بهم ورعايتهم، وهذا يمثل الرؤية الراقية للمنهج الاجتماعيّ في الإسلام، في كيفية رعاية هذه الطبقة الاجتماعيّة.

الإضاءة الثانية

شمول حق الرعاية للجميع

حـق الرعايـة يشـمل الجميع، بمن فيهم شـريحة الفقـراء والطبقة السـفلى من دون اسـتثناء، (فَـإِنَّ فِي هَـذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعـاً وَمُعْتَرّاً)، يجب رعاية من يطلـب ومن لا يطلب، (فَـإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْـلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى)، الذي يعيش أمام عينك مثل الذي يعيش خارج المدينة، سواسية في الحقوق والواجبات، وكذا الذي يعيش في قرية نائية مثل من يعيش فـي العاصمـة على مستوى الحقـوق والواجبات، وكذلـك من تعرفه أو ولديه واسـطة متسـاو في الحقوق والواجبات مع الذي ليسـت لديه واسـطة، إذن فهذه الشمولية تشمل ثلاث حالات، أولا: تشمل من يطلب ومن لا يطلب، وثانيًا: تشمل من لديه علاقة مع المسؤول أو واسطة، ومن ليس كذلك، وثالثًا: تشمل القريب جغرافيًا في نفس المدينة، والمقيم في مناطق نائية وبعيدة، فالجميع مشـمولون بهذه الرعاية، ويجب أن تتوفر لهم بشكل مناسب ولائق.

ورد في (وسـائل الشـيعة) عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ، قال: «إنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ، بعـث إلى رجل بخمسـة أوسـاق من تمر البغيبغة»، وهو نـوع من أنواع التمر، ويقال إن هذه الكمية تعادل سـتمائة وخمسـين غراما من التمر، «وكان الرجل ممن يرجو نوافله، ويؤمل نائله ورفده»، كان هذا الرجل من أهل الخير، يوزع ويعطي، وكان الناس يأملون منه أن يساعدهم، ولم يكن فقيرًا وحائرًا بنفسه، «وكان لا يسأل عليًا عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ ولا غيره شـيئًا»، فقد كان هو الذي يسـاعد الناس، وربما رأيتم فقيرًا عندما يأتيه ضيوف لا يحب أن يظهر أمامهم بمظهر الفقر، فيقترض ويشتري ألوان الطعام ويضعه أمام ضيوفه، كمـا في قوله تعالى: ﴿يَحْسَـبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِـنَ التَّعَفُّفِ﴾[٨٢]، وكان هذا الرجل من هـذا النـوع، فقد كان فقيرًا، ولكنه كان يتباهى بالنعمة ويسـاعد الآخرين، والذي يطرق بابه لا يرجع خاليًا.

«فقـال رجل لأميـر المؤمنين»، عندما رأى رجلٌ ما يفعلـه أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ من إرسـاله مقدارا من التمر إلى هذا الرجل الذي لم يسـأله ولم يطلب منه: «والله ما سـألك فلان»، أعط للطالبين منك، وهذا لم يسـألك، «ولقد كان يجزيه من الخمسـة أوسـاق وسق واحد»، إن كنت تريد إعطاءه فأعطه وسقًا واحدًا لا خمسة أوساق.

---

٨٢. سورة البقرة: الآية ٢٧٣.

«فقال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: لا كثر الله في المسلمين ضربك»، جملة فيها توبيخ لهذا المعترض المنّاع للخير، «أعطي أنا وتبخل أنت؟!»، استفهام استنكاري لهذا المعترض الذي لم يبخل بماله بل بخل بمال غيره؛ هل أعطيتُه من مالك لكي تعترض عليّ وتريد منعي؟ هل سألتك المشورة؟ لا علاقة لك بهذا الأمر، فلماذا تمنع الخير عن الآخرين؟ وهذه سمة سلبية جدًا وصفة ذميمة أخلاقيًا موجودة عند البعض؛ فلا هو ممن يُرجى خيره، ولا يدع الخير يصل إلى الناس، فإن رأيت شخصًا يريد أن يقدم الخير للناس فلا تعترضه وتشوش عقله، ولا تبادر من غير أن يستنطقك بالقول: إن هذا غني ولديه ما يكفيه، ولا يخدعنّك بما يتظاهر به من المسكنة، فما شأنك بهذا؟ ولماذا تغلق باب المعروف؟ وهل سألك أحد رأيك؟ ولماذا تشتري ما يحاسبك به الله سبحانه غدًا من غير نفع فيه لنفسك أو لغيرك؟ أم تحسب أنك بقولك هذا تقدم نصيحة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من غير أن يطلبها، وكأنك أعلم بسبل المعروف منه؟ أكان ما أجابك به - مما تستحقه - خير لك؟ وهل تعرف أحدًا غيره كان مستحقًا، وطلبت من أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يساعده فلم يفعل؟ ولو كان هذا العطاء لك، فهل كنت ستعترض أيضا؟.. فلا كثّر الله أمثالك بين المسلمين، الذين لا يفعلون الخير، ولا يدعون غيرهم يفعله، وما أكثر هؤلاء في أيامنا هذه، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

«لله أنت، إذا أنا لم أعطِ من يرجوني إلاّ بعد المسألة»، أنا أدري من يحتاج وكم يحتاج، فلماذا أنتظره ليطرق بابي ويريق ماء وجهه، ولا أبادر إلى سدّ حاجته قبل السؤال؟ ألا يجب عليّ أن أعطي من أعرف أنه محتاج قبل السؤال؟ وهذه ثقافة علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في العطاء، فهو لا ينتظر المحتاج أن يأتي ويريق ماء وجهه ويطلب حاجته، بل كان يبادر بالعطاء قبل السؤال لمن يعرف أنه محتاج، فلعل هناك علة تمنعه من السؤال، أو يرى في السؤال ذلًا، أو يمنعه الحياء من ذلك، أو كان متعففًا لا يظهر لأحد حاجته، «لله أنت، إذا أنا لم أعطِ الذي يرجوني إلاّ بعد المسألة، ثم أعطيته بعد المسألة، فلم أعطه إلاّ ثمن ما أخذت منه، وذلك لأني عرّضته أن يبذل لي وجهه، الذي يعفره في التراب لربي وربه عند تعبده له»[٨٣]..

ما هذا المنطق الذي لم يسبقه إليه سابق، ولم يلحقه لاحق إلاّ من تعلّم منه؟، وانظر إلى فلسفته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في العطاء، ثم ارجع النظر كرّة أخرى، هل ترى لها من نظير؟ لقد لُمنا الرجل

---

٨٣. وسائل الشيعة ٩: ٥٥٤ ح١.

على اعتراضه، ولعل إرادة إلهية أنطقته لكي نتعرف على عظمة علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى فلسفته هذه، ولولا سؤاله هذا لكنا من الغافلين عن سرّ أعماله، وبواطن أفعاله، وخلوص نواياه.

هذا الإنسان الذي يعفر وجهه في التراب لخالقه، حينما يسجد لله (سبحانه وتعالى)، هل تريد من علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ينتظر مثل هذا الإنسان المحتاج أن يأتي إلى بابه، ويريق ماء وجهه الذي عفره بالتراب لربه، ليعطيه شيئًا؟ ولعل هذا هو السرّ أيضًا في أنّ الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانوا يخفون وجوههم عن السائل وراء الباب عندما يعطونه شيئًا، لئلا يروا ذل السؤال في وجهه، وإذا كان علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يعطي محتاجًا إلاّ بعد السؤال، فإنه لم يفعل شيئًا حقيقة، ولا ينتظر ثوابًا من خالقه ورازقه؛ لأنّ ما أعطاه للسائل كان ثمنًا لماء وجهه الذي أراقه بالسؤال، والذي يجب أن لا يراق إلاّ بين يدَي الله (سبحانه وتعالى) حين يسجد له، وماذا سيقول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لربه عندما يقف بين يديه في الصلاة ذليلًا خاشعًا، وقد أذل قبل سويعة عبدًا من عباد الله (سبحانه وتعالى) حينما عرّضه لبذل ماء وجهه من أجل خمسة أوساق من التمر؟ هذا هو منطق أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، إمام الانسانية، هذا هو المنطق الإسلاميّ.

علينا أن نتعلّم من علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا نضطر صاحب الحاجة إلى أن يطلب ويريق ماء وجهه، بل علينا أن نقدم له ما نقدر عليه في حل مشكلته قبل أن يطلب، فنحفظ له عزته وكرامته، وعندما نريد أن نعطي لا ننظر في وجهه.

إننا لا نتكلم هنا عن المتسولين الذين اتخذوا السؤال مهنة، فهناك أناس يتسولون مقابل أجر معيّن، إذ تقوم المافيات والعصابات بإيوائهم ليلًا وتوزيعهم في الصباح في الأماكن التي تدرّ أرباحًا أكبر، فهؤلاء مهنتهم التسول وكلامنا لا علاقة له بهم، وإذا عرفنا من كانت هذه مهنته فلا يسوغ لنا أن نعطيه شيئًا، لأنّ هذه ليست صدقة، فالصدقة للفقير، وهؤلاء ليسوا فقراء، بل أُجراء يتقاضون راتبًا، ويقفون هنا أو هناك، ثم يسلّمون جميع ما يحصلون عليه من الأموال إلى العصابة التي توظفهم، ونحن نتكلم هنا عن الفقير، عن صاحب الحاجة.

إذا عرفت صاحب حاجة وكنت قادرًا على مساعدته بشيء، فساعده قبل أن يظهر لك حاجته، ولا تنظر في وجهه، بل أرسل له المساعدة بيد شخص آخر، أو ضعها في ظرف وأعطه إياه، لكي تجنبه الخجل، ومن غير أن يعرف أحد، وليكن عملك هذا خالصًا لله سبحانه، وعليك أن تنسى ذلك أيضًا، وامسح من ذاكرتك كل ما تفعله من معروف للآخرين، واكتفِ بأنها تسجل عند رب العالمين، ولا تذكرها فإنّ الله يذكرها، وانسها فإنّ الله لا ينساها، هناك شيطان يوسوس لك لتخبر الآخرين بأنك فعلت المعروف الفلاني، أو أنك صليت صلاة الليل، فعلينا تعلّم ثقافة تناسي هذه الأشياء، فأي فعل خير نقوم به نحاول أن ننساه، لئلا يشوبه الرياء.

الإضاءة الثالثة

التخطيط

التخطيط هو وضع الخطط المناسـبة، العادلة، الشـاملة، الفاعلة، لكي لا يؤول ما نريد عملـه إلـى النسـيان أو الإهمال أو الضيـاع أو الغفلة، ونحن بحاجة إلـى خطة فاعلة توصل المسـاعدات إلـى هؤلاء بصورة مسـتمرة، فلا بُدَّ من التخطيط، لأننـا أمام فقراء بلد كامل، فنحتـاج إلـى إحصائهم، ومعرفـة حوائجهم، ومناطـق تمركزهم، وتحديـد طرق توصيل المساعدات إليهم، ومعايير تمييز الفقير من غيره، وما أكثر الفقراء الذين لا يظهرون فقرهم، وما أكثر غير الفقراء الذين يتظاهرون بالفقر ويطلبون المساعدة، ومثال ذلك مؤسسة الرعاية الاجتماعيّة التي تحذف أسـماء كثير من المسـجلين غير المستحقين بعد كل عملية تفتيش، الذين ينافسون الفقراء ويقطعون عنهم أرزاقهم.

إن هـذا كلـه يحتاج إلى تخطيط، لكي نتمكن مـن الوصول إلى جميع الفقراء ونقدم لهم الرعاية المطلوبة، ولا يمكن تحقيق هذا الهدف بترك الأمور لردود الفعل، فننتظر الفقير إلى أن يطرق أبوابنا، أو ننتظره إلى أن يقدّم طلبًا للمساعدة، أو ننتظره إلى أن يصل إلى المسؤول ويطلـب منـه العون، وكم من فقير من أهل الكرامة والإبـاء لا يفعل ذلك ولو نام طاويًا ومن يعول، وكم من فقير قد قعدت به حاجته وسلبته لبّه ولا يعرف أي باب يطرق، وكم من فقراء طرقـوا أبـواب من كانوا يظنون بهم خيرًا فرجعوا خائبيـن، وهؤلاء الفقراء عندما يطلبون من الدولـة حوائجهـم، فإنهم لا يطلبون إلاّ حقهم، وليسـت هذه منّة من هذا المسـؤول أو ذاك يتصدّق بها على من يشاء، فلماذا هذا الإهمال والتضييع لهذه الطبقة الساحقة في المجتمع؟ ولمـاذا لا توضـع الخطـط الكفيلة بالقضاء على هـذا المارد الذي يهدد حياة الشـعب بألوان النتائج السلبية التي تفوق حدّ الحصر؟.

لمـاذا هذا التهـاون والتغافل عن هذا الجيـش الجرار الذي أخذ يجوب الشـوارع مطالبًا بحقـه بالحيـاة، والدولة تقف مكتوفة الأيدي لا تسـتطيع حيلة ولا تهتدي سـبيلًا؟ فأين هي إنسانية الدولة؟ وإين هي مسؤولياتها تجاه هؤلاء؟ تجب المبادرة فورًا لمعالجة هذه المعضلة الجسيمة، وإلاّ وصلت الأمور إلى نتائج لا تحمد عقباها، ولات حين مندم.

(وَاحْفَظِ لِلَّهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكِ)، هذا دليل على وجوب إيجاد خطط وتخصيصات وسـياق عمل، وقوائم ولوائح، ومعايير تشـخص هؤلاء الفقراء، والتواصل معهم، وحل مشكلاتهم.

الإضاءة الرابعة

إبطال أعذار المسؤولين في إعراضهم عن الفقراء

يقــول أميــر المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ : (فَلاَ يَشْـغَلنّكَ عَنْهُمْ بَطَـرٌ فَإِنَّكَ لاَ تُعْـذَرُ بتضييعكَ التّافِهَ لإِحْكَامِـكَ الْكَثِيـرَ الْمُهِـمّ) ، لا يكن البطر مانعًا لك أيها الحاكـم من تفقد طبقة الفقراء ، ولا تختلق الأعذار والمبررات في تجاهلهم ؛ فلا الأعذار الشـخصية كالبطر بانشـغالك بنفسـك وعائلتك وسـياراتك وحياتك وأموالك ، تصـح أن تكون عذرًا لك في تجاهل رعاية الفقراء والمسـاكين والطبقـة المسـحوقة ، وكذا لا يصـح لك التـذرع بذرائع عامـة لتجاهل رعاية الفقراء ، ولا يجدي قولك أنا مسـؤول ولديّ من الأعمال الأهم ما يشـغلني عن هذا الأمر ، فهل يجوز لي أن أترك اجتماعات مجلس الوزراء ومتابعة شؤون الوزارة أو الإدارة ، وأنشغل بهذا وذاك هل تناول العشـاء أو لا ؟ إنّ جدول أعمالي مليء بالاجتماعات ووضع السياسـات ومتابعة تنفيذها ، واللقاء مع القادة والمسـؤولين لتداول شؤون البلد السياسيّة ، وأنا في حال لا تسمح بالتفكير بهذا وذاك .

لا تسـلك مسـلكًا تبرر فيه تجاهلك لهذه الطبقة المسـحوقة ، التي يعدّ الاهتمام بها فوق جميع ما ذكرت ، ولا يجوز اعتبار هؤلاء قضية بسيطة وسهلة ، وخاصة بعد أن باتوا يهددون عروشـكم ، وإن كنت لا تسـتطيع واقعًا أن تتابع بنفسك ، فكلّف لجانًا وعيّن أناسًا تتابع هذه الأمور وترعى هذه الشريحة ، فهذا أمر مُلّح ولا بُدَّ من أن يتم على جميع الأحوال .

المحور الثاني

ضرورة تأسيس دائرة للرعاية الاجتماعيّة

الحديث في المحور الثاني عن ضرورة تأسيس جهاز إداريّ يُعنى برعاية طبقة الفقراء والمسحوقين، بكل أصنافها وشرائحها، إذ يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الشأن:

(فَلاَ تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ)، لا تصرف اهتمامك عن رعاية هذه الطبقة المسحوقة، الطبقة السفلى في المجتمع، الفقراء والمساكين والضعفاء، وركز اهتمامك دائمًا على متابعة شؤونهم ورعايتهم، وحل مشكلاتهم، ولا تغفل عنهم، ولا تعرض بوجهك عنهم.

(وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ)، ولا تتكبر عليهم، واخفض لهم الجناح، لأن كون هذا صاحب حاجة لا يعني أنك أحسن منه، لأنه احتاج إليك في أزمة، في مشكلة، في إعاقة، في نكبة، فلا تجعله يشعر بأنك تتكبر عليه.

(وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لاَ يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ)، ولا تقصُر اهتمامك على من يستطيع الوصول إليك، بل اهتم أيضًا بأولئك الذين لا يستطيعون الوصول إليك، (مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ)، ربما رأيتم - أجارنا الله جميعًا - مريضًا بالجذام، أو بأحد الأمراض الجلدية الحساسة، فعندما تراهم الناس تشمئز منهم، وتنظر إليهم باحتقار وازدراء؛ فشيخ كبير حائر بنفسه، عجوز مقعدة، مريض بحروق شوهت شكله، تشوه خلقي معين، فقير بائس في الشارع يمسك قطعة قماش ويمسح السيارات، مثل هؤلاء المحتاجين ينظر الناس إليهم بازدراء واحتقار، فكيف يدخل هؤلاء إلى قصرك ويصلون إليك؟ فهؤلاء يجب أن تهتم بهم أيضًا وتصل إليهم وترعاهم.

(وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ)، يحتقره الناس ويقللون من قيمته، إذ يعاقبونه على فقره، ومرضه، وإعاقته، ويسخرون منه، ويمثلون حركاته، فبعض الناس يجعل السخرية من الآخرين والضحك على جراحهم فرصة للاستجمام والراحة، فحتى أولئك يجب أن تصل إليهم

يـا مالـك ، وترعاهم وتهتم بهم ، فإن كانوا لا يقدرون على أن يصلوا إليك ، فأنت يجب أن تصل إليهم .

(فَفَرِّغْ لأولئِكَ) ، أي انتدب شخصًا أو فريقًا خاصًا يُعنى بهؤلاء ، ليعمل مسحًا عنهم ، ويدخل جميع البيانات الخاصة بهم في قوائم الرعاية الاجتماعيّة ، فمهمة هذا الفريق هي ضمان حصول هؤلاء على الدعم المطلوب .

(فَفَرِّغْ لأولئِكَ ثِقَتَكَ) ، اختر مسـؤولين عن هذا الملف الحسـاس من أهل الثقة ، ولا تكلـف أي شـخص بهـذه المهمة ، (مِنْ أَهْلِ الْخَشْـيَةِ) ، من أهل مخافـة الله ، لكي يهتم بهـؤلاء ويرعاهـم ، (وَالتَّوَاضُع) ، ويكون متواضعًا لهم ، فالإنسـان الذي لم يعمل على تربية نفسه ، عندما يرى نفسه أقدر من الآخر ماليًا أو جسديًا ، فسوف يتكبر عليه ، فيجب أن تختار – يا مالك – شخصًا متواضعًا ، لكي يقدم الخدمة المطلوبة لهم بتواضع واحترام وتقدير وكرامة .

(فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُم) ، ليزودك بالمعلومات الضرورية عن أوضاعهم ومشكلاتهم ، لتتخذ القرارات الكفيلة بتوفير المساعدة والدعم لهم .

(ثمَّ اعمَلْ فيهِم بَالإعْذَارِ إِلَى اللهِ تَعَالَى يَوْمَ تَلْقَاهُ) ، يجب عليك أن تسـتفرغ وسـعك ببذل أقصى جهدك ، وتعمل على النحو الذي يبرئ ذمتك أمام الله تبارك وتعالى فيعذرك يـوم تلقـاه ، وأن تحرص على أن يكـون ضميرك مرتاحًا أمام الله تعالى ، ولا يتحقق ذلك إلاّ إذا تعاملت معهم بطريقة إنسـانية ، وقدمت لهم خدمة كاملة لا يكونون معها في عوز وحاجـة ، لتلقى الله (سـبحانه وتعالى) يوم القيامة بوجه أبيـض لا تعلوه غبرة بما عملت لهؤلاء الفقراء .

(فَإِنَّ هؤُلاَءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الإنصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ) ، إنّ هذه الطبقة هي الأكثر حاجـة من غيرها من طبقـات المجتمع للإنصاف والاهتمـام والرعاية . ولكن الذي نراه منك أيها المسـؤول على عكس ذلك ، فها أنت تبذل وسـعك في خدمة أصحاب الأموال والمناصب ، أما هذا الفقير فهو محرّم عليه أن يصل إليك ويشـكو حاجته ، فليس لهؤلاء الفقراء أحد سوى الله العزيز الجبار المنتقم ، مع أنّهم أحق بالرعاية والإنصاف والاهتمام في منهج علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ .

(وَكُلٌّ فَأَعْـذِرْ إِلَـى اللهِ تَعَالَـى فِـي تَأْدِيَـةِ حَقِّـهِ إِلَيـهِ) ، يجب عليك – يـا مالك – أن تحـرص على حصول جميع الشـرائح علـى حقوقها ، لتكون معذورًا أمام الله (سـبحانه وتعالى) ، فجميع العناوين التي استعرضناها سابقًا ؛ من المساكين ، والفقراء ، والزمنى ، والمنكوبين ، والبؤساء ، جميع هؤلاء يجب أن تتعامل معهم بما يبرئ ذمتك يوم القيامة ،

حينمـا تقـف للمسـاءلة أمام الله (سـبحانه وتعالى)، فيجب عليك أن تـؤدي حق الله في رعاية هذه الطبقة المسـحوقة بجميع شـرائحها، بما يعذرك أمامه (سبحانه وتعالى) حين يـرى أنك قد أديت حقـه فيهم جميعا؛ مرضاهم، وكبارهـم، وصغارهم، وعجزتهم، وأيتامهم، ومعاقيهم.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

الإضاءة الأولى

شمولية الاهتمام

يجب على الحاكم الأعلى الاهتمام بجميع هذه الشرائح من الطبقة المسحوقة، وإياك - أيها الحاكم - أن تهتم ببعضهم دون البعض الآخر، فتقول مثلًا: أنا أرعى الفقراء، ولكني لا أستطيع الاقتراب من هؤلاء المرضى، أو الأيتام، فإن هؤلاء شرائح مختلفة: المساكين، الفقراء، المحتاجون، البؤسـاء، الزمنى، أصحـاب العاهات والعوق والأمراض المزمنة، كبار السـن، المنكوبون، جميع هذه الشـرائح يجب أن تكون محط اهتمام، ولا يجوز أن تهتم ببعضهم وتترك البعض الآخر، والانشـغالات الحكومية والاهتمام بالقضايا الكبيرة، يجب أن لا تنسيك الاهتمام بهذه الشريحة، ولا تتذرع بكثرة الانشغالات، والاجتماعات، كاجتماعـات مجلـس الوزراء، واجتماعات أعضاء مكافحة الفسـاد، واجتماعات مجلس الأمن الوطني، ونحن لا نريد منك أن تترك هذه الاجتماعات وتنشغل بالحاج فلان والحاجة فلانة، ولكن نريد منك أن تضع أناسًـا ثقات متواضعين يخافون الله، ليتابعوا شـؤون هؤلاء الفقراء، ويرفعون لك تقارير تفصيلية بأوضاعهم، وأن تتابعهم؛ ماذا عملوا؟ هل استطاعوا حل مشـكلاتهم؟ هل حصل جميع هؤلاء على رواتب؟ هل حصل مريضهم على العلاج؟ فيجـب أن يكون الاهتمام بالضعفاء والطبقة المسـحوقة أولوية للحكومات، كما هو الأمن القومي والاقتصاد والكهرباء والأشـياء الأخرى، فهذه أولوية أساسـية أيضًا يجب أن تُلحظ وتؤخذ بنظر الاعتبار.

(فَلاَ تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ)، الاهتمام بهؤلاء وشمول رعايتك لهم جميعًا، أولوية قصوى، وقد ورد في كتاب فروع الكافي عن رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ، يخاطب الله سبحانه تعالى: «اللهم بارك لنا في الخبز»، يطلب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ،

من الله تبارك وتعالى زيادة في الرزق، «اللهم بارك لنا في الخبز، فإنه لولا الخبز ما صلّينا، ولا صمنا، ولا أدينا فرائض ربنا»[٨٤].

الإنسان الطبيعي، يحتاج إلى ملبس يلبسه، وبيت يسكن فيه، وأموال يشتري بها علاجا إذا مرض هو أو أحد أفراد عائلته لا سمح الله، لكي يصلي ويصوم، لذلك قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كاد الفقر أن يكون كفرا»[٨٥]، ولكننا مع ذلك نسمع من يقول إنّ المال (وسخ دنيا)، بينما يصرخ الفقير فينا: تكاد عائلتي تموت من الجوع، أو زوجتي مريضة، أو ليس لدي بيت أسكن فيه، فكيف أستطيع أن أتجاهل هذه الأمور؟ فإذا كان أولادي يتضورون جوعًا أمامي، فهل أستطيع أن أفكر بالعلم والثقافة؟ فمن أراد الكمال فعليه أن يعالج أولًا هذه الأمور الضرورية، وإذا كان الإنسان السويّ يحتاج إلى هذه الضروريات، فكيف بذوي العاهات والمرضى والمنكوبين والبؤساء؟ فمن المؤكد أنّ حاجتهم لهذه الأمور تكون أكثر، لذلك تتحمل الحكومة مسؤولية تجاه هذه الطبقة؛ تجاه المسحوقين والطبقة السفلى في المجتمع، وعليها إحصاؤهم ومعرفة مشكلاتهم ورعايتهم؛ رعاية مادية، ورعاية معنوية، ورعاية نفسية، ورعاية ثقافية، ورعاية تعليمية، وفي جميع أمورهم.

قد يقول قائل: أين يمكن أن نحصل على عمل لهذا المعاق، في حين أن السالم لم يحصل على عمل؟ يعني أنّ المعاق درجة ثانية في سوق المنافسة، وهنا من حقه الاعتراض: لماذا تجعلني درجة ثانية فوق العوق الذي عندي؟ بل حالي كحال السليم، وكما أنّ الحكومة تخطط كيف تشغّل الشباب صحيحي البدن، كذلك يجب أن تخطط كيف تشغّل ذوي الإعاقة.

(وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لاَ يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ، مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ)، يجب عليك أيها الحاكم أن تصل إلى هؤلاء الفقراء وتحصيهم، وتخدمهم، وترعاهم، وتحل مشكلاتهم.

---

٨٤. الكافي ٥: ٧٣ ح١٣.

٨٥. الكافي ٢: ٣٠٧ ح٤.

الإضاءة الثانية

التخطيط لاستيعاب جميع الفقراء

من أجل تحقيق هذه الرعاية، وبعد الأخذ بنظر الاعتبار أنّ أعداد هذه الطبقة ليست قليلة، وليسوا فقط داخل المدينة مهما كانت هذه المدينة صغيرة، بل هم في كل مكان؛ في المدن والأرياف والأماكن النائية، وتحتاج أيها الحاكم إلى وضع النظم والخطط المطلوبة لرعاية هؤلاء، فالدول تعمل على وضع خطة سنوية وخطة خمسية وخطة عشرية، وخطة لخمسين سنة، في الأمن والاقتصاد... وغيرها، ويجب وضع خطة شاملة للرعاية الاجتماعيّة؛ من أجل رعاية الأرامل والأيتام والمرضى والمنكوبين والنازحين.. إلى آخره، كل هؤلاء يجب وضع الخطة المناسبة والموازنات الكافية لرعايتهم، وفي العراق مثلًا، الذي دخل حروبًا استغرقت خمسين سنة، كم يوجد من المعاقين والأيتام والأرامل ومن ليس لهم معيل؟ وكم فيه من مدن مهدمة؟ فنحتاج إلى وضع موازنات وتخصيصات كافية لمعالجة هذه الأمور.

(فَفَرِّغْ لأولئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُم)، نحتاج إلى جهاز إداريّ كفوء وفاعل بحجم المسؤولية، يكون قادرًا على استيعاب هؤلاء وتنظيم أمورهم ورعايتهم، ويجب أن تتوفر ثلاثة شروط في الفريق الذي يشتغل في هذا الجهاز.

الشرط الأول/ الثقة: يجب أن يكون الناس الذين يشتغلون في الرعاية الاجتماعيّة موثوقا بهم، ومن الذين يعملون بإخلاص وصدق نية وليس إسقاطًا للواجب، فهناك موظف ينظر إلى ساعته بين الفينة والأخرى ينتظر حلول الساعة الثانية ليغادر إلى أهله، ومهما قيل له عن حال المراجع الذي ينتظر، فإن جوابه: لا يهمني أمره، انتهى دوامي، وهناك موظف آخر صاحب قضية، وضميره حيّ، ولو أخبروه بوجود شخص مقعد لا يستطيع الحركة، لذهب إليه ولو في العاشرة ليلًا، ولرأيته يطرق الأبواب بحثًا عنه، فإن قيل له: لا يوجد في هذه القرية، ولكن يوجد شخص مقعد في القرية المجاورة، يذهب فورًا يبحث عنه، فالإنسان الثقة لا يقصّر في الاستقصاء والبحث، إلى أن يصل إلى هؤلاء ويشخصهم ويقدر حالهم ويطّلع على مشكلاتهم، ويستقصي المعلومات الصحيحة، ولا يتجاهل أي معلومة.

الشرط الثاني/ خشية الله: إذ يجب أن يكون هؤلاء الموظفون الذين يشتغلون في الرعاية الاجتماعيّة من أهل خشية الله؛ يخافون الله في سرّهم وعلانيتهم، لأنهم يعملون مع شريحة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، فكم من مسكين شيبة أو مقعد، يوصل نفسه

لبـاب دائـرة الرعاية الاجتماعيّة بشـق الأنفس ، ثم يقال له : تعال في الأسـبوع المقبل ، وبما أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا مع هؤلاء ، يضطر إلى أن يدير وجهه ويرجع إلى منزله ، فهذه الطبقة المسـحوقة ضعيفة ولا حول لها ولا قوة ، ولهذا ينبغي في من يعمل في هذه المؤسسة أن يكون من أهل مخافة الله ، وعندما يرى رجلا شيبة جاء من مكان بعيد ووصل بعد انتهاء الدوام ، لا يقول له : تعال غدًا ، بل ينهض مسرعًا لإنجاز معاملته ، وإذا احتاج إلى توقيع من موظف في أحد الطوابق العليا ، يبادر بنفسه ويصعد ويوقع له معاملته ، إذن فمخافة الله تعني أنّ صاحبها ذو سلوك مختلف .

الشـرط الثالـث/ التواضـع : يجب أن يكـون الموظفون الذين يشـتغلون في الرعاية الاجتماعيّـة متواضعيـن ، يخفضون الجنـاح لهؤلاء الفقراء ، فيسـتقبل أحدهم مراجعيه بابتسامة ، ويسمعهم كلاما طيبا ، ويُجلس المتعب منهم ويجلب له ماء أو شايًا ، ويدخل السـرور إلى قلبه ، ويحل له مشـكلته ، وحين يأتي مراجع مهموم ، لا يعلم الروتين الذي ينبغي سـلوكه لإنجاز المعاملة ، فإن كان هذا الموظف متواضعًا فسـوف يسـاعده بطيب خاطر ، من غير منّة ، ويرى أن هذا من واجبه ، فيخرج المراجع عزيزًا طيب النفس .

إذن فالثقـة ، ومخافـة الله ، والتواضـع ، هـذه الأوصاف الثلاثة ، يجـب أن تتوفر في العاملين في دائرة الرعاية الاجتماعيّة .

الإضاءة الثالثة

العمل بمنطق إبراء الذمة

هناك من العاملين من لا ينجز أعماله ، وهمّه كيف يبرر للمسـؤول ، فإن سـأله مثلًا : لماذا لم تنجز معاملة هذا الشـيخ الكبير ؟ ، فجوابه أن معاملته غير مسـتوفيه للشروط ، أو لـم يصطحب معـه الوثائق المطلوبة ، إلى غير ذلك من الأعـذار ، ولو كان هذا المراجع من أقربائه لأنجزها له ، وكل ما كان يعتذر به ليس واقعيًا ، والحقيقة أنه كان مشغولا عن المراجع بأمر لا علاقة له بالعمل ، فسرّح هذا المسكين .

إنّ أكثر الأشياء ضررًا هو أن يستطيع الموظف تبرير تقصيره للمدير وللآخرين بتبريرات مقنعة ، ولكن هل يستطيع أن يفعل ذلك مع الله تبارك وتعالى ، عندما يقف العباد للحساب بين يديه سبحانه لا تخفى منهم خافية ، يوم تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم ؟ .

إن الـذي يعمل في الرعايـة الاجتماعيّة ، ومن أجل تحقيق التعامل المطلوب مع هذه الطبقة المسـحوقة ، يجب أن يحكّم ضميره دائمًا ، ويعلم أنّ الله سـبحانه وتعالى يراقبه

ويعلم السر والعلن، ويسأل نفسه: هل هذا الجهد الذي قدمته يبرئ ذمتي أمام الله تعالى؟ وهل أعذرت الى الله في تأدية حقوق هؤلاء المساكين؟ لئلا يقول له الله (سبحانه وتعالى) في يوم الحساب: كلا لست معذورًا، وكنت قادرًا على خدمتهم أكثر ولكنك لم تفعل.

إذن لا بُدَّ من العمل بنية إبراء الذمة والإعذار الى الله: (ثمَّ اعمَلْ فيهم بَالإعْذَارِ إلَى اللهِ تَعَالَى يَوْمَ تَلْقَاهُ، فَإنّ هؤُلاَءِ مِنْ بَيْنِ الرّعِيّةِ أَحْوَجُ إلَى الإنصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ)، هؤلاء شريحة مظلومة، صوتهم غير مسموع، ولا أحد يهتم بهم، وأما ذاك التاجر أو الوجيه أو المسؤول أو شيخ العشيرة، فإنه عندما يسعل سعلة ترى أربعة أشخاص يتسابقون بين يديه، وفي يد كل واحد منهم قدح ماء، والفقير العاجز لو صاح بأعلى صوته أنه عطشان، لما التفت إليه أحد، ولا يسمعه أحد حينما يتكلم، فهؤلاء كلامهم غير مسموع، والبعض لا يحترمهم، ولا يستطيعون الوصول إلى المسؤولين الكبار، ولا يستطيعون أخذ حقهم بصوتهم ولا بقوتهم ولا بوساطاتهم، إذ لا يمتلكون هذه الوسائل، فلا يبقى لحل مشكلاتهم إلاّ الوازع الأخلاقي والديني، لذلك يعمل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ والمنهج الإسلاميّ على هذا الوازع.

أيها المسؤول في الرعاية الاجتماعيّة؛ عليك أن ترعى هؤلاء وتخدمهم بطريقتك، والإنسان على نفسه بصيرة، وكل إنسان يعرف ما هي نيته، وما هو قصده، وما عمل وما لم يعمل، وأي شخص من هؤلاء عندما يخرج من دائرتك، يجب أن تسأل نفسك: إن كنت الآن على الصراط وسألوني: هل أديت حق هذا الشخص؟ وهل هناك شيء كنت تستطيع أن تفعله له ولم تفعله؟ فهل أنا مقصر في حقه، أو عملت كل ما أقدر عليه؟.. فإن كان جوابك الثاني، فجزاك الله خيرًا، وإلاّ فتب إلى الله سبحانه، وابذل كل ما تستطيع من جهد في خدمة هؤلاء، واعمل بمنطق إبراء الذمة، والوازع الذاتي، واحرص على تأدية ما يرضي ضميرك.

الإضاءة الرابعة

شمول منطق الإعذار لجميع شرائح هذه الطبقة

يجب أن يشمل منطق الإعذار إلى الله وإبراء الذمة جميع شرائح هذه الطبقة، سواء في ذلك اليتيم والمعاق والمنكوب والنازح والمريض... إلى آخر شرائح هذه الطبقة، ويجب أن يكون على كل شريحة مسؤول، وعلى كل من يعمل في الرعاية الاجتماعيّة أن يطرح هذا السؤال: هل عملت كل ما يجب عليّ؟ هل وجهي أبيض

أمام الله؟ فإن كان الجواب بالإيجاب ، فإنه حتى لو لم تتم المعاملة ، فقد أديت الذي عليك ، وعملت كل ما تقدر عليه ، وإن لم تعمل كل ما كان يجب عليك ، أو كل الذي تقدر عليه ، فأنت مقصر في إبراء ذمتك والإعذار إلى الله ، وهذا ليس في حل مشكلة إداريّة فقط ، بل هناك جانب مادي ، وهو تخصيص راتب له كان يستحقه ، فلماذا لم تفعل ذلك؟ هل خصصت له مساعدة أو مكافأة؟ وهذا مريض يريد علاجًا ويستحق المساعدة ، والقانون يسمح بإعطائه العلاج ؛ فهل أعطيته؟ فإن كان الجواب بالإيجاب ، فقد وفرت الجانب المادي ، ولكن هذا الجانب المادي لا يكفي وحده ، بل لا بُدَّ من توفر الجانب المعنوي ، الجانب الروحي ، الجانب العاطفي ، فهل استقبلته بابتسامة؟ هل أسمعته كلامًا طيبًا؟ هل احترمته؟ هل وقرته؟ هل أشعرته بأهميته وأنه عزيز في هذا المكان؟ هل وفرت له المتطلبات اللازمة؟ هل سعيت لكي توفر له عملا مناسبا لإعاقته ومرضه؟ هل وفرت له فرصة تعيين؟ هل عملت له كل هذه الأشياء؟ .

قد تكون خصصت له راتبًا ، ولكن هناك أمورا كنت تستطيع أن تعملها ولكنك لم تفعل ، فلم تعرّفه بحقوقه ، فإن قلت : لقد أتى من أجل الراتب ، وقد خصصت له راتبًا ، وكان فرحًا فأسرع بالخروج ، ولم تتح لي فرصة لتعريفه بحقوقه الأخرى ، سنجيبك بالقول : إنه لم يدر أنّ له حقوقًا أخرى ، ولم تخبره بها ، والشمولية تعني إبراء الذمة في كل شيء ، فتعرّفه بالشيء الذي لا يعرفه ، وكان يجب أن تقول له : قد خصصنا لك راتبا ، ولكنك مريض ، والمادة الفلانية من القانون تسمح لك بطلب العلاج أيضًا ، وتشرح له الآلية وتنجز له هذه المعاملة بنفسك وتسلمها له ، ثم تقول له : لدينا قانون ينص على استحقاق ابنك زمالة دراسية ، فتكون قد نبهته ، وعرفته بحقوقه ، وساعدته ، وكل هذا يحتاج إلى برنامج شامل ، وخطط واضحة ، وجهاز إداريّ كفوء ، يتكون من أناس من أهل الثقة ، ومن أهل خشية الله (سبحانه وتعالى) ، ويتحلون بالتواضع .

(وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيهِ) ، أبرئ ذمتك أمام الله بتأدية حقوق جميع شرائح هذه الطبقة ، وهذا الذي يراجعك منهم يجب عليك أن تخدمه في جميع الجوانب المادية والمعنوية ؛ العاطفية والروحية والنفسية ، وأن تشرح له جميع الشؤون التي تخصه ، فأنت مسؤول ويجب أن تعذر إلى الله تبارك وتعالى وتبرئ ذمتك أمامه في خدمة هؤلاء الناس .

أحيانا تأتي بعامل وتتفق معه على عمل معين ، وتخبره أنك ذاهب لقضاء بعض شؤونك ، وتتركه من غير عين تراقبه ، معتمدا على ضميره ، ووازعه الذاتي ، وهذا

هو وازع المنهج الإسلاميّ ؛ بأن يحمله الوازع الذاتي على الإخلاص في أداء عمله ، وليس العين أو الكاميرا ، فإن كنتَ ضابط سيطرة ، فلا يصح أن تنام بحجة أنْ لا أحد يراك في منتصف الليل ، إذ يجب عليك أن تبقى يقظًا وإن لم يكن أحد موجودًا يراقبك ، ولا يحق لك أن تنام ولو لحظة بحجة أن الأوضاع مستقرة هذه الأيام ، فالرقيب عليك هنا هو الوازع الذاتي ، إذ ستلقى الله (سبحانه وتعالى) يوم الحساب ، ويحاسبك على إهمالك في أداء واجبك هذا ؛ لأنك تتقاضى راتبًا لتحمي هذا المكان ، وتقوم بواجبك في هذه الساعات ، وكان يجب عليك أن تبقى متنبها ، سواء أكان الخطر الأمني كبيرًا أم صغيرًا ، فالخطر عندما يدهمك لا يخبرك مسبقًا ، بل يأتيك فجأة ، فقد يُحمى مكان مدة عشرين سنة ، ولكنه قد يتعرض للخطر في لحظة ، ولا يحق لك أن تعتذر بأنك لم تُغمض عينيك في واجبك خلال عشرين سنة ، إلاّ هذه المرة التي غلبك النعاس فيها خمس دقائق ، إذ سيقال لك : ما الفائدة من عشرين عامًا من الحراسة ، إذا تعرض هذا المكان إلى التخريب ، وأُزهقت فيه الأرواح ، في غضون دقائق كنت فيها مستغرقًا في نومك ، وكان يجب أن تكون فيها متيقظا؟ ، وهكذا الأمر في كل مهمة .

فمثلًا ، هذا المصور الذي يصور هذه المحاضرة ، قد أتى بعمله على أحسن وجه ، ولكنه نسي أن يضغط على زر الصوت ، فجاءت المحاضرة من غير صوت أو بصوت مشوش ، فعندها لا فائدة في كل ما بذله من جهد في ساعة كاملة .

إنّ التساهل في الصغائر يؤدي إلى الكبائر ، فإذا تساهلت في خمس دقائق ، فكأنك لم تحرس أبدًا ، وإذا لم تضغط على زر واحد في محاضرة واحدة ، فكأنك لم تسجل ، هذا هو منطق الإعذار لله ، ومنطق براءة الذمة .

أنا خادمكم عمار الحكيم ، أسأل نفسي كل يوم : أنت يا عمار ، قد ابتلاك الله تعالى بأن تكون خادمًا لهذا التيار ، فهل عملت الذي عليك؟ أو هناك شيء تستطيع أن تعمله ولم تعمله؟ فبماذا سأجيب الناس؟ .

قد يرى بعض الناس عملك ناجحًا ، وقد يراه بعضهم فاشلًا ، وأنت بينك وبين ربك قد فعلت كل الذي تقدر عليه ، وهذا هو المغزى ؛ فأنت عند الله ناجح ، وإن كنت عند الناس فاشلا ، هذا منطق إبراء الذمة ، منطق الإعذار إلى الله ، منطق ضميرك ، وهذا هو المنهج الإسلاميّ ، أما ماذا قال المسؤول؟ ، وماذا كُتب في التقرير؟ ، وما الدرجة التي منحوك إياها؟ هل هي ترفيع ، أو تكريم ، أو شكر؟ والبعض - حاشاكم - ممثلون أصليون ، فيكون التقييم في كل ذلك ممتازا ، ولكن عندما ترجع إلى ضميرك ترى أنّ الأمر ليس كذلك ، وأنك فاشل ، وقد ترى أنّ الآخرين لا يعلمون

أنك أنجزت عملًا عظيمًا ، وأنت قد عملت الذي عليك ، فهنيئًا لك فأنت ناجح حتى لو قال الجميع إنك فاشل .

إن إبـراء الذمـة والإعذار لله هو منهج مهم يجب الاعتماد عليه ؛ (وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى اللهِ تَعَالَـى فِـي تَأْدِيَـةِ حَقِّهِ إِلَيـهِ) ، ليس بالتبرير والظواهر ، بـل المهم هو واقع الأمر ، لنكون على يقين من موقفنا عندما نكون بين يدي الله تعالى .

المحور الثالث

العناية القصوى بالأيتام وكبار السن

ذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ شريحتين من الطبقة المحرومة والمسحوقة، هما الأيتام وكبار السن، وأفردهما بحديث خاص لأهميتهما؛ إذ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ) تعهد أي التزم، يعني: راعِ أهل اليتم، (وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ مِمَّنْ لاَ حِيلَةَ لَهُ)، أي كبار السن الذين ليست لهم حيلة، فهم عجزة لا يقدرون على أن يديروا أمورهم وحياتهم اليومية، (وَلاَ يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ)، أولئك الذين لا يعرضون أنفسهم للسؤال، فلا يطلبون من أحد شيئًا، ونحن نرى كثيرًا من كبار السن لديهم عزة نفس، إذ يتذكر أيام شبابه وقوته، ويصعب عليه أن يريق ماء وجهه حتى لابنه أو عائلته، ويحاول أن يقوم بواجباته بأي شكل كان، وهؤلاء الذين لا يعرضون أنفسهم للمسألة، يجب عليك أنت أيها المسؤول أن ترعاهم.

(وَذلِكَ عَلَى الْوُلاَةِ ثَقِيلٌ)، رعاية كل هذه الشرائح المحرومة المظلومة على سعتها، واتساع مساحة انتشارها، ثقيلة على الحاكم، فمن الصعب على الحاكم أن يستقصي أوضاعهم جميعًا، ويلبي احتياجاتهم ويتابع شؤونهم وهمومهم، ففي هذا الأمر الكثير من الصعوبات التي يثقل على الحاكم تجاوزها كلها.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

الإضاءة الأولى

الأيتام وكبار السن والمقعدون

إنّ الأيتام وكبار السن والمقعدين شريحة مهمة يجب الاهتمام بها ورعايتها، وتفقد أحوالها، وحل مشكلاتها، ويجب أن يُفرد قسم خاص بشؤون هؤلاء في دائرة الرعاية الاجتماعيّة، فلماذا الأيتام والعجزة؟.

الأيتـام هم الأصغر سـنًا ، والعجزة هم الأكبر سـنًا ، وبحكم طبيعـة العمر ، وبحكم طبيعة الظروف النفسـية التي يمر بها هؤلاء ؛ فاليتيم حين يفقد الأب والراعي يشـعر بأنه بقـي بلا غطاء ولا سـند ولا ظهر ، والعاجز الـذي كان يومًا ما يصول ويجول ، والآن هو مقعد غير قادر على الحركة ، يرى نفسه كأنه ثقيل على أهله .

ولعل في بيوت بعضكم كبارًا في السـن ؛ آباء أو أمهات ، وعندما يصل الإنسـان إلى عمـر يبـدأ معه يشـعر بأنه ثقيل وعبء على الآخرين ، فهنا يجـب أن يُراعى مثل هؤلاء ، ويُحـرص علـى إزالة هذا الشـعور ، وأن نشـعرهم بالاهتمام ، وخاصـة عندما نراهم لا يسـتطيعون أن يقدموا شـيئًا ، فهم جالسون في البيت يأكلون ويشربون فقط ، ويحتاجون إلى الكثير من الرعاية .

بما أنّ وجود هؤلاء بركة في البيت ، بأنفاسهم الطيبة ، ودعائهم لأهل بيتهم ، وخبرتهم الطويلـة ، ورعايتهـم للصغار من أحفادهم ، وأُنس ذويهم بهم ، ووجاهتهم بين أقربائهم وعشيرتهم وجيرانهم وأصدقائهم وأهل محلتهم ، تتحتم علينا مداراتهم ورعايتهم ، من أجلنا ومن أجل أولادنا ، وليس من أجلهم فقط ، وإن كانوا يسـتحقون ذلك ، ولا نعرف قيمة هؤلاء إلاّ عندما نفقدهم ، أسأل الله أن يحفظ أحباءكم جميعًا ، فيجب أن تحظى هذه الطبقة التي لها ظروفها النفسية والعاطفية والشخصية والروحية الخاصة برعاية خاصة .

الإضاءة الثانية

الاهتمام الخاص باليتيم في الرؤية الإسلاميّة

فـي الثقافة الإسـلاميّة ، هذا الطفل الذي فقد أباه ، يجـب أن يجد المجتمع كله آباء ، فيرى كل الناس يهتمون به ويرعونه ، ويعطفون عليه ، وقد وردت روايات عجيبة في حق اليتيم ، ومن كفل يتيمًا ، ومن ضمن يتيمًا ، ومن رعى يتيمًا ، ومن اهتم بيتيم ، ومن مسح علـى رأس يتيم ، ومن أشـعر يتيمًا بالاطمئنان ، خصوصًا فـي مجتمعنا ، حيث الحروب والإرهـاب ومشـاكل أخرى ، كالعنف وكثرة الأمـراض والأوبئة وما إلى ذلك ، وما أكثر الأيتام اليوم في مجتمعنا ، ويجب أن لا يضيع هؤلاء ، وأن نهتم بهم ونرعاهم .

ورد في كتاب الكافي الشريف عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ أنه قال : (من عال يتيمًا حتى يستغني) ، يرعاه ويساعده إلى أن يقف على رجليه ويستغني ، (أوجب الله عزّ وجل

له بذلك الجنة)، لكافل اليتيم، ولراعي اليتيم، (كما أوجب لآكل مال اليتيم النار)[٨٦]، كم هي خسيسة ودنيئة تلك النفس التي تسول لصاحبها أكل مال اليتيم، هذا المسكين الذي لا حول له ولا قوة، ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه وعن أمواله، وكم سمعنا عن عوائل عندما يستشهد أو يتوفى منها أحد، يأتي من إخوانه مَنْ يستولي على أموال أيتام أخيه، فهو لا يكتفي بعدم رعايتهم، بل يستولي على أموالهم أيضًا، ويزعم أنه كان قد أقرضه مبلغًا من المال، أو أنجز له عملًا كلّفه المبلغ الفلاني، ويترك الأيتام بلا رعاية، وقد توعد الله سبحانه من يمد يده إلى مال اليتيم بالنار، وضمن لمن يرعى ويكفل اليتيم ويساعده الجنة، بحسب هذه الرواية وغيرها الكثير.

وورد في صحيح مسلم عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما)[٨٧]، مكان كافل اليتيم في الجنة إلى جوار رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، هكذا يضمن لنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ذلك.

وورد في كتاب البداية والنهاية عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (كُنْ لليتيم كالأب الرحيم)، لا تكن أبًا لليتيم فقط، بل كن كالأب الرحيم، لأنّ هناك آباء أشداء على أولادهم، (واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد)[٨٨]، لن تذهب هذه الجهود سدى، فإن رحمتم أيتام الناس، فسوف يرحم الناس أيتامكم، ولو بعد عمر طويل، فكما تزرع تحصد، وليس هناك من يزرع بصلًا ويحصد حنطة مثلا، فمن زرع خيرًا حصد خيرًا، ومن زرع شرًا حصد شرًا، هذه قاعدة، وسُنّة إلهية ثابتة؛ فكيفما تتعامل مع أبيك وأمك، سيتعامل معك أولادك عندما تكبر بنفس الطريقة، وكيفما تتعامل مع اليتيم اليوم، سيتعامل الناس مع أيتامك غدا.. وهكذا.

وورد في نهج البلاغة، أنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: (الله الله في الأيتام، فلا تغبوا أفواههم)، يعني لا تعطه يومًا وتحرمه يومًا، ولا يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا تهملوا اليتيم، ولكن يقول للذي هو مهتم بالأيتام: لا تهتم باليتيم يومًا وتتركه في يوم آخر، بل يجب أن تطعمه على الدوام، وربما كان لكم جيران أيتام، فاحذروا أن تطبخوا طعامًا يشمون رائحته، وهم ليس لديهم مثله، من دون أن ترسلوا لهم منه شيئًا، ولا تطعموهم في الأسبوع يومًا

---

٨٦. الكافي ٧: ٥١ ح٧.

٨٧. صحيح البخاري ٦: ١٧٨. مستدرك الوسائل ٢: ٤٧٤ ح٧.

٨٨. البداية والنهاية ٢: ١٨.

أو يومين فقط، بل يجب عليكم إطعامهم في كل يوم، وأن ترعوهم بشكل مستمر، (فلا تغبوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم)[٨٩]، يجب أن لا يضيع اليتيم في المجتمع.

الإضاءة الثالثة

الاهتمام الخاص بكبار السن

كبار السن بركة ونعمة، وهناك تركيز كبير عليهم واهتمام خاص بهم أيضًا في الروايات والنصوص الشرعية والثقافة الدينية؛ فقد ورد في كتاب الكافي الشريف، عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أنه قال: (من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم)[٩٠]، توقير، تكريم، احترام، تقدير، ذي الشيبة المسلم، هو توقير لله (سبحانه وتعالى)، فوقّروا كباركم، وليس المقصود بكبار السن المقعدين منهم فقط، بل عموم كبار السن يجب أن يحظوا بالاحترام والتقدير، ونرى في زماننا أنه عندما يدخل كبير السن إلى مجلس، وقد وضعوا في زاوية منه كراسي لكبار السن، نرى شبابًا جالسين عليها، وهذا الشيخ حائر يدير رأسه يمينا وشمالا لعل أحدهم يقوم ويجلسه على الكرسي الذي هو مخصص لهم في الأصل، وبالطبع لا نعمم هذا الكلام على الجميع، فهناك شباب ليسوا كذلك، ولكن هناك من لا يتحرك مقدار أنملة، وهذه مسألة احترام وتوقير وتقدير لكبار السن.

ورد في كنز العمال عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أنه قال: (إنّ من إجلالي توقير الشيخ من أمتي)[٩١]، إذا وقرت الشيخ من المسلمين، فكأنما وقّرت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فإذا كنت تريد أن توقّر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فعليك أن توقّر الشيبة من أمته.

وورد في الكافي الشريف عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أنه قال: (ليس منا من لم يوقّر كبيرنا، ويرحم صغيرنا)[٩٢]، وفي هذا الباب الكثير من الروايات، وآثرنا الاختصار لنسرع بطيّ البحث.

٨٩. نهج البلاغة ٣: ٧٧، وصية ٤٧.

٩٠. الكافي ٢: ١٦٥ ح١.

٩١. كنز العمال ٣: ١٧٢ ح٦٠١٣.

٩٢. الكافي ٢: ١٦٥ ح٢.

الإضاءة الرابعة

ثقل المسؤولية تجاه شريحة كبار السن والأيتام

شـريحة كبار السـن والأيتام شـريحة كبيرة ومنتشـرة، وإذا أضفنا إليها بقية الشـرائح من الطبقة المسـحوقة؛ المنكوبين، النازحين، المقعدين، المرضى، فسيصبح عددهم كبيـرًا جـدًا، ويجب على الدولة أن تتحمل عبئا كبيرا فـي رعاية هؤلاء؛ تخصيصاتهم، ميزانياتهم، أوضاعهم، ولكن هذا لا يمنع من ضرورة رعاية هذه الشريحة والاهتمام بها من قبل الآخرين، وخاصة من قبل ذويهم وأهل الخير.

(وَذَلِـكَ عَلَى الْوُلَاةِ ثَقِيلٌ)، هناك ثقل وعبء على الدولة، فمؤسسـة الرعاية تحتاج إلـى جهاز كبير وأموال طائلة، ولكنـه أمر واجب، فإنّ جزءًا من عملية البناء الاجتماعيّ في الإسلام، هو الاهتمام بهذه الشرائح الفقيرة والمستضعفة.

المحور الرابع

ضرورة تثبيت الحقوق وتحديدها

ينبغي لكل مواطن أن يعرف حقه، وينبغي لهذه الشريحة أيضًا أن تعرف حقوقها جيدًا، ويجب على الموظف المختص في هذا الملف تعريف هذه الشريحة بحقوقها بمختلف الوسائل المباشرة وغير المباشرة، ولا تتركه غافلًا عن حقوقه، ولسان حالك يقول: طالما كان لا يعلم بحقوقه فدعونا مستريحين.

يجب أولًا تحديد هذه الحقوق وتصنيفها لكل فئة من فئات هذه الشريحة، فتحدد الحقوق المجتمعية لأصحاب العاهات من فاقدي السمع والبصر، والحقوق المجتمعية للمقعدين، والحقوق المجتمعية لكبار السن، والحقوق المجتمعية للأيتام، والحقوق المجتمعية للعجزة.. وهكذا الفئات الأخرى من هذه الشريحة، كالنازحين والمنكوبين بسبب الكوارث الطبيعية كالزلازل والسيول ونحوها، إذن، يجب أن تُحدد هذه الحقوق بشكل واضح، وأن تلتزم الدولة بهذه الحقوق.

انظروا إلى ما قاله أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الصدد: (وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ)، الحق ثقيل مرّ صعب، (وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ)، ولكن الذي لديه الإرادة الصادقة في الوفاء بحقوق هؤلاء، يبذل جهده ليستوفي حقوق هذه الطبقة المسحوقة، ويصبّر نفسه على هذا الأمر، (وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ)، طمعًا في الجزاء الذي وعدهم الله به، فقد وثقوا بالله وبوعده، وهو أصدق وعد، وحاشا لله أن يعد بشيء ولا يفي بهِ، وقد وعد بالأجر العظيم لمن يفي بهذه الحقوق، فالصبر واستحضار الأجر الإلهي والوثوق بالله، هي التي تجعل الإنسان يقوى ليحقق هذا الأمر الثقيل والصعب والمعقد.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

الإضاءة الأولى

ثقل الوفاء بالحقوق

إنّ الوفاء بحقوق الناس يمثل ثقلًا على المتصدين والمسؤولين، فهو ليس بالأمر السهل، فهناك حقوق كبيرة للناس، لا يستطيع المتصدي أو المسؤول أن يفي بها، (وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ)، فإن رفع الشعارات سهل، ونسمع الكثير من الوعود والشعارات قبل الانتخابات، وكل طرف يَعِدُ بأن ينجز كذا ويعطي كذا، وبعد أن يفوز في الانتخابات، تكون النتيجة عدم الوفاء، والكثير من الوعود لا تتحقق، فرفع الشعارات وإطلاق الوعود أمر سهل، ولكن تنفيذ الوعود هو الصعب، والوفاء بالالتزامات هو الأمر الصعب والمعقد.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في نهج البلاغة: (فقد جعل الله لي عليكم حقًا)، أنا أمير المؤمنين، الحاكم، الخليفة، الإمام، قد جعل الله لي حقًا عليكم، ويجب عليكم الالتزام به، (بولاية أمركم)، عندما صرت إمامًا وحاكما لكم، وجبت عليكم طاعتي، وأن تلتزموا بكلامي، هذا حقي عليكم، وحق الوالي على المولّى عليه هو الطاعة والالتزام، وأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يتكلم بما له من حق فقط، فلا يتكلم فقط عن نفسه، (ولكم عليّ من الحق مثل الذي لي عليكم)، مثلما لي حق عليكم في وجوب طاعتي والالتزام بما آمركم به، فإن لكم حقًا عليّ بأن أرعاكم وأحل مشكلاتكم وأوفر لكم الأمن والخدمات.

(فالحق أوسع الأشياء في التواصف)، عندما تريد أن تصفه وتتكلم به وترفع شعاره، (وأضيقها في التناصف)، ولكن في لحظة الإنصاف والوفاء بالالتزامات، فالمواطن يتهرب من القانون، وإذا لم يرَ شرطي المرور يفكر مباشرة بعدم الالتزام بالإشارة، وهناك كثير من الناس يخرقون القانون، فإذا كانت هناك مراقبة التزموا خشية المراقبة، وإذا لم تكن هناك مراقبة، من عين بشرية أو كاميرا، خرقوا واجبات المواطنة والقانون وما شابه ذلك، وفي الاتجاه الآخر هناك كثير من الحكام والمسؤولين لا يفون بواجباتهم والتزاماتهم تجاه الناس، إذن فالحقوق ما أوسعها في التواصف وما أضيقها في التناصف.

(لا يجري لأحد)، لا يُعطى هذا الحق لأحد، (إلاّ جرى عليه)، إلاّ أُخذ في قباله حق والتزام، أي يجب عليه أن يؤدي حقوق الآخرين، التي هي من واجباته، وهذا مبدأ التوازن بين الحقوق والواجبات، فلا يجوز أن تأخذ ولا تعطي، كما لا يجوز أن تعطي ولا تأخذ، فلك حقوق تأخذها كاملة، وعليك التزامات، أي حقوق للآخر عليك، يجب أن تدفعها

كاملة أيضا، ففي الإسلام هناك توازن بين الحقوق والواجبات، ويجب أن تلحظ مسألة ما هو لك وما هو عليك بشكل واضح، وأن يُلتزم بها.

(ولا يجري عليه)، ولا يؤخذ منه شيء ولا يقدم التزامات، (إلاّ جرى له)[٩٣]، إلاّ أُعطي من الحقوق ما يوازي التزاماته، فالتوازن بين الحقوق والواجبات من المسائل الأساسية في الفهم الإسلاميّ، ويتحمل هذا الثقل الكبير أولئك الذين يثبتون على الحق، والذين عينهم على الثواب الإلهي، فالصبر وحسن الظن بالله (سبحانه وتعالى)، والثقة بوعد الله، عنصران أساسيان يساعدان الإنسان على الإيفاء بواجباته تجاه الناس وإيفاء حقوقهم.

وفي غرر الحكم يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: (اصبر على مرارة الحق)، الحق مرّ، فليس سهلا على الإنسان أن يخرج المال الذي تعب في الحصول عليه، لإيفاء حق معين من حقوق الناس، وليس من السهل أن يكون حقانيا منصفًا، لذلك يصف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الحق بأنه (مرّ).

(وإياك أن تنخدع لحلاوة الباطل)[٩٤]، تبحث عن ذريعة أو حجة، أو تتهرب، أو تتلاعب بالوثيقة وتغيرها وتمحو الصفر، ثم تقول: ربحت لأني شاطر، فمن قال لك إنك شاطر؟ فلا تنخدع بحلاوة الباطل التي تشعر بها لحظة من الزمن، عند الالتفاف على الحق، والتملص من حقوق الآخرين، وعدم الإيفاء بواجباتك تجاههم، ولا تفرح بها، فصحيح أن فيها حلاوة في هذه اللحظة، ولكن ألمها عظيم في المستقبل.

الإضاءة الثانية

أهمية تثبيت الحقوق

من واجب الدولة تشريع قوانين تحدد فيها حقوق الناس، لكي يعرفوا ما هي حقوقهم، وما الذي عليهم، فلا تبقى الأمور سائبة أو غامضة، وهذا يعني ثلاث خطوات:

أولًا: يجب تشخيص وتحديد الحقوق بشكل تفصيلي ودقيق؛ كل شريحة ما لها وما عليها، ويجب أن يكون هذا واضحًا للجميع.

ثانيًا: يجب أن تكون هناك لوائح وتعليمات وآليات وسياقات، تبين كيف يستطيع المواطن أن يستوفي هذه الحقوق؛ فيثبت راتب كل شريحة في الرعاية الاجتماعيّة، والتخصيصات

---

٩٣. نهج البلاغة ١: ١٩٨ الخطبة ٢١٦.

٩٤. غرر الحكم ح٢٤٧٢، ١٠٠٧٤٨، نقلاً عن ميزان الحكمة١: ٦٥٦ ح٨٨٩.

التي من حقهم الحصول عليها، وكل ما لهم من حقوق، وكيف يحصلون عليها، فيجب أن تثبت الحقوق وتوضع آلية للحصول عليها، وأن تكون السياقات والآليات والإجراءات والتعليمات واضحة.

ثالثًا: يجب على الحكومة أن تشكل فريقًا من أهل مخافة الله، ولديهم الخبرة، والحرص على تطبيق التعليمات من غير تمييز بين الناس، ولا يحابون ولا يرتشون، وينفذون هذه التعليمات بشكل دقيق، لكي يحصل الناس على حقوقهم.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في غرر الحكم: (لا يصبر للحق إلاّ من يعرف فضله)[٩٥]، من يعرف قيمة الحق هو المؤهل للصبر عليه وتحمله، والمراجعون على حالات مختلفة، فمنهم العصبي، ومنهم المتعب، ومنهم الذي لا تفهم منه ما يريد، ولا سيما هذه الشريحة؛ فكلنا يعلم أنهم أُناس ظروفهم صعبة ومتعبون، وقد تتحدث مع أحدهم نصف ساعة، وتأخذه يمينًا وشمالًا لتفهم منه ما يريد، ثم لا تخرج بأي نتيجة، إذ لا يعرف كيف يعبّر عما يريد، فتفقد أعصابك ويغلي صدرك نارًا وتودّ أن تصرخ به، إن لم تكن عندك مخافة الله، وتسمعه كلامًا خشنًا وتقول له: قم واخرج، ألا تخجل من نفسك، عمرك تسعون سنة ولا تعرف كيف تتفوه بكلمتين تفهمنا بهما ما تريد؟، اذهب واجلب معك ابنك أو أي أحد آخر لنفهم منه، أما الذي يخاف الله فلا يتفوه بمثل هذا الكلام، ويصبر عليه ويتحمل هذه المرارة، ويبذل جهدًا في فهم معاملته، ثم يشرح له ما يجب عليه من إجراءات ويساعده، فمن يعمل في الرعاية الاجتماعيّة يجب أن يكون بهذه المواصفات؛ سعة الصدر، والأخلاق الطيبة، لكي يستطيعوا تحقيق هذا الغرض.

(وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ)، يخفف الله تبارك وتعالى هذه المهمة الثقيلة على أُناس يريدون الآخرة، (فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ)، تحلوا بالصبر على منغصات هذا العمل، ورعاية هذه الشريحة المضطهدة، فتراهم يتعبون أنفسهم مع أحدهم لينجزوا له معاملته، وأخيرًا يسمعهم كلمة خشنة ويقول لهم: أخرتموني، ومع ذلك يجيبونه باحترام: هل كنّا نلعب؟ ألم ترنا منهمكين في معاملتك؟ فيدير وجهه ويذهب وهو يتمتم بكلمات عدم الرضا، فمن الصعب التعامل مع هذه الشريحة، لأنها شريحة مأزومة، مألومة، بمرض أو فقر أو عاهة، فهو مأزوم، ولا يستطيع أن يتعامل تعاملًا سويًا في كل الحالات، فتراه منزعجًا يصيح ويتهم ويتذمر، لذلك يحتاج مثل هذا العمل إلى شخص بدرجة عالية من ضبط النفس لكي يصبر على هذه الطبقة، (وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ).

---

٩٥. غرر الحكم ح٢٤٧٢، ١٠٧٤٨١، نقلاً عن ميزان الحكمة ٦٥٦: ١ ح٨٨٩.

توصيات للحكام والمتصدين

(وَاجْعلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِسًا عامًّا ، فَتَتَواضَعُ فِيهِ لله الَّذِي خَلَقَكَ ، وَتُقعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ : ((لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لاَ يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ)) ، ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ ، وَنَحِّ عَنْكَ الضِّيقَ وَالأْنَفَ يَبْسُطِ اللهُ عَلَيْكَ بِذلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ ، وَيُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ ، وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئًا ، وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ .

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لاَ بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا : مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ مِمَّا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ ، وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ ، فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ .

وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِي مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ تعالى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الأقْسَامِ ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لله إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ ، وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ لله بِهِ دِينَكَ : إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً ، فَأَعْطِ اللهَ مِن بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللهِ مِنْ ذلِكَ كَامِلاً غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلاَ مَنْقُوصٍ ، بَالِغًا مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ .

وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلاَتِكَ لِلنَّاسِ ، فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّرا وَلاَ مُضَيِّعًا ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ الْحَاجَةُ . وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى اليَمنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟ فَقَالَ :

((صَـلِّ بِهِـمْ كَصَـلاَةِ أَضْعَفِهِـمْ ، وَكُـنْ بِالْمُؤْمِنِيـنَ رَحِيمًـا)) .
وَأَمَّـا بَعْـدَ هـذا ، فَـلاَ تُطَوِّلَـنَّ احْتِجَابَـكَ عَـنْ رَعِيَّتِـكَ ، فَـإِنَّ احْتِجَـابَ الْـوُلاَةِ عَـنِ الرَّعِيَّـةِ شُـعْبَةٌ مِـنَ الضِّيـقِ ، وَقِلَّـةُ عِلْـم بِالأُمُـورِ ، وَالاحْتِجَـابُ مِنْهُـمْ يَقْطَـعُ عَنْهُـمْ عِلْـمَ مَـا احْتَجَبُـوا دونَـهُ فَيَصْغُـرُ عِندَهُـمْ الْكَبِيـرُ ، وَيَعْظُـمُ الصَّغِيـرُ ، وَيَقْبُـحُ الْحَسَـنُ ، وَيَحْسُـنُ الْقَبِيـحُ ، وَيُشَـابُ الْحَـقُّ بِالْبَاطِـلِ ، وَإِنَّمَـا الْوَالِـي بَشَـرٌ لاَ يَعْـرِفُ مَـا تَـوَارَى عَنْـهُ النَّـاسُ بِـهِ مِـنَ الأمُـورِ ، وَلَيْسَـتْ عَلَـى الْحَـقِّ سِـمَاتٌ تُعْـرَفُ بِهَـا ضُـرُوبُ الصِّـدْقِ مِـنَ الْكَـذِبِ ، وَإِنَّمَـا أَنْـتَ أَحَـدُ رَجُلَيْـن : إِمَّـا امْـرُؤٌ سَـخَتْ نَفْسُـكَ بِالْبَـذْلِ فِـي الْحَـقِّ ، فَفِيـمَ احْتِجَابُـكَ مِـنْ وَاجِـبِ حَـقٍّ تُعْطِيـهِ ، أَوْ فِعْـل كَرِيـم تُسْـدِيهِ ، أَوْ مُبْتَلَـىً بِالْمَنـع ، فَمَـا أَسْـرَعَ كَـفَّ النَّـاسِ عَـنْ مَسْـأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُـوا مِـنْ بَذْلِـكَ ، مَـعَ أَنَّ أَكْثَـرَ حَاجَـاتِ النَّـاسِ إِلَيْـكَ مما لاَ مَؤُونَـةَ فِيـهِ عَلَيْـكَ ، مِـنْ شَـكَاةِ مَظْلِمَـة ، أَوْ طَلَـبِ إِنْصَـاف فِـي مُعَامَلَـة .
ثُـمَّ إِنَّ لِلْوَالِـي خَاصَّـةً وبِطَانَـةً ، فِيهِـمُ اسْـتِئْثَارٌ وَتَطَـاوُلٌ ، وَقِلَّـةُ إِنْصَـاف فِـي مُعَامَلَـة ، فَاحْسِـمْ مَـادَّةَ أُولئِـكَ بِقَطْـعِ أَسْـبَابِ تِلْـكَ الأَحْـوَالِ ، وَلاَ تُقْطِعَـنَّ لأِحَـد مِـنْ حَاشِـيَتِكَ وَحَامَّتِـكَ قَطِيعَـةً ، وَلاَ يَطْمَعَـنَّ مِنْـكَ فِـي اعْتِقَـادِ عُقْـدَة ، تَضُـرُّ بِمَـنْ يَلِيهَـا مِـنَ النَّـاسِ ، فِـي شِـرْب أَوْ عَمَل مُشْـتَرَك ، يَحْمِلُـونَ مَؤُونَتَـهُ عَلَـى غَيْرِهِـمْ ، فَيَكُـونَ مَهْنَـأُ ذلِـكَ لَهُـمْ دُونَـكَ ، وَعَيْبُـهُ عَلَيْـكَ فِـي الدُّنْيَـا وَالآخِـرَةِ .
وَأَلْـزِمِ الْحَـقَّ مَـنْ لَزِمَـهُ مِـنَ الْقَرِيـبِ وَالْبَعِيـدِ ، وَكُـنْ فِـي ذلِـكَ صَابِـرًا مُحْتَسِـبًا ، وَاقِعًـا ذلِـكَ مِـنْ قَرَابَتِـكَ خَاصَّتِـكَ حَيْـثُ وَقَـعَ ، وَابْتَـغِ عَاقِبَتَـهُ بِمَـا يَثْقُـلُ عَلَيْـكَ مِنْـهُ ، فَـإِنَّ مَغَبَّـةَ ذلِـكَ مَحْمُـودَةٌ .
وَإِنْ ظَنَّـتِ الرَّعِيَّـةُ بِـكَ حَيْفًـا فَأَصْحِـرْ لَهُـمْ بِعُـذْرِكَ ، وَاعْـدِلْ عَنـكَ ظُنُونَهُـمْ بِإِصْحَـارِكَ ، فَـإِنَّ فِـي ذلِـكَ رِيَاضَـةً مِنْـكَ لِنَفْسِـكَ ، وَرِفْقًـا بِرَعِيَّتِـكَ ، وَإِعْـذَارًا تَبْلُـغُ فِيـهِ حَاجَتَـكَ مِـنْ تَقْوِيمِهِـمْ عَلَـى الْحَـقِّ) .

يتحـدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع عـن توصيات للحكام و المتصدين ، من أجل تيسير إنجاز مهامهم ، وهي كما يلي :

التوصية الأولى

فسح المجال للاعتراض

تتمثل التوصية الأولى لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للحكام والمتصدين في فسـح المجال للتظلـم والاعتـراض على السياسـات والخطـوات والمواقـف في أي منظومـة قياديّة ، فعلـى آمـر الفوج مثلًا أن يفتح المجال لجنوده لعـل لديهم ملاحظة أو قضية ، وكذا على آمـر السـرية أن يفتح المجال لجنود سـريته للتظلم والاعتراض ، وعلى مسـؤول منظمة المجتمـع المدني أن يجمع فريقه ويسـألهم عن آرائهم فـي البرنامج والخطوات ، وعلى مدير المستشفى أن يجمع الأطباء والكادر الصحي والمرضى والطواقم الإداريّة ، ويفتح لهـم المجـال للاعتراض ، وكذا على القائد السياسـيّ أن يوفر أجواء الحرية الكاملة أمام جماعته وتياره وحزبه ، ويرى هل عندهم ملاحظة أو تصحيح أو اعتراض أو تساؤلات ، وفتح المجال أو فتح الأبواب للاسـتماع إلى التظلمات والاعتراضات والشكاوى والنقد لسياسة أو موقف أو خطوة أو أي شيء آخر . يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الشأن :

(وَاجْعلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ) : يعني المتظلمين الذين لديهم شكوى ، أو ملاحظة ، أو تعرّضوا لمظلومية ، أو قد تكون لديهم فكرة جديدة ، أو رؤية في تطوير العمل ، أو اعتراض على إجراء معين ، أو سياسة معينة ، أو خطوة معينة .

(وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِسًا عَامًّا) : ليس مجلسًا خاصًا ، ومعنى الجلوس لهم مجلسًا عامًّا أن يكون بابك مفتوحًا لجميعهم ، فلا تكون لك ساعة للاستماع لمن يمثلهم ، ولا تمنع أي فـرد مـن الدخول عليك في الوقت المخصص لهم ، لئـلا تكون هناك انتقائية ، وإياك – يا مسـؤول – أن تغلق بابك بوجه من تعتقد أنه سـيتحدث بطريقة تزعجك ، ولا تسمح لأعوانـك بـأن لا يُدخلوا عليك إلاّ من يُحسـن التملق ، حتى صـارت هذه ظاهرة اليوم ،

فصارت حتى جلسات التظلم والاستماع أكذوبة جديدة لتحسين صورة المسؤول أمام الرأي العام بشكل من الأشكال، من دون أن تبحث عن الواقع.

يجب أن يكون الباب مفتوحًا للجميع، ومن حق أي فرد من هذه الطبقة المحرومة أن يصل إليك ويبين وجهة نظره، ويعترض، ويشتكي، ويبين رأيه في سياسة أو موقف أو خطوة أو خطاب إلى غير ذلك.

(فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ): عندما تجلس في هذا المجلس العام الذي عقدته لخصوص الفقراء، لا تجلس جلسة إمبراطور، ويأتي الآخرون ليجثوا على ركبهم ويتكلموا معك جملتين، بل عليك أن تتواضع لهم، فقد ورد في وصف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (كان فينا كأحدنا)[٩٦]، عندما يجلس رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بين المسلمين كان مثل أي واحد منهم، لذلك كان الذي لا يعرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عندما يدخل المسجد يسأل: أيكم رسول الله[٩٧]؟ فيجب عليك - أيها المسؤول - عندما تجلس وتسمع التظلمات والشكاوى، أن تكون متواضعا، فلا تجلس خلف الطاولة، بل اجلس معهم وتوسطهم واسمع منهم.

(فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لله الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ): لو تتبع أحدكم صور لقاء المسؤولين للمواطنين على شاشة التلفزيون، فسيرى المسؤول جالسًا أو واقفًا ووراءه اثنان أو أكثر من ضخام الجثة وذوي الشارب الكثة، وهم يحملون أسلحتهم، وعندما يدخل المواطن ويريد أن يشتكي يضعف عن عزمه حين يرى هذا المنظر المرعب.. رويدك أيها المسؤول.. ما هذا التكبر والبهلوانيات؟ افعل هذا مع الأعداء لا مع المواطنين.

(وَتُقعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ): أبعد حراسك، حماياتك، الشرطة، ولا تخلق جوًا بوليسيًا، تُفزع به من يريد الدخول عليك، فيصيبه الرعب ولا يجرؤ على الحديث معك، ويرجع من حيث أتى خائبًا، ويرى ذلك أسلم له من تظلمه وطلب حقه، فيجب عليك توفير بيئة آمنة، تكون الأجواء فيها مساعدة وهادئة لكي يطمئن ويتحدث بما يريد، والشخص الذي يعترض - مهما كان الاعتراض مؤذيًا ومزعجًا - يجب أن يخرج آمنًا لا يتعرض له أحد بسوء.

---

٩٦. بحار الأنوار ٤١: ١٥ ح٦.

٩٧. بحار الأنوار ٧٢: ٣٥٥ ح٢١.

حين نجلس لسماع شكاوى الناس، يجب أن لا يكونوا خائفين من قول ما يريدون قوله بصدق، كما يتكلمون في الفيسبوك أو المقاهي أو البيوت، ولا يخشوا من أن لا يخرجوا سالمين إذا تكلموا به، أو أن يتعرض الموظف المعترض إلى عقوبة من المدير أو يطرده أو يخرجه من مسؤوليته، فيجب أن يضمن المعترض عدم وجود إجراءات تعسفية، وأن لا يترتب على النقد والاعتراض أي عقوبة، لكي يستطيع أن يتكلم ويعترض وينتقد ويشتكي من دون مشكلة.

(حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ): التعتعة هي التردد بالحديث، فترون بعضهم عندما يريد أن يتكلم يكرر الحرف أكثر من مرة، ولا يستطيع الكلام بسهولة، ويُعقد لسانه كما يعبّرون، فهذا هو (المُتعتِع)، ونحن نقول عندما يتكلم أحدهم بهذه الطريقة: (بدأ يتعتع)، أي لا يستطيع الكلام، ويتردد بالكلام، من الخوف والرهبة، فعندما تخرجه من ممر وتدخله في ممر آخر، وتجلسه في غرفة ساعتين من الانتظار الممل، حتى يدخل على المسؤول، فيقف وجلًا، فيقال له: تكلم بما تريد، وأربعة أشخاص يقفون خلف المسؤول، وهذا المسكين لا يستطيع التكلم، وإذا تكلم أخذ يتعتع بكلامه، كلا، بل يجب عليك - أيها المسؤول - خلق بيئة آمنة. وكذا الأمر وأنت جالس في البيت جلسة الإمبراطور مع امراة وثلاثة أطفال، والجميع يرتجفون منك، وأنت تُصدر أوامرك بغلظة ونظراتك ملؤها الغضب، مع من لا حول لهم ولا قوة، ولا سيما في شهر رمضان، وخصوصًا من الآباء المدخنين المدمنين على التدخين.. على مهلك أيها الأب، وكن رحيمًا رؤوفًا مع هؤلاء الضعفاء.

مثل هؤلاء عندما لا يستطيعون الرد على مسؤوليهم، أو على من معهم في العمل، يصب أحدهم غضبه عندما يرجع على زوجته المسكينة.. إنها بنت الناس مؤتمنة في بيوتكم، فلماذا هذا الصراخ؟ ولماذا هذا الكلام غير اللائق؟ وهذه حقائق في مجتمعنا، فتلوذ هذه المرأة المسكينة بالصمت ولا تستطيع الكلام، وكذا هذا الطفل، فكيف يستطيع الكلام وقد تربّى في مثل هذه الأجواء، وهو يرى أباه وكأنه نار تتلظى، فهل يستطيع أن يتكلم ويقول له: لماذا تفعل هذا؟ لا أحد يجرؤ، وهكذا نحن من المسؤول الصغير إلى الكبير، إلاّ أن المسؤول الكبير يكون لسانه أطول، فكيف الحال مع الوزراء والمسؤولين والقادة؟.. عندما يدخلون بيوتهم تجد الجميع في حالة استنفار عام، ولسان حال الزوجة والأولاد: يا الله متى يخرج لنرتاح منه، فمع أنك لا ترغب في أن يعاملك المسؤول بهذه الطريقة، وتنتقد هذا السلوك، ولكن عندما يصل الأمر إليك تفعل هذا أيضًا.

قـال أميـر المؤمنيـن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : «طوبى لمن شـغله عيبه عن عيوب النـاس»[٩٨]، ابدأ من نفسـك، وكل واحد منا ليبدأ من نفسـه؛ لننظر إلى أنفسـنا في عوائلنا، وفي المسـاحة التي نحن مسـؤولون عنها، ووسـط الناس التي حولنا؛ كيف نتعامل معهم؟ كيف نسـتمع لهم؟ كيف نتقبل النصح؟ هل نقبل الاعتراض؟ هل نقبل الانتقاد؟ لننظر إلى أنفسـنا حين يقال لنا إن ما نفعله غير صحيح، أو إنّ ما تفوهنا به غير صحيح، هل نقبل ذلك أو نغضب؟.. لماذا هذه السياسة يا عمار؟ لماذا دعمت الحكومة هنا ولم تدعمها هناك؟ لماذا صرتم معارضة؟ لماذا أرجعتم فلانًا؟ يجب أن تكون الروح - كما يقال - رياضية، وينبغي للإنسان أن يقبل الانتقاد والملاحظات، لكي يستفيد ويطور منظومته القياديّة.

(فَإِنِّي سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِن): أي في مواطن كثيرة، مرات ومرات، سـمع أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: (لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ)، يعني لا تطهر أمة، لا تنقى أمة، لا ترتفع أمة وتتكامل، (لاَ يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِـنَ الْقَوِيِّ غَيْـرَ مُتَعْتِع)، لا فرق بين الأمة، والشـعب، والجماعة، فعندما يُظلم الضعيف ويشـتكي لأمتـه ممن ظلمـه واغتصب حقه، فـإن هبّت هذه الأمة واسـترجعت له حقه من القـوي الـذي اغتصبه منه، لا بالتوسـل أو الوسـاطة أو الحيلة ونحو ذلك، بل تسـترجع له حقـه بالقـوة وهو مرفوع الرأس، ويأخذ حقه مـن يد القوي من غير خوف أو تعتعة، ويقول كلمته على رؤوس الأشـهاد: أنت ظلمتني، فهـذا أمر ممتاز، وهكذا كل منظومة قياديّة أيًا كان حجمهـا، فمثلًا في منظومة الأسـرة، يقول الابن لأبيه: أنـا أحترمك وأقدرك، ولكن إذا سـمحت لـي أن أقول لك أنت ظلمتنا وتجاوزت علـى حقوقنا في القضية الفلانية، وإذا رأى الأب هذا الكلام صحيحًا، يعترف بصحة قول ابنه ويعتذر، فهذه عائلة مثالية، يحترم فيها الابن أباه، ولكن لا يخاف منه، أو كان لدى جندي في فوج اعتراض، أو كانت لعضو في تيار سياسـيّ ملاحظة، فيقول لآمر الفوج أو قائد الحزب: أنتم قلتم كذا وكذا وأنا أرى كـذا وكـذا، من غير خوف، فيجيبه الآمـر أو القائد: جزاك الله خيرًا، دعنا نراجع، «نراجع ولا نتراجـع»، وهذا الشـعار يجب أن يتجسـد حقيقة علـى الأرض، يجب أن يُنفذ، يجب أن يتحـول إلـى ثقافة نعمـل بها، فإذا كان واقعنـا كذلك، فمعنى ذلك أن منظومتنا سـليمة وصحيحة.

---

٩٨. نهج البلاغة ٢: ٩٦ خطبة ١٧٦.

حيـن يأخـذ الضعيف حقة من القوي بلا خوف ، ويقول كلمتـه من غير تعتعة ، فهذا هو الواقع الصحيح ، ومن دون هذا لا تقدس أمة أو جماعة ولا تطهر ، إذا لم يسـتطع الضعيف أخذ حقه من القوي .

(ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ) : هؤلاء الناس أشـكال متنوعة في سـلوكهم ، فبعضهم أسـلوبه أن يتكلم بصوت مرتفع وبنبرة خشـنة ، فإذا أراد منك شـيئًا ما ، يطلبه وكأنه يأمرك ، وعندما يريد الكلام يكسـر المقابل ، فنبرة صوته عالية وكأنه يصرخ بك ، وعندما يتكلم مع المسـؤول يتكلم بغلظة ، فيا مسـؤول على مهلك ، لا تسـتعجل في فصله أو نقله أو إيذائه ، هـذه هي سـجيته التي ورثها من أبيـه ، فهو عصبي ، منفعل ، يكسـر ، وربما يتعرض بعض أولئك الذين يظهرون على شاشات التلفاز وينتقدون المسؤولين لعقوبات ، إذ يأمر المسؤول بتحويـل هـذا الموظف الذي انتقده فورًا إلـى المحكمة الإداريّة ليُفصل مـن الدائرة ويُرمى خارجًا من غير أي حقوق ، مع أن هذا وأمثاله لا يعرفون كيف يبينون آراءهم بشكل صحيح ، فعلّمـه ولكـن لا تقطع رزقه ، ولا تتخذ منه موقفًا سـلبيًا لأنه تحدث بطريقة شـديدة وعنيفة واستخدم عبارات كاسرة ، وهو مخطئ في هذا ، ولكن أنت من يتحمل الخطأ ، فالمسؤولية فيها ضريبة ، ولا تتوقع من الجميع أن يتكلموا معك بأفضل أسـلوب ، وبأجمل العبارات ، وبأحلى الكلمات الرقيقة ، ويتحدثوا معك وهم مبتسـمون وباحترام كبير ، وينادوك بألقاب وأوصـاف جميلـة ، ويوصلوا إليك ما يريدونه من غير أن يسـمعوك كلمة تؤذيك ، وإن كان ما يريدونه شـديدًا عليك ، ولكن أسـلوبهم لين ، كما قال الله تبارك وتعالى لموسى وهارون حينما أرسـلهما إلى فرعون بأمر شـديد : ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَـى﴾[٩٩] ، وهذا فن لا يجيده إلا الأوحدي من الناس ، وهو ما انتشـر في بعض أوسـاط أبناء العشـائر في العراق ، الذين يوصلون ما يريدونه إلى الطرف المقابل بشكل غير مباشر ، ومن طرف خفي قد يتعذر على كثير معرفته لدقته ولطفه ، ويسمى (الحِسْجَة) .

(الْخُرْقَ) ، في مقابل الرفق ، ويعني الحديث الكاسر العنيف .

(وَالْعِيَّ) ، هو عدم قدرة الإنسـان على بيان مطلبه ، فتارة هناك شـخص لديه مشكلة في أسـلوب البيان ؛ فتراه يصرخ بك عندما يتكلم معك ، وتارة هناك من لديه مشـكلة في القدرة على البيان فلا يستطيع أن يتحدث ، وتارة هناك من ليست لديه مشكلة ، ويستطيع أن يتكلم بشـكل صحيـح ، ولكنه يرتبـك عندما يتكلم مع المسـؤول ، فيبقى يدور حـول الموضوع ويأخـذ وقتـا طويلًا وهو يقـول كلامًا غير مفهوم ، فـلا تعلم ماذا يريـد ، فيجب أن تتحمله

٩٩ . سورة طه : الآيات ٤٣ – ٤٤ .

وتصحح له لعلك تصل إلى ما يريد، فهناك من لا يعرف كيف يوصل مراده لقصور بيانه، إذ ليست لديه قدرة بيانية لتوضيح ما يريد بيانه، فلا يستطيع أن يوصل فكرته، ويذهب في الكلام يمينا وشمالًا من غير أن يصل إلى مراده، فعليك مساعدته لا تصرخ بوجهه، ولا تطرده لأنه لا يستطيع أن يتكلم، ولا تقل له: لماذا تأخذ وقتي؟ اخرج واذهب إلى كاتب عرائض ليكتب لك مطلبك ثم تعال، كلا، يجب عليك تحمله واستيعابه والصبر عليه، وخذ وأعط معه، فيخرج من عندك وهو فرح، ويستطيع أن يعبّر عن مطلبه. . أنت طوّر الفكرة قليلًا، قل له: إنك تقصد هذا المعنى، ورتّب له الفكرة، فانظروا إلى الإسلام كم هو عظيم في مبادئه، هكذا يتعامل المسؤول مع من هو مسؤول عنهم.

(وَنَحِّ عَنْكَ الضِّيقَ): لا تتعامل بضيق، بصراخ، بوجه مكفهر، لا تخسره لأنه لا يعرف كيف يتكلم، كلا، تعامل معه بسعة صدر، بحسن الخلق، بابتسامة، وأشعره بالاهتمام، وأصغ إليه. . بعض أولادنا وأطفالنا لا يعرف كيف يتكلم، فاجلس معه ووسع له صدرك ولا تَصرخ بوجهه، وتكلم معه وقل له: أهكذا تقصد؟ كذا تريد أن تقول؟ وشجعه بكلمات مثل أحسنت، عاشت يدك، هذا الكلام صحيح، وأعطه ثقة بنفسه لتقوى شخصيته، ويكون غدًا قويًا في المجتمع، فحين لا يسمع إلاّ الصياح في الطفولة، يكبر وهو مسكون بالرعب والخوف، فيخرج إلى المجتمع مهزوزًا، لا يقدر على أن يمارس دوره بشكل سليم وصحيح.

(وَنَحِّ عَنْكَ الضِّيقَ وَالأَنَفَ): الأَنَف: التعالي، الاستكبار، الاستنكاف، أي لا تتعامل مع المواطن بهذا الخُلق، وخاصة مع القاصر عن بيان مطلبه، فهناك نظرة تحقير واستهانة بالبشر، إذ ينظر المسؤول إلى المواطن نظرة ازدراء، وهو غافل عن أن أنفته هي التي أنست هذا المواطن وأربكته فعجز عن بيان ما يريد أن يقوله، فلا تتعامل بأنفة مع المواطنين أيها المسؤول، وخاصة مع من أنت مسؤول عنهم.

(يَبْسُطِ اللهُ عَلَيْكَ بَذلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ): إذا فعلت هذا؛ إذا فتحت أبوابك، ولقيت الجميع بوجه طلق، وتحملت الكلام القاسي، وأصغيت إلى الكلام غير الواضح، وتعاملت بترابية، واحتويت من أنت مسؤول عنهم واحتضنتهم، فإنّ الله (سبحانه وتعالى) يبسط عليك أطراف رحمته.

(وَيُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ): أجر طاعته، فيا أيها المسؤول، عندما تتحمل الناس وتتحمل كلامهم القاسي وتحتسب ذلك عند الله، وتبادلهم الابتسامة، وتحتضنهم، وتسمع كلامهم، وتأخذ ما هو جيد فيهم، وتصحح مواقفك، فهذا يستنزل الرحمة الإلهية، فتحصل على ثواب طاعة الله (سبحانه وتعالى) بهذه الخطوة.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

الإضاءة الأولى

فسح المجال للتظلم والاعتراض والشكوى

فسح المجال لمن كانت لديه ملاحظة، أو كلمة، أو مشكلة؛ أن يتكلم بها بلا قلق ولا خشية من أحد، ومن غير أن يترتب أثر على ذلك، مفتاح أساسي من مفاتيح النجاح لأي مسؤول، لأي قائد، سواء كان يقود عائلة من ثلاثة أفراد، أو يقود شعبًا من أربعين مليونًا، ولكل المستويات، وفي النظم الإداريّة القديمة كان هناك مجلس لهذا الغرض يسمونه مجلس التظلم، يجلس فيه الخليفة، أو الوالي، أو المسؤول بنفسه، أو يجلس فيه من ينوب عنه مباشرة، ويمنح صلاحيات واسعة، أو يرفع ما استعصى منها إلى السلطان، فيفتح الباب لكل من يريد الشكوى والتظلم، ويستمع لشكواه ويحقق فيها ويعطيه حقه.

أما كيف تعدّ هذه الحالة مفتاح نجاح المنظومة الإداريّة؟ فلأنها تردم الفجوة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم، أيًا كان مستواه، فالمصارحة، والقلب المفتوح، والاستماع لشكاوى من هو مسؤول عنهم، تعطي صورة جديدة للمسؤول، قد يوجد كلام بالتأكيد في الشكاوى، مع قطع النظر عمن يبالغ، كيف يعرضها، هذا عصبي، أو منفعل، ولكن الاستماع إلى هذه الشكاوى يفتح أفقا جديدا للمسؤول لإصلاح أدائه وخطواته ومواقفه، لردم الفجوة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم، وتتعزز الثقة بين المسؤول ومنظومته القياديّة، والرعية الذين يتحمل مسؤوليتهم، فيخلق بيئة اجتماعيّة آمنة، يشعر فيها الجميع بالأمان، ومن الخطأ أن لا يوجد باب مفتوح للمسؤول، ليقال له: لماذا فعلت هذا؟ أو هذه الكلمة خطأ، وهذا الإجراء ليس سليمًا؟ وبالطبع مع ملاحظة أن هناك من يستطيع أن يبيّن ويشرح، وهناك من لا يحسن ذلك، ولكن المهم أن لا يشعر المعترض بالقلق من شيء، وهذا من شأنه أن يخلق بيئة اجتماعيّة تسود فيها المحبة، والمودة، والتراحم، ورص الصفوف، ويشعر الجميع بالمسؤولية في المكان الذي هم فيه، عندما يشعرون أن مسؤولهم يحترمهم، ويأخذ كلامهم، ويتابع اعتراضاتهم وشكاواهم إلى غير ذلك، ومن شأن ذلك أن يخلق بيئة إداريّة سليمة أيضًا، ليس فيها ظلم، أو تعسف، أو تمييز؛ لأنّ المظلوم هو الذي يتوجع دائمًا، فإذا كان قادرًا

على أن يعترض ويقول هذه مظلومية، والمسؤول يتراجع ويصلح الإجراء، أو القرار، ولا أحد يُظلم، فهذا يخلق بيئة إداريّة سليمة.

إنّ سياسة فتح الأبواب، وفسح المجال للاعتراض، للنقد، والشكوى، تمثل مفتاحًا أساسيًا من مفاتيح النجاح، وبناء البيئة القياديّة الآمنة، والبيئة الاجتماعيّة الملائمة، فمن المؤكد أن أي حكومة، وأي مؤسسة، وأي منظومة قياديّة، فيها أخطاء، ومشكلات، ويساعد النقد البناء، والحرية في التعبير عن الرأي، في إصلاح الإشكالات، أما سياسة تكميم الأفواه، وقمع الآراء، وعدم السماح لأحد بالتكلم، والاعتراض، والشكوى، كما هو شعار الأحزاب والحكومات الديكتاتورية: نفّذ ولا تناقش، فتؤدي إلى تراكم الأخطاء، فيقع الانهيار في اللحظة التي تنعدم فيها فرصة التدارك.

وأما البيئة التي تفسح المجال للاعتراض والشكوى والنقد وما شابه، فهي تطور نفسها دائمًا، وتكون قادرة على التماشي مع متطلبات الحياة، متطلبات المهام لتلك المنظومة القياديّة، لذلك يجب أن يكون الجميع عرضة للنقد والاعتراض، ومن حق الأشخاص ضمن أي منظومة قياديّة أن يعترضوا على أي شخص، وإذا قيل له: إن هذا (عصبي)، أو يقال: إنه يتعامل معنا باستهانة، أو إنه يسيء لنا، فيجب أن يكون الأشخاص عرضة للنقد والاعتراض والشكوى، ويجب أن تكون الإجراءات والتعليمات قابلة للنقد والمراجعة؛ فيقال: لقد أصدرتم لنا هذه التعليمات في القضية الفلانية، وأمرتمونا أن نفعل كذا ولا نفعل كذا، الأمر الذي ترتبت عليه هذه التبعات، وقد عرفتم ما حلّ بنا جراء هذه الخطوة، إذن فكل شيء من الإجراءات والتعليمات والخطوات قابل للنقاش، ومن حق أي شخص أن يناقش، فإذا كان نقاشه موضوعيًا وصحيحًا وملاحظته في محلها يؤخذ بقوله، وإن لم تكن في محلها يوضح له بأنه مشتبه، وقد اتخذنا هذه الخطوة لوجود المصلحة الفلانية فيها، ويشرح له الأمر، وحينئذ لا يشعر أحد بالغبن والتعسف، ومن دون فسح المجال للاعتراض والنقد والشكوى، فإن أي مؤسسة قياديّة مهما كانت، ستشهد انحدارًا خطيرًا وتراجعًا حادًا في أدائها؛ لأنها ستعمل بعقل واحد، هو عقل المسؤول، يحرك المسؤولية بهواه، وهذا المسؤول الذي يريد أن يكون العمل بهواه، حتى لو كان علّامة دهره، وعبقري زمانه، فسوف تفوته أشياء، بل حتى النبي يستشير، كما أمره الله عز وجل بذلك بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[١٠٠]، فكل إنسان لا يستطيع أن يرى الحقائق من كل جوانبها وكل زواياها، فأحيانًا

١٠٠. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

يركز على جانب ويغفل عن الجوانب الأخرى، لذلك فإن فسح المجال للاعتراض والشكوى والنقد يعطي فرصة الديمومة، وتطوير الأداء بشكل دائم.

ورد في نهج البلاغة، في خطبة خطبها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في صفين، وهي خطبة طويلة فيها مضامين عالية جدًا، ولكن سآخذ لكم مقطعًا منها يخص هذا المقام الذي نتحدث فيه؛ أي العلاقة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم، بين القائد أو الوالي والرعية، أيًا كان المستوى القياديّ له.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية، وحق الرعية على الوالي»، من أعظم الحقوق التي وضعها الله (سبحانه وتعالى) حق المسؤول على من هو مسؤول عنهم، وحق الرعية تجاه المسؤول، فهي قضية متبادلة، وليست علاقة من طرف واحد، فالمسؤول له حقوق على من هو مسؤول عنهم، والرعية لها حقوق على المسؤول أيضًا، وهذه الحقوق المتبادلة بين المسؤول والرعية هي من أعظم الحقوق عند الله (سبحانه وتعالى).

«فريضة فرضها الله سبحانه وتعالى لكل على كل»، للمسؤول على الرعية، وللرعية على المسؤول.

«فجعلها نظامًا لألفتهم»، لكي تكون البيئة آمنة بالمحبة بين المنظومة القياديّة والرعية، فهذه الحقوق هي التي تنظم العلاقة، فضابط الإيقاع الذي يجعل العلاقة طيبة، ويجعل الألفة قائمة بين المسؤول والرعية، هي هذه الحقوق المتبادلة إذا عمل بها.

«وعزًّا لدينهم»، الانتظام القياديّ له انعكاسات على دين الناس، وقيمهم ومبادئهم.

«فليست تصلح الرعية إلاّ بصلاح الولاة»، الناس على دين ملوكهم، أتطمع بشعب يمشي سويًا ومسؤولوه يمشون مكبين على وجوههم؟ فالمتصدون ليسوا على قدر المسؤولية، ولا يمكن أن لا يمشي المسؤول على صراط مستقيم، ويسير الناس في طريق صحيح، فإذا التزم المسؤول بالقانون فإنّ الناس تلتزم بالقانون أيضًا، وإذا كان موكب المسؤول يمشي بشكل صحيح في الطرق العامة ضمن القواعد المرورية، فسوف تمشي مركبات الناس بشكل صحيح أيضًا وفقًا لهذه القوانين، أما إذا لم يحترم المسؤول هذه القوانين، فينبغي أن لا يُتوقع من الشعب مراعاتها، وهذه قاعدة عامة تنظم علاقة الشعب بالمسؤول.

«فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلاّ باستقامة الرعية»، المسؤول وإن كان إمامًا معصومًا مثل علي بن أبي طالب، إذا لم تطعه الناس فلا استقامة،

وقـد قـال علـي عَلَيْهِ السَّلَامُ : «لا رأي لمن لا يُطـاع»[101] ، فإذا لم توجد طاعـة ، فلا توجد استقامة ، ولا يوجد التزام ، وحينئذ لا يستطيع المسؤول أن ينجح في أدائه القياديّ .

«فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه» : بالاسـتقامة والالتزام والطاعة وتطبيق القوانين ، «وأدّى الوالي إليها حقها» ، بسعة الصدر ، بالانفتاح ، بالاستماع ، بالإصغاء .

«عزّ الحق بينهم» : صار الحق عزيزًا وكريمًا ومفيدًا لأنه ينظم العلاقة ، وكل فرد يأخذ حقه ومكانته .

«وقامـت مناهـج الدين» ؛ إذا أدّى الوالي للرعية حقهـا ، لأن هذا الحق قد وضعه الله سـبحانه وتعالى ونظّم من خلاله العلاقة بين الراعي والرعية ، والمسـؤول محترم ومقدر بين الناس ، والناس محترمة وخدماتها ومعيشـتها وحرياتها مكفولة بشكل سليم ، يصبح التمسك بالدين أكبر ، والالتزام بالقيم أشد ، حتى يقول القائل : إن هذا الدين جلب هذه العزة والاحترام .

«واعتدلـت معالم العـدل» : فلا أحد يمكن أن يظلم ، لأنه سـيكون خارجًا عن نظام المجتمع ، ويمكن أن نقول للمواطن غير الملتزم بالقانون المروري مثلًا : هذا المسؤول ملتـزم ، فلمـاذا لا تلتزم أنت؟ وهذا الموكب متوقف أمام الإشـارة الحمراء ، فلماذا أيها المواطن تتجاوز الإشارة الحمراء؟ وهكذا في كل التفاصيل ، فيشيع العدل .

«وجرت على أذلالها السـنن» ، أي جرت على وجوهها السـنن ، العادات السـليمة ، الأعراف السليمة ، كلها تسير في الاتجاه الصحيح ، وينتظم المجتمع ، فهناك مجتمعات مسـتقرة ، وهذا الاسـتقرار وليد لانتظام العلاقة بين المسـؤول والرعية ، هكذا يراها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ .

«فصلح بذلك الزمان» : تصبح الحياة أفضل ، والإنسـان عندما يفقد العيشـة المريحة ينبـري للترحم عليها ؛ فيقول مثلا : قديما كان كبير السـن محترمًا ، والناس يقدّر بعضها بعضـا ، والمسـؤول يبذل كل ما في وسـعه ، وكان النـاس محترمين أيضـا ، والحريات موجودة ، فما أحسـنه من زمان ، فتجده يترحم على ذلك الزمان ، ومعنى صلاح الزمان هو أن تكون الحياة فيه مريحة .

«وطُمـع فـي بقاء الدولـة» : الناس تطلب من الله تعالى اسـتمرار هـذه الدولة العادلة المنصفة التي تحترمهم وتقدرهم ، وتعطيهم حرياتهم وتحفظ كرامتهم .

---

١٠١ . نهج البلاغة ١ : ٧٠ الخطبة ٢٧ .

«ويئست مطامع الأعداء» ، تنتهي المؤامرات التي تُحاك ضد هذه الدولة ، فعمل المتآمر من خارج البيت ، إذ ينظر أين هي الخلافات ، فيصطف مع هذا ضد ذاك ، ومع ذاك ضد هذا ، ويخلق مشكلة بينهم ، ويعمّق الفجوة ، أما إذا رآهم كالبنيان المرصوص ؛ قلبًا واحدًا ، ويدًا واحدة ، يحبون وطنهم ، ويلتزمون بالقانون ، ويؤدون واجباتهم ، ويحترمون أنفسهم ، ويصونون كرامتهم وعزتهم ، فمن أين سيدخل العدو؟ ومن الذي سيمنحه المدخل؟ . . فالمؤامرات كلها ستزول .

«وإذا غلبت الرعية واليها» ، تتحرك الرعية بالغلبة ، فتسب المسؤول وتشتمه وتنال منه وتهتكه وتكسره .

«أو أجحف الوالي برعيته» ، أو ظلم المسؤول الرعية وأجحف بحقها .

«اختلفت هنالك الكلمة» ، حدث الاختلاف ، وزادت الفجوة ، وتعمّق الشرخ .

«وظهرت معالم الجور» ، ظهرت حالة الظلم والقسوة على الناس ، فالمسؤول يريد أن يحافظ على موقعه فيقسو على الناس ، فتتمرد الناس عندما ترى المسؤول يقسو عليها أكثر ، وحينئذ لا يبقى حجر على حجر .

«وكثر الإدغال في الدين» ، يختل الدين أيضًا ، والإدغال من الدَّغَل ، قال الجوهري : «والدَّغَل بالتحريك : الفساد ، مثل الدَّخل ، يقال : قد أدغَل في الأمر ، إذا أدخل فيه ما يخالفه ويفسده ، والدغل أيضًا : الشجر الكثير الملتف»[١٠٢] ، والإدغال في الدين ، يعني دخول الانحرافات والبدع ، فتصبح البدعة جزءًا من الدين ، فتضر الدين كما يضر الدغل الزرع ، وتذهب نقاوة القيم والمفاهيم الدينية ، وتغزو المجتمع مدارس الزندقة والإلحاد والفسق والفجور والأفكار الغريبة والشاذة .

انظروا كيف أن انتظام العلاقة المباشرة بين المسؤول ، الحاكم ، القائد ، والرعية ، يعني انتظام المفاهيم والقيم الدينية ، فإن ارتبكت هذه العلاقة دخل الإدغال في الدين ، ودخلت مدارس الإلحاد والزندقة والانحراف ، ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[١٠٣] ، هناك ارتباط بين انتظام المنظومة والالتزام القيمي .

---

١٠٢ . الصحاح ٣ : ١٦٩٧ .

١٠٣ . سورة الحج : الآية ٤١ .

«وتركت محاج السنن»، محاجّ جمع مَحَجّة، وهي منتصف الطريق السليم[١٠٤]، فإذا ارتبكت العلاقة تُركت محاج السنن، والسنن: الطرُق[١٠٥]، أي ترتبك الأعراف كلها، فلا تبقى حرمة لكبير، ولا عطف على صغير، ولا موازين وأعراف واضحة، ولا عمامة محترمة، ولا عقال محترم، فعندما ترتبك العلاقة القياديّة تكون هذه الانعكاسات المجتمعية الخطيرة، على دين الناس وقيمهم، وعلى الأعراف الاجتماعيّة.

«فعمل بالهوى»، كلٌ يعمل بهواه. . فترى بعضهم يفتح صفحة فيس بوك، ويتحدث كما لو كان بطل الأمة، والقائد الفذ. . فمن أنت؟ وما أنت؟ ما هو تأريخك؟ من أين أتيت؟ ما هي قصتك؟ يُخطّئ هذا، ويُنزل ذاك، ويرفع هذا بهواه، فما هو الصدق؟ ما هو الكذب؟ ما هو الخطأ؟ ما هو الصحيح؟ ضاعت الحقيقة بسبب ارتباك المنظومة القياديّة.

«وعطّلت الأحكام»، تجد في شهر رمضان نسبة كبيرة من الناس لا تصوم، فإن سألته عن السبب، قال: نخاف من كورونا، فما علاقة كورونا بالصوم؟ والحمد لله فإن التقارير الأخيرة تقول إن الصوم يقوي المناعة، والمناعة القوية تمنع من فتك مرض كورونا بالمصاب، أجارنا الله منه جميعًا، فمن يصوم أُبعد من كورونا، فلماذا تفطر؟ وقد كنت تتجول في سوق بيع الطيور يوم الجمعة بين المئات من الناس، ألم تخف من كورونا؟ والآن حين جاء الصوم أصبحت تخاف من كورونا.

بعضهم يبحث عن عذر ليتملص من فريضة الصوم، فتارة يتحجج بالحر، وتارة يتحجج بالبرودة، والآن بكورونا، فهل تريدون أن يكون الصوم في الربيع؟ لقلتم لماذا جعل الصوم كله في الربيع؟ نحن أيضًا نريد أن نتنزه ونخرج للحدائق ونأكل ونشرب.

«وكثرت علل النفوس»، ازدادت أمراض النفوس، وذهب عنها الصفاء، وغشيها غبش، فالنفس ليست صافية، وعندما تصفو النفس يمكن حمل كلام الغير وفعله على الصحة، فحين لا يردّ عليهِ السلامَ، يقول: من المؤكد أنه لم يسمع، وإذا قيل له: إن فلانًا قال عنك كذا وكذا من الكلام البذيء، يلتمس له عذرا، بأن يقول: لعله كان منفعلًا، ومن المؤكد أن لديه مشكلة، فكلٌ يختلق العذر للآخر، ويتجاوز عن زلل الآخر، ولكن حين تختلف النفوس، فكل ما تفعله من أجله لكي يرضى لا يقدره، وتفعل له ما يريد فلا يرضى، ولو تواضعت له لقال: أترون كيف أذللته؟ وإذا تصلبت معه قليلًا قال: أرأيتم الجبروت والتعالي والكبرياء، فقل لي كيف تريد أن أتعامل معك؟

---

١٠٤. انظر: النهاية في غريب الحديث ٤: ٣٠١.

١٠٥. الصحاح ٥: ٢١٣٨

إن تواضعت له قال كذا، وإن لم تتواضع قال كذا.. إن جئت به وأقعدته في خيمة قال: أنتم تحكمون العراق منذ سبعة عشر عامًا وتجلسوننا في الخيم، وإن أقعدته في قاعة، قال انظروا إلى هذه القاعات الفارهة التي يتقلبون فيها والفقراء لا مأوى لهم سوى دور الصفيح، فأين تريد أن أجلسك؟!.

«فلا يستوحش لعظيم حق عطل»، فلا يستنكر ولا يستعظم تعطيل حقوق عظمى، ولا يتحرك له جفن، ولا يهتم.

«ولا لعظيم باطل فعل»، ولا يهتم بانتهاكات أخلاقية خطيرة.. انظروا إلى أعراضنا، انظروا إلى شبابنا، انظروا إلى أولادنا، انظروا إلى بناتنا، انظروا إلى السرقات الكبيرة، انظروا كيف يؤولون الفساد المالي بمئة تأويل، ويرى بأم عينيه ظلم القوي للضعيف ولا يهمه، وكأنه لم يحصل شيء، فإن اختلال المنظومة القياديّة له انعكاسات خطيرة، في هتك الحرمات، والفساد المالي، والفساد الأخلاقي، والفساد العقيدي، وكل شيء سيختل.

«فهنالك تذل الأبرار»، يُذل الإنسان المحترم ويضيع بهذه الفوضى، فالإنسان المحترم لا يلقي بنفسه في هذه الأشياء.

«وتعز الأشرار»، يصبح الأشرار والأراذل هم سادة البلد، فتجد شيخ السراق قد أصبح بالمنصب الفلاني، فعندما ترتبك العلاقة لا يبقى حجر على حجر.

«وتعظم تبعات الله سبحانه عند العباد، فعليكم بالتناصح في ذلك، وحسن التعاون عليه، فليس أحد وإن اشتد على رضا الله حرصه، وطال في العمل اجتهاده، ببالغ حقيقة ما الله سبحانه أهله من الطاعة له، ولكن من واجب حقوق الله سبحانه على عباده النصيحة بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحق بينهم، وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته»، مهما كان رفيعًا، مهما كان ملمًا، «وتقدمت في الدين فضيلته»، مهما كان عالمًا بشؤون الدين، عالمًا بشؤون الحياة، لديه خبرة، وعلم، ومعرفة، «بفوق أن يُعان على ما حمّله الله من حقه»، مهما كان سوف يبقى يحتاج إلى العون من الله سبحانه وتعالى، لأداء الحقوق، وإعادة انتظام هذه العلاقة بشكل صحيح، وفتح صفحة جديدة، «ولا امرؤ وإن صغّرته النفوس»، مهما كان الإنسان بسيطًا ولا يملأ منظره العين، «واقتحمته العيون»، يعني احتقرته العيون، فعندما يراه الناس يقولون باستخفاف: من هذا؟ «بدون

أن يعين على ذلك»، لكن تحتاج إلى أن تسمع منه، لعل الله يجعل الكلمة التي فيها الحل على لسانة، هذا الإنسان البسيط الذي لم يلتفت إليه أحد، «أو يعان عليه»[١٠٦].

مهما كانت مواهب الإنسان وقدراته القياديّة، فهو يحتاج إلى النصيحة، ومهما كان الإنسان بسيطًا ومتواضعًا فقد تكون لديه كلمة تغير الوضع كله، وتصلح الوضع برمته، فالكل يحتاج إلى الكل، ولا يحق لأحد أن يقول: أنا أفهم كل شيء، فمهما كنت عبقري زمانك، فعليك أن تسمع لأبسط إنسان، فربما كانت لديه كلمة يقولها بطريقته، فتأخذها أنت وتنظر لها وتفلسفها فتكون هي حل المشكلة كلها، وهناك من يقول كيف نحل مشكلات العراق، وقد طفح بالفساد والصراعات؟ ورب عجوز مقعدة تتفوه بحكمة تكون هي الحل، بأن يجري الله تعالى الحل على لسانها، فلا ينبغي أن نستخف بأحد، فالمنهج الإسلاميّ يأبى ذلك، والقيم الإسلاميّة تأبى الاستخفاف بأحد، ولذا يجب أن نسمع لكل أحد بعمق وإمعان، فلعل الله تعالى يجعل الحكمة على لسانه، وعلى المسؤول أن لا يستكثر مهما بلغ، أن يستمع للآخرين ويأخذ نصيحة الآخرين.

الإضاءة الثانية

الاستماع إلى التظلمات والشكاوى والاعتراضات

يحتاج هذا إلى برنامج، ولا ينفع فيه الكلام فقط، فيجب أن يخضع لبرنامج، فما هو هذا البرنامج؟ يشرحه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ضمن الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: (وَاجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ)، سياسة الباب المفتوح، افتح بابك، وافتح قلبك لكل من أنت مسؤول عنهم، واستمع إلى ما عندهم من كلام، أو اقتراح، أو اعتراض.

الخطوة الثانية: (قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ)، أيها المسؤول، مهما كانت مسؤوليتك كبيرة، ومهما كنت مشغولًا إلى مستوى لا تستطيع معه أن تجد وقتًا يسيرًا لشؤونك الشخصية، فيجب أن تخصص وقتًا للناس، وتفتح بابك وتستمع لهم، فتشكيل اللجان والممثلين أمر جيد، ولكنه ليس كافيًا، فيجب أن يسمع المسؤول بنفسه بشكل مباشر لمن هو مسؤول عنهم، أيًا كانت هذه المستويات.

---

١٠٦. نهج البلاغة ١٩٨: ٢ الخطبة ٢١٦.

يقول بعضنا لزوجته: انظري في أمر الأولاد، بأي شيء هم مشغولون؟ وما هي احتياجاتهم؟ كلا، بل اجلس معهم بنفسك مباشرة، وتكلم معهم واجعل من ابنك صديقًا لك، وعليك أن لا تنفعل حين يطرح عليك فكرة غريبة، ووسّع له صدرك، وتولَّ تربيته وتنميته، ويجب على المسؤول أن لا يتذرع بالمهام الكبيرة والكثيرة، لعدم الاستماع إلى الناس بشكل مباشر.

أذكر لكم قضية شخصية حدثت معي، وقعت قبل خمس وعشرين سنة أو أكثر، حينما كلفني شهيد المحراب (قدس سره الشريف) أن أتولى إدارة مدرسة علمية في قم، أسسها سماحته تحت اسم (مدرسة الإمام الحكيم)، وهي مدرسة (دار الحكمة)، أعاد شهيد المحراب تأسيسها في قم بعد أن فجّرها نظام صدام في سنة (١٩٩١) في النجف، وجعلني مديرًا لهذه المدرسة، وكان فيها في أول سنة شعبة واحدة، تضم خمسة وعشرين طالبًا يدرسون دراسة حوزوية، فكل المدرسة شعبة واحدة، والإدارة غرفة واحدة، وأنا المدير ولديّ معاون يقوم بالشؤون الإداريّة، وثالث للخدمات، فنحن ثلاثة أشخاص في المدرسة، فكنت أذهب لأحضّر دروسي، ثم آتي بعدها إلى المدرسة، والمعاون الإداريّ كان هو من يقوم بالأمور الإداريّة، وبعد شهرين أو ثلاثة، كنت جالسًا عند شهيد المحراب، فسألني عن أوضاع المدرسة، فشرحت له؛ سيدنا أتينا بخيرة الأساتذة، وفعلنا كذا، وهؤلاء الطلاب انتقيناهم بعناية، وعددهم خمسة وعشرون ولكنهم من الطلاب الجيدين، إلى آخره، وعندما انتهيت فاجأني بسؤال: هل تجتمع مع الإدارة؟ فضحكت وقلت له: سيدنا أي إدارة؟ نحن نجلس في غرفة واحدة، أنا والمعاون والخدمات، فمجموعنا ثلاثة أشخاص، فكيف أجتمع معهم ونحن جالسون وجها لوجه في غرفة واحدة؟ فقال: كلا، لو تعقد اجتماعًا، مع أننا ثلاثة فقط، ولدينا خمسة وعشرون طالبًا، هذا كل شيء، والمعاون أمامي وجها لوجه، فقال السيد: احترامًا لك دوّن قناعتي، فقلت: إن شاء الله سيدنا، وفي ذاك اليوم جئت إلى الأخ المعاون، و اسمه (أبو غيداء)، فقلت له: أخي أبا غيداء، لدينا اليوم اجتماع بعد الدوام، فقال: أي اجتماع؟ فقلت له: لا أدري، نجتمع ونرى والله كريم، فاستغرب بقدر استغرابي، وبعد انتهاء الدوام وخروج الطلاب، أغلقنا الباب وجلسنا وأنا لا أدري ماذا سأقول، فبدأت بالبسملة وقراءة الفاتحة، ثم قلت: إخواني المعاون والخدمات، دعونا نناقش أوضاع المدرسة، كيف ترون الأمور في سير الدراسة وأوضاع المدرسة؟ فتحدثنا كلمة من هنا وكلمة من هناك، وانفجر الأخ أبو غيداء، وانطلقت كلماته كالسيل: سيدنا كذا وكذا وكذا، وإذا بمئة قضية وقضية، وأخذني العجب مما يقول، وسألته عن

سبب عدم إخباري بكل هذه الأمور؟ فقال: لا أدري والله، وأدلى مسؤول الخدمات بدلوه وحكى بعض الأمور، وهذا الاجتماع الذي كنت أتصور أنه سينتهي بنصف ساعة، استغرق ساعتين، وأعطوني صورة أخرى، وسيلًا من الملاحظات والمسائل والقضايا، وعند خروجي وأنا في الطريق قلت: كم كان شهيد المحراب عميقًا عندما طلب مني عقد اجتماع رسمي، للاطلاع على سير الدراسة، وأنه لا يكفي أن نجلس في كل يوم ونتبادل أطراف الحديث.

هذه منظومة قياديّة مساحتها خمسة وعشرون طالبًا، وإدارة من ثلاثة أشخاص، ومع ذلك كانت تحتاج إلى اجتماع، وعندما انتهى هذا الاجتماع طلبت منهم أن يكون الاجتماع أسبوعيًا، لكي لا تتراكم المشكلات بهذه الطريقة، فيجب على المسؤول أن يجلس بنفسه ويستمع، فهذا شيء مهم.

الخطوة الثالثة: (وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً)، مجلسًا عامًا وليس انتقائيًا، فلا يقول المسؤول: لا أستطيع تحمل عقد اجتماع عام والاستماع إلى كل هؤلاء، اختاروا مجموعة منهم يعرفون كيف يتكلمون بكلام يريحني، ويشكلون لجنة باسم المتظاهرين، وترون الآن أناسًا يتظاهرون اعتراضًا على الوزارة الفلانية، ولنقل إن عددهم مئتا متظاهر، والوزير لا يستطيع تحمّل النزول إليهم والتحدث معهم، فهذا يصرخ وذاك يصيح، إلى آخره، فيرسل مدير مكتبه ليطلب منهم تشكيل لجنة من ثلاثة أشخاص، من أجل مقابلة السيد الوزير في مكتبه.. ارتدوا بدلات والبسوا أربطة، وتكلموا بما تريدون، وأفهموه مطالبكم.. ويبدأ التنسيق ويختارون ثلاثة أشخاص ويُطلب منهم أن لا يستغرق الاجتماع أكثر من خمس دقائق، وأن يتكلموا بكلام مرتب مع السيد الوزير لكي لا ينزعج، كلا، هذا غير مقبول في منطق علي عَلَيهِ السَّلَامُ وفي مدرسته، بل يجب على الوزير أن يعقد مجلسًا عامًا، يشترك فيه كل من يستطيع الوصول ليتكلم بما يريد، فلا يكون المجلس انتقائيًا، فيُدخَل أناس ويُخرَج آخرون بما يناسب المسؤول، وليسمعوه كلامًا طيبًا، ويصفوا له الجنة، وأنّ كل شيء على ما يرام، كلا، ليست الأمور على ما يرام، بل هناك مشكلات ويجب أن يسمعها المسؤول لكي يعالجها.

الخطوة الرابعة: (فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ)، عندما تجلس في مجلس المظالم لتستمع إلى الشكاوى، لا تجلس وراء الطاولة، اجلس مع الناس، والبس ملابس عادية بسيطة، وتكلم معهم، مازحهم، اكسر الرهبة في قلوبهم، ليطمئن المواطن الذي يقف أمام المسؤول وقلبه يدق رهبة، فاستقبله بابتسامة ومزحة، ودعه يهدأ لكي يستطيع

أن يتكلم بما يريد. يجب أن تسود الجلسة مع الناس المشتكين والمعترضين الترابية والتواضع، بعيدًا عن الأبهة والفخفخة والتصنع.

الخطوة الخامسة: (وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ)، يجب أن تزيل كل أنواع الترهيب والتخويف والضغط النفسي، وإثارة الخوف، ليأتي المواطن ويتحدث مطمئنا، لا يخاف من شيء، فعليك أن تزيل القلق عن أولئك الأشخاص لكي يتحدثوا وينقدوا ويشتكوا من دون تردد، ولا يخشوا من أن تترتب أي مساءلة قانونية أو توبيخ على اعتراضهم، ولا تترتب أي إجراءات تعسفية إذا قلت له أنت مخطئ في هذا الأمر، فإن نُقلت من مكاني، وأُعفيت من المسؤولية، فمن يجرؤ على أن يتكلم بكلمة أو ينقد أداء المسؤول بعد ذلك؟ إذ سيُتخذ بحقه إجراء تعسفي، لذلك يجب أن تكون هناك حرية ليبيّن المعترض أو المشتكي رأيه ووجهة نظره، سواء كان مصيبًا أو مخطئًا، من غير أن تترتب عليه تبعات، ويرجع عزيزًا كريمًا إلى مكانه الذي كان فيه، لا أحد يعرّضه للمساءلة لأنه اعترض أو اشتكى، وهذا أمر مهم جدًا.

الخطوة السادسة: (حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ)، يجب توفير البيئة الآمنة، المريحة، المطمئنة للمشتكي والمعترض، في أن يتحدث ويشتكي ويعبر عمّا يجول في خاطره، من دون تردد وقلق، فهذا شيء مهم جدًا، يساعد على إصلاح المؤسسة القياديّة، وعلى تطويرها بشكل مستمر، وعلى معالجة أخطائها، إلى غير ذلك.

ويتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الخطبة آنفة الذكر، عن هذا الجانب؛ إذ يقول عليه السلام: «وإنّ من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس»، السخف: قلة العقل[107]، يعني أن أقل الولاة عقلًا هو من يحب الإطراء والمديح عند الصالحين، لا عند غير الصالحين الذين لا يرون الوالي الذي يقبل المديح سخيفًا.

«أن يظن بهم حب الفخر»، الفخر: نشر المناقب وذكر الكريم بالكرم[108]، لا أن يحب الولاة الثناء والمدح فقط، بل أن يظن بهم ذلك، كما لو شاع بين صالحي الناس أن المسؤول الفلاني يحب أن يتعامل معه بشيء من الفخر.

«ويوضع أمرهم على الكبر»، أن يؤخذ عليهم أنهم أناس متكبرون.

«وقد كرهت أنه قد يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء واستماع الثناء»، في الأمس لم يكن لينظر إلى فلان من الناس أو يحسب له حسابًا، وإذا به أصبح وزيرًا في

١٠٧. الصحاح ٤: ١٣٧٢.

١٠٨. كتاب العين ٤: ٥٤.

الحكومة، فتبدّل الوضع وانقلبت الموازين، وتغير الخطاب وأصبح يناديه: معاليك، ما شاء الله، ما هذا الجمال؟، ما هذا الحسن؟، ما هذه الأناقة؟، ما هذه الأفكار العظيمة؟، أنت واقعًا فلتة زمانك!.. سبحان الله، ما هذا التملق؟ ما هذا النفاق؟ بالأمس القريب لم يكن يشتريه بفلسين، والآن يسمعه كلام الإطراء.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ، إني أكره أن يؤخذ عليَّ أني أحب المديح، وأن تحتملوا ويخطر في بالكم ذلك.

«ولست بحمد الله كذلك، ولو كنت أحب أن يقال ذلك»، حتى لو كنت أحبه وأريده، «لتركته انحطاطًا لله سبحانه»، تواضعًا لله (سبحانه وتعالى)، فالإنسان القوي ينبغي أن لا يهزه المديح ولا يؤثر فيه.

عندما رجع الإمام الخميني (قدس سره) إلى إيران من المنفى بعد ثلاث وعشرين سنة من الهجرة، ونزل من الطائرة قادمًا من باريس، سأله أحد الصحفيين عن مشاعره وهو يضع قدميه على أرض الوطن بعد ثلاثة وعشرين عاما من الغربة، فأجاب: ليست لدي أي مشاعر خاصة، التكليف أخذني إلى الغربة، والتكليف أرجعني إلى الوطن، فظل الناس مندهشين من هذا الجواب.

«وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء واستماع الثناء، ولست بحمد الله كذلك، ولو كنت أحب أن يقال ذلك، لتركته انحطاطًا لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء»، فالمديح والإطراء إنما يليقان بالله (سبحانه وتعالى) وحده، فالله جل جلاله هو صاحب العظمة والكبرياء، والجود والجبروت، وهو من يستحق الثناء دون غيره.

«وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء»، يحب الناس بعد القيام بعمل مضنٍ وكبير، أن يُمدحوا ويُثنى عليهم، كأن يقال لهم: عاشت أيديكم، جزاكم الله خيرًا، بارك الله بكم، ويود المسؤول عندما ينجز عملًا كبيرًا ويقصون الشريط، أن يشكره الآخرون ويقدروا إنجازه ويثمنوه.

«فلا تثنوا عليَّ بجميل ثناء»، أنا علي بن أبي طالب، أنا المسؤول، أنا القائد، لا أريد ثناء منكم.

«لإخراجي نفسي إلى الله سبحانه وإليكم من التقية»، يعني من الخوف، وبالطبع يراد به اللازم للعقاب، أريد أن أُخرج نفسي من العقاب الإلهي، فهذا يمدح وذاك يمدح؛ أنت العبقري، وأنت الأوحد، وأنت أنت، فأصدق كلامكم وأنسى آخرتي، هكذا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ.

«في حقوق لم أفرغ من أدائها» ، هنالك حقوق لم أكمل أداءها بعد للناس .

«وفرائض لا بدّ من إمضائها» ، وهنالك واجبات عليّ لم أفعلها ، ويجب عليّ أداؤها .

«فـلا تكلمونـي بمـا تُكلَّمَ بـه الجبابـرة» ، فخامة الرئيـس ، جلالة الملـك ، حضرة السلطان ، لا أحتاج إلى هذه الألقاب التي يُتكلم بها مع الجبابرة .

«ولا تتحفظـوا منـي بمـا يتحفظ به عند أهل البادرة» ، وهم أهـل الغضب ، إذ تحتاط الناس من الإنسان الغاضب ، ولا تتعرض له وتتجنب شره ، فهنا يقول أمير المؤمنين لمن أراد أن يكلمه : لا تخف ، تكلم باطمئنان ومن غير تكلف ؛ هكذا تعاملوا معي ، قولوا لي يا علي ، ولا تقولوا يا خليفة ، وتحدثوا بما تريدون .

«ولا تخالطوني بالمصانعة» ، المصانعة : المداراة ، كأن تريد أن تدخل على مسؤول فتحرص على أن تكون في أفضل هيئة ، وتهتم كيف تكون وقفتك ، وكيف تتكلم ، وكيف تنتقي العبارات ، ولكن أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ يقول لك : كلا ، كُن على طبيعتك ، وتكلم بالأسـلوب المعتـاد ، وقد رأيتم البعـض عندما يريد أن يتحـدث بالفصيح وهو لا يعرف قواعـده ، كيف يرفع وينصب كما يحلو له ، ويأتي بتراكيب عجيبة وغريبة ، تحدّث على سجيتك كما تتحدث مع الناس ، فلا أريد مصانعة ، أو مداراة .

« وَلاَ تَظُنّوا بِيَ اسْـتِثْقَالًا فِي حَقّ قِيلَ لِي ، وَلاَ التمَاسَ إِعْظَام لِنَفْسِـي» ، لا تظنوا أني أسـتثقل أو أضجـر من حق يقال لي ؛ فإن قيل يا علـي لم تفعل هذه القضية ، يا علي نريد تلك القضية منك ، لا أستثقل ذلك ، فأي شيء فيه عدل وإنصاف فقولوه ، فإني لا استثقله ولا أتكبر عن سـماعه منكم ، فلا تسـتثقل أيها المسـؤول إن قيل إنك مقصر في المسـألة الفلانية .

« فَإِنَّـهُ مَـنِ اسْـتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْـهِ ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْـهِ» ، هـذا الذي يسـتثقل مـن أن تقال له كلمة حـق ، أو يُذكّر بعـدل ، إذا كان الكلام يؤذيه ، فالعمل بهذا العدل يؤذيه أكثر ، فمن الطبيعي أن الذي لا يتحمل أن يسمع كلمة ، لا يستطيع أن يعمل بها ، فإذا هو ضجر من الكلمة فكيف سينفذها؟ فيجب أن لا يستثقل المسؤول أن يستمع إلى الملاحظات ، أو الاعتراضات ، أو الشكاوى .

«فلا تكفّوا عن مقالة بحق» ، يشـجعهم علي عَلَيهِ السَّلَامُ على قول الحق ، ويحثهم على قول أي شيء يرونه من حقهم .

«أو مشـورة بعدل ، فإني لسـت في نفسي بفوق أن أخطئ» ، مع قطع النظر عن الإرادة الإلهية والرعاية الإلهية بالعصمة ، ولكن أنا في نفسـي لسـت بفوق الخطأ ، فقد أقع في

الخطأ، صحيح أن علي بن أبي طالب ليس في نفسه، ولكن لعصمته لا يقع في الخطأ، لكن المسؤولين الآخرين يقعون في الخطأ مهما كانوا.

«ولا آمن ذلك من فعلي»، قد يكون في فعلي تعسف لو خُليت أنا وطبعي بهذا الشكل.

«إلاّ أن يكفي الله به من نفسي ما هو أملك به مني»، لكن الله (سبحانه وتعالى) هو أقدر مني وأكثر ملكية لنفسي مني، فهو يتحكم بي.

«فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا، وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه»، الله هدانا وأصلح أمورنا. . اليوم في شهر رمضان نحن صائمون، ولكن كثيرًا من الناس مخطئون، فالله هدانا، واليوم في شهر رمضان نحن مجتمعون، نستمع إلى هذه المعارف الإسلاميّة المهمة، من كلام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وغيرنا الآن ليس لديه هذا التوفيق، فهذا توفيق من الله أن وفر لنا هذه الفرصة، فكل شيء طيب من الله (سبحانه وتعالى)، لطف منه، ويجب أن نعتز ونفتخر به، «فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى»[١٠٩].

الإضاءة الثالثة

مكانة تحمّل النقد والاعتراض من قبل المسؤولين

ينبغي أن يكون المسؤول والمتصدي، أيّا كان مستوى مسؤوليته، قادرًا على تحمل النقد والاعتراض، وبالطبع فإن تحمل المسؤول الاعتراض أمر صعب، سواء كان على مستوى مسؤولية بيت فيه شخصان أو ثلاثة، فتقف الزوجة وتعترض على زوجها، ويقف الولد والبنت ويعترضان على أبيهما، في خطوة أو في موقف، أو بالنسبة لمدير مصنع، أو مسؤول في مؤسسة تجارية، أو في مشروع، أو في منظمة مجتمع مدني، أو في تيار سياسيّ، وصولًا لانتقاد رئيس الدولة، أو الوزير، أو وكيل والوزير، أو المدير العام، أو أي مسؤول كبير في مؤسسات الدولة المدنية أو العسكرية، وما إلى ذلك، فالنقد أمر يصعب تقبله من قبل المسؤول بشكل طبيعي، ولكن التحلي بأخلاقية التقبل للنقد والاعتراض يترك أثرًا بالغًا وعظيمًا وكبيرًا في نجاح المنظومة الإداريّة والقياديّة.

وكما قلنا سابقًا، من الصعب أن نجد أي منظومة إداريّة أو قياديّة - مهما كانت - ليس فيها ثغرات وإشكالات وكبوات، فما لم نفسح المجال للنقد الموضوعي، وللمراجعة

---

١٠٩. نهج البلاغة ٢: ١٩٨ الخطبة ٢١٦.

الحقيقية البنّاءة، فمن الصعوبة أن نضمن النجاح والتألق، فإعطاء الفرصة للاعتراض والانتقاد هو مفتاح أساسي من مفاتيح النجاح في المنظومة الإداريّة والقياديّة، ومن دون فسح المجال للاعتراض والشكوى والنقد وما إلى ذلك، تصاب المؤسسة بحالة من الانحراف والتراجع والانحدار الخطير، حين لا يجرؤ أحد على أن يقول هذا خطأ وهذا صحيح، فإذن يجب أن يبقى المجال مفتوحًا للنقد والاعتراض والشكوى بشكل مستمر.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: (ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ)، بعد إرساء قاعدة فسح المجال أمام الاعتراض والنقد، ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بيان أن هناك من الناقدين من هو أخرق، ينقد بشكل سلبي، ويستخدم عبارات كاسرة، وينتقد بطريقة ساخرة، وهذا أمر مزعج جدًا للمسؤول في تلك المنظومة أن يتحمل الاعتراض والانتقاد القاسي والجارح، وهنا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: عليك أيها المسؤول أن تتحمل مثل هذه الانتقادات، تحمّل من يتعامل بغلظة وشدة.

(وَالْعِيَّ)، العيّ هو عدم القدرة على البيان بشكل سليم، فهناك من يعاني مشكلة في النطق، ولا يستطيع أن يتكلم بشكل صحيح، ويحتاج إلى وقت طويل حتى تفهم ماذا يريد، لأنه يقف عند كل كلمة لكي يتلفظها، فعليك - أيها المسؤول - أن تصبر عليه وتتحمله، ولا تقل له: اذهب واكتب ما تريد في ورقة وقدمها لي، بل عليك أن تتحمله وتأخذ معه وتعطي في الكلام حتى تعلم ما يقول.

وأحيانًا ليست المشكلة في النطق، بل في القدرة على التعبير، فقد يتكلم أحدهم عشر دقائق، ولكن لا تعرف ماذا يريد، إذ لا يستطيع أن يجمع جملتين مفيدتين في كلامه، وتصرف معه وقتًا، وهو يتكلم ويتكلم، من غير أن تعرف ماذا يريد بالضبط، وما هو الأمر الذي يطلبه، إذ لا يستطيع أن يبين مطلبه بشكل صحيح، وهذا أمر يستفز المسؤول أيضًا، إذ تسمع شخصًا، وتعطيه من وقتك الثمين، ويأخذ منك ربع ساعة، ثم لا تستطيع أن تفهم ماذا يريد أن يقول، وهنا يطلب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من المسؤول أن يصبر عليهم ويتحمل الخرق منهم والعيّ.

(وَنَحِّ عَنْهُمُ)، أبعد عنهم.

(الضِّيقَ)، لا تتعامل معهم بغضب حينما تجد أن في تعبيرهم خطأ، أو تجدهم غير قادرين على التعبير الصحيح وإيصال المعاني بشكل سليم، وتعامل معهم بيسر، وابتسامة، وبشاشة، وساعدهم، وقم باحتوائهم، حتى تعرف ماذا يريدون، فلعل هذا الشخص الأخرق الذي يتحدث حديثًا كاسرًا جدًا وسيئًا، لديه معنى صحيح، ومنطق

صحيح ، ولكنه يعبّر عنه بطريقة خاطئة ، فخذ أنت المعنى الصحيح واستفد منه في تطوير منظومتك القياديّة .

(وَالْأَنَـفَ) ، الأنَـف من الأَنَفَة ، والأنفـة : التعالي ، لا تتعامل مع الناس باسـتعلاء ، باسـتخفاف ، بنظرة متعالية ، بابتسـامة صفراء ، بكلام فيه اسـتصغار وكسـر لهم ، فيفقد المشـتكي أو المعترض الرغبة في الكلام والاعتراض والبيان ، كلا ، لأنّ المسـؤول في حصانة معنوية أمام الآخرين دائمًا ؛ فهذا آمر فوج ، وهذا آمر سـرية ، وهذا معالي الأمين العـام ، ومعالـي الوزيـر ، وفخامة الرئيس ، إلـى آخر هذه التعبيرات ، فالمسـؤول يتمتع بحصانـة معنويـة ، ويأتـي الآخر ليتكلم وهو مضطـرب ، ولديه قلق كيف سـيتكلم أمام المسؤول؟ ، فإذا أعرض عنه المسؤول ، أو نظر إليه نظرة غاضبة ، أو نظر بوجهه شزرًا ، أو بابتسامة صفراء ، أو قال نكتة لتسفيه وتسخيف كلامه ، فسوف تضيع القضية كلها .

إنّ مسـألة فسـح المجال للاعتراض والشكوى ليسـت إسقاط واجب ؛ عندما أجلس وأجمـع النـاس وأطلب منهـم الكلام ، ولكن لا يجـرؤ أحدهم على قـول كلمة ، وإنما جمعتهـم من أجل أخذ لقطة تلفزيونية يبثها الإعلام ليوصل رسـالة للناس أني أسـتمع ، كلا ، (مـا هكـذا تورد يا سـعد الإبل) ، بـل يجب خلق البيئـة الآمنة والهادئة والسـليمة ليتحدث المعترض من دون أن يخشى المسؤول ، كما شرحنا ذلك سابقا .

(يَبْسُـطِ اللَّهُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ) ، إذا فعلت هذا ؛ تحمّلت الاعتراض الغليظ والخشـن من الآخريـن ، وتحمّلت سـوء بيانهم وعدم قدرتهم على التعبير ، ولـم تغضب ولم تتعامل باستعلاء .

(أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ) ، ينزل الله سبحانه رحمته على هذه المنظومة القياديّة التي يُحترم فيها الضعيف ، ويُسمع فيها للشاكي والمعترض بالنحو الأفضل .

(وَيُوجِـبْ لَكَ ثَـوَابَ طَاعَتِهِ) ، الله (سـبحانه وتعالى) يؤجر هذا الإنسـان المتصدي القياديّ ، على تحمله وصبره أمام هذه المنغصات .

ماذا يريد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يقول في هذه الإضاءة؟ .

يريد أن يقول : إن بعض الناس ليسـت عنده ثقافة اسـتثمار حرية التعبير ، فلا يحسـن الاستفادة من هذه الفسحة ؛ في أن يشتكي ويعترض ويقول ما يريد ، فنراه يكسر ويتكلم بـكلام جارح ، يجافي الحقيقـة ، ويتفوه بكلام علنًا وبوقاحة وهو يعلم أنه غير صحيح ، وبعضهم صلف ، أو يجافي الإنصاف ، والبعض تنجز له مائة مطلب ، وعندما لا تنجز له مطلبًا واحدا فقط ، تراه يصرخ : أنتم لا تهتمون بنا ، ويتناسى كل ما عملناه لأجله ويبقى متمسـكًا بهذا الواحد فقط ، وهذا ليس إنصافًـا ، والبعض الآخر مبتلى بمرض التعميم ،

فحيـن يذهـب إلـى طبيب مثلًا ويجـده لا يلتزم بشـرف المهنة ، كأن يكـون قد أجرى له عمليـة لا يحتـاج إليها ، أو أخذ منه مالًا أكثر من الأجـر المتعارف ، تجده يخرج صارخًا متهمًا جميع الأطباء بالخيانة وبأنهم فاقدو الشـرف والإنسـانية ، وأنهم كلهم يبحثون عن الأرباح فقط واسـتغلال المرضى ، وليس لديهم من الإنسـانية شـيء ، مـع أن الواقع أن هناك ألف طبيب يعمل ليل ونهار بشكل سليم ، أو تسمع أحدهم يتهم جميع المهندسين بالخيانـة والتقصيـر فـي أداء عملهـم ، وبأنّ همّهم هـو جمع المال فقـط ، كل ذلك لأن المهنـدس الـذي كان يشـرف على بنايته لم ينجز عمله بالشـكل المطلـوب ، وظهر فيها بعـض العيـوب ، مع أن المقصّر هو مهندس واحد فقـط ، وكذا الحال مع رجل دين وقع فـي خطأ ، فتراه يتهـم جميع المعممين بذلك الخطأ ، وكذا بعض السياسـيّين يقعون في أخطاء ، فنسـمع من يقول : إن جميع السياسـيّين لصوص ، فمشكلة التعميم ، والكسر ، وعدم الإنصاف ، والإهانة في التعبير ، والمبالغة ، كل هذه مشـكلات نجدها في مسـاحة واسعة من المعترضين ، ولاسيما في بلادنا اليوم ، إذ نجد أن السوشيال ميديا قد تحولت إلـى مكب نفايـات ، فيه الحق والباطل ، وكلام لا يقف عند حد ، وهذه مشـكلة كبيرة ، وخطأ يجب أن يعالج .

يجب أن نرسي ثقافة التعبير عن الرأي بشكل سليم وصحيح ؛ فإن كان لديك اعتراض فاعتـرض ، ولكن لماذا تكسـر؟ لمـاذا تهين؟ هل تقبل أن تُهان؟ فـإن كنت لا تقبل ذلك لنفسـك فلماذا تقبله لغيرك؟ لماذا تسـيء؟ لماذا تعمم؟ لماذا تغالط؟ لماذا تبالغ؟ لماذا تتجاهـل الحقيقة؟ لماذا تجانب الإنصـاف؟ هذا كله غير صحيح وغير مقبول ، فعبّر عن رأيك ، وبيّن ملاحظاتك ، ولكن بشـكل مهذب ، ومنطقي ، ومعقول ، وموضوعي ، فلا ينبغي أن يوجد مثل هذا السلوك ، صحيح أن البعض لا يمتلك أدب الحوار وأدب التعبير عن الرأي ، ولديه مشكلة في بيان النقد البنّاء ، إما لأنّهم لا يقدرون على ذلك ، أو لأنّهم على خطأ ، وخطأ هؤلاء هو في طريقة تعبيرهم ، فهل بسبب ذلك يسد باب فسح المجال للاعتراض والتشـكي؟ يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : كلا ، هذا مخطئ لأنه كسر وتعامل بطريقة فظة ، ولكن لا تقابل الخطأ بخطأ مثله ، لا تعالج الخطأ بخطأ آخر ، ولا تقل : ما دمتم بهذا النحو ، فلا ينفع معكم أن يُفتح لكم مجال الاعتراض ، فأغلقوا الباب ولا يفتح أحد فمه ليتكلم ، ولو قيل له : لماذا أغلقت باب الاعتراض؟ لأجاب : ألم تسمعوا ما قال فلان؟ ! . . والرد عليه بأن يقال له : أساء هذا أو أخطأ ، فلماذا تسد باب الاعتراض؟ .

إن سياسـة تكميم الأفواه وغلق باب الاعتراض والنقد أمر خاطئ ، حتى لو كان فتح الباب يؤدي إلى أن تسـمع أحيانًا من بعضهم كلاما فظًا ، أو تواجه تعاملا غير لائق وغير

مناسب، وهذا يأخذنا إلى البعض الذين يغلقون باب المعروف؛ بأن يقصد أحدهم مثلًا شخصًا من أهل الخير، ويقول له: إني محتاج إلى قرض، فهل تستطيع إقراضي؟ فيقول له: أنا في خدمتك، ولكن قل لي متى ترجع القرض؟ فيقول الرجل: بعد يومين أو ثلاثة إن شاء الله، فيقول له: كم المبلغ الذي تطلبه؟ فيقول الرجل: عشرون مليونًا، ويعطيه صاحب المعروف المبلغ، ويمضي اليومان والثلاثة والأربعة أيام، والأسبوع، والأسبوعان، ولا خبر من صاحبنا، ويضطر الدائن للذهاب إلى باب الرجل المدين ويطلب منه الوفاء بوعده وإرجاع القرض، ولكن بلا جدوى، وينطلق صاحب المعروف ليشتكي إلى هذا وذاك من أجل استرجاع دينه، ولكن لا يجد أُذنًا صاغية، والكل يلومونه على إقراض ماله، وصار الدائن يركض وراء المدين، ويستمر قاطع سبيل المعروف بالتهرب، وعدم الجواب على الهاتف، وعدم فتح الباب للطارق، والاستمرار بالتخفي، وتمضي الأشهر والسنون حتى يقعد صاحب المعروف عن المطالبة بدينه، ويتخذ قرارًا قاطعًا بعدم إقراض أي شخص مهما كان الأمر، وكثير من الناس الذين يمرون بتجارب كهذه، يرفضون إقراض أحد ولو كان لديهم المليارات، كما في المثل الشعبي: «الباب الذي يأتي منه الريح سده واستريح»، وتأخذ هذه الأمثال مدياتها في المجتمع، وهكذا نرى البعض بسلوكهم هذا يمنعون الإنسان الذي لديه دوافع في تقديم الخير ومساعدة الناس في أي قضية من القضايا، من تقديم الخير والمعروف للآخرين، ولكثرة قاطعي سبيل المعروف لم يعد أحد يثق بأخيه، ولا يقتصر قطع سبيل المعروف على الإقراض والمعاملات المالية، بل يمتد إلى شتى جوانب الحياة؛ ومن أمثلة ذلك: شخص صدمته سيارة وهرب السائق وتركه في مكانه، فجاء شخص آخر ووضعه في سيارته ونقله إلى المستشفى، وأنقذ حياته، ولكن بعد أن أفاق وقيل له هذا هو الشخص الذي أنقذ حياتك، قال: هذا هو الذي صدمني، ولم يُجدِ معه قولهم: اتق الله، إنه عابر سبيل أراد الحفاظ على حياتك، فهل هذا جزاؤه منك؟ وعندما تتكرر مثل هذه القصص وتشاع في المجتمع، فهل يجرؤ أحد حينئذ على أن يساعد شخصًا مصابًا في الشارع؟ ومئات من القضايا المشابهة، فالبعض يغلق باب المعروف، حين يستغل هذا المعروف بطريقة غير سليمة.

إذا وجدت منظومة قياديّة مبنية على الحوار، على النقاش، ومن حق الجميع أن يعترض ويشتكي وينتقد؛ أن يقول: لماذا هذا كذا؟ ولماذا ذاك كذا؟ فيجب استثمار هذه الحرية، وهذه الفرصة بشكل سليم، وأن تكون الانتقادات والاعتراضات في محلها، بنقد بنّاء وسليم لكي لا يغلق باب المعروف.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: أيها المسؤول، حتى لو كان فتح المجال يؤدي إلى تعرضك للمهانة من البعض، أو إلى كلام غير لائق أو ضغط معين، مع ذلك يجب أن لا تغلق هذا الباب بسبب وجود أخطاء، ولا تقابل الخطأ بخطأ آخر، وحين يفسح المجال يجب أن تعترض بشكل موضوعي وصحيح.

صحيح أن البعض عنده عقدة الاعتراض، فهو مصاب بمرض مزمن هو الاعتراض، ومثال ذلك ما نراه هذه الأيام؛ فمنذ شهرين من وباء كورونا، امتلأت السوشيال ميديا بصور وأفلام الحجر الصحي لمواطني البلد الفلاني، وقد وُضعوا في فندق خمس نجوم على البحر، ثم يرونك غرفة النوم والسويت والحمام وغير ذلك، وأنواع المأكولات التي تُقدم له، وعملًا بمبدأ أقول لك وقل للآخرين، ينشر العراقيون هذه الأفلام على نطاق واسع: هكذا تحترم الحكومات شعوبها، هكذا تتعامل الحكومات مع مواطنيها، واشبع كلامًا في هذا المجال، في الترحيب والتقدير والإعجاب بالخطوة التي قامت بها الدولة الفلانية، عندما وضعت مواطنيها في الحجر الصحي في فندق خمس نجوم على البحر، وفي مقابل ذلك امتلأت السوشيال ميديا بأفلام الحجر الصحي في المستشفيات العراقية؛ حنفية الماء لا تعمل، ذاك محجور في فندق خمس نجوم، وهنا حنفية الماء لا تعمل، واغوثاه من هذه الحكومة التي لا تهتم بشعبها، فهل كل المستشفيات لا تعمل حنفياتها، أو هذه الغرفة فقط حنفيتها لا تعمل؟ وحين أقدمت الحكومة على خطوة متقدمة، فاستأجرت فندقًا لحجر مجموعة من المصابين بكورونا، وانتشر الخبر، قالوا: لقد دفعوا عن كل مواطن في الحجر مليون دينار، فانظروا إلى البذخ، انظروا إلى الإسراف، انظروا إلى اللعب، انظروا إلى السرقات، فهل ذاك الذي حُجر بفندق خمس نجوم على البحر كان حجره مجانًا؟ أليس لكل فندق تسعيرة؟ ثم تبيّن أن استئجار هذا الفندق كله بمليون في اليوم، وليس عن كل شخص، فما هو الحل؟ لا تعرف، إن خدمتهم قالوا ما هذا الترف والإسراف، بأيّ حال نحن؟ هل نحن سويسرا؟ وإن لم تخدمهم قالوا: أنتم غير مهتمين بالشعب، انظروا ماذا فعل هذا، وماذا فعل ذاك، وهذا مثال بسيط عشناه في الأيام الماضية، فالبعض مهما فعلت له يعترض، ولا تدري ماذا يريد، فهو مصاب بمرض اسمه الاعتراض، عادته الاعتراض، أعطيته أم لم تعطه يعترض، وسواء أعطيه كثيرا أو قليلًا يعترض، وهذه أزمة كبيرة تحتاج إلى معالجة جادة، وإلاّ فأوضاعنا لا تبشر بخير ما دامت طريقة التعاطي بهذه الشكل، في أدب التعامل القياديّ مع الاعتراض والتشكي.

يقـول أمير المؤمنين عَلَيۡهِ‌ٱلسَّلَامُ: (وَنَحِّ عَنْهُمُ الضِّيقَ)، أولًا: لا تتعامل بقسـوة، ثانيًا: (وَالْأَنَـفَ) لا تتعامـل معهم بتعالٍ، بتكبر، والمنظومة القياديّة التي تراعي ذلك وتفسـح المجال للاعتراض من ناحية، ومن ناحية أخرى تتحمل بعض المنغصات، والمسـؤول لا يتعالـى على الآخرين، هذه المنظومة تسـتنزل الرحمة الإلهيـة، ويتحقق فيها النجاح والخير.

التوصية الثانية

ثقافة الخدمة في المنظومة القياديّة والإداريّة

ثقافة الخدمة في المنظومة القياديّة والإداريّة، حكم آخر من الأحكام التي يذكرها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع؛ إذ يجب على الحكومة أن تكون حكومة خادمة، فالمسؤول، القياديّ، المدير، مهما كان مستواه، علوًا وانخفاضًا، ومهما اتسعت أو ضاقت مسؤوليته، يجب أن يتسم بأخلاقية الخدمة، أن يكون خادمًا.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئًا): عندما تريد أن تقدم خدمة أو تنجز عملًا، أيها المسؤول، أيها المدير، أيها الموظف، فقدمه بطريقة هانئة، سهلة، قدمه بطريقة تليق بالشخص الآخر، فمن أتاك يريد مساعدة، فقدّم له المساعدة بالشكل الصحيح، بحيث يخرج من عندك راضيًا، لا أن تتعبه وتؤذيه نفسيًا قبل أن تؤديها له، فحينها تكون قد أديتها له وفي الوقت نفسه أمرضت قلبه، فما دمت تريد أن تنجز العمل له، وكان أمرًا صحيحًا وطلبًا مشروعًا، فأنجزه له بشكل هانئ ولطيف، ليخرج من عندك راضيًا سعيدًا، وإذا كان الأمر غير صحيح، كما لو كان يطلب شيئًا خلاف القانون وخلاف الشرع، كأن يطلب تمييز نفسه عن الآخرين، أو طلب استثناءات في غير محلها، فالناس تطلب كل شيء، سواء من كان منهم يستحق أو لم يكن كذلك، الصحيح وغير الصحيح، الحق وغير الحق، فإن كان الطلب غير صحيح، فلا يجوز أن تستجيب له، ولكن حتى عندما ترفضه، يجب أن ترده بأسلوب مقبول.

(وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ): بلطف، لا تقل له: إلا تستحي؟، إلا تخجل؟، أتيت تطلب قضية كهذه؟، اخرج، كلا فهذا منع بإهانة، فيجب عليك حتى حينما تمنع أن تمنع بإجمال، بلطف، برفق، بمحبة.

(وَإِعْذَارٍ) مع الاعتذار له، قل له: آسف جدًا، هذه القضية التي تريدها لا يمكن إنجازها، وبيّن الأسباب التي تحول دون إنجازها؛ أن القانون الفلاني لا يسمح بذلك مثلًا، أو الوضع الفلاني لا يمكن أن يتحقق، والإجراء الفلاني كذا، وهذا لا يعني التمييز

بينك وبين الآخرين، أعتذر لأنّ ما تريده لا يجوز أن يُفعل، حياكم الله ونعتذر، في أمان الله، فبالرغم من أنك لم تنجز له ما أراد، ورفضت له الطلب، ولكنه خرج راضيًا، حين رأى احترامًا وتقديرًا، وإن لم تنجز له ما يريد.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

فلسفة الخدمة في الرؤية الإسلاميّة

من الأحكام العامة التي يذكرها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن المنظومة الإداريّة والقياديّة في الرؤية الإسلاميّة، تخضع لفلسفة، هي فلسفة الخدمة، فالمسؤول خادم وليس آمرًا، ومنهج الخادم أن يحرص على إنجاز العمل، وعندما يسمع كلمة خشنة يتحمل، ولا يبحث عن شيء، فالمهم أن يحقق الخدمة الصحيحة، فثقافة الخادم تختلف تمامًا عن ثقافة المتسلط والحاكم، فالشعب في المنطق الإسلاميّ رعية، أي من يستحق الخدمة والرعاية، والمسؤول ليس حاكمًا، بل هو راع، يهتم، ويخدم، فهما راع ورعية، أما منطق السلوك السلطوي، السلوك المتعالي، السلوك المتعجرف، الآمر الناهي، فهذه كلها تتنافى مع فلسفة الخدمة التي يتحدث عنها الإسلام في بيانه، والغريب في الثقافة الإسلاميّة أنه كلما كانت المسؤولية أعلى، لزم المسؤول أن يكون أكثر تواضعًا وأكثر خدمة، بينما في المدارس الأخرى يقول المسؤول للمراجع: لماذا أتيت إليّ؟ اذهب للموظف الفلاني لينجز لك عملك، فالمسؤول يجلس بعيدًا في غرفة، ويقع عبء العمل على عاتق الموظف الأدنى، بل عليه أن يخدم، وكلما كان المسؤول أكبر، كانت الأعمال المتعلقة بالناس لا تناسبه، أما في الثقافة الإسلاميّة، فأكبركم مسؤولية، وأعلاكم شأنًا، أكثركم خدمة.

نقرأ هذا الدعاء العظيم للإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو دعاء مكارم الأخلاق، الذي يقول فيه: «اللهم ولا ترفعني في الناس درجة، إلاّ حططتني عند نفسي مثلها»، إلهي، أي مرتبة ترفعني بها عند الناس، في مسؤوليات، في مواقع، في مكانة اجتماعيّة، أي مقدار ترفعني به، أشعرني بالذل بين يديك بنفس ذلك المقدار؛ «عند نفسي مثلها»، حين ترفعني درجة أمام الناس، أنزلني في باطني درجة، وحين ترفعني أمام الناس عشر درجات، اجعلني أشعر بالذل بين يديك بعشر درجات، هذا التوازن الدقيق يجعل الإنسان

يضبط مشاعره، ويكبح جماح الكبر، والفخر، والتعالي، والعنجهية، والاستعلاء، والاستكبار، فبمقدار ما يرتفع بين الناس، بنفس ذلك المقدار يشعر بالذل والتواضع بين يدي الله (سبحانه وتعالى)، هذه هي فلسفة الخدمة.

«ولا تحدث لي عزًا ظاهرًا إلاّ أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها»، العز الظاهري يجب أن يلازمه ذلٌ باطني، والرفعة الظاهرية يجب أن يلازمها خفض الجناح والترابية والتواضع الباطني، لكي يعيش الإنسان حالة التوازن الدقيق والصحيح، وعندها هو الذي يرفع الموقع، وليس الموقع هو الذي يرفعه، وشتان بين من يعطي قيمة للكرسي، ومن يأخذ قيمته من الكرسي، فمنزلته مرتبطة بجلوسه على الكرسي، ولكن عندما يُعفى من منصبه بأمر ديواني، ففي اليوم الثاني لا تجد أحدًا يلقي عليه التحية، فقيمته بهذا الكرسي، وهذا الكرسي لو دام لغيرك لما وصل إليك، أنت أيها المدير، أيها المسؤول، أيها القائد، أيها الزعيم، أيها الآمر، أنت أيًا ما تكون، لو دام هذا الكرسي لأحد لدام لمن كان قبلك، ووصوله إليك معناه أنه لا يدوم لأحد، ولن يدوم لك أيضًا، فالإنسان عندما يكون في موقع المسؤولية يجب أن يتعامل بطريقة تجعل الموقع يكبر به، ويعطي قيمة للموقع، وليس العكس.

لاحظوا ما ورد في نهج البلاغة، من كلام لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يخاطب به الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري، وهي حكمة طويلة نقتصر منها على موضع الشاهد: «يا جابر، من كثرت نعم الله عليه، كثرت حوائج الناس إليه»، الناس تحتاج إليك بقدر مسؤوليتك، فإن كنت موظفا عاديا فحاجة الناس إليك بقدر مسؤوليتك، وحين تترقى إلى درجة مدير تكون المسؤولية أكبر وتكون حاجة الناس إليك أكثر، ثم تترقى إلى درجة مدير عام، أو وزير، أو رئيس، وكلما زادت المسؤولية ازدادت معها حاجة الناس إليك، فهذا تلازم طردي بين مستوى المسؤولية ومستوى حاجة الناس.

«فمن قام لله فيها بما يجب فيها»، عندما تكون في موقع، تؤدي المهام والواجبات في حل المشكلات ضمن صلاحياتك، وكلما كبرت الصلاحية، كبرت معها مسؤوليتك في تقديم الخدمة وحل مشكلات الناس، إذا أديت الذي عليك، وصرت حلّالًا لمشكلات الناس ضمن صلاحيتك الكاملة، وأعطيت من نفسك، وفتحت هاتفك وأجبت من اتصل بك، سواء كنت تعرفه أو لا تعرفه، فهناك شخص قد قصدك واتصل بك، ومعنى ذلك أن لديه مشكلة، فانظر كيف تساعده.

«عرّضها - يعني جعلها عرضة - للدوام والبقاء»، صرت مسؤولًا، أو قائد تنظيم، أو آمر فوج، أو آمر سرية، أو مسؤولًا في مجال ما، وأردت أن تحافظ على هذه المسؤولية،

فالسبيل إلى ذلك هو خدمة الناس ضمن مساحة الصلاحية التي لديك، فإذا عملت كل الذي عليك، فقد عرضتها للدوام والبقاء، وستبقى المسؤولية وتدوم.

«ومن لم يقم فيها بما يجب»، إذا كنت تريد المسؤولية لفوائد شخصية، وللتعالي على الناس؛ فالكل يقول نعم سيدي، معاليك، والكل يقفون سماطين، وترون إذا دخل وزير إلى وزارة ماذا يحدث؟، يترك الجميع عملهم ويقفون في الممرات، وأنا لا أزور وزراء في وزاراتهم غالبًا، بل هم الذين يشرفوننا، ولكن أذكر قبل عدة سنوات، أنه حصلت مشكلة لبعض المؤمنين وطلبوا مني أن ألتقي الوزير الفلاني لحل المشكلة، فذهبت إلى هذا الوزير، وهي المرة الأول التي أدخل فيها وزارة، وعندما توجهت إلى مكتب الوزير، رأيت الموظفين قد وقفوا سماطين، فنظرت وقلت في نفسي: إن الوزير يصعد وينزل يوميًا، فهل سيقف كل هؤلاء هكذا في كل مرة؟ وكيف سيكون شعوره؟ والحق أننا نحن الذين نصنع الديكتاتور بأنفسنا، بطريقة تعاطينا، مع الأسف.

إذا كنت تريد المسؤولية ليس لتفعل الذي عليك، بل تريدها للتعالي والتباهي، فلا يمكنك أن تنجز شيئًا، وستبقى تتحجج وتعتذر؛ بأن هذه لا يمكن أن تكون، وتلك لا يتسع صدري لها. . إلى غير ذلك، فما الذي سيحدث؟.

«عرّضها للزوال والفناء»[110]، ضيّعت المسؤولية بهذه الطريقة، فإن كنت تريد الحفاظ على المسؤولية وأن تكبر فاخدم الناس، فإن لم تخدم ضاعت منك، لأنك عندما لا تخدم، تكثر الشكاوى عليك، والذي نصّبك هو الذي يعفيك، ويأتي بآخر غيرك، لأن الذي نصّبك يريد منك دائما أن تخدم الناس، وتحل مشكلاتهم، إذ يريد أن ينجح بك، فإذا كانت الناس كلها تشكو منك، فلن تكون عنصر نجاح له، وستصبح عبئًا على المشروع، فيأتي بغيرك.

وتجري هذه القاعدة في كل مكان؛ فكلما كانت الخدمة أكثر وأوسع وأشمل، كانت قيمة العمل وقيمة العامل المسؤول أكبر في نظر الناس، وانظروا الآن إلى موظف خدوم ومسؤول خدوم، ومسؤول كبير في الدولة يفتح هاتفه للجميع، فماذا ستكون الانطباعات عنه؟ سيرتفع ذكره بين الناس جميعًا، ويكون مثالًا يُحتذى به، وعندما يسألون كيف علا صيته وجرى ذكره على كل لسان، يقال: حاله كحال غيره، ولكن الفرق بينه وبين غيره هو أنه يخدم ويساعد ويعطي من نفسه، فيرضى عنه الله (سبحانه وتعالى)، ويرضى عنه الناس أيضًا، فرضا الله (سبحانه وتعالى) ورضا الناس لا يتحققان إلا بالخدمة، ولا يوجد

١١٠. نهج البلاغة ٤: الحكمة ٣٧٢

في ثقافة الخدمة معنى للمنّة، فلا يقولنّ أحدكم لمواطن: ألم أعمل لك العمل الفلاني؟ ولا يمنّ عليه، فالمسؤول يرى أن من واجبه أن يخدم الناس، سواء شكره الناس أو لم يشكروه، ويقول لم أعمل سوى ما هو واجب عليّ، ولا شكر على واجب.

المسؤول الذي يؤمن بثقافة الخدمة، لا يحتاج إلى من يشكره، ولا ينتظر من أحد أن يشكره، فلا يهمه هذا الشيء، ويظهر للناس بشاشة الوجه، فالخادم يحسن التصنع للآخرين، والمسؤول يشعر بأنه خادم يؤدي واجبه من غير منّة على أحد، بل يرى أن من قصده قد قدم له هدية، حين طرق بابه ولم يذهب ليطرق باب غيره، فلا يريد منه أن يشكره، بل يقول له: أنا أشكرك، لأنك أعطيتني وسام الشرف هذا، أن أتولى خدمتك، وما أكبرها عند الله، وما أكبرها في نفس الإنسان عندما يرتقي، وما أكبرها في نظر أولئك الناس الذين يرون هذا التعامل معهم؛ من البشاشة، والإقبال، والتواضع، بلا منّة، ولا جميل، بلا طلب شيء. أنت الممتن حين تُخدم، وأنا الممنون حين أخدم، هذا هو المنهج الإسلاميّ.

ومن حكم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في نهج البلاغة: «لا يستقيم قضاء الحوائج إلاّ بثلاث»، إن كنت تريد قضاء الحوائج فعليك بثلاثة أمور:

أولًا: «باستصغارها لتعظم»، مهما كان العمل الذي تفعله للآخرين كبيرًا استصغره، ليكبر في نظر الناس، وعند الله (سبحانه وتعالى) أولًا وأخيرًا.

وثانيًا: «وباستكتامها لتظهر»، نحن قوم نعمل، وعملنا يتكلم لا ألسنتنا، فلا نقول لأحد: فعلنا لكم كذا، وذهبنا إلى المسؤول الفلاني من أجلكم، وقدمنا لكم الشيء الفلاني، بل حقق له طلبته، وأنجز له عمله، وعندما تنجز له ما يريد، فالإنجاز يتحدث عن نفسه، فعندما تجد اليوم ناطحة سحاب، مثل البنك المركزي الذي يبنى هنا، وهو من تصميم المرحومة (زها حديد)، إذا تمّ إنجازه فلا يحتاج إلى أن يتحدث به أحد، إذ سيصبح آيقونة بغداد، فهو يتكلم عن نفسه؛ طريقته، هندسته، إمكاناته، فالإنجاز هو الذي يتحدث عن نفسه، ولا يحتاج إلى أن تحكي به، فأتمم العمل ودعه يحكي عن نفسه؛ «باستكتامها»، لأنه عندما تظهرها وتتحدث بها، سيقول بعضهم إنها مجرد ادّعاء، ويقول آخر: لا قيمة لها إنها للدعاية والنشر، وما إلى ذلك من كلمات الاستخفاف، فأنجز العمل وهو يعبر عن نفسه.

وثالثًا: «وبتعجيلها لتهنؤ»[111]، العمل الذي تريد إنجازه أنجزه بسرعة، فإن كنت تريد أن تقرضه مالًا، فجاء ووقف ببابك، فلا تقل له: تعال غدًا لأنظر في طلبك، وتستمر في التسويف يوما بعد آخر، إلى أن ترهقه وتذله قبل أن تعطيه ذلك القرض، ولكن عندما يرى منك اهتمامًا في نفس اللحظة، يكون عملك له هنيئًا سائغًا، وخير البر عاجله، فالشيء الذي تريد أن تفعله افعله بسرعة، والذي يعمل بمنطق الخدمة لا يرى إنجازة كبيرًا مهما كان كبيرًا، ومنطقه هو أن هذا واجبه، فافعله ولا تتكلم، سواء شكرك أو لم يشكرك، فإن شكرك فقل له: الحمد لله تمّت معاملتك، ولا تشكرني فهذا واجبي، ولا تظل تتكلم بإنجازاتك: أنا فعلت لكم هذا، وأنجزت لكم ذاك، وأنا وأنا، فعندما تتكلم بما قمت به من أعمال فسوف تضيع، إذ حين تدخل بهذه المماحكات يصبح موقف الناس منك بنحو آخر، فدع العمل هو الذي يحكي عن نفسه.

صحيح أن الله سبحانه قال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[112]، فأحيانا تكون هناك أشياء تحتاج إلى أن يذكّر بها ويشرحها، أو يتوقع الناس منك شيئا؛ فنحن تيار سياسيّ يتوقع الناس منا أشياء، ويسألون أين أنتم؟ فيجب أن نقول إننا أدينا واجبنا، وأنجزنا لكم كذا وكذا؛ هذه سلال غذائية، وهذا تعقيم وتعفير، وهكذا، وهذا الذي قمنا به واجبنا، وليس منّة على أحد، واعلموا أننا فعلنا هذا لكم، وما هو إلاّ واجبنا فعلناه، فالناس تتوقع منا شيئًا وإذا لم نتكلم به فلا تعرفه، ومعنى ذلك أننا مقصّرون، فنضطر إلى أن نشرح ونوضح بمقدار ما يوصل المعلومة لهم، أما من يعلم أنك قمت له بذلك العمل، وأنت في كل يوم تذكّره أمام الناس بأنك من عمل ذلك وتظل تشهّده، فينزعج ويتضجر، وينطلق يشكوك إلى الناس بسبب هذا التذكير المستمر بما عملته له وبمنّك عليه، وأنك ساعدته في القضية الفلانية ثم بقيت تعيد وتُذكّر بها في كل مكان.

إنّ ثقافة الخدمة، هذه الأخلاقية، هذه الروحية، تزيل صعوبات العمل، وهناك أناس لا ينفع معهم مهما عملت لهم، ولا يحفظون صنيعك لهم، إذ تخدمه ولا يقول شكرًا، وحين تنجز له أربعة أمور يقول لك: هذا الخامس لم تنجزه وينسى تلك الأربعة! فإذا كانت ثقافتك ثقافة الخدمة، وفعلت ما فعلت لله تعالى وأديت واجبك، وأخذ هو ما أخذ، فهو يعرف تكليفه، ولا تتعب نفسك معه، أما إذا فعلتها لفلان وفلان ولم ينفع به، فلا تذهب نفسك حسرات، فالناس منهم الكريم ومنهم اللئيم، وكما قال الشاعر:

---

١١١ . نهج البلاغة ٤: ٢٢ الحكمة ١٠١.

١١٢ . سورة الضحى: الآية ١١.

إذا أنتَ أكـــرمتَ الكريمَ ملكته وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرّدا[١١٣]

يأتيـك أحدهـم ويقول لك: أتذكر قبل خمس وعشـرين سـنة، حين كنـت واقفًا في المـكان الفلاني، في الطريق الخارجي، وكنت حائرًا، ومررت أنت بسـيارتك في ذلك الطريـق وأركبتنـي معـك، فهي باقية في باله مع أنها قبل خمس وعشـرين سـنة، فبعض الناس لا ينسـون حتى الخدمة البسـيطة التي تعملها لهم، وتبقى في بالهم، فالكريم يؤثر فيه الإحسـان، وهناك من ليس فقط لا يؤثر فيه الإحسـان، بل يقول: فعلها رغما عنه، أرأيتـم كيـف أخرجتها من عينه؟ ومثل هذا الشـخص لا يجدي معه أي شـيء تفعله له، فهـل تريد أن تظل مشـغولًا بأمثال هؤلاء؟ مـاذا قال هذا؟ وماذا قال ذاك؟ اعمل لله تعالى اسـمه، وأرضِ ضميرك، وقم بواجبك وتقدم إلى الأمام، فمن شـكر لك عملك فجزاه الله خيرا، ومنَ لم يشكر لك فهو يعرف تكليفه، وشكر الله أعظم، وهذا يساعد الإنسان كثيرا، ويجعله في راحة.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في إحدى حكمه: «لا يزهدنّك في المعروف من لا يشكره لك»، إذا لم يشـكرك شـخص ولم يقدرك فلا تقل: هؤلاء أناس لا ينفع معهم معروف، فلا أخدمهم وليست لي علاقة بهم، دعهم وشأنهم، كلا، لا تزهد بالمعروف، لا تزهد بالخدمة، لا تزهد بالإنجاز، لأنّ هناك من خدمته ولم يشكرك، ولم يقدرك.

«فقد يشـكرك عليه من لا يسـتمتع بشـيء منه»، الله (سـبحانه وتعالى) يشـكرك وهو لا يسـتفيد مـن عملك، أو يشـكرك بعض الناس أحيانًا ممن لـم ينتفعوا من عملك هذا، ويكون لسـانًا شـاكرًا لك بين الناس، فهناك من الناس الصالحين الذين يشـيعون شـكر الإنسـان الخدوم وإن لم يخدمهم، ولكنهم عندما يطّلعون على من يخدم الناس ينبرون لشـكره، فهذا هو طبعهم وسـجيتهم، قد قيّضهم الله تعالى لشـكر أهل المعروف، لئلا ينقطع سـبيل المعروف بين الناس بسـبب أولئك الذين لا يشكرون الخالق ولا المخلوق من ناكري المعروف وقاطعي سـبيله، ومن المؤكد أن أكثركم يعلم أن هذا طبع بشـري، فبعـض النـاس يحبـون فاعل الخير وإن لم يصـل إليهم من خيره شـيء، فلا تزهد بفعل المعروف، لأنّ الذي عملت له المعروف لم يشكرك، فهناك من يقدر عملك ويشكرك، والله (سبحانه وتعالى) فوق هؤلاء يشكرك ويوفقك للمزيد من فعل المعروف.

«وقد تدرك من شكر الشاكر»، الذي لم تفعل له شيئًا.

---

١١٣. يتيمة الدهر ١: ٢٥١.

«أكثر مما أضاع الكافر»، الذي عملت له المعروف، وليس المقصود بالكفر هنا الكفر بالله سبحانه، بمعنى الجحود به جلّ جلاله، بل المقصود بالكفر ترك الشكر على النعمة والخدمة والإنجاز الذي يُقدّم له، قال الجوهري: «والكفر أيضًا: جحود النعمة، وهو ضد الشكر»[114]، وورد هذا المعنى أيضًا عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه... والثالث: كفر النعمة، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾»[115]، فلا يصدنّك عن عمل الخير عديم المروءة، هذا الذي خدمته وأعرض بوجهه وأدار ظهره ولم يقل لك شكرًا، فقد تحصل من شكر الله سبحانه أو شكر عباده، أكثر من شكر من لم يشكروك، هؤلاء الذين يتجاهلون المعروف.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[116]، في إشارة إلى أن المقصود بشكر من لم تقم له بفعل، هو شكر الله (سبحانه وتعالى)، إذ يستشهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الآية القرآنية، فحين تحسن فأنت لا تحسن لله، بل تحسن للعباد، أثّر بهم أو لم يؤثّر بهم، والله يرى ويأخذها بعينه، ويثيبك ويجزيك على ذلك.

إذا أراد المسؤول أن ينجز وظيفة ما، فعليه أن يلتزم ويتقيّد بأدب وخُلق معيّن في أداء هذه الوظيفة، والإنجاز لا يكون إلا فيما هو ممكن وما هو حق، فمثلًا يأتي شخص يراجع المسؤول ويطلب منه أمرًا ما، وهذا الأمر قانوني وواقع ضمن السياقات المتعارفة، وهو حق من حقوقه، فهو يطالب بحق من حقوقه، وعلى المسؤول أن يؤدي هذا الحق. وفي الثقافة الإسلاميّة ليس كافيًا أن يمتثل المسؤول لهذا الطلب ويؤدي هذا الحق، وينجز هذه المهمة، بل المهم كيف ينجز هذا الطلب، فنوعية الإنجاز وكيفية الإنجاز تلعب دورًا كبيرًا في الثقافة الإسلاميّة، ثقافة الخدمة للمسؤول والمتصدي، فلا يكفي أن ينجز، بل عليه أن ينجز الوظيفة بكيفيةٍ خاصة، بنوعٍ خاص، «وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً» فلا يكفي أن تعطي، بل يجب أن تعطيه هنيئًا، أي بيسرٍ ومحبة، وأما في الثقافة الأخرى، ثقافة التسلط، فإنّ المهام تُنجز أيضًا، ولكن بأي ثمن؟! بإجهاد المواطن وإتعابه، وبالمماطلة والتسويف، وبصرف الوقت الطويل، وبكثير من المشقة، اذهب اليوم وتعال غدًا، أو بعد غد، أو الأسبوع القادم، أو الشهر القادم، فيُتعبون المواطن،

---

١١٤. الصحاح ٢: ٨٠٧.

١١٥. مجمع البحرين ٤: ٥٣.

١١٦. نهج البلاغة ٤: ٤٦ الحكمة ٢٠٤.

ويذلونه، ويهينونه، ويوقفونه في الشمس لساعات طويلة، وبتعامل أخلاقي سيئ، وتراه حائرًا يبحث عمن يجيب عن أسئلته، فلا يجد آذانا صاغية، ويتساءل كم ينبغي أن أنتظر لأنتهي من هذه المعاملة؟ وكم تستغرق من الوقت لأرى هل يتسع لها ما بقي من عمري؟ وتكاد تصمّ أذنيه عبارة: (اذهب الآن وتعال في وقت آخر)، ولكن كم من الوقت تحديدًا حتى يحصل على هذه القضية؟ لا أحد يخبره. أليس هذا حقًا من حقوقه؟ لماذا يبقى وقت الإنجاز والأداء مجهولًا؟ لا أحد يجيب؟ لا يوجد تعامل لائق مع هذا الإنسان، وبعد التي واللتيا تُنجز المعاملة، ولكن بكثير من الأذى والجهد والمماطلة وتضييع الوقت، وبروح التعالي والتسلط والمنّة من المسؤول، والمهانة والإذلال للمراجع أو صاحب الحاجة، وفي يوم ما كان (عزت الدوري) نائب الرئيس المقبور يقول: إنّ الهواء الذي تستنشقونه في هذا البلد مكرمة من الرئيس القائد! الحياة كثيرعليكم، أتريدون ماء وكهرباء وخدمات وحقوق مواطنة؟! الحياة زائدة عليكم! وهي مكرمة من الرئيس القائد! هذه ثقافة عشناها في بلادنا في مرحلة ما، نسيناها أو تناسيناها، والإنسان سريع النسيان، لا يتذكر تلك الظروف وتلك الأوضاع. وعلى كل حال فهذا إنجاز للعمل أيضًا، ولكن بنوع مختلف.

وأما ثقافة الخدمة فهي تعني الإنجاز بشكل مختلف تمامًا، إذ يُنجز العمل، ولكن لا يُكتفى بصِرف الإنجاز، بل هناك آداب لإنجازه، بأن يتم بكيفية ونوعية مختلفة ومميزة. ويتمثل هذا المنهج بسياقات إداريّة مرنة، فلا ترى ساطور القانون مشهورًا على رؤوس المواطنين، مع ضمان بقاء روح القانون وسريانه في إنجاز الأعمال وأداء الوظائف، فقد وُضع لفلسفة معينة، وهي الحفاظ على مصالح الناس، والتمسك والجمود على نصوص قانونية معينة من غير مراعاة المرونة في التطبيق قد تؤدي في بعض الأحيان إلى الإضرار بمصالح الناس، لأنها قد سُنّت مثلًا قبل عقود من الزمن، وفي ظروف وملابسات اقتضتها المصلحة العامة في حينها، وهي تتعارض مع مصالح الناس وظروفهم في الوقت الحاضر، ونجد تفشي الرشوة وتعمّد عرقلة معاملات المراجعين من أجل إجبارهم على إعطاء الرشوة، فنرى من يدفع تنجز معاملته بسرعة، أو من له معارف يُهتم بتمشية معاملته، فيشعر الآخرون بالغبن وعدم المساواة، وتنشأ حالة من الإحباط عند عموم الناس في نزاهة مؤسسات الدولة، وبالتالي من نظام الحكم برمته. وهكذا تنشأ حالة من الازدواجية في تطبيق القانون، فالذي يدفع الرشوة ومن له معارف يُكيّف له القانون بنحو يساعد على تمشية معاملته، ومن ليس كذلك تُعرقل معاملته بنفس النص القانوني، أو لا يرشدونه إلى المخرج من هذا النص القانوني بالاستفادة من فقرات

قانونيــة أخــرى مثــلًا ، وقد اعتدنا كثيرًا أن نــرى وفي قضية واحدة يأتــي مراجع فتُنجز له معاملتــه ، ويأتــي آخر ويرجع خائبًا وهو يتذمر ويشــكو هذا التمييز في التعامل ، اللهم إلا أن يدفع الرشوة ، وحينئذ سيبحثون له عن مئة مخرج قانوني ويحلّون له مشكلته ، ولكن مــن لا يدفع ، ولم يكن له ســند قوي لا يحصل علــى هذا الامتياز ولا على هذه الرعاية ، ويُرفض طلبه بالاستناد إلى نفس القانون .

إذن يجــب أن تكــون هناك ســياقات إداريّة مرنــة تأخذ بنظر الاعتبار فلســفة القانون ، الجوهــر والمضمون والســبب الذي من أجله وُضع هذا القانــون ، ويتعامل مع الحالات المختلفة بواقعية ومرونة أيضًا ، وهذه هي التكاملية بالخدمة ، فلا يحيل موظف المراجع إلى موظف آخر ، وهكذا يعيش المواطن في دوامة يســتنزف وقته وجهده ومن غير نتيجة فــي بعض الأحيان ، أو أن يحصل عليها بشــق الأنفــس ، فيتنقل من طابق إلى طابق ليس بالمصعد الكهربائي إن وجد بســبب انقطاع التيار الكهربائي ، بل باســتعمال الســلّم ، في بنايات قديمة مســتهلكة ، فيصعد إلى الطابق الرابع مثلًا بشق الأنفس ، وخاصة للمرضى وكبار الســن ، ثم يقال له ارجع إلى الطابق الثاني لأنّ معاملتك يجب أن ينظر فيها فلان ، ثــم يقــال لقد أرســلوك إلى هنــا خطأ فمعاملتك يجــب أن يمضي عليها فــلان في الطابق الســابع ، وترى هذا المســكين يدور بين غرف الدائرة ، أو صاعدًا نازلًا بين طبقاتها ، في روتيــن مميــت لا تجد له حلًا في بلداننا المتخلفة ، فالمواطن من أجل أن يحل مشــكلته لا يجد التوجيه والإرشــاد الصحيح ، وكل موظف يتنصل من إنجاز معاملته ويدفعه إلى موظف آخر ، لعله يستلم الإشارة ويدرك أنه لا يستطيع الخروج من هذه الدوامة من غير أن يدفع الرشوة .

وأما في منهج ثقافة الخدمة فهناك تكاملية ، فالمواطن ليس هو الذي يشقى في سبيل إنجــاز معاملتــه ، بل الموظف والمســؤول هو الذي يتحمل أعباء أدائها ، ويحل مشــكلة المواطن وكيف يعالج هذه الأمور بطريقته المناسبة .

وفي ثقافة الخدمة أيضًا السرعة بالإنجاز ، فلا يُكتفى بإنجاز العمل فقط ، وإنما التفنن في ســرعة الإنجاز ، وخروج الإنســان صاحب الطلب من الدائرة المعنية راضيا وفرحان وسعيدا ، فرح بإنجاز عمله بأسرع وقت وتسهيل أموره بالشكل المناسب .

وفي ثقافة منهج الخدمة أيضًا السلوك في التعامل مع صاحب الطلب من قبل المسؤول أو المتصــدي التعامل الإنســاني ، التعامل اللائق ، في بشاشــة الوجــه ، وفي إعطائه وقتًا ليشــرح ويوضح ويبيّن ويجامل ويداري ، ليخرج هذا المراجع كريمًا ، يشــعر بإنسانيته ،

يشعر بموقعه ومكانته، يشعر باحترام المسؤولين له، وهذه في الحقيقة تمثل منهجًا يرتبط بالمنهج الإسلاميّ في ثقافة الخدمة.

وأما وقوف الناس في طوابير في العراء، في الحر وفي البرد تحت السماء، مرة تحت المطر، ومرة تحت أشعة الشمس المحرقة، ويتعامل مع موظف جالس خلف نافذة صغيرة، كأنه ملك لا يمكن الولوج إلى مقصورته الملكية، في مكان مُبرَّد في الصيف، ودافئ في الشتاء، والناس يعانون الأمرّين خارج النافذة، وهذا المنهج لا ينسجم ولا يتسق مع ثقافة الخدمة التي تحدّث عنها الإسلام.

ومن سمات منهج التسلط عدم الوضوح في المدد الزمنية المطلوبة لإنجاز العمل، فعندما يسأل المواطن عن المدة التي تستغرقها للحصول على جواز سفر أو جنسية أو إجازة سياقة ونحو ذلك، يقال له: غير معلوم، هذه قصة تطول، أنت وحظك. في حين يجب أن يكون كل شيء خاضعا لتوقيتات واضحة، وينبغي أن يعرف صاحب الطلب الفترة الزمنية للحصول على مبتغاه ومطلبه. هذه هي الإضاءة الثانية في أدب الإنجاز فيما هو ممكن التحقق وما هو حق.

الإضاءة الثالثة

أدب الرفض وعدم الإنجاز لما هو ليس بحق وما هو غير ممكن

يطلب شخص أحيانًا أمرًا ليس بحق، خلافًا للقانون، خلافًا للشرع، ويريد استثناء لا يستحقه، فهنا يجب أن يكون الرفض قاطعًا، ويُعتذر له بأنّ طلبه هذا خلاف للقانون، خلاف للشرع، خلاف للحق، ولا نستطيع إنجازه. لكن حتى هذا الرفض يجب أن يكون خاضعًا لأخلاقية ولفلسفة الخدمة، ونحن نحتاج أن نتعلم نوع الرفض، وكيف نرفض؟، بأي سياق وبأي شكل فلا يقال مثلا في الردّ: ألا تستحي؟! ألا تخجل تطلب هكذا طلب؟! هل على رأسك ريشة؟[١١٧]، يجب أن لا يُردّ بجواب يكسره، فلا تكن فظًا أيها المسؤول حتى مع من يطلب مطالب غير واقعية أو غير منصفة أو غير حقة، يجب أن يكون التعامل بطريقة مهذبة، إذ التعامل غير اللائق، والتعامل الفظّ، والعبارات النابية، لا تنسجم مع فلسفة الخدمة بحسب النظرية الإسلاميّة في القيادة والإدارة، يقال

١١٧ . مثل يضرب لمن كان متميزاً، كأن يكون ملكاً أو قائداً، حيث يضع ريشة على خوذته ليُعرف أنه قائد مثلاً.

للشخص الذي يطلب مطالب غير حقة، وغير مقبولة، : مطلبك غير صحيح، وللمسؤول أن يرفضه لكن بدون إساءة، وبدون إهانة، وبدون إذلال، وبدون صوت مرتفع، وبدون نرفزة، وبدون كلمات نابية، حتى الرفض يجب أن يتم بالحسنى وبشكل سليم.

(وَامْنَـعْ فِـي إِجْمَالٍ وَإِعْـذَارٍ) يجب أن يكون الرفض بإجمـال، والإجمال هو الرفق واللطف، فلك أيها المسؤول أن ترفض هذا الطلب، ولكن لا بغلظة وفضاضة، والإعذار أي الاعتذار، أولًا اعتذر وقل له: إني اعتذر جدًا، لا أستطيع أن أنجز لك هذا الطلب؛ لأنه خلاف القانون، و ثانيًا اشـرح له لماذا لا يمكن تلبية هذا الطلب، وذلك لأنّ المادة الفلانيـة تنـص على كذا، أو أنّ الإجـراء الفلاني يقول كذا، أنت تطلب اسـتثناء، وهذا الاسـتثناء فقط في الموارد الفلانية، وأنت لسـت منها. إذن الإعـذار أولًا وهو الاعتذار لعدم القدرة على إنجاز المهمة، و ثانيًا شـرح الأسـباب وتوضيح المبررات لرفض هذا الطلـب، لكي لا يشـعر صاحب الطلـب المرفوض بالتمييز، لا يشـعر بالتبعيض، لماذا لبيتم لفلان طلبه ولم تفعلوا ذلك لي؟ فيقال له: لأنه مشمول بالمادة الفلانية، وأنت غير مشـمول بها، ولدينا مثل عربي على هذه الطريقة يقول: (حشّـمه وخذ عباءته)، فعليك أن تحترم الإنسـان وتقدره وتوقره وتعتذر له وتبين له الملاحظات وتقول له: لا أسـتطيع أن أفعل ذلك لك، ويخرج وهو راض.

التوصية الثالثة

مباشرة القائد شخصيًا لبعض الأمور

(ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا، مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ يَوْمَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ).

تنص التوصية الثالثة على أنّ القائد المتصدي، المدير، المسؤول، عليه أن يباشر بنفسه بعض المهام وبعض القضايا. لاحظوا قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

(ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا)، نظرًا لكثرة الأعمال الملقاة على كاهل الحاكم، يستعين عادة بمجموعة من أهل الاختصاص والكفاءة والتجربة، ويسند إليهم أكثر تلك المهام؛ ليبقى فارغ البال للمسائل الأكثر أهمية والأكثر خطورة، ويتولى بنفسه مباشرتها.

والمباشرة من البَشَرَة، فعندما يزاول الإنسان شيئًا بحواسه فهو يلاقيها ببشرته، فيقال إنّه باشرها، فتكون مزاولته لها بالمباشرة، أي بشكل مباشر، وليس بالوسائط، وليس عبر المستويات الدنيا. أي إنك أيها المسؤول يجب أن تنجز بعض الأمور بنفسك، ليس كلها، بل بعضها، حسب درجة حساسيتها وخطورتها. وقد ذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هنا أمرين من هذه الأمور:

الأمر الأول: (مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ)، جواب كتب ورسائل الولاة من مختلف الأمصار التي لا يستطيع الوزراء الموكّلون الإجابة عنها، ويشمل جميع المشاكل والعقبات التي يتعرض لها الولاة في الأقاليم ولا يجدون لها حلولًا، ثم تُعرض على الوزراء المختصين ولا يجدون لها حلولًا أيضًا، فتُعرض على الحاكم الأعلى ليبتّ فيها، ولا ينبغي أن تبقى مثل هذه المسائل معلّقة بلا حلول.

فالعمال - أي زعماء الأقاليم - هم أدوات الحاكم، وكذا المستويات الأدنى هم أدوات مسؤولهم الأعلى، فرئيس الوزراء مسؤول عن عمل الوزراء، وكل وزير مسؤول عن المدراء العامين في وزارته، والمدير العام مسؤول بشكل مباشر عن مدراء الأقسام

في وزارته، وهكذا كل مدير قسم مسؤول عن مدراء الشعب في دائرته، وكل مدير شعبة مسؤول عن الموظفين والعمال في شعبته، وهم أدواته وأذرعه في العمل، فإن كان لديهم سؤال أو مطلب يرفعونه إلى مسؤولهم، وهؤلاء المسؤولون أمناء على من هم تحت إشرافهم، وهو الذي يجيب عن هذه الأسئلة ويستجيب لهذه المطالب، وهو المسؤول عن تنفيذ البرامج المقررة من قبل كل وزارة، ويشرف على الأعمال ويتابع التفاصيل، فإن لم يكن لديه جواب أو حصلت له مشكلة وحلها خارج عن حدود صلاحياته أو لا يجد لها حلًّا ولا يعرف الموقف الصحيح منها، فهنا يرجع إلى المسؤول الأعلى منه، وهكذا تصعد القضية إلى سلسلة المراتب العليا إذا لم يكن لها حلّ، إلى أن تصل النوبة إلى الحاكم الأعلى فيبتّ فيها، ولا يجوز أن يترك مثل هذه القضايا المعقدة والحالات الجديدة إلى من هو دونه، فتنشأ حالة من الفوضى والارتباك في إدارة الدولة، وهذا ما يليق به كحاكم أعلى للدولة، وأما الدخول في كل التفاصيل ومباشرتها فهو يؤدي إلى ضياع المنظومة القياديّة، ضياع المهام الرئيسية للدولة، وضياع الأهداف، وحدوث حالة التسيب والفوضى وتفكك مؤسسات الدولة. فالأمور التي لا يستطيع الأمناء أن يجيبوا عنها مما يسأله الأذرع والعمال، تقع مسؤولية الإجابة عنها على القائد والمسؤول والمتصدي، حيث يجب عليه التدخل والإجابة والتوضح، ووضع البوصلة، وتحديد الأمور، ودفعها بالاتجاه الصحيح.

الأمر الثاني: (وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ يَوْمَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ)، حاجات الناس عندما تصل إليك بادر إلى قضائها، ولا تؤجلها إلى غد، ما دمت قادرًا على ذلك، فالشخص عندما تكون عنده قضية يحب أن تُقضى بسرعة، أو كانت عنده مشكلة يودّ أن تحلّ في حينها، فإذا الأمر بيدك أيها المسؤول فاسعَ في ذلك، وأدخل السرور على قلوب أصحابها، فإنّ إنجازها في وقتها له لذّة وحلاوة في نفوس أهلها، ولا تتركها لغد أو ما بعده من الأيام؛ لأننا لا ندري ما يخفيه القضاء والقدر لنا ولهم، وحينئذ ستكون مبادرة المسؤول في إنجاز العمل تشجيعا للآخرين على إنجاز ما بأيديهم من الأعمال، وستشجع فريقك وأدواتك وأذرعك على هذه السنّة الحسنة والطيبة، فلا ينبغي أن يسمع المواطن عند مراجعة دوائر الدولة: تعال غدًا أو بعد كذا يوم، يجب أن تُنجز المعاملات في يومها، بل في نفس الوقت وساعته، ومعنى يوم ورودها أي عند ورودها، فإذا ما جاءت الحاجة يجب أن يكون الجواب سريعًا، فإن كانت قابلة للإنجاز فيجب أن تُقضى باحترام، وإن كانت غير قابلة للإنجاز فيجب أن تُردّ بأدب الرفض، وينبغي أن لا يُترك المواطن في حيرة من أمره، وينتظر أسبوعا أو أسبوعين أو ثلاثة من غير جدوى، ومن

غير أن يعلم أن معاملته غير قابلة للإنجاز، بل يجب أن يُعتذر له من ساعته، ويُفهّم أن لا سبيل لقضاء حاجته للسبب الفلاني.

(بِمَا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ)، الأعوان: الأذرع، الموظفون، المنتسبون، الأدوات، الفريق الذي يشتغل به المسؤول. والمقصود بالإحراج هنا أنه أحيانًا لا يبادر الموظف إلى إنجاز العمل بسرعة، وأنه يتعمد تأخير إنجازها ليدرك المراجعون أهمية ومكانة هذا الموظف ومنزلته وقيمته من خلال الانتظار لساعات أو أيام وهم ينظرون إليه برهبة خشية أن يؤخر معاملاتهم مدة أطول أو يعرقل قضاءها أصلًا؛ استجلابًا للمنفعة المعنوية وإلجاءهم إلى توسيط من له وجاهة أو مسؤولية لترتفع منزلتهم الاجتماعيّة بين الناس، أو لعله يريد من هذا التأخير مجرد إذلال الآخرين والعياذ بالله، إرضاء لمرض في نفسه، فهو يحب أن يسمع كلمات التوسل والترجي، أو يرى نظرات الاستعطاف والاسترحام. نعم فبعض هذه الأدوات تفكر هكذا أحيانًا. وأحيانًا أخرى يكون سبب المماطلة هو للحصول على الفوائد المادية، وذلك من خلال اضطرار المواطنين إلى دفع الرشوة.

فالأعوان، الفريق، الأدوات لا يبادرون إلى إنجاز الأعمال بسرعة، أما لأبعاد معنوية ونرجسيات، وأما لأبعاد مادية تتعلق بالابتزاز والرشى والفساد، وما إلى ذلك. ولذلك على المسؤول في أي مستوى قياديّ أن يحرص على متابعة العمل بدقة ومحاسبة المقصرين. وقد رأيت في بعض الدول التي زرتها مشروعًا قيد الإنجاز، كإنشاء جسر أو نفق قد وضعوا عدّادًا أمام الناس لحساب الأيام المتبقية من إنجاز المشروع، فتقرأ اليوم رقم مئة وستة وعشرين، وتجده في اليوم الثاني مئة وخمسة وعشرين، وهكذا ينقص في كل يوم رقمًا. ورأيت أيضًا في دوائر في دول كثيرة عندما يدخل المواطن لإنجاز معاملة ما، يُعطى عند الباب استمارة توضح أنه إذا أردت المعاملة الفلانية فالإجراءات هي كذا، والمدة التي تستغرقها كذا يوم، ويوجد في هذه الاستمارة أيضًا حقل لتقييم إنجاز المعاملة، هل تم ضمن الوقت المحدد؟ هل أنجز العمل حسب الضوابط؟ وهذه الاستمارة تحوّل إلى المسؤول ليراقب من خلالها سير العمل في الدائرة، ليرى هل هناك خلل ما في أداء الموظفين، فيوبّخ ويعاقب حتى يعالج هذا الخلل، وهذا من الصلاحيات الحصرية للمسؤول ليتأكد من انسيابية الخدمة وإنجاز معاملات المواطنين، أو مستوى الأداء عند من هو مسؤول عنهم ضمن المدد الزمنية القصيرة والسريعة دون تأخير، دون تسويف، دون مماطلة. وهذه توصية مهمة بخصوص الصلاحيات الحصرية للقائد، للمسؤول، للمدير في الهيكل الإداريّ للدولة.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

ضرورة المباشرة في بعض الأمور

ضرورة التدخل المباشر للحاكم في بعض المهام، ماذا يُفهم منه؟ يُفهم منه أنّ الأساس أن لا يتدخل المسؤول الأعلى في تفاصيل عمل المسؤولين الذين هم أدنى منه. وهذا مبدأ في القيادة والإدارة، احترم الفريق الذي اخترته أيها الحاكم ووضعتهم في المراتب الإداريّة دونك، وأعطيتهم الصلاحيات اللازمة لإعانتك في إدارة الدولة، فلا ينبغي لك أن تتدخل في كل جزئية من جزئيات عمله، ولا في تفاصيل كل شاردة وواردة، لأنه حينئذ لا يبقى له من الأمر شيء، ولا تبقى له حرمة، ولا أحد يراجعه، فالجميع يأتي مباشرة إلى المسؤول الأعلى، ويقولون ما الداعي إلى مراجعة المسؤول الأدنى ما دامت الأبواب مفتحة أمام المسؤول الأعلى، وهو يتولى مباشرة تمشية الأمور؟، كلا، لا ينبغي أن تسير الأمور على هذا المنوال، حتى لو كان دافع المسؤول الأعلى هو الحرص على سلامة سير العمل، بل على الحاكم احترام المنظومة القياديّة، واحترام صلاحيات الفريق، ومنح الثقة لمن يضعه مسؤولًا دونه.

أيها المسؤول في أي مستوى قياديّ، عندما تعطي واجبات ومهام للفريق العامل معك على إدارة شؤون ما أنت مسؤول عنه، فالأساس هو أن لا تتدخل في أعمالهم، واتركهم يحلون ما يواجهونه من مشاكل، ليشعروا بدورهم وصلاحياتهم وقدراتهم على الخدمة وبإمكانياتهم، وحينئذ سيبدعون وينجزون ما وُكّل إليهم من عمل، ويطورون قابلياتهم. وأما أن يتدخل المسؤول الأعلى في شؤون وتفاصيل المستويات الأخرى ممن هم أدنى منه، فحينئذ لا يستطيع أن يربي فريقًا قياديًا، ولا يعطي شخصية لهذا المسؤول الأدنى، لأنّه لا يراجعه أحد، وكل شيء يرجع للمسؤول الأعلى بشكل مباشر، بل يجب وضع الخط العام لهؤلاء المدراء، ووضع سياسات ملائمة لمساحات أعمالهم، ومنحهم صلاحيات تتناسب مع مقدارها، دعهم يذهبون ويشتغلون، وافسح المجال لجميع المستويات القياديّة ولأصحاب المهام والواجبات على اختلافهم وتنوعهم بأن يمارسوا دورهم القياديّ، ويملؤوا مواقعهم، ويأخذوا القرارات، ويتحركوا ويديروا أعمالهم. وهذا منهج إسلاميّ في القيادة والإدارة.

فالأساس أن يمارس الآخرون في المستويات المختلفة دورهم، والمسؤول الأعلى لا يتدخل في كل جزئية وفي كل تفصيل. نعم دور المسؤول هو الإشراف والمراقبة والمتابعة والتأكد من صحة سير العمل بالطريقة المناسبة الصحيحة دون أن يتدخل فيه، ويقيّم الأداء، هذه واجباته ولا يتدخل إلا بمقدار الضرورة. هذا هو المنهج الإسلاميّ في منح الصلاحيات، يخلق حافزا ودافعا لدى كل الفريق في أن يثابر ويعمل، وكل واحد مسؤول عن قضية هو صاحب القرار فيها، هو صاحب الصلاحية فيها، يذهب ويشتغل ويقرر والناس ترجع له وتحل مشاكلها من خلاله، هذا يربّي فريقا كاملا، حيث تتوزع المهام والأدوار على كل الفريق، من غير تحميل على البعض دون البعض الآخر، وفي الوقت نفسه الجميع فرحون، ويسعون بجد، ويشعرون أنّ لهم قيمة ودورًا في هذه المنظومة القياديّة، وأنّ صلاحياتهم محترمة من المسؤول الأعلى، وهو لا يتدخل فيها، ولو جاء المسؤول الأعلى مراجع يريد رأيه في القضية الفلانية، فينبغي أن يقول له: دعني أسأل الشخص الفلاني فهو مسؤول عن هذا الملف، لا أستطيع أن أعطيك رأيي قبل أن أطّلع على رأيه، وهكذا يرجع الناس إليه، وهذا بالحقيقة يقوّي الفريق بشكل عام، ويرفع من مستوى الإنجاز، ويخلق دوافع وشعورا عند المسؤول في أي موقع أنه بالفعل مسؤول، وهو يمارس دوره بشكل كامل، فلآمر في سرية هو آمر على سريته ضمن سياسة مرسومة له بحدود صلاحياته، وهكذا آمر الفوج يدير كل أموره وكل شؤونه ويتخذ جميع قرراته ضمن صلاحياته الممنوحة له ضمن القانون العسكري، وحينئذ سيحدث تنافس بين السرايا العديدة داخل الفرج الواحد، ويحدث مثل هذا التنافس بين الأفواج العديدة في اللواء الواحد، وهكذا في الألوية المتعددة ضمن الفرقة الواحدة، والفرق المتعددة ضمن قوات الجيش الواحد، وهذا التنافس يحرك الجميع نحو النجاح، وتحقيق الأهداف المطلوبة؛ لأنه المسؤول ولديه كامل الصلاحيات، ودور المسؤول الأعلى هو المتابعة والمراقبة، فيحاسب المقصرين والمتهاونين، ويشكر و يقدّر المتفوقين، كل حسب عمله ودوره وإنجازه.

وهذا المنهج من شأنه أن يفجّر الطاقات، ويعمّق الشعور بالثقة عند الفريق، ويوسّع من الصلاحيات، ويخلق الدوافع الحقيقية، ويطور الإنجاز ويرفعه بشكل كبير.

ولكن - مع الأسف - في تجاربنا وفي بلادنا لا تسير الأمور بهذا الشكل، فعندما تدخل وزارة من الوزارات تجد فيها آلاف الموظفين، وعدد قليل منهم منهمك في العمل، قد أُنيطت بكل واحد منهم عشرون مسؤولية، فهو مسؤول ورئيس لكذا لجنة، وهو مسؤول عن كذا موضوع، وهو يتابع كذا قضية، وعندها تسأل لماذا قد ألقي العمل على هذه القلة

القليلة فهم يجهدون ولا يفرغون ساعة لمتابعة شؤونهم الشخصية، في حين أن الآخرين - وهم العدد الأكبر- جالسون يتفرجون ويقومون بأعمال بسيطة، وفي نفس الوقت ينتقدون وغير راضين بسير العمل بهذه الطريقة؛ لأنهم يرون أنفسهم مهمشين، وليس لهم دور، وهم على أتم الاستعداد لممارسة وتنفيذ ما يناط بهم من أعمال؟ وهذا المنهج منهج خاطئ، فهؤلاء إن كانوا غير نافعين، فلماذا أتيت بهم ووضعتهم في هذا المكان؟، وإن كانوا نافعين فلماذا لا تعطيهم الصلاحيات؟ ألا تنظر أيها الحاكم إلى ما حولك فتتعلم منه، فمثلًا هذا الكرسي الذي أنت جالس عليه يوجد فيه أربع قوائم يتوزع عليه ثقلكم، وسوف لا يترك أثرًا على الفراش الذي يوجد عليه هذا الكرسي، وأما إذا كان هذا الكرسي مستندًا إلى قائمة واحدة فإنه سوف يترك أثرًا في الفراش الذي يوجد عليه، وهكذا الأمر لو احتكرت جميع الصلاحيات ولم توزعها بين أعضاء فريقك بالشكل المناسب، وعلى كل المتصدين، وعلى كل العاملين، وكل من يأخذ مساحته، فإنه سوف يقل الثقل عن كاهل أؤلئك النفر الذين حُصرت بهم جميع الصلاحيات، ويتحسن الأداء، ويشعر الكل بالرضا، و يشعر بأنه جزء أساسي في العمل، والكل يسعى بجد، والكل يتعب، والكل فرح، ويتكامل الفريق بعضه مع بعض. وهذا هو المنهج الإسلاميّ الصحيح، وحينئذ سيزول التذمر والانتقاد ويشارك الجميع بعملية البناء والإدارة، ويُمنح الفرصة الكافية لتنمية طاقاته وبلورة إمكانياته وتفجير طاقاته، وستنتهي كل المشاكل والتبعات الجانبية التي يسببها المنهج الخاطئ في الإدارة، وستوجه الطاقات بشكل إيجابي لا بشكل سلبي، وسينتهي الشعور بالإهمال والتهميش وما يتبعه من الحقد ووضع العراقيل أمام الآخرين للثأر لنفسه، ويُقضى على هذه السلبية في المنظومة القياديّة، وفي المساحة التي هو فيها، ولن يشعر بالظلم أو بالمهانة لتجاوزه وتجاهله وعدم الاهتمام به، وهكذا ستكون المشكلة مضاعفة، وستخلق حساسيات، و تعطل العمل.. إلى غير ذلك.

هذه هي الإضاءه الأولى، وهي ضرورة المباشرة لبعض الصلاحيات، واعتبار المنهج الأساسي والصحيح هو توزيع الصلاحيات وإعطاء كل منظومة قياديّة صلاحيات كافية ووافية لتقوم بها.

الإضاءة الثانية

التدخل المباشر عند الضرورة

التدخل المباشر من قبل الحاكم أو المسؤول الأعلى عند الضرورة، وعند الاقتضاء، ودون التوسع في ذلك، مع احترام صلاحيات المسؤولين الآخرين. لكن متى يحصل التدخل؟ عند الضرورة، متى تحدث هذه الضرورة؟ تحصل الضرورة في حالتين:

الحالة الأولى: عندما تكون هناك حاجة لقرارات جريئة، عندما يتملص المسؤولون من اتخاذ القرار الجريء ويلقي كل واحد منهم عبء ذلك على الآخر، خوفًا من تبعات ونتائج ذلك القرار، فهنا المسؤول عليه أن يتدخل ويتخذ ذلك القرار الجريء، ويدفع المؤسسة أو المنظومة القياديّة نحو أهدافها، ولا يدع العمل والمشروع معطلًا، فيتدخل عندما يتطلب العمل خطوات نوعية لا يجرؤ عليها الآخرون.

ويكون ذلك عندما يحدث موقف جديد لا يعلم المسؤولون الآخرون ماذا يفعلون، ففي مثل هذا الظرف الطارئ يزداد القلق والحذر من اتخاذ قرار خارج عن نطاق الروتين الإداريّ المتعارف، فالمسؤول الأدنى ليست لديه الرؤية الواضحة ولا الجرأة الكافية لاتخاذ القرار، هنا يجب أن يأتي المسؤول الأعلى ويتخذ القرار المناسب، لتمضي في سيرها تلك المنظومة القياديّة نحو أهدافها.

الحالة الثانية: التأكد من سرعة الإنجاز؛ لإحراز عدم تعطيل مصالح الناس، والحيلولة دون سريان الفساد المالي والإداريّ في المنظومة القياديّة، وكذا لئلا تحدث نرجسيات ويتعطل العمل ويكون متعارضًا ومتقاطعًا مع أهداف العمل، فلا يسمح للمستويات القياديّة الأدنى بالابتزاز وممارسة الفساد المالي وغيره بحق من لديه مشكلة أو مطلب أو جاء لحل قضية من القضايا، فهناك دائمًا في الدهاليز المظلمة الإجراءات البيروقراطية الملتوية، وهذه الخطوات الكثيرة تعطي فرصة للفساد، بخلاف ما لو كانت المسألة واضحة وسريعة وبيّنة وتحت الأضواء، إذ تقل فيها فرص الفساد، فكلما تعقدت طرق الإنجاز وذهبت إلى الدهاليز المظلمة كثرت فرص الفساد، وكلما تيسرت طرق الإنجاز قلّت فرص الفساد. وهذه قاعدة عامة، إذا أردت أن تقضي على الفساد فيجب أن تخلق وتوجِد سياقا شفافا وواضحا وسريعا للإنجاز وحل المشكلة. هذا هو المنهج الإسلاميّ الذي يتحدث عنه أمير المؤمنين (صلوات الله وسلامه عليه).

التوصية الرابعة

إدارة الوقت وأهميته في النجاح القياديّ

(وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْم عَمَلَهُ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْم مَا فِيهِ)

من مجمل توصيات أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إدارة الوقت، يا مسؤول الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، لا يجوز أن تكون المنظومة القياديّة ليس فيها ما تُعُورف عليه بـ «Time tables»، ليس لديها جداول زمنية، ليس لديها أسقف ومحددات زمنية لتحقيق الأهداف. فالمنظومة القياديّة التي لا تراعي مسألة الوقت في الإنجاز والأداء تضيع، ولا تقدر أن تحدد أهدافها، وتنهار وترتبك سريعًا. انظروا ماذا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ)، لا تُدخِل في يومك عمل يوم آخر فيتعبك ويكدرك، فكل يوم عندك مهام محددة لذلك اليوم عليك أن تنجزها، وعدم تأجيلها إلى اليوم التالي.

(فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ) من العمل. وفي رواية دعائم الإسلام زيادة: «وأعط لكل ساعة قسطها»[١١٨].

لكل يوم واجباته ضمن الأسقف الزمنية التي وضعتها أيها المسؤول لتحقيق أهدافك، فلا تؤجل عمل اليوم إلى يوم آخر، وإن كان يوم غد، لأنه إذا حُوّل عمل اليوم إلى الغد، فإنّ الغد له مهام أخرى يجب إنجازها، وستتراكم مع مرور الأيام الأعمال المؤجلة من الأيام السابقة، مما يستدعي تأخير إنجاز وأداء الأعمال، وحينئذ يستشعر المسؤول ثقل أعباء التأخير، ويبدأ يتعب نفسيًا، ويتباطأ الأداء، وهكذا تأخذ العملية يومًا بعد آخر أبعادًا أكثر تعقيدًا.

١١٨. دعائم الإسلام ١: ٣٦٧.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

أهمية إدارة الوقت

أهمية إدارة الوقت في أي منظومة قياديّة أو إداريّة لأي مهمة من المهام التي أُسست لها وأنشئت من أجلها، يجب أن يكون هناك توقيتات واضحة لتحقيق الأهداف، والمنظومة القياديّة والإداريّة الناجحة هي التي تضع أهدافا واضحة ضمن أسقف زمنية محددة لكل خطوة، فلكل مشروع ولكل ملف يجب أن يكون هناك محددات زمنية واضحة، إذ بدون أسقف زمنية تنشأ حالة من التباطؤ والتفكك والترهل، فيضيع العمل، وتفقد المؤسسة رونقها.

وإذا أردتم تحقيق أفضل النتائج بأقل الكلف في الوقت المحدد، فهذا يتمثل بهذه التوصية التي يتحدث فيها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ. هذه الأركان الثلاثة - أفضل النتائج، أقل الكلف، الوقت المحدد - يجب أن تكون حاضرة دائمًا في نجاح المنظومة القياديّة.

ويتطلب إدارة الوقت بشكل صحيح الأمور التالية:

أولًا: فهرسة واجبات ومهام المنظومة القياديّة، فمثلًا يفهرس الفوج العسكري واجباته بنقاط محددة، واحد، اثنان، ثلاثة... عشرة...، وكذا تفهرس منظمة المجتمع المدني واجباتها، ويفهرس التيار السياسيّ أهدافه وواجباته، وهكذا تُفهرس كل المهام والواجبات في المنظومة القياديّة.

ثانيًا: تصنيف هذه الأعمال والخطوات والواجبات بعد الفهرسة حسب الأولوية، فإن كانت الأولوية لرقم واحد تضعها أولا، وإن كانت الأولوية الثانية للرقم الثاني تضعها ثانيا، وتعدّل ترتيب الأهداف، فلا تضع الهدف الأقل أهمية فوق، في المرتبة الأولى، وتضع الهدف الأهم تحت، في المرتبة الدنيا، بل يجب وضع الأهداف ضمن أولويات واضحة ومحددة.

ثالثًا: ضع أمام كل مهمة من المهام ما تحتاج إليه من الوقت، ضع أمامها سقفًا زمنيًا، أي: تلتزم نفسك بإنجاز هذه المهمة ضمن السقف الزمني المحدد.

رابعًا: أن تلتزم بالأسقف الزمنيّة التي وضعتها لنفسك بحذافيرها وبصرامة، ولا تسمح بأي تسويف ومماطلة، ولا تتساهل في هذا الموضوع.

فـإذا قمت بهذه الخطوات الأربع سـتجد منظومتك القياديّة والإداريّة ناجحة نشـيطة فاعلة، تحقق الأهداف، وتسـير بخطوات واثقة إلى الأمام، وتكون أيقونة نجاح. وأما إذا حدث فيها تسويف، ولم تعرف أن تشخّص الهدف المهم من الأهم، والمهم من غير المهم، ولم تضع الأسـقف الزمنية الواضحة، ولم تفهرس كل المهام، ونسـيت بعضها أو زهدت فيها، فحينئذ تبدأ عملية التفكك والتسيب.

الإضاءة الثانية

تقدير الأضرار الناجمة عن عدم التخطيط الزمني المحدد

انظروا ماذا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: (فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ)، أي لكل يوم واجبات محددة، وإن لم تنجزها ستضرر المؤسسة وترتبك المنظومة القياديّة، فإدارة الوقت بشكل صحيح يجعل الوقت يتحول إلى مفتاح أساسـي للنجاح في تحقيق الأهداف المرجوة، إدارة الوقت بشكل صحيح يمكّن المؤسسة من تحقيق أهدافها والمضي قُدُمًا وبسرعة في تحقيق هذه الأهداف، وعدم إدارة الوقت وعدم الاهتمام به يؤدي إلى فوضى، إلى ارتباك قياديّ وإداريّ. والمؤسسة التي لا تحترم التوقيت، ولا توجد عندها واجبات مقننة بوقت محـدد، نراها تتخبط وترتبك وتحدث فيها فوضى عارمة، ومعها سـتزيد الضغوط على سـرعة الإنجاز، فهذا الذي يجب أن تنتهي معاملته اليوم سـتتأخر يومًا أو يومين، وسيبدأ ينتقـد، وكـذا هناك أناس يجب أن تنتهـي معاملاتهم في اليوم الثاني سـيتأخر إنجازها، وسـيبدأون ينتقـدون، وهكذا في اليوم الثالـث واليوم الرابع، وفجأةً نـرى الناس الذين تضـررت مصالحم يصطفون صفًا واحدًا، ويعترضون ويرفعون صوتهم، ويمثلون حالة ضغط هائل على تلك المنظومة القياديّة أو تلك المؤسسة، وإذا كان الطرف المقابل هي الدولة بدل المؤسسة فمن الممكن حدوث تظاهرات وثورات واحتجاجات واعتراضات، وتخرج الناس عن طورها وتنفعل وتتحرك، كردّ فعل على عدم احترام التوقيتات، وعدم الاحتـرام لإنجـاز الأهداف في أوقاتهـا المحددة أيضًا، فالمؤسسـة أو المنظومة القياديّة التـي لا تدير الوقت بشـكل صحيح، يؤدي ذلك إلى تجـاوز الأولويات، فتتأخر الأمور المهمة، وتتقدم أمور أخرى، لارتباك البوصلة والأهداف المرجوة لهذه المؤسسة بشكل كبير، وتضيع الفرص في جو من التخبط والإرباك والضغوط والاعتراضات، وحينئذ أي فرصة نجاح لهكذا مؤسسة وهكذا منظومة قياديّة؟! ستفقد الفرص الواحدة تلو الأخرى، وسيحصل أيضًا تلكؤ في إنجاز المهام، ويزيد هذا التلكؤ، وينخفض أداء العمل يومًا بعد

آخر، وسيؤثر هذا الإرباك وهذه الفوضى في نفسية وروحية العاملين في هذه المنظومة، وتزيد الاعتراضات والضغوط عليها، وسينخفض الأداء بشكل طبيعي إلى حد كبير، وحتى بعض الأعمال التي كانت تُنجز بشكل جيد ستنجز في ظل هكذا فوضى بشكل مبتور ومنقوص، ويكون العمل غير دقيق، وهناك اصطلاح بالعامية يقول: «يشربتها تشربت»، فعند تراكم الأعمال وزيادة الاعتراضات والاحتجاجات يلجأ المسؤولون إلى السرعة في إنجاز الأعمال، ولو كان على حساب الدقة والنوعية، ليتخلصوا من شدة الاعتراضات والضغط الكثير، فالدقة في العمل وجودة العمل سيفقدها المواطن، فالمعمل الذي تراكمت عليه العقود، وتأجلت أوقات الإنتاج، سيعمد كيفما كان لزيادة كمية إنتاجه على حساب النوعية، للتخلص من الضغط الهائل الحاصل نتيجة تأخر أوقات التنفيذ، لكي يُرضي هؤلاء المحتجين، وحينئذ لا تكون البضاعة بالشكل الصحيح. أو التيار السياسيّ الذي لا يحترم توقيتاته سيفقد تأييد الناس، وسيكون في حالة من السخط تفقده قدرته على التأثير المطلوب واللازم.

وهكذا المنظومة القياديّة، فهذه المشاكل الكبيرة التي تصيب أي منظومة قياديّة لا تدير الوقت بشكل صحيح، عندها تحدث الفوضى من هذا النوع، حين لا يدارالوقت بشكل صحيح، وحين يحصل هذا التخبط الكبير تبدأ هذه المنظومة القياديّة تنجز المهام في الوقت الضائع، ولكن في غير الوقت المناسب، فلا يؤثر شيئًا، ويُبذل جهد كبير، ويُصرف وقتٌ وطاقة وإمكانيات ولكن بلا جدوى، يحرث ولا زرع، ولا إنتاج، مثل الذي يخزن هواء في شبك، يتحرك ولكن لا يحرك شيئًا، ومنظومة قياديّة مرتبكة بهذا الشكل، لا تدير الوقت بشكل صحيح، تصبح كل طاقتها وجهدها طاقة سلبية، غير منتجة، والجهد الذي تبذله لا نتاج له، وتبدأ تتفكك وتتبدد وتضيع الفرص الكبيرة لتحقيق الأهداف؛ كل ذلك بسبب عدم استثمار الوقت بشكل صحيح وبشكل مناسب، ويضيع الوقت، وتضيع معه الفرص، وستكون جميع الأعمال منقوصة، وسيُترك تنفيذ المشاريع وهي في منتصف الإنجاز، وستذهب الإمكانيات إلى مشروع ثان وثالث ورابع وخامس؛ لأنه يرى أن لا تأثير، فيتجه إلى التعويض، ويأتي بشيء جديد، لعله يؤثر ويتدارك ما فاته، ولكن يتركه في منتصف الإنجاز ويتوقف ليتوجه إلى مشروع ثالث ومشروع رابع، في حالة من التخبط الكبير في منظومته القياديّة والإداريّة، وتتعطل الأهداف، وتنحرف البوصلة. وكل هذه الفوضى، وكل هذه الأضرار الخطيرة بسبب عدم إدارة الوقت بالشكل المناسب والصحيح، هكذا يقول أمير المؤمنين (سلام الله عليه).

لاحظوا ما ورد في غرر الحكم عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: (من أخّر الفرصة عن وقتها، فليكن على ثقة من فوتها)[119]، نعم فمن لم يستفد من الفرصة في وقتها ذهبت منه وضاعت، ولا تبقى تنتظره، وحينئذ لا ينفعه الندم ولو أدمى أصابعه حسرة.

وورد في بحار الأنوار عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: (الأمور مرهونة بأوقاتها)[120]، فلا أمر مفتوح، بل كل أمر مرهون بوقته، فإذا استثمرته في وقته حققت النتيجة، وإن لم تبادر إليه في حينه ذهب عنك إلى غيرك، وحينئذ لا ينفع الوقت والجهد الذي تصرفه للحصول عليه، ومن يتساهل في تضيع الوقت ستضيع منه فرص كبيرة، وسيقع في أخطاء جسيمة، وسيؤدي ذلك إلى خسائر بشرية ومادية كبيرة وهائلة لا تعوض.

فعليكم بإدارة الوقت بشكل صحيح، وقد ورد في غرر الحكم عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: (بادر الفرصة قبل أن تكون غصة)[121]، فهذه التي كانت فرصة تركض وراءها صارت غصة لك وعبئا عليك، وهي فرصة ما دمت قادرًا عليها، فإن فاتت فهي غصة.

إذن يجب أن نتعامل ونتعاطى مع الفرص في الوقت المناسب والمحدد، ونستثمرها حتى لا تتحول إلى ألم، إلى غصص، إلى خسارة، فكلما أخطأنا في تقدير الوقت وإدارة الوقت والالتزام الصارم بالتوقيتات زادت الخسائر بشكل كبير، سواء كانت خسائر بشرية وطاقات أو كانت مادية، وكلما تراجعت المنظومة القياديّة في أداء واجباتها والمهام المنشودة والمرسومة لها، تبدأ عملية انخفاض الإنتاج إن كان في عمل اقتصادي، ويبدأ التأثير السلبي في أهداف وبرامج المنظومة إذا كانت عسكرية أو مدنية أو سياسيّة، وهذه قاعدة عامة، وسيكون هناك تراجع وانخفاض في النتائج.

ورد في غرر الحكم عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: (تمام العمل استكماله)[122]، تصوروا هذه القاعة الكبيرة، لو أراد شخص بناءها ويكملها إلى الأخير، ولكن لا يؤسس فيها تبريدا ولا إنارة ولا هذا الإكساء المعيّن، وهذه كلها أشياء كمالية، فالأصل هو هذا البناء، هذه القاعة، فلا يمكن أن تُستثمر و يُستفاد منها ونجلس اليوم فيها ونتحدث معكم، فإبقاء العمل منقوصًا، كأن تكون نسبة الإنجاز (٧٠٪)، ونسبة الإنجاز في تلك المدرسة (٨٠٪)، ونسبة الإنجاز في ذلك المستشفى (٩٥٪)، فلا نستطيع الاستفادة

---

١١٩. غرر الحكم: ح٨٧٩٥، نقلاً عن ميزان الحكمة ٣: ٣٣٩٩.

١٢٠. بحار الأنوار ٧٧: ١٦٥.

١٢١. عيون الحكم والمواعظ: ١٩.

١٢٢. غرر الحكم: ٧٢٠٢

منهـا ، ولا نسـتطيع أن تسـتقبل طالبًا أو مريضًـا ؛ لأنّها لم تكتمل بعـد ، ويجب أولًا أن تكتمـل ثم توضع فيها الأسـرّة والأجهـزة الطبية ، ثم نأتي بالمرضـى إليها ، والذريعة أن النفقـات أصبحـت عالية ولا يمكننا تغطيتها ، فرغم أن نسـبة الإنجاز بلغت (٩٥٪) فإننا لا نسـتطيع الاسـتفادة منه بشكل سليم وصحيح ما لم يُستكمل العمل ، ؛ لذلك فإنّ إدارة الوقت تمثل توصية أساسية ، ومفتاحا مهما من مفاتيح النجاح القياديّة .

التوصية الخامسة

بناء الذات والتوجه إلى الله

(وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ تعالى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الأقْسَام، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لله إِذَا صَلَحَتْ فيهَا النِّيَّةُ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ، وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ لله بِهِ دِينَكَ: إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتي هِيَ لَهُ خَاصَّةً، فَأَعْطِ اللهَ من بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللهِ مِنْ ذلِكَ كَاملًا غَيْرَ مَثْلُوم وَلاَ مَنْقُوص، بَالِغًا مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ).

التوصية الخامسة التي يقدمها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا العهد، هي بناء الذات والتوجه إلى الله (سبحانه وتعالى)، فحينما يتحمل المتصدي والمسؤول مسؤولية عدد من الناس قد يقل أو يكثر، يتحتم عليهِ أن يتعامل بمسؤولية أكبر، ويرسخ العلاقة مع الله (سبحانه وتعالى)، ويبني نفسه بشكل سليم، ويضبط مشاعره، ويسيطر على سلوكه، وهذه تساعده كثيرًا في حسن الأداء القياديّ، فالجانب الروحي، الجانب المعنوي، له أثر بالغ في تحقيق النجاح في المهمة القياديّة والإداريّة، إذ كلما كان الإنسان أكثر التزامًا، وأكثر اتساقًا مع القيم والمبادئ والمثل، كان أقدر على أداء مهماتهِ القياديّة بشكل أفضل.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الصدد: (وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ تعالى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ): أيها المسؤول، أيها المتصدي، أيها القائد، أيها المدير، لا تقل: لديّ عمل، أنا غارق في العمل، ليس لديّ فرصة للعبادة والتوجه إلى الله تبارك وتعالى، للابتهال إلى الله جل جلاله، كلا، يجب أن تفرغ أفضل أوقاتك وتخصصها للعبادة، أين تذهب في الأوقات التي ليس لديك فيها عمل؟ ولا تخادع نفسك بأنه لديك اجتماعات، فما هو الغرض من هذه الاجتماعات؟ ألا تريد أن تنجح؟ إن مفتاح النجاح في مكان آخر، فهذه كلها أسباب ظاهرية، لكن السبب الحقيقي والواقعي هو الله (سبحانه وتعالى) الذي بيدهِ مفاتيح كل شيء، فمن الممكن أن تأتيك رؤيا كمقترح

لك من الله (سبحانه وتعالى)، ويلهمك خطوة تتخذها تعادل عشرين اجتماعًا، فأنت تارك رب الأرباب، ومسبب الأسباب، ومنشغل بالأسباب الأخرى التفصيلية، وهذا لا يجوز، ويجب أن تخصص أفضل أوقاتك للعبادة، للانقطاع إلى الله (سبحانه وتعالى)، لتعميق صلتكَ وعلاقتك به جل جلاله.

(وَأَجْزَلَ)، يعني أعظمَ، (تِلْكَ الأقْسَامِ)، أفضل الأقسام في وقتك، فأنت عندما تقسم وقتك على أقسام، يجب أن تجعل أفَضل أوقاتك للعبادة، وأفضل الأوقات عندما تكون مرتاحًا ومسترخيًا، عندما تكون متوجهًا لله ومقبلًا نحوه تبارك وتعالى، لا أن تجعل حالات الاندفاع والنشاط للعمل أو للتفاصيل، للجزئيات، وتجعل آخر وقتك، عندما تكون مرهقًا، لأداء فرائضك ونوافلك، فتصلي آخر الوقت، كلا، بل يجب عليك أن تخصص أفضل أقسام وقتك وأجزل تلك الأقسام للعبادة.

(وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا للهِ إِذَا صَلَحَتْ فيهَا النِّيَّةُ): أينما كنت يا مسؤول، يا قائد، يا متصدٍّ، إذا كانت نيتك صالحة، وكان عملك وتصديك في سبيل الله بخدمة عباد الله، وكان الغرض منه غرضا رساليا قيميا، ولم تأتِ لتتأمر على الناس، ولم تأتِ لتأخذ امتيازات، بل تصديت للمسؤولية لكي تخدم الناس، فإذا كانت نيتك كلها خالصة لله (سبحانه وتعالى)، فكل هذا العمل وكل هذهِ الاجتماعات ستكون عبادة، وكل هذهِ الاتصالات عبادة، وكل هذهِ الجهود عبادة، وكل جهد ووقت وخطوة يصرفها الإنسان لخدمة الناس وأداء واجباته ومهامه القياديّة والإداريّة هي عبادة.

(وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ): كان الهدف منها خدمة الناس، خدمة الرعية، في هذهِ الحالة، كل هذهِ الجهود والأعمال تصبح عبادة، ولكن تلك العبادات الخاصة من التهجد وتلاوة القرآن والدعاء والصلاة وما إلى ذلك، يجب أن تعطيها وقتكَ المميز؛ عندما تكون بكامل نشاطك وقوتك، وتؤديها أداء حسنًا؛ لأنها مفتاح للنجاح في المهمة القياديّة.

(وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ للهِ بِهِ دِينَكَ)، يجب أن تكون، (إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتي هِيَ لَهُ خَاصَّةً)، من أهم ما تفرّغ له نفسك، لتعبّر فيهِ عن إخلاصك لله (سبحانه وتعالى)، وإقامة الفرائض والواجبات والصلوات والالتزامات بشكل سليم، خالصة لوجه الله تعالى، من دون شائبة، أو رياء، أو تصنّع، إلى غير ذلك.

(فَأَعْطِ اللهَ مِن بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ)، العبادة مجهدة للإنسان، يريد أن ينام بالليل لأنه متعب، فيقوم ليصلي صلاة الليل، يتنفل، يتهجد، وهذا يُقتطع من راحته، ومن وقته، وتأمل في التعبير الجميل: (فَأَعْطِ اللهَ)، ألا يستحق الله تعالى أن تعطيه من وقتك؟ وأنت تعطي من وقتك الكثير الكثير لإخوتك المؤمنين، ولأصدقائك، ومن أجل إنسان

طلب منك شيئا تعطي ساعات من وقتك ، أفلا يستحق الله (سبحانه وتعالى) أن تعطيه من وقتك اليسير ، وتخصص قسمًا من أوقاتك للعبادة؟ .

(وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللهِ مِنْ ذلِكَ كَامِلًا) ، وأَدِّ التزاماتكَ العبادية بشكل كامل ، بشكل دقيق ، على أفضل حال ، على أكمل وجه ، أَدِّ واجباتك الدينية على أحسن صورة .

(غَيْرَ مَثْلُوم) ، الثلم هو نقص العبادة ، فغير مثلوم ، يعني بها أن لا تكون هذهِ العبادة مخدوشة بالتقصير أو بشرود الذهن ، فالبعض منا من ضعاف الإيمان من أمثالي ، في الصلاه مثلًا ، ما إن يكبّر ويدخل في الصلاة ، حتى يسرح ذهنه يمينًا وشمالًا ، ويفكر بكل شيء إلا الصلاة ، ثم فجأة يلتفت إلى نفسه فيجد أنه يتلفظ بالجزء الأخير من الصلاة : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فأنهى صلاته وهو لا يعرف إذا التفت في أثناء الصلاة هل هو في الركعة الثانية أو الثالثة ، فإن أتى بصلاته على هذا الشكل ؛ بهذه الغفلة والشرود ، يكون قد أتى بصلاته ولا تجب عليه إعادتها ، لكنه لم يأت بها على الوجه الأكمل ، ونقرأ أحيانًا دعاء وأذهاننا مشغولة بأمر آخر ، ولا نلتفت إلى مضامين الدعاء ، والمهم عندنا هو أن نقرأ الدعاء كيفما اتفق ، وإن لم نلتفت إلى معانيه أو نستوعب ما فيه ، وهذه ليست عبادة على أكمل وجه ، بل العبادة الكاملة هي التي تكون غير مثلومة ، أي غير مخدوشة بالتقصير ، أو الرياء .

انظر إلى صلاتك أمام الآخرين ؛ هل هي مثل صلاتك عندما تكون وحدك في الغرفة؟ والدعاء الذي تقرأه وأنت أمام الآخرين ، هل هو كما لو قرأته وحدك؟ فإذا كان بنحو واحد فهذا جيد ، ولكن إذا كنت تقرأه أمام الناس بصوت ألطف مما لو قرأته وحدك ، فعليك أن تراجع نفسك خوفًا من وقوعك في الرياء ، وضياع عملك هباء منثورا ، وستكون عبادتك حينها مخدوشة مثلومة بالرياء .

(وَلاَ مَنْقُوص) ، أي أن تأتي بالصلاة ، بالعبادة ، على أكمل وجه ، إذ يستطيع الإنسان أن يصلي ويؤدي المقدار الواجب من كل ركعة في أقل من دقيقة ، ويؤدي الصلاة ذات الأربع ركعات في أربع دقائق ، وصلاة الصبح بدقيقتين ، ونرى البعض قد أنهى صلاته ولم ينته المؤذن بعد من الأذان ، وهناك من يؤدي صلاته من غير أذان ولا إقامة ولا مستحبات ولا تعقيبات ، فينهي صلاته في أقل من هذا الوقت ، فقوله عليه السلام (وَلاَ مَنْقُوص) ، يعني أن لا تأتي بصلاتك بمقدار الواجب فقط ، وكأنها إسقاط للواجب فقط ، كلا ، بل احرص على أن تأتي بالعبادة كاملة غير ناقصة ، في آدابها ، وفي سياقها ، وفي وقارها ، وفي هدوئها ، وفي الأداء الجيد ، والالتفات والتوجه ، وغير ذلك .

(بَالِغًا مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ)، مهما أخذ ذلك من جهدك، بأن يتعبك، ويحرمك من نومك، ويقلل من راحتك، ولكن هذه اللذة التي يحصل عليها الإنسان وهو يتعبد بين يدي الله (سبحانه وتعالى) والناس نيام، لذة ما فوقها لذة، ويجب أن نستثمرها، وأن نكيّف أنفسنا ونعوّدها على أدائها.

إذن، فالتوصية الخامسة التي يقدمها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هي الاهتمام بالجانب المعنوي للعبادة، بالعلاقة مع الله (سبحانه وتعالى)، بتعميق هذهِ الصلة معه (سبحانه وتعالى)، وببناء الذات البناء الصحيح، بما يساعد الإنسان على النجاح في مهماتهِ القياديّة، ومسؤولياته وتصديه.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

الصلة الدائمة بالله من مقومات النجاح في المهمة القياديّة

إن الصلة الدائمة بالله عز وجل من أهم مقومات النجاح في أي مهمة قياديّة؛ أن يكون خطك مباشرًا مع الله (سبحانه وتعالى)، عندما تدخل على الواتساب أو التليجرام وتريد إرسال رسالة إلى صديق، يخبرك الموقع أنه متصل أو غير متصل، فإذا كان متصلًا فمعنى ذلك أنه الآن على الخط، وتستطيع أن تكلمه وترسل له رسالة، فعلاقتنا مع الله (سبحانه وتعالى) يجب أن تكون متصلة، وهذه الصلة بالله (سبحانه وتعالى) يجب أن تكون دائمة، فإذا أراد أحد أن يتصدى لمواقع القيادة والإدارة والمسؤولية، فهو بحاجة إلى أن يحصل على المناعة المعنوية، على الحصانة المعنوية الداخلية في وجوده، وهذه الحصانة تمنعه من الانحراف، من الانزلاق، من الشطط، من الأنانية، من الكبر، من الفخر، من النرجسية، فحين يكون في المسؤولية والجميع من حوله ينادونه: نعم سيدي، نعم صاحب المعالي، نعم فخامتك، نعم سيادتك، بحسب نوع المسؤولية والموقع، تطرأ عليه حالة من الزهو، وحتى على مستوى البيت، مع الزوجة والأولاد، فمهما كان المستوى، يبقى زهو التصدي، زهو المسؤولية، يشعره بأنه أعلى من الآخرين، وهذا يوقع الإنسان في الكثير من الزلات والانحرافات، فإذا أردت أن تكون على قدر المسؤولية، وأن لا تنزلق، ولا تقع في النرجسية، والتكبر، والفخر، والانحراف، فأنت تحتاج إلى حصانة، تحتاج إلى مناعة.

ما هي الحصانة المعنوية؟ هي الصلة بالله (سبحانه وتعالى)، وهناك مقولة تقول: الموقع يغيّر صاحبه، أو إن الكرسي يغيّر الناس؛ فصاحبنا هذا عندما صار وزيرًا، صار مديرًا، صار مسؤولًا، صار آمرًا، تغيرت أحواله، فالكرسي يغيّر الناس، هكذا يقال، ولكن الواقع أن الكرسي لا يغيّر، بل الكرسي يعرّي الناس، يظهر حقيقتهم، يكشف عن واقعهم.

لماذا عندما لم تكن مسؤولًا، وكنت مكشوف الظهر ليس لديك غطاء، كنت تتصنع خوفا من أن تفقد مكانك؟، من أن يُعتدى عليك؟، من أن يُساء إليك؟، من أن تُطرد؟، فالخوف يجعلك دائمًا تتعامل بتصنع، لكي لا تُغضب المسؤول، فلا تعمل شيئًا يعرضك للعقوبة، فأنت يعجبك الأمر الفلاني ولكن الخوف يمنعك، وعندما صرت مسؤولًا فوق الجميع، فمن الذي يجرؤ على أن يتكلم معك؟.

عندما كنت أعزب في البيت، فأبوك على رأسك، وأمك على رأسك، وإخوتك الكبار على رأسك، فأنت خائف، ولكن عندما تتزوج وتخرج من بيت والدك، تصبح أنت القائد، وسيد الموقف، وزوجتك وأولادك تحت مسؤوليتك، وعندما يزول الخوف نظهر على حقيقتنا.

وبهذا النحو تعطي المسؤولية الحصانه للإنسان، وحينها يظهر المسؤول على حقيقته، فينحرف، يتعدى، يتجاوز، يغلظ صوته، يحمّر عينيه، مع أنه هو هو، عجيب! ما الذي غيّرك علينا؟ فقد كنت صاحبنا، فكيف صرت بهذا الشكل؟.

إنّ الشعور بالموقع يكون بحسب الوعاء الوجودي لكل إنسان، فهناك إنسان حين تجعله مدير قسم، يصبح مثل صدام، على مهلك، فأنت مدير قسم صغير لا أكثر، وتحت أمرتك أربعة موظفين، فما هذا الطغيان؟ وتجد شخصًا ينصّب لحكم دولة بأكملها، فلا يؤثر فيه ذلك، ولا يغيّر من طبعه، فهو أكبر، فكل إنسان عندما يتسلم المسؤولية يتصرف بحسب وعائه.

إذن، فالمسؤولية عمومًا حصانة، والحصانة تزيل الخوف، وبإزالة الخوف تظهر حقيقة الإنسان، فيعتدي، يتجاوز، يضرب، يكسر، يهتك الحرمات، يتجاوز الحدود، يتعدى على الحقوق، يتصف بهذه الأوصاف، فما هو الكابح؟ إذا لم يوجد خوف من البشر فيجب أن يكون هناك خوف من الله سبحانه، وهو الذي يضبط الإيقاع، لذا ينبغي أن تكون الصلة مع الله (سبحانه وتعالى) دائمة، فالعلاقة مع الله تجعل الإنسان يضبط مشاعره، يضبط أحاسيسه، يضبط مواقفه ولا يتجاوز على الآخرين، فالحصانة المعنوية، الوازع النفسي، الدافع الذاتي، هي التي تضبط إيقاع الإنسان.

ما تحققه هذه الصلة الدائمة بالله (سبحانه وتعالى)، أنها تخلق رادعا داخليا يكبح جماح النفس، ويضبط الإيقاع.

يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن هذهِ الصلة الدائمة بالله (سبحانه وتعالى) تتحقق بطريقين:

الطريق الأول: العبادة الخاصة في أوقاتها المحددة؛ دعاء كميل ليلة الجمعة، ودعاء الندبة صباح الجمعة، ودعاء التوسل ليلة الأربعاء، فاليوم الفلاني له أعمال مخصوصة، واليوم الفلاني فيه زيارة خاصة، صلوات، أدعية، عبادة، وكذلك نوافل الليل، قيام الليل... إلى آخرهِ، هذه العبادات في أوقاتها المحددة هي العبادة الخاصة، وهي المدخل لتحقيق هذهِ الصلة الدائمة بين الإنسان والله (سبحانه وتعالى).

الطريق الثاني: العبادة العامة، وقلنا إن الإنسان المتصدي، المسؤول، إذا وجد في مسؤوليته مدخلا ونافذة للخدمة، وتوكل على الله وعمل قربة إلى الله، وما دام مسؤولًا يوظّف موقعه في خدمة الناس، يتواضع لهم، يخدمهم، يفعل كذا وكذا من أجلهم، ويجعل وجاهته هذه في خدمة الناس، فحينها يكون كل عمله وحركته، ونومه لله، عندما ينام ليرتاح ويتقوى على إكمال مشوار الخدمة غدًا، ينام ليقوى على طاعة الله عز وجل في خدمة عباده، يكون كل ذلك عبادة؛ (وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ تعالى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الأقْسَام)، هذه العبادة الخاصة، (وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لله إِذَا صَلَحَتْ فيهَا النِّيَّةُ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ)، هذه العبادة العامة، والصلة الدائمة بالله (سبحانه وتعالى) تحقق أمرين:

أولًا: صلاح النفس والتزكية للقائد، تزكية النفس، صلاح النفس، سلامة النفس، للمسؤول، للمتصدي، للمدير، هذا مفتاح أساسي من مفاتيح النجاح.

ثانيًا: تؤثر في السلوك القياديّ؛ لأنها انعكاسات وإسقاطات في سلوكه، في تعامله، في نبرة صوته، في مفرداته التي يستخدمها، في خطواته، في طريقة تعاطيه مع الناس الذين هم تحت مسؤوليته، في اتجاهين:

الأول: تزجره عن الخيانة، الاعتداء، الجور، الظلم، الإساءة، الإهانة، فالعلاقة الخاصة بالله (سبحانه وتعالى) تزجره عن هذه كلها، ولا تسمح له بأن يعتدي أو يتجاوز على الآخرين.

الثاني: لها بُعد إيجابي، فالدافع يخلق عند الإنسان حافزًا يشجعه على الفعل، ويعطيه قوة فلا يكل ولا يمل، ويعمل ليل نهار من أجل خدمة هؤلاء الناس، لأنه يعرف أن في ذلك رضا لله (سبحانه وتعالى).

إن الصلـة الدائمة بـالله كابح تجاه الأخطاء والتعدي والتجـاوز، ودافع تجاه الخدمة والنشـاط، فـلا يرغب فـي أن يترك ذلك، وكلما قدم أكثر يرغب بـأن يقدم المزيد؛ لأنّ فيهِ طاعة لله، وقربة لله (سبحانه وتعالى)، فترى المسؤول الرسالي الذي يعمل من أجل الله ملؤه النشاط والحيوية والاندفاع، ولا تقرأ في وجهه إحباطًا، إذ تراه متفائلًا دائمًا في أحلك الظروف وفي أشد المنغصات.

عزيـز العراق في أشـد وأحلك الظروف كان يقـول: (الله موجود)، فإن حدثت كبوة قـال: «ولعـل الذي أبطأ عني هو خير لـي لعلمكَ بعاقبة الأمـور»، وكان دائمًا متفائلًا، ومندفعًا، ومتحمسًا.

الواقع مليء بالإحباطات، فلماذا أنت نشيط ومتفائل بهذا القدر؟.. لأنّ عندي علاقة مـع الله (سـبحانه وتعالى)، فأنا فعلتها لله تبـارك وتعالى، وأديت الذي عليّ، وترون من يمارس الرياضة؛ إذ يمشي لكي يفقد سعرات حرارية مثلًا أو يقوّي نفسه، وأحيانًا يمشي فـي الشـارع، وأحيانًا يمشـي على جهاز، فيقـال له: ماذا تفعل؟ فهذا المشـي على هذا الجهـاز لا يوصلـك إلى مكان؟ فيقول: ليـس المهم أن أصل إلى مكان معين، بل المهم أن أفقد السـعرات، فمع أن الجهاز هو شـريط يتحرك، ويبدأ وينتهي وهو واقف في نفس المكان، ولكنه فرح بأنه مشى خمسة كيلو مترات وحقق الغرض من رياضته.

وكذلك الذي يعمل لله سبحانه؛ سواء أنجز العمل أو لم ينجز، بقي واقفا في مكانه، أو حـدث منعطـف، أو حدثت منغصات، فهو فعلها لله تعالـى، وبذل جهده لله تعالى، فـإن أُنجـز العمـل فالحمد لله، وإذا لم ينجـز فقد أدى ما عليه، وهـذا هو منطق «إحدى الحسـنيين: النصر أو الشـهادة»، هذا المنطق الذي يجعل الإنسـان يعيش حالة الاندفاع دائمًا؛ لأنه سـواء تحققت النتائج المادية أو لم تتحقق، فإنه قد عمل ما عمل طلبًا لرضا الله (سـبحانه وتعالـى)، وأدى ما عليه؛ وهذه فكـرة أداء التكليف، بأن يعمل الذي عليه والباقي على الله، فواجبه أن لا يقصّر في أداء المهمة، سواء أدت إلى النتائج المطلوبة أو لم تؤدِ، سواء أوصلته إلى ما يخطط له أو لم توصله، فهذا بيد الله تبارك وتعالى.

لقـد دعا شـيخ الأنبياء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه تسـعمائة وخمسـين سـنة إلـى الله عز وجل ليـلًا ونهارًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِـي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾[١٢٣]، تسـعمائة وخمسـون سـنة وأنا أحفر بالصخر، والنتيجة عكسـية؛ فلا أحد يتحرك، ولا تأتـي النتائـج المادية، فماذا نفعل نحن، وهذا نبي قد دخل معركة وخرج منها منكسـرًا؟

١٢٣. سورة نوح: الآيات ٥ – ٦.

وهذا الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ الحروب التي دخلها في الجمل وصفين والنهروان، لو حسبناها عسكريًا، هل انتصر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عسكريًا في صفين؟ لم ينتصر عسكريًا، نعم انتصر انتصارًا معنويًا، أما الاعتبارات الأخرى فلها بحث آخر، هكذا هي الدنيا، لذلك فالحيوية تكون حاضرة دائمًا لدى المسؤول، القائد، المتصدي، المدير، الذي يعمل لله (سبحانه وتعالى).

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعاء كميل: «حتى تكون أعمالي وأورادي كلها وردًا واحدا»[١٢٤]، كيف تكون كلها وردًا واحدا، وأنا أصلي وأتعبد، وأنام وارتاح، وآكل وأتنزه، وأجلس مع الأصدقاء أحيانًا ونتلاطف ونتسامر، فكيف تكون كلها وردًا واحدًا؟.

تكون كذلك إذا كان الهدف هو الله (سبحانه وتعالى)، وحياة الإنسان مُسخّرة لخدمة عباد الله وأداء التكليف، فيستريح ليقوى على طاعة الله، والطعام الذي يأكله إنما يأكله ليقوى على طاعة الله، ويلاطف أصدقاءه ليخفف عن نفسه فيقوى على طاعة الله وخدمة عباده، فتكون كلها عبادة، فمثل هذا الإنسان تكون كل حالاته عبادة، فإن تحققت النتائج فهي عبادة، وإن لم تتحقق النتيجة فهي عبادة أيضًا، وتحقق المطلوب، ولذا هو نشيط ومتفائل ومندفع ومتحمس دائمًا، يؤدي ما عليه.

هذه العبادة بالمعنى العام، التي تكون كل الأعمال فيها عبادة، هل المسؤول، القائد المتصدي، في كل خطوة يجب أن يقصد نية العبادة، نية القربة؟؛ فإن أردت أن ألقي محاضرة أستحضر نية القربة، وإن أردت أن أدخل اجتماعًا أنوي القربة، أو أردت أن أجري مكالمة هاتفية لتحقيق مصلحة من مصالح الناس، أنوي القربة، هل يجب أن استحضر في كل خطوة أن هذهِ عبادة؟ الجواب: كلا، لا أحتاج إلى ذلك، ويكفي أن يعرف المسؤول أنه قد سخّر نفسه في خدمة الناس قربة لله تعالى، وقد نوى ذلك عندما اتخذ قرارًا بالدخول إلى هذا المشروع، أن يتحمل المسؤولية في هذا المشروع، في هذهِ المهمة، في هذا الموضوع، من أجل أن يسخر كل إمكاناته للتقرب لله (سبحانه وتعالى)، بخدمة عباده، لذلك هو يتحمل المسؤولية، هذه النية العامة؛ أنا موجود هادف في عالم هادف، متوجه نحو الله (سبحانه وتعالى)، هذهِ النية العامة تكفي لتجعل كل تفاصيل حياته عبادة، حتى لو لم يقصدها، وهذا مثل الصوم، إذ نحن لا نجدد نية الصوم في كل لحظة من لحظات النهار، ونكتفي بنية واحدة في أول الشهر، أو نية واحدة

---

١٢٤. إقبال الأعمال ٣: ٣٣٦.

في كل ليلة من ليالي شهر رمضان لصيام اليوم الذي بعده، مع أنه من الممكن أن ينشغل أي واحد منا ساعتين أو ثلاث ساعات وينسى أنه صائم، وهو مستغرق بعمل آخر، أما هؤلاء الذين يبقون مستيقظين إلى الفجر ويصلون صلاة الصبح، ثم ينامون إلى قبيل أذان المغرب بدقائق، حينما يوقظهم ذووهم للإسراع بأداء صلاتي الظهر والعصر قبل فواتهما، وبعضهم يمتد نومه إلى ما بعد المغرب، فهل هذه النية منه قبل الفجر عندما ينوي أن يصوم لله (سبحانه وتعالى) تكفي وتغني عن تجديد النية في كل وقت يليها؟ نعم، فهذه النية في أن أدخل إلى العمل وإلى التصدي لأتقرب إلى الله عز وجل في أداء هذا الواجب، هذه النية الإجمالية كافية، وتغني عن تجديد النية في كل خطوة، وفي كل كلمة، وفي كل موقف.

إذن فالحياة المبنية على هذهِ الصلة الدائمة بالله (سبحانه وتعالى)، تجعل الإنسان متفائلا دائمًا، لا يشعر بإحباط، ولا يشعر بانكسار، ولا يتردد، ولا يتراجع، مهما كانت المنغصات كبيرة وعظيمة، ولسان حاله: يفرجها الله، الأمور بيد الله (سبحانه وتعالى)، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، كل شيء بيد الله، وهو (سبحانه وتعالى) يحلها، ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾[125]، بيدهِ كل الأمور.

وهذا الاتصال المستمر بالله (سبحانه وتعالى) يمنع الإنسان من الوقوع في المنزلقات، في المطبات، في الانحرافات، في الأخذ بهواه؛ فيحب هذا ويكره ذاك، ويقرب هذا ويبعد ذاك، ويصادق هذا ويعادي ذاك، ويدور حول الأنا، فهذا يتملق لي إذن أقربه، وذاك صارحني إذن أبعده، فالإنسان الرسالي، المسؤول، المتصدي، يبحث عمن يتعاطى مع الأمور بواقعية؛ فمن كان مفيدًا يخدم الناس خدمة كبيرة، أقف معه وأدعمه حتى لو كان ضدي شخصيًا، ومن كان لطيفا جدًا معي، ولكنه فاسد وغير خدوم ولا يفيد، أسحب الدعم عنه حتى لو كان يفيدني شخصيا، فهو لا يخدم الناس ولا يفيدهم، هذهِ الصلة الدائمة بالله تعطي قوة كهذه، ومناعة كهذه، وحصانة للإنسان من أن ينزلق إلى مهاوي الانحراف، وتدفعه ليكون في قمة النشاط والحيوية للعطاء والأداء في كل الظروف.

إن الإنسان الذي لديه علاقة مع الله (سبحانه وتعالى) لا يفهم معنى التشفي والثأر والانتقام، فهذا الشخص قال اليوم عنك هذا الكلام، ومرت الأيام وصرتَ مسؤولًا عنه، وصار تحت يدك، فأول خطوه تخطوها، وأول أمر ديواني توقعه هو أن تنقله إلى

---

١٢٥. سورة الأنعام: الآية ٥٩.

مكان على الحدود، لتتشفى بهِ، لأنه كان يتكلم ضدك، أو كان يؤذيك، أين «العفو عند المقدرة»؟ حين أصبحت مسؤولًا عنه فعليك بالعفو، التسامح، الصفح، . . . تجاوز، فهذه الدنيا زائلة، وكن أكبر من هذهِ الأشياء النفسية، أكبر من الأحقاد التي قد تأخذ الإنسان إلى منزلقات خطيرة.

الإضاءة الثانية

مستلزمات العمل لله تعالى

من يريد أن يعمل لله جل جلاله، فهو يحتاج إلى مستلزمات ومقومات، وأهم هذه المستلزمات هي هذهِ الصلة الدائمة بالله (سبحانه وتعالى)، فحين تمتلك هذه الصلة يكون عملك لله، أما إذا انقطعت هذه الصلة وتدخلت الأنانيات والأمزجة والنرجسيات والأنا، فلا تستطيع أن تعمل لله (سبحانه وتعالى).

تأملوا في خطاب الله (سبحانه وتعالى) لرسوله الكريم وهو يحمّله المسؤولية الثقيلة؛ قال الله (سبحانه وتعالى) في سورة المزمل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[١٢٦]، أنا اخترتك لتكون نبيًا وسيد الأنبياء، والآن سألقي عليك وأحمّلك مسؤولية ثقيلة، وهي هداية البشر جميعًا، وهذا حمل ثقيل، ولسان حال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: إلهي حملتني هذه المسؤولية، فما هي الأدوات التي تؤهلني لحمل هذا العبء الثقيل؟ بأي سلاح سأواجه هذا الضلال والكفر المستشري في أرجاء المعمورة؟. . يأتي الجواب بعد هذا التكليف: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[١٢٧]، سلاحك هو قيام الليل، نافلة الليل، ناشئة الليل، فهي أشد وطئًا؛ إذ تجعل لسانك وقلبك شيئا واحدًا، فيكون ما في قلبك على لسانك، إذ تقضي على حالة النفاق والازدواجية، تقضي على حالة الاثنينية بين الظاهر والباطن، ويكون قلبك وكلامك وفعلك وسلوكك وخطواتك كلها في اتجاه واحد؛ ﴿أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، أعطيك الاستقامة في القول، الثبات في القول، البيان القوي، البيان الواثق، أن تشعر بالقوة، فهناك شخص عندما يتكلم تراه كالجبل، كلامه ثابت وراسخ، وهذه من آثار صلاة الليل؛ قوة البيان، قوة التأثير، الاتساق والانسجام الذاتي بين القلب واللسان، فالحمل الثقيل سلاحه ناشئة الليل، والمهمة الرسالية الثقيلة

١٢٦. سورة المزمل: الآية ٥.

١٢٧. سورة المزمل: الآية ٦.

مستلزماتها الصلة الدائمة والوثيقة بالله (سبحانه وتعالى)، وهذه الصلة الوثيقة تعطيك القوة البدنية، تشعرك بالقوة والنشاط، والقدرة على أن تقوم بعملك، إذ نرى شخصًا يعادل نشاطه باليوم عشرة أشخاص، وأحيانًا تجده ذا بنية ضعيفة، ومع ذلك يتمتع بنشاط وحيوية عالية، في حين ترى ذاك القوي صاحب العضلات المفتولة يتعب بسرعة، وهذا المسكين صاحب البنية الضعيفة يعمل بما يعادل عشرة أشخاص، فمن أين أتى بهذه القوة؟ الجواب هو أن الصلة بالله تبارك وتعالى تعطي هذه القوة البدنية، وتمنحه أيضًا القوة المعنوية؛ قوة الاستشراف، التحليل الدقيق، قراءة الحدث، البصيرة، فيقرأ الأمور قراءة سليمة، ويتخذ القرار الصحيح، ويعرف البوصلة ولا يضيعها، هذه من الله(سبحانه وتعالى)، وهذا نتاج صلاة الليل، ناشئة الليل، التي تعطيك هذه القوة البدنية والروحية والمعنوية؛ تجعلك قويا، وواضحا، وصامدا، وثابتا، جبلا أمام التحديات.

إن الصلة الدائمة بالله (سبحانه وتعالى) هي التي تمنعه من الانحراف، وهي التي تدفعه نحو النشاط بحماسة وفعالية لتحقيق الأهداف والإنجاز، بلا كلل، ولا ملل، ولا تعب، ولا إحباط، ولا يأس، ولا تردد، فهو مقدام دائمًا.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾(١٢٨)، لديك أعمال كثيرة يجب أن تنجزها بالنهار، لا ينجزها الإنسان بقدرات عادية، فيحتاج إلى قدرات خارقة لكي يستطيع أن ينجزها؛ يحتاج إلى تسديد معنوي، وتحديد للبوصلة، واتخاذ القرار السليم في اللحظة المناسبة حين تلتبس الأمور على الآخرين، وهذا لا يتحقق إلاّ بالتعبد، بالتهجد، بناشئة الليل، (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ)، في ناشئة الليل، لكي تصبح الصلة وثيقة ومباشرة ودائمة مع الله عز وجل، ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾(١٢٩)، التبتل هو الانقطاع إلى الله (سبحانه وتعالى)، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، كل شيء بيده، المشرق له، والمغرب له، فهو رب المشرق والمغرب، البعض يقول ليس عندي وقت للصلاة، سأركب طائرتي وأذهب، إلى أين تذهب؟ وأينما تذهب فإنّ صاحب ذلك المكان هو الله تعالى، رب المشرق والمغرب، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهو الذي لديه الحل، وعنده العلاج، وبيده الفرج، ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾(١٣٠)، استعن به، توكل عليه، اطلب المدد من الله عز وجل.

---

١٢٨. سورة المزمل: الآية ٧.

١٢٩. سورة المزمل: الآية ٨.

١٣٠. سورة المزمل: الآية ٩.

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾، في التصدي ضريبة... تتصدى والكل يصفقون لك ويهتفون: «علي وياك علي»، لا إشكال، الناس تصيح «علي وياك علي»، ولكنّ هناك أناسا تسب، وتشتم، وتهتك، وتتهم بكل شيء، ويبقى الإنسان حائرا معهم؛ هل يدخل في هذه الصراعات الجانبية؟ الأمر محيّر، هذا قال كذا، وذاك قال كذا، (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾، اذهب إلى عملك، اذهب إلى هدفك، اذهب إلى بوصلتك، انشغل بتحقيق الأهداف، وحقق الانتصار، فالناس مع المنتصر، ولا تبق حائرا بهؤلاء فيذهب منك النصر، فهؤلاء لا تقدر عليهم، وإذا لم تنتصر تنصرف عنك الناس، فإن كنت في خط صاعد فالناس كلها معك، وإن كنت في خط نازل تفرقت عنك الناس، هذه هي سنن الحياة، وأنت حائر ماذا قال هذا؟، وذاك ماذا غرد؟، وذاك ماذا كتب؟.

نعم علينا الدفاع عن أنفسنا، وشرح الأمور وتوضيحها، ولكن ينبغي أن لا ننشغل ونضيع بهذه الأمور، انطلق نحو أهدافك وحققها، حقق الانتصار، حقق الإنجاز، وسيذهب كل هذا الكلام أدراج الرياح ويُنسى، ويلتحق الناس بالمنتصر، فالناس مع القوي بقوة الله (سبحانه وتعالى)، ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[131]، حتى عندما تهجرهم فلا تهجرهم عن غضب، بل اهجرهم هجرا جميلا، بهدوء، بمحبة، جاملهم ولكن توجه نحو هدفك، ولا تنشغل بالقيل والقال، فالقيل والقال لا ينتهي، والذين يبنون قليلون، أما الذين يهدمون فهم كثير.

في يوم من أيام الغربة والمحنة والعزلة والضغط الهائل على شهيد المحراب، وكان الجو العام معبأ ضده قبل سقوط نظام صدام الفاشي، جاءت أجواء قاتمة جدًا، صعبة جدًا، وكنت جالسًا عنده، فقلت له: سيدنا لا أفهم ما يحدث؟ فشخصية مثل سماحتكم، بإخلاصكم، وتفانيكم، وعملكم ليل نهار، وموجة تجيء وموجة تذهب، شائعات وشبهات، واتهامات، وهناك أناس ليس لديهم أي عمل، ولا أحد يتكلم ضدهم، ولا أحد يذكرهم بسوء، ولديهم ماكنة ضخمة يكسرون بها أكبر شخصية، حيّروا العالم كله، ولا أحد يتكلم ضدهم، فما الأمر؟ فقال: الفرق أننا نبني وهم يهدمون، والبناء صعب، والهدم سهل.

يتم الهدم بمجرد شائعة أو اتهام، والآن وأنت جالس في مكانك، أخرج هاتفك وغرّد تغريدة؛ ألصق بشخص تهمة معينة، وسترى أن الدنيا سوف تنقلب رأسًا على عقب، فالكل سيتكلم بها، فالهدم سهل، الكسر سهل، الاتهام سهل، والبناء هو الصعب،

---

١٣١. سورة المزمل: الآية ١٠.

لذلك يشعر الإنسان أحيانًا بأنّ الجو يسير باتجاهات ضاغطة جدًا، فيتساءل لماذا حدث الأمر بهذا الشكل؟ ما هي المشكلة؟ لماذا تتكلم الناس ضدنا بهذا المقدار؟ والجواب: أنت تبني وغيرك يهدم، والبناء فيه ضريبة، وهذه قاعدة تشمل الجميع.

إن كنت تبحث عن النجاح، فاحرص على أن تكون لك صلة دائمة بالله (سبحانه وتعالى)، أتريد أُسرة تعيش حياة طيبة، علاقة إيمانية ودية، ليست فيها مشكلات؟ فليكن ارتباطك بالله (سبحانه وتعالى) قويًا. أتريد مصنعًا يعمل بنجاح؟ صحّح علاقتك مع الله (سبحانه وتعالى). أتريد منظمة مجتمع مدني ناجحة؟ عليك أن توثق ارتباطك بالله عز وجل. أتريد خطة عسكرية تحقق بها الانتصار على عدوك؟ عليك أن تنتصر لله جل جلاله. أتريد تيارًا سياسيًا سليمًا؟ عليك التوكل على الله تبارك وتعالى، فالله القادر العزيز المهيمن موجود، وهو معنا أينما كنّا، يراقب نياتنا وأعمالنا، ويتدخل في إمضاء هذه ومنع تلك، وما كان لله ينمو.

يشكو البعض من أنّ الحياة كلها مشكلات، وكلها لغط، وكلها ألم، وكلها منغصات، وكلها نفاق، وكلها دجل، والقلوب قاسية، والمشاعر غائبة، والعوائل تعيش في جحيم ولو كانت تملك المليارات، فالمال لا يحقق السعادة للبشر، وكم من فقير سعيد بفقره، وغني شقي بماله، فالدين لا المال هو الفيصل بين السعادة والشقاء، والبعيدون عن الله عز وجل حياتهم في جحيم، موت أحمر، والحل هو اللجوء إلى الله (سبحانه وتعالى) بإخلاص.

كلما كانت المسؤولية أكبر، والمهمة القياديّة أعظم، وجب أن تكون الصلة بالله تبارك وتعالى أوثق، لكي تمكّن هذا المسؤول أو القائد أو المتصدي من أداء واجبه، وتمنعه وتنجيه من الانزلاق والانحراف والظلم والتعدي والتجاوز على الآخرين، لذلك يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا الأشتر ومن ورائه كل مسؤول ومتصدٍ: (وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ لله بِهِ دِينَكَ: إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتي هِيَ لَهُ خَاصَّةً)، العبادة بالمعنى الخاص، (فَأَعْطِ اللهَ مِن بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللهِ مِنْ ذلِكَ كَاملًا غَيْرَ مَثْلُوم وَلاَ مَنْقُوص)، اجعل عملك خالصًا لله تعالى، (بَالِغًا مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ)، مهما كان فيه من التعب، فعليك أن تقطع من نومك، من راحتك، تقوم من الفراش بالرغم من النعاس، والتعب، والله (سبحانه وتعالى) سيفتح لكَ آفاقًا عظيمة.

التوصية السادسة

الاعتدال في العبادة

(وَإِذَا قُمْتَ فِي صلاَتِكَ لِلنَّاس، فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّرا وَلاَ مُضَيِّعًا، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ الْحَاجَةُ، وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟ فَقَالَ: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلاَةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا).

(وَإِذَا قُمْتَ فِي صلاَتِكَ لِلنَّاس): يا مالك، يا حاكم، يا مسؤول، يا متصدّ، وطبعًا كان من المألوف أن المسؤول الأعلى هو الذي يقف ويؤمّ الجماعة في الصلاة اليومية وصلاة الجمعة، أما الآن فقد اختلفت العادات قليلًا، إذ يأتي المسؤول ويصلي خلف إمام المسجد، ولكن سابقًا كان الحاكم أو الوالي أو المسؤول، هو الذي يؤم في صلاة الجماعة، والحديث هنا ليس عن العبادة الشخصية؛ أن تصلي في بيتك يا مسؤول، فذاك بحث آخر، ولكن حين تصلي بالناس، حين تؤم الناس.

(فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّرًا): لا تطل في صلاتك بطريقة تنفر الناس من الصلاة، لا تطل بقراءة الدعاء بطريقة تتعب الناس وتنفرهم من دخول المسجد مرة ثانية، لا تنفر الناس بعبادة طويلة، سواء كانت صلاة جمعة أو جماعة، أو غيرها من الطقوس والممارسات العبادية والشعائرية وما شابه، والخلاصة: لا تجعل هذه الصلاة أو العبادة طويلة بحيث تنفر الناس، وتجعلهم يهربون ولا يحضرونها لاحقًا خشية الإطالة.

(وَلاَ مُضَيِّعًا): من الناحية الأخرى لا تسرع بها بنحو يخلّ بأركانها وواجباتها، فتعرّضها إلى الضياع، كما نشاهده لدى بعض أئمة الجماعة الذين يسرعون بنحو لا يستطيع معه بعض المأمومين اللحاق بهم في ركوعهم وسجودهم، فتختل صلاتهم وتضيع، والاعتدال بين الإسراع والإبطاء هو الأسلوب الأفضل، فلا بطء بمستوى ينفر الناس، ولا سرعة تضيع الصلاة، فيجب أن تكون معتدلًا في إقامة الصلاة، وفي إقامة العبادات الجماعية، ويذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ السبب قائلًا:

(فَـإِنَّ فِـي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ) : هناك أناس مرضى ، كأن يكون مبتلى بوجع الظهر ولا يستطيع أن يبقى واقفًا مدة طويلة ، أو مبتلى بوجع الركبتين ولا يستطيع الركوع والسجود طويلًا ، أو يعاني خفقان القلب ، أو غير ذلك من الأمراض التي لا يستطيع معها المأموم الصمود طويلًا ، كصاحب مرض السكر الذي يحتاج إلى الذهاب إلى الحمام كثيرًا ، فلا يصح أن تُجلس أمثال هؤلاء في ممارسة عبادية أو طقوس أو دعاء أو صلاة تستغرق وقتًا طويلًا ، فيقعون في حرج ، فالناس فيهم من هو مريض ولا يستطيع أن يصبر طويلًا .

(وَلَـهُ الْحَاجَـةُ) : هناك أناس ليسـوا مرضى ، ولكنْ لديهم عمل ؛ بـأن يكون قد ترك محلـه وحضـر للصـلاة ، أو ترك مصلحـة من مصالحـه ، أو هناك من ينتظـره ، وقد كبّر للصـلاة خلفـك وتورط ، ويريـد أن يلحق بعمله ، وأنت أخذتها طـولًا وعرضًا ، فإما أن يكون هناك مرض يسـتوجب السـرعة ، أو تكون هناك حاجة معينة لهذا الإنسـان ، ويريد أن يؤدي صلاته ويرجع إلى عمله ، إلى نشاطه ، إلى ما شابه ذلك .

(وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ) : يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حين أرسلني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلى اليمن ، وجهت له سؤالًا :

(كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟) : أنا ذاهب إلى اليمن ، وأنا الآن المتصدي .

(فَقَالَ : «صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ) : أضعفهم حالًا ، أضعفهم مزاجًا ، صلّ الصلاة التي تنسجم مع أضعفهم .

(وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) : ارحم المؤمنين وارأف بهم ؛ لأنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يعرف أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لديه سجدة تطول ساعات ، فإذا أراد أن يصلي جماعة بمثـل هـذه الصلاة فماذا سـيكون حال النـاس؟ فقال له انظر إلـى أضعفهم كم يتحمل ، فاجعل صلاتك بهذه الشاكلة .

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

مراعاة الناس في العبادة الجماعية

الحديـث عن أحكام مراعاة الناس في العبادات الجماعية ، أما العبادة الفردية فشـيء آخر لا علاقة لنا به هنا ، وهي عندما يؤدي الإنسان صلاته وحده ، فأنت أيها المسؤول ، أيها المتصدي ، عندما تصلي وحدك ، فكلما كانت صلاتك أبطأ ، وكان سجودك أطول ،

وكان تضرعك وابتهالك إلى الله أكثر، فهنيئًا لك ووفقك الله لكل خير، وهذا شأنك، وإنما الكلام عن الحالة الجماعية، فالناس على درجات، وليسوا كلهم على مستوى إيماني واحد، وليسوا كلهم في صحة واحدة، وليسوا كلهم قادرين على أن يفرغوا أنفسهم بنحو كاف لمثل هذه الصلوات والعبادات والشعائر على نطاق واسع، فالكلام عن العبادة الجماعية، ولا ينسحب للعبادة الفردية؛ لأنها ترتبط بكل شخص بحسبه، فهناك شخص مريض لا يتحمل أن يؤدي الصلاة جماعة إذا كانت طويلة، أو كان مستعجلًا ولديه التزامات كثيرة، أو مستواه الإيماني لم يصل إلى تحمل العبادة الطويلة.

وكما قلنا دائمًا، فالعبادة يراد منها التقرب إلى الله تبارك وتعالى، فإذا تحولت إلى حالة ضدية، فقدت الهدف المرجو منها، مثلًا أنا ملتزم بقراءة كذا صفحة من القرآن الكريم يوميًا، وفي أثناء القراءة أتصفح بين مدة وأخرى كم صفحة بقيت لأنتهي من القراءة التي ألزمت نفسي بها، فحينئذ تفقد هذه القراءة الهدف المطلوب منها؛ لأنّ الأساس في العبادة أن تقربني إلى الله (سبحانه وتعالى)، والقرب إلى الله يرتبط بالمضمون، وليس بالكم، وليس بمقدار العبادة، فمضمون عبادة أقصر مع توجه كامل أو عال، أفضل من غياب التوجه في عبادة أطول، وقراءة جزء واحد بتوجه أفضل عند الله (سبحانه وتعالى) من قراءة خمسة أجزاء بلا توجه وتدبر وتأمل وما إلى ذلك، وقد تنفّر الإنسان فيفقد رغبته بالعبادة، حين يريد أن يطيلها فيضيعها؛ إذ يترك صلاة النوافل، ويترك قراءة الأدعية لكي يحافظ على وقته ووضعه، هنا لا بد من مراعاة قدرة الناس على التحمل، بقدر ما يتحملون ولا يتعبون ولا ينفرون، يكون مقدار صلاة الجماعة، فيجب أن تنظم العبادة بنحو يستقطب الناس ولا ينفرهم، فلا تكون المحاضرات الدينية مثلًا طويلة إلى حد يجعل الناس يتقاعسون عن حضورها، كما نُبتلى أحيانًا بخطيب يتحدث كثيرًا، في مجلس حسيني، أو مجلس تأبين، أو خطبة جمعة، أو في مجالس الدعاء، أو اللطميات، فقد تجد رادودًا يجعل الناس يلطمون ساعة ونصف الساعة إلى أن يهلكهم من التعب، صحيح أنك ترى أمامك عشرين أو ثلاثين شخصًا متفاعلًا، ولكن انظر إلى حال البقية، فكل شيء بحدوده، وكل شيء لا بد من أن يكون معقولًا ومقبولًا، فأي ممارسة عبادية جماعية، يكون طولها بمقدار ينفر الناس منها، تكون نفيًا للغرض، فيجب أن تحدد حدود العبادة بالمستوى الذي يجعل الناس تنجذب إليها.

حتى في آداب الزيارة؛ عندما نزور مرقدًا من مراقد المعصومين، يستحب أن نخرج ونحن ما زلنا متعلقين بهم، ولكن ترى بعضهم يقول أريد أن أزور زيارة شبع، ومن هو الذي قال لك أن تشبع؟ إذا شبعت يصيبك الملل، فاخرج وأنت غير شبعان، قبل أن

تشعر بالامتلاء، لكي تبقى دائمًا في حالة عطش ولهفة للزيارة، لترجع مرة ثانية، وثالثة، وعاشرة.. لا تمارس العبادة إلى حد الامتلاء، مثل بعض الناس في شهر رمضان، يأكل إلى حد الامتلاء، بحيث لا يدع مجالًا للقمة واحدة، وكذا العبادة ولكنها حالة معنوية، فتجد أحيانًا من يريد أخذ جرعة إضافية، وهي عمليًا تؤدي إلى الامتلاء، وكما أن الطعام المادي إذا وصل إلى حالة الامتلاء له عوارض لاحقة، كالابتلاء بمرض معديّ أو معويّ، ولا تستطيع أن تنام، وعوارض ومشكلات صحية أخرى، فكذلك الامتلاء المعنوي وتحميل الإنسان ما لا يحتمل، والضغط على النفس أكثر مما تتحمل، لها ارتدادات وآثار سلبية، فادخل وأنت مُقبل، واخرج من الزيارة وأنت مُقبل، وأنت لا تزال في حالة عطش ولهفة وغير ممتلئ.

اقرأ القرآن في حالة من التوجه، وأنهِ التلاوة وأنت لا تزال منشدًّا إلى القرآن، لكي تبقى هذه الحالة حاضرة فيك دائمًا، فينبغي أن يكون أداء العبادات الجماعية من غير بطء يؤدي إلى هروب الناس، ولا سرعة تؤدي إلى تضييع العبادة، وعدم أداء أركانها، والتزام الاعتدال والوسطية هو المنهج الصحيح، (وَإِذَا قُمْتَ فِي صلاَتِكَ لِلنَّاسِ، فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّرا)، بالبطء، (وَلاَ مُضَيِّعًا) بالسرعة، وهذا الذي ينطبق على الصلاة ينطبق على غيرها من عبادات وشعائر وممارسات وطقوس، فيجب أن تكون جميعًا حالة معتدلة ومتوسطة ومقبولة، لا تنفر الناس، ولا تضيّع تلك العبادة والشعيرة.

ثم يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سببين لهذا الأمر:

السبب الأول/ (فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ): العلة: المرض، فبعض الناس مرضى، لا يقدرون على الانتظار بسبب مشكلات صحية، فهم لا يطيقون الإطالة في الجلوس أو في العبادة أو في الدعاء، هؤلاء سيقعون في حرج من طول العبادة، إذ يكون للمكوث الطويل ارتدادات سلبية عليهم.

السبب الثاني/ (وَلَهُ الْحَاجَةُ): هناك صنف آخر لا يتحمل طول الصلاة لظرفه المعيشي، كأن يكون لديه عمل، أو التزام، أو موعد، أو مصلحة تركها وجاء للصلاة، إلى غير ذلك، فلا بد من مراعاة هذه الشرائح، وإقامة العبادة من صلاة أو غيرها من العبادات، بما يناسب الاعتدال والوسطية، وبما يناسب أضعف المأمومين وأضعف الحضور، وفي مجلسنا والحمد لله جلّ الحضور من الشباب، وقليل ممن صبغ شعره الأبيض، وهم جالسون على الكراسي في أتم الراحة، ولكن الأمر يختلف في حال العبادة، لأنّ فيها كبار السن، وفيها مرضى، وفيها من يريد اللحوق بعمله، فعلى إمام الجماعة أن يراعي أضعف الحضور في هذه الفعاليات.

ثم يستشهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ على هذا الأمر بما أوصاه به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حينما وجهه إلى اليمن، فيقول: (وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟ فَقَالَ: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلاَةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا).

الإضاءة الثانية

سيرة المعصومين في العبادات الجماعية

كانت سيرة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، في العبادات الجماعية، والممارسات الدينية الجماعية، كصلاة الجماعة والجمعة وغيرهما، وفي الأدعية الجماعية، تتمثل بالوسطية والاعتدال، فإن خطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في صلاة الجمعة كما وردت في الروايات، أو خطب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو الأئمة الآخرين، أطول خطبة عندما يلقيها شخص منا لا تستغرق عشر دقائق، أو سبع دقائق، فخطب الجمعة وخطب العيد نجدها قصيرة، لأنها تلاحظ أضعف المأمومين.

وقد وردت في نهج البلاغة خطبة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يصف فيها سيرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يقول فيها: «حتى أفضت كرامة الله (سبحانه وتعالى) إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فأخرجه من أفضل المعادن منبتًا»، كان منبت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وطينته من أفضل المعادن، من طينة طاهرة، طيبة، نقية، «وأعز الأرومات»، جمع أرومة، وهي الأصل، «وأعز الأرومات مغرسا» أصله من أعز الأصول، فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، من منبت طاهر وأصل نقي، «من الشجرة التي صدع منها أنبياءه»، الأنبياء من أسرة واحدة، أصولهم واحدة؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[١٣٢].

«وانتجب منها أمناءه»، الله تبارك وتعالى اختار من يأتمنه على رسالته، وكانوا من أسرة واحدة، «عترته خير العتر»، أهل بيته خير أهل بيت، خير عترة وجدت، «وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر، نبتت في حرم، وبسقت - يعني ارتفعت - في كرم»، هكذا هو رسول الله وأهل بيته، «لها فروع طوال، وثمر لا ينال»، كل واحد من أهل البيت له منزلة رفيعة لا تُنال، «فهو إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوؤه»، هناك من المصابيح ما يكون خافت الضوء، ومنها ما يكون متوهج الضوء، فرسول

١٣٢ . سورة آل عمران: الآيات ٣٣ - ٣٤.

الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ «سراج لمع ضوؤه»، سراج لامع يشع، «وشهاب سطع نوره، وزند برق لمعه»، الشاهد هنا؛ «سيرته القصد»، كانت سيرته الاعتدال؛ ففي العبادة اعتدال، في التعامل اعتدال، وفي جميع شؤون الحياة اعتدال، فكانت سيرة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ القصد والاعتدال، «وسنته الرشد، وكلامه الفصل»، ليس هناك كلام فوق كلام رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ، «وحكمه العدل، أرسله على حين فترة»، الفترة هي الزمان الفاصل بين بعثة رسولين، «من الرسل»، بعثه الله (سبحانه وتعالى) نبيًا بعد انتظار، امتد من الرسول السابق إلى نبينا، «وهفوة عن العمل»، بعد أن زلّ الناس، والهفوة: الزلة، الانحراف، بعد أن زلوا وانحرفوا عن العمل بتعاليم الأنبياء السابقين، فجاء رسولنا الكريم برسالة جديدة ليقود الناس نحو الهداية، ويريهم الطريق الصحيح، «وغباوة من الأمم»[١٣٣]، بعد أن وقع الناس في الجاهلية، فقد بُعث صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ لأمة كانت تعيش الجاهلية بكل أبعادها، وهو الغباء بعينه، إذن كانت سيرة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ هي الاعتدال.

وورد في نهج البلاغة أيضًا؛ قال أمير المؤمنين عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: «نحن النمرقة الوسطى»، النمرقة هي الوسادة توضع خلف ظهر الجالس يتكئ عليها، ويسند ظهره إليها مباشرة، لأنّ بقية الأعضاء تستند إلى الظهر، والظهر هو العمود الفقري والأضلاع، وحينئذ سيكون جميع الجسم مستندًا إلى هذه الوسادة، فيشعر الجالس بالراحة والاطمئنان، فما ألطفه من تمثيل، فالنمرقة الوسطى هي الوسادة التي توضع في المنتصف ليستند إليها كل الجسم، والكل محتاج إليها.

«بها يلحق التالي»، يلحق بها المتأخر، «وإليها يرجع الغالي»[١٣٤]، يرجع إليهم عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ من هو واقع بالغلو والإفراط، فأهل البيت هم المحور، والمرتكز، والمتكأ، ويجب على المتباطئ أن يلحق بهم، لأنّ المتقدم عليهم والمتأخر عنهم هالك لا محالة، كما ورد ذلك في دعاء الإمام السجاد عليه السلام: «المتقدم لهم مارق، والمتأخر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق»[١٣٥].

١٣٣. نهج البلاغة ١: ١٨٤الخطبة ٩٤.

١٣٤. نهج البلاغة ٤: ٢٦ الحكمة ١٠٩.

١٣٥. الصحيفة السجادية: ٥٢، دعاؤه عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ بعد ركعتي الزوال، وكذا في صفحة ٢٠٣ دعاؤه عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ عند الزوال في كل يوم من شهر شعبان.

«نحن النمرقة الوسطى»، الوسطية، والاعتدال، منهج أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في العمل، ويجب أن يرجع لهم الغالي والمفرط، لأنه متجاوز للحدود، ويجب أن يلحق بهم المقصّر، وإلاّ ضاع.

ورد في غرر الحكم عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «طريقنا القصد»[١٣٦] منهجنا وطريقنا هو القصد والاعتدال.

وورد في بحار الأنوار عن زيد بن علي بن الحسين (زيد الشهيد) المدفون في بابل، في الحلة، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾[١٣٧]: «سبيلنا أهل البيت القصد»، طريق أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ القصد، الاعتدال، الوسطية، «والسبيل الواضح»[١٣٨]، يتسم منهجنا وسبيلنا بالوضوح، والاعتدال، والوسطية، فالاعتدال في العبادة أمر مهم.

الاقتصاد في العبادة.. بحث روائي

وقد أفرد المرحوم الكليني في كتابه الكافي، الجزء الثاني، بابًا كاملًا تحت عنوان باب الاقتصاد في العبادة، أي الاعتدال في العبادة، ويضم مجموعة من الروايات، نقرأ بعضها:

منها: عن أبي جعفر الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: إن هذا الدين متين»، مبني على أسس متينة قويمة، «فأوغلوا فيه برفق»[١٣٩]، هذا الدين عميق، وعندما تريد أن تدخل إلى التدين فادخل برفق، على مهلك، لا تذهب مسرعًا فيه، فقد لا تتحمل، لا تندفع فجأة، فالتدرج مهم، ففي مناهج التعليم يُعطى الطالب في الصف الأول الحروف والكلمات، ثم يزداد ويتطور ما يعطونه له كلما تقدم في العمر وازدادت مداركه، وهكذا حتى يطوي المرحلة الابتدائية، والمتوسطة، والإعدادية، والجامعية، وفي كل مرحلة يعطونه جرعة إضافية، وكذلك العبادة؛ فبعضهم يبدأ من الصفر، ويريد أن يطوي بسرعة مسيرة أعوام في أيام، فمثلًا يقرر مع دخول شهر رمضان قراءة عشرة أجزاء من القرآن الكريم في اليوم، وأن يصلي صلاة الليل بكل مستحباتها،

١٣٦. عيون الحكم والمواعظ: ٣١٨.

١٣٧. سورة النحل: الآية ١٠.

١٣٨. بحار الأنوار ٢٤: ٢١ ح٤١.

١٣٩. الكافي ٢: ٨٦ ح١.

ويصلي جميع النوافل اليومية، ولكن بعد أسبوعين يعجز عن مواصلة برنامجه، ويرتدّ على أعقابه القهقرى، فالعمل العبادي يحتاج إلى تدرج، كما هو الحال في العلم كما قدمنا، ولذلك فالذي يريد دخول طريق السلوك إلى الله (سبحانه وتعالى)، يحتاج أولاً إلى مرشد ومربٍّ، يزوره، ويرى ما هو مستواه، ويعطيه الدواء جرعة جرعة، لكي يتقدم بهدوء، فالتدرج شيء مهم جدًا.

«إنّ هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق»، لا تندفعوا اندفاعات متهورة، ولا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقون من الدين، فيؤدي بكم إلى إدبار وارتداد وإلى نتائج غير مرغوب بها.

«ولا تكرّهوا عبادة الله إلى عباد الله»، معروف ذاك الذي كان على ديانة أخرى وصار مسلمًا، وكان صاحبه الذي أرشده إلى الإسلام يريد أن يسرع به جدًا في مراتب الإيمان، فدعاه لأداء صلاة الفجر في المسجد بعد أن كان مستغرقًا في نومه، وقد كانت هذه أول ليلة له في إسلامه، واستغرب من إيقاظه في هذا الوقت المبكر ودعوته إلى المسجد، واستجاب الرجل لنداء صاحبه وخرج معه إلى المسجد، وصلى معه صلاة الفجر، وظن الرجل أنه سيرجع إلى بيته ليكمل نومه، ولكن صاحبه قال له: يستحب البقاء في المسجد إلى شروق الشمس والانشغال بتلاوة القرآن والدعاء، واستسلم الرجل لصاحبه، وبقي إلى أن طلعت الشمس، وخرج إلى داره لتناول فطوره والذهاب إلى محل كسبه ليطلب رزقه، وعند الزوال وحلول صلاة الظهر جاءه صاحبه وطلب منه اصطحابه إلى المسجد وأداء صلاة الظهر، فاستجاب الرجل وترك محل كسبه وجاء معه إلى المسجد، وبعد انتهاء الصلاة نهض الرجل للخروج، فطلب منه صاحبه البقاء في المسجد إلى حين صلاة العصر، وبقيا ساعة ونصف الساعة يشتغلان بذكر الله عز وجل، وبعد انقضاء صلاة العصر همّ الرجل بالخروج، ولكن صاحبه طلب منه البقاء لصلاة المغرب، وبقيا ساعتين في قراءة القرآن والدعاء، وبعد انتهاء صلاة المغرب طلب منه البقاء سويعة لأداء صلاة العشاء، وبقي الرجل معه إلى ما بعد صلاة العشاء وافترقا، وعند حلول فجر اليوم الثاني جاءه صاحبه وطرق عليه الباب ليكرر عليه برنامج اليوم السابق، ولكن الرجل اعتذر وأخبره بعودته إلى دينه السابق، وقال له: إن دينكم لا يطاق، فلذلك يجب أن لا تكون العبادة بطريقة تكرّه الناس بها، نتيجة لإطالتها والتوغل فيها بشكل عميق وبجرعات كبيرة.

هناك بعض المتدينين يحتاط إلى درجة لا يطيقها من يعاشره، لأنه يفرض عليهم ما يفرضه على نفسه من الاحتياط في كثير من المباحات، فمعاشرة هذا الإنسان تحت

غطاء التدين تسلب كل راحة، وبالتالي فالإنسان الذي يتمتع بطاقة التحمل يجب أن لا يحمّل الآخرين ما لا يطيقونه، وأن لا يتشدد مع أهله وأصحابه بنحو ينفرهم من العبادة ومن الدين.

«فتكونوا كالراكب المنبتّ»، الراكب المنبتّ هو المستعجل، إذ كان السفر على ظهور الخيل أو الجمال في صحراء قاحلة، يستغرق من مدينة إلى مدينة أياما طويلة، فيركب المسافر دابته ويجدّ السير من غير استراحة، أملًا في الوصول بوقت أسرع، متناسيًا أن هذه الدابة لا تتحمل السفر الطويل بهذه السرعة من غير استراحة، فتنفق الدابة قبل أن تقطع ربع المسافة، ويبقى الرجل حائرًا في وسط صحراء قاحلة، فلا هو وصل إلى مقصوده، ولا الدابة بقيت على قيد الحياة، فضيّع الطريقين، ولو كان قد سار باعتدال، ووقف للاستراحة في محطات الاستراحة، لوصل إلى مقصوده وبقيت دابته على قيد الحياة.

«كالراكب المنبتّ الذي لا سفرًا قطع»، لم يصل إلى هدفه، «ولا ظهرًا أبقى»[١٤٠] الظهر يعني الدابة التي يركب على ظهرها، فلا حافظ على الراحلة والمركب، ولا وصل إلى مقصده، وبقي في الصحراء تائها حائرا لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا، إلا أن تتداركه رحمة من ربه، فتمر عليه قافلة أو راكب يسعفه ويصحبه معه، وهذه هي نتيجة السرعة والعجلة، فلا بد من التدرج والسير بشكل هادئ، لكي يستطيع الوصول.

وفي رواية أخرى، عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: «لا تكرّهوا إلى أنفسكم العبادة»[١٤١]، هذه الرواية لا علاقة لها بالآخرين، بل هي متعلقة بالإنسان نفسه، فلا ينبغي لإنسان أن يجور على نفسه بطريقة يكرّه بها العبادة إلى نفسه، فلا يفكّر إلا بالصلاة، وقد ألزم نفسه بالتزامات طويلة في هذه الصلاة، قد لا يكون مستعدًا لها في جميع الأوقات، ففي مثل هذه الحالة ينبغي تأخير الصلاة قليلًا لكي يحصل ذلك الاستعداد، وإلاّ فعليه ترك بعض ما ألزم به نفسه من المستحبات، والاقتصار على الواجبات إلى حين حصول الاستعداد وإن استغرق ذلك أيامًا، ليستطيع الإتيان بالمستحبات كاملة فيها.

«لا تكرّهوا إلى أنفسكم العبادة»، ألزمت نفسك بدعاء تريد أن تقرأه في هذه الليالي الشريفة، كدعاء أبي حمزة الثمالي، وهو دعاء طويل، وقد لا تكون متهيئًا لقراءته بأكمله، وليس من الضروري أن تقرأ هذا الدعاء في كل ليلة، فاقرأ بعضا منه، وأكمله

---

١٤٠. الكافي ٢: ٨٦ ح١.

١٤١. الكافي ٢: ٨٦ ح٢.

في الليلة الثانية، لكي تقرأ الدعاء وأنت مقبل، وتأنس به، وتتفاعل معه، ولا تقهر نفسك على قراءته مهما كان الأمر، فتكرّه الدعاء إلى نفسك.

وفي رواية أخرى، عن حنان بن سدير، قال: سمعت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «إنّ الله عز وجل إذا أحب عبدًا فعمل ذلك العبد عملًا قليلًا، جزاه بالقليل الكثير»، إذا كان الباب مفتوحًا مع الله (سبحانه وتعالى)، والعلاقة وثيقة معه، وإذا أحبك الله عز وجل، ألقى حبه في قلبك فتحبه، فتصبح العبادة من قلبك، بتوجه، بإمعان، بانقطاع، وحينها يجزيك الله تبارك وتعالى بالقليل الكثير، فقليل من العبادة بانقطاع، قليل من العبادة بتوجه، قليل من العبادة بإقبال نحو الله (سبحانه وتعالى)، يعطيك الله (سبحانه وتعالى) بها أجر الكثير من العبادة، وإن كانت قليلة، فالمهم هو النوعية، وليس المهم كم تصلي، كم ركعة مستحبة تصلي في هذه الليالي، وإنما المهم نوع الصلاة؛ توجهك في أثناء الصلاة، وليس المهم كم تقرأ من القرآن، وإنما المهم هو قدر توجهك عند تلاوة القرآن، وتأثرك بهذه الآيات القرآنية، وليس المهم أن تقرأ كل أدعية شهر رمضان؛ الأدعية النهارية والليلية، وهناك عشرات الصفحات في مفاتيح الجنان وقد لا تستطيع أن تقرأها، والمهم هو مستوى توجهك في قراءة هذه الأدعية.

«ولم يتعاظمه»[١٤٢]، لا يستكثر الله (سبحانه وتعالى) أن يجزي بالقليل الكثير، فليس كثيرًا على الله أن يعطي بالقليل أجر الكثير من العمل، عندما يكون في هذا القليل حب، وانقطاع، وتوجه، وإقبال، فحينها يكون القليل كثيرًا عند الله عز وجل.

وفي رواية أخرى، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «مر بي أبي – الإمام الباقر – وأنا في الطواف، وأنا حدث»، أيام الفتوة عندما كنت شابًا وما زلت بقوتي، «وقد اجتهدت في العبادة»، حمّلت نفسي من العبادة الشيء الكثير، «فرآني وأنا أتصابُّ عرقًا»، كنت غارقًا بالعرق من كثرة الطواف، «فقال لي: يا جعفر يا بني، إن الله إذا أحب عبدًا أدخله الجنة، ورضي عنه باليسير»[١٤٣]، لا يحتاج الأمر إلى الكثير، فلا تجعل نفسك في مشقة وتتعب نفسك بهذا المقدار، وركّز على نوع العبادة، لأنّ العبادة التي تركز على نوعها فتكون بإقبال، تورث محبة لله (سبحانه وتعالى)، وإذا دخلت محبة الله في قلبك، صار عملك عملًا نوعيًا، والله (سبحانه وتعالى) يقبل ذلك العمل، والقليل منه يكون كافيًا.

---

١٤٢. الكافي ٢: ٨٦ ح٣.

١٤٣. الكافي ٢: ٨٦ ح٤.

نسأل الله (سبحانه وتعالى) أن يوفقنا للعبادة النوعية، وأن نكون وسطيين، فلا نترك كل شيء، ولا نقتصر على الواجبات فقط، وهناك شخص من جماعتنا كان يقول لي: أنا لا أصوم يوم الشك، ولا أصوم أي يوم آخر، إلا شهر رمضان، ولعله كذلك في صلاته؛ فلا يصلي إلا بمقدار الواجب، لماذا نقتصر على الواجبات فقط؟ مع أن المستحبات هي طريق التقرب إلى الله تبارك وتعالى.

البعض الآخر تأتيه فجأة ساعة رحمانية، فيدخل في عبادات وفي أعمال طويلة ومرهقة وشاقة، وهو عمليًا لا يستطيع أن يواصل، فبعد يوم أو يومين أو ثلاثة أو أسبوع يتعب، ويترك كل شيء، لذا فإنّ أفضل حالة ينبغي أن يكون عليها الإنسان هي الاعتدال؛ لا تقصّر ولا تبالغ، مارس عبادتك باعتدال، ومارس حياتك باعتدال، وهذا هو ما تحدثنا به سابقًا؛ العبادة بمعناها الخاص والعبادة بمعناها العام، عندما تأتي مقبلًا على الصلاة، أو الدعاء، أو الزيارة، تزداد محبة وعلقة بالله (سبحانه وتعالى)، وعملك في حياتك اليومية سيكون لله تبارك وتعالى، فيتحول كل عمل تأتي به إلى عبادة أيضا، وتكون كل الأعمال والأوراد وردًا واحدًا، كما أشرنا سابقًا، نسأل الله أن يجعل عبادتنا عبادة في توجه وإمعان وتركيز، وأن يوفقنا لحسن عبادته، باعتدال ووسطية.

التوصية السابعة

التواصل مع الناس

(وَأَمَّا بَعْدَ هذا، فَلاَ تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلاَةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْم بِالأُمُورِ، وَالاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عِندَهُمُ الْكَبِيرُ، وَيَعْظَمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ.

وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لاَ يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ.

وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ، أَوْ مُبْتَلَىً بِالْمَنعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ! مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مما لاَ مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَة، أَوْ طَلَبِ إِنْصَاف فِي مُعَامَلَة).

يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه التوصية المسؤول، مهما كانت مسؤوليته ومستواه، من القائد الأعلى إلى المستويات الأدنى في المنظومة القياديّة، يوصيهم بالتواصل مع من هم تحت مسؤوليتهم، فعلى الحاكم أن يتواصل مع الناس، مع الرعية، وهكذا في كل المستويات.

إنّ التواصل المباشر يمثل مبدأ إسلاميًا في القيادة والإدارة، فإذا كنت مسؤولا فعليك أن تتواصل مع من أنت مسؤول عنهم، فتجلس معهم، وتتكلم معهم، فلا تحتجب عنهم، وتمتنع عن لقائهم، فتعيش في فلك، وهم يعيشون في فلك آخر، فالمعايشة الميدانية والتواصل المباشر يمثلان ضرورة أساسية، ومفتاحًا من مفاتيح نجاح المنظومة القياديّة بحسب الرؤية الإسلاميّة.

ونظرًا لطول هذه التوصية، وتضمنها لدروس عديدة، فقد جعلناها ثلاثة أقسام.

القسم الأول: تواصل المسؤول مع من هو مسؤول عنهم

(وَأَمَّا بَعْدَ هذا، فَلاَ تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلاَةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالأُمُورِ، وَالاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دوُنَهُ فَيَصْغُرُ عِندَهُمْ الْكَبِيرُ، وَيَعْظَمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ).

(فَلاَ تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ): الاحتجاب هو الاستتار، والابتعاد، أي لا تُطل ابتعادك عن أناسك الذين أنت مسؤول عنهم، بل تواصل معهم في فترات قصيرة، ولا تغلق بابك، وأبقِ الأبواب مفتوحة للتواصل المباشر مع من أنت مسؤول عنهم، اجلس معهم، واستمع إلى من لديه كلمة، أو ملاحظة، أو اعتراض، أو شكوى، أو تظلم، أو من كان صاحب حق ضائع بسبب مسؤول في مستوى أدنى من المسؤولية، ولم تكن لديه قناة للوصول إليك ليقول لك: إنّ فلانًا ظلمني، أو إن فلانًا مقصر في حقي، فيستطيع من خلال الجلسة المفتوحة أن يشرح لك ويوضح أفكاره، وجهة نظره، تظلماته، شكواه، فلا يبقى شيء في نفسه إلا وعرضه عليك، وهكذا تبقى على اطّلاع مستمر بكل ما يحدث في دائرة مسؤوليتك، وتتكون لديك صورة واضحة عن منظومتك القياديّة، سواء كنت رئيسًا أو وزيرًا أو قائدًا أو مسؤولًا في مساحة ما، وفي تلك المساحة أبقِ الباب مفتوحًا لتسمع وتعرف ماذا يعمل من هم في منظومتك القياديّة؟؛ هل يعملون بشكل صحيح وفقًا للضوابط الموضوعة، أو يظلمون الناس ولا يؤدون واجباتهم بشكل صحيح؟ وحينئذ يتسنى لك الاطلاع على مشكلات الناس، وتستطيع وضع الخطط الكفيلة بنجاحها.

(فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلاَةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ): أما إذا حدثت فجوة وفاصلة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم، فإنّ فيها تبعات خطيرة تؤدي إلى تأزم العلاقة بين هؤلاء ومسؤولهم، بينهم وبين قائدهم، بينهم وبين رئيسهم، بينهم وبين وزيرهم، أيا كان مستوى هذا المسؤول، فتتراكم المشكلات، ويرونه ظالمًا، أو في الأقل هناك أناس أنت تظلمهم، ولم تقف معهم، ولم تُزِح الظلم عنهم، بل على العكس، تخلق نقمة لديهم، وردود أفعال سلبية، وسخطًا، وغضبًا، تؤدي إلى الضيق، والألم، والاحتقان، وسوء الظن، وزوال الثقة بين المسؤول وأولئك الناس.

(وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالأُمُورِ): عندما يبتعد المسؤول عمن هو مسؤول عنهم ولا يدري ما يدور حوله، تحدث لدى هؤلاء الناس كل يوم أشياء جديدة، ويصبح لا يعرف ما يفكرون به، وما هي مشكلاتهم، وما هي تحدياتهم، ويصبح غير قادر على التعاطي معها؛ لأنه لا يعلم ما الذي تحتاج إليه الناس.

(وَالاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دونَهُ) : عندما يحتجب المسؤول عن هؤلاء الناس ، ينقطع عن المعرفة بما يدور في فلك هؤلاء الناس ، فيتكلم بكلام يظن أنه سيفرحهم كثيرًا ، وإذا به يغضبهم ، أو يركز على شيء يحسب أنه هو الشيء الأساسي عند هؤلاء الناس ، فإذا الناس لا يهتمون به ، أو يتجاهل شيئًا يحسبه أمرًا بسيطًا ولا قيمة له ، وإذا هو صاحب القيمة الكبرى والناس مهتمة به ، وعندها سيتحدث الناس في واد ، والمسؤول يتحدث في واد آخر ، يعيش الناس في فلك ، ويعيش المسؤول في فلك آخر ، إذ لا يصله نبض الشارع ، ولا يدري ماذا يريد الناس ، ويتحدث بأمور لا تحظى بأهمية عند الناس ، ويهتم بأشياء قد لا تكون الناس مهتمة بها ، ولا يهتم بأشياء قد تكون الناس مهتمة بها ، فتزداد الفجوة بينه وبين الناس ، فيكون خطابه بعيدًا عن الناس ، واهتماماته بعيدة عن اهتماماتهم ، وحينئذ ينقطع ويبتعد عنهم .

(فَيَصْغُرُ عِندَهُمْ الْكَبِيرُ) : يحسب الشيء الكبير صغيرًا ، فلا يهتم به ؛ لأنه لا يمتلك معلومات عن اهتمامات الناس ، وليس لديه تحديث لهذه المعلومات .

(وَيَعْظَمُ الصَّغِيرُ) : ويحسب الشيء الصغير كبيرًا ومهمًا .

(وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ) : يظن أمرًا ما قبيحًا جدًا ، فيظهر أنّ الناس تريده وتحبه .

(وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ) : وعلى عكس ذلك ، يحسب أمرًا ما حسنًا عند الناس ، فيحسّنه ويجمّله ، وإذا بالناس لا تريده ولا تحبه ، وكل ذلك بسبب انقطاعه عنهم .

(وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ) : يشاب ، يعني يلتبس الحق بالباطل ، الأخضر باليابس ، وتختلط الأمور على هذا المسؤول ، فلا يدري ماذا يفعل ، وماذا يريد الناس ، فيمدح من لا يحبه الناس ، ويذم من يحبونه ، ويدين حالة معينة يريدونها ، ويتبنى حالة لا يريدونها ، فيكره الناس ما يقوله ، ويُواجه بردّ فعل ، ويثور الشارع بوجهه عند كل تغريدة يغردها ، ويعترض عليه عند كل كلمة يتكلم بها ، لأنه لا يعرف بالضبط ما هو نبض الشارع ، وماذا يريد الناس ، وبالطبع فإن هذا الاحتجاب يجعل المشكلة من طرفين ، يمثل هو أحدهما ، ويمثل الناس الطرف الآخر .

على المسؤول لعلاج هذه الحالة أن يجلس مع الناس ، ويشرح لهم ويوضح ؛ لماذا اتخذنا هذه الخطوة ، لماذا شرّعنا هذا القرار ، لماذا اتخذنا هذا الإجراء ، لماذا فرضنا حظر التجوال ، فيشرح ويوضح ويبيّن لمن هو قريب منه وللناس ، ليعرفوا قيمته ودقته في عمله والخدمة التي يقدمها لهم ، فقد يتفق أحيانًا أنّ المسؤول يقدّم خدمات كبيرة ، ولكن الناس لا يعرفونها ، وليس لديهم تفسير لمواقفه ، فيعترضون عليه ، ولذا يجب عليه أن يشرح لهم ليطلعوا على الإنجازات التي يقوم بها ، وحينئذ يشكرونه ، وتُردم الفجوة بينه

وبينهم، وسترتفع الإشكالية الناشئة من عدم فهم المسؤول لمرادهم، وترتفع إشكالية الناس في عدم فهم مواقف المسؤول بالشكل الصحيح والمناسب.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

ضرورة تجنب الاحتجاب

أيها المسؤول، مهما كانت مسؤوليتك، سواء كنت مسؤولًا تنظيميًا، أو مسؤولًا في محطة، أو مسؤولًا في مركز اقتراع، أو مسؤولًا في مركز تموين، وسواء كان تحت أمرتك خمسون موظفًا، أو خمسمائة، أو خمسة آلاف، دعهم ليروك، ولا يسمعوا باسمك فقط، ويجب عليك أن تتواصل معهم، وكذا إذا كنت مسؤولا عسكريًا، كآمر سرية أو آمر فوج، يجب أن يراك جنودك، وتختلط بهم، وتطلع على أحوالهم ومشكلاتهم، وتشرح لهم مواقفك، وتسمع وجهات نظرهم، واعتراضاتهم، وملاحظاتهم، وانتقاداتهم، وتوصياتهم، واقتراحاتهم، ويجب أن تبقى هذه العلاقة.

وحذارِ أيها المسؤول، أيها المتصدي، أن تبتعد عمن أنت مسؤول عنهم؛ لأن هذا الابتعاد يخلق فجوة بينك وبين هؤلاء الناس، ويؤدي إلى عدم اطلاعك على ما يدور بينهم، وعدم اطلاعهم على جهد المسؤول وإخلاصه وتفانيه والعمل الكبير الذي يقوم به لخدمتهم.

(وَأَمَّا بَعْدَ هذا، فَلاَ تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ)، تأمّلوا تعبير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إذ يقول: (فَلاَ تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ)، فماذا يعني هذا؟.

يعني أنّ أصل الاحتجاب أمر واقع، ولكن لا تطول أيها المسؤول هذا الاحتجاب، فأنت لست شيخ عشيرة يجلس في مضيفه المفتوح من الصباح إلى الليل، والناس يدخلون ويخرجون طوال الوقت، يحتسون القهوة ويتكلمون معه في كل شيء، وإنما صرت مسؤولًا لأنك كُلفت بمهام وواجبات، وكلما كبرت مسؤوليتك وزادت مهامك، يجب أن تضع الخطط، وتنفذ المهام، وتشكل الفريق، وتضع سياسات صحيحة للعمل، وتراقب الأداء، وتشرف على العمل، وتدقق في النتائج، وهذه المسؤوليات والمهام تأخذ وقتًا كثيرًا، ولا تستطيع فتح بابك في جميع الأوقات، ولذلك صرت مسؤولًا؛ لأنّ عندك مسؤولية، ولا يمكن أن نقيسك بشيخ عشيرة متفرغ لشؤون عشيرته

وحل مشكلاتهم، فديوانه مفتوح للضيوف في كل وقت؛ لأنّ عمله هو هذه العلاقات الاجتماعيّة، ولا يستطيع أن يحتجب عن الناس.

أما المسؤول فلديه مسؤوليات، لذلك فإن اسمه مسؤول، ولا يستطيع أن يفتح بابه أربعا وعشرين ساعة للناس، والبعض يريد من المسؤول أن تكون أبوابه مفتوحة دائمًا، وأن يجيب على مكالمات الناس ولو في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ثم يعترض ويقول: أي مسؤول هذا الذي لا يجيب على الهاتف؟! وعلى هذا وأمثاله أن يتقي الله؛ هل الساعة الثانية بعد منتصف الليل وقت مناسب؟ أليس هذا المسؤول بشرًا؟، لديه مشكلات، وظروف عائلية، والتزامات خاصة، ولديه حياته الخاصة، وجزء من هذا الوقت حق شخصي له كباقي البشر، ويريد أن يعيش حياته، فلديه زوجة وأولاد وعلاقات اجتماعيّة، حاله كحال بقية الناس، فهناك جانب يرتبط بحياته الشخصية، وهناك جانب واسع يرتبط بمهامه وواجباته ومسؤولياته، بالتخطيط والتنفيذ والإشراف والرقابة، وكل هذه تحتاج إلى وقت، فلا يستطيع أن يكون مستعدًا في كل لحظة لاستقبال الناس والرد على هواتفهم، ولكن من واجبه أن يخصص وقتًا لذلك.

يطلب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا من المسؤول أن لا يطيل احتجابه عن الناس، وأن يخصص وقتًا في فترات متقاربة للقائهم والاستماع إليهم، فالمتوقع من المسؤول أن يكون هاتفه مفتوحًا، وبابه مفتوحًا للتواصل مع الناس، ولكن ليس في أي وقت يختاره الناس، فهذا خطأ وغير ممكن؛ لأنه مسؤول ولديه واجبات ومهام لا بد له من إنجازها، فلا يتسع وقته لأن يتواصل مباشرة مع الناس في كل الأوقات، وإن كان ذلك ممكنًا بشكل غير مباشر، إذا اقتنع الناس بطرق التواصل عبر القنوات الأخرى، ومن ناحية أخرى فإنّ المشكلات والواجبات يجب أن لا تكون ذريعة للاحتجاب الطويل عن الناس، بل يجب أن يتواصل معهم، ولكن كيف يتواصل؟ في كل زمان هناك أدوات للتواصل، ففي يوم ما لم يكن هناك هاتف، ولا سوشيال ميديا، ولا إنترنيت، ولا واتساب، ولا تلجرام، فالاحتجاب يعني أن يسد بابه ويمتنع من لقاء الناس، وعدم الاحتجاب يعني أن يفتح بابه ويجلس في ديوانه ويستقبل الناس.

وفي زماننا تطورت الحياة، وأُبتكرت هذه الوسائل الحديثة، واليوم في أزمة كورونا، تجد جامعات العالم ومدارسه تتواصل مع طلابها عبر هذه الوسائل، وتستمر الدروس، إذ يأتي الأستاذ وحده إلى الصف، ويضعون له كاميرا ويدرّس، والطلاب يجلسون في بيوتهم ويسمعون الدرس، ويسألون ويحصلون على الأجوبة، وهكذا أصبح العالم عالما مختلفا.

وكـذا الحـال في المجالـس الحسـينية والمجالـس الرمضانية ، إذ يُعلن في وسـائل الاتصال أنّ الخطيب الفلاني سـيرتقي المنبر في السـاعة الفلانيـة على الموقع الفلاني ، ويحضر الناس هذه المجالس وهم جالسون في بيوتهم ، ويستمعون على الهواء .

وكذلـك لـم تعد الطريقة الوحيدة للمسـؤول في التواصل المباشـر ، أن يجمعهم في مـكان ويجلـس معهم ، فهذه واحدة من الوسـائل ، فهناك سوشـيال ميديا ، فيس بوك ، واتسـاب ، برامج أخرى ، يمكن من خلالها أن يكون المسـؤول على تواصل مع الناس ، ويسـتطيعون أن يوصلوا ملاحظاتهم في كل وقت ، وكل هذا يدخل ضمن مبدأ التواصل المباشـر ، ولكـن يبقى التواصل وجهًا لوجه له تأثيره الخـاص الذي لا يتحقق عن طريق الأجهزة الحديثة .

إذن فهـذا التواصـل مطلوب ، ويمكن الاسـتفادة من كل هـذه الأدوات ، ولكن يبقى المبدأ العام ؛ مبدأ التواصل مع مَنْ أنت مسؤول عنهم ، مبدأ إسلاميّا ومفتاحًا أساسيًا من مفاتيـح النجاح في المنظومة القياديّة والإداريّة ، والمسـؤول الذي لا يتواصل مع من هو مسؤول عنهم ، لديه نقص كبير في هذا الجانب .

إن هـذا المنهـج يمثل منهجًا نبويًا ؛ إذ كان رسـولنا الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، بموقعه الكبير ومشاغله الكثيرة ومهامه الرسالية الجسيمة التي كلفه الله (سبحانه وتعالى) بها ، كان يتواصل بشكل دائم ومستمر مع الناس ، وكان يأتي بنفسه ويقيم صلاة الجماعة والجمعة في المسـجد النبوي ، وفي ذلك الوقت لم يكن المسـلمون يجمعون بين الصلاتين ، فهم يأتون إلى المسـجد خمس مرات في اليوم ؛ الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشـاء ، بالإضافـة إلـى حلقات الدرس ، والجلوس بعد الصلاة لمن كان عنده سـؤال أو حاجة ، ولم يكن يمنع الناس من أن يسألوا عن كل ما يريدون ، وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يهتم بقضاء حوائج عائلته ، فكان يذهب ويتسـوق لعائلته بنفسـه ، فيدخل السـوق ويراه الباعة والمتسوقة ويتحدثون معه ، فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يعيش معهم ويعرف المشكلات والقضايا كلها ، وكان ملمًا بها ومطلعًا عليها ، هكذا كان منهج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ .

ورد في كتاب عيون أخبار الرضا : سأل الإمام الحسين أباه أمير المؤمنين عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ ، عـن صفـات رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، فأجابـه أميـر المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وذكـر له هذه الصفات التي نقتصر منها على موضع الشاهد :

«ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس»[١٤٤]، يسأل الناس عما يدور بينهم، عن مشكلاتهم، عن قضاياهم، عما يدور في الشارع، في السوق، ماذا يقول الناس؟، ما هي ملاحظاتهم، واعتراضاتهم؟، وما الذي يفرحهم؟، وما الذي يحزنهم؟، فكان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ يسمع دائمًا، ويسأل الناس عما في الناس.

وفي هذا السياق ورد في نهج البلاغة؛ في رسالة أرسلها أمير المؤمنين عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ إلى قثم بن العباس، وكان عامله على مكة، قال فيها عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ:

«أما بعد، فأقم للناس الحج»، أنت الوالي على مكة فأقم للناس الحج، علّمهم كيف يحجون بيت الله الحرام، ويحيون هذه الشعيرة.

«وذكّرهم بأيام الله»، الأيام المباركة، الأيام التي فيها إنجازات وانتصارات إلهية، كيوم بدر، ويوم خيبر، ويوم المباهلة، ويوم الغدير، ليحيي الناس هذه الأيام؛ لأنّ الإنسان يقوى بتأريخه دائمًا، ويَعتبِر مما جرى على الأمم السابقة؛ الأيام التي حلّ فيها عذاب إلهي بالناس، بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، اشرحها للناس لتعيش حالة الخوف وحالة الرجاء؛ الخوف من العذاب الذي حل بالناس بسبب المعصية، والرجاء بسبب ما حصل في الأيام المباركة من الإنجازات والانتصارات.

«واجلس لهم العصرين»، العصرين يعني الغداة والعشية، تُجمع للتغليب، يقال: العصرين، والظهرين، والعشاءين، وهنا نقول الإمامين الجوادين، والإمامين الكاظمين، ونعني الإمام موسى الكاظم والإمام محمد الجواد عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، والعصرين: يعني الوقتين صباحًا ومساء.

«فأفتِ المستفتي»، الذي يسأل عن مسألة، يستفتي بشأن واقعة، أعطه موقفه الشرعي في هذا الأمر.

«وعلّم الجاهل»، الذي لا يعرف شيئا وسألك عنه، فأجبه، وعلّمه، واشرح له، ووضح له.

«وذاكر العالم»، العالم الذي يعرف، تحاور معه، ونضج فكره أكثر، واستفد منه، وخذ بيده إلى آخرته.

«ولا يكن لك إلى الناس سفيرًا إلاّ لسانك»، لا تبقَ جالسًا في مقصورتك وترسل فلانًا وفلانًا ليتواصل مع الناس، بل اجعل ما ينطق به لسانك سفيرًا لك تتواصل به معهم، لأنك الأقدر على أن تشرح مشروعك، وتوضح للناس إنجازاتك، فإنّ الشخص الذي

---

١٤٤. عيون أخبار الرضا ٢: ٢٨٤ح١.

ترسله لا يغني عنك، وقد جاء في المثل: (ما حك جلدك مثل ظفرك)، فأنت تستطيع أن تشرح وتوضح الأمور بالطريقة الأفضل، وتتحدث عن إنجازاتك، ومشاريعك، ورؤاك، وأفكارك، واستشرافك للمستقبل، وماذا تريد أن تعمل لهؤلاء الناس، وكيف تفكر، فأنت أقدر من غيرك على شرح هذه الأمور، فلا تحولها للآخرين، واعمل هذا الشيء بنفسك.

«ولا حاجب إلاّ وجهك»، لا تجعل حاجبًا وحمايات يمنعون الناس من لقائك، بل واجه الناس بنفسك، وتكلم معهم.

«ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها»، لا تمنع صاحب الحاجة من لقائك، ولا يصل إلى بابك فيرجعه موظفو مكتبك.. لماذا تمنع صاحب الحاجة من لقائك؟ حاول أن تعرف ماذا يريد وحل مشكلته.

«فإنها إن ذيدت»، إذا دفعت صاحب الحاجة ورفضت أن تسمعه ومنعته.

«عن أبوابك في أول وردها»، منعتها في أول وصولها، ورفضت النظر فيها.

«لم تُحمد في ما بعد على قضائها»[١٤٥]، فإنك لو قضيتها بعد ذلك لم تشكر عليها؛ لأنّ صاحبها مصدوم منك عندما أرجعته بيد خالية في المرة الأولى، وكان ينبغي عليك أن تستقبله وترحب به، وتعِدُه بالنظر فيها، وإذا لم يكن هناك مانع فستقضيها له، فيخرج من عندك وهو شاكر لك، هذا هو التعامل وفقًا للمنهج الإسلاميّ؛ استقبله، احتضنه، اشرح له، اعتذر منه، وهذا أمر مهم جدًا لتحقيق النجاح، ولزرع الثقة عند الناس في المسؤول.

إذن لا يوجد ما يسد الفجوة بين المسؤول، القائد، المدير، ومن هو مسؤول عنهم، مثل التواصل المباشر معهم، فالذي يؤمن بالآخرة ويعمل لله، الذي لا يتبع هواه، ولا يكون أنانيًا، ولا يتعالى على الآخرين، الذي يبحث عن الحق والحقيقة، ويريد أن يكون عادلًا، عليه أن يتواصل بشكل مباشر، أما تقارير الأدوات الأخرى، فالناس تحب وتتكلم وتكره وتتكلم، والمسؤول الأدنى منك، الذي يكتب لك التقرير، قد يخفي بعض الأشياء أو يتجاهلها أو يبعدها لكي لا يزعجك، ولا يؤذيك، ولكي لا يحصل لديك انطباع أنه مقصر بشيء، فيعرض الأمور بصورة مثالية دائما، حتى تقول عندما تقرأ التقارير: هذه هي المدينة الأفلاطونية الفاضلة؛ فكل شيء على ما يرام، كل شيء مثالي، والواقع ليس بهذا النحو؛ فهو ليس مثاليًا، بل فيه مشكلات.

١٤٥. نهج البلاغة ٣: ١٢٧ كتاب ٦٧.

خذ التقارير واطّلع عليها، ولكن لا تكتفي بها، فلديك قنواتك المباشرة التي تراقب، وتستطيع أن تأتيك بمعلومات أكثر دقة مما يأتيك به صاحب التقرير، وعندما يعرف صاحب التقرير أنّ هناك أكثر من جهة توصل لك المعلومات، وأنه إذا أخفى قضية، أو غيّرها، فيمكن أن تصل إليك بعد ذلك، وسوف يتبين أنه لم يكن موضوعيًا في تقريره، ولم يكن صادقًا، وأنه لم يبيّن لك كل الحقيقة، فحينها سيكتب تقاريره بشكل أحسن وأدق.

إنّ التواصل المباشر يساعد حتى في تصحيح سلوك المسؤولين الأدنى والمنظومة القياديّة؛ إذ سيخافون ولا يستطيعون بعدها أن يخفوا بعض الأشياء؛ لأنهم يعلمون أنها سوف تصل للمسؤول بعد ذلك، وسوف يدفعون ثمن إخفائهم لها، مما يعرّض وظيفتهم إلى الخطر.

إذن مهما كانت الصعوبات، والمعوقات، والمشاغل، والالتزامات، يجب أن تخصص أيها المسؤول وقتًا لكي تلتقي الناس، ولا تتحجج بكورونا، واجلس في قاعة كبيرة، وضع فواصل بين الناس، واجلس مع من هم تحت إمرتك، وتحدث معهم، واشرح لهم، عبر وسائل التواصل، أو بأي طريقة أخرى، ولا تقطع بأي حال من الأحوال مثل هذا التواصل.

لقد ورد في رسالة وجهها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قيس بن سعد بن عبادة، وكان قد جعله واليًا على آذربيجان، قال له:

«فألن حجابك»، ألن من الليونة، يعني خفف الفواصل بينك وبين الناس، وتواصل معهم.

«وافتح بابك»، افتح أبوابك لتأتيك الناس وتبين أفكارها وآراءها واعتراضاتها.

«واعمد إلى الحق»، وكن إنسانًا حقانيًا وموضوعيًا، ولا تفرق بين الناس.

«فإن وافق الحق ما يحبو سره»، يحبو من المحاباة، وسره يعني عشيرته، جماعته، حزبه، تياره، فلا تأت برهطك وتمكّنهم من المنصب الذي أنت فيه، من الوزارة التي استوزروك فيها، فتعيّن حزبك بحجة أنها حصتكم واستحقاقكم الانتخابي، وتترك الآخرين، ولاسيما أولئك الذين لا ينتمون إلى أحزاب حكومات المحاصصة، كلا، فأنت من موقع المسؤولية يجب أن تكون عادلًا، أن تكون حقانيًا، أن تكون منصفًا، فتقرّب من هو الأكفأ والأقدر وتعطيه المسؤولية، لا تجعل منطقك أن هذا ليس من جماعتنا فلا تقرّبه وإن كان هو الأكفأ، وتقرّب من كان من جماعتك وإن لم يكن الأكفأ، فلا محاباة على أساس المحسوبية والمنسوبية، فهذا خلاف الحق.

لا تجعل لك جماعة ورهطًا، فتهتم بهم وتترك الآخرين، بل تعامل بحقانية مع الجميع، من دون محاباة، أو محسوبية ومنسوبية، أعط كل ذي حق حقه، وسلّم الراية للأكفأ والأكثر نزاهة والأقدر، سواء كان من رهطك أو من غيرهم.

«ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله»[١٤٦]، لا تعمل بهواك، لا تقرّب من تهواه، من أقاربك وجماعتك وأصدقائك وتترك الآخرين، بل كن حقانيًا وموضوعيًا.

ثم يستشهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بالآية الشريفة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[١٤٧].

إذن يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا النص إلى أن المسؤول الذي يبتعد عن الناس، عن الذين هو مسؤول عنهم، تحدث له مشكلتان:

أولًا: ترتبك العلاقة الإنسانية بينه وبين هؤلاء الناس، وتحدث أزمة ثقة، وفجوة، فلا يستطيع أن يفهمهم، ولا هم يستطيعون أن يفهموه، وتتباعد الأمور بينهما.

ثانيًا: ابتعاد المسؤول عن رحمة الله (سبحانه وتعالى)، فإذا لم يتواصل مع الناس الذين هو مسؤول عنهم، ولم يكن قريبًا منهم، فإنّ رحمة الله لن تشمله.

وفي رواية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قال:

«وأيما والٍ»، مسؤول، قائد، حاكم.

«أغلق بابه دون ذوي الخلة والحاجة والمسكنة»، سد بابه دون الناس من أصحاب الحوائج، فلم يسمع لهم ليعرف ما هي مشكلاتهم وحاجاتهم.

«أغلق الله بابه عن خلته وحاجته ومسكنته»[١٤٨]، عندما يحتاج هذا المسؤول إلى الله (سبحانه وتعالى)، فإنّ الله يسد بابه دونه، ثم يدعو ويتوسل لقضاء حاجته فلا يُستجاب له، وترجع دعواته إليه لأنها تجد أبواب الله مغلقة دونها، لأنه عندما كان قادرًا على قضاء حوائج الناس أغلق بابه دونهم، فكذلك اليوم يغلق الله تبارك وتعالى بابه دونه، فلا يقضي له حاجة، فكما تُدين تدان، وحينئذ ستكون بعيدًا عن رحمة الله، والعياذ بالله.

١٤٦. تأريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٢.

١٤٧. سورة ص: الآية ٢٦.

١٤٨. الاستيعاب لابن عبد البر ٣: ١٢٠٠.

الإضاءة الثانية

النتائج الكارثية للاحتجاب

إنّ للاحتجاب عن الناس، وعدم التواصل معهم، آثارًا ونتائج كارثية، فمن ناحية يضر الناس؛ لأنه يحرمهم حقوقهم؛ فلا يستطيعون أن يتظلموا، ويعترضوا، ويشتكوا، ويبيّنوا أفكارهم، ويعطوا ملاحظاتهم، ويقدموا مقترحاتهم، ويشتكوا من المسؤولين الأدنى لهذا المسؤول الكبير، فإذا لم يكن هناك طريق مباشر إلى المسؤول الأعلى كيف يستطيعون أن يشتكوا من المسؤول الأدنى؟ فتحدث مشكلة.

بالإضافة إلى ذلك فإنّ الاحتجاب يقطع الطريق على بيان أفكارهم، آرائهم، مقترحاتهم، ملاحظاتهم، في تطوير العمل، فهناك إبداعات وأفكار تأتي من العاملين في المنظومة القياديّة لا يفكر بها المسؤول أبدًا، وهؤلاء قادرون على إعطاء أفكار تسهم في تطوير العمل، فإذا فقدوا فرصة التعبير عن الرأي، فلن يستطيعوا حينئذ الاعتراض أو الاقتراح أو إبداء الملاحظات، فيبقى هؤلاء مثل قدر الضغط، يزداد الألم شيئًا فشيئًا إلى أن ينفجر؛ فلا توجد طريقة للتنفيس، لذلك سوف ينفجر بطريقه خاطئة، فتجد أحدهم ينشر فجأة بيانًا شديد اللهجة على الفيس بوك، يهتك فيه المسؤول أمام الناس، ثم يزيد من درجة احتجاجه فيخرج في تظاهرة، ثم يزيد من احتجاجه فيعمل اعتصامًا، فيخيّم في الساحات ويقطع الشوارع، ويحدث كل ذلك بسبب عدم توفير فرصة التعبير عن الرأي، والاعتراض بالطريقة الصحيحة أمام المسؤول.

حين يغلق المسؤول بابه، فإنّ الناس سوف تنفس عن غضبها واعتراضها بطريقة أخرى، قد تكون خارجة عن القانون، قد تكون مدمرة، قد تكون سلبية تضره، وتضر البلد، وتضر الحالة العامة، فتبعات الاحتجاب خطيرة إلى درجة قد تؤدي إلى انفلات، إلى حرب أهلية، عندما يعترض الناس ويتحركون، وتتدخل الدولة فتقمع وتقتل، فتزداد حدة الاحتجاجات وتتحول إلى حمل السلاح، وتتدخل الأحزاب بين مؤيد ومعارض لاستعمال العنف، ويتطور الصراع شيئًا فشيئًا، ويحمل الناس السلاح بعضهم ضد بعض، وتنشب حرب لها أول وليس لها آخر، فالاحتجاب قد يؤدي إلى حرب أهلية، وقد يؤدي إلى احتجاجات واسعة تطيح بالنظام السياسيّ.

انظروا إلى عمق الإسلام ودقته في بناء ملامح المنظومة القياديّة التي يُحفظ بها النظام، ويُحفظ بها الوضع العام، ويلبي بها مطالب الناس أيضًا، فهذا الاحتجاب يحرم المسؤول، القائد، الحاكم، الوزير، المدير، في أي مسؤولية كان؛ يحرمه من الاطلاع

على حقيقة ما يجري، وبماذا يفكر الناس، وما هي مشكلاتهم، وما هي احتياجاتهم، وما هي معاناتهم، ولذلك عندما يريد أن يخدم تراه لا يعرف شيئًا، وبالنتيجة لا يعرف كيف يعمل، فليس لديه احتكاك مع الناس، فلا يملك تصورا عن احتياجاتهم، وهذا الجهل بما يريده الناس، ينعكس سلبًا في قراراته، في توجيهاته، في خطواته، فقد يتخذ إجراءات يكون لها ارتداد عكسي، كأن يشرّع قانونًا يريد أن يخدم به الناس فتكون النتيجة عكسية، كما لو شرّع قانونًا لحماية المحامين، فيرى في اليوم الثاني تظاهرات للمحامين اعتراضًا على القانون، كما يقول المثل الشعبي: (أراد أن يكحلها فأعماها)، فقد شرّع هذا القانون لكي يخدم هذا الصنف، فثاروا بوجهه معترضين؛ كيف تصدر تشريعًا لشريحة من الناس، ولم تجلس معهم، ولم تسمع لهم، ولم تعرف ما هي مطالبهم لكي تضعها في القانون؟، كيف تشرع قانونًا قبل أن تعرضه على الناس المستفيدين منه، على الجهة المستفيدة، لتنظر هل هذا القانون يفيدهم أو لا يفيدهم؟ وما هي ملاحظاتهم؟.

(فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلاَةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ)، يؤدي إلى فجوة، وهذه الفجوة تؤدي إلى تناقضات وإشكالات، تؤدي إلى أزمة ثقة بين المسؤول والرعية، (وَقِلَّةُ عِلْم بِالأُمُورِ)، وجهل بالأمور، فتريد أن تخدمهم فتضرهم من غير أن تعلم، تؤذيهم وتستفزهم وانت تريد أن تخدمهم، فيجب أن تكون هذه العلاقة علاقة مباشرة ومتواصلة، فالحكومة التي تغلق منافذ الاستماع المباشر إلى مطالب الناس، وإلى تظلماتهم ومعاناتهم وآلامهم؛ تحرم نفسها من الطريقة العلمية والمنهجية للوصول إلى الحقيقة، واتخاذ الخطوات الصحيحة التي تنسجم مع الحقائق والوقائع، فتتخذ خطوات تكون لها ارتدادات عكسية.

(وَالاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ)، الاحتجاب عن الناس يجعلهم لا يعرفون ماذا تعمل، ويجعلك لا تعرف ما هي معاناتهم ومشكلاتهم.

(فَيَصْغُرُ عِندَهُمُ الْكَبِيرُ، وَيَعْظَمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ)، مع الاحتجاب وعدم التواصل تكون المسارات التي تأخذها الحكومة، تأخذها المنظومة القياديّة، أيًا كانت؛ تكون خاطئة، وتأتي بنتائج عكسية وغير سليمة وغير مناسبة؛ لأنها تعتمد على معلومات مغلوطة أو منقوصة أو غير دقيقة، فترتب الأثر وتتخذ القرارات على ضوء هذه المعلومات المنقوصة أو غير الصحيحة أو المبالغ بها، فتأتي القرارات والإجراءات غير مرضية للناس، فتزيد من سخطهم، كهذا المسؤول الذي يريد أن يخدم فيصدر قرارًا بإرجاع مائة ألف منتسب إلى الخدمة؛ من أجل إرضاء المعترضين، وعندما يفتح عينيه يجد أنه أثقل الموازنة بمليارات الدولارات، وتبيّن أنّ

هؤلاء المائة ألف لم يقف واحد منهم في ساحات الاحتجاج، بل كان هؤلاء من الهاربين من حرب داعش.. عجبا! لقد خصصت مليارات الدولارات لترضي هؤلاء الناس، ثم لم تفعل شيئًا، وكل الذي عملته أنك أنفقت كل هذه الأموال على أناس آخرين لا علاقة لهم أصلًا بالاحتجاجات، وكانوا السبب في كثير من المشكلات.

إذن حتى الحلول والمعالجات تأتي مبتورة منقوصة سلبية تزيد من الاحتقان، حتى تصل اللحظة التي يعترف فيها بأنه لا يفهم شيئًا، فالقرار الذي اتخذه لخدمة شريحة معينة يأتي بمردود عكسي... ذلك لأنك لم تخدمهم بالطريقة التي يريدونها، فأنت لا تعرف ماذا يريدون، بل أنت جالس في برجك العاجي وتقدر ماذا يريدون، وشتان بين ما أنت تريده للناس، وما يريده الناس لأنفسهم.

أنت مسؤول عن هؤلاء، ويجدر بك أن ترى ماذا يريدون؟، ما هي مشكلتهم؟، ومثلك كمثل من يشكو وجعًا في رأسه، فيُعطى علاجًا لمعالجة مرض آخر، وعند الاستعمال تظهر آثاره الجانبية، فيضره هذا العلاج ولا ينفعه، وهكذا هي المعالجات الحكومية للمشكلات؛ تزيد الطين بلّة، فهي تعمل وتتعب وتنفق وتحسب أنها تخدم الناس، وهي في الحقيقة تستفزهم بشكل أكبر، نستجير بالله من هذه الحالات.

لذلك يمثل الاحتجاب عن الناس خطرًا كبيرًا على المنظومة القياديّة، ولا بد من التواصل المباشر مع الناس.

القسم الثاني: بشرية القيادة والإدارة

(وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لاَ يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ).

(وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لاَ يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ): توارى يعني خفي، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: الوالي بشر كسائر البشر، وإنسان كسائر الناس، إذا خفيت عليه أمور من شؤون الناس فهو يجهلها، فليس عنده علم الغيب، ولا يعرف حقائق الأمور من تلقاء نفسه، ولكنه يعرفها من خلال احتكاكه بالناس، من خلال استماعه لهم، من خلال اطّلاعه على مشكلاتهم، من خلال تواصله معهم، من خلال الإلمام بهمومهم، باعتراضاتهم، بشكاويهم، بأحلامهم، بتمنياتهم، فعندما يحتك المسؤول بالناس يستطيع أن يعرف ما يجري بينهم، أما إذا كان بعيدًا عنهم، وجالسا في برج عاجي، مبتعدا عنهم، لا يسمع لهم، لا يحتك بهم، فكيف سيعرف مشكلاتهم وهمومهم؟،

فمن الطبيعي أن يخفى عليه الكثير من الحقائق ذات الصلة بهؤلاء الناس، وستخفى عليه كل الأمور التي لا يعرفها، ولم تصل إلى مسامعه.

(وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ): ضروب أي أنواع، يعني ليس للحق شكل خاص يُعرف به؛ ما هو الحق؟، وما هي الأمور الكاذبة التي ليست بحق؟، ما هي الرؤية الصحيحة؟، وما هي الرؤية الخاطئة؟، فالأمور ملتبسة، والحق يحتاج إلى أن يذهب الإنسان ويتحرى عنه لكي يعرفه، فكلام الناس كثير، وكل شخص يتكلم بشيء يختلف عما يتكلم به الآخرون، فما هي الحقيقة؟ من هو الذي يتحدث بالصدق؟ فالكلام بحد ذاته ليس فيه إشارة، وربما يتصور البعض أن الكلام الصادق يخرج بطريقة معينة، يخرج منه نور، فيعرف أن هذا صادق وذاك كاذب، والواقع أنه لا توجد سمات وأوصاف كهذه للكلام تميز الصدق من الكذب، بل يختلط كل شيء، فهذا يقول شيئا، وذاك يقول شيئا آخر، ويسمع المتصدي، القائد، المسؤول، تقييمات مختلفة عن قضية واحدة، وهنا ينفعه احتكاكه بالناس، التصاقه بهم، استماعه لهم من مشارب مختلفة، فهذا يأتي يتكلم عن براءته، ويأتي ذاك ولديه شكوى من منطقة معينة، ويفاجئه بسؤال عفوي ويأخذ الجواب، ويقاطع المعلومات ويصل إلى استنتاج عما يدور في خاطره، فالقائد الناجح، المتصدي الناجح، المسؤول الناجح، هو الذي تكون لديه القدرة على معرفة نبض الشارع؛ بماذا يفكر الناس؟ ماذا يريدون؟ ما الذي يحتاجون إليه؟ بماذا يحلمون؟ لكي يستطيع أن يساعدهم في تحقيق طموحاتهم وأحلامهم، ومعالجة التحديات والأمور التي تزعجهم مثلًا.

الإضاءات المستفادة من النص

في هذا القسم من التوصية – توصية التواصل مع الناس – هناك العديد من الإضاءات:

الإضاءة الأولى

ماهية القيادة والإدارة البشرية

إن القيادة والإدارة ماهيتها بشرية؛ فالقائد والمسؤول إنسان، فلا تتصوروا أنه يمتلك مواهب خارقة، قدرات ما وراء الطبيعة، فيعلم الغيب لأنه صار مسؤولًا، ولأنه صار مسؤولًا صار مسددًا من الله، وقد سمعتم بالألقاب الرنانة التي كان الحكام والسلاطين من بني أمية وبني العباس وغيرهم يطلقونها على أنفسهم؛ كالمنصور بأمر الله، وغير

ذلك من الألقاب، فما إن ينصّب بموقع قياديّ حتى يضع لنفسه هالة من القداسة؛ فهذا مسدد، وهذا لا يخطئ، وإذا أومأ بيده إلى جهة فمعنى ذلك أنه يوجد شيء، وأنه يعرف كل شيء، كلا، فهو لا يعرف أي شيء، والقيادة ماهيتها بشرية، والبشر خطّاء بطبعه، ومعلوماته على قدر معطياته، فبقدر ما يحصل عليه من معطيات تتوافر لديه معلومات إضافية، ويستطيع أن يقيّم الأمور ويعرف الحقائق بهذا المقدار، فالمسؤول لا يعلم الغيب، والأدوار القياديّة لا تمنح الإنسان قدرات فائقة تتجاوز الطبيعة، بل يبقى بشرا، يتحرك ضمن معطياته، ولا معنى للشعور بالقداسة أو إعطاء هالة من القداسة لشخص تصدى إلى مواقع المسؤولية.

(وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ)، حاله كحال أي واحد منا، ومعرفته وتقييماته مبنية على المعلومات التي تصله، وبقدر ما تكون هذه المعلومات واسعة ودقيقة، تكون عنده معرفة دقيقة وتشخيص دقيق، وبقدر ما تكون معلوماته خاطئة ومبعثرة ومبالغًا فيها ومكذوبة، يفقد المعرفة الدقيقة والتشخيص الدقيق، فمعرفته ستكون مشوهة ومشوشة عن الواقع، فتؤدي إلى قرارات غير صائبة وغير سديدة.

(لاَ يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ)، الشيء الذي يخفيه عنه الناس لا يعرفه، فهو يعرف الأشياء التي تصله فقط.

إن الشعور والانطباع بقداسة المسؤول والمتصدي؛ لا أحد يستطيع أن يكلمه بشيء، لا أحد يستطيع أن يعترض عليه بشيء، مسدد من الله مثلًا، هذا يجعله خارج دائرة النقد والتقييم والاعتراض وما شابه ذلك، فإذا كان مسددًا من الله فمعنى ذلك أنك لا تفهم شيئًا، وهو الذي يفهم فقط، وليس لك حق الاعتراض عليه، لأنك تعترض على الله، فالمعترض على الحاكم، الوالي، معترض على الله، لأنه مسدد من الله سبحانه، ولكن المدرسة الإسلاميّة الأصيلة، تقول بأنّ الحاكم ماهيته بشرية؛ فهو يقع في أخطاء البشر، ولذا يجب أن يُقيّم عمله، يُقيّم أداؤه، ويُنقد ويُعترض عليه إذا كانت الخطوة خاطئة، وإذا غاب التقييم، وغابت الرقابة، باعتباره مسددًا من الله، فأي إصلاح يُرتجى حينئذ؟ فهو يمشي بهواه، والناس من حوله كل بيده ورقة وقلم يكتبون ما ينطق به، ولا أحد يستطيع أن يفكر بشيء، فالعقول كلها تتجمد، ولا أحد يعطي نصيحة، أو يبدي موقفًا، وإن كان واضحًا أنّ هذه الخطوة من الحاكم خاطئة، وهذا الإجراء غير سليم، فلا يحق لأحد الكلام لأنه مسدد من الله، وهذا خطأ كبير؛ فالوالي بشر، والماهية البشرية للمتصدي، للمسؤول، للقائد، تُوقعه في الخطأ؛ لأن مواقفه كلها مستندة لمعطياته ومعلوماته، فإذا كانت معلوماته دقيقة، وتشخيصه صحيحًا، تكون الخطوة التي يتخذها على أساس

التشخيص الصحيح خطوة صحيحة، مثل الطبيب الذي يستعمل أجهزة متطورة ليكتشف ما هو المرض، فعندما يكون لديه تشخيص دقيق يستطيع أن يعطي وصفة صحيحة، أما إذا لم يستطع تشخيص المرض بنحو صحيح، رجمًا بالغيب، أو على أساس الحدس، فقد يصيب وقد يخطئ، والعلاج الذي يعطيه على ضوء تشخيصه، إذا كان تشخيصًا خاطئًا، يكون علاجًا خاطئًا أيضًا، ولا يحل مشكلة المريض، بل يزيد الطين بلة، ويفتح للمريض مشكلة جديدة، نتيجة العوارض الجانبية للعلاج الذي استخدمه، والذي لم يكن علاجًا صحيحًا.

حين يُنظر إلى المتصدي والقائد والمسؤول على أنه يتمتع بالقداسة، وأنه مسدد من الله، سيغيب أي كلام عن إصلاح وتطوير ومراجعة المواقف، وطبعًا يُفترض بالمسؤول أن يلوذ بالله (سبحانه وتعالى)، ويتوكل عليه، ويطلب منه التسديد، ويأتي التسديد الإلهي كثيرًا للمتصدي المتدين الصالح، ولكن أن يطلب هو التسديد، ويتكرم الله (سبحانه وتعالى) عليه بالتسديد بالمواقف شيء، وأن ينظر الناس إليه على أنه المسدد الذي لا يخطئ، ولا يتخذ موقفًا غير سديد، ومواقفه هي الحقيقة وهي الحق دائمًا، شيء آخر؛ لأنّ هذا يغلق الباب أمام أي تقييم، وأي نقد موضوعي، وأي مراجعة ورقابة، فينغلق باب الإصلاح وتطوير العمل بشكل كامل.

هذا أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو المعصوم، وهو العالم الذي لا يشك أحد في سعة علمه حتى من لا يقبل بعصمته، والذي قال عنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[١٤٩]، أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ باب مدينة علم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ففي مجال العلم هو العالم، وفي السياسة هو المحنّك، وفي فهم الأمور هو صاحب العقل الكبير، وهذه كلها غير العصمة، ومع ذلك هو يطلب من الناس أن يراقبوا ويقيموا أداءه القياديّ، ويقدموا له النصح، وينقدوه نقدًا بنّاءً، هو يطلب منهم ذلك، ولعلنا مررنا بأكثر من نص في أبحاث سابقة عن هذا الموضوع، أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يطلب من الناس أن ينقدوه، أن يصوّبوه، أن يراقبوا أداءه، أن يقدموا له النصائح.

ورد في نهج البلاغة - وقد مرّ في أبحاث سابقة: «فلا تكفوا عن مقالة بحق»، لا تتوقفوا عن أن تقولوا ما هو حق، فعندما تروني أخرج عن الحقيقة، وأبتعد عن الحق؛

---

١٤٩. نهج البلاغة ٢: ٢٠١، الخطبة ٢١٦. بحار الأنوار ٤٠: ٢٠٠ ح١، المعجم الكبير للطبراني ١١: ٥٥.

أخبروني وبيّنوا لي، اشرحوا لي، هو يطلب منهم ذلك، «أو مشورة بعدل»، ساعدوني بإبداء مشورتكم في الأمور، «لأني لست في نفسي - أي بمعزل عن العصمة - بفوق أن أخطئ»، أنا في نفسي، علي بن أبي طالب، كشخص بمعزل عن العصمة، معرّض للخطأ، حتى لو كان عندي علم، «لأني لست في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي»، وليس هناك صك مفتوح بأن كل مواقفي ستكون صائبة، «إلاّ أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني»[١٥٠]، إلا أن يسددني الله الذي يملكني أكثر من نفسي، وهو الذي سدّده وأعطاه العصمة، فكانت مواقفه دائمًا صائبة، ولكن علي بن أبي طالب من دون العصمة والتسديد الإلهي، كشخص، كبشر، ليس فوق الخطأ، حتى لو كان خليفة المسلمين، أو وصيَّ رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وصهره، فهو معرّض للوقوع في الخطأ أيضًا لولا أن يعصمه الله (سبحانه وتعالى).

أيها المسؤول، أيها القائد، أيها المتصدي، في أي مستوى من المستويات القياديّة، لا تنظر لنفسك على أنك فوق أن تخطئ، ولا تعتقد بأن كل مواقفك صائبة ولا يمكن لأحد أن يعترض عليك، فهذا خطأ.

الإضاءة الثانية

تشخيص القائد قابل للصواب والخطأ

ما دامت القيادة ذات ماهية بشرية، إذن فتشخيص القائد البشري تشخيص بشري أيضًا، قابل للصواب والخطأ والانحراف والعياذ بالله، لذلك فتشخيص القائد والمسؤول والمتصدي خاضع للمحددات البشرية، والبشر يخطئ ويصيب، ويسير في الاتجاه الصحيح أو الخاطئ بحسب معلوماته وتقييماته وقراءته، فالقراءة الصحيحة تؤدي إلى موقف سليم، والقراءة الخاطئة تؤدي إلى موقف خاطئ، والمخرجات ترتبط دائمًا بالمدخلات؛ فإذا كانت المدخلات خاطئة فالمخرجات خاطئة أيضًا، وإذا كانت المدخلات صحيحة فالمخرجات صحيحة أيضًا، فإذا كانت معلومات القائد المتصدي شحيحة أو مغلوطة أو مبالغًا فيها، أو مكذوبة أو مفلترة، فسيصل إليه جزء من المعلومة ولا يصل الجزء الآخر، ويرى جزءًا من الحقيقة، فيكون تشخيصه تبعًا لهذه المعلومات، تشخيصا دقيقا أو تشخيصا مشوشا منقوصا مثلوما مرتبكا، إذ ينظر إلى جانب ويتغافل

---

١٥٠. نهج البلاغة ٢: ٢٠١، الخطبة ٢١٦.

عن جوانب أخرى؛ لأنه لا يدري بها، ويتخذ الموقف بحسب ما يعلم، والمخرجات محدودة دائمًا بمحددات بشرية، فقد تكون إيجابية أو سلبية، متكاملة أو مبتورة، بحسب المعلومات التي وصلت لهذا المتصدي والقائد، لا سيما مع معرفتنا أنّ القيادة ليست فيها قواعد ثابتة؛ فمثلًا يعمل شخص في مصنع يصنع شيئًا معينًا، فالماكنة واضحة، والمشكلات التي تحدث فيها معروفة، والمخرجات معروفة، فالمشكلات يمكن إحصاؤها، وعندما يأتي عامل جديد يقال له مثلًا: هذه الماكنة عندما تعمل كذا ساعة ترتفع درجة حرارتها قليلًا، وهكذا يذكرون له المشكلات الفنية في عمله؛ كذا مشكلة متصورة يتم إحصاؤها، وهي واضحة، وعندما تتوقف الماكنة يذهب العامل لفحصها ليرى أيّها سبّب المشكلة.

ولكن الواقع القياديّ ليس بهذا النحو؛ فهو قيادة لمجتمع، قيادة لجمع من الناس، وهذا المجتمع يتحرك، وتستجد لديه متطلبات مختلفة، وتحديات مختلفة، ومشكلات مختلفة، وظروف مختلفة، وهذا الجيل يختلف عن الجيل السابق، والجيل السابق يختلف عن الجيل الأسبق، وهذا الجيل سيختلف عن الجيل الذي يليه، وكل جيل له متطلبات ونظرة ورؤية، والمجتمع الإنساني في كل مرحلة له ظروفه الخاصة، فمثلًا قبل وقتنا هذا لم يكن هناك سوشيال ميديا وواتساب وتلغرام ونحوها من وسائل الاتصال الاجتماعيّ، وكان الهاتف لا يستخدمه إلا القليل، أما الآن فقد صارت الحياة من نوع آخر، فأنت جالس في بيتك مع زوجتك وأولادك، وكلٌ هاتفه بيده ويتكلم مع الآخرين، فتجلسون ساعة مع بعضكم ولا أحد يتحدث أو ينظر للآخر، وقبل فترة عندما انقطع الانترنيت في العراق صارت الناس تتهكم وتعمل لطائف، مثلًا يقول أحدهم: كبر أولادي ووجدتهم جيدين لطفاء، فقد كنت أعيش معهم ولكني لم أعرفهم، وكنا في عالم آخر، كلٌ منا عينه بهاتفه، فالمجتمعات تتغير، ومعها تستجد متطلبات مختلفة، والقيادات تتغير، ولا يستطيع أحدنا أن يقرأ مذكرات قائد ناجح من قادة المجتمع الإنساني، ويقول: قُضي الأمر، وهذه هي القواعد التي تسيّر الأمور، كلا، فالأمر الذي نجح في ذاك الوقت لا ينجح الآن مع هذا القائد الملهم، والأمر الذي ينجح الآن لا ينجح بعد عشرين سنة، نعم هناك قواعد عامة للقيادة، لكن الممارسة القياديّة، الحلول التفصيلية، المعالجات للإشكالات والتحديات اليومية متغيرة، ولا يمكن إحصاؤها كما نحصي مشكلات مصنع معين أو أي شيء آخر، لأنها مفتوحة متغيرة متجددة.

القائد الناجح والمسؤول الناجح هو الذي لديه القدرة على جمع أكبر عدد من البيانات، ويقاطعها ويستخرج نبض الشارع ومشكلات الناس الحقيقية، وماذا يريدون،

ويقدم حلولًا منطقية لتلك المشكلات، لذلك فالأمر متحرك متغير بحسب استحقاقات الواقع، ويتغير من حال إلى حال، وقد يحدث أن ما يدور في ذهن القائد المسؤول شيء، وما يدور في ذهن الناس شيء آخر، فقد حدثت الآن احتجاجات تشرين، ولو ذهبنا إلى ساحة التحرير فسنجد المحتجين يقرؤون الأمور بطريقة، بينما يقرأها المسؤول بطريقة مختلفة، مع أنها نفس القضية، ولكن كل واحد يقرأها بشكل مختلف، ما هي؟ ما هو حجمها؟ ما هو عمقها؟ ما هي مسبباتها؟ كيف يمكن السيطرة عليها؟ كيف يمكن معالجتها؟ كيف يمكن تنفيس الاحتقان؟ هذه الأسئلة في حدث اليوم موجودة في ساحة التحرير، على بعد كيلومترات قليلة منا، وكبار المسؤولين تجدهم في المنطقة الخضراء، ولا يفصل بينهما غير جسر، وهذا يفكر بطريقة وذاك يفكر بطريقة أخرى، والإجابات عن هذه الاسئلة في هذه الضفة مختلفة تمامًا عن نظيرتها في تلك الضفة، والفاصل جسر واحد، لذلك يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ».

ونلاحظ أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مع علمه الواسع وعصمته، مارس القيادة ضمن المعايير البشرية، وطبّق هذه المعايير، فعندما يريد أن ينصّب واليًا على منطقة معينة، فهو ينظر أولًا إلى المعايير المطلوبة في المسؤول ويطبّقها عليه، فإن رآها تنطبق عليه نصبه واليًا، وبعد شهرين أو ثلاثة أو ستة أشهر برح الخفاء وانكشف الغطاء، ورُفعت التقارير إلى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بفساد هذا الوالي، ونهج البلاغة مليء بخطب ورسائل وجهها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ولاته، فعزل هذا، وقرّع ذاك، وهدد هذا، وحذّر ذاك، فهل يختار إمام معصوم مفروض الطاعة، إنسانًا للمسؤولية ثم يجده غير أهل لها؟ كلا، ليست القصة قصة خطأ وصواب، بل القيادة ذات ماهية بشرية، وأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مكلف بالعمل بالظواهر؛ يعمل بالقواعد البشرية، بالمعايير البشرية، واختار أولئك الولاة على ضوء هذه المعايير، وتبيّن لاحقًا الخلل في بعض هؤلاء وعدم انطباق المعايير عليهم.

ومن هذه الشواهد: شخص عيّنه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ واليًا ثم تبين عدم أهليته، وهو المنذر بن الجارود العبدي، الذي جعله أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ واليًا على بعض مناطق فارس، والمنذر بن الجارود هو أحد أعيان قبيلة ربيعة، كريم وعزيز في قومه، من أسرة شريفة وكريمة، اسمه بشر بن عمر بن خنيس من شيوخ ربيعة، وكان ممدوحًا في الجاهلية، وفي السنة التاسعة أو العاشرة للهجرة، أتى بقومه كلهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وآمن هو وقومه وحسن إيمانه، وعندما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

أنـه عزيز قومه ، ومن أعيان قبيلة ربيعـة ، وهدى قومه معه ، كرّمه وحفظ حرمته وقدّره ، واهتم به ، واحترمه ، وبعد وفاة رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - في السـنة العاشرة للهجرة - أي في نفس السـنة التي آمن فيها هؤلاء أو في السـنة التي بعدها ، بقوا مؤمنين ، وعندما جاءت قضيـة الخـوف أو الطمع حسـن إيمانهـم ، ووُلد للمنـذر ولد في السـنة الأولى للهجرة ، وتوفي أبوه الجارود في سـنة عشـرين للهجرة ، أي بعد عشـر سـنوات من وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، وعندما كان المنذر شابًا يافعًا التحق بأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وقاتـل معـه في حرب الجمل ، وعندما رآه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ شـابًا شـجاعًا مقدامًا ، ابن ذلك الرجـل الطيـب ، الذي كرّمه رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وحفظه ، وكان سـببًا في إيمان قومه كلهم ، وجد أن معايير القيادة تنطبق على هذا الشاب ، فهو ابن أسرة كريمة ، وأبوه شـخصية قياديّة مهمة ، وقاتل هذا الشـاب معه عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وأثبت جدارة وشجاعة ، فجعله واليًا على بعض مناطق بلاد فارس ، ولكنه - مع الأسـف - عندما جلس على الكرسـي تدهورت أوضاعه مثل كثيرين ، وخان الأمانة .

ونجـد قصته فـي نهج البلاغة ، بكتاب لـه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى المنذر بن الجـارود العبدي ، يقول فيه :

«أمـا بعـد ، فإنّ صلاح أبيـك غرّني منك» ، لقد اخترتك واليًا على هذه البلاد بسـبب صـلاح أبيـك ، فقد كان أبوك رجلًا صالحًا ، وإنسـانًا شـريفًا ، وجليـلًا ، ونبيلًا ، وكان محترمًا في الجاهلية ، وقد جمع قومه وأتى بهم إلى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، فآمنوا به ، وحسن إيمانهم ، وظننت أنك شبل من ذاك الأسد .

«وظننت أنك تتبع هديه» ، ظننت أنك تسير على خطى أبيك ، وأنك على نهج والدك ، وأنك شريف ونبيل مثله .

«وتسـلك سـبيله ، فإذا أنت في ما رقي إليّ عنك» ، لكن ما وصلني من تقارير ، سياق بشـري ، فلـم يقل أعلمني الله (سـبحانه وتعالى) بعلم الغيب ، بـل وصلني تقرير عنك ، المفتش العام مثلًا أرسله لي ، أو وصل إليّ من العيون التي وضعتها عليك وعلى أمثالك من الولاة ، الذين يجوبون البلاد ويقيّمون شؤون الولاة ، إذن وصل تقرير لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فهو سياق بشري ؛ معايير الاختيار بشرية ، سياق الاختيار بشري .

« لا تدع لهواك انقيادًا» ، لا تقود هواك ، بل هواك هو الذي يقودك ؛ أسلمت أمرك إلى الهوى ، وذهبت إلى انحرافات أخلاقية ، مستغلًا موقع القيادة الذي أعطيتك إياها لتكون خادمًا للناس ، فكنت ذئبًا عليهم ، وألقيت نفسـك في مسـتنقع الفساد المالي والأخلاقي وما شابه .

«ولا تبقـي لآخرتـك عتادًا» ، لم تبقِ للآخرة شـيئا ، فكل عملـك للدنيا ، وكل همك الدنيا ؛ كيف تجمع المال ، وكيف تشفي غليل انحرافاتك ، وتركت الآخرة .

«تعمر دنياك بخراب آخرتك» ، تشتري البساتين وتبني القصور على حساب آخرتك .

«وتصل عشيرتك بقطيعة دينك» ، تعطي جماعتك وأقرباءك وحزبك ، وجمعتهم من حولك ، وأنت فرح بهم ، على حساب قيمك الدينية وأخلاقك .

«ولئـن كان مـا بلغني عنك حقًا» ، أنا الآن أدقق بالتقاريـر ، فإن كانت حقًا ، إذن هذه مقاييس ومعايير بشرية أيضًا .

«ولئن كان ما بلغني عنك حقًا ، لجمل أهلك وشسع نعلك خير منك» ، إذا كانت هذه التقارير صحيحة ، فالبعير الذي عند عشيرتك أفضل منك ، وشسع نعلك الذي في قدمك أشـرف منك ، فهذا الشسـع يقوم بوظيفته بشكل صحيح ، وتستطيع أن تمشي به وتحفظ قدمك من أشواك الأرض وحرارتها .

«ومـن كان بصفتـك فليس بأهل أن يسـد به ثغر» ، كيف أسـلمك ثغور المسـلمين ، وتكون مؤتمنًا وعلى حدودها ، وأنت لا يُشـد بك رأس ، ولا أنت على قدر المسـؤولية؟ فأنت مهتم بدنياك ، ولا تنفع لأي مهمة .

«أو ينفـذ بـه أمـر» ، جعلتك واليًا لتنفذ أوامـري وتعليماتي في خدمـة الناس ، ولكن شخصا مثلك لا تُؤدى به مهمة .

«أو يعلى له قدر» ، أردتك أن تُعلي مكانة الخلافة الإسلاميّة ، مكانة القيادة الإسلاميّة ، ولكنك أخزيتنا بهذا السلوك .

«أو يشرك في أمانة» ، جعلتك مؤتمنًا على أعراض الناس وأموالهم ، على كل شؤون الرعية في هذه البلاد ، ولكنك بهذه الأخلاق وهذا السـلوك لا تصلح لأن تكون شـريكًا في الأمانة .

«أو يؤمن على جباية» ، الناس تدفع ضرائب وزكوات ، وأنت الوالي ، بيدك بيت مال المسـلمين ، فإذا كنت بهذا الفسـاد فأنت لا تصلح لأن تكون أمينًا على بيت المال ، فلا نستطيع أن نأتمنك على جباية الأموال .

«فأقبـل إلـيّ» ، للتحقيـق والتفحص في صحة هـذه التقارير ، لئلا أصـدر حكمًا قبل الفحص ، فإن كان التقرير صحيحًا فشسـع نعلك أحسـن منك ، ولكني مع كل هذه الثقة بالتقريـر الـوارد لا أرتب أثـرًا على التقرير وحده ، ويجب أن أسـمع منك أيضًا ، وأحقق معك لكي أستطيع أن أتخذ قراري .

«فأقبل إليّ حين يصل إليك كتابي هذا إن شاء الله»[١٥١]، أقبل إليّ لكي أحقق بالموضوع وأرى إن كان هذا التقرير صادقًا، لأنفذ فيك حكم الله (سبحانه وتعالى)، وإن لم يصدق فسترجع عزيزًا كريمًا، ونعاقب من كتب هذا التقرير، هكذا كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يتعامل بأدوات بشرية.

القسم الثالث: التواصل مع الناس وخطورة الاحتجاب

(وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ، أَوْ مُبْتَلَىً بِالْمَنعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مما لاَ مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَة، أَوْ طَلَبِ إِنْصَاف فِي مُعَامَلَة).

المقطع الأخير من الحديث عن التواصل مع الناس وخطورة الاحتجاب، يشير فيه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عدم الجدوى وعدم الفائدة من الاحتجاب؛ لماذا تحتجب؟ ما هي المشكلة عندك؟ يضع أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الخيارات، ويجيب بأنه في كل الخيارات ليس الاحتجاب هو الحل، فلماذا تهرب من الناس؟ لماذا تغلق بابك؟.

(وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ): أيها المتصدي، لديك احتمالان:

(إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ): إما أن تكون إنسانا شريفا، سخيا، كريما، خدوما، جئت لتخدم الناس.

(فَفِيمَ احْتِجَابُكَ): لماذا تحتجب، وما كان تسلمك للمسؤولية إلا لخدمة الناس؟ وأنت أيضًا كريم النفس، وقد جئت لتعطي وتقدم، فلماذا تخفي نفسك؟ لماذا تغلق بابك؟ افتح بابك للناس.

(مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ): ماذا سيحدث حين تفتح بابك؟ سيأتيك صاحب الحق ويقول لك: أريد حقي، وأنت كريم وقد جئت لتخدم، وهذا لديه حق مسلوب يريد أن تعطيه إياه.

(أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ): جاءك مواطن لديه مطلب، لديه قضية، لديه حاجة، وأنت بيدك صلاحيات وتستطيع مساعدته وأن تقضي حاجته، فأين المشكلة؟ لماذا تغلق بابك؟ إذا كنت كريمًا سخيًا خدومًا تؤمن بمبدأ الخدمة، فهذا يومك، فافتح بابك ودع الناس تدخل، وأعط صاحب الحق حقه، وصاحب المشكلة حل مشكلته.

---

١٥١. نهج البلاغة ٣: كتاب ٧١.

(أَوْ مُبْتَلَـىً بِالْمَنـع) : أمـا إذا كنت بخيـلًا مبتلى بالمنع ، تبحث عـن الوضع القانوني الجامـد ، صاحب عقلية تعقّد كل شـيء ، ولا تريد أن تقضـي حاجة لأحد ، ولا تريد أن تحل مشكلة لأحد ، ولا تريد أن تخدم ، إذا كنت من هذا النوع .

(فَمَا أَسْـرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْـأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُـوا مِنْ بَذْلِكَ) : لماذا أغلقت بابك ، مع أن النـاس تأتيـك وتطلـب حوائجها؟ ولكنها منذ الأسـبوع الأول من تسـلمك لمنصب المسؤولية ، رأت أنك ضرع لا تُرتجى منه قطرة حليب ، وكل من يأتيك يخرج من عندك خالـي الوفـاض ، وكل من يأتيك تتملص منه بحيلة قانونيـة ؛ المادة رقم كذا تقول كذا ، فيشيع في الدائرة أنّ هذا المسؤول شجرة لا تثمر ، ولا يؤمل منه شيء ، ولعل كثيرا منكم رأى في دوائرنا وفي وزاراتنا من يقول له : إن هذا لا تحصل منه على شـيء ، فلا تذهب إليه ولا تتعب نفسك معه ، وابحث عن غيره .

إن كنت بخيلًا ، معقّدا للأمور ، ولا تريد أن تحل مشكلة ، ولا تريد أن تخدم الناس ، ففي فترة وجيزة سـيعرفك الناس ويصيبهم اليأس منك ، ولا أحد بعد ذلك سيدق بابك ، فلماذا تسد بابك؟ افتح الباب فلا أحد يطلب منك حاجة .

(مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مما لاَ مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ) : أكثر حاجات الناس ليس فيها أذى عليك يا مسـؤول ، فمن كان صاحب حق فأعطه حقه ، ومن كانت عنده حاجة تقـدر علـى قضائها وضمـن صلاحياتك فاقضِها لـه ، وأنجز له معاملتـه ، فهل في ذلك خسـارة لك؟ هل خسـرت شـيئًا من جيبك؟ . . لديه مشـكلة وأنت مدير وبيدك الأمر ، فإن اسـتطعت مساعدته فسـاعده ، وأنجز معاملات الناس ، فإن جاءك من يقول لك : إن عائلتي في المكان الفلاني ، ومقر عملي بعيد عن عائلتي ، وطلب نقله الى مكان إقامته ، فوافق له على طلبه وانقله ولمّ شمله مع عائلته ، واستفد منه في ذلك المكان ، لماذا تبقيه في مكان ناءٍ بعيدًا عن عائلته؟ ولا عبء في مثل هذا الطلب على المسؤول ، فمن كان له حق فأعطه حقه ، ومن كان صاحب حاجة تقدر على تلبيتها فاقضها له .

(مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَة) : عنده مظلمة يشكو منها ، فارفع الظلم عنه .

(أَوْ طَلَبِ إِنْصاف فِي مُعَامَلَة) : أو يطلب إنصافه في شيء ما فأنصفه ، وحل المشكلة ليس فيه عبء عليك يا مسؤول ، فلماذا تغلق بابك؟ .

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

السبب الأول لعدم جدوى الاحتجاب

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا جدوى من الاحتجاب ولا فائدة منه، لأنك إن كنت سخيًا، إن كنت كريمًا، إن كنت جوادًا، فالمراجعون لك على نوعين:

إما صاحب حق جاءك وعنده حق بحسب القانون، وأنت كريم وتريد أن تخدم، فماذا تنتظر؟ أعطه حقه.

والصنف الثاني ليس لديه حق ملزم، ولكن عنده مطلب، عنده قضية، عنده حاجة، وأنت رجل كريم وتستطيع أن تلبي له حاجته، فأنجزها له، لماذا تغلق بابك؟ افتح الباب ولبِّ طلبات هؤلاء الناس، حتى لو لم تكن حقًا ثابتًا لهم، ولكن هي ضمن صلاحياتك وتستطيع أن تنجزها، فأنجزها لهم، أين المشكلة؟ (وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ؟)، هذا أو ذاك، فماذا تنتظر؟ ما الذي يؤخرك؟ افتح الباب ودع الناس تدخل وحل مشكلاتهم.

الإضاءة الثانية

السبب الثاني لعدم جدوى الاحتجاب

إذا لم تكن من الكرماء ومن الخدومين، وكنت بخيلًا شحيحًا لا تريد أن تنجز معاملات الناس، ولا تملك ثقافة الخدمة، فلا جدوى من الاحتجاب أيضًا ولا فائدة فيه، فالذي ليست لديه ثقافة الخدمة ويتهرب من مطالب الناس وحاجاتهم، والذي لا يملك سعة صدر ليسمع شكاويهم، فلماذا يحتجب؟ فما دامت هذه أخلاقك فسوف ينفض عنك الناس، وستشتهر بين الناس بذلك في فترة وجيزة، وحينئذ لا أحد سيطرق بابك في شكواه، ولا أحد سيأتي ويثقل عليك في مطلب، وسوف ييأس الناس منك، إذن من الأجدر بك أن تفتح بابك، وتسمع كلام الناس، فالذي يأتيك بعد ذلك ليست لديه مشكلة يطرحها، لأنه قد يئس منك.

إنـك تفتـح بابك لمن يتحدث معك في مـا هبّ ودب ، ولكنك تغلقـه أمام أصحاب الحوائـج . لمـاذا تغلق باب الإصلاح ، وقد تقتنع بكلمـة من أحدهم وتراها صحيحة ، أو يطرح أحد المواطنين مشـكلة أو قضية عن ظاهرة ، تفيدك في نجاح مهمتك القياديّة ، وقـد تسـتطيع أن تجـدد أدواتك ، فما الضرر الذي يلحقك من الاسـتماع له؟ لن يلحقك أي ضرر .

إن كنـت لا تريـد أن يقدم أحد شـكوى إليك ، فلا أحد سيشـتكي ، وسـييأس الناس منك ، لأنك لا تريد أن تلبي مطالبهم ، فاعلم أنه لا أحد سـيطلب منك شـيئًا بعدها ، بل سـيذهب لغيرك ليطلب حاجته ، فاسـمع منهـم في الأقل ، فقد تسـتطيع أن تجدد ، وأن تصلـح ، وأن تطـور من أدائك القيـاديّ ، (أَوْ مُبْتَلَىً بِالْمَنع ، فَمَا أَسْـرَعَ كَـفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ) ، سيكفون بسرعة عن مسألتك وطلب حوائجهم منك ، إذا يئسـوا من اسـتجابتك لهم ، إذ ستكون لديهم حالة من اليأس والإحباط ، وستكون سرابًا بقيعة لا يرتوي منه الضمآن ، وعندها قضي الأمر ولا أحد سـيأتيك ويطلب منك شـيئا ، فانهض وافتح بابك واستفد .

الإضاءة الثالثة

السبب الثالث لعدم جدوى الاحتجاب

لا فائـدة ولا جـدوى من الاحتجاب ؛ لأنّ فتح الباب والتواصل مع الناس ليس فيهما مؤونة كبيرة ، أو ثقل عليك ، فلماذا تتهرب من لقاء الناس والتواصل معهم؟ فهروبك من الناس ، وغلق بابك بوجوههم ، سـوف يثير سـخطهم وامتعاضهم ، وسيثورون عليك ، يتظاهرون ضدك ، يشتمونك .

لماذا تسـد بابك؟ افتح بابك ، واسـمع منهم ، فإن كان مطلبهم حقا ، إن كانت لديهم قضيـة مشـروعة ، فلمـاذا تتأخر في تنفيذهـا؟ أعطهم حقهم وحل مشـكلاتهم ، وإن لم تكن لبعضهم مطالب مشروعة ، وكانت لديهم توقعات مستحيلة غير ممكنة ، أو عندهم مطالب تخالف القانون ، فاسمع مطالبهم ، وقل لصاحب الطلب : أرغب في مساعدتك ، ولكن القانون لا يسمح بذلك ، فأعتذر منك .

ليكـن ردك عليه ردا جميلا ؛ بالاعتذار لعدم تلبية طلبه أولًا ، وبيان أسـباب الاعتذار ثانيًا ؛ أن المادة الفلانية هكذا تقول ، القانون الفلاني هكذا يقول ، وأنا أعتذر جدًا ، أرغب في مساعدتكم ، وأنتم على رأسي وأنا في خدمتكم ، وقدّم له قدح شاي إن لم يكن شهر

رمضـان ، وحياكم الله ، وودعه إلى بـاب الغرفة ، فيخرج من عندك وهو فرح ، وأنت لم تفعل له شيئًا ، فمن أي شيء أنت خائف؟ فإن كان مطلبه حقًا فلماذا تؤخر حقه؟ وإن لم يكن مطلبه حقًا فاعتذر منه ، وكان الله مع المحسنين ، وليس في ذلك عبء عليك ، (مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مما لاَ مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَة) ، إذا كانت عنده مظلمـة فارفع مظلوميته ، وأعطه حقـه ، وليس في ذلك مؤونة عليك ، (أَوْ طَلَبِ إِنْصاف فِـي مُعَامَلَـة) ، أنصفه إن كان صاحب حق ، وإذا لم يكـن كذلك ؛ ليس محقًا ولا منصفًا في ما يريد ، فاعتذر منه بالطريقة التي مرت سابقًا .

إذن لا يوجد ما يبرر الاحتجاب في كل الأحوال ؛ فإن كنت كريمًا فلا تحتجب ، وإن كنت بخيلًا ولا تريد أن تخدم فلا تحتجب ، وسواء كان من الممكن تحقيق المطلب ، أو لم يكن ممكنًا ، فلا تحتجب في الحالين ، فالاحتجاب والابتعاد والفجوة بين المسـؤول والرعية أو الناس الذين هو مسـؤول عنهم ، خطأ فادح وكارثي ، له آثار هدامة وخطيرة ، ويجب أن نتجنبه دائمًا .

نسـأل الله (سـبحانه وتعالى) أن يجعل أبوابنا مفتوحة بوجه الناس ، وقلوبنا وأسماعنا صاغية لمشـكلاتهم ، وأن نعمل جاهدين لحل ما يمكن حله ، ولا أحد منا اليوم مقطوع من شجرة ، فنحن مجتمع عشائري ، ومن الممكن أن يوجد إنسان بسيط ولكنَّ ابن عمه مديـر عـام فـي المكان الفلانـي ، أو ابن خاله مسـؤول في الجهاز الفلانـي ، أو أخاه آمر الفـوج الفلانـي ، فـكل واحد منا اليوم بمنظومـة علاقاته ، أقاربـه ، أصدقائه ، يصل إلى بعـض الأماكـن ، فحين أرى صاحب حاجة ، أتصـل هاتفيا بابن عمي ، أو ابن خالي ، أو شيخ عشيرتي ، أو ابن منطقتي ، أو بفلان الذي كان يدرس معي في الجامعة ، فكل واحد منا يعرف مائة شـخص في مواقع المسـؤولية ، فأرفع الهاتف وأسعى في حل مشكلة هذا المواطن ، ولن أخسـر شـيئًا ، فهي مجرد مكالمة ، ولو أن كل واحد منا بحسـب مساحة تأثيرة ، يسـاعد الناس ويخفف من مشكلاتهم ، ويسـعى بقضاء حوائجهم ، فهل سيبقى هذا الاحتقان؟ هل سـتبقى الناس مسـتفزة؟ وهل ستشعر بالغبن والمظلومية؟ كلا طبعًا ، لذلك فهذه مسؤوليتنا جميعًا ، ونسأل الله أن يجعلنا على قدر المسؤولية .

التوصية الثامنة

خطورة الخواص في استغلال موقع المسؤولية

تنقسم هذه التوصية إلى قسمين :

القسم الأول: التحذير الشديد من استغلال الخواص والمقربين لموقع المسؤولية

(ثُـمَّ إِنَّ لِلْوَالِـي خَاصَّـةً وبِطَانَةً ، فِيهِمُ اسْـتِئْثَارٌ وَتَطَـاوُلٌ ، وَقِلَّةُ إِنْصَاف فِـي مُعَامَلَة ، فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الأَحْوَالِ ، وَلاَ تُقْطِعَنَّ لأَحَد مِنْ حَاشِيتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعةً ، وَلاَ يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَة ، تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاس ، فِي شِرْب أَوْ عَمَل مُشْـتَرَك ، يَحْمِلُـونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ ، فَيَكُونَ مَهْنَـأُ ذلِكَ لَهُمْ دُونَكَ ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالاْخِرَة .

وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَكُنْ فِي ذلِكَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، وَاقِعًا ذلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذلِكَ مَحْمُودَةٌ) .

عندما يشغل شخص منصب المدير ، أو المسؤول ، أو الوزير ، أو الآمر ، أو القياديّ فـي موقـع ما ، يلتف حوله أناس من أقاربـه وأصدقائه ومحبيه ، من جماعته ، من حزبه ، مـن تيـاره ، من جيرانه ، مـن زملائه ، ثم يبحثون عـن مصالحهم الخاصـة ، وليس عن نجاح المهمة القياديّة والمسـؤولية ، وهنا يحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ كثيرًا من مثل هذا الاسـتغلال للموقع ، ليس من المسـؤول نفسـه ، بل من ذويه ، من بطانته ، من خواصه ، من أقاربه ، من المحسوبيات والمنسوبيات الموجودة ، فعلى المسؤول أن لا يعطي فرصة من هذا النوع لهؤلاء ولا لغيرهم ، يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً) : المسؤول المتصدي لديه خواص ، لديه جماعته .

(وبِطَانَـةً) : البطانـة : الأهل ، وهو مشـتق من الشـيء اللصيق ، كمـا يخيطون بطانة للملابس تكون ملاصقة للجسـم ، فالبطانة هي التي تكون دائمًا ملاصقة للإنسان ، وهم

الأقرباء والأصدقاء والناس الملتصقون به، فأي والٍ، أي متصدٍ، أي مسؤول، ستكون لديه خواص وبطانة، وهم الناس الملتفون حوله.

(فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ): البعض من هؤلاء قد يريد أن يستأثر، يأخذ، يفعل ما يقدر عليه لمنفعته الشخصية، مستغلا صلته بالمسؤول؛ أنا أخو الوزير الفلاني، أنا ابن معالي الوزير الفلاني، أنا ابن عم المسؤول الفلاني، أنا من جماعة فلان، أنا من حزب فلان، من هذه الكلمات التي تسمعونها، فيستغل عنوان هذا المسؤول، ليس لخدمة المنظومة القياديّة، أو لتحقيق الأهداف، بل ليستفيد هو من هذه المسؤولية، ويحتكر، ويستأثر، ويتطاول، ويترفع، فيتهامس الناس: أن هذا الوزير قد أخذها طولًا وعرضًا، والناس ترتجف منه، وهؤلاء بطانته مثله؛ أنا حماية الوزير، أنا سكرتير الوزير، أنا ابن عم الوزير، أنا ابن عمة الوزير.. جعلناه وزيرًا ليدير الوزارة فأُبتلينا بعشيرته، وعائلته، وحزبه، وجماعته، وأصدقائه، وكل منهم جاء ليتأمر على الناس، ويقول: أنا من ذوي الوزير.

(وَتَطَاوُلٌ): تجاوز على المال العام، تجاوز على صلاحيات المنصب، تجاوز على مساحات وخصوصيات الناس.

(وَقِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ): تكبّر، عجرفة، عدم إنصاف في التعامل، إساءة. على مهلكم، ما الأمر؟ فالوزير نفسه لا يتعامل بهذا الشكل، فماذا ترى نفسك؟ وهذه التصرفات غالبًا ما تكون هي العوارض التي تواجه المسؤول، في موقع التصدي والمسؤولية، فهناك شرذمة تدور حول المسؤول، يظهرون الحرص عليه، والواقع أنهم حريصون على أنفسهم ومصالحهم وقضاياهم الخاصة.

كيف يجب أن يتعامل المسؤول مع هذه البطانة أو الخواص السيئين؟ وبالطبع ليس كل بطانة سيئة، فهناك أناس في الفريق مخلصون، منضبطون، ملتزمون، خدومون، وهذا أمر جيد؛ لأنّ المسؤول يحتاج إلى فريق يعمل به، إذ لا يمكن لأي متصد ومسؤول أن يدير مسؤوليته من دون فريق، والكلام عن البعض ممن يتقرب للمسؤول بمظهر الحرص وهو بالحقيقة انتهازي، يريد أن يصل إلى مصالحه الخاصة عن طريق هذا المسؤول، وهنا يعطي أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحل فيقول:

(فَاحْسِمْ): اقطع موارد استغلال وشرور هؤلاء البطانة.

(مَادَّةَ أُولَئِكَ): وفي بعض النسخ: (مؤونة أولئك)، عبء أولئك، احسم هذا العبء.

(بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الأَحْوَالِ): بمنعهم من استغلال اسمك، من الحديث باسمك، من الضغط على الناس، من أخذ الأموال والابتزاز، من استغلال منصبك، فتجد بعضهم

يقول للمراجع: أتريد وظيفة؟، أعطني كذا دولار، أتريد أن أنجز معاملتك، أعطني كذا دولار... عجيب! أنت أخو الوزير، ابن عمه، ابن خاله، صرتم تطلبون الأموال لكي توصلوا مطالب الناس للوزير؟ وقد بلغني أن بعضهم يطلب أموالاً طائلة لإنجاز بعض المعاملات، من غير ضمان بإنجازها، فهي مقابل أن يضع الملف أمام الوزير فقط.

(فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولَئِكَ)، عبء أولئك، مؤونة أولئك، (بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الأَحْوَالِ)، بمنع أولئك الناس من استغلال اسمك وعنوانك، وهم عنوانهم: بطانتك، تيارك، جماعتك، امنعهم بشكل بات وقف بوجوههم بقوة، واقطع أيديهم عن استغلال اسمك وعنوانك لمآربهم ومصالحهم الخاصة.

(وَلاَ تُقْطِعَنَّ): تُقطع من الإقطاع، فهؤلاء الذين يقتطع لهم السلطان أو الحاكم أرضًا زراعية واسعة ويملّكها لهم يسمونهم بالإقطاعيين.

(لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيتِكَ وَحَامَّتِكَ): الحميم: يعني القريب، من أقربائك، من حزبك، من جماعتك.. لا تهب الإقطاعيات لأحد من حاشيتك وحامتك، لا توزّع أراضي بين هؤلاء، فالحاكم آنذاك ليس لديه من الموارد غير الأراضي والخراج، ولم يكن لديه نفط وأمثاله من المعادن، وكان من المتعارف أن يهب الولاة هذه الأراضي لحواشيهم وأقربائهم، ويوزعوا الأراضي الزراعية إقطاعيات بين ذويهم وخاصتهم، فيقول له أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا تفعل هذا الشيء.

(وَلاَ يَطْمَعَنَّ مِنْكَ): لا يطمع هؤلاء الذين حولك من حاشيتك وأقربائك وأصحابك.

(فِي اعْتِقَادِ عُقْدَةٍ): في امتلاك عقدة، يعني ضيعة، يطمع هؤلاء أن تملكهم أراضي زراعية.

(تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ): عندما تريد أن تهب الأراضي الزراعية لهؤلاء، فإنهم يريدونها قريبة من الماء، وفي موقع جيد، فهم لا يكتفون بأخذ هذه الأراضي بغير وجه حق، بل يختارون الأراضي الأحسن وإن أضرت بالأراضي المجاورة، فهم يريدونها قريبة من مجرى المياه، ليكونوا أول من يسقي بما يكفي هذه الأراضي الواسعة، ثم يُرسل الفائض إلى أراضي الناس، أو يضرون بمصالح الناس، عندما يريد أحدهم أن يدخل بدابته أو سيارته إلى أرضه فيجتاز مزارع الناس ويخرب زروعهم وسائر مصالحهم، فإياك أيها الحاكم أن تعطي أرضا تضر بمصالح أصحاب الأراضي المجاورة.

(فِي شِرْبٍ): بالري والسقاية، يجب أن تكون هناك عدالة في توزيع المياه بين أرض وأخرى، لا أن تقدّم أراضي جماعة السلطان، وأراضي أصحاب المحافظ والوزير والمسؤول الفلاني، على غيرها من أراضي الناس، في الري والسقاية.

(أَوْ عَمَل مُشْتَرَك) : أو يضر بالأعمال الزراعية المشتركة بين هذه الإقطاعيات وسائر الأراضي الزراعية للناس ، كما لو جاءت ماكنة الحرث لحرث الأرض ، فيجب أن تكون هناك فرص متكافئة بين الجميع ، فلا يميز قطعة أرض على أخرى ، بذريعة أن هذه الأراضي هي إقطاعيات المقربين والبطانة ، فلهم كل الخدمات ، وبقية الناس لهم الله ، فإذا بقي وقت أنجز لهم أعمالهم ، وإلاّ فهم يعرفون تكليفهم ، وكذلك في سائر الخدمات الأخرى ، كالبذور والأسمدة ومكافحة الأوبئة وفي كل شيء ، يجب أن تكون هناك فرص متكافئة ، بين هؤلاء المقربين من المسؤول وعموم الناس .

(يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ) : هناك ضرائب ، هناك أجر لفلاحي الأراضي الزراعية ، هناك أجر للعمال الذين يقومون بتلقيح الأشجار والنخيل ، وعندما يطلب الفلاح أجره يقول له : اذهب وخذ أجرك من الآخرين أصحاب المزارع والبساتين الأخرى ، والذي لا يعطي سأقطع عنه الماء ، فيحمّل أعباءه على الآخرين ، من الضرائب والالتزامات والأسمدة وسائر الأمور الأخرى ، كالنفقات المطلوبة للجهد الزراعي ، أو يفرض على كل واحد منهم أن يرسل له فلاحًا ، ومن لا يفعل يقطع عنه الماء ، فيضطر الناس إلى إرسال فلاحين يعملون بالمجان ، ويسخرهم بهذه الطريقة ، مستغلًا عنوان المسؤولية لأعمال السخرة هذه ، فيعمل له الناس بالمجان ، وهذا لا يجوز .

(فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذلِكَ لَهُمْ دُونَكَ) : يقول أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لمالك : إن المنفعة الهنيئة ستكون لهم ، دون الوزير الذي يعمل باليوم سبع عشرة ساعة أو ثماني عشرة ساعة ، ويلاحقه السب والشتم ، وابن عم المسؤول ، ابن أخي المسؤول ، ابن المسؤول ، لا يعلم ما يجري في الدنيا ، ومشغول بمزرعته وأمواله وإمكاناته ووضعه ، فالراحة والفائدة والمنفعة تصير لهذه البطانة ، للخواص ، دون الحاكم الذي لا يصل له شيء .

(وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ) : ولكن كلام الناس هو ضدك أيها الحاكم ، لا ضد هذه البطانة ، إذ يقولون : انظروا إلى هذا الحاكم الظالم كيف مكّن حاشيته وأقرباءه من أموال المسلمين وأراضيهم وأملاكهم ، ويكيلون له ، لا لهم ، السب والشتم وما قبح من الكلام ، ولا أحد يتكلم ضد البطانة ، بل كل الكلام ضد المسؤول ، فالتبعات عليك أيها الحاكم .

(فِي الدُّنْيَا) : من سب وشتم وهتك وانزعاج واحتجاجات وتظاهرات إلى آخره .

(وَالآخِرَةِ) : يحاسبك الله عز وجل على هذا العمل يوم القيامة ، فالحساب عليك والفائدة والمنفعة لغيرك ، لأولئك البطانة ، فلماذا تضيع دنياك وآخرتك؟ ، لا تبع آخرتك بدنيا غيرك ، من أقاربك وأصدقائك وحاشيتك ، لا تسمح لهم باستغلالك ، واقطع

أطماعهـم ، اتخذ موقفًا حاسـمًا ، هذه هـي التوصية التي يقدمهـا أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للمسؤول المبتلى بالأقارب والأصدقاء .

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

التحذير من المتملقين والانتهازيين

إنّ أي مسـؤول ، أي متصدٍ ، سـيحاط بشـكل طبيعي بعدد من أقربائـه وذويه ، ومن أصدقائه الذين يثق بهم ، ومن حزبه وجماعته ، وسـيكونون بطانة له ، وسيلتفون حوله ، فأينما وجدت السلطة ، والنفوذ ، والقوة ، والإمكانات ، تجد الانتهازيين والمصلحيين ، فتراهم يتملقون للمسـؤول بالكلام المعسـول ، وهم بالأمس قبل أن يصبح مسـؤولًا لا يشـترونه بفلسـين ، ولسـان حاله يقول لهم : كنتم بالأمس لا تكادون تردون سـلامي ، واليوم تحترق قلوبكم حرصًا عليّ ؟ كلا ، هذا التملق ليس لي وإنما هو للموقع ، تريدون الاستفادة من منصبي .

بمجرد أن يتسـلم شـخص المسـؤولية ترى هؤلاء ينهالون عليه ؛ فهذا يقول له : ألا تتذكرني ؟ لقد كنّا في صف واحد في المدرسة الابتدائية ، لقد كنت عبقري زمانك ، وأنا منذ ذلك الوقت أحبك جدًا ، فأين كنت كل هذه السنين لم نرك ؟ . الآن تذكر بعد مرور كل هذه السنين أنه كان معه في المدرسة الابتدائية ! .

يظهـر هؤلاء الانتهازيون والمصلحيون ويحيطون بالمسـؤول ، حبًّا بالقوة والسـلطة والمـال والإمكانـات ، فهؤلاء لديهم خططهـم للوصول إلى مآربهـم ؛ يطلبون العافية ، ويريـدون اسـتغلال الموقع ، فيضـع أحدهم خطة كاملة خلال أربع سـنين ، وهي الفترة التي سيشغل فيها صاحبه الوزارة ؛ كيف يحصل منه على كذا مليار مثلًا ؟ .

يقفـون أمامـه وديعين مطيعين ؛ نعم سـيدي ، نعم معاليك ، وأمثـال هذه من كلمات الخضـوع والتذلـل ، وهم يريدون مصالحهم ، وهنا يقـول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمالك ومـن ورائـه كل حاكـم : إذا لم تكبح جمـاح هؤلاء ، إذا لم تلطمهم علـى أفواههم ، إذا لـم تبعدهم عنك ، فإن هؤلاء الانتهازييـن يذهبون بمنظومتك القياديّة إلى المهلكة ، إلى الانهيار ، إلى السـقوط ، إلى الفشـل ، ولن يدعوك تنجح ، وأينما وجد الماء نبت الدغل بين الزرع ، مع أن هذا الماء للزرع لا للدغل ، ولكن الدغل يعتاش دائمًا على ماء الزرع ،

وتـراه ينمو أسـرع من الزرع نفسـه، ويأخذ الكميـة الأكبر من المـاء، وهؤلاء الخواص مثـل الدغل للمسـؤول؛ فأينما وجدت المسـؤولية وجدتهم يظهـرون، وإن لم يبعدهم المسؤول ويقتلعهم ويحسم أمره معهم، فإنهم سيفشلونه ويضيّعون له دنياه وآخرته، إذ سـتثور الناس في الدنيا بوجهه، وتعترض عليه وتسـبه وتهتكه؛ أن الوزير الفلاني مكّن أخـاه مـن الوزارة، ويضيع الآخرة على نفسـه أيضًـا، فيكون قد خسـر الدنيا والآخرة، وتتفشـى ظواهر الفسـاد والرشـى، فإذا كان أخو الوزير يأخذ الرشى، فهل سيتوقف من في الوزارة عن أخذها؟ والناس على دين ملوكهم، وسيأخذ كل من في الوزارة الرشى، وعندما يرى المواطن جميع الدوائر والوزارات أو كثيرا منها تأخذ الرشى سوف يستسلم ويدفع، وعندما يدفع وهو صاحب وظيفة سيقول: سآخذ رشوة كما أخذوا منّي، ومثلما دفعت سآخذ، لأعوض ما خسرت، وهكذا يتلوث المجتمع، فهؤلاء الخواص من أجل انتهازيتهم ومصالحهم يحولون الفساد إلى ظاهرة، فترى الفساد متفشيًا في المؤسسات، وفي المجتمع، وفي كل مكان، وكلها تأخذ عناوين جديدة، فيسـميها بعضهم شطارة، ويسـميها بعضهـم خبرة، ويسـميها آخرون حنكة، فتتلبس بلبـاس لطيف، مع أنها كلها سـرقات، ولا أحـد يتحرك له جفن، لذلك يقول أمير المؤمنيـن عَلَيْهِ السَّلَامُ: (ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّـةً وبِطَانَةً)، أينما وجد مسـؤول فسـتكون له خاصة وبطانة؛ أنـاس يلتفون حوله، بعضهم جيدون مخلصون، وبعضهم نعوذ بالله خونة سيئون.

المسـؤول الناجـح، القياديّ الناجح، هـو الذي يدقق دائمًا في أحـوال الناس الذين يحيطون به؛ من هو الذي أثرى على حساب المال العام؟، من هو الذي تغيرت أحواله؟، من هو الذي يصل إليه كلام عنه؟، فيضربهم ضربة قاصمة، ومن هو المخلص الشريف النزيه ليبقيه قريبا منه؟.

سـيكون لـدى جميـع هـؤلاء الأقربـاء والأصدقـاء والأتبـاع والمحبيـن والمقربين والحمايات وأعضاء حزبه وجماعته وتياره، توقعات بعضها غير مشروع؛ إذ سيقولون: إن الوزير منّا، فليعمل لنا ويعطِنا، ماذا يعطيك؟ هل المال مال أبيه فيعطيك؟ هذه أموال الناس فكيف يعطيك منها؟ ويرون أن كون الوزير منهم يعني أن التعيينات يجب أن تكون كلهـا لهـم، متناسـين أن هذه الوزارة لكل الشـعب العراقي وليسـت لطائفـة أو عرق أو حزب، ولكننا نرى أن الوزير إذا كان من لون معين، من جهة معينة، يحوز كل الامتيازات لجماعته وحزبه وتياره، ويبقى الآخرون ينظرون بحسـرة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، وكل هذا لا يجوز، ولا يصح، وتتمثل هذه الطموحات غير المشروعة في ثلاثة أمور، كما يذكرها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

الأمر الأول: (فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ)، هؤلاء المستغلون الانتهازيون يستأثرون ويحتكرون، فالتعيين كله بأيديهم، والعقود كلها لا تتم إلا من خلال إمضائهم، ويستغلون ويستنزفون أصحاب المصالح قبل أن يعطوهم أي مشروع.

الأمر الثاني: (وَتَطَاوُلٌ)، هذه البطانة الخائنة تتطاول على حقوق الناس، ونجد بعض الناس الذين لديهم إمكانات ومليارات ومناصب، ومع ذلك يلاحقون المواطن على مرآب للسيارات مثلًا، وينافسونه على أتفه الأمور، فتجده يدس أنفه في كل شيء، ويتطاول على حقوق الآخرين بوقاحة، ولا يقف عند حد، فهؤلاء يريدون كل شيء لهم، مع علمهم أنّ هذه حقوق الناس.

الأمر الثالث: (وَقِلَّةُ إِنْصَاف فِي مُعَامَلَة)، معاملة خشنة، سيئة، مزعجة، ليست فيها قيم، ليست فيها أخلاق، ليس فيها إنصاف، كلها محاباة ومحسوبيات ومنسوبيات، ومن ليس لديه ظهر له الله، وكفى به ظهيرًا.

تأملوا ما جاء في الخطبة الثالثة في نهج البلاغة، المسمّاة بالخطبة الشقشقية، وهي خطبة عجيبة إذا سنحت لكم فرصة فاقرؤوها وتدبروا في مضامينها، وهي خطبة طويلة، ولكن نأخذ منها المقطع الذي هو موضع الشاهد، يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إلى أن قام ثالث القوم»، في إشارة إلى الخليفة الثالث، عندما تولى الخلافة.

«وقام معه بنو أبيه»، أقاربه وعشيرته قاموا معه في أمر الخلافة، والتفوا حوله، فماذا فعلوا؟.

«يخضمون مال الله»، الخضم يعني اللهم، من (لهم- يلهم) إذا تناول الطعام بشراهة، فهناك من الناس من يأكل على مهل، وهناك من يسرع ويلتهم الطعام التهامًا، مثل أكل من اشتد به الجوع، وهو تشبيه رائع لحالة بطانة الخليفة الثالث من بني أمية في سرقة بيت مال المسلمين والاستحواذ عليه، فيعبّر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن اندفاع خواص الخليفة الثالث من أقربائه وخواصه الذين (خضموا) مال الله، الذي هو بيت مال المسلمين، فذروه قاعًا صفصفًا.

«يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع»[١٥٢]، انظروا إلى هذا التمثيل الجميل والدقيق، فعندما تصل الإبل إلى نبتة الربيع، وهي حيوانات تعيش في الصحراء، وكل النباتات التي تقتات عليها يابسة، ونبتة الربيع طرية، فعندما يأتي فصل الربيع تجد الجمل يلتهم هذه النبتة التهامًا، فيشبّه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حال أقرباء الخليفة الثالث في نهش

١٥٢. نهج البلاغة ١: ٣٥ الخطبة الثالثة.

المـال العـام، بهذه الإبل وهـي تلتهم نبتة الربيـع الطرية اللطيفة، وتقضمهـا قضمًا، إذ تسـتحوذ على هؤلاء - نسـتجير بالله من ذلك - حالة حرص، جشـع، فلا يشبع أحدهم ولا يمل؛ فحين يسـرق مليونا يريد عشـرة ملايين، وحين يسرق مائة مليون يريد مليارا، وحين يسـرق مليارا يريد عشـرة مليارات، فلا ينتهي نهمه إلى حد، هكذا يتعامل، وكل المنظومة كذلك.

يريـد أميـر المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يقول هنـا إن كل منظومة إداريّـة، قياديّة، حكومية، أو غيرهـا، فيهـا عدد من الأشـخاص يلتفون حول المسـؤول، وكل همهم ما يمكن أن يحصلوا عليه، وطبعًا لا نعمم، فهناك أناس مخلصون، يقفون ويخدمون، ولكن هناك الدغـل أيضًـا، فمن هؤلاء الناس انتهازيون ومصلحيـون، وفي أي منظومة قياديّة عليك أيها المسـؤول أن تقيّم الناس الذين حولك، وتراقبهم، وتتأكد من سـلوكهم، وأيّ من هـؤلاء تـراه من هذا الدغل، انتهازيًا، فلا تتأسـف عليه، ألقه جانبًـا وتخلص منه، غير مأسـوف عليه، فإنه إن بقي فلن يُبقي لك باقية، وسـيضيع عليـك دنياك وآخرتك، ولن ينفعـك في شـيء، وما لم تعالج هذه الظاهرة، وما لـم تقطع يد هؤلاء الانتهازيين الذين يحيطون بك، فالمنظومة القياديّة آيلة إلى الخواء، إلى الانهيار، إلى التفكك، إلى فشل لا نجاح بعده، وسوف تتسع الفجوة يومًا بعد يوم بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم؛ الحاكم مع الشـعب، والمنظومات الأخرى بحسـبها، إذ تستشـري حالة من السـخط، فالناس لا يقبلون محاباة البعض على حسـابهم، لذلك يدعو أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى محاربة هذه الحالة بشدة.

الإضاءة الثانية

القضاء على ظواهر انتهازية واستغلال البطانة

لا بد من القضاء على ظواهر انتهازية واسـتغلال البطانة، وعلى المسـؤول أن يضرب هؤلاء ويقضي عليهم، ويقمع هذه الظواهر، ويغلق كل المنافذ التي تساعد البطانة على الاسـتغلال، ولا يسمح لهذه البطانة بأي شـكل من الأشكال، بأن يفضلوا أنفسهم على غيرهم في المنظومة القياديّة، ويجب أن يكون حالهم كحال غيرهم، في امتيازاتهم وفي أي شـيء آخـر، فحتى لو كانوا قريبين من المسـؤول فيجب أن يكـون التعامل بعيدًا عن التمييـز والمحاباة، فإن حصل تمييز ومحاباة فسـوف يعمل النـاس لتحقيق مصالحهم، ويذهبـون للتمتـرس وراء المسـؤول، وحينئذ تتشـكل محاور متعددة ضمـن المنظومة

القياديّـة ، مـع أنهم جميعًـا جماعة تيار واحـد ، أو منظومة واحدة ، أو مشـروع واحد ، فتفرقـوا جماعـات ، ومن هنـا تبدأ المصيبة ؛ عندما يميّز طرف نفسـه على غيره ، فتكون كلمته هي النافذة ، ويكون الناس أمام خيار لا بديل له ، هو تقييم المسـؤول الفلاني له ، فـإن قـال إنه جيد يصعد ، وإن قال إنه سـيئ ينزل ، وحينئذ يذهـب الجميع للتفاهم معه ، لكي يقول عنهم إنهم جيدون ليصعدوا ، وهناك مسـؤول ثان ، ومسؤول ثالث ، فتتشكل المحاور ، والاستقطابات ، والمحسوبيات ، وتتدخل العلاقات الشخصية ؛ فإن كان هذا معـي فهـو جيد جـدًا وأرفع درجته حتى لـو كان أقل كفاءة ، وذاك الآخـر الذي ليس من جماعتي أكسره حتى لو كان كفوءًا جدًا .

إذن معاييـر الكفـاءة ، والنزاهة ، والقدرة القياديّة ، لم تعد هي التي تتحكم باختيارات المواقع ، وإنما تذهب الأمور إلى اتجاهات أخرى للأسـف الشـديد ، فيعم التطاول على المال العام ، وتقل النزاهة ، ويبتعد الإنصاف ؛ فإن كنت من جماعتي فليس هناك من هو أحسـن منك ، وإن كانت أسـوأ بشر على الأرض ، أما إذا لم تكن من جماعتي فليس لك شيء عندي ولو كنت نبيًا .

وهـذه كلهـا لا تنتهي ، وتؤدي إلى مضاعفات حساسـة وخطيـرة ؛ فلا يوجد إنصاف فـي التعيينات ؛ فـإن كان هذا الوزير من الجماعة الفلانيـة فالتعيينات كلها لجماعته ، أما الآخرون فليس لهم شـيء حتى لو كانوا أكفأ ، وليس هناك إنصاف في الامتيازات ، فهي كلهـا لجماعتـه وإن لم يكونوا يعملون ، والآخر حتى لـو كان يعمل فليس له امتيازات ، وهكذا تستمر هذه كلها بالاتساع .

(فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الأَحْوَالِ) ، يجب القضاء على هذه الظواهر ، وقطع اليد التي تستغل اسم المسؤول ، وتسيء إلى المنظومة القياديّة والقيم ، ويذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أمرين للقضاء على ظاهرة استغلال البطانة للحاكم :

الأمـر الأول : توضيـح الصـورة للجميـع ؛ قل لجميع مـن لهم صلة بـك ، كأبنائك وإخوانـك وأبنـاء عمومتك وأعضاء حزبك : لا يوجـد فضل لأحد على آخر إلاّ بالحق ، وأي شخص يعمل بنحو جيد فهو الأقرب لي ، وأخدمكم لشعبه هو الأقرب لي ، ولا أفرق بين أخي وابني وابن عمي وغيرهم ، ولا يخدعنكم من يقول لكم غير هذا ، فالأقرب لي هو الذي يعمل .

اشـرح لهـؤلاء المقربين إلـى أن يتضح لهم أنّك لا تحابي أحدًا على حسـاب الحق ، وعندما يرى الآخرون أنك لا تفرق بين شـخص وآخر ، يدب عندهم النشـاط والحيوية ، وتتولـد لديهم الرغبة في أن يخدموا ويقدموا ، وعندما تتضح الصورة للجميع ، لبطانتك

وللآخريـن ، أنـك لا تفرق بينهم ، وأن المعيار لديك هو الإخلاص في العمل ، وليسـت لديك قرابة مع أحد ، فهذا يساعدك كثيرًا على كسر اندفاع البطانة والمقربين في استغلال منصبك ، وحينئذ سـوف لا يتجرأ الآخرون من غير هؤلاء على اسـتغلالك ، بل سيقفون كمراقبيـن ومحاسـبين لكل من يحـاول من البطانة والأقرباء اسـتغلال المنصب ، وطبعًا ينبغـي أن يترجـم ذلك أيضًا على صعيد الواقع ، وأن لا يقتصر الحاكم والمسـؤول على مجرد الكلام ، بل يجب أن يؤكد عمله هذا المعنى ، وأن لا يكون كلامه لمجرد ذر الرماد في العيون ، وسـلوكه يحكي شـيئًا آخر ، فإن كان الأمر كذلك فهو لم يفعل شـيئًا ، أما إذا كان المسؤول جادا في ذلك واقعًا ، ولا يفرق بين أحد وآخر إلا بحجم الكفاءة والإنجاز والعمل وما شابه ذلك ، فحينئذ يكون قد حقق النجاح .

الأمر الثاني : التعامل الحاسـم والحازم ، فيقطع دابر هؤلاء بلا رأفة ولا شـفقة ، فكل من يريد اسـتغلال اسـمه ، ومن يريد الإساءة للمنظومة القياديّة ، ومن يريد أن يجمع ثروة علـى حسـاب المصلحة العامة والعنوان العام . . إلى آخـره ، فالرأفة حرام بحق هؤلاء ، فاضربهم واقطع دابرهم ، وإلى جهنم وبئس المصير ، ودعهم عبرة لمن اعتبر ، فالبطانة التـي تسـيء اسـتغلال العنوان يجـب أن تُقمع وتضرب بقـوة ، وكل هـؤلاء الانتهازيين والاسـتغلاليين إذا شُـخصوا بلا إجحاف ولا ظلم أنهم كذلـك ، فاضربهم بقوة ، وتأكد من أن كل شـيء يسـير باتجاهه الصحيح وليس العكس ، وسـتلتف الناس حولك أكثر ، أما إذا كنت تستحي من هذا ، وتخشى أن يغضب ذاك ، وتخاف من ذاك أن يجيش الناس عليك ويفعل كذا وكذا ، فاعلم أنه سيُقضى عليك وعلى من حولك من هؤلاء الانتهازيين بالضربة القاضية ، ولكن عندما تضرب هؤلاء وتقمعهم وتقتلعهم من جذورهم ، هم ومن جاؤوا به من الانتهازيين ، فسـيكتب لك النجاح ، وستفسـح المجال واسعًا أمام العاملين المخلصين للولوج إلى ساحة العمل النظيف والنزيه والكفوء .

تأملوا ما ورد في كتاب بحار الأنوار ؛ في إشارة إلى الأمر الأول المتقدم ، وهو وجوب توضيـح الأمـور إلى الجميع ، هـذا الحل الأول والخطـوة الأولى لعلاج هـذه الحالة : عـن أبي عبيدة قال : سـمعت أبا عبـد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ ، يقول : «لما فتح رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مكـة» ، إذ كان قبلهـا في ضيق وحروب وغزوات ، وقـد هاجر قهرًا من مسقط رأسه وموطنه مكة إلى يثرب مع جمع كبير من أصحابه ، ويوم دخل مكة منتصرًا ، ورجع لوطنه بذلك الفتح المبين : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ

اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[153]، وطفقت الناس تدخل في الإسلام أفواجًا، وبسط الإسلام نفوذه على سائر الجزيرة العربية بفتح مكة، ووقف أبو سفيان قائد فيلق الشرك والضلال ذليلًا وهو يخضع للإسلام، وقُلّد مع مشركي مكة لقب الطلقاء، ليبقى ذلك وصمة عار في جبينهم إلى يوم يبعثون، ووقف لائذًا بالعباس بن عبد المطلب قائلًا: «يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا، فقال له العباس: ليس بملك ولكنها النبوة»[154]، هكذا كان ينظر إليه أبو سفيان ومشركو مكة، وجيء بهم أسارى إلى رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وقد أشار إلى أنهم كانوا أسرى في يد رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الكليني في الكافي في رواية عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وأنّ مكة دخلها رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عنوة، فكانوا أُسراء في يده فأعتقهم، وقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»[155]. وأشار إلى هذه الحقيقة أيضًا المناوي، قال: «وكان رحيمًا حتى بأعدائه، لما دخل يوم الفتح مكة على قريش، وقد أُجلسوا بالمسجد الحرام، وصحبه ينتظرون أمره فيهم؛ من قتل أو غيره، قال: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: اذهبوا فأنتم الطلقاء»[156]. وقال من خطبته صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عند فتح مكة وقد جيء بصناديد قريش أسرى: «ألا بئس جيران النبي كنتم، لقد كذبتم وطردتم وأخرجتم وفللتم، ثم ما رضيتم حتى جئتموني في بلادي تقاتلونني، فاذهبوا فأنتم الطلقاء»[157].

نرجع إلى رواية بحار الأنوار: «لما فتح رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مكة قام على الصفا»، وهو جبل مجاور لبيت الله الحرام، ومنه ينطلق الحاج للسعي بين الصفا والمروة، صعد على جبل الصفا، وقد اجتمع أهل مكة، «فقال: يا بني هاشم»، وهم عشيرته صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، «يا بني عبد المطلب»، وهم أبناء عمومته صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وأهل مكة كلهم يسمعون، ويتساءلون: لماذا خص عشيرته وبني عمومته دوننا؟ تُرى ماذا يريد أن يقول لهم ليكون الناس شهودًا على قوله؟.

«إني رسول الله إليكم»، أنا الآن لست ابن عشيرتكم وابن عمكم، ولكني رسول الله إليكم، فقد جئتكم بعنوان المسؤول والمتصدي والقائد، «وإني شفيق عليكم»،

---

١٥٣. سورة النصر: الآية ١ – ٢.

١٥٤. مجمع الزوائد ٦: ١٦٤.

١٥٥. الكافي ٣: ٥١٣ ح٢.

١٥٦. فيض القدير في شرح الجامع الصغير ٥: ٢١٨ ح٦٨٣٧.

١٥٧. مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ١٨٠:١.

والـكلام الـذي أُريد أن أتكلم به أقولـه حرصًا عليكم وحبًا لكـم ، «لا تقولوا إن محمدًا منا» ، من اليوم لا أريد أن أسـمع أحدًا يقول : إن محمدًا منا بني هاشـم ، وإنه منا بني عبد المطلـب ، «فـوالله ما أوليائي منكـم ولا من غيركم ، إلاّ المتقون» ، من اليوم ليسـت لي قرابـة مـع أحد إلاّ بالتقـوى ؛ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُـمْ﴾[١٥٨] ، فلا يحق للحاكم أن يقول بعد هذا الكلام : هذا من عشيرتي أو من جماعتي أو من حزبي ، فهناك شيء واحد هو التقوى ، فالأتقى هو الأقرب ؛ أنت أخي أو ابن عمي ولكنك لست متقيًا ، وذاك ليس من قرابتي ولكنه من أهل التقوى ، فهو الأقرب لي .

احذروا أن تقولوا محمد منا ، فقد جئتكم نبيًا ، ولم آتكم شيخ عشيرة ، وموقعي القياديّ يقول بأنني متساوٍ مع الجميع ، ولا يتقدم أحد على أحد إلاّ بالموازين الموضوعية ؛ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ، التقوى ، ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾[١٥٩] ، إذن المؤمـن أقـرب لي ، ﴿وَفَضَّـلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَـى الْقَاعِدِينَ أَجْـرًا عَظِيمًا﴾[١٦٠] ، المجاهد أقرب لي لأنّ الله (سـبحانه وتعالى) قد فضله ، ﴿قُلْ هَلْ يَسْـتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٦١] ، الأعلم منكم هو الأقرب لي ، سـواء كان من عشـيرتي أو من غيرهـا ، فالموازين هـي : التقوى ، والإيمان ، والجهاد ، والعلم ، فالأكثر تقوى ، الأكثر إيمانًـا ، الأكثـر جهادًا ، الأكثر علمًـا ، هو الأقرب لي ، ولا أُميّز أحـدًا إلا بما ميّزه به الله (سبحانه وتعالى) .

«فـلا أعرفكم تأتوني يوم القيامـة تحملون الدنيا على رقابكم ، ويأتي الناس يحملون الآخرة» ، لا يأتِني أحد من بني هاشم يوم القيامة يحمل الدنيا ؛ أي غير ملتزم ، بينما يأتي آخـر مـن غير بني هاشـم وهو يحمل الآخـرة ؛ أي كان يعمل للآخرة ، وسـأقف مع ذاك الغريب ، ولا أقف مع ذاك الذي من بني هاشم ، فليست لديّ قرابة مع هؤلاء الأشخاص ، ولكن قرابتي مع الذي يلتزم ويعمل بالقيم بشكل أفضل .

« ألا وإني قد أعذرت في ما بيني وبينكم» ، هذا خطاب عام أمام أهل مكة كلهم ، أبيّن عـذري أمام الله بيني وبينكم ، هذا هـو المعيار الفاصل ؛ فالمتقي منكم قريب لي ، وغير المتقـي ليـس كذلك ، وإن كان ابني أو ابن عمي ، فأنـا لا ألتفت لهذه المعايير ، «وفي ما

١٥٨ . سورة الحجرات : الآية ١٣ .

١٥٩ . سورة السجدة : الآية ١٨ .

١٦٠ . سورة النساء : الآية٩٥ .

١٦١ . سورة الزمر : الآية ٩ .

بيني وبين الله عز وجل، فإنّ لي عملي ولكم عملكم»[١٦٢]، لا يقُل لي أحد إنه من بني هاشم، بل الحساب على العمل، على الالتزام، على المبادئ، وليس على شيء آخر؛ فإن كان لديك عمل صالح فأهلًا بك، وإن لم يكن عندك عمل صالح فلا أعرفك ولا تعرفني؛ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[١٦٣]، عملي لي وعملكم لكم، وكل شخص (ينام بقبره)، كما في التعبير الدارج.

ووردت في كتاب الكافي الشريف، رواية تخص قوله تعالى في سورة التوبة، بشأن موارد صرف الزكوات: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١٦٤].

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾، لعله في كل موضع ورد فيه ذكر الصدقات في القرآن يقصد منها الزكاة، وحيثما تذكر الزكاة يقصد منها الصدقة بالمعنى الذي نقوله نحن، إذن كانت الزكاة تطلق عليها في القرآن تسمية الصدقة؛ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ)، يعني الزكاة، وهي تُعطى للفئات التالية:

﴿لِلْفُقَرَاء﴾، الفقير: الذي لا يملك قوت سنته، يعطى من مال الزكاة.

(وَالْمَسَاكِينِ﴾، المسكين: أسوأ حالًا من الفقير؛ وهو الذي لا يستطيع أن يعمل، فالمسكين مغلوب على أمره.

﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾، وهم الموظفون الذين يعملون في جمع الزكوات، جهاز جمع الزكوات، تدفع رواتبهم من الزكاة نفسها.

﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، وهم الناس الذين لديهم موقف تجاه الإسلام؛ لذلك يعطون بعض المال لتقريبهم من الإسلام، وهذه لا تسمى رشوة، بل تسمى استمالة، تأليف القلوب، وهذا منهج إسلاميّ؛ زكاة تُدفع للمؤلفة قلوبهم، وقد روي عن الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ قال: «أتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أعرابي فقال له: ألست خيرنا أبًا وأمًا، وأكرمنا عقبًا ورئيسنا في الجاهلية والإسلام؟ فغضب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقال: يا أعرابي، كم دون لسانك من حجاب؟ قال: اثنان: شفتان وأسنان، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: أما كان في أحد هذين ما يردّ عنا غرب لسانك هذا؟ أما إنه لم يعط أحد في دنياه شيئًا هو أضر له

---

١٦٢. بحار الأنوار ٢١: ١١١ ح٢.

١٦٣. سورة الكافرون: الآية ٦.

١٦٤. سورة الكافرون: الآية ٦٠.

في آخرته من طلق لسـانه ، يا علي قم فاقطع لسـانه ، فظن الناس أنه يقطع لسانه ، فأعطاه دراهم»[١٦٥] ، فقطع اللسان هنا هو كناية عن إعطاء المال ليكف عن التعرض لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، وهذا نوع من تأليف القلوب .

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ ، هم العبيد تُدفع الزكاة لعتقهم من الرق وفك رقابهم من العبودية .

﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ ، هم المدينون تسدد ديونهم من مال الزكاة إذا لم يقدروا على سدادها .

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ، هـي الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالـى ، وينتصر فيها لدين الله ؛ من تبليغ ، إرشـاد دينـي ، توعية دينية ، ربط الناس بالدين والقيم ، هذه النشـاطات تحتاج إلى الأموال ، ومن الممكن أن تمول من الزكاة من سهم سبيل الله .

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ ، وهـو المنقطع فـي مدينة أخرى غيـر مدينته ، ضاعـت أمواله أو سُرقت ، يُدفع له من مال الزكاة أيضًا لكي يرجع إلى أهله .

﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ، الـزكاة فريضة من الفرائـض التي أوجبها الله (سبحانه وتعالى) على المسلمين .

وفي رواية في كتاب الكافي ، أن بني هاشـم أقارب رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كانوا يعانـون الفقـر الشـديد ، وكانت الأيام أيام قحـط ومجاعة ، ولا يوجد عمل يسـترزقون منـه ، فجـاؤوا إلـى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، وقالوا له : يـا رسـول الله ، لقد جاءك تشريع الزكاة ، ولا بد من موظفين يجمعون هذه الزكوات من الناس ، ومن موارد صرف الزكـوات هم العاملون عليها ، فاجعلنا موظفين في دائرة الضرائب ، نجمع لك الزكوات ونعيش من هذه الأموال .

عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال : «إنّ أناسًا من بني هاشم ، أتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشي» ، أي لجمع زكاة المواشي ، وكان أصحابها من الرعاة متفرقين في الصحاري والبراري ، ويحتاج جمع الزكاة منهم إلى جهد جهيد ، «وقالوا يكون لنا هذا السـهم الذي جعله الله للعاملين عليها ، فنحن أولى به» ، مقابل أن يكون لهم السـهم الذي جعله الله للعاملين عليها ، لأنّ بني هاشـم لا حق لهم في الزكاة وإن كانوا فقراء أو مسـاكين أو مدينين ، ونحن يا رسـول الله أولاد عمك ، وعشـيرتك ، وأنت ترى حالنا من الفقر وضنك العيش ، «فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : يا بني عبد المطلب ، إن الصدقة لا تحل لي ولا لكم» ، الصدقة على بني هاشم حرام ؛ أراد أن يسد البـاب عليهـم وينهي الموضوع من أصله ، ويجب أن يكـون العاملون عليها من غير بني

---

١٦٥ . بحار الأنوار ٨٦ : ٢٢ ح٣٨ .

هاشم، وهذه الزكاة كلها لا تشملكم، «ولكني قد وُعدت الشفاعة»، لكن الله (سبحانه وتعالى) أعطاني مكرمة وهي أن أشفع للناس يوم القيامة، «فما ظنكم يا بني عبد المطلب إذا أخذت بحلقة باب الجنة، أترونني مؤثرًا عليكم غيركم؟»[١٦٦]، لقد ادخرت لكم شيئًا مهمًا هو خير لكم من كل ما يمكن أن أقدمه لكم في الدنيا، وهي الشفاعة التي طلبتها من الله عز وجل وأعطانيها، فإن كنت أوثر عليكم غيركم في هذه الدنيا، فإني في مقابل ذلك لن أوثر عليكم غيركم في ذلك اليوم العصيب الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون.

وربما يعترض البعض ويقول: لا يوجد شيء كهذا، فإنّ كل من يستحق الشفاعة يعطاها، سواء كان من بني عبد المطلب أو غيرهم، والشفاعة حق لا يُستخدم إلاّ بما هو حق، وما هو عدل، وما هو إنصاف، فحتى في مسألة الجنة، فإنّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يشفع لغير بني هاشم أيضًا، وفي نفس الوقت لا يشفع لبعض بني هاشم، ولا علاقة له بمن هو الأقرب، فلا يمكن أن يشفع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لأبي لهب وإن كان عمه؛ لأنه لا يستحق الشفاعة، وهذا أمر مفروغ منه، وإنّ هذا به صلاحكم؛ أن أكون منصفًا مع الجميع، وأن أوثر غيركم عليكم في الحياة الدنيا، فاذهبوا واطلبوا الرزق كما يفعل غيركم من الناس، ولا تتوقعوا مني أن أعطيكم لأنكم من بني هاشم، من قرابتي، بل أنتم كسائر الناس في الدنيا والآخرة، ولكن المعايير التي ذكرناها آنفًا لا مانع من تطبيقها في الاستحقاق المعنوي ومراعاة الجانب الموضوعي، وحتى في الحق الحصري بالشفاعة يراعى الجانب الموضوعي، ولا يجامل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أحدًا على حساب الحق والعدل، هكذا كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

وكان أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتعامل أيضًا بحزم شديد مع المحيطين، مع البطانة، مع الأقارب، ومن هذه الصور الأسطورية تعامله مع أخيه عقيل بن أبي طالب، وهو أخوه من أمه وأبيه، فبعد أن أخذ حصته من بيت المال لم تكفه لكثرة عياله، وكان ما في بيت المال شحيحًا، فكانوا يعطون شيئًا بسيطًا، فجاء عقيل إلى علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يطلب منه أن يساعده في محنته، ولكن عليًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان أشد منه فقرًا، لأنه كان له من الأولاد خمسة وعشرون ولدًا عدا زوجاته وخدمه، ويصف أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذه الحادثة الغريبة فيقول:

«والله لقد رأيت عقيلًا، وقد أملق»، كان في أشد حالات الفقر، وصفة الإملاق هنا لستُ أنا أو أنت الذين نقولها، بل علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الذي يصف أخاه به، فتصوروا الحالة البائسة التي كان عقيل فيها.

---

١٦٦. الكافي ٤: ٥٨ ح١.

«حتى استماحني» ، يعني طلب مني ، أي قال لي : انظر إلى حالي يا علي أنا وعيالي ؛ فقد أهلكنا الجوع ، وهذا بيت مال المسلمين بيدك ، فأعطني قليلًا مما يسد رمقنا .

«مـن بُركـم» ، قال : أعطني قليـل من الحنطة الموجودة في بيت مال المسـلمين ، ما أتقوّى به على فقري ، فأنا مسلم أيضًا .

«صاعًا» ، لم يطلب أكثر من صاع ، وهو ما يعادل ثلاثة كيلوات ، فإنّ أولادي أولادك ، وقد أهلكهم الجوع .

«ورأيت صبيانه» ، ليس هو الذي أخبرني ، وإنما رأيتهم بأم عيني .

«شعث الشعور» ، قال الفراهيدي : «يقال : رجل أشعث الرأس : وهو المغبر الرأس ، المتلبد الشـعر جافًا غير دهين»[١٦٧] ، فالذي يترك غسـل شـعره يصبح مجعدًا ، ويقال له أشعث الشعر .

«غبر الألوان» ، ألوان وجوههم شاحبة ، من شدة فقرهم .

«كأنمـا سـوّدت وجوههـم بالعظلـم» ، قـال ابن منظـور : «العظلم : عصـارة بعض الشـجر ، قـال الأزهـري : عصارة شـجر لونه كالنيل أخضـر مائل إلى الكـدرة . وقيل : هو الوسـمة»[١٦٨] ، يقول عَلَيهِ‌السَّلَامُ : كانت وجوههم شـاحبة جدًا ، وكأنما صبغت باللون الأسـود ، كانوا في هذه الحالة من الفقر ، وطلب مني مسـاعدته من بيت مال المسلمين ؛ لأنه كان يعلم بحالي .

«وعاودني مؤكدا» ، ثم عاودني مرة ثانية وثالثة يطرق بابي ، لإغاثته خوفًا من الموت .

«وكرر عليّ القول مرددًا» ، كرر طلبه مني مرة بعد أخرى .

«فأصغيـت إليه سـمعي» ، لأنّ عقيلًا فقد بصره فـي أواخر حياته ، وكان أكبر من أمير المؤمنين عَلَيهِ‌السَّلَامُ بعشرين سنة ، عندما وجدني لا أرد عليه ، وأكتفِي بالإصغاء إليه .

«فظـن أنـي أبيعه ديني» ، ظـن أن قلب علي عَلَيهِ‌السَّلَامُ قد لان له ، وأنه سـوف يعطيه ما يطلب ، ويفضله على غيره لأنه أخوه .

«وأتبع قياده» ، وأسمع كلامه وأطيعه في رغبته في أن أعطيه .

«مفارقًا طريقتي» ، أتخلى عن طريقتي في المساواة بين المسلمين .

«فأحميت له حديدةً» ، لا بد من أنكم قد رأيتم حديدة محماة قد احمرّ لونها واشتدت حرارتها .

---

١٦٧ . كتاب العين ١ : ٢٤٤ .

١٦٨ . لسان العرب ١٢ : ٤١٢ .

«ثم أدنيتها من جسمه ، ليعتبر بها» .

ويروي عقيل هذه الحادثة عندما سأله معاوية عنها ، فقال : « أقويت – افتقرت – وأصابتني مخمصة شديدة ، فسألته فلم تند صفاته» ، الصفاة : الحجر الصلد الضخم ، يقال : فلان لا تندي صفاته ، أي أنه بخيل ، والجملة كناية عن إمساكه عَلَيْهِ السَّلَامُ عن بذل بيت المال لأخيه ، «فجمعت صبياني وجئته بهم ، والبؤس والضر ظاهران عليهم ، فقال : ائتني عشية لأدفع إليك شيئًا ، فجئته يقودني أحد ولدي ، فأمره بالتنحي ثم قال : ألا فدونك ، فأهويت حريصًا قد غلبني الجشع أظنها صرة ، فوضعت يدي على حديدة تلتهب نارًا ، فلما قبضتها نبذتها ، وخرت كما يخور الثور تحت يد جازره ، فقال لي : ثكلتك أمك ، تئن من حديدة أوقدت لها نار الدنيا ، فكيف بك وبي غدًا أن سلكنا في سلاسل جهنم ؟»[١٦٩] .

نكمل كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«فضج ضجيج ذي دنف من ألمها» ، الدنف هو المرض ، أي صرخ صرخة مريض من شدة الألم ، عندما أمسك الحديدة المحماة .

«وكاد أن يحترق من ميسمها» ، من أثرها في يده .

«فقلت له : ثكلتك الثواكل يا عقيل ، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ؟» ، تتوجع وتصرخ من حديدة أحميتها بضع دقائق لأمازحك ولم تتحملها .

«وتجرني إلى نار سجّرها جبارها لغضبه» ، تجرني إلى تلك النار التي أوقدها الله سبحانه لغضبه ، فأنت لم تتحمل هذه النار التي هي لعبة إنسان ، فكيف تريدني أن أتحمل نار غضب الله ؟ .

«أتئن من الأذى ولا أئن من لضى ؟»[١٧٠] ، من النار ، من جهنم ، إلى آخر ما ورد .

هكذا كان علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الجانب .

وهناك خطبة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يذكرها المرحوم الكليني في كتاب الكافي الشريف ، يقول :

«خطب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إن آدم لم يلد عبدًا ولا أمة» ، الله تبارك وتعالى عندما خلق البشر خلقهم جميعًا أحرارًا ، ولم

---

١٦٩ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١ : ٢٥٣ .

١٧٠ . نهج البلاغة ٢ : ٢١٧ كلام ٢٢٤ .

يخلق بعضًا منهم عبيدًا وبعضًا أحرارا، لم يخلق عبدًا وأمة، بل خلق كل الناس أحرارًا، ثم دخلت الاعتبارات الأخرى على الخط.

«وإنّ الناس كلهم أحرار، ولكن الله خول بعضكم بعضًا، فمن كان له بلاء»، من أُبتلي في أن يكون عبدًا.

«فصبر في الخير»، عليه أن يصبر على ذلك.

«فلا يمنّ به على الله عز وجل، ألا وقد حضر شيء»، توفرت موارد في بيت المال.

«ونحن مسوون فيه بين الأسود والأحمر»، الأحمر يعني الأبيض، وهذا المال الذي توفر نساوي فيه بين الأبيض والأسود، فلا نفرق فيه على أساس عرقي، ولا على أساس المكنة الاقتصادية، أو ما شابه ذلك، بل نساوي بين المسلمين.

«قال: فأعطى كل واحد ثلاثة دنانير، وأعطى رجلًا من الأنصار ثلاثة دنانير، وجاء بعده»، الذي كان واقفا بعده في صف الانتظار، «غلام أسود، فأعطاه ثلاثة دنانير، «فقال الأنصاري: يا أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذا غلام»، كان هذا عبدي، «أعتقته بالأمس»، بالأمس أعتقته وصار حرًا، واليوم تعطيه ثلاثة دنانير كما أعطيتني، «تجعلني وإياه سواء؟ فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إني نظرت في كتاب الله فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلا»(١٧١).

لم يفرق القرآن بين إنسان وآخر على أساس العرق، فلا يختلف إنسان عن إنسان بسبب عرقه، فهذا مسلم وأنت مسلم، وإن كنت أبيض وهو أسود، وأنت حر وهذا اليوم صار حرًا، وإن كان عبدا لك بالأمس، فهذا لا يغير من صورة المسألة في شيء ولا يجعل لك حقًا في أن تأخذ أكثر مما يأخذ، وكلاكما سواسية في العطاء من بيت مال المسلمين، فانظر إلى المساواة إلى أي مستوى.

وورد في هذا السياق أيضًا كلام لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في نهج البلاغة، في رسالة وجهها إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر في وقت سابق على توليته لمالك الأشتر، يقول فيها: «أما بعد، فإنك ممن أستظهر به على إقامة الدين» يعني استعين به.

«وأقمع به نخوة الأثيم»، أقمع: أكسر، والنخوة: الكبر والتعالي، والأثيم: هؤلاء الذين يتكبرون، ويفضلون أنفسهم على الناس، وبك أكسر أنوفهم وشوكة الاستعلاء فيهم.

---

١٧١. الكافي ٨: ٦٩ ح٢٦.

«وأسدّ به لهاة الثغر المخوف»، اللهاة: هي قطعة اللحم التي تلتصق في سقف الفم في نهايته، وأحيانًا عندما نأكل يلتصق شيء بها، والثغر: جمعه ثغور، ويقصد به حدود المسلمين، المخوف: يعني الذي يخشى منه، فأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: أنا أسدّ بك ثغور البلاد الإسلاميّة التي يُخشى منها، فأنت الوالي، تمسك بجيشك الحدود، وتمنع دخول الأعداء.

«فاستعن بالله على ما أهمك»، هذه مسؤوليات عظيمة، يجب أن تستعين بالله لتحقيقها، وهي: الاستقواء بك على إقامة الدين، وكسر تكبر بعض الناس على غيرهم، وحماية ثغور المسلمين وحدودهم.

«واخلط الشدة بضغث من اللين»، لا تستطيع بالشدة وحدها أن تجمع الناس على ما تريد، بل ستنفرهم منك، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[١٧٢]، فلا تكن لينًا فقط فلا أحد يسمع لك، ولكن كن ذا حزم في لين، ذا شدة مخلوطة مع اللين.

«وارفق ما كان الرفق أرفق»، الذي ينفع معه المعروف، ولا يحملك على محمل خاطئ عندما تتعامل معه باحترام ورفق ولين، فتعامل معه بلين؛ لأنّ الأساس أن تتعامل مع الناس بلين واحترام، إذا لم يكن هذا مما يفسدهم ويجعلهم يتجاوزونك أو يستغلون لطفك ولينك معهم.

«واعتزم بالشدة حين لا تغني عنك إلاّ الشدة»، الذين لا ينفع معهم اللين، لأنهم يستضعفونك عندما يرونك ليّنا، فحينئذ عليك اللجوء للشدة ليستقيموا لك، هذا هو التوازن بين الشدة واللين؛ فهناك أناس إن تعاملت معهم برفق استقاموا على الطريق، فلا مبرر لاستعمال الشدة مع هؤلاء، وينبغي أن يكون المسؤول معهم لطيفًا جدًا ويحترمهم ويكرمهم ويقدرهم، والتعامل الهادئ معناه أن الطرف المقابل يدرك ما يريد المسؤول بنظرة أو بإشارة، ويسرع للتنفيذ، فمثل هذا يحتاج إلى اللين فقط.

وهناك أناس في الاتجاه المعاكس؛ «العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة»، فبمجرد أن تهوّن عليه قليلًا وتحترمه يخرج من طوره، ولا تستطيع الإمساك به، فمثل هذا يستوجب المراقبة المستمرة، وأن تتعامل معه بشدة لكي تسير الأمور، فلا تنفع معهه إلا الشدة.

---

١٧٢. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

وهنـاك أنـاس بيـن هـذا وذاك ، فيحتاج التعامل معهـم إلى قليل من الليـن وقليل من الشدة ، أن تغلظ عليه حينًا ، وتستوعبه وتحتضنه حينا آخر .

هذا التوازن يرتبط بطبيعة تحقيق المهام ؛ فعندما تغضب وتتعامل بشدة فهذا ليس للثأر والتشـفي ، وعندما تتعامل بلين فهو ليس للضعف ، فتحتاج إلى شـدة في لين ، وحزم في ليـن ، والهدف كله تحقيق الأهداف المرجـوة ، الغايات المرجوة ، الواجبات التي يجب أن تتحقق ، هذا هو الهدف ، فإذا وجد من يفي بالواجبات ويؤديها برفق ، فلا تتعامل معه بشدة ، وتواصل معه باللين والمحبة والمرونة ، وإذا وجد من لا ينفع معه إلا الشدة ، فلا خيار إلا أن تتعامل معه بشدة .

«واخفض للرعية جناحك» ، تواضع للناس الذين هم تحت مسؤوليتك .

«وابسـط لهم وجهك» ، انبساط الوجه : الابتسام ، فهناك من وجهه عبوس ، نستجير بـالله ، وعندمـا تنظـر إليه ترغب فقط في أن تكف شـره ، وهناك من هـو هش بش ، تعلو الابتسـامة محياه في أغلب الأحيان ، فأنت أيها المسـؤول ، أيها المتصدي ، كن سمحًا ، مبتسمًا ، لطيفًا مع مَن أنت مسؤول عنهم .

«وألن لهم جانبك» ، تعامل باللين معهم ما كان اللين مفيدًا ونافعًا لتحقيق الأغراض .

« وآسِ بينهـم في اللحظة والنظرة والإشـارة والتحية» ، اجعلهم سواسـية ولا تفضل بعضهم على بعض في اللحظة والنظرة والتحية والاحترام ؛ لا تبالغ مع البعض وتتجاهل البعض الآخر ، وكن قريبًا منهم ، حريصًا على أن تساوي بينهم في هذه الأمور .

«حتى لا يطمع العظماء في حيفك» ، فإنك إن لم تساوِ بين الناس في اللحظة والنظرة والإشـارة والتحيـة ، وفرقـت بينهم فـي ذلك ، وكنت تُولِـي أصحاب النفـوذ والوجهاء والأغنياء وأضرابهم اهتمامًا أكبر من غيرهم ، فحينئذ سـيطمع هؤلاء في حيفك ، أي في استغلال تمييزك هذا ضد خصومهم ، وخاصة ضد أولئك الذين لا تعير لهم اهتمامًا – وهو نوع من أنواع الظلم – إذن سيقوم أهل الوجاهات ، وأهل الإمكانات ، وأصحاب النفوذ ، والأثريـاء ، وأولئك الذين يحظـون منك بالاحترام الأكثر ، والرعاية الأكبر ، باسـتغلال حيفك هذا – أيها المسؤول – في فرض إرادتهم على الآخرين الذين هم أضعف عندك .

وربمـا يبرر المسـؤول سـلوكه هذا بأنـه لا يمتلك الوقـت الكافي للاهتمـام بجميع المواطنيـن بدرجـة واحدة ، ولذا فهـو مضطر لأن يداري أصحاب النفـوذ ، وهم مفاتيح الجماعات الذين قد يحتاج إليهم في الأزمات والظروف الطارئة ، وإن ولّد هذا السـلوك آثارًا جانبية ، كحصول الطمع عند هؤلاء في اسـتغلال نفوذ المسـؤول في محاولة بسـط نفوذهـم على الآخرين ، وجعلهم أشـداء على غيرهـم ، فيظلمونهم ، ويعتدون عليهم ،

ويتجاوزون حدودهم، ويفضلون أنفسهم على الآخرين، وهذه كلها مسائل حساسة وخطيرة لو حصلت.

«ولا ييأس الضعفاء من عدلك»[١٧٣]، عندما يرى الضعيف اهتمامك بذاك الذي جاء يشتكي منه، واحترامك له، وانصراف انتباهك إليه، وتركك هذا الضعيف فريسة سهلة بينكما، سيحصل عنده اليأس، ويقول: إذن لا يوجد سبيل لأخذ حقي إذا كانت هذه مكانة خصمي عند الخليفة، عند الأمير، عند المسؤول، فماذا أقول؟ وكيف أعترض؟ ومن الذي يسمعني؟ ولكي تحول دون حصول اليأس لدى الضعفاء من عدلك، عليك أن تساوى - أيها الحاكم - بينهم بالاحترام والتحية والاهتمام، فيكون الفقير والغني، والعبد والحر، والأبيض والأسود، محترمين جميعًا عندك على حد سواء، فيجب أن تساوي بين الناس في مجلسك، في نظراتك، واهتمامك.

يقال: إن أحد المراجع عندما كان يستقبل الناس في غرفته الصغيرة التي لا تتسع لأكثر من عشرين شخصًا، لا يكتفي بسلام وترحيب عام تجاه الجميع، بل كان يسلم على الجميع فردًا فردًا مؤشرًا بإصبعه: سلام عليكم، سلام عليكم، سلام عليكم، وعندما يرى هذا الشخص أن المرجع سلّم عليه بالخصوص وأظهر للجميع نفس الاحترام، فسوف يخرج فرحًا وراضيا عنه، لذا فإنّ إشعار الجميع بالرعاية والاهتمام أمر مهم جدًا، وهكذا هي المساواة.

وورد أيضًا في نهج البلاغة في كتاب لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان، وهي منطقة في إيران، وتعلمون أن إيران اليوم كانت تابعة إداريًا للكوفة، عاصمة الدولة الإسلاميّة ومقر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان هو الذي يعيّن الولاة في هذه المناطق. يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الكتاب:

«أما بعد، فإنّ الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيرًا من العدل»، إذا اختلف هواه فلا يكون عادلًا.

وهنا الشاهد: «فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء»، في الحق يجب أن يكون الناس سواسية، فلا تغلّب بعضًا على بعض، لا تفضّل بعضًا على بعض.

«فإنه ليس في الجور عوض من العدل»، إذا ميزت تكون قد ظلمت أولئك الذين تجاهلتهم، عندما ركزت على البعض دون البعض الآخر، ولا يمكن أن يكون الجور عوضًا من العدل.

---

١٧٣. نهج البلاغة ٣: ٢٧ كتاب٢٧.

وقـد يبرر الحاكم فعلته هذه بـأنّ هؤلاء الين خصصتهم بالتحية والإكرام، والاهتمام والاحترام، هم وجهاء وشيوخ عشائر وقيادات أحزاب وزعماء جمعيات وأناس متنفذون في المجتمع، يستطيعون أن يتحكموا بالشـارع، ويجنبونا الكثير من المشـكلات، فأنا أعطيهم من وقتي لأنّهم إذا أصبحوا إيجابيين فسوف يهدئون لي الشارع في حال ثورانه.

وهـذا الـكلام مردود جملة وتفصيلًا؛ فإنه لا يجوز إسـخاط الناس لإرضاء فئة تزعم أنهم سـيقفون معك لو انتفض هؤلاء الناس، لأنك باحترام هذه الفئة وتجاهلك لمعظم الناس تكون قد صنعت الأرضية الملائمة لاحتجاج هؤلاء الناس عليك وعلى هذه الفئة التي توليها كل الاهتمام والرعاية، وهذا لا يصح.

«فاجتنب ما تنكر أمثاله، وابتذل نفسك»، اصرف وقتك وابذل جهدك.

«فـي مـا افترض الله عليك، راجيًا ثوابه، ومتخوفًا عقابـه، واعلم أن الدنيا دار بلية، لم يفرغ صاحبها فيها قط ساعة إلاّ كانت فرغته عليه حسرة يوم القيامة»، إذا لم يستشعر المتصدي المسؤولية ويصرف وقته في المهام التي كلّف بها، فإنّ هذا الوقت الذي تركه وانشعل في مسائل أخرى، سيكون وبالًا عليه وحسرة يوم القيامة.

«وأنه لن يغنيك عن الحق شـيء أبدًا»، لا تظن أنك سـتحصل على شيء عندما تترك الحق وتذهب إلى شيء آخر، فالحق وحده هو الذي يحقق لك النتائج الصحيحة عندما تصل إليه بالوسائل الحقة والمشروعة والصحيحة.

«ومن الحق عليك حفظ نفسـك، والاحتسـاب على الرعية بجهدك، فإنّ الذي يصل إليـك مـن ذلك أفضل من الـذي يصل بـك»[١٧٤]، راقب الرعية، وانظـر أين الاعوجاج لتصلحـه وتقومه، ولا تتعامل بطريقة إداريّـة بحتة، أو تنجز مهام إداريّة فقط، بل عليك أن تفكـر فـي رعاية هؤلاء الناس الذين هم تحت مسـؤوليتك؛ قيّمهم من خلال الاطلاع على مبادئهم وسلوكهم وأخلاقهم وتعاملهم، فأنت مسؤول عن هذه الأمور أيضًا؛ عن تقويم انحرافهم وأخلاقهم، وهذا شيء مهم جدًا أيضًا.

وورد في رسالة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أمرائه على الجيش بعد أن بويع بالخلافة، جاء فيها:

«من عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين إلى أصحاب المسـالح»، المسـالح: جمع مسلحة، وهو الثغر من ثغور المسلمين، وسمّيت الحدود والثغور بالمسالح لكثرة السلاح فيها، من أجل حماية الحدود من الأعداء.

---

١٧٤. نهج البلاغة ٣: ١١٥ كتاب ٥٩.

«فإنّه حقًا على الوالي أن لا يغيره على رعيته فضلٌ ناله» ، الوالي يجب أن لا يتغير على الناس ؛ بسبب فضل حصل عليه مقدم له من غيره .

«ولا طَـوْلٌ خُصَّ بـه» ، ولا منزلة عظيمة حصل عليهـا ، فالمكانة التي يحصل عليها الوالي والحاكم يجب أن لا تغير سلوكه مع الناس ، فمهما كبر الحاكم أو المسؤول يجب أن يبقى قريبًا من الناس ، ومتواضعًا لهم .

«وأن يزيـده ما قسـم الله له مـن نعمه دنوًا من عباده» ، على الحاكم والمسـؤول كلما ازدادت مكانته ومنزلته ، أن يكون أكثر قربًا من عباد الله ، وترابيًا أكثر مع الناس .

«وعطفًا على إخوانه» ، وأن يكون علو شأنه سببًا في زيادة عطفه على الناس ، ويتجسد ذلك من خلال زيادة الاهتمام بهم .

إذن فالمسؤولية يجب أن لا تغير سلوك المسؤول ، بل على العكس ؛ يجب أن تطور سلوكه ، وكلما كانت مسؤوليته أكبر يجب أن يكون تواضعه للناس أكثر .

«ألا وإن لكم عندي أن لا أحتجز دونكم سرًا إلا في حرب» ، حقكم على الحاكم أن يشارككم في إطلاعكم على أسرار الدولة ، اللهم إلاّ الأسرار المتعلقة بالحرب ، فهؤلاء المرابطون على الحدود في المناطق النائية ، ولا يصل إلى مسـامعهم إلاّ النزر اليسـير من الأخبار ، يجب أن يكونوا على علم بما يجري في البلاد ، والأسـرار التي تكتمها الدولة عـن عمـوم الناس ، لأنّ هؤلاء القادة العسـكريين المرابطين هم الأكثر حرصًا على الأمة وعلى سـلامة سـير الأمور فيها ، وهم المعنيون بمثل هذه الأسـرار ، ليكونوا على علم كامـل ، ومعرفـة تامة ، بما يحـاك من خلف الكواليس من أمور خطيرة تؤثر في مسـتقبل البـلاد وحياة العباد ، أما في ما يخص الأسـرار العسـكرية المتعلقـة بالحرب ، فيجب أن تبقى في طي الكتمان عن الجميع ، إلا الدائرة الخاصة التي تصنع فيها قرارات الحرب .

«ولا أطوي دونكم أمرًا» ، لا أخفي عنكم شأنًا من شؤون الدولة .

«إلا في حكم» ، أشـاوركم في الأمور وأسـتمع لآرائكم ، باستثناء الأحكام القضائيّة التي هي حكم الله ولا يجوز فيها التشاور .

«ولا أؤخـر لكـم حقًا عن محلـه ، ولا أقف به دون مقطعه» ، لا أتخذ قرارًا يسـلبكم حقوقكم ، ولا أقطع ما هو حقكم .

«وأن تكونوا في الحق عندي سـواء» ، هذا هو الشـاهد ، أي أسـاوي بينكم في ما هو حق ، فلا أفرق بينكم .

«فـإذا فعلـت ذلك وجـب لله عليكم النعمة ، ولي عليكم الطاعـة» ، إذا حصلتم على حاكم أو إمام كهذا ، يشرككم في المشاورة ، ويسألكم عن أحوالكم وأموركم ، ويطلعكم

على أسرار الدولة، ويتواضع لكم، ويحفظ حقوقكم، ويساوي بينكم، فيجدر بكم أن تشكروا الله عز وجل، وتطيعوا هذا القائد المسؤول الذي تتوفر فيه هذه الصفات.

«وأن لا تنكصوا عن دعوة»، أن لا تتأخروا عن دعوة ندعوكم بها، سواء كانت دعوة لحرب أو سلم أو أمر في قضية ما.

«ولا تفرطوا في صلاح»، هذا الاهتمام بكم، والتواضع لكم، ومراعاة حقوقكم، يجب أن تشجعكم على مراعاة العمل بالصلاح.

«وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق»، أن تتحملوا الشدائد، وتكونوا أصلب وأكثر تمسكًا بالمشروع، فما دام قائد المشروع منفتحًا عليكم، ومهتمًا بكم، يجب أن ترتبطوا وتتمسكوا بالمشروع أكثر، وتنتموا إليه أكثر.

«فإن أنتم لم تستقيموا لي على ذلك»، أما إذا لم تعملوا هذا الشيء، ولم تكن لديكم استقامة وثبات.

«لم يكن أحد أهون عليّ ممن اعوجّ منكم»، يصبح وضعكم أصعب من أي شخص آخر، ويكون انحرافك، وأنت في مواقع المسؤولية، وأنت في مواقع التصدي، أعظم من انحراف الإنسان البسيط.

«ثم أُعظِم له العقوبة»، عندما ترونني لينًا ومتواضعًا ولطيفًا وحافظًا لحقوقكم ومساويًا بينكم، فلا تستغلوا هذا الأمر وتتمردوا عليّ، فالذي يخرج عن جادة الصواب سأُعظِم له العقوبة وأعاقبة بشدة.

«ولا يجد فيها عندي رخصة»، ثم لا أتساهل مع انحرافاتكم.

«فخذوا هذا من أمرائكم، وأعطوهم من أنفسكم ما يصلح الله به أمركم»[١٧٥]، لذلك لكم عليّ التواضع، وحفظ الحقوق، والمساواة، وإشراككم في الحقائق والمعلومات والمجريات، وعليكم الطاعة، والالتزام، واستثمار هذا التعامل الطيب في الاتجاه الصحيح.

وورد أيضًا في بعض الروايات قصة مشابهة عن عبد الله بن جعفر، وهو ابن أخ الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوج ابنته الحوراء زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ، ونعرف أن عبد الله بن جعفر كان شابًا شجاعًا مقدامًا، قاتل مع أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في حروبه الثلاث؛ في الجمل وصفين والنهروان، وكان اندفاعه في القتال بمستوى جعل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول له: على مهلك، ليس هكذا القتال، فكان عالمًا شجاعًا مقدامًا، هذه هي أوصاف عبد الله بن

١٧٥. نهج البلاغة ٣: ٧٩ كتاب ٥٠.

جعفر، ولكن أصابته الحاجة وطرق الجوع بابه، فطلب من أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ أن يساعده في هذا الأمر، فماذا كان رده عليه السلام؟.

روى ابن أبي الحديد عن هارون بن سعيد قال: قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لعلي عَلَيهِ السَّلَامُ: يا أمير المؤمنين؛ لو أمرت لي بمعونة أو نفقة، فوالله ما لي نفقة إلا أن أبيع دابتي. فقال له عَلَيهِ السَّلَامُ: لا والله ما أجد لك شيئًا إلا أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك»[١٧٦]، كيف أعطيك أكثر من حصتك من بيت مال المسلمين؟.

وورد في نهج البلاغة أن عبد الله بن زمعة – وكان من شيعة أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ والمخلصين له، وكان إنسانًا عظيمًا مميزًا، ومجاهدًا قدم الكثير، وضحى بالكثير؛ فقد استشهد أبوه وعمه وأخوه في المعارك، ولم يكن إنسانًا عاديًا، فهو من عوائل الشهداء، وهو مضح، ومخلص، ومتفانٍ – طلب من أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ شيئًا من المال يزيد على حقه الذي يوزع بين المسلمين، فقال له أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ: «إن هذا المال ليس لي ولا لك»، هذا المال ليس ملكًا شخصيًا لي لأتصرف به كما أشاء، وهو أيضًا ليس ملكًا شخصيًا لك لأعطيك إياه.

«وإنما هو فيء للمسلمين»، هذه أموال المسلمين، فيئهم الذي حصلوا عليه.

«وجلب أسيافهم»، جاءت هذه الأموال بسيوف المسلمين، في المعارك التي أعطوا فيها دماء، وانتصروا على الأعداء وحصلوا على هذه الغنائم، فهي ليست أموالي ولا أموالك لأعطيك منها، ولم تكن القوات المسلحة في ذلك الوقت تمنح رواتب، ولا حتى سلاحًا، فلا توفرها الدولة لهم، وعندما تدق طبول الحرب يحمل المسلمون سيوفهم ورماحهم وسهامهم، ويركبون خيولهم أو إبلهم وينطلقون إلى ساحة المعركة، ومن لم يكن لديه ما يركب عليه يذهب ماشيًا، ولذا اختلف سهم الراكب عن سهم الماشي في توزيع الغنائم، فلا رواتب ولا سلاح ولا عتاد تُعطى لهم، نعم إذا انتصروا في المعركة تقسم الغنائم على عدد الجنود، وكانت الناس تأتي لتقاتل في سبيل الله، وليحصلوا على الغنائم، ولا يجوز إعطاء الغنائم إلى من هبّ ودبّ ممن لم يشارك في القتال.

«فإن شركتهم في حربهم، كان لك مثل حظهم»، إذا كنت قد شاركتهم في الحرب، فلك مثل ما أعطيت الآخرين، وإلاّ فلا عطاء لك من هذه الأموال، من غير أن تذهب إلى المعركة وتقاتل كما قاتلوا وتحصل معهم على المغانم، وإن كنت ابن أخي، فلا نفقة لك.

---

١٧٦. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٢٠٠.

«وإلاّ فجناة أيديهم، لا تكون لغير أفواههم»[١٧٧]، هذه الأموال هي مما جنوه بأيديهم، وما حصلوا عليه بأيديهم من المعركة والقتال، لا يكون إلاّ لأفواههم وأفواه أولادهم وعوائلهم، ولا يحق لي أن أعطيك منها لقمة واحدة.

لقد كان علي عَلَيْهِ السَّلَامُ شديدًا مع ولاته، ومع أُمراء الجيش، لئلا يتجبروا ويمكنوا بطانتهم وخواصهم من التلاعب بحياة الناس والمال العام، ولئلا يفضل هؤلاء خواصهم وأقاربهم وذويهم على غيرهم، فكان يراقب هذه المسألة بدقة.

ومن هذه الأمور الواردة قصة الوالي مصقلة بن هبيرة الشيباني، الذي كان واليًا على منطقة من مناطق فارس اسمها أردشير خرة، ولعلها تسمى اليوم فيروز آباد، إذ بلغ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن هذا الوالي يوزع الأموال والمغانم بين أعوانه وأصدقائه وأقاربه، فأرسل له رسالة شديدة اللهجة، يقول له فيها:

«بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك»، إن كنت قد فعلت ما أُخبرتُ به عنك، فأول ما جنيت به على نفسك هو تعرضك لغضب الله (سبحانه وتعالى).

«وأغضبت إمامك»، وثانيًا تكون بفعلك هذا قد خرجت عن طاعة إمامك علي بن أبي طالب الذي نصبك في هذا المكان لتطيع الله عز وجل وتطيع إمامك، ولم أضعك في هذا المنصب لتفعل ما يحلو لك.

«أنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم، وأُريقت عليه دماؤهم» بلغني أنك توزع خراج المسلمين، الغنائم التي حصلوا عليها برماحهم في الحروب.

«فيمن اعتامك من أعراب قومك»، اعتام: من العيمة، قال الفراهيدي: «العيمان: الذي يشتهي اللبن شهوة شديدة»[١٧٨]. وقال الجوهري: «العيمة: شهوة اللبن، قال ابن السكيت: إذا اشتهى الرجل اللبن قيل: قد اشتهى فلان اللبن، فإذا أفرطت شهوته جدًا قيل: قد عام إلى اللبن»[١٧٩] يعني التف حولك من أقاربك من هو الأشد شهوة في الاستحواذ على بيت مال المسلمين، وقد بلغني أنك وزعت بينهم هذه الغنائم التي حازها المسلمون بدمائهم.

١٧٧. نهج البلاغة ٢: ٢٢٦ كلام ٢٣٢.

١٧٨. كتاب العين ٢: ٢٦٩.

١٧٩. الصحاح ٥: ١٩٩٤.

«فوالذي فلق الحبة، وبرأ النسمة»، قسم شديد من علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، بالله عز وجل، باثنين من أفعاله التي لا يشاركه فيها أحد، هما: فلق الحبة، أي إنبات الزرع، وبَرء النسمة، أي خلق الأرواح.

«لئن كان ذلك حقًا»، هذا تأكيد على موضوع سابق تكلمنا فيه؛ في عنوان الماهية البشرية للقيادة، وخلاصته أنه حتى لو كان القائد معصومًا، فإنّ السياقات والمعايير والطرق التي يتبعها هي سياقات ومعايير وطرق بشرية، ومعنى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لئن كان ذلك حقا»، أن الإمام لا يتخذ قراره قبل أن يدقق ويحقق بالتقارير التي وصلت إليه.

«لتجدنَّ بك عليَّ هوانًا»، سترى هوانًا وذلًا عندي لم تره في حياتك.

«ولتخفنّ عندي ميزانًا»، سوف تسقط من عيني، أي لا تكون لك أي قيمة عندي.

«فلا تستهن بحق ربك»، فإياك ثم إياك أن تستهين بحق الله (سبحانه وتعالى)، وتتجاوز على الحرمات.

«ولا تصلح دنياك بمحق دينك»، لا تضيّع دينك لتحصل على متاع دنيوي زائل.

«فتكون من الأخسرين أعمالًا»، فإنك إن أصلحت دنياك بزوال دينك تكون من الأخسرين أعمالًا يوم القيامة؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[١٨٠].

«ألا وإنَّ حقَّ مَنْ قِبلَكَ وَقِبلَنَا من المسلمين»، حق الذين عندك وعندنا من المسلمين.

«في قسمة هذا الفيء سواءٌ»، حقهم أن يقسم بينهم هذا المال بالتساوي؛ كل واحد يحصل على حصته وليس أكثر من ذلك.

«يَرِدُون عِندِي عليه ويَصدُرُونَ عنه»[١٨١]، هكذا يجب أن تكون الأمور.

الإضاءة الثالثة

قطع الطريق على الخواص في استغلال المنصب

يجب على المسؤول أن يقطع الطريق على الأقرباء، والخواص، والأتباع، ممن يلتف حوله، في استغلال الموقع لصالحهم ومآربهم الخاصة، ويشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا إلى بعض الشواهد التي كانت في ذلك الوقت.

---

١٨٠ . سورة الكهف: الآيات ١٠٣ – ١٠٤.

١٨١ . نهج البلاغة ٣: ٦٨ كتاب ٤٣.

ما هي الموارد التي يتكون منها بيت المال آنذاك، والتي هي تحت تصرف الإمام؟.

يتكون بيت المال من الزكوات والأخماس والأعشار والأنفال والغنائم، وجميعها ذات مصارف محددة ومعلومة في الشريعة، وهي موارد محدودة جدًا، ولذا دعا الإسلام إلى الإنفاق التطوعي كثيرًا لسد العجز في بيت المال، وخاصة في الحالات التي ليس لها عنوان في بيت المال، بل قد أوجبها في بعض الحالات، كالإنفاق على الأبوين وعتق العبيد؛ لأنّ الإسلام قد اعتمد كثيرًا على القطاع الخاص الذي كان قطاعا شخصيًا غالبًا، في إدارة الموارد الاقتصادية، فلم يكن لديه نفط، ولا مليارات من التجارة والضرائب ونحوها من النشاطات الاقتصادية العامة، وكان الفقر والإفلاس ظاهرة سائدة في المجتمع، ولم يكن الناس يمتلكون غير إمكانات بسيطة، كبعض الأغنام والماعز والإبل والدواجن، يعتاشون من لحومها وألبانها وأصوافها وجلودها وبيضها، وبعض نخيلات يزرعها أحدهم في قطعة أرض صغيرة حيث تتوفر المياه من الآبار، وإن كان الحال أخذ يتغير شيئًا فشيئًا بعد فتح العراق وبلاد الشام وإيران، حيث الأنهار الكبيرة والأراضي الزراعية الواسعة، ولكنها كانت مملوكة من أصحاب البلاد الأصليين، ولم يكن العرب الفاتحون لهذه الأراضي يعرفون ويطيقون العمل بالزراعة، بل كانوا يأنفون منه في كثير من الأحيان، وإن اتفق أن حصلوا على قطعة أرض زراعية، فقد كانوا يشترون العبيد للعمل فيها، وكانوا يحبذون كثيرًا الحصول على أرزاقهم من الغزو والحروب؛ من الغنائم التي يحصلون عليها.

وقد مكّن هذا الوضع الجديد الولاة من اقتطاع الأراضي الصالحة للزراعة وتوزيعها بين خواصهم وذويهم، وهنا لعبت العلاقات القبلية دورًا كبيرًا في الضغط على الولاة للاستئثار بالقطع الزراعية قرب الأنهار والعيون، في مناطق خلابة لم يألفوا العيش في أجوائها الجميلة، ولا سيما إذا عرفنا أن جيوش المسلمين الفاتحة لهذه الأراضي كانت تتكون من القبائل، فكانت القبيلة تستوطن بأكملها في الأراضي التي تفتحها، وكانت سياسة الدولة تشجع على الانتقال من اقتصاد الرعي إلى الاقتصاد الزراعي، ولهذا أعطت حرية واسعة للولاة في استصلاح الأراضي وتوزيعها بين الفاتحين؛ ليستقروا في تلك البلاد ويحدثوا فيها تغييرًا ديموغرافيًا، أي تغيير التركيبة السكانية للبلاد المفتوحة، فتستطيع الدولة إحكام سيطرتها عليها، ولاسيما أن هذه السياسة قد نجحت في استقرار القبائل العربية التي هاجرت إلى العراق والشام قبل الفتح الإسلاميّ، بل استطاعت أن تكوّن دولًا فيها، وإن كانت تابعة لدولة الأكاسرة ودولة القياصرة، كدولة المناذرة في العراق ودولة الغساسنة في الشام.

ومن هنا نشـأت مشـكلة في الدولة الإسـلاميّة في عهد الخلفاء السـابقين، إذ كانت الأراضـي توزع بين الأقرباء وأصحاب النفوذ لكسـب الولاءات، وكان هذا عملًا مألوفًا عند تولي علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للخلافة، فأراد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يطبق معايير العدالة في توزيع الأراضي بيـن المسـلمين، وإلغـاء الاعتبارات الأخرى التي سـببت ظلما فاحشـا لكثير من الناس الضعفاء والفقراء، ونرى أن كمًا كبيرًا من رسائل وكتب أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الى ولاته هـي لمعالجة هذه الظاهرة وإحقاق الحق والعدل وإنصاف المظلومين، ولقيت سياسـته هذه معارضة عنيفة من المستفيدين من السياسات السابقة، وأخذوا يحرضون الرأي العام عليـه تحـت عناوين مختلفة، ولم يتركوا لهذه التجربة الإنسـانية الرائدة الفرصة لإكمال مشـروعها الإصلاحـي. لذلك يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طبيعة الاسـتغلال الذي كان سائدًا هناك.

أمـا الآن فالوضع الاقتصادي مختلف تمامًا؛ فقد تنوعت الموارد الاقتصادية بشـكل كبيـر جـدًا، وأصبحـت الدولة تمتلك مـوارد ضخمة جدًا تتيح لها الدخول في مشـاريع اسـتثمارية وخدميـة تدر عليها أرباحًا هائلة، ولاسـيما في الـدول الريعية كالعراق الذي يعتمد الدخل القومي فيه على استخراج النفط وبيعه بشكل يكاد يكون مطلقًا، وفي نفس الوقـت عـرّض الاقتصاد الوطني إلى الانهيار في البـلاد التي تفتقد إلى حكام نزيهين، أو تفتقـر إلـى قوانيـن صارمة في معاقبة الاعتـداء على المال العام، خاصة فـي العراق، إذ وقعت سرقات هائلة بعضها لم يعهد لها تأريخ البشرية مثيلًا.

الآن هنـاك سـرقات من نمط جديد، وهذه كلها يجـب أن يجري التدقيق فيها؛ فمثلًا يسـرق يوميًا كذا مائة مليون دينار من أموال العراق من مزاد بيع العملة، وانتشـر التلاعب في الحسـابات المصرفية، فيجب رصد مواقـع الخلل والتلاعب بالمال العام، والبحث عن كل اعتداء على المال العام وتطويقه وإيقافه.

«وَلَا تُقْطِعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعَةً»، تقطع من الإقطاع، يعني لا تمنح إقطاعية - وهي قطعة الأرض الزراعية الواسـعة - إلى خواصك، من أقربائك والمقربين إليك وجماعتك وأصحاب الوجاهة والنفوذ.

«وَلَا يَطْمَعَـنَّ مِنْـكَ فِي اعْتِقَـادِ عُقْدَةٍ»، في امتلاك ضيعة، فعندما يراك أحدهم توزع هـذه الأراضـي بين خواصـك، يبعثه ذلك إلى التقـرب منك، طمعًا فـي الحصول على ضيعة، وتكون قد ملّكته ضيعة مجانًا من أموال المسلمين.

«تَضُـرُّ بِمَـنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ»، عندما يرونـك تفعل ذلك، لن يكتفوا بالحصول على ضيعـة فـي أي مكان، بل سـيطلبون منك الحصـول عليها في أفضـل الأماكن، وحينئذ

سيضرون بأصحاب الضياع الأخرى الموجودة من قبل . واليوم نرى المسؤولين في الحكومات المتعاقبة ، من أعضاء مجالس المحافظات والمدراء العامين ووكلائهم ونوابهم ، أو من النواب المتعاقبين في مجلس النواب في دوراته المختلفة ، يطلبون من أمانة العاصمة أو من دوائر البلديات في المحافظات الحصول على أفضل قطع الأراضي بأسعار زهيدة ، والحصول على قروض كبيرة بفوائد بسيط وطويلة الأمد لبنائها ، بل تعدى الأمر إلى شراء أو إجارة عقارات الدولة بأسعار زهيدة تحت مسميات مختلفة في ملفات فساد خطيرة لم يشهد لها العراق مثيلًا خلال المائة سنة الماضية ، أي منذ نشوء الدولة العراقية الحديثة ، وكذلك يطلب بعض الوزراء اليوم أن تكون قطعة الأرض التي تهبها له الدولة مطلة على نهر دجلة ، أو في الحي الفلاني ، ويريد أن تكون مساحتها (٦٠٠) متر أو (١٠٠٠) متر ، وهكذا يطلبون أن تكون الأراضي في أفضل أماكن المدينة ، فيأخذون قطع أراض ويتملكونها بغير وجه حق ، وكذا في العصور السابقة كانوا يطلبون أن تكون القطعة الزراعية قرب الأنهار أو العيون ليسهل سقيها ، فتضر بقطع الأراضي الزراعية الأخرى التي يمتلكها الناس .

« فِي شِرْب » ، تأخذ الماء كله لمزرعتك ولا تبقي ماء لأصحاب المزارع الأخرى .

« أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ » ، أو الأمور الأخرى كالأسمدة مثلًا أو الخدمات الأخرى ، هذه كلها تأخذها لنفسك .

« يَحْمِلُونَ مَئُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ» ، بالإضافة إلى قطع الأراضي الجيدة التي يأخذونها ، من حيث الموقع القريب من مصادر المياه ، يفضلون أنفسهم على الآخرين أيضًا بإلقاء أعباء العمل والسقي ومؤونة كري الأنهار على الآخرين من أصحاب الأراضي والمزارعين الآخرين ، كأن يشترط على أصحاب الأراضي التي تمر سواقيهم من خلال أراضيه أن يمنع عنهم الماء إذا لم يرسلوا فلاحين لزراعة أرضه وسقيها ، فيستخدم نفوذ الدولة للتسلط على هؤلاء المستضعفين ، فيزرع هؤلاء المساكين له ويسقون ويحصدون وغير ذلك من أعمال ، تحت وطأة نفوذه وضغطه عليهم .

الإضاءة الرابعة

الآثار المدمرة لاستغلال البطانة لنفوذ الحاكم

الآثار الخطيرة والهدامة والمدمرة لتمدد بطانة وخواص وأقرباء المسؤول ، وتفشي حالة الفساد المالي ، والانتهازية ، والتجاوز على المال العام ، والضغط على الناس

لابتزازهـم وأخـذ الأتاوات والأمـوال منهم، هذه كلها أمور خطيرة تـؤدي إلى حالة من الخواء والانهيار في المنظومة القياديّة، وتصبح منظومة يتمايز فيها الناس بحسب قربهم أو بعدهم من المسـؤول، ومنظومة كهذه لا يمكن أن تدوم، بل ستهتز مصداقية القائد والمسؤول عندما يرى الناس أفعال بطانته وخواصه، ويزيد الإحباط واليأس بين الناس، ولسـان حالهم يقول: لن ينفعنا شـيء مهما فعلنا؛ نتعب، نقاتل، نعطي دماء، وعندما يأتـي وقـت توزيـع المغانم تُعطى لأناس آخريـن ونحن ننظر فقط، ولـن ينفعنا أي جهد نبذلـه، ولا أي وقت نقضيه في العمل، فالجهد والشـقاء والمشـكلات علينا، والفوائد لغيرنـا، فيصيـب الناس إحباط شـديد، لأنّ الأمور كلها بيد البطانـة يفعلون ما يريدون؛ يسـرقون ويبتزون النـاس، وعندما يـرون المواطنين صامتين ومضطريـن للدفع، تزداد جرأتهم أكثر؛ فمن كان يطلب دينارًا يطلب دينارين، ثم يطلب خمسة دنانير، ثم عشرة، ثم مائة، ومن كان يتمدد على دونم من الأرض، يتمدد بعدها على عشرة، ثم على مائة، وهكـذا يتوسـع تجاوزهم على الناس، والجشـع لا يقف عند حـد، وخاصة من هؤلاء المحيطين بالمسـؤول، فكثير منهم سراق، فيلجأ الذين تحت أمرتهم إلى السرقة أيضًا، ويبررون سـرقتهم بأنّ من هو مسـؤول عنهم يسرق فلماذا لا يسرقون هم أيضا؟ ثم تتسع الظاهرة وتشـمل المجتمع كله، ويتحول المجتمع إلى مجتمع فاسـد؛ لأنّ الناس على دين ملوكهم.

يا مسـؤول، إذا لم تضبط إيقاع الموظفين من حولك، سـتتمدد وتتسع هذه الظاهرة، لتشـمل المنظومـة القياديّة كلهـا، لأنّ كل واحد من هؤلاء ينظر إلـى من فوقه، فإن كان سـارقًا ومرتشـيًا وخائنًا فسـيكون من تحته كذلك، وتتقنن هذه الأشياء ويدب الفساد في كل مكان، وهذه مشكلة عويصة نتيجة التساهل في هذا الأمر، وعندما ينتشر فساد كهذا، فلن ترى إلاّ اللعب والنهب والسرقة والرشى، وستنهار المنظومة الأخلاقية للمجتمع أو لتلـك المسـاحة القياديّة، فتنعدم القيم والحلال والحـرام، ولا يعير أحدهم اهتمامًا لما كان عند العرف عيبًا، ويسمونها شطارة، وشعارهم خذ ما تستطيع الحصول عليه، هكذا يصبح التعامل، فينتج الإحباط والانكسار لدى النخب والطاقات والعقول؛ إذ سيقولون: نحـن نخطـط ونضع أفكارًا ومشـاريع ومبادرات وننفذ، ثم يذهـب الناتج إلى غيرنا، أو يقول أحدهم: لقد درسـت ونلت شـهادة الدكتوراه، ووصلت إلى درجة الأسـتاذية في الاختصاص الفلاني، ولدي خبرة بلغت ثلاثين سنة، وعند تشكيل الحكومة أتوا بشاب تابع للحزب الفلاني أو الجماعة الفلانية وجعلوه وزيرًا، ويجب أن أقول له سيدي عندما أتحـدث معـه، فأين الاختصاص؟ وأين العلم، وأين الخبرة؟ ولماذا إذن نتعب أنفسـنا؟

فلو بذلت سنة واحدة من التملق لمسؤولي الأحزاب والكتل بدل السنوات العشر التي بذلتها في الحصول على الاختصاص، لكنت وزيرًا بدلًا من هذا التعب والجهد المضني في الدراسة، ومن غير أن أحتاج إلى كل هذا العلم، فيحدث إحباط لدى النخب، وتراجع كبير وانكسارات شديدة، عندما تكون المحسوبيات والمنسوبيات هي التي تحدد المواقع والتعيينات، وليست الدراسة والوصول فيها إلى أعلى الدرجات العلمية. (فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذَلِكَ لَهُمْ دُونَكَ)، يستمتعون بهذا المال الحرام دونك.

(وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)، أما في الدنيا فخزي وسب وشتم وسخط ولعن من الناس، بينما ذهب المال في بطون أقاربك وأصدقائك وجماعتك وحماياتك وسكرتارياتك، ولم تنل منه شيئا، وأما في الآخرة فأنت مسؤول أيضًا، وبالتالي لماذا هذا التساهل في هذا الأمر وتحميل نفسك مسؤوليته؟.

القسم الثاني: ضرورة الالتزام والمساواة بين القريب والبعيد في الحقوق

(وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، وَاقِعًا ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ).

القسم الثاني من توصيات أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو ضرورة الالتزام والمساواة بين القريب والبعيد في الحقوق، فلا يجوز تفضيل بعض الناس على غيرهم بغير وجه حق، فهناك حقوق عامة نسميها في أدبياتنا حقوق المواطنة، فكونك مواطنًا يعني أن لك حقوقًا، وهناك قانون يجب أن يُطبق على الجميع، فلا يستطيع هذا أن يخالف إشارة المرور لأنه مسؤول كبير، أما المواطن العادي فالويل له إن خالف الإشارة، فيؤدي شرطي المرور التحية للأول، ويفرض أشدّ عقوبة بحق الثاني، مع أن الاثنين ارتكبا الخطأ نفسه، وقانون المرور قد وُضع للجميع، وينبغي أن يكون الجميع سواسية أمام القانون كما نص على ذلك الدستور، ويجب أن يحترمه الجميع، ويعاقب الجميع على مخالفته، فالحقوق العامة التي يشترك فيها الناس يجب أن لا يميز فيها أحد أو يفضل على غيره، ويجب أن يتساوى فيها الجميع، وقد يكون هناك شخص لديه اختصاص أكثر، ويبذل جهدًا أكبر، ومهامة أكثر خطورة؛ يستحق امتيازات موضوعية وواقعية ضمن القانون، وهذا أمر مقبول، ولكن في ما هو حق المواطنة المشترك بين الجميع، في ما هو الحق المشترك في فوج، في عضوية تيار سياسيّ، في الانتماء الى جماعة معينة، يجب أن يكون هناك مساواة كاملة، لكي لا يشعر أحد بالتميز.

إذن في هذا القسم يتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ضرورة المساواة في التزام القريب والبعيد بالحقوق بمسطرة واحدة.

(وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ): طبّق الحق على الجميع، على القريب والبعيد؛ على أقاربك وعلى الغرباء عنك، على خواصك وجماعتك وحزبك وعلى الآخرين، ولا تميز بين أحد وآخر، وإن لم يعجب هذا العمل بعضهم، وسينطلقون لتحريك الرأي العام ضدك.

(وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِرًا)، فاصبر، وتحمل، واثبت على هذا المبدأ، وواجه بقوة الاعتراضات التي تأتي من أولئك الانتهازيين، الذين يريدون أن تكون لهم امتيازات تختلف عن الآخرين.

(مُحْتَسِبًا)، احتسب هذا الأذى، والتشهير، والسباب، والشتيمة، والتسقيط الذي تشنه عليك جيوشهم الإلكترونية؛ لأنك لا تريد أن تفرق بين شخص وآخر، وتضرب مصالحهم ومافياتهم، فينطلقون للتشهير بك، وينعتونك بالفاسد وهم الفاسدون، فإن ثلاثة أرباع حملات الاتهام بالفساد يقودها فاسدون، لكي يحوّلوا الأنظار عن اتهامهم بالفساد، والناس يصدّقون ما تردده ماكنتهم الإعلامية، وتكون ردة فعل هؤلاء الناس تجاه الفساد أن يصدقوا كلام الفاسدين أنفسهم بحق النزيهين في أحيان كثيرة، (مُحْتَسِبًا)، احتسب ذلك عند الله.

(وَاقِعًا ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ): لا تلتفت لما يحدث لبطانتك، وجماعتك، حتى لو انزعج منك ابنك؛ لأنّ ابن عمه أو ابن خاله أو صديقه قد أعرضوا عنه لأنك لم تفضلهم على الآخرين بغير وجه حق، وحتى لو اعترض عليك حزبك وجماعتك وقالوا لك: جعلناك وزيرًا لتكون هذه الوزارة لنا بقرة حلوبًا، ولكنك أغلقت الأبواب في وجوهنا، فلا تصغ لهؤلاء، ودعهم وما يقولون، وكن حقانيًا منصفًا.

(وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ): انظر للمآلات، لعاقبة الأمور، انظر للنهاية، انظر للنتيجة؛ فسوف يغضب منك عدد محدود من المستفيدين ممن هم حولك، ولكنك سترضي مائة، سترضي ألفًا، سترضي عشرة آلاف، سترضي مليونا، سترضي أربعين مليونًا، بحسب المكان والموقع الذي أنت فيه، فاخسر عشرة واربح ألفًا إذا كانت منظومتك القياديّة تتكون من ألف، واخسر عشرة أو عشرين واحصل على مليون، فالعاقبة لك، وسيلتف حولك الناس، ويرونك حقانيًا ومنصفًا ومدافعًا عن حقوقهم، وسيقاتلون من أجلك، ويفدونك بأرواحهم، هذه هي عاقبة الأمر.

(وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ) : هذا الثقل الذي ينتج من المساواة، ومن اعتراض الانتهازيين والمافيات والعصابات والمستغلين، هذا ثقل عاقبته حميدة؛ فسوف يلتف حولك الناس فتقوى بهم، وسيُلطم هؤلاء الانتهازيون على أفواههم، ولا يستطيعون أن يتحدثوا عنك بسوء.

(فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذلِكَ مَحْمُودَةٌ) : نتيجة المساواة والإنصاف والعدالة محمودة، وهي التفاف الناس حولك، وثقتهم بك، ووقوفهم معك في مواجهة المفسدين والمافيات.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

التزام المساواة في الحق

المساواة حق لي وحق لك؛ أن لا يُفرق بين أحد وآخر، وهذا يمثل ضرورة من ضرورات العدالة الاجتماعيّة، فلا تستطيع أن تكون عادلًا وأنت تفرق بين الناس، لا على أساس الحق، وإنما على أساس المحاباة، والصداقات، في ما هو حق عام، قانون عام، التزامات عامة، حقوق عامة، ونتكلم عن الحق المشترك؛ حق المواطنة أو حق العضوية أو ما إلى ذلك، وهذا لا يمنع بحسب القانون أن يكون الأشخاص مختلفين في العطاء، بحسب الموقع والمسؤولية والشهادة والخبرة إلى آخره، فالموظف الذي لديه خمس وعشرون سنة خبرة مثلًا ونُصّب مديرًا عامًا ويتحمل مسؤولية كبيرة، يختلف عن موظف عُيّن حديثًا في الدائرة ويزاول أعمالًا بسيطة فيها، هل يجوز أن نساوي بينهما؟ هذا تفاضل على أسس موضوعية، وصحيح أنه بحسب قانون التدرج الوظيفي، فإن سلّم الرواتب فيه درجات؛ درجة أولى وثانية وثالثة . . . إلى آخره، ولكن هذا لا يمنع أن نتكلم عن الحقوق المشتركة ووجوب عدم التمييز فيها بين البعض والبعض الآخر، وهذه قضية صعبة؛ لأنّ الأقرباء والأصدقاء والبطانة لديهم توقعات؛ إذ يريدون أن يكون وضعهم مختلفًا عن غيرهم، فذاك البعيد لا يعرفك وسيُنفذ عليه القانون، أما القريب فسوف يشاغب ويضغط على المسؤول لكي يحصل على استثناءات، ويجب أن لا يفرق المسؤول بين داعم ومعارض، فهذه حقوق مواطنة يجب أن تُعطى للمعارض والموالي على حد سواء؛ فالجميع يستحقونها، وهذا ليس أمرًا سهلًا، أن تساوي في العطاء بين

شخص يدعمك ويخدمك، وشخص يقف ضدك، ولكن هذا هو المنهج الإسلاميّ في القيادة والإدارة.

روى جابر بن عبد الله قال: «كنا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ جلوسًا، فأقبل علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: قد أتاكم أخي»، إلى أن قال في وصفه: «وأعدلكم في الرعية»، أكثركم عدلًا بين الناس، «وأقسمكم بالسوية»[١٨٢] وأكثركم مراعاة للمساواة في القسمة، أي يساوي بين الناس في قسمة العطاء، يتعامل بعدل بين الناس، يقسم الحقوق بالتساوي بينهم.

وحين تصدى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للخلافة وجد أمامه ركام سنن تغيرت فيها حاجات الناس، وظهرت حاجات جديدة، وظهر اللعب والفساد ومشكلات كبيرة، وأصبحت ظاهرة التمييز مقننة بقانون، وأصبح التجاوز على المال العام، وتجاوز العدالة والمساواة بين الناس، يسيران وفقًا لقواعد وقوانين، وجاء أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ فضربها كلها، فقام الناس بوجهه؛ بعضهم يقول: لماذا حدثت في أربع سنين ثلاث حروب؟ لماذا يا علي بن أبي طالب حدث هذا وأنت الحكيم والعالم؟ لقد كان السبب وراء ذلك هو أنّ مصالح كبرى لمافيات وجماعات ضُربت، وتصوروا الأمر في أوضاع بلدنا الآن؛ فهذه العقود والمليارات لفلان، وتلك لفلان، ثم يأتي حاكم ويضربها جميعًا ويقضي عليها، فماذا سيحدث؟ ستقوم الأمة كلها في وجهه، ولا تسمع أحدا يقول إن مصالحي ضُربت، بل سيقولون: وا إسلاماه! هذا حاكم غير وطني، وغير شريف، وغير نزيه، وهذا كذا وكذا، وهكذا يخرجون له ألف سبب ليخرجوه من السلطة، ويحافظوا على مصالحهم.

لقد روى الشيخ الكليني في كتابه الكافي الشريف، الخطبة التالية لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ التي يذكر فيها معاناته، نقتطع جانبًا منها:

«ثم أقبل بوجهه وحوله ناس من أهل بيته وخاصته وشيعته، فقال: قد عملت الولاة قبلي أعمالًا خالفوا فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، متعمدين لخلافه»، أي أن هؤلاء الحكام الذين جاؤوا بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد خالفوا سنّته متعمدين، مع سبق الإصرار، فقد وضع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ منهجًا، فجاء هؤلاء وكسروه وساروا في طريق آخر.

١٨٢. الأمالي للطوسي: ٢٥١ ح٤٤٨/ ٤٠.

«ناقضين لعهده، مغيرين لسنّته، ولو حملت الناس على تركها وحولتها إلى مواضعها وإلى ما كانت في عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ»، لو حاولت أن أرجع هذه السنّة إلى ما كانت عليه أيام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، انظروا كيف ستكون النتيجة لو فعل ذلك:

«لتفرق عني جندي»، يتفرق الجيش، إذ سيعمد قادة هذا الجيش لتفريق الجند من حولي، فقد اعتادوا أن يأخذوا أموال الجنود بغير وجه حق، ويسرقوا، ويستحوذوا على الإقطاعيات.

سمعت مرة من قائد عسكري كبير كانت وظيفته التفتيش، يقول: ذهبت إلى أحد المعسكرات فرأيت العجب؛ فلم أرَ معسكرًا يضاهيه في العراق، وكأني في دولة متقدمة، لما رأيت من نظام وترتيب، وسُررت بما رأيت من تشجير وتبليط، وعندما دخلت القاعات وجدت أن كل قاعة أجمل من الأخرى، وطعام الضباط كطعام المنتسبين، وعندما دخلت محل الإقامة الخاص بالضباط، وجدته فندقا خمس نجوم، وكذلك أقسام إقامة المنتسبين، أما مكتب القيادة فهو مكتب القائد العام للقوات المسلحة، أو القصر الجمهوري، فقلت في قلبي: هذا هو الفاسد، يقول: وعندما فتحت دفاتر الحسابات قلت له: من أين لك كل هذا؟ قال: مشكلتي أني لا أسرق، وهذه هي الأموال التي تدفعها لنا الدولة، تصل في كل شهر، فتتجمع هذه الأموال، وبدلا من أن أسرقها أنفقها على المعسكر، وأخرج الوصولات، عجيب! لو كان كل الجيش فعل ذلك لكانت كل معسكراتنا هكذا، وسوف تتعلم منا أمريكا، وتبين أن هذا القائد هو الشريف وليس الفاسد.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذا أردت أن أرجع الأمور إلى ما كانت عليه في عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فإنّ جندي سيتفرقون من حولي.

«حتى أبقى وحدي أو قليل من شيعتي الذين عرفوا فضلي وفرض إمامتي من كتاب الله عز وجل وسنّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ»[١٨٣]، إما أن أبقى وحدي، أو ستبقى معي قلة قليلة من المخلصين، ثم يشرح لهم أين هذه الانحرافات.

ماذا تريد أن تفعل يا أمير المؤمنين لكي ترجع الأمور لما كانت عليه في عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟.. وهذا كله قد حدث خلال أربع وعشرين سنة بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلى اليوم الذي بويع فيه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكيف بنا اليوم ونحن على بُعد ألف وأربعمائة سنة، فماذا يمكن أن نعمل؟.

١٨٣. الكافي ٨: ٥٩ ح٢١.

الإضاءة الثانية

الثبات والاستقامة في التزام المساواة في الحق

عندما تساوي بين الناس، فكيف ترضى هذه المافيات والعصابات والمجموعات التي ضخّمت وجودها على حساب الناس، وكل واحد منهم أصبح يسمّي نفسه قائدًا، ولديه مكانته ووجاهته، والأموال التي استحوذ عليها من السحت والحرام؟. لن يقبلوا بهذا وسيثورون في وجهك أيها الحاكم، وسيحرضون الناس عليك، ويخلقون لك ألف مشكلة، اللهم إلا إذا داريتهم وأعطيتهم الامتيازات التي يرغبون بها.

إنّ هذا المنهج سيواجه اعتراضات شديدة من قبل الانتهازيين والمصلحيين الذين ستُضرب مصالحهم، فهؤلاء يبحثون عن سطوة وإمكانات ونفوذ، ولن يستسلموا لهذا المنطق الإسلاميّ في المساواة بسبب مطامعهم، وهؤلاء قد يكونون أقارب، أو حزبيين، أو من بطانتك، أو من أصدقائك، جاؤوا يبحثون عن دنيا تريد أن تسلبها منهم، ولا يستطيع هؤلاء أن يحصلوا على هذه الامتيازات بطرق قانونية، فمع مبدأ المساواة لن يستطيعوا أن يحصلوا على ما يريدون، وهم مضطرون لأن يمضوا بطرق غير قانونية وملتوية، ويأخذوا بعض الحصانات والامتيازات والمكانة الخاصة ويميزوا أنفسهم، وحين تريد أن تضرب كل هذه الأشياء وتساوي بينهم، فاستعد للبلاء.

لذلك يوصي أمير المؤمنين عَلَيهِٱلسَّلَامُ بثلاث خطوات في مواجهة هذه الضغوط:

الأولى: الثبات والصبر والاستقامة: لا تدع كثرة الاعتراضات والضجيج والعجيج منهم تغيّر موقفك، وتثنيك عن مواجهتهم، فتعود إلى مجاملتهم وتعطيهم منزلة خاصة، وتترك خلق الله وتهتم بهم فقط، لا تفعل هذا، واثبت على منهجك في المساواة، والحقانية، والموضوعية، والترابية مع الجميع، وطبّق سياسة الباب المفتوح مع الجميع.

الثانية: احتساب ذلك عند الله سبحانه وتعالى: هذه الضغوط والسب والشتم والتشهير والحملات الإعلامية، احتسبها عند الله عز وجل، والله سيثيبك ويأجرك، وعليك ملاحظة النتائج المستقبلية؛ صحيح أنك الآن تحت الضغط، ومتعب من كثرة القيل والقال، والتهويل، وإثارة الرأي العام ضدك، ولكن الناس عندما تراك لا تعطي أحدًا على حساب آخر، وتحترم الجميع، وتساوي بين الجميع، فسوف يلتفون حولك، وهؤلاء الفاسدون شرذمة قليلة، أما أولئك الناس فهم عشرات الألوف، مئات الألوف، ملايين، بحسب سعة المنظومة القياديّة، فلا تُحابِ هذه المافيات التي لا يتجاوز حجمها

العشـرات أو المئات ، لا تحابِ قلة قليلة وتجعل الناس كلها ضدك ، بل عليك الالتفات إلـى مصالـح الناس ، ودع هؤلاء العشـرة أو المائـة يتضجرون من النـاس التي تقف إلى جانبك ، والتي تدافع عنك عندما يتعرض لك أحدهم ، فتهابك هذه الشرذمة ؛ لأنّ الرأي العـام معـك ، ونـرى أنه عندما تكون هناك موجة عامة في تأييد شـخص ما ، فإنّ أحدًا لا يجرؤ على أن يخالفه ، فعليك أن تحمي نفسـك ليس بهذه البطانة وهؤلاء الخواص ، بل بقربك من الناس ، وبحل مشـكلاتهم ، وإنصافهم ، والمسـاواة بينهـم ، هذا هو الطريق الصحيح .

(وَكُـنْ فِي ذَلِكَ) ، أولًا : (صَابِراً) ، ثانيًا : (مُحْتَسِـباً) ، ثالثًا : (وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ) ، لا يهمك عدم رضا أقربائك وأصدقائك ، ولا يهمك سـخط هذا وإعراض ذاك ، فإنهم سيرجعون إليك لاحقًا ، فاذهب وضع الأساس الصحيح .

الثالثـة : النظر إلى عاقبـة الأمور (وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ) : عندما يرى الناس أنك رجل عادل ، فسوف يلتفون حولك ، ويسندون ظهرك ، ويرفعونك على الأكتاف .

(بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ) ، النتيجة محمودة ؛ فعندما يكون الناس معك ، سيدافعون عنك ويحمونك ، وعند ذلك لا يستطيع أحد أن يواجهك .

التوصية التاسعة

ضرورة المصارحة والمكاشفة والشفافية مع الناس

الدرس الأخير من توصيات أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقطع السادس والعشرين، هو قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفًا فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ، وَاعْدِلْ عَنكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ، وَرِفْقًا بِرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذَارًا تَبْلُغُ فِيهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ).

يتحدث أمير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه النصيحة عن ضرورة المصارحة والمكاشفة والشفافية مع الناس.

(وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفًا): إذا أصبح لدى الناس انطباع سلبي عنك بأنك ظالم، ولم تكن كذلك، ولكن التشويش من الأعداء والخصوم والحملات الإعلامية والاتهامات، جعلت الناس تصدّق ذلك شيئًا فشيئًا، وتكوّنَ عندها انطباع بأنك فاسد ماليًا، ولم تكن كذلك، أو أنك فاسد أخلاقيًا، ولم تكن كذلك، أو أنك رجل متكبر ومتعالٍ، ولم تكن كذلك، فإذا ظنوا بك حيفًا، فما هو الحل؟ كيف تعالج الموضوع؟ هل تقاتلهم، هل تسبّهم وتشتمهم؟ هل تقول لهم: يا ظلمة، يا جهلة، كيف ترونني هكذا؟ كلا، ليس هذا هو الحل، بل الحل هو كما يعلّمنا أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ): أصحر من الصحراء، يقال: أُريد أن أصحر، أي أريد الذهاب إلى الصحراء، وعندما يذهب أحدنا إلى الصحراء فهو يبرز ويظهر نفسه؛ لأنها مكشوفة، لذلك فإن (أَصْحِرْ لَهُمْ)، تعني أظهر لهم الحقيقة وصارحهم وبيّن لهم؛ أتقولون إني فاسد ماليًا، لأني بنيت قاعة؟.. وفّرنا لكم مكانًا تجتمعون فيه، وهذا المكان للدولة، والأرض التي أُنشئت عليها القاعات للدولة.. اشرح لهم، وضّح لهم، لتصحح لهم هذه الانطباعات الخاطئة.

(وَاعْـدِلْ عَنـكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ) : اعدل من العـدول ، أي التنحية ، واعدل عنك ظنونهـم ، أي أبعد عنك ظنونهم السـيئة ، (بِإِصْحَارِكَ) ، أي بمكاشـفتك ، بصراحتك ، فعندما توضّح للناس الحقيقة ، فحينذاك ستصحح انطباعاتهم الخاطئة عنك .

(فَإِنَّ فِي ذلِكَ) : في هذا الإصحار ، في هذه المصارحة ، في هذه المكاشفة ، (رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ) ، أولًا : فيها رياضة نفسية ، يقال : هذا مرتاض ، أي يقوم بالرياضة النفسية ، فأنت بذلك تروض نفسك ، وقد يقول المسؤول : هل أشغل نفسي بالشرح لهؤلاء؟ هل أنـا متهـم فأوضح لهم؟ ليعتـرض عليّ منهم من يعترض ، وليقل مـا يقول ، فمن أعجبه الأمـر كان بهـا ، ومن لم يعجبه فليضرب رأسـه بالحائـط ، كلا ، لا تقل ذلك ، وإياك أن تتعامل مع الناس بهذه الطريقة ؛ فهذا الشرح والبيان وإزالة الالتباس أمر جيد لنفسك ؛ إذ تتواضع أمام الناس ، وتروض نفسك على أن تكون في موضع المتهم ، فتشرح وتوضح وتبين للناس حتى تزيل عنهم الالتباس .

ثانيًـا : (وَرِفْقًـا بِرَعِيَّتِـكَ) : هؤلاء رعيتك ، ولديهم انطباع خاطـئ عنك ، فارفق بهم ووضّـح لهـم حقيقـة الأمور ، لكـي لا يبقـوا حائرين ، سـاخطين ، يعيشـون الغموض والجهل ، فاشرح لهم لتزيل عنهم الحيرة .

(وَإِعْـذَارًا) : أبـدِ العذر لهم ، (تَبْلُغُ فِيـهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَـى الْحَقِّ) ، إذا رآك هؤلاء منحرفًا ، غير مهتم بهم ، فلن يسمعوك ، وسينحرفون عن الصواب ، ولكن عندما توضـح لهـم ، تكاشـفهم ، تصارحهـم ، تزيل الالتبـاس عنهم ، فسـوف يرجعون إليك ويلتفون حولك ، وعندها تستطيع أن تأخذ بأيديهم إلى طريق الهداية ، وتوجههم بالاتجاه الصحيح ، فترشدهم ، وتحفظهم ، وستنجح المنظومة القياديّة ، إذن عليك بتعليمهم .

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

دور الوضوح والمكاشفة والمصارحة في المنظومة الإداريّة والقياديّة

المصارحـة مـن أهم مفاتيـح النجاح القياديّ ، فلا تكن طلسـمًا ولغـزًا للناس ، فهم لا يعرفونـك ، فتواضـع لهم ، وتكلّم معهم ، وصارحهم ، ووضّـح لهم ، وهذا أمر مهم جدًا ؛ اشرح للناس وجهة نظرك ، واحرص على الوضوح في المواقف ، والمصارحة مع الشعب أو الناس الذين هم تحت مسؤوليتك ، إذن فالمكاشفة وتوضيح الأمور الباقية في

أذهانهم عن سلوكك من غير جواب عنها ، أهم مفاتيح نجاح الأداء القياديّ والإداريّ ، فإنّ أغلب الانحرافات ، والخروج عن جادة الصواب ، والمخالفات في السلوك ، تبدأ من الغموض ؛ عندما ترى مجموعة من الناس سلوك هذا المسؤول غريبًا ، وأن لديه ما يثير الشبهات ، ولا يعلم الناس ماذا يعمل في الدهاليز المظلمة ، فتبدأ التكهنات ، والقيل والقال ، وتنسج القصص الخيالية الكثيرة ، وتبدأ المشكلة ، فعليك بمصارحة الناس كلهم .

قد يتذرع مسؤول بوباء كورونا ، ويقول : ابتلينا بهذا الوباء ، وإذا لم نلتزم بالحظر فسوف ينتشر لا سمح الله ، وإذا ما أصبنا بكورونا فسنفقد الحياة ، وحينئذ لا يبقى لنا مدراء ، وعندها سيضيع العراق كله ، فصارحهم ، ولا تقل كيف أخوّف الناس ، وتصور الأمور لهم وكأن كل شيء مثالي ، فلا يأخذ الناس هذا الموضوع على محمل الجد ، وفجأة يأكل الوباء الدنيا كلها .

اخرج إلى الناس وقل لهم إن (٩٠٪) من موازنتنا أو أكثر من النفط ، وليس لدينا شيء آخر ، فالمصانع كلها معطلة ، والزراعة متخلفة ، والتجارة خاوية على عروشها ، وكل ما لدينا من النفط ، وهذا النفط قد هبطت أسعاره ، وأصبحنا لا نريد ربحًا ولكن نريد أن لا نخسر فقط ، والآن نبيع بخسارة ، والبرميل الذي يكلفنا ثمانية عشر دولارًا نبيعه الآن بخمسة عشر دولارًا . عليك أن توضّح للناس ، وتشرح لهم ؛ بأن وضعنا أصبح بهذه الكيفية ، وأنتم كلكم معنيون ، فهذا بلدكم ، والثروة ثروتكم ، إن زادت فهي لكم ، وإن نقصت فهي من ضلعكم ، فدعونا نفكر ماذا يجب أن نعمل لكي نعالج الوضع الاقتصادي المتدهور؟ وكيف نواجه وباء كورونا؟ أما أن تأتي وترسم لهم صورة وردية ، وتصور لهم أن القضية سهلة ، وأننا قادرون على تجاوز الأزمة ، وفجأة تأتي الرواتب وقد استُقطعت نسبة منها ، بعنوان ادّخار إجباري ، فذهب ثلث الراتب ، فلا يجوز أن لا تخبر الناس بالأسباب ، لأنهم إذا لم يعرفوا الأسباب فيمكن أن تخلق لنفسك مشكلة ، إذ سيحملونك المسؤولية .

أخبرهم أن الوضع الأمني شهد هذه التطورات ؛ مثلا ، أنّ داعش ظهر مجددًا في ديالى وكركوك ، وفي صلاح الدين بدأت خلايا نائمة تتطور وتنتشر وتتحرك ، وأصبح لدينا ترهل في أجهزتنا الأمنية ، وصراعاتنا السياسيّة أبعدت الاهتمامات باتجاهات أخرى ، والمشكلة مع الأطراف الدولية انعكست على حجم مراقبتهم ومتابعتهم لنشاط الدواعش ، وأن الوضع الأمني صعب وخطير ، ويحتاج إلى أن نتكاتف لنعالج هذه المشكلات ، وعندما يراك الناس تشرح لهم الوضع ، وتضع أمامهم الأرقام ، وتكشف

لهم الحقائق، فسوف يساندونك ويتحملون المسؤولية معك، ويصبرون على الضغوط، ولكنهم حين لا يعلمون فسوف يتهمونك: (أين ذهبت المليارات؟ سرقونا باسم الدين)، فوضّح لهم أنه لا توجد أموال لكي يسرقها أحد.

نعم هناك أسرار في الدولة؛ أسرار حربية، أسرار أمنية محدودة، فتبقى هذه في دائرة ضيقة، وليست هناك مصلحة في اطّلاع الناس عليها، لأنّهم إذا عرفوها فسوف تصل إلى مسامع الأعداء أيضًا، فالتلفاز يسمعه الصديق والعدو، وهناك أمور يجب أن لا يعرفها العدو، ولذا لا يجوز مصارحة الناس بها، وهي أمور محدودة، وعمومًا يجب أن تكون هناك مصارحة للناس، فمن خلال الوضوح والمصارحة والمكاشفة والشفافية ستترتب النتائج التالية:

أولًا: لا يحتاج الناس للذهاب إلى خطوات خارجة عن القانون، من تعدٍ وتجاوز، وسيعرفون الحقيقة منك مباشرة من غير أن يذهبوا إلى طرق ملتوية.

ثانيًا: العلاقات المشبوهة، في عمل الوزارات، أو في العقود والصفقات، هذه العلاقات يجب أن تُكشف وتُوضح؛ بأن يعلن المسؤول أن لديه هذه المشكلة؛ كأن يقول مثلًا: إن هذه الوزارة يسيطر عليها مدير المكتب، والوزير لا حول له ولا قوة، أو إننا نعاني المشكلة الفلانية ونطلب وقوفكم معنا، ومساعدتنا لكي نطوّق هذه الظواهر السلبية، وعندما يسمع الناس منه ذلك، ويعرفون أنهم محل ثقة لدى المسؤول، الذي يصارحهم بما يجري، فسوف يقاتلون من أجله، وكذلك ستنكشف الصفقات في الدهاليز المظلمة، والعقود المشبوهة، والغريبة والعجيبة؛ سفرات لعمان، لبيروت، لإسطنبول.. وعندما يُسألون عن سبب سفرهم، يجيبون أنهم ذاهبون لرؤية تاجر، فهل أنت أيها الوزير ذاهب إلى هناك لرؤية تجار؟ لماذا تعطي صكوكًا مفتوحة لهذا وذاك؟ ما معنى هذا؟ وحينئذ سيقف الناس جميعًا من أجل أن يكون لهم اطّلاع على هذه الأمور، وعندما يكشف المسؤول والقائد عن الحقائق للناس، حينها سيرتجف الفاسدون خوفًا، وكل سيعرف حدّه، وحجمه، وتنتهي هذه الحالات.

(وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفًا فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ، وَاعْدِلْ عَنكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ)، هذا كان منهج أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ منهج المصارحة والمكاشفة.

ورد في نهج البلاغة قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما بويع بالمدينة: «والله ما كتمت وشمة»، الوشمة: الكلمة، النقطة، يقسم أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنه لم يكتم أمرًا قط

ولو كان بمقدار كلمة أو نقطة، «ولا كذبت كذبة»[١٨٤]، ولم أتحدث إليكم بأمر خلاف الواقع، ولم أُخفِ عليكم شيئًا من الواقع، فقد شرحت لكم كل شيء ووضحته، هذا هو منهج المصارحة.

وورد في نهج البلاغة أيضًا من كتاب له عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى أمراء الجيوش: «ألا وإنّ لكم عندي ألاّ أحتجز عنكم سرًا إلاّ في حرب»[١٨٥]، لا أستطيع أن أخرج على شاشة التلفاز وأقول: ستنطلق عمليات الهجوم العسكري غدًا، لأنّ العدو إذا سمع ذلك فسوف يستعد، وستحدث خسائر كبيرة، فيجب أن أخفي مثل هذه الأخبار، لأنها أسرار حربية، وهي أسرار محدودة، لكن ما سواها يمكن أن يطّلع عليه الناس، ويعرفوا كل شيء، لكي يعذروا المسؤول في ما يقوم به من أدوار ومن جهود.

الإضاءة الثانية

تأثير الوضوح والمصارحة في الأداء القياديّ والإداريّ

ما هو تأثير المسؤول والقائد والمدير الذي يصارح ويكاشف ويوضح ويبين؟ يقول أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: إن هذه المصارحة تفعّل المنظومة القياديّة، وتنجح المسؤول في عمله، فلماذا لها هذا الدور؟. الجواب يتلخص بالنقاط التالية:

أولًا: لأنها تشجع كل المسؤولين، وكل المدراء، على أن يتعاونوا بشكل سليم؛ لأنهم يعرفون أنهم بمجرد أن ينحرفوا سيخرج المسؤول الأعلى ويكشفهم أمام الناس، فكل واحد منهم سيلزم طريقه ويمشي مستقيمًا لكي لا يُفضح، فيكون الوضوح والشفافية عنصرًا ضاغطًا على المسؤول دائمًا، ولهذا يجب على المسؤولين، والمدراء، أن يسيروا في الاتجاه الصحيح؛ لئلا ينفضح أمرهم، ويُطردوا من مناصبهم، ويُحالوا على القضاء لينالوا جزاءهم العادل، فالحصانة بالحق فقط، ولا حصانة لأحد بالباطل، فإن سرق المسؤول فعلى الحاكم أن يهتكه ويفضحه أمام الناس ليعرفوا حجم جريمته، فإن أخطأ المسؤول خطأ فادحًا ومتعمدًا فعلى الحاكم أن يشرح ويوضح للناس أنّ المسؤول هو من يتحمل مسؤولية خطئه، ويقيله من منصبه، ويقدمه للقضاء.

---

١٨٤ . نهج البلاغة ١ : ٤٨ كلام ١٦ .

١٨٥ . نهج البلاغة ٣ : ٧٩ كتاب ٥٠ .

ثانيًا: المكاشفة تخلق بيئة سليمة، ليس فيها مخاتلة ومكائد ولعب، بل هي واضحة، فيؤدي ذلك إلى تحسين وتطوير العلاقة داخل المنظومة القياديّة، وإلى تحسين الأداء وتطويره.

ثالثًا: إشراك الناس في ما يدور من أمور، يجعل المسؤولين تحت الأضواء دائمًا، إذ يعلن الحاكم أمام الإعلام حقيقة القضية الفلانية، ويوضح للناس تفاصيلها، وعندما يعرف الناس هذه الحقائق يتولد لديهم الرضا، والانتماء، والحماس، فيدافعون عن مشروعهم، ومنظومتهم القياديّة في إطار وطني، ويرتفع الحس الوطني في تيار سياسيّ، وفي الانتماء لهذا التيار، وكذا يتعمق في إطار المصنع، فيتحسن العمل، ويزيد الإنتاج، عندما يرون أنهم جميعًا شركاء، وأنهم ليسوا مجرد موظفين، أو أُجَرَاء، لأنه عندما يبين لهم، يقتنع الناس حينئذ بأنهم محترمون ومقدرون، وأنه يجب عليهم أن يقفوا مع هذا المشروع، وبالتالي يتم توجيه المسارات بالاتجاه الصحيح عبر المكاشفة والمصارحة.

رابعًا: من خلال المكاشفة والمصارحة يتم اكتشاف الانحرافات بسرعة، إذ يطلب المسؤول من الناس أن يشخصوا له الخطأ، وعندما تتبيّن المشكلة منذ شروعها، فستكون الفرصة أكبر للعلاج والتدارك، قبل أن تتحول هذه الانحرافات إلى ظواهر عامة، حينما تتفشى في المجتمع، فيصبح أمر معالجتها أصعب.

خامسًا: تساعد على سرعة معالجة هذه الانحرافات والمخالفات وتطويقها، فالمصارحة تساعد على سرعة المعالجة، وسرعة طرح الحلول، وتطويق هذه الانحرافات.

سادسًا: توجد بيئة سليمة تساعد على سرعة تحقيق الأهداف المرجوة لهذه المنظومة القياديّة، وتماسك أهدافها، ويكون الناس عارفين بالتحديات، وبالأسباب، وبالقضايا، فالإنسان عدو ما يجهل، أما إذا عرفه فسوف لا يعترض عليه، وربما يندفع نحوه.

سابعًا: تساعد على صلاح الأمة واستقامتها؛ عندما ترى الأمة أن المسؤولين أصلحوا أمرهم، وأنّ أمورهم مكشوفة أمامها، والناس على دين ملوكهم، فإذا كان المسؤولون يسيرون في الطريق المستقيم، فإنّ الناس تسير أيضًا في الطريق الصحيح، وإذا مشى المسؤول مكبًا على وجهه، فإنّ الناس ستندفع في الطريق الخطأ، وستبرر لنفسها الكثير من الأخطاء، (فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ)، هذه المصارحة تقضي على النرجسية، وتجعل المسؤول يتواضع ويتحدث للناس، ويجيب عن أسئلتهم وإشكالاتهم، وتُكسر حالة الاستعلاء والكبر في داخله.

ثامنًا: (وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ)، فيها نوع من الرفق والاهتمام بالرعية، حين تطلعهم على هذه الأمور، (وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ)، وفيها بيان العذر الذي يساعدك على قضاء حاجتك في توجيه الناس التوجيه الصحيح، فالناس لا يسمعون منك إلا إذا جعلوك قدوة لهم، ولا يمكن أن يلتفوا حولك إذا كانت لديهم انطباعات سلبية عنك، إذن، فالإصحار، والمصارحة، والمكاشفة، تساعد في تصحيح صورة المسؤول أمام الناس، فالناس عندما يرونه على حقيقته سيلتفون حوله، ويسمعون منه، وحينئذ يستطيع أن يوجههم ويدفعهم في الاتجاه الصحيح، (وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ)، حاجتك الأساسية هي كيف تقوّم الناس على الحق؟؛ كيف تهدي الناس؟، كيف تنصح الناس؟، وهذا يتحقق من خلال المصارحة والمكاشفة.

السلم والحرب

((وَلاَ تَدْفَعَنَّ صُلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ وللهِ فِيهِ رِضىً ، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ ، وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ ، وَأَمْنًا لِبِلاَدِكَ ، وَلَكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ ، فَخُذْ بِالْحَزْمِ ، وَاتَّهِمْ فِي ذلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ .

وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوّ لَكَ عُقْدَةً ، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً ، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمَانَةِ ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ عزَّ وجلَّ شَيْءُ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا ، مَعَ تَفْرِيقِ أَهْوَائِهِمْ ، وَتَشْتِيتِ آرَائِهِمْ ، مِنَ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ ، وَقَدْ لَزِمَ ذلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ ، لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ ، فَلاَ تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ ، وَلاَ تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ ، وَلاَ تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ ، فَإِنَّهُ لاَ يَجْتَرِئُ عَلَى اللهِ إِلاَّ جَاهِلٌ شَقِيٌّ .

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا أَفْضَاهُ ، بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ ، وَحَرِيمًا ، يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ ، يَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ ، فَلاَ إِدْغَالَ ، وَلاَ مُدَالَسَةَ ، وَلاَ خِدَاعَ فِيهِ ، وَلاَ تَعْقِدْ عَقْدًا تَجُوزُ فِيهِ الْعِلَلُ ، وَلاَ تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ الْقَوْلِ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوْثِقَةِ ، وَلاَ يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللهِ ، إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللهِ فِيهِ طَلِبَةٌ ، لاَ تَسْتَقِيلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلاَ آخِرَتَكَ .

إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءُ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ ، وَلاَ أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ ، وَلاَ أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ ، وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئُ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ ، فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلاَ تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ ، فَإِنَّ ذلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ ، وَلاَ عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللهِ وَلاَ عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ ، لأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ ، وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ سَيْفُكَ أَوْ يَدُكَ بِعُقُوبَةٍ ، فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً ، فَلاَ تَطْمَحَنَّ بِكَ ، نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ)) .

ينقسم هذا المقطع إلى ثلاثة عناوين:

العنوان الأول

السلم والحرب وأحكامهما

(وَلاَ تَدْفَعَنَّ صُلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ ولله فِيهِ رِضىً، فإنَّ فِي الصُّلْح دَعَةً، لِجُنُودِكَ، وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ، وأَمْنًا لبِلاَدِكَ، وَلَكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ، فَخُذْ بِالْحَزْمِ، وَاتَّهِمْ فِي ذلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ)

يتحدث المقطع السابع والعشرون عن السلم والحرب، وأحكام هذين الأمرين الأساسيين؛ أحكام السلم وأحكام الحرب في الرؤية الإسلاميّة، إذ يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الجانب:

(وَلاَ تَدْفَعَنَّ صُلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ): إن كنت في حرب مع عدو، ودعاك إلى الصلح فلا ترفض ذلك؛ (لا تدفعنّ)، لا تمانع.

(ولله فِيهِ رِضى): تارة لا يكون الصلح على وفق موازين أو قواعد؛ إذ يدعوك عدوك إلى الصلح لأنه منهك ويكاد يُهزم بين يديك، وقد اقتربت من الانتصار عليه، وهذا بحث آخر، أما الكلام هنا فهو في الصلح إذا كان فيه رضى لله (سبحانه وتعالى)، فلا ترفضه، ولا تدفعه.

(فإنَّ فِي الصُّلْح دَعَةً لِجُنُودِكَ): للصلح فوائد كثيرة:

أولًا: (دَعَةً لِجُنُودِكَ): تتحول القوات المسلحة من حالة الاستنفار والحرب إلى حالة السلم، وإعادة الانتشار، وإعادة التدريب، ومعالجة الترهل، وترميم الألوية والقطاعات العسكرية التي حدثت فيها انهيارات في المعركة، إلى غير ذلك من الأمور، فالقوات المسلحة بحاجة إلى أن تستعيد قوتها ونشاطها وعافيتها في ظروف السلم، فإن جاءتك فرصة للصلح فاقبل بإيقاف الحرب؛ لكي تتمكن من ترتيب الوضع وإراحة قواتك المسلحة.

ثانيًا : (وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ) : في الحرب هموم جمة ، منها الشهداء والجرحى وعوائلهم ، واستنزاف الإمكانات ، والخراب والدمار الذي تخلفه الحرب ، فالذي يدخل في حرب يعيش همّا مستمرا ، والصلح يريحك قليلًا من هذه الهموم .

ثالثًا : (وأَمْنًا لِبِلاَدِكَ) : عندما تسود أجواء الصلح والسلام ، تكون في حالة استرخاء ، فلا يوجد عدو يهاجمك ، فيكون بلدك في مأمن .

إذن ، في الصلح راحة للقوات المسلحة ، وتخفيف للهموم العامة عند الناس ؛ فإن حالة الحرب لها تأثير في الاقتصاد ، وتأثير نفسي معنوي بين الناس ؛ من فقدان الأحبة ، أو إرسال أحبائهم إلى ساحات المعارك ، إلى غير ذلك ، وربما عاش الكثير منا أجواء هذه الحروب ، ونعرف حجم الأعباء المادية والمعنوية التي يتحملها الشعب والوطن والمسؤولون والقوات المسلحة ، إذ يتحمل الجميع هذه الأعباء في الحرب ، والصلح فرصة لتوفير الأمن في البلاد .

(وَلَكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكِ بَعْدَ صُلْحِهِ) : بعد أن تصالح العدو ، يجب البقاء على أهبة الاستعداد والحذر .

(فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ) : قد يكون الهدف من الصلح هو استغفالك بأنّ الحرب قد انتهت ، فتسود أجواء الفرح والاطمئنان بانتهاء الحرب ، ويرجع الجنود إلى أهاليهم ، ويعم الاسترخاء في البلاد ، وبعدما يستتب الأمن يفاجئكم العدو بالهجوم ، إذن قد لا يكون العدو جادًا في ما يطرح ، فظاهره يريد السلام والصلح ، وواقعه أنه يراك قويًا ولا يستطيع قتالك ، فيدعوك إلى الصلح ، ويتربص بك ، فإذا ما تفككت قواك وفقدت حالة الاستنفار ، غدر بك وانقض عليك ، فاحذر من أن يكون ما دعاك إليه مكيدة .

(فَخُذْ بِالْحَزْمِ) : وأنت في حالة السلم ، وأنت في حال الصلح مع هذا العدو ، يجب أن تبقى حازمًا ، وذلك من خلال وضع خطط واضحة للاستنفار والتعبئة ، وترتيب البيت الداخلي ، والاستعداد للمنازلة التي ربما تقع في أي لحظة .

(وَاتَّهِمْ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ) : ما أجمله من تعبير ؛ يقول : لا تحسن الظن بعدوك ، وإن دعاك للصلح ، فربما كان ذلك منه مكرا وخديعة ، فاتهم حسن ظنك به ، يعني أن حسن الظن في موارد الحذر غير صحيح ، وإياك أن تحسن الظن بالعدو ، فالتسامح والصلح والسلام أمور صحيحة ومطلوبة ومفيدة ، وإذا ما عُرضت على الإنسان يجب أن لا يتركها ، ولكن الثقة بالعدو يحوّل الإنسان إلى حالة يكون فيها مغفلًا ، فينقض عليه عدوه ، فحذارِ من الرضوخ لابتسامة العدو الصفراء ، وحذارِ من نعومة ملمسه ، فإنّ الأفعى كذلك ، فعندما يسألك الصلح فاقبل به ، واستغل الفرصة وعالج بيتك الداخلي ،

ورتب قواتك المسلحة، وخفف من هموم وأعباء الشعب، ووفر الأمن للبلاد، ولكن يجب أن تستثمر مرحلة الصلح لمزيد من التحضير والتهيؤ والاستعداد للمنازلة اللاحقة التي قد تكون وشيكة، فإن غدر بك فأنت على أهبة الاستعداد، وبيدك زمام المبادرة، وحينئذ لن تُمنى بخسارة.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

الإضاءة الأولى

السلم والحرب في الرؤية الإسلاميّة

إنّ الأساس في الإسلام هو السلم والصلح، وليس الحرب، فالحرب ضرورة وليست خيارًا، فنحن لا نختار الحرب، بل هي ضرورة تُفرض علينا، وما دام الخيار بأيدينا، وكان هناك أكثر من خيار، فخيارنا السلم، خيارنا الصلح، خيارنا التفاهم، خيارنا الحوار، ومن يقول إن الحرب خيار، فهذا يعني أن أمامنا أكثر من خيار؛ إما أن نحارب أو نتحاور، فإن اخترنا الحوار فهذا يعني أننا تركنا خيار الحرب، فلا تكون الحرب إلا لضرورة، وذلك عندما تسقط كل الخيارات.

فالأساس في الإسلام هو السلام، والحوار، والتفاهم، وحل المشكلات بالطرق السلمية، وليس الأساس في الإسلام هو الحرب، وعندما ننظر كيف انتشر الإسلام في الجزيرة العربية، هل كان لرسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ جيش جرار قاتل به العرب وانتصر عليهم، وفرض عليهم الإسلام بالقوة؟ الجواب كلا، فقد كان العرب قبائل متناحرة، وكل قبيلة لديها مجموعة من الإمكانات العسكرية المحدودة؛ سيوف ودروع وسهام، وهي تغزو ويقاتل بعضها بعضًا من أجل أهداف وغايات محدودة، نعم كانت قريش أكبر قبيلة، ولها سطوة أكبر، ولها تأثير أوسع، وحاربت رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه جاء بدين يخالف ما في أيديهم من دين يقوم على عبادة الأوثان، ولكن بقية القبائل هي قبائل متناحرة، ولم تكن لديها جيوش، والذي كان يمتلك جيشًا في الصدر الأول للإسلام هو الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية الرومانية، إذ كانت لديهما جيوش جرارة، وكانتا دولتين عظميين آنذاك، أما الجزيرة العربية في العصر الجاهلي فكانت قبائل مشتتة في أعماق الصحراء، إلا القليل ممن استوطن قرى مثل مكة ويثرب والطائف، وكانت كل قبيلة تضعف الأخرى، وربما دخلت في تحالفات صغيرة مع

بعضها في وقت ما، ولم يفرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الإسلام على أحد بالقوة؛ كيف وقد قال له الله (سبحانه وتعالى): ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[١٨٦]، حتى إنه عندما دخل مكة فاتحًا من غير إراقة دماء لم يلزم مشركي مكة باعتناق الإسلام، وإنما قال لهم عندما جمعهم المسلمون في البيت الحرام، وهم ينتظرون أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بهم بالأسر أو القتل: «ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»[١٨٧]، ولم يطلب منهم النطق بالشهادتين، وإنما دخلوا الإسلام بعد ذلك طواعية، وكذا جميع الفتوحات التي خاضها المسلمون في عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وبعده، لم يكره إنسان على اعتناق الإسلام، بل فُرضت عليهم الجزية فقط، مقابل توفير الحماية والأمن لهم بردّ أي اعتداء عليهم، فالإسلام لم يدخل في حرب من أجل نشر الدين، ولم يدخل إنسانٌ فيه بحرب، بل اقتنعوا به؛ بمنطقه، وقيمه، ومبادئه، وأخلاقه، بسمات رسوله ومنطقه، هذه الأمور هي التي جعلت الناس ترغب بالإسلام، فآمنوا به مختارين وليس بالقوة.

نعم هوجم المسلمون فدافعوا عن أنفسهم في غزوات عديدة ومعروفة، ولكن كلها كانت غزوات دفاعية وليست هجومية، فالإسلام لم يعتدِ على أحد، ولم يُرس مفاهيم الاعتداء على الآخرين، نعم يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[١٨٨]، ليس أكثر، هذا هو منهج الإسلام، وكذلك انتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، ووصل إلى بلاد نائية في حينها كأندونيسيا، ودخل عشرات الملايين في الإسلام طوعًا، من غير أن تصل إليها سرية أو فوج - كما يحدثنا التأريخ - فضلًا عن قوات أكبر، ولكن انتشر الإسلام عن طريق تجار ورجال أعمال مسلمين، دعوا الناس إلى الدين بأخلاقهم، وقيمهم، ونزاهتهم، واستقامتهم، فدخل الناس في دين الله أفواجًا، بعد أن اقتنعوا بالإسلام، وكذلك في الصين، آمن عشرات الملايين من الناس بالإسلام من تلقاء أنفسهم، ولم يحدثنا التأريخ عن حروب ومعارك عسكرية أدت إلى دخول هؤلاء الناس في الإسلام، وكذا الأمر في شبه القارة الهندية؛ الهند وباكستان وبنغلادش، وكذا الحال في أفريقيا، فقد دخلت شعوب كثيرة في الإسلام طواعية من غير أن يصل إليها جندي واحد، وهكذا حيثما وجد الإسلام تجده لم يدخل بغزوات

---

١٨٦. سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

١٨٧. الكافي ٣: ٥١٣ ح٢.

١٨٨. سورة البقرة: الآية ١٩٤.

وحـروب ، ولـم يفرض نفسـه على الناس ، بل نفذ إلـى أعماقهم بالفكر والقيم والمبادئ والأخـلاق ، وهـذا هو الذي دفـع المغول إلى اعتناق الإسـلام ، فقد جاء هـؤلاء الغزاة الهمجيون واحتلوا بلدان المسـلمين ، وكان سـلوكهم وحشيًا ، ولم تكن للمسلمين قوة عسـكرية تسـتطيع الوقوف بوجه هؤلاء ، ولكن هؤلاء المغول المكتسحين ، بعد جيلين من احتكاكهم بالمسـلمين بدأت ثقافتهم تتغير ، وتأثروا بالإسـلام واعتنقوه ، ثم ساهموا فـي بنـاء الحضارة الإسـلاميّة ، ونجد اليوم الكثير من اللمسـات والبصمـات التي تركها المغول كجزء من التراث الإسـلاميّ والحضارة الإسلاميّة ، بعد أن جاؤوا معتدين وغزاة وفتكوا وبطشوا ، وينقل المؤرخون أن لون ماء دجلة تغير إلى اللون الأحمر ، لكثرة الدماء التـي أريقـت على أيدي المغول عندمـا دخلوا بغداد ، ولكن حتى هـؤلاء المغول تأثروا بالإسـلام واعتنقوه ، وسـاهموا في بناء الحضارة الإسلاميّة ، بالفكر وليس بالحرب ، إذ لم يكن للمسلمين طاقة بمواجهتهم ومقاتلتهم .

إذن فالسلام يمثل أساسًا رصينًا في الرؤية الإسلاميّة ، في الفهم الإسلاميّ ، والحرب لا تكون إلا لضرورة ، وليسـت خيارًا ، إذ تسـتطيع بالسـيف أن تحتل بلدًا ما ، وتتحكم برقـاب عـدد مـن النـاس ، ولكن هل تسـتطيع بالسـيف أن تدخل إلى قلوبهـم وتتحكم بقناعاتهـم ومعتقداتهـم ؟ كلا طبعًـا ، بـل العكـس هو الصحيـح ، فقد يؤدي اسـتخدام القـوه والسـطوة والظلم إلى ارتدادات عكسـية ، حين يتصلب الناس أكثـر في قناعاتهم وأفكارهم ، وإن كانوا يتصنعون الطاعة أحيانًا لأن السـيف على رقابهم ، ولكن قناعاتهم ومبادئهم ومشاعرهم لا تنسجم مع قناعات الجلاد ومبادئه ومشاعره .

إنّ هـذا الحجـم من التفاعل الوجداني والمعنوي مع الرسـالة الإسـلاميّة ؛ مع قيمها السـمحاء ، مـع مبادئها ، مع مثلها ، مع أخلاقها ، مع سـيرة الرسـول الأكـرم وأهل بيته عَلَيۡهِمُ‌ٱلسَّلَامُ ، هـذه كلهـا لا تنسـجم مع فرض هـذه العقيدة علـى الناس بالعنـف والقوة ، وأنها انتشـرت بالسـيف والفتك والبطش ، فالعقائد لا تُفرض بالقوة ، والقلوب لا يمكن السيطرة عليها بالقوة ، فمفتاح القلوب شيء آخر ، وهذا الحجم من التفاعل مع الإسلام هـو دليل على أن الإسـلام ليس دين حرب وعنف وقوة ، علـى خلاف بعض الصيحات الشاذة والمنحرفة التي ترى أن الإسلام انتشر بالسيف وقوة السلاح ، فهذه قراءة مغلوطة ومعوجة .

آيات الحرب والسلم في القرآن الكريم

نجد كثيرًا من الآيات القرآنية الشريفة تندد بشدة بمظاهر الفساد في الأرض، ومن أوضح مصاديق الفساد هي الحروب والقتال وإراقة الدماء؛ فهناك أربع وثلاثون آية في القرآن الكريم تركز على هذه الحقيقة، وتدين الفساد في الأرض وإراقة الدماء والحروب؛ ففي سورة البقرة ورد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾(١٨٩)، إذ لا يوجد من يأتي ويقاتل ويقول أنا مفسد، وهذه من أخطر الأمور، فالكثير من الحروب الدموية تبحث لنفسها عن غطاءات وتبريرات، كالوطنية، القداسة، استغلال الدين، استغلال العناوين المقدسة عند الناس، لتحقيق أجندة السلطة والتحكم، واستنفار الناس لتحقيق مآرب ومصالح خاصة للحكام.

والحق أن الحرب لا ينبغي أن تكون إلا لتحقيق مصلحة عامة، أو لدفع ضرر ومفسدة عامة، ولكن نزوات بعض الحكام وطموحاتهم في توسيع نفوذهم هي التي تشعل فتيل الحروب بين الشعوب أحيانًا، أو الدوافع العرقية والشعور بتفوق عرق ما على عرق آخر هي التي تقدح نيران حرب ضروس بين الأمم تارة أخرى، وقد عشنا في بلادنا هذه التجارب المرة لدور النزوات الشخصية للحكام في صنع الحروب، ولم يكن للمصالح العامة أي دور فيها، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(١٩٠)، إذا لم تكن إراقة الدماء وتدمير حياة الناس فسادًا، فما هو الفساد إذن؟.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١٩١)،

وقال أيضًا: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١٩٢)، في إشارة إلى الفاسقين الذين ينقضون عهد الله بعصيانهم، بذنوبهم، بآثامهم، وقد أمرنا الله (سبحانه وتعالى) أن نتواصل مع كتابه الكريم - الثقل الأكبر - ومع رسوله وأهل بيته - الثقل الأصغر - وهؤلاء يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، فالكتاب عندهم مهجور، سواء بتلاوته أو بترك العمل بمضامينه،

١٨٩. سورة البقرة: الآية ١١.

١٩٠. سورة البقرة: الآيات ١١- ١٢.

١٩١. سورة الأعراف: الآية ٨٥.

١٩٢. سورة البقرة: الآية ٢٧.

وكذلك لا يتبعون رسول الله وأهل بيته الكرام ويعصونهم، بل يحاربونهم، ويقتلونهم، ويسجنونهم، ويحاصرونهم في بيوتهم، وينفونهم، وهؤلاء أعظم الناس خسارة، وهو من أجلى مصاديق الفساد في الأرض.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾، من هم هؤلاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا؟ هم: العصابات المسلحة، أولئك الذين يروعون الناس بالسلاح، المليشيات المنفلتة والخارجة عن القانون، فهؤلاء جميعًا يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا، فيعتدون على أموال المسلمين، وعلى أعراضهم وحرماتهم، وحكم الله (سبحانه وتعالى) بحق هؤلاء هو: ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾، قتل هؤلاء المفسدين في الأرض؛ بالإعدام شنقًا، ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾، إذا لم يُقتلوا يجري صلبهم حتى يموتوا صلبًا، وذهب بعض المفسرين إلى أنهم يقتلون ثم يصلبون نكاية وشدة لكي يرتدع المجتمع عن سلوكهم.

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾، تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وحتى هذه فيها عدل، فإذا قطعت يده اليمنى ورجله اليمنى يختل توازنه فلا يستطيع أن يمشي، ولا يستطيع أن يتحرك ويعيش، فالحكمة في قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى هي لكي يستطيع أن يحافظ على توازنه ويتمكن من المشي، فالله (سبحانه وتعالى) رؤوف حتى بحق هذا المجرم.

﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾، النفي هو الإبعاد، ولكن هل يتحقق هذا الإبعاد من محل إقامته، أو يبعد من مكان جريمته؟ اختلف المفسرون، واختلف الفقهاء أيضًا في حكمه، ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[193]، الخزي في الدنيا يتحقق بالقتل والصلب أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف، أو النفي من الأرض، ولكن هذا العذاب الدنيوي الشديد الذي يصل إلى القتل، لا يسقط عنهم العذاب الأخروي، فهذه كلها في الدنيا، وأما في الآخرة: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ربما تستبدل عقوبة القتل العمد في الدنيا من القصاص إلى الدية إذا أراد أولياء الدم ذلك، أو هناك بعض العقوبات من حدود وتعزيرات في بعض الذنوب أن أجريت في الدنيا، طهر صاحبها بعدها ورفعت عنه العقوبة الأخروية، أما جريمة السطو المسلح، وترويع الناس، والقيام بعمل لا يتناسب مع السلم المجتمعي، فلها تبعات وآثار حتى في الآخرة، مهما كان العذاب الدنيوي شديدًا، فلهم في الآخرة عذاب عظيم أيضًا.

---

١٩٣. سورة المائدة: الآية ٣٣.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، عمّ الفساد في كل مكان، فما هو سببه؟ ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾، الناس هم الذين أفسدوا، ونشروا هذا الفساد، ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾[194] الله (سبحانه وتعالى) جعل للفساد والانحراف السلوكي أثرًا وضعيًا، إضافة إلى الآثار المعنوية والأخروية، والأثر المادي مباشر: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، لعلهم يرجعون عن مواقفهم، ويصلحون مواقفهم، ويتخلون عن انحرافاتهم. هذه طائفة من الآيات ذكرنا بعضها، وهناك العديد من الآيات الأخرى في هذا الاتجاه.

ومن جانب آخر نجد أن عددًا كبيرًا من الآيات القرآنية دعت إلى السلام والصلح من خلال نفي الفساد والتحذير منه وإدانته، فإذا لم يكن فساد ووجد صلح فهذا جانب، والجانب الثاني أن هناك آيات قرآنية شريفة دعت بشكل مباشر وصريح إلى السلم والصلح، وبعض هذه الآيات أشارت إلى أهمية السلام بشكل عام، وأعطت قواعد عامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾[195]، أنت صائم فلا تقسم بالله، وقل عوضًا من ذلك: أنا صائم، بل لا تجعل الله تبارك وتعالى على لسانك في كل شيء، وفي كل الأحوال، فعلينا أن لا نأتي بلفظ الجلالة بين كلمة وأخرى، وعلينا أن نترك قول: لا والله، وإي والله، لماذا تبيع الله (سبحانه وتعالى) في كل قضية؟ لماذا تأتي باسم الله جل جلاله في كل موضوع؟، لا تستخدموا لفظ الجلالة في كل يمين، وفي كل قضية تريدون إثباتها.

أولًا: لماذا تقسم؟ هل أنت شاك بنفسك؟ هل عندك أزمة ثقة بنفسك؟ هل ضعفت شخصيتك أمام هذا الذي سألك، فأحسست بأنك متهم فتحلف لترضيه؟ لماذا تأتي بالقسم عندما يسألك أحدهم سؤالًا؟ ليس هناك حاجة إلى الحلف، حاولوا أن تتخلصوا من هذه العادة السيئة.

ثانيًا: ﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾، لا تقسم على أن لا تبرّ، فبعض الناس إذا فعل لأحدهم خيرًا ولم ينفع معه، يقسم بالله أن لا يعمل خيرًا لأحد من الآن فصاعدًا، أو هناك شخص واقف يصلي جماعة، وأخرجته دفعة من حالة الاستقرار فبطلت صلاته، فيقول: والله، من الآن فصاعدًا لن أحضر صلاة الجماعة، فالله يقول: لا تقسم على أن لا تبر، على أن لا تتقي، لا تقسم على أن لا تصلح بين الناس، هذا لا تفعله أبدًا،

---

١٩٤ . سورة الروم: الآية ٤١ .

١٩٥ . سورة البقرة: الآية ٢٢٤ .

ومثال القسم على ترك الصلح : رجل دخل في فض نزاع عشائري يريد أن يحل مشكلة ، فجاءت ولده طلقة فقتلته ، فيقسم بالله أن لا أشترك بعد اليوم في حل أي نزاع عشائري ، والآية الكريمة تخاطبه بأن لا يقسم على ترك الإصلاح بين الناس ، مهما كانت مضاعفات الصلح والسلام ، فإنّ إخفاقك في بعض التفاصيل يجب أن لا يمنعك من السعي في الصلح ، ﴿اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[196] .

وفي هذا السياق أيضًا وردت الآيات الكريمة التالية :

قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[197] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[198] .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[199] .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[200] .

ويطول بنا المقام إذا أردنا استعراض هذه الآيات وإن كانت فيها دروس كبيرة ، ولكن الوقت لا يستوعب بيان هذه الآيات الشريفة .

أما بشأن الآيات التي تشير إلى السلام والصلح في موارد خاصة ، وليس على نحو العموم ، فمن الممكن مراجعة الآيات التالية :

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[201] .

وقوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[202] .

---

١٩٦ . سورة البقرة : الآية ٢٤٤ .

١٩٧ . سورة الأنفال : الآية ١ .

١٩٨ . سورة هود : الآية ١١٧ .

١٩٩ . سورة النحل : الآية ١١٩ .

٢٠٠ . سورة الأعراف : الآية ٥٦ .

٢٠١ . سورة البقرة : الآية ١٨٢ .

٢٠٢ . سورة البقرة : الآية ٢٢٠ .

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٢٠٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[٢٠٥].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾[٢٠٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٢٠٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢٠٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢٠٩].

فهذه كلها آيات تشير إلى موارد خاصة في الصلح والسلام والهدنة، وليس السلام بمعناه الواسع والعام.

ومنها: آيات جاءت بصيغة التقريع لمن يخالف السلم والصلح؛ تقرّع من يرفض، أو يمنع، أو لا يستجيب، لصلح في نزاع جرى بينهم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[٢١٠].

---

٢٠٣. سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

٢٠٤. سورة الشورى: الآية ٤٠.

٢٠٥. سورة النساء: الآية ٣٥.

٢٠٦. سورة النساء: الآية ٤٥.

٢٠٧. سورة النساء: الآية ١٢٩.

٢٠٨. سورة الحجرات: الآية ٩.

٢٠٩. سورة الحجرات: الآية ١٠.

٢١٠. سورة الشعراء: الآية ١٥٢.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[٢١١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢١٢].

ففي هذه الآيات تحذير شديد وتقريع لمن يردّ الصلح والسلام إذا ما عرض عليه.

ومنها: آيات توبخ وتقرع المفسدين، وقلنا إنّ الحرب وإراقة الدماء أوضح مصاديق الفساد، كما ورد ذلك في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٢١٣].

ومنها: آيات تضمن عدم ضياع جهود المصلحين، فعندما تضع يدك لتصلح بين شخصين، بين حزبين، بين بلدين، بين جماعتين، بين متخاصمين، فهناك ضمان إلهي بأنّ جهدك هذا لن يضيع، حتى لو لم يثمر هذا الصلح ولم يتكلل بالنجاح، فجهدك محفوظ، كما جاء في قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[٢١٤].

ومنها: الآيات التي تشير إلى ضرورة السلم والصلح، كما ورد في الآيات التالية:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٢١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٢١٦].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[٢١٧].

ومنها: الآيات التي تشير إلى أهمية السلم والصلح والهدنة حتى مع الآخرين الذين لا يحاربون المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم، فطالما أن هؤلاء لم يحاربوكم، ولم

---

٢١١. سورة النمل: الآية ٤٩.

٢١٢. سورة الأعراف: الآية ٥٦.

٢١٣. سورة البقرة: الآيات ١١ - ١٢.

٢١٤. سورة الأعراف: الآية ١٧٠.

٢١٥. سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

٢١٦. سورة الأنفال: الآية ٦١.

٢١٧. سورة النساء: الآية ٩٠.

يضغطوا عليكم ليخرجوكم من أرضكم ، فيجب أن تكونوا معهم في تعاون ، في سلام ، كما ورد ذلك في الآيات التالية :

قوله تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٢١٨) .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾(٢١٩) .

ومنها : ضرورة قبول لجوء من يلتجئ إلى المسلمين ويلوذ بهم ، فإذا جاءك شخص واستجارك ولاذ بك ، فيجب أن تقبل به وتعينه في هذا الأمر ، كما ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢٢٠) .

وكذا تجدون طائفة كبيرة من الآيات القرآنية تتحدث عن الصلح والسلم ، وأنه هو الأساس ، وتحذر من عدم الانصياع للسلم وعدم القبول به ، والمصالحة مع الآخر المؤمن ، بل حتى مع غير المؤمن ، كما في الآية السابقة من سورة التوبة .

إذن فالحرب مدانة ، إراقة الدماء مدانة ؛ لأنها تسلب الأمن والحريات من الناس ، فإذا كانت هناك حرب فمعنى ذلك أن هناك ظروف طوارئ ومحددات لا تمكّن الإنسان من التحرك بحرية ، ويوجد أيضًا مستوى هائل من الخراب والدمار ، وهذا شيء كبير يدعو إلى تجنب الحروب ، وكذلك تجبر الناس بشكل واسع على النزوح وترك بلادهم وأراضيهم وبيوتهم ، فإذا اندلعت الحرب في مكان ، فلا يستطيع الناس البقاء فيه حفاظًا على حياتهم ، ويوجد لدينا اليوم مئات الألوف من النازحين ، ونحن الآن بعد انتهاء الحرب بسنين ، غير قادرين على إرجاعهم إلى مدنهم وقراهم ، وكذلك تتسبب الحرب بخسائر بشرية كبيرة وتترك جيوشًا من الأرامل والأيتام والجرحى والمعوقين ، وخسائر مادية هائلة تقدّر بالمليارات ، لذلك فالحروب غير مرغوب بها ، إلا عند الضرورة القصوى ، كما سنتناوله في أبحاثنا القادمة .

---

٢١٨ . سورة الممتحنة : الآية ٨ .

٢١٩ . سورة النساء : الآية ٩٠ .

٢٢٠ . سورة الكافرون : الآية ٦ .

الحرب ثقافة جاهلية

الحرب – بما هي حرب – ثقافة جاهلية؛ كل فرد سلاحه بيده، وإصبعه على الزناد، متهيئ للقتال في أي لحظة، وهناك أناس تطلب الشر وكأنها مجبولة عليه، وتدخل في صراع مميت بشأن أبسط قضية. . على مهلك، لماذا تتوثب بسرعة إلى الشر والقتل من غير أن تترك فرصة للخيارت الأخرى؛ بأن تتحرك لحل المشكلة، لماذا تؤذي أبناء الناس وتلقي بهم إلى المهلكة؟ لا تجري الأمور هكذا، فآخر الدواء الكي، وخيار الضرورة حينما تنفد كل الخيارات، والحرب آخر خيار وليس أول الخيارات.

ولأنّ الحرب تحمل وحشية بربرية يرافقها انحطاط بشري دائمًا، تتعرض المجتمعات إلى اهتزازات وتراجع خطير في القيم والمبادئ أثناء الحروب، لذلك علينا أن نتجنب الحرب جهد الإمكان، لأنها ابتعاد عن منهج الأنبياء والمصلحين، الذين منهجهم منهج سلم، منهج ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٢٢١).

الحرب ثقافة جاهلية، وقد ورد في نهج البلاغة خطبة طويلة تسمّى بالقاصعة، تحتوي على مضامين عظيمة، والقاصعة من القصع، وهو التحقير، والخطبة القاصعة هي الخطبة التي يحقر فيها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ المتكبرين، ولعل الله تبارك وتعالى يوفقنا – بعد أن ننهي هذه الأبحاث – لشرح وبحث هذه الخطبة التي تتضمن مداليل أخلاقية واجتماعيّة كبيرة.

يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في مقطع من هذه الخطبة الطويلة إلى ظروف وأوصاف وسمات المجتمع الجاهلي في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكيف أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عندما جاء بالرسالة الإسلاميّة استطاع أن يغيّر من طباع هذا المجتمع، ويصف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ سمات المجتمع الجاهلي في الجزيرة العربية، فيقول:

«وأطباق جهل»، كان المجتمع منغمسًا بالجاهلية، جهل علم، وعدم معرفة.

«من بنات موؤودة»، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ على مضض ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٢٢٢)، وبقوله تعالى:

---

٢٢١. سورة النحل: الآية ١٢٥.

٢٢٢. سورة النحل: الآية ٥٨ – ٥٩.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[٢٢٣]، فكان من تلد امرأته بنتًا أمام خيارين: إما أن يبقيها حية ويستشعر الذلة في المجتمع، أو يدفنها وهي على قيد الحياة.

«وأصنام معبودة»، تركوا عبادة الله الواحد الأحد، وتمسكوا بعبادة الحجر.

«وغارات مشنونة»[٢٢٤]، كانت الغارات في كل مكان وزمان في أرجاء الجزيرة العربية، وكانوا يتفاخرون بالقتل والسلب والنهب، وهذه سمة بارزة من سمات عرب الجاهلية، فكانت عصابات السلب والنهب تقطع الطرق وتتربص بالقوافل التجارية لسرقتها.

وورد في نهج البلاغه أيضًا نهي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أدنى مستويات القتال، وهي حالات الدعوة للمبارزة، فضلًا عن الدعوة إلى الحرب، التي تهلك فيها أعداد كبيرة، والمبارزة أن يتحدى أحدهم شخصًا ويدعوه للقتال، وأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ينهى عنها مع أنها ليست حربا على نطاق واسع؛ إذ يقول عليه السلام: «لا تدعونّ إلى مبارزة»[٢٢٥]، لا تدعُ أحدًا للمبارزة، وبالتالي إما أن تموت أنت أو يموت هو، حتى لو كان المقتول شخصًا واحدًا فهو كثير.

وفي نهج البلاغة أيضًا خطبة يصف فيها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الدنيا، بأنها: «دار حرب وسلب، ونهب وعطب»[٢٢٦]، هذه سمات الدنيا التي كانت في ذلك الوقت، فلا ترى الناس في الدنيا سوى الحروب والسلب والنهب والدمار.

وتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبة من نهج البلاغة أيضًا عن الحرب فقال: «إنّ الفتن إذا أقبلت شبّهت»[٢٢٧]، يعني أن الحرب لا تضيّع الحق فقط، بل تخلط الأوراق أيضًا، وتوفر غطاء للباطل بأن يجد له مبررًا، ووقوع الحرب يؤدي إلى ارتفاع صوت الباطل، وخفوت صوت الحق، فتشتبه الأمور وتختلط؛ من هو على الحق ومن هو على الباطل، ففي الحروب تختلط الأوراق.

---

٢٢٣. سورة التكوير: الآيات ٨ – ٩.

٢٢٤. نهج البلاغة ٢: ١٥٣ الخطبة١٩٢.

٢٢٥. نهج البلاغة ٤: ٥٢ الحكمة ٢٣٣.

٢٢٦. نهج البلاغة ١٦٢: ٢ الخطبة١٩١.

٢٢٧. نهج البلاغة ١: ١٨٣ الخطبة ٩٣.

وورد في كتاب لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في نهج البلاغة، قال: «من تعدّى الحق ضاق مذهبه»[٢٢٨] يعني أن من تجاوز الحق ودخل الحرب، «ضاق مذهبه»، ضاع دينه، وذهبت قيمه، واهتزت أخلاقه، وارتبك إيمانه، وهذه كلها في الحروب غير المشروعة، وسنتحدث عن الحرب المشروعة.

من أعراض الحرب أن تأخذ أولاد الناس وتذهب لسفك الدماء ونشر الخراب والدمار، وقد ورد في نهج البلاغة حكمة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال فيها: «بئس الزاد إلى المعاد؛ العدوان على العباد»[٢٢٩]، أسوأ زاد ووزر يأخذه الإنسان إلى يوم القيامة هو العدوان على العباد؛ بأن تعتدي على عباد الله وتشن حربًا عليهم.

وورد عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ في غرر الحكم: «من زرع العدوان حصد الخسران»[٢٣٠]، الاعتداء ليس له نتيجة، بل هو خسارة سواء انتصرت أو هُزمت، فأنت خاسر في كل الأحوال، حتى مع الانتصار، كما في الحرب بين نظام صدام والجمهورية الإسلاميّة، وفي حرب الخليج، إذ ذهب عشرات الألوف من أبناء الشعب العراقي، فلو كنت منتصرًا فأنت خسران في الحقيقة، فكيف إذا كانت الحقيقة غير ذلك؟، وعندما تنتهي الحرب وتذهب فرحة الصلح، ترى أن الحرب خلفت وراءها جيوشًا من الأرامل والأيتام والخراب والدمار، وهذه الترليونات من (١٩٦٨) إلى (٢٠٢٠) التي نحن الآن فيها، لو كانت هذه الأموال التي أنفقت في التسليح وهذه الحروب المدمرة، قد أُنفقت على بناء العراق، لكان العراق اليوم بلدًا متطورًا اقتصاديًا، وذا بنية تحتية قوية ومتقدمة.

منهج علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحرب والسلم

ورد في حكم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في نهج البلاغة: «الغالب بالشر مغلوب»[٢٣١]، الغالب مغلوب، الغالب خسران، فكيف حال المنهزم المغلوب؟ إذا انتصرت في حرب غير مشروعة فأنت خسران.

إذن يرى علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الحرب وإراقة الدماء شرٌ ورذيلة، ويرى السلام والصلح خيرًا وفضيلة، هذا هو منطق علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنطق الإسلام، وعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ في حروبه

---

٢٢٨. نهج البلاغة ٣: ٥٥ كتاب ٣١.

٢٢٩. نهج البلاغة ٤: ٤٩ الحكمة ٢٢١.

٢٣٠. غرر الحكم: ٨٠٣٣ نقلاً عن ميزان الحكمة ٣: ١٨٤٧ ح٢٥٥٩، عيون الحكم والمواعظ: ٤٣١.

٢٣١. نهج البلاغة ٤: ٧٨ الحكمة ٣٢٧.

الثلاث - الجمل والنهروان وصفين - لم يقدم على تلك الحروب إلا مضطرًا، ذكر ذلك ابـن الأثير الشـيباني في كتابه (الكامل في التأريخ)، وذكرها ابـن جرير الطبري في كتابه (تأريخ الأمم والملوك): سـأل عامر بن مطر الشـيباني أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين خرج نحـو البصـرة في حرب الجمل: على ماذا تقدم؟ فقال لـه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «والله مـا أريـد إلا الصلح حتى يُـردَّ علينا»، يعني إلا إذا ردّوه علينا، ولم يتركوا لنا خيارًا إلا أن نقاتلهم، فنحن ذاهبون لصلح معقول ولسنا ذاهبين للقتال، تلك المظلومية في خلفيات حرب الجمل كما تعرفون.

وفـي الواقعة نفسـها يروي ابـن الأثير والطبري: «فلما أراد علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المسـير من الربذة إلى البصرة، قام إليه ابن لرفاعة بن رافع، فقال: يا أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أي شيء تريد؟ وأين تذهب بنا؟ فقال: أما الذي نريد وننوي فالإصلاح، إن قبلوا منا وأجابوا إليه، قـال: فـإن لم يجيبونا إليه؟ قال: ندعهم بعذرهم، ونعطيهم الحق ونصبر، قال: فإن لم يرضـوا؟ قال: ندعهم ما تركونا، قال: فـإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم، قال: فنعم إذن»[٢٣٢].

هذا هو منهج علي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع من خرجوا عليه بالسـلاح واحتلوا مدينة من المدن الكبيرة، وأراقوا فيها الدماء، فهو لم يبدأ مع هذا كله بطلب الاستسـلام منهم أو الحرب، بل جاءهم براية الإصلاح بشـرط أن يقبلوا منه ويسـتجيبوا له، وكان نهجه - كمـا ذكـره في هذه الرواية - أنهم إن لم يقبلوا بالإصلاح ولم يسـتجيبوا له فلا ينتقل إلى خيـار الحرب، بل يتركهـم بالعذر الذي خرجوا به، وهو المطالبة بدم عثمان، ويعطيهم الحـق ويفوض أمره إلى الله (سـبحانه وتعالى) ويصبر، فإن لـم يرضوا بذلك أيضًا، فلا ينتقـل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى خيار الحرب، بل يتركهـم ما تركوه، وكيف يتركونه وهم يعلمون أن عليًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا يترك البصرة بأيديهم يعيثون فيها فسـادًا، وإنما سـيتدخل سـلميًا لإعادة سـيطرته عليها وإخضاعها إلى نفوذه باعتباره الخليفة الشرعي الذي بايعه المسلمون كما بايعوا من قبله، فإن لم يتركوه يمارس دوره الشرعي كما يمارسه في باقي ولايات الدولة الإسلاميّة، ولجؤوا إلى السلاح والقتال لمنعه من بسط نفوذه، وهاجموه وأعلنوا الحرب عليه، فحينئذ تسقط كل الخيارات الأخرى، ولا يبقى له سوى القتال للدفاع عن النفس، وهكـذا يكـون علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ معذورًا أمـام الله عز وجل في حروبه جميعًـا؛ لأنه اتّبع هذا المنهج السلمي والسليم، ومعذورًا أيضًا أمام المسلمين، بل وأمام الإنسانية جميعًا.

---

٢٣٢. الكامل في التاريخ ٣: ٢٢٤. تاريخ الأمم والملوك ٤٧٩: ٤.

مـن يرفـض أن يدخل بطاعتي وجلـس في مكانه أقبل منه ، مـن يرفض أن يدخل في طاعتـي ويتكلـم ضدي ولا يقوم بعمل عسـكري أقبـل منه أيضًا ، ولكـن من يدخل في طاعتي ولا يقبل صلحي ويرفع سـلاحه بوجهي ، فهنا لا أقول له تعال واقطع رأسـي ، بل أدافع عن نفسي وامتنع منه .

ورد في غرر الحكم قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ : «أفضل النصح الإشارة بالصلح»[٢٣٣] ، أفضل نصيحة تقدمها لإنسان يستنصحك هي المشورة بالصلح ، فلا ينبغي أن تقول حين يخبرك أنه قطع علاقته بأحد إخوانه المؤمنين : حسنًا فعلت ، بل قل له : هذا شهر رمضان ، شـهر الرحمـة والمغفرة ، ونحـن نقترب من ليالي القدر ، ونريـد أن نرفع أيدينا بالدعاء ، ونطلب من الله (سـبحانه وتعالى) أن يصفح عنا ، وإذا كنت تريد أن يصفح الله (سـبحانه وتعالى) عنك فينبغي أن تصفح عن أخيك المؤمن ، وقل له : لسـت أنا المحق ، بل أنت المحق ، وإن كان أخوك في الواقع هو المقصر وأنت المحق ، ولكن ابتدئه بالعذر ، ارحم تُرحم ، اصفح يُصفح عنك ، تسامح لكي تحصل على المغفرة الإلهية في ليلة القدر .

وورد فـي نهـج البلاغة مـن كلام لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد أشـار عليه أصحابه بالاسـتعداد لحرب أهل الشـام بعد إرسـاله جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية ، وكان ذلك بعد أن أرسـل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ رسـائل عدة إلى معاوية ، واسـتفرغ وسعه معه في النصيحة وإلقـاء الحجـة ، ولم تنفـع في رجوعه إلى الطاعة ، وقد جاء جريـر بن عبد الله البجلي ، وكان صديقًـا لمعاويـة ، إلـى أميـر المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وطلـب منه أن يذهب إلـى معاوية ويتحـدث إليـه لعله يقنعه ويرجعه إلى جادة الصواب ، فقبل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وحدّد له وقتًا لرجوعه ، وذهب جرير إلى الشام ، وطلب أصحاب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ منه أن يستعد للحرب ، فقال :

«إنّ اسـتعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم إغلاق للشام» ، كان طلب أصحاب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ منه الاستعداد للحرب قبل رجوع جرير في الموعد المحدد ، يخالف أخـلاق المفاوضات ، وهدمًا لجهود المصالحـة ، وذريعة لمعاوية في رفض التفاوض ، ومعنى عبارة «إغلاق للشـام» ، هو أن مهمة جرير ستفشـل بكل تأكيد ، وإن كان احتمال نجـاح جريـر بمهمته ضئيلا جدًا لا يعادل واحدا بالألـف ، ولكن مع ذلك ينبغي أن ننتظر إلى حين رجوعه في الموعد المقرر ، فالاسـتعداد للحرب سـيجهض جهود جرير ، وهو عندهم الآن .

---

٢٣٣ . غرر الحكم : ح٩٣٧٩ ، ح٩٠٠٠ ، نقلاً عن موسوعة أحاديث أهل البيت ٦ : ١٤٢ح ٧٠٧٠ .

«وصرف لأهله»، لأهل الشام.

«عن خير إن أرادوه»، قد يهديهم الله (سبحانه وتعالى) لقبول الصلح، والاستعداد والتحضيرات للحرب سد باب الخير ومنعهم من قبول الصلح.

«ولكن قد وقّت لجرير وقتًا»، حددت له وقتًا لرجوعه من الشام، ولم أترك الوقت مفتوحًا له.

«لا يقيم بعده إلا مخدوعًا أو عاصيًا»، فإن أقام هناك بعد المدة المحددة له فهو إما مخدوع من معاوية، الذي أخذ يسوف ويماطل من أجل كسب الوقت؛ أنظرنا لغد أو بعد غد حتى نرى رأينا، أو استرح بعض الوقت حتى يزول عنك عناء السفر، وأمثال ذلك من ألوان الخداع، أو يكون جرير عاصيًا، وانحاز إلى معاوية أصبح ضدنا، ولذا وضعت وقتًا معقولًا، وإذا لم يستطع أن يصل إلى حل ضمن هذا الوقت فسنكون في حلّ منه، ونستطيع حينها أن نستعد ونتعبأ للحرب.

«والرأي عندي مع الأناة والصبر»، وهنا انظروا الى حرص أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ على أي فرصة ولو ضئيلة للصلح وتجنب الحرب.

«فأرودوا»، يعني أرفقوا، أي على مهلكم، لا تستعجلوا، رويدًا رويدًا، أمهلوا جريرًا لعله يستطيع النجاح، «ولا أكره لكم الإعداد»[٢٣٤]، ولكن أحب لكم الاستعداد والتهيؤ على المستوى الشخصي؛ كل شخص منكم داخل بيته، يحدّ سيفه، ويهيئ رمحه وقوسه وسهامه، ويهيئ فرسه وقوته وقوت عياله، فهذه لا مانع منها، ولكني أنا علي بن أبي طالب خليفة المسلمين لا أدعوكم بشكل رسمي للتهيؤ والاستعداد، فأجهض جهود الصلح التي يقوم بها جرير.

وورد في خطبة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن سمع كلام الحكمين في واقعة التحكيم بصفين، وهي خطبة طويلة أذكر لكم منها محل الشاهد فقط:

«وأما قولكم: لمَ جعلت بينك وبينهم أجلًا في التحكيم»، اعترض عليه جماعة من عسكره: لماذا جعلت وقتًا للتحكيم؟ وهنا يجيب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن هذه الشبهة، بقوله:

«فإنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل»، ليحصل الجاهل بالأمور على المعرفة.

---

٢٣٤. نهج البلاغة ١: ٩٣ الكلام ٤٣.

«ويتثبت العالم» ، العالم قلق ويطلب دليلًا ليطمئن قلبه ، ويستطيع خلال هذا الأجل أن يتثبت .

«ولعل الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة»[٢٣٥] ، هذا الاحتمال بأن يفضي التحكيم إلى هدنة وصلح ، ولكي يعلم الجاهل ، ويطمئن قلب العالم حين تتضح له الأمور أكثر ، هذه هي الأسباب التي جعلتني أضع أجلًا لهذه الهدنة ، فانظر إلى الاهتمام الكبير بالصلح والسلام ما دام ممكنًا .

وورد في نهج البلاغة في خطبة له عَلَيْهِ السَّلَامُ فيها مضامين مهمة ، وأذكر هنا الشاهد ، وهو دعاؤه عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الخطبة :

«اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان» ، لم نتصدَّ لكي ننافس الآخرين على سلطة وكرسي ومواقع .

«ولا التماس شيء من فضول الحطام» ، أو من أجل جمع المال ، أو الحصول على شيء من حطام الدنيا الزائل ، فلم تكن هذه الدنيا وراء هذا التصدي وتحمّل كل هذه الأعباء ، «ولكن لنرد المعالم من دينك» ، ومعالم الدين هي ما ذكرته الآية الشريفة : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[٢٣٦] ، نريد أن نحفظ معالم دين الله ، ونظهر الإصلاح في بلاد الله ، وهذا هو الشاهد ؛ أن هدفه في التصدي هو أن يصلح ، يوقف الحروب ، يوقف الفساد .

« فيأمن المظلومون من عبادك» ، أن يكون هؤلاء المظلومون في أمان وراحة .

«وتقام المعطلة من حدودك» ، تطبق الحدود الإلهية المعطلة في المجتمع ، هذا هو الهدف .

«اللهم إني أول من أناب ، وسمع وأجاب ، لم يسبقني إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالصلاة»[٢٣٧] ، أنا أول من لبّى دعوة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، ولبيت نداء الصلح والسلام الوارد في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ ، إذا قبلوا بالسلام فاقبل به أنت أيضًا ، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٣٨] .

---

٢٣٥ . نهج البلاغة ٥ : ٢ الخطبة ١٢٥ .

٢٣٦ . سورة الحج : الآية ٤١ .

٢٣٧ . نهج البلاغة ١٣ : ٢ الخطبة ١٣١ .

٢٣٨ . سورة الأنفال : الآيات ٦١- ٦٢ .

نسأل الله التأييد والتسديد، وأن نكون دائمًا دعاة سلام، دعاة صلح، ودعاة تقارب بين الناس، وأن نعمل بهذا الأمر بكل ما أوتينا من قوة.

الإضاءة الثانية

السلم هو الأساس في الحفاظ على المجتمع

إن السلم وإن كان يمثل الأساس في التعامل والتعاطي في الاختلافات التي تحصل مع الآخرين، ولكنه الأساس أيضًا في الحفاظ على المجتمع؛ الحفاظ على الأمن والسلم المجتمعيين، الحفاظ على الأرواح، الحفاظ على الممتلكات، الحفاظ على القيم، أما إذا كان السلم والهدنة يؤديان إلى أن تُداس كرامة الإنسان، تداس العزة الإنسانية، تضيع القيم والمبادئ والمثل، تضيع الحقوق، ولم يكن هناك أي طريق للحفاظ على الحقوق، والعزة والكرامة، والحريات، والقيم، إلا من خلال الحرب، فحينذاك لا بد من أن يُنظر إلى الحرب على أنها مدخل أساسي لاستعادة الحقوق، ولا بد من الذهاب إلى الحرب حينذاك من أجل الحفاظ على المصالح العليا.

وعمومًا فإنّ للحكم والإدارة أربعة أهداف أساسية:

أولًا: إقامة العدل بين الناس، فيجب على الحاكم أن يشيع العدل والإنصاف بين الناس، هذا واحد من أهم أهداف الحكم.

ثانيًا: توفير الأمن والاستقرار، ليشعر الناس بالأمن، وبإمكانية مزاولة حياتهم بشكل طبيعي وانسيابي.

ثالثًا: تحقيق الخدمات والرفاه الاجتماعيّ، وهذا هدف أساسي أيضًا من أهداف الحكم.

رابعًا: التربية والتنشئة الصحيحة للمجتمع، بإشاعة القيم النبيلة، مكارم الأخلاق، الأعراف السليمة، التقاليد الصالحة، ليكون مجتمعا يسير ضمن قيم صحيحة، ويعيش برفاه ورخاء في ظل أمن واستقرار، وتشاع فيه العدالة الاجتماعيّة.

هذه هي الأهداف الأربعة الأساسية التي يمكن أن نفترضها للحكم، وإذا كان بالإمكان تحقيق هذه الأهداف عبر الوسائل السلمية فهو الأساس، ولكن إذا لم يمكن تحقيق هذه الأهداف بهذه الوسائل، كما لو تسلط فرد على الحكم وأقام نظامًا ديكتاتوريًا يفتك ويبطش، وضاع أمن الناس، وغابت حرياتهم، وانتهكت العدالة الاجتماعيّة، وانعدم الرفاه والرخاء والخدمات، ولا يوجد أي طريق لإقناعه بأن يتخلى عن السلطة ويعطي

فرصة لغيره، أو أن يصحح من مساراته، فحينذاك لا خيار إلا قتال هذا الطاغوت، أو إذا اعتدت دولة خارجية وانتهكت سيادة البلد، أو أرادت مجموعات إرهابية مسلحة أن تستعبد الناس، وتخل بالأمن، وتسيطر على إرادة الناس، وتفرض عليهم أجندة خاصة، ولم يكن بالإمكان تحقيق هذه الأهداف إلا بالحرب، فحينئذ يتطلب الحفاظ على الأهداف الأساسية والمصالح العليا الذهاب إلى الحرب؛ لاستعادة هذه الحقوق والحفاظ عليها، فإذا لم يكن بالإمكان أن نحقق هذه الأهداف بالطرق السلمية، ولا مجال لاستحصالها إلا عبر استخدام القوة، ففي هذه الحالات تصبح الحرب ضرورة؛ لأنه لا مجال لاستعادة الحقوق إلا من خلال استخدام القوة، فيضطر صاحب الحق لأن يدخل الحرب لاستحصال حقه، وتكون الحرب ضرورة اجتماعيّة، وضرورة إنسانية، للحفاظ على المصالح العامة، وعلى حقوق الناس، ولا خيار في مثل هذه الظروف إلا الذهاب إلى الحرب.

من لا يريد أن يحارب حفاظًا على كرامة الأمة؛ عندما تنتهك حقوقها، وتسلب سيادتها، فهذا يسمونه هروبا من المسؤولية، فإذا لم يوجد طريق إلا باستخدام القوة فلا معنى للمطالبة بالسلم حينئذ، ولا يمكن استخدام القوة تحت يافطة السلام والحوار والأمان؛ لأنّ الآخر يستعبدك، فأي سلام مع الاستعباد؟ إنما السلام حينما يمكن أن تحافظ على العزة والكرامة، على إنسانيتك، على حقوقك، على حرياتك بالطرق السلمية، ولكن إذا لم تتوفر فرصة كهذه، وأدى ذلك إلى الاستعباد وانتهاك السيادة وامتهان العزة والكرامة الإنسانية، فلا سبيل غير الذهاب إلى الحرب، وإلا نكون قد تخلينا عن مسؤولياتنا، وهربنا من أداء الواجب الوطني، وهذا يعني ترك الظلمة والمستبدين يفتكون بالشعوب والأمم.

وردت في نهج البلاغة خطبة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في أجواء التحكيم بصفين، نذكر مقطعًا منها:

«إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه من الباطل»، المهم هو الحق.

«وإن نقصه وكرثه»، كرثه الأمر: إذا اشتد عليه وبلغ منه المشقة[٢٣٩]، أي حتى لو كان الالتزام بالحق يؤدي به إلى نقصان؛ إلى أن يخسر أموالا، أن يخسر في أمور معنوية أو مادية، ولكن من أجل أن يحق الحق يكون الحق أحب إليه من الباطل، حتى لو كان

٢٣٩. انظر: الصحاح ١: ٢٩٠.

الثمــن أن يخســر مــن أمواله، أو يزيد مــن همه، أو يخاطر بحياته، ومــع كل ذلك يكون الالتزام بالحق أحب إليه من الباطل.

«وإن جر إليه - أي الباطل - فائدة وزاده»، حتى لو كان السـير في طريق الحق يفقده ماله، أو حياته، أو أحبته، فهو أحب إليه من أن يمشي في طريق الباطل، وإن حصل على مال، أو جاه، أو مكانة، أو سمعة طيبة، في مجتمع انقلبت فيه الموازين.

«فأين يتاه بكم»، الى أين تذهبون في التيه والحيرة؟ ألسـت أنا أمير المؤمنين قائدكم فــي هذه المعركـة - في صفين - التي فيها خير الدنيا والآخرة، فالحق فيها معروف؛ في علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والباطل فيها معروف؛ في معاوية ومن معه، ويجب أن يكون الحق أحب إليكــم مــن الباطــل، لذلك يجب أن يكون الوقــوف إلى جانب علــي والتضحية لتحقيق المشروع الذي يقاتل من أجله أولوية لكم.

«ومن أين أتيتم؟»، كيف دخل عليكم الشـيطان؟ أو من أين دخلت عليكم الشـبهة، فالتبس عليكم الأمر مع وضوحه؟.

«استعدوا للمسير إلى قوم حيارى عن الحق لا يبصرونه»، نريد أن نقاتل قومًا التبست عليهم الأمور، فلا يرون الحق ولا يعرفونه.

«وموزعين بالجور»، مغرورون بالجور، يمشــون وراء الشـعارات الفارغة، تاركين المشروع الحق، من أجل المشروع الباطل.

«لا يعدلون به»، لا يستبدلون به العدل، فهم ذاهبون إلى الظلم.

«جفـاة عـن الكتاب»، مبتعـدون عن مضامين الكتاب العزيـز، لا يأخذون بمضامين القرآن الكريم.

«نكب عن الطريق»، حائدون عن الطريق، مبتعدون عن الطريق.

«ما أنتم بوثيقة يعلق بها»، لستم عروة يوثق بها، فلا أستطيع أن أشد ظهري بكم، لا أسـتطيع أن أسـتند اليكم، فحين أريد منكم النصرة دفاعًا عن الأمة، دفاعًا عن الشعب، دفاعًا عن المصالح العليا، لا تقفون معي، مع أنكم يجب أن تقفوا معي لنسـتعيد حقوق الأمة المسلوبة.

«ولا زوافـر عـزّ يعتصـم بها»، لسـتم أعوانًا يمكن أن أسـتعين بكم فــي مواجهة هذا التحدي.

«لبئس حشاش نار الحرب أنتم»، يحش النار أي يوقدها، أي بئس موقدو نار الحرب أنتم؟ أأنتم طلاب حروب؟ أأنتم أمراء حروب؟ أأنتم أمراء ميليشيات؟.

«أُف لكــم ! لقــد لقيت منكم برحًا» ، أي لقيت منكم شـدة وشـرًا ، وتجرعت الآلام بسببكم .

«يومًا أناديكم ويومًا أناجيكم» ، مرة أطلب منكم العون والنصرة علنًا وجهارًا ، ومرة أطلب منكم العون والنصرة سرًا .

« فلا أحرار صدق عند النداء» ، عندما أدعوكم للحرب لا تسـتجيبون ولا تلبون نداء الحرب .

«ولا إخوان ثقة عند النجاء»[٢٤٠] ، ولا أنتم موضع ثقة فاسـتودعكم الأسـرار ، لأنكم سـرعان ما تفشـون ما أفضي به لكم منها ، والحرب تحتاج إلى كتمان السر ، وأنتم لا سر لكم .

هكـذا كان حال جيش أهـل الكوفة بعد قبولهم التحكيم ، وها هو يسـتنهضهم لقتال جيش معاوية فلا يستجيبون له ، ولا يقبلون له قولًا ، ولا ينفعهم تقريع ، بل على العكس أخـذوا يعدّون العـدة للتمرد عليه وقتاله ، وقد حاول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بسلسـلة من الخطابـات الحيلولـة دون هـذه الظاهرة وتجنب الحرب مع هـؤلاء الخوارج ، ولكن لم تجدِ نفعًا ، وهو بذلك يكون قد أقام الحجة البالغة عليهم ، وها هو يكرر القول عليهم في التوبيخ والتقريع وبيان مواطن ضعفهم وانحرافاتهم ، حتى امتلأ قلبه قيحًا من هذا الخلق المنكوس ، وذاق الأمرّين من هؤلاء الناس الذين كانوا أدواته في المعارك .

إذن حين تكون مصلحة الأمة في الحرب يجب أن نحارب ، حين يكون خيار الضرورة فـي الحـرب فلابد من أن نذهب للحـرب والانتصار للمصالح العامـة ، لمصالح الأمة ، ولكن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن ليتعجل الحرب ، قبل أن يسـتفرغ الوسـع في انتهاج كل الوسائل السلمية ؛ من الحوار وإلقاء الحجة من أجل إقناع الناس بالحق الذي يحمله ، فكان أحيانًا يتباطأ في اتخاذ القرار ؛ ففي صفين مثلًا كانت الجيوش جاهزة للقتال ، ولكنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يرسـل الرسـل والكتب إلى معاوية ، في محاولة منه أن يعالج الأمر ويتجنب الحـرب ، وأخذت جماعات من جيشـه تلومه على هذا التأخيـر ، وتتهمه بأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يمتلك الشجاعة والجرأة لخوض الحرب مع معاوية ، وأنه خائف من جيش الشام ومتردد ويبحث عن حلول سلمية ، وكانوا يضغطون عليه للدخول في الحرب .

---

٢٤٠ . نهج البلاغة ٢ : ٦ الخطبة ١٢٥ .

يصف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الحالة في الخطبة الخامسة والخمسين من نهج البلاغة، حين سأله أصحابه: لماذا هذا التردد؟ لماذا هذا التباطؤ في اتخاذ قرار الحرب؟ لماذا لا يعطي قرار الهجوم؟ فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«أما قولكم أكلُّ ذلك كراهية الموت؟»، هل تظنون أني متردد خوفًا من الموت، وأحاول بذل جهود إضافية لحل الأمور بالطرق السلمية خوفًا من الحرب؟.

«فوالله ما أبالي دخلت إلى الموت أو خرج الموت إليّ»، لا يخوفني الموت مثقال ذرة، سواء وقعت عليه أو وقع عليّ، دخلت إليه أو خرج إليّ، فلا أكترث أبدًا.

«وأما قولكم شكًّا في أهل الشام»، يعني ترددًا في قتالهم.

«فوالله ما دفعت الحرب يومًا إلاّ وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي»، أخرت الحرب لعل جماعة من هذه الآلاف يهديها الله تبارك وتعالى وتلتحق بنا، فأكون سببًا في هدايتهم، فإنّ من يُقتل بسيف علي مصيره إلى النار، ومن يُقتل تحت راية علي فإلى الجنة، فأنا مشفق على جيش العدو، وأتباطأ لعلي أنجيهم من سيفي لكي لا يكونوا من أهل النار.

«وتعشو إلى ضوئي»، يعني تستدل على ضوء أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بنور بصرها الضعيف، أي تستدل على هداه عَلَيْهِ السَّلَامُ ببصيرتها الضعيفة فتجيء إلى الطريق الصحيح، وهذا الكلام استعارة، إذ شبّه عَلَيْهِ السَّلَامُ من يهتدي به من أهل الشام، بمن يعشو ليلًا إلى النار؛ لأنّ بصائر أهل الشام ضعيفة؛ فهم لم يعرفوا الإسلام إلا من خلال بني أمية، فهم من الاهتداء بهدي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ كمن يعشو ببصر ضعيف إلى النار في الليل.

«وذلك أحب إليّ من أن أقتلها على ضلالها»، لو قتلهم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد إقامة الحجة عليهم يكون أحب إليه وأعذر عند الله تبارك وتعالى، مما لو قتلهم على ضلالهم، وأما كونهم على ضلال فلأنهم يقاتلون مع معاوية صمًا وعميًا من غير أن يتفحصوا عن الحق والباطل، ولذا وجب على علي عَلَيْهِ السَّلَامُ إقامة الحجة عليهم، ليقاتلوه وهم يعلمون أنه على حق وأنّ معاوية على الباطل، فلا يبقى لهم عذر يعتذرون به عند الله (سبحانه وتعالى)، فمن لم يأت إلى صف علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ووقف في الصف الآخر مع معاوية فهو ضال، وحين يُقتل بسيف علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقتل ضالًا ومصيره إلى النار.

«وإن كانت تبوء بأثامها»[٢٤١]، وإن كانت ترجع إلى ربها متلبسة بمعاصيها، فهم يتحملون مسؤولية قرارهم، ولست أنا الذي أضللتهم، بل هم أضلوا أنفسهم،

٢٤١. نهج البلاغة ١: ١٠٤ الخطبة ٥٥.

واختـاروا طريق الباطل ، وأنا لا أتحمل مسـؤولية ضلالهم ، بل هم يتحملون مسـؤولية ضلالهم ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٢٤٢] ، ولكن بالرغم من أنهم هم المسـؤولون عن ضلالهم ، ولكن قلبي مشـفق عليهم ، ولا أرغب في أن يُقتلوا بسيفي ، فيكون مصيرهم إلى النار ، وأريد أن أنصحهم بالحديث إليهم ، وإرسـال رسـول إليهم ، لعل بعضهم يهتدون ويأتون إلى طريق الحق ، لكي لا يُقتلوا وهم على الضلال ، فلا تظنوا بي الخوف من الموت ، هكذا كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يشرح لهم هذا الأمر .

إذن لابـد مـن أن يكـون الهدف من الحرب هـو تحقيق الأهـداف ، ويجب أن تكون هـذه الحرب بعيدة تمامًا عن مفاهيم الانتقام ، والتشـفي ، والاسـتعلاء ، والاسـتكبار ، والتعذيب ، وملاحقة الأطفال والنساء والشيبة ، وملاحقة الهاربين وقتل الجريح ، وقتل من يستسـلم في المعركة ، كلا ، بل جئت لهدف ، وإذا انكسـر العدو فقد تحقق الهدف ، والإجهاز على الجريح وقتلة حرام ، وكذا النسـاء والأطفال ليسـت لهم علاقة بالحرب ، وإن كانوا متعاطفين مع ذويهم ، فلا يجوز أن يُقتلوا ، أما الإهانة والإذلال فهي سلوكيات لا تُنبئ عن أن الهدف من الحرب هو هدف رسالي ، بل هو انتقام وتشفٍّ ، وعندما تُسبى النسـاء والأطفال ، وتُعذب وتهين الناس ؛ هؤلاء الأعداء الذين أصبحوا بيدك وجردتهم من سـلاحهم وزال خطرهم ، فما هو معنى الإذلال والإهانة؟ معناهما أن ذلك تشـفٍّ لا أكثـر ، والحـرب خيار ضرورة وليس خيارا اعتياديا ، ولذا يجب أن تكون ضمن أسـقفها وأهدافها ، وليس أكثر من ذلك ، وهدف الحرب هو العزة والكرامة والسـيادة واسـتعادة الحقوق والحريات . . . إلى آخره ، وأي سـلوكيات تنبئ عن أهداف أخرى ، هي مجرد أحقاد واستعلاء وكسر وتشفّ وانتقام ، وهي جميعًا مرفوضة وغير مقبولة .

إذن فالهدف من الحرب إيقاف الظلم ، الانتصار للحق ، الانتصار للمظلوم ، إشـاعة العدالـة ، منـح الحريات ، توفيـر الأمن والأمان ، إعـادة العزة والكرامة الإنسـانية ، هذا هـو الهـدف ، فإذا رفعـوا الرايات البيـض عندما يحمى وطيس الحـرب ويذوقون حرارة السـيوف ، فيمكـن إيقاف القتال متـى ما تحقق الهدف من الحـرب ، فالناس التي تدخل معهـا الحـرب على أصنـاف ؛ فمنهم من يكون على ضلال وانحـراف ، وما لم تقتله فهو باق يتوعدك إلى اللحظة الأخيرة ، وغير مسـتعد لأن يسـتجيب لك ، فهذا الصنف يجب أن تقاتلـه إلـى الموت ، وهناك صنف بمجرد أن يشـتد وطيس الحرب حتى يرفع الرايات البيض بالاستسلام ، إذ لم يكونوا يتوقعون أن يصل الأمر للقتال ، لذلك حين يقع القتال

---

٢٤٢ . سورة الأنعام : الآية ١٦٤ .

يستجيبون، والموقف مع هؤلاء هو إيقاف الحرب من الوهلة الأولى التي طلبوا فيها الصلح، لأنّ الهدف قد تحقق، واستمرار الحرب والقتل وإراقة الدماء مع تحقق الأهداف يتنافى مع مبدأ الضرورة القائل بأنّ الضرورات تقدر بقدرها، والحرب ضرورة لتحقيق الهدف، وقد تحقق الهدف بالخطوة الأولى وانتهت الضرورة فيجب إيقاف الحرب، ولا يجوز الاستمرار والمبالغة في الحروب حتى بعد تحقق أهدافها، فالهدف من الحرب أن يتحقق الردع، فإن تحقق الردع واستسلموا وجب إيقاف الحرب وانهاؤها والكف عن إراقة الدماء، وكان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما تُسد كل الطرق ولا يبقى إلا طريق الحرب، يخرج في اللحظة الأخيرة قبل أن يعطي الأمر بالمعركة لنصحهم، مع أنه أرسل لهم الرسائل وأجرى معهم حوارات ومفاوضات على مدى أشهر، ثم أتوه مدججين بالسلاح مستعدين للحرب، ولكنه يأبى إلاّ ينصحهم في اللحظة الأخيرة لعل الغرض يتحقق من غير سفك الدماء، وتحل المشكلة عبر النصيحة.

ورد في بحار الأنوار عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «وأيم الله لأنصحن للخصم»، أنصح العدو في اللحظة الأخيرة، لعل الله يهديه، ويرجع عن غيه، ويعرف حقانية المشروع الذي أحمله بعد أن يسمع كلامي، فاحفظ دمه وأنقله من الضلال إلى الهدى «ولأنصفن للمظلوم»[٢٤٣]، أنصف المظلوم، فإن لم ينفع النصح فهنا ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الخطوة الأخرى قبل الحرب، وهي التهديد والتحذير، لعل ذلك ينفع معهم، كما ورد في خطبة له عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل أن يدخل حرب النهروان مع الخوارج، لتخويفهم لعلهم يتراجعون عن القتال ويتحقق الهدف، فلا يضطر للحرب:

«فأنا نذير لكم أن تصبحوا صرعى»، إذا ما بدأت المعركة فسوف تتطاير رؤوسكم، وتتركون جثثًا هامدة، «بأثناء هذا النهر»، في هذا النهر الذي بجنبكم، «وبأهضام هذا الغائط»، الغائط هو المنخفض من الأرض، وكانوا مشرفين على واد منخفض، فقال لهم: ستسقطون صرعى إما في النهر أو في الوادي، فالأفضل لكم أن تسمعوا كلامي قبل أن نبدأ بالحرب، فإذا بدأت فسوف يكون مآلكم كما أخبرتكم.

«على غير بينة من ربكم»، وأنتم على ضلال، فمرة يكون الإنسان على حق ويستشهد، وذلك فوز عظيم، ولكنكم على ضلال.

«ولا سلطان مبين معكم»، وليس لديكم دليل على حقانية موقفكم، فليس لديكم غطاء شرعي في هذه الخطوة.

---

٢٤٣. بحار الأنوار الجزء ٣٢: ٣٣ ح ١٩.

«قد طوحت بكم الدار»، يعني قذفتكم في مضلة وفي متاهة وفي انحراف.

«واحتبلكم المقدار»، يعني أوقعكم القدر الإلهي في حباله.

«وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة»، نهيتكم أن تسيروا في هذا الطريق.

«فأبيتم عليّ إباء المنابذين»، رفضتم رفض ناقض العهود والمواثيق، ألم تبايعوني؟ فأنا الخليفة الآن، وأنتم الخوارج؛ خرجتم عليّ منابذين، ونقضتم العهود والمواثيق.

«حتى صرفت رأيي إلى هواكم»، سايرتكم إلى ما ترغبون، ومشيت معكم بحسب عقولكم، وما اهتديتم ولم تجروا عدلًا، ثم لم ينفع معكم أيضًا.

« وأنتم معاشر أخفّاء الهام»، الهام: الرأس، وخفيف الرأس، أي خفيف العقل، أي ليس لديكم عقول، فما أكثر ما حدثتكم، وكم شرحت لكم، وكم سقت لكم من الأدلة، ولكنكم جامدون، وتسمعون ولا تستجيبون.

«سفهاء الأحلام»، أنتم وإن كانت نياتكم طيبة ولكنكم حمقى سفهاء العقول، لذلك قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا تقتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه»[٢٤٤]، فهؤلاء كانوا يطلبون الحق فأخطؤوه، فهم متحجرون على أمر، لا يسمعون من أحد ولا يقبلون نصيحة.

«لم آت - لا أبا لكم - بجرًا»، لم آتكم بشر، لم آتكم بداهية.

«ولا أردت لكم ضرًا»[٢٤٥]، ما أردت أن أضركم، بل أردت منفعتكم، أردت أن أخدمكم، أردت أن أرجعكم إلى طريق الهدى، فأنا ناصح لكم، ومشفق عليكم، ومع ذلك لا تسمعون لا أبا لكم، فإذا لم ينفع النصح معكم، فلعل التهديد ينفعكم، وإذا لم ينفعكم التهديد أيضًا فسأضطر إلى أن أدخل الحرب معكم، فحين لا تنفع نصيحة، ولا حوارات، ولا تهديد، فلابد من دخول الحرب، وليس عندي خيار آخر.

وفي الحرب يجب مراعاة الموازين، المصالح العليا، الدوافع الإلهية، قيم المعركة، أدب الحرب؛ عدم الاعتداء، عدم التجاوز، عدم المبالغة، الأهداف الأربعة التي تحدثنا بها، وجاء أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ليحقق هذا المقدار لا أكثر، ولم يأتِ للتشفي والانتقام.

تأملوا دعاء أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في صفين عندما كان يستعد للحرب؛ إذ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبة لما عزم على لقاء القوم بصفين، رافعًا يديه بالدعاء، وهذا الدعاء بالطبع خطبة تربية، دعاء بصوت عالٍ، وكان الجيش كله يسمعه، ونقتصر منها على الشاهد:

---

٢٤٤. نهج البلاغة ١: ١٠٨ الخطبة ٦١.

٢٤٥. نهج البلاغة ١: ٨٦ الخطبة ٣٦.

«اللهم رب هذه الأرض التي جعلتها قرارًا للأنام»، هذه الأرض أنت أردتها أن تكون محل استقرار وأمن للعباد؛ لتستقر الناس بها.

«ومدرجًا للهوام والأنعام»، الكائنات من الهوام والأنعام تريد مكانًا لتدرج وتعيش فيه، فعلى هذه الأرض تحيا الكائنات من الإنس والحيوانات، ويجب أن تشعر بفرص الحياة والعيش فيها.

«وما لا يحصى مما يُرى ولا يُرى، وربَّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتادًا»، ربّ الجبال التي جعلتها أوتادًا للأرض.

«وللخلق اعتمادًا»، وجعلت هذه الجبال للخلق ملجأ يلجؤون إليه.

وهنا الشاهد: «إن أظهرتنا على عدونا»، إذا كتبت لنا النصر في هذه المعركة على عدونا.

«فجنبنا البغي، وسددنا للحق»، جنبنا الكبر والغرور، والبغي عليهم؛ بأن نقتلهم من غير أن تكون هناك حاجة لهذا العمل، سددنا لكي لا نتجنب الحق.

«وإن أظهرتهم علينا»، أما إذا انتصروا علينا وانكسرنا.

«فارزقنا الشهادة، واعصمنا من الفتنة»[٢٤٦]، أن لا يكون انتصارهم علينا سببًا في الفتنة، فيضيع الحق ويتمكن أهل الباطل، فعند النصر يخاف أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أن يتجاوز الدوافع الإلهية، ويحصل انتقام وتشفٍّ وإهانة وإذلال وتعالٍ، كما لو أرسلوهم إلى المدن واستعرضوهم أمام الناس لترى ذلهم وهوانهم وتبصق بوجوههم، فإذا كتب لنا النصر على عدونا، فعلينا أن لا نبغي، ولا نتجاوز، ولا نعتدي، ولا ننتقم، ولا نتشفى، ولا نعذب، ولا نهين، ولا نسيء، ولا نجانب الحقيقة، وإن انتصروا علينا فنحن نريد الشهادة، وينبغي أن لا يكون انتصارهم سببًا لفتنة الناس وضلالهم عن الحق، فانظروا إلى منهج أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الحرب.

ولذلك عندما يدخل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حرب، فهذا يعني أنه لا يوجد أي مجال وأي فرصة للمعالجة من دون الحرب، فكم كان حجم الاضطرار عند علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليدخل في حرب صفين التي خلفت خمسة وسبعين ألف قتيل، خمسة وأربعون ألفًا من جيش الشام، وثلاثون ألفًا من جيش علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكان هذا الرقم في ذلك الزمان رقمًا مخيفًا ومهولًا، وهؤلاء مسلمون وهؤلاء مسلمون، وقد أوضح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه لم يكن أمامه

---

٢٤٦. نهج البلاغة ٢: ٨٣ الخطبة ١٧١.

خيار إلاّ الذهاب إلى الحرب؛ عندما اقتضت الضرورة القصوى ذلك، إذ قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في خطبة له في بيان أسباب حرب صفين:

«ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه»، يعني استفرغت الوسع في هذا الأمر، واستقصيت، وبحثت، وتأملت، وحاولت بكل الوسائل إيجاد طريق آخر فلم أجد.

«وقلبت ظهره وبطنه»، تفحصته من جميع جهاته، وحاورت، ونصحت، وهددت، وأرسلت وفودًا، وفعلت كل ما أستطيع من أجل إيقاف الحرب.

«فلم أرَ لي فيه إلاّ القتال أو الكفر بما جاء به محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ»، وصلت إلى مفترق طريقين: إما أن أقاتل، أو أن يذهب دين رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، بأن يكفر به الناس، فقاتلت لئلا يكفر الناس بدين محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وليس لدي خيار آخر، فلقد اضطروني لقبول الحرب، ولم يتركوا لي طريقًا للتهدئة والصلح.

«إنه قد كان على الأمة والٍ أحدث أحداثا»، لقد شق رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ طريقًا، أوجد منهجًا في الأمة، أتى بمشروع لهداية هذه الأمة.

«وأوجد الناس مقالًا»، يعني جعلهم واجدين للمقال؛ أي أصبح لديهم منطق، ورؤية، وقيم، ومبادئ، قلبهم رأسًا على عقب.

«فقالوا ثم نقموا فغيروا»[247]، ابتعدوا عن طريق رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ومشروعه، وقد وصلت معهم بعد استنفاد كل الوسائل المتاحة إلى مفترق طرق؛ إما أن أقاتلهم أو يكفر الناس بدين رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فاضطررت إلى قتالهم.

وعندما كان أصحاب علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يرونه حزينا، بالرغم من انتصاره، يستغربون ويقولون: يا أمير المؤمنين، نحن منتصرون فلماذا هذا الحزن؟ فيقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: لم نأت للتشفي، صحيح أن الله (سبحانه وتعالى) قد نصرنا، ولكن عندما أنظر الى هذا القتل وهذه النساء التي ترملت والأطفال التي تيتمت، حتى من جيش عدوي المسلمين المنحرفين الضالين، فإنّ قلبي يتقطع ألمًا وحسرة عليهم، ولكن ماذا أفعل؟ إن لم أقاتل كفر الناس بدين محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وإن قاتلت فهذه هي المضاعفات الخطيرة، وقتال المسلمين أشد على أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من قتال الكفار، ومن هذه الزاوية فإنّ ابتلاء أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان أعظم من ابتلاء رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ؛ لأنه كان يقاتل الكفار والمشركين، ولكن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابتُلي بقتال المسلمين في حروبه الثلاث: الجمل والنهروان وصفين، وقتال المسلمين بعضهم لبعض أمر لم يألفه

---

٢٤٧. نهج البلاغة ١: ٩٤ الخطبة ٤٣.

المسلمون من قبل، ولهذا كان الأمر عظيمًا على أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان يُرى حزينًا مهمومًا مألومًا، حتى حينما انتصر في هذه المعارك.

الإضاءة الثالثة

الحذر والحيطة من العدو حين يدعو إلى الصلح

ذكرنا أن الحاكم إذا دُعي إلى الصلح فعليه أن يستجيب، ولكن لا يستجيب وهو مغمض العينين فيستغفل، بل عليه أن يستجيب وهو حذر؛ لئلا يكون هذا الصلح لعبة وتكتيكًا، ومؤامرة والتفافًا.

(وَلَكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ)، بعد أن يصالحك يجب أن تبقى على حذر شديد منه.

(فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ)، صالح لكي يستغفلك؛ لكي تسترخي وتعطي إجازة لمقاتليك ويرجع كل إلى أهله فينقض عليك.

(فَخُذْ بِالْحَزْمِ)، اقبل بالصلح ولكن كن حازمًا، وارجع لبناء بيتك الداخلي، وهيىء جيشك ودربهم، لتكون حاضرًا للمواجهة في أي لحظة، فإذا رآك العدو في كامل الجهوزية فلن يفكر بالغدر بك، ولن يستطيع أن يستغفلك إن كنت حازما متنبها.

(وَاتَّهِمْ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ)، لا يجوز التعامل مع العدو بحسن الظن، بل يجب اتهام حسن الظن بهم؛ والحذر من أنهم قد يريدون الغدر بك وقتلك، فالعدو متهم ويجب التعامل معه بسوء الظن، وخاصة في هذه القضية التي فيها إراقة دماء، وإزهاق أرواح، وأمن دولة، ومخاطر عظيمة، وحسن الظن مع المؤمنين فقط وليس مع العدو، فالقاعدة في التعامل مع العدو هي سوء الظن والحيطة والحذر؛ لئلا تقع في مكائده وشباكه، فلابد من أن تراعي أعلى مستويات الحذر والجهوزية حتى بعد الاستجابة للصلح.

وقد رأينا المحنة التي واجهها علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في حرب صفين؛ فعندما كادت الحرب تنتهي بهزيمة جيش معاوية، جاء معاوية إلى عمرو بن العاص وقال له: أنت صاحب المكائد، فجد لنا حلًّا لتلافي هذه الهزيمة الوشيكة لجيشنا أمام جيش علي، فقال عمرو: ارفعوا المصاحف على الرماح وليصح الجيش: بيننا وبينكم كتاب الله، أتقاتلون القرآن؟ وانخدع عشرون ألفا من جيش علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، من أصحاب الجباه السود من كثرة السجود، من الذين لا معرفة لهم ولا وعي، ويحسبون أن الدين هو كثرة الركوع والسجود، غافلين عن أن ذلك لا وزن له من غير طاعة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ طاعة كاملة، فهؤلاء قد عرفوا الإمام

وقاتلوا تحت رايته، ولكنهم عصوه في أحرج الظروف والأوقات، أكان هؤلاء يعرفون عليًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فبايعوه على الطاعة كخليفة للمسلمين؟ أم كانوا يعرفونه كإمام مُنصّب من الله يجب عليهم طاعته على كل حال، أم لم يكونوا يعرفونه، لا كخليفة للمسلمين ولا كإمام زمانهم، فلماذا جاؤوا للقتال معه في صفين؟ لا حجة لهم، وحجتهم داحضة إن كانت لهم حجة.

عشرون ألفًا من المقاتلين الأشداء من جيش علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ انخدعوا بحيلة رفع المصاحف، وأجبروا عليًا على قبول التحكيم وإيقاف الحرب، بالرغم من محاولات علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المتكررة لإقناعهم باستمرار الحرب، أو في الأقل أن يتركوا مالكًا الأشتر ومن معه يواصلون القتال، وقد وصل قريبًا من خيمة معاوية ومن معه من قادة جيش الشام، ولكنهم رفضوا وهددوه بالقتل إن لم يصدر أمرًا إلى مالك بالانسحاب من المعركة، وقد أصر هؤلاء الأغبياء على أنهم على حق، وهم يرددون: أنقاتل كتاب الله؟.

وقد جاؤوا إلى علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ووقفوا أمامه وقالوا له: «يا علي (بالاسم) أجب القوم إلى كتاب الله إذا دُعيت»، استجب لنداء القرآن، فقد رفع القوم المصاحف، وأوقف الحرب للتفاهم معهم على أساس كتاب الله، «وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان»، وإن لم تفعل قتلناك كما قتلنا الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

«فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم»، يؤكدون أنهم جادون في ما قالوا له؛ إما أن توقف الحرب وترضخ لكتاب الله، أو نقتلك، وموقفهم هذا موقف غريب لم يسبق له نظير في تأريخ المسلمين، إن لم نقل في تأريخ الإنسانية؛ وقد كانوا جادين في تهديدهم بقتله إن لم يستجب لهم على الفور، وقد كانت أمامهم خيارات عديدة قبل الوصول إلى هذا الخيار الأصعب، كاعتزال القتال، أو فرض شروط للقتال معه.

«فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: عباد الله أنا أحق من أجاب إلى كتاب الله»، هل هناك من يزايد عليّ بالقرآن؟ هل هناك من استجاب لنداء الكتاب أكثر مني؟ هل هناك من يعرف القرآن أكثر مني؟ أنتم الآن تريدون أن تفرضوا عليّ أن أستجيب لهذا القرآن، ألا تعرفون من أنا؟ أنا القرآن الناطق، أنا من علّمني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ معارف هذا القرآن آية آية.

«ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط»، هؤلاء قادة مؤامرة رفع المصاحف.

«ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن»، متى قرأ هؤلاء القرآن؟ متى عرفوا قيم القرآن؟ متى عرفوا قيم الدين؟ لكي يرفعوا القرآن اليوم؟.

«وأنا أعرف بهم منكم»، تعالوا واسألوني من هو معاوية؟ ومن هو عمرو بن العاص؟ ومن هو ابن أبي معيط؟.

«صحبتهم أطفالًا، وصحبتهم رجالًا»، أعرفهم ويعرفونني منذ الطفولة، فكل واحد منّا يعرف الآخر.

«فكانوا شر الأطفال، وشر الرجال»، عندما كانوا أطفالًا كانوا شر الأطفال، وعندما صاروا رجالًا كانوا شر الرجال، فهؤلاء أسوأ خلق الله، فلا دين لهم ولا يأبهون للقرآن، فكيف تريدون أن تمشوا وراءهم؟.

«ويحكم إنها كلمة حق يُراد بها باطل»، ضحكوا عليكم برفع المصاحف، فهل هؤلاء يعرفون القرآن؟.

«إنهم والله ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها»، هؤلاء لم يرفعوا القرآن، بل رفعوا الورق، إذ لم يعرفوا القرآن ولم يعملوا به، فليست لهم علاقة بالقرآن؛ رأيتهم في صباهم، ورأيتهم في كبرهم، فلم يعرفوا القرآن في حياتهم، ولم يعرفوا دين الله.

«ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة»، اتركوا هذا الكلام، واتركوا هذه المكائد والخديعة، فلا تتعرضوا لها واتركوها لي.

«أعيروني سواعدكم وجماجمكم»، ارفعوا سيوفكم، ضحّوا من أجل هذا المشروع الذي أنتم سائرون فيه.

«ساعة واحدة»، قفوا معي ساعة، وبالطبع فإن ساعة هنا ليست ساعة بتعبير اليوم، أي ستين دقيقة، فالمعركة كانت في نهايتها، وقد بدأ الانكسار والهروب، فساعة هنا بمعنى وقفة واحدة، نزلة واحدة، أعطوني سيوفكم وسواعدكم وجماجمكم واستعدادكم للتضحية لنهجم الهجمة الأخيرة، وسينتهي كل شيء.

«فقد بلغ الحق مقطعه»، وصلنا إلى لحظة الحقيقة والنصر الكبير المؤزر ونهاية هذه الفتنة، وقد قدّمنا خمسة وعشرين ألف شهيد، وقُتل من القوم خمسة وأربعون ألفا، والنصر على الأبواب، ولا نحتاج إلا إلى منازلة أخيرة.

«لم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا»، لم يبق إلا الضربة الأخيرة التي نقصم بها ظهرهم.

ثم قال: «ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه»[٢٤٨]، ها أنتم تحاجونني بالقرآن، فهل هناك من دعا إلى القرآن بقدر ما دعوت إليه؟ وهل هناك من

---

٢٤٨. بحار الأنوار ٣٢: ٥٣٣ ح٤٤٩.

عمـل للقـرآن في حياته كما عملت؟ وهل هناك من طبق القرآن في حياته كما طبقته؟ هل هنـاك مـن جعل القرآن منهجه ومشـروعه كمـا فعلت؟ هل هناك من لبى نـداء القرآن في حياته كما لبيت؟ ولكنهم مع ذلك كله بقوا مصرين على موقفهم، إما أن توقف الحرب أو نقتلك، فضيعوا على علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وعلى الأمة الإسلاميّة - مع الأسف الشديد - فرصة القضاء على هذه الفتنة وعودة الناس إلى الهداية.

العنوان الثاني

العهود والمواثيق

القسم الأول: الالتزام بالعهود والمواثيق

(وَإِنْ عَقَـدْتَ بَيْنَـكَ وَبَيْنَ عَدُوّ لَكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْـتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَـكَ بِالأَمَانَة، وَاجْعَلْ نَفْسَـكَ جُنَّةً دُونَ مَـا أَعْطَيْتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ عزَّ وجلَّ شَـيْءٌ النَّاسُ أَشَـدُّ عَلَيْهِ اجْتِماعًا، مَعَ تَفْرِيق أَهْوَائِهِمْ، وَتَشْتِيتِ آرائِهِمْ، مِنْ تَعْظِيم الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ، وَقَدْ لَزِمَ ذلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيما بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْـلِمِينَ، لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِـبِ الْغَـدْرِ، فَلاَ تَغْـدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلاَ تَخِيسَـنَّ بَعَهْدِكَ، وَلاَ تَخْتِلَنَّ عَـدُوَّكَ، فَإِنَّهُ لاَ يَجْتَرِئُ عَلَى اللهِ إلاَّ جَاهِلٌ شَقِيٌّ).

ثـم ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ليتحدث عن موضوع غاية في الأهمية والخطورة في حياة الإنسـان، ولا سـيما في المنظومات القياديّة والإداريّة وفي ظروف التصدي، وهو الالتزام بالعهود والمواثيق، فالإنسـان المسـلم المؤمن حينما يتعهد بشـيء، حينما يعد بشـيء، فعليه أن يلتزم بهذه العهود والوعود والمواثيق، وما ألزم به نفسـه عليه أن يلتزم بـه، وأن يعمـل بـه، وأن لا ينكث أو ينقـض هذه العهود والمواثيق، وهذه مسـألة مهمة جدًا.

نسـتعرض قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الشأن، والنص طويل، وسوف أتناوله مقطعًـا بعـد آخر في محاضرات عـدة، ولكل نص إضاءاته ودروسـه، لكـي لا تختلط الأمور:

قـال عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَإِنْ عَقَـدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَـدُوّ لَكَ عُقْـدَةً): إذا عاهدت عدوك عهدًا أو عقـدت معـه عقدًا، فالتزم به، فلمـاذا يذكر أمير المؤمنيـن عَلَيْهِ السَّلَامُ العهود والمواثيق مـع الأعـداء، الجـواب: إذا كان العهد مع العـدو يجب الوفاء به، فمـا بالك بالعهد مع الصديق، فقد أخذ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أسـوأ الخيارات وأبعدها وأصعبها؛ فإذا وجب

عليك الوفاء بعهد عدوك، فكيف إذا كان هذا العهد مع صديقك، أو كان في دائرة المؤمنين، في دائرة المواطنين، في دائرة الناس الصالحين، إلى غير ذلك؟.

(أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً): ما أجمله من تعبير؛ فالإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يمثل العهد بالذمة، والذمة أو الضمير شيء يخص الإنسان، يقول عندما تعاهد فهذا ضميرك وذمتك، ويعبر عنه باللباس؛ (أَلْبَسْتَهُ)، أي أنك تلبس ضميرك من عاهدته، فعندما تَعِد أحدًا بأن تنجز له العمل الفلاني مثلًا، فهذا يعني أنك ألبسته ضميرك، وقد رأيتم في حفلات توزيع الجوائز؛ حيث يصعد الفائز الأول والثاني والثالث إلى المنصة، ويأتون له بوسام معين ويلبسونه إياه، وأنت عندما تعاهد أو تواعد أحدًا، فكأنك تقلد من عاهدته ضميرك وذمتك، فإذا أخللت بهذا العهد، فقد أخللت بضميرك.

(فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ): إذا عاهدت عهدًا فالتزم به وحافظ عليه، وذلك من خلال الوفاء به، ويجب أن يكون مجتمعنا بنحو لا تحتاج الناس فيه إلى ورقة وقلم وضمانات وشهود، بل تكون الكلمة هي رأسمال أحدنا، وينبغي أن لا يعطي هذه الكلمة إلا وهو يعلم أنه قادر على الوفاء بها، وعندما يقول سأفعل الأمر الفلاني يفعله، وعندما يَعِد بشيء يفي به، وحياطة العهد تعني حفظه، ويكون ذلك من خلال الوفاء والالتزام به وتنفيذه.

(وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمَانَةِ): إذ وعدت بشيء فيجب أن ترعى ذمتك بصدق الوعد، باعتباره أمانة يجب عليك أن تحافظ عليها وترعاها.

(وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ): ولو كان ذلك بقطع رقبتك، ولو قدمت حياتك من أجل وعدك؛ (وَاجْعَلْ نَفْسَكَ)، اجعل روحك، (جُنَّةً)، يعني درعًا، أي اجعل روحك درعًا أمام كلمتك، اجعل حياتك درعًا أمام عهودك ومواثيقك، والمقاتل يمسك الدرع دائمًا بإحدى يديه ويجعلها أمامه لكي تقيه السهام، وهنا يشبّه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الروح بالدرع للحفاظ على الوعد، أي اجعل وعدك خلف درعك، بأن تبذل نفسك من أجل الوفاء بعهدك وتنفيذ العمل الذي وعدت به.

(فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ عزَّ وجلَّ شَيْءٌ): لا يوجد من كل فرائض الله عز وجل فريضة، ولا يوجد من كل ما يريد الله (سبحانه وتعالى) أمر.

(النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِماعًا، مَعَ تَفرُّقِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشَتّتِ آرَائِهِمْ، مِنَ تَعْظِيم الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ)، لا يجتمع الناس على كلمة، فآراؤهم مشتتة، وأهواؤهم متفرقة؛ لكل شخص رأيه وهواه، ولكل فئة رأيها وهواها، فلو طُرح علينا سؤال عن رأينا في قضيةٍ ما، فسترى أن كلًا يدلو بدلوه، وقلّما نجتمع على رأي واحد، بل تتعدد الآراء، وكذا لو طُرح علينا

سؤال عن هوانا في الشخص الفلاني أو المسألة الفلانية، لرأيتم أن أهواءنا مشتتة في ذلك؛ فبعضٌ يحب هذا الشخص أو تلك المسألة، وبعضٌ يبغض هذا الشخص أو تلك المسألة، وبعض لا يحبهما ولا يكرههما، ونادرًا ما يمكن أن نجتمع على موقف واحد، هذا على مستوى مجموعة محدودة، فكيف لو طرح هذا السؤال على الناس جميعًا؟، فسيكون من النادر أو المتعذر أن يجتمعوا على رأي واحد؛ لاختلاف مداركهم، وأمزجتهم، وأولوياتهم، وأهوائهم، ورغباتهم، ولكن هؤلاء الناس على الرغم من اختلاف رغباتهم وأهوائهم، وتشتت أفكارهم، مجتمعون ومتفقون على شيء واحد، برّهم وفاجرهم، غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وملحدهم، ذكرهم وأنثاهم، متعلمهم وجاهلهم، كبيرهم وصغيرهم، وكل إنسان عنده ذرة ضمير وما زال محافظًا على شيء من إنسانيته، متفقون على وجوب وحُسن الوفاء بالعهد.

(فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ عزَّ وجلَّ شَيْءٌ): لا يوجد شيء من فرائض الله عز وجل.

(النَّاسُ أَشدُّ عَلَيْهِ اجْتِماعًا): كلهم متفقون عليه.

(مَعَ تَفْرِيقِ أَهْوَائِهِمْ): بالرغم من أن رغباتهم مختلفة.

(وَتَشْتِيتِ آرَائِهِمْ): وأفكارهم مختلفة، مع ذلك هم مجتمعون عليه.

(مِنَ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ): الوفاء بالعهود والمواثيق قضية يتفق عليها الجميع، ويجتمع عليها الناس على اختلافهم.

(وَقَدْ لَزِمَ ذلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيما بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ): القصة ليست قصة مسلمين ومشركين، فالمشركون يلتزمون أيضًا بعهودهم ومواثيقهم، فهذه حالة إنسانية وليست حالة دينية، وهي ليست ذات قيمة إسلاميّة فقط، بل هي ذات قيمة إنسانية أيضًا، فكل إنسان مهما كان دينه، ومهما كانت عقيدته، ومهما كانت توجهاته، وما زال محافظًا على إنسانيته، يلتزم بالعهود والمواثيق.

(لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ): استوبلوا أي رأوها وبيلة، ومعنى وبيلة أي مهلكة، بمعنى أمر شديد، أمر لا يطاق؛ لأنّ هؤلاء المشركين رأوا عواقب الغدر، وخواتيم عدم الوفاء بالعهود والمواثيق، فأيقنوا أن عواقبه وخيمة وخطيرة وشديدة، لذلك التزم الناس جميعًا بالعهود والمواثيق، واعتبروها قيمة إنسانية.

اذهبوا إلى كل دول العالم، وانظروا في عقود شرائهم وبيعهم، أو معاملاتهم المالية من ديون وأقساط، والعالم قائم على أساس الاقتراض من المصارف، ففي الدول المتطورة، المصارف هي التي تملك حياة الناس، فإن (٨٠٪) من الناس تشترى سلعها بالأقساط، ويبقى يدفع أقساطا للمصرف مدة عشر سنوات أو أكثر حتى ينتهي منها،

فالبيت الذي يسكن فيه قد اشتراه له المصرف، ويدفع أقساطا للمصرف مدة عشرين أو ثلاثين سنة، ويتمتع الناس هناك بتسهيلات مصرفية كبيرة، فالناس كلها تدفع أقساطا، حسنًا، لماذا يدفع المصرف لجميع هؤلاء الناس؟ أليس معناه التزام المقترض بالوفاء؟ وهو ضامن لرجوع أمواله مع أرباحها.

إذن فعدم الوفاء بالالتزامات قضية عواقبها وخيمة، فمع شيوع خيانة العهود والمواثيق والالتزامات والوعود، لن يبقى حجر على حجر، ولأن العواقب وخيمة وشديدة، فجميع الناس على اختلاف أهوائهم ومشاربهم وتشتت أفكارهم واختلاف آرائهم ومعتقداتهم، أبيضهم وأسودهم، كبيرهم وصغيرهم، مسلمهم ومسيحيهم، متدينهم وملحدهم، كل البشر، يقرون بتعظيم الوفاء بالعهود والمواثيق، ويعدون ذلك أساسًا في حياتهم.

(فَلاَ تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ): عدم الوفاء بالعهد هو غدر وخيانة، ومن قطع على نفسه عهدًا ثم لم يعمل به فهو غادر لذمته، سواء كان هذا العهد مع نفسه أو مع الآخرين أو مع ربه، فالعهد يجب الوفاء به.

(وَلاَ تَخِيسَنَّ بَعَهْدِكَ): نقول: هذه البضاعة خاست، يعني تلفت، صارت غير صالحة للاستعمال البشري، وكذا خيانة العهد ونقضه هو خيس، وهو تشبيه رائع لعدم الوفاء بالعهد، يعني أنه ذو رائحة نتنة. فاحذر من أن تغدر بعهدك، أو تنقضه، أو تتخلف عن كلمتك، وتتنصل من التزاماتك ووعودك.

(وَلاَ تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ): الختل هو الخداع، هو المكر، فحتى عدوك لا يجوز أن تمكر به عندما تواعده، عندما تعطي عدوك الأمان لا يجوز أن تغدر به وتخدعه، وتسمي ذلك تكتيكًا، كأن تدعوه للتفاهم وعندما يأتي تغدر به، فهذا أمر خطير، فلا يجوز أن تمكر بعدوك إذا أعطيته الأمان، أو أن تنقض التزاما مع عدوك إذا عاهدته على شيء، فإذا عقد معه هدنة فألقى سلاحه وذهب ليستريح، فلا يحق لك أن تهاجمه فجأة، بذريعة أن الحرب خدعة، كلا، ليس لدينا هذا الكلام؛ فالحرب حيلة وخدعة ما دامت هناك حرب، أما بعد إعلان الهدنة فلا تجوز الخدعة، نعم استخدم تكتيكات وهو يستخدم تكتيكات في أثناء الحرب، ولكن عندما تعطي الأمان، وتعلن وقف إطلاق النار، وتعلن هدنة، فلا يحق لك في مدة الهدنة أن تهجم عليه، فهذا غدر وخيانة.

(فَإِنَّهُ لاَ يَجْتَرِىءُ عَلَى اللهِ): لا يتجرأ على الله (سبحانه وتعالى)، ولا يعتدي على حدود الله جل جلاله، وينقض العهود والمواثيق والعقود.

(إِلاَّ جَاهِلٌ شَقِيٌّ): الذي ينقض العهود يحمل صفتين: الجهل والشقاء، والجاهل: ضد العالم، وهو الذي لا يعرف العواقب الوخيمة لعدم الوفاء بالعهد، ولابد من أنكم

رأيتم طفلا صغيرا عندما يرى مدفئة تتوقد نارًا، يأتي ويضع إصبعه عليها، فهذا جهل منه أنّ هـذه النـار تحرق إصبعه، وعندها يدرك أنّ النـار محرقة، يمتنع من وضع إصبعه مرة أخـرى، فينتقـل من حالة الجهل إلى حالة العلم بالتجربة، وكذا هذا الذي ينقض عهده؛ فهو جاهل بالعواقب، ولا يعلم ما سـتؤول إليه نتائج وآثار عدم الوفاء. والجاهل برغم جهله قد لا يقدم على مخالفة أمر تسالم الناس على حسنه وتعظيمه، ولكن من كان شقيًا من هؤلاء الجهال يقدم على مثل هذا العدوان والعصيان والتجني، من غير خوف من الله سبحانه، غير آبه بالعقوبات القانونية، وغير مراعٍ لقواعد التعاملات بين البشر.

الإضاءات في هذا النص الشريف

الإضاءة الأولى

ضرورة الالتزام بالعهود والمواثيق واعتباره شرطًا أساسيًا في المنظومة القياديّة والإداريّة

لا يمكـن لقائـد أو متصـد أو مسـؤول أن ينجح إلا بشـرط أساسـي، وهو اسـتقرار المنظومـة القياديّـة المبتنية على الثقـة والاطمئنان، فالكلمة التي يقولهـا يلتزم بها، ولو وظّـف عامـلًا فـي مصنع مثلًا فهو يعطيه أجره في رأس كل شـهر، أما إذا وظّفه على هذا الأساس، ثم تمر الشهور ولا يدفع له أجره، متذرعًا بأعذار واهية، فمن أين ستأتي الثقة بهذه المنظومة القياديّة التي تتعامل مع شـرائح من شـعبها بهذا المستوى من نقض العقود والعهود؟ فلا يمكن حينئذ أن يلتف حولها أحد، أو يدافع عنها، فلابد لمن يريد النجاح مـن أن يفـي بالعهود والمواثيق والوعود جميعًا، من غيـر تمييز بين فئة وأخرى، وطائفة وأخرى، وعرق وآخر، ودين وآخر، فالعلاقات الإنسـانية بين البشـر مبتنية على العهود والمواثيـق، والأعراف الاجتماعيّـة التي تربط الناس بعضها ببعـض مبتنية على الالتزام بالعهـود والمواثيـق، وقواعد العمل السياسـيّ والاقتصادي وما شـابه مرهونة بالالتزام بالعهـود والمواثيق، وكل شـيء في هذه الحيـاة مرتبط بهذه القضية، فـإذا تزلزلت هذه الثقـة، ولـم تنفذ هذه المنظومة القياديّة، أو هذا القائد، وهذا المسـؤول، ما يعدون به، مـا يتعهـدون به، والكلمة عندهم مجرد حروف ينطقون بها ثم تتلاشـى في الهواء، وإذا كانت مكتوبة فهي مجرد حبر على ورق، فلن يبقى حجر على حجر، وسـتزول الثقة إن كانت موجودة، وإذا زالت الثقة سينهدم كل شيء.

فالثقة واطمئنان القلوب، واستقرار النفوس، هي الأساس في كل التعاملات، وتتحقق ثقة الناس بالقائد والمسؤول، من خلال الالتزام بالعهود والمواثيق؛ فإذا وُجد الالتزام وُجدت الثقة، وإذا لم يوجد الالتزام فلا ثقة، وإذا فقدت الثقة فلا يوجد اطمئنان، وإذا لم يوجد الاطمئنان فُقد الاستقرار، وعندها ستحل الفوضى العارمة، وهذا يسجل في كل المستويات، وليس فقط القائد الأول، أو القائد الأعلى، فكل مسؤول في أي مستوى كان؛ مدير مصنع، مدير مترو، قائد تيار، قائد بلد، بحاجة إلى صدق الكلمة.

يجب أن يكون الالتزام والوفاء بالعهود والمواثيق سمة عامة في كل المستويات القياديّة، في كل التعاملات، وليس في هذا المستوى فقط، أو مع تلك الشريحة، بل يجب أن يكون عامًا في جميع المستويات، سواء في التعامل الداخلي: داخل البيت أو داخل التيار أو داخل الجماعة، أو في التعامل الخارجي مع الآخرين: تعامل سياسيّ أو تعامل اقتصادي، أو غير ذلك من التعاملات، ويجب الالتزام والوفاء بالعهود والمواثيق، في كل شيء، مع الصديق، ومع العدو.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، في النهي عن الغدر، والتحذير منه، والدعوة إلى الالتزام بالعهود والمواثيق:

«أيها الناس، إن الوفاء توأم الصدق»، الوفاء أخو الصدق، بل هو توأمه، أي أنه يشبهه من جميع الجهات، فلا وفاء لكاذب، لأنّ الوفاء مقرون مع الصدق، فمن كان صادقًا كان وفيًا، ومن كان وفيًا كان صادقًا، ولا تجد صادقًا لا يفي بعهده ووعده، ولا تجد وفيًا لا يصدق في كلامه، فالصدق والوفاء قرينان، كما أن الكذب والخيانة قرينان، فإذا خان الصادق سُلبت منه صفة الصدق وكان كاذبًا، وإذا وفى الكاذب بعهده كان صادقًا وسُلبت منه صفة الكذب، إذن فالوفاء والصدق وجهان لعملة واحدة، كما أن الخيانة والكذب وجهان لعملة واحدة.

«ولا أعلم جنّة»، وقاية، درعًا.

«أوقى منه»، أشد وقاية وحفظًا من الوفاء بالعهود والمواثيق.

«ولا يغدر من علم كيف المرجع»، من علم الى أين نحن ذاهبون، وما يؤول إليه مصيرنا، وما هي عاقبة أمرنا، وما هي نهاية عمرنا؛ لا يغدر، وكما قيل في المثل: «حبل الكذب قصير»، فهذا الذي يكذب وافتضح أمره، يتنصل من كذبته ويتراجع عنها، فتصدّقه الناس، ولكنهم لا يصدقونه في المرة الثانية، وهكذا في المرة الثالثة، وهكذا في كل مرة يتكرر منه ذلك، فلا يتعامل معه أحد بعد ذلك، فيحاصر ويعزل.

«ولقـد أصبحنـا فـي زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيسًـا» ، لقد صرنـا في زمان ترى الناس فيه الغدر شـطارة وذكاء ودهاء ، مع أن هذه سياسـة كذب ودجل ، وليست شطارة ولا ذكاء ولا كياسة ، ولكن الناس تراها هكذا .

«ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة» ، الجهال هم الذين يصفون أهل الغدر من الذين ينقضون عهودهم ولا يفون بوعودهم ويخدعون الناس ، بحسن التصرف والبراعة في التدبير ، وأنهم ذئاب لا يُغلبون ، ولاعبون ماهرون ، وأمثال هذه التشبيهات ، وعنوانها حسن الحيلة ، أي شطارة ، فأي شطارة؟ فهذا يرى لقطة خاطفة ، ولا يرى الخط الطويل ، وعواقب الأمور .

«ما لهم قاتلهم الله !» ، لعن الله هؤلاء الناس الذين يسّمون الأشـياء بغير أسـمائها ؛ يسمّون الغادر كيّسًا ، وينسبون عمله إلى حسن الحيلة .

«قد يرى الحُوّل القُلّب» ، يعني هؤلاء الشطار بتحويل وجه الأمور ، من الذين يلعبون بالكلمات ، ويغيّرون الحقائق ، ويقلّبون الأمور .

«وجه الحيلة» ، قد يعرفون الحيل والمكائد ، ويغلبون في مسألة معينة .

«ودونها مانع من أمر الله ونهيه» ، ولكن هناك أمرا يقطع الطريق على مثل هذه الحيل الصغيرة والتكتيكات البسيطة ، وهذا المانع هو أمر الله عز وجل ونهيه .

«فيدعهـا رأي عيـنٍ بعد القـدرة عليها» ، يراها بعينه ويعرف أنهـا حيلة ، ولكنه يدعها ويتركها ؛ لأنّ قيمه لا تسمح له بذلك .

«وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين»[٢٤٩] ، ينتهز هذه الفرص من الحيل والمكائد واللعب والدجل والالتفاف ، من لا يتحرج في دين الله ، ولا يهتم بالإثم والمعصية ، ولا يبالي بما وعد الله (سبحانه وتعالى) من يتعدى حدوده من العذاب والعقاب الشديد ، وما وعد من أطاعه من الثواب العظيم .

ولأمير المؤمنيـن عَلَيْهِ السَّلَامُ مثل هذا الـكلام في موضع آخر : «والله مـا معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر والفجر لكنت من أدهى الناس ، ولكن كل غـدرة فجـرة ، وكل فجرة كفرة ، ولكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة ، والله ما اُسـتغفل بالمكيـدة ، ولا اُسـتغمز بالشـديدة»[٢٥٠] ، أنا عنـد عهدي ولا أنقضـه ، ولكن معاوية لا يفـي بعهد ، ويسـميه البعض دهاء ، وما هو بدهـاء ، بل هو غدر وفجور ، ولولا أن الغدر

---

٢٤٩ . نهج البلاغة ١ : ٩٢ الخطبة ٤١ .

٢٥٠ . نهج البلاغة ٢ : ١٨٠ كلام ٢٠٠ .

والفجور محرم لكنت من أدهى الناس، لا في نقض العهود والمواثيق، بل في حقيقة الدهاء والمكر والكيد.

وفي غرر الحكم عن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «الوفاء حصن السؤدد»[٢٥١]، الوفاء بالعهود والعقود هو الحصن المنيع الذي يحقق السعادة والرخاء والسؤدد.

الإضاءة الثانية

الالتزام بالعهود والمواثيق في القرآن الكريم

اهتم القرآن الكريم اهتمامًا بالغًا بموضوع الالتزام بالعهود والمواثيق، والتحذير بشدة من الغدر والخيانة، ونهى بشكل كبير عن نقض العهود والمواثيق؛ نجد ذلك جليًا في مجموعة من الآيات القرآنية، وهي كالتالي:

المجموعة الأولى: الآيات التي تتحدث عن العهود والمواثيق والالتزام بها بشكل عام

كما في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[٢٥٢]، يأمرنا الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة بالوفاء بالعهد للبر والفاجر، فأي عهد نتعهد به مع الآخر يجب أن نفي به، ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾، يعني أن الله تبارك وتعالى يسألنا يوم القيامة عن الوفاء بالعهد.

وروى الكليني عن الإمام الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ثلاث لم يجعل الله فيهن رخصة: أداء الأمانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وبر الوالدين برين كانا أو فاجرين»[٢٥٣].

وقال تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾[٢٥٤]، أثنى الله تبارك وتعالى في هذه الآية الشريفة على الموفين بعهودهم، وجعل الوفاء بالعهد من أصناف البر، ووصف من كانت فيه هذه الخصلة مع خصال أُخر بالمتقي، وقد استدل

---

٢٥١. غرر الحكم: ح١٠٤٤، نقلاً عن ميزان الحكمة ٤: ٣٦١٣.

٢٥٢. سورة الإسراء: الآية ٣٤.

٢٥٣. الكافي ٢: ١٦٢ ح١٥.

٢٥٤. سورة البقرة: الآية ١٧٧.

بعض العلماء على انحصار هذه الخصال المذكورة بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ لما لها من السمو الذي لا يستطيع أن يصل إلى ذراه غير المعصوم[٢٥٥].

وقال تبارك وتعالى في سورة المؤمنون وسورة المعارج: (﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[٢٥٦]، يراعون عهودهم ويلتزمون بالوفاء بها، ومعنى الآية الكريمة - كما ذهب إليه بعض العلماء: «أي يؤتمنون عليه من جهة الحق أو الخلق»[٢٥٧]، وفسر بعض العلماء المراعاة في الآية الكريمة بالحفظ والإصلاح[٢٥٨].

وقال تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[٢٥٩]، عقود جمع عَقْد، والجمع المحلّى باللام يفيد العموم، كما يقول علماء العربية، فيجب الوفاء بكل العقود، سواء كان عقدًا بينك وبين الله عز وجل، أو كان عقدًا بينك وبين الناس، في جميع المجالات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والإنسانيّة والمعنويّة والروحيّة والماديّة، والداخليّة والخارجيّة، مع الناس القريبين والبعيدين، مع الأصدقاء والأعداء، وفي رواية عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ فسّر العقود في هذه الآية الكريمة بالعهود[٢٦٠].

وقال تبارك وتعالى في سورة آل عمران: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٢٦١]، قال المفسرون: «أي كل من أوفى بما عاهد عليه، أيّ عهد كان، واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإنّ الله يحبه»[٢٦٢].

المجموعة الثانية: الآيات التي تتحدث عن الالتزام بأمور محددة

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[٢٦٣].

---

٢٥٥. انظر: الشريف المرتضى في الفصول المختارة: ١٣٨ - ١٤٠، والشيخ المفيد في الفصول المختارة: ٤٧.

٢٥٦. سورة المؤمنون: الآية ٨، سورة المعارج: الآية ٣٢.

٢٥٧. المجلسي في بحار الأنوار ٦٤: ٢٦٤، المازندراني في شرح أصول الكافي ١: ٢٥٣.

٢٥٨. المجلسي في بحار الأنوار ٦٤: ٢٦٤، الراوندي في فقه القرآن ٢: ٢٣٨.

٢٥٩. سورة المائدة: الآية ١.

٢٦٠. وسائل الشيعة ٣٢٧:٢٣ ح٣.

٢٦١. سورة آل عمران: الآية ٧٦

٢٦٢. تفسير جوامع الجامع ١: ٣٠١، التفسير الأصفى١: ١٥٧.

٢٦٣. سورة يس: الآيات ٦٠ - ٦١.

وقولـه تعالـى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٢٦٤].

وقولـه تعالـى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢٦٥].

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[٢٦٦].

وقولـه تعالـى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾[٢٦٧].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٢٦٨].

وقولـه تعالـى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢٦٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢٧٠].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾[٢٧١].

وقولـه تعالـى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[٢٧٢]. وكل هذه الآيات تشير إلى عهود في قضايا محددة.

---

٢٦٤. سورة النحل: الآية ٩١.

٢٦٥. سورة النحل: الآية ٩٥.

٢٦٦. سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

٢٦٧. سورة الأحزاب: الآية ١٥.

٢٦٨. سورة البقرة: الآية ٢٧.

٢٦٩. سورة آل عمران: الآية ٧٣.

٢٧٠. سورة الأنعام: الآية ١٥٢.

٢٧١. سورة الرعد: الآية ٢٠.

٢٧٢. سورة الرعد: الآية ٢٥.

المجموعة الثالثة : الآيات التي تشير إلى عهد الله (سبحانه وتعالى) مع عباده

قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة : ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[٢٧٣] ، لله تبارك وتعالى عهد معنا ، ولكن كم نحن غافلون عن هذا العهد ، ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي﴾ في الطاعة ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ في المغفرة .

وقال تبارك وتعالى في سورة التوبة : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾[٢٧٤] ، هل هناك أوفى من الله بعهده؟ طبعًا لا أحد أوفى منه (سبحانه وتعالى) ، أخائف أنت أن يتخلف الله (سبحانه وتعالى) عن وعوده وعهوده؟ كلا ، لا تخف ، فإنّ الله عز وجل قطع معنا عهدًا فقال : أحسنوا العبودية وأنا أجزيكم وأثيبكم .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٢٧٥] ، فإذا جاء الدعاء بشروطه الصحيحة فسوف تأتي الاستجابة ، وحاشا لله أن يخلف وعده ، وهل هناك من هو أوفى بعهده من الله؟ .

الإضاءة الثالثة

الالتزام بالعهود والمواثيق في السنّة الشريفة

وورد في كتاب تهذيب الأحكام : عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، قال : «المؤمنون عند شروطهم»[٢٧٦] ، إذا وضعوا شروطًا والتزامات وعهودًا يجب عليهم الالتزام بها .

وورد في كتاب الكافي : عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، قال : «المسلمون عند شروطهم»[٢٧٧] ، ورد في الرواية السابقة لفظ (المؤمنون) ، وورد في هذه الرواية لفظ (المسلمون) ، ولا فرق في التعبيرين ؛ لأنّ الوفاء واجب على المؤمن والمسلم على حد سواء ، بل هو واجب على غير المسلم أيضًا .

وورد في مسند أحمد بن حنبل : عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، قال : «لا إيمان لمن لا أمانة له» ، الذي لا أمانة له ولم يكن مؤتمنًا لا يعدّ نفسه من أهل الإيمان ، «ولا

---

٢٧٣ . سورة البقرة : الآية ٤٠ .

٢٧٤ . سورة الكافرون : الآية ١١١ .

٢٧٥ . سورة غافر : الآية٦٠ .

٢٧٦ . تهذيب الأحكام ٣٧١ : ٧ح٦٦ .

٢٧٧ . الكافي٥ : ٤٠٤ح٨ .

ديـن لمـن لا عهد له»[٢٧٨]، من لا يفي بالعهود فليس عنده دين، فلا يحق لك أن تتحدث بالدين وأنت تخلف عهودك ووعودك.

ورد فـي كتـاب الكافي: عن الإمام الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «ثلاث لم يجعل الله عز وجل لأحـد منهـن رخصة»، معنى عدم الرخصة هنا هو عدم جواز تركها على أي حال، وهي ثلاث خصال، الأولى: «أداء الأمانة إلى البر والفاجر»، ائتمنوك على شيء، أي وضعوه عنـدك أمانـة، فيجب عليـك إرجاعه إليهم متى طلبوا ذلـك، ولا يجوز لك في أي حال مـن الأحـوال الامتناع عن إرجاعه، تحـت أي ذريعة كانت. والثانيـة: «والوفاء بالعهد للبـر والفاجـر»، يجب الوفـاء بالعهد الذي قطعتـه على نفسـك لأي كان، ولا فرق في ذلـك بين البر والفاجـر. والثالثة: «وبرّ الوالدين، برين كانا أم فاجرين»[٢٧٩]، لا يسـقط برّ الوالدين بالنسـبة لأولادهم تحت أي ذريعة كانت، وإن كانا فاجرين، فلا يسـقط حق الأبوّة والأمومة، فبرّهما واجب حتى لو كانا منحرفين.

ورد في كتاب مستدرك الوسائل، باب تحريم البغي والالتزام بالعهد: «حدثني موسى (الإمام موسى بن جعفر الكاظم) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: حدثنا أبي جعفر بن محمد، عن أبيه علي بن الحسـين، عن أبيه الحسـين بن علي، عن أبيه علي بن أبي طالب»، إذن هذه الرواية من روايات السلسـلة الذهبية التي يرويها إمام عن إمام، إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، «قال: قال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: ما رفع الناس أبصارهم إلى شـيء إلا وضعه الله (سـبحانه وتعالى)»، يعني أن الله سـبحانه وتعالى يضع ويقلل من قيمة الشيء الذي ترفع النـاس أنظارهـا إليه وتراه كبيرًا، «ولو بغى جبل على جبل»، وهو مثل ضربه رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، على عاقبة البغي، وكيف أن الله عز وجل ينتصر للمظلوم، «لجعل الله تعالى الباغي منهما دكًا»[٢٨٠]، يخر وينهار إذا ما تخلف عن الوفاء بعهده.

وفيـه أيضًـا: عن علي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: «يقول إبليس لجنده: ألقوا بينهم البغي والحسد، فإنهما يعدلان قريبًا من الشرك»[٢٨١]، إذا قيل لمسلم: هلمّ إلى الشرك؛ لا يقبل ذلك ويرفضه بشـدة، ولكن الشـيطان لعنه الله يلتف عليه ويأتيه من طريق آخر، فيقول لجنوده: إننا إذا قلنا للمسلمين: أشركوا بربكم، فلن يقبلوا، ولكننا ندعوهم إلى

---

٢٧٨. مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٥٤.

٢٧٩. الكافي ٢: ١٦٢ ح١٥.

٢٨٠. مستدرك الوسائل ١٢: ٨٥ الباب ٧٤ح١.

٢٨١. مستدرك الوسائل١٢: ٨٥ الباب ٧٤ ح٢

أمر قريب من الشرك، وهو البغي والحسد، ومن البغي نقض العهد، إذن فترك العهود والمواثيق ونقضها أمر قريب من الشرك.

وفيه أيضًا: عن ثابت قال: سمعت أبا جعفر الإمام الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: «قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: إن أسرع الخير ثوابًا: البرّ»، يعني أن الإحسان إلى الناس، هو أسرع شيء إلى الثواب والأجر من الله (سبحانه وتعالى)، أي أن ثواب البرّ يجده الإنسان في الدنيا قبل الآخرة، لأنّ الله تبارك وتعالى يعجّل مكافأته مباشرة، فيتنعم المحسن بإحسانه قبل أن يتنعم بها المحسن إليه، طبعًا مع الفارق الشاسع بين إحسان العبد وإحسان الله تبارك وتعالى، «وأسرع الشر عقوبة: البغي»[٢٨٢]، وفي مقابل الأسرع ثوابًا وهو الإحسان، الأسرع عقوبة وهو البغي، الذي من أبرز مصاديقه نقض العهود والمواثيق، فهو الأسرع عقوبة من بين كل الذنوب الأخرى، فإنّ الباغي يتلقى عقابه مباشرة في دار الدنيا قبل الآخرة، ففي الوقت الذي يكتوي فيه المظلوم من آلام بغي ظالمه، يتجرّع الظالم غصة ظلمه، ويكتوي بحرارة نار بغيه، وشتان بين عقوبة العبد الضعيف وعقوبة العزيز الجبار المنتقم. والكلام هنا ليس في أصل استحقاق الثواب والعقاب، بل في سرعة وصولهما إلى صاحبيهما، فالمحسن يأتيه ثوابه سريعًا، والباغي وناقض العهد والمواثيق يأتيه عقابه سريعا أيضا، وإن كان الله عز وجل يمهل ولا يهمل، ولكن في نقض العهود والمواثيق تأتي الصفعة الإلهية بسرعة.

ورد في نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في خطبته القاصعة: «الله الله في عاجل البغي»، احذروا من الصفعة التي تأتيكم بسرعة وبلا إمهال عند نقض العهود والمواثيق، «وآجل وخامة الظلم»، وآجل عاقبة الظلم، يعني العقوبة الأخروية بالإضافة إلى العقوبة الدنيوية، فإنّ من الذنوب ما له عقوبة أخروية فقط، ومن الذنوب ما له عقوبتان: دنيوية وأخروية، «وسوء عاقبة الكبر»، التكبر عاقبته سيئة، فهو يؤدي إلى عزلة الإنسان المتكبر والمتعجرف، فيصبح معزولًا مكروهًا، ولن يلتف حوله أحد، «فإنها مصيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى، التي تساور قلوب الرجال، مساورة السموم القاتلة»، تساور قلوب الرجال أي تتوثب إليها هذه الأمور، وهي كالسم القاتل، «فما تكدي أبدًا»، يعني لا ترد عن تأثيرها، وهي مشتقة من أكدى حافر الفرس إذا بلغ الكدية، وهي الأرض الصلبة، فلا يمكنه أن يحفر، «ولا تشوي أحدًا»، لا تخطئ المقتل وتصيب غيره، والشوى: الأطراف، كاليد والرجل، يعني أن ما استهدفه لا يصيب طرفا

---

٢٨٢. مستدرك الوسائل ١٢: ٨٥ الباب ٧٤ح٣.

من أطرافه، بل يصيبه بمقتل، «لا عالمًا لعلمه، ولا مقلًّا في طمره»[283]، لا العالم يفيده علمه إذا نقض العهد والمواثيق، والطمر: الثوب الخلق، أي ولا الفقير بطمره ينفعه فقره في الخلاص من مصائد إبليس العظمى ومكائده الكبرى إذا نقض العهد والمواثيق.

وفي مستدرك الوسائل: رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: «اتقوا البغي فإنه يجلب النقم»، هذا الذي ينقض العهود والمواثيق يأتيه البلاء من فوقه ومن تحته، وعن يمينه وشماله، «ويسلب النعم»، تذهب النعم من بين يديك، «ويوجب الغير»[284]، تتغير أحوالك بسبب نقض العهود والمواثيق من الغنى إلى الفقر، ومن الوجاهة إلى العزلة.

وعن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «إياك والبغي، فإنّ الباغي يعجل الله له النقمة»، تأكيد على تعجيل النقمة أيضًا، «ويحل به المثُلات»[285]، يفعل به العجائب، والمثلات: جمع مثلة يعني العقوبة، أي تنزل به العقوبات بالجمع، مثال ما نسمعه أحيانًا أن فلانًا التاجر أو الملياردير، مرض أولاده الواحد تلو الآخر وماتوا، وذهبت كل أمواله بانهيار البورصة، وسُرقت داره، انظروا كيف تحل العقوبة مرة واحدة، ويصبح مضرب مثل، هكذا هي خطورة البغي ونقض العهود والمواثيق، نستجير بالله من ذلك.

وورد في كتاب (وسائل الشيعة) باب تحريم الغدر والقتال مع الغادر، عن طلحة بن زيد، عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: «سألته عن قريتين من أهل الحرب»، من غير المسلمين، من أهل الحرب الذين لم يدخلوا في ذمة المسلمين، «لكل واحدة منهما ملك على حدة»، قرية فيها جمع من الناس من غير المسلمين وعليها ملك يحكمهم، وقرية أخرى مثلها ولهم ملك منهم، «اقتتلوا ثم اصطلحوا»، تعاقدوا وتعاهدوا على الصلح، «ثم أن أحد الملكين غدر بصاحبه»، ثم نقض الصلح أحد الملكين الكافرين وغدر بصاحبه، «فجاء إلى المسلمين»، جاء هذا الملك الغادر إلى المسلمين، «فصالحهم»، دخل في عقد صلح مع المسلمين، بينما بقيت القرية الأخرى لا عقد صلح لها مع المسلمين، «على أن يغزو تلك المدينة»، واشترط أن يدخل المسلمون معه في حرب القرية الأخرى، أي جاء هذا الملك الكافر بعد أن غدر بصاحبه يستقوي بالمسلمين على صاحبه الكافر أيضًا، فقال أبو عبد الله الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «لا ينبغي للمسلمين أن

---

٢٨٣. نهج البلاغة ٢: ١٤٨ الخطبة ١٩٢.

٢٨٤. مستدرك الوسائل ١٢: ٨٧ باب ٧٤ ح٨.

٢٨٥. مستدرك الوسائل ١٢: ٨٧ باب ٧٤ ح٨.

يغدروا»، لا يجوز للمسلمين الغدر، ولو بأهل الكفر، «ولا يأمروا بالغدر»، ليس فقط لا ينبغي لهم الغدر، بل لا ينبغي لهم أن يأمروا بالغدر أيضًا، «ولا يقاتلوا مع الذين غدروا»، ليس ذلك فقط، بل لا يحق لهم أيضًا نصرة الغادر والقتال معه، «ولكنهم يقاتلون المشركين حيث وجدوهم»[٢٨٦]، ولكن يحق لهم قتال أهل الشرك الذين لم يدخلوا مع المسلمين في ذمة أو صلح وهدنة.

وفيه أيضًا: عن أبي عبد الله الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ، قال: «قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: يجيء كل غادر بإمام يوم القيامة»، كل واحد يجيء بإمامه يوم القيامة، فلا يأتي هذا الغادر بمفرده، بل يأتي كما يأتي جميع الناس كل بإمامه، «مائلًا شدقه حتى يدخل النار»[٢٨٧]، الشدق: جانب الفم[٢٨٨]، يجيء الغادر يوم القيامة مائل الشدق، أي صار فمه في أحد جانبي وجهه، فيدخل النار.

وفيه أيضًا: عن الأصبغ بن نباتة، قال: «قال أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ ذات يوم وهو يخطب على المنبر بالكوفة: أيها الناس لولا كراهية الغدر كنت من أدهى الناس»، أتحسبون أني لا أعرف طرق المكر والخداع، ولا أعرف طرق اللعب، ولا أعرف مداخل الأمور ومخارجها، ولكن هذا لا يجوز، ولو كان جائزًا فلا أحد يستطيع اللحاق بي فيه، ولكنت أدهى الناس، «ألا إن لكل غدرة فجرة»، الغدر يرافقه الفجور والعياذ بالله، «ولكل فجرة كفرة»، والفجور يؤدي إلى الكفر، «ألا وإن الغدر والفجور والخيانة في النار»[٢٨٩]، وهذا هو الذي يحجزني عن ركوب الغدر والخيانة، ولولا ذلك لكنت من أدهى الناس.

هذه بعض الآيات والروايات العظيمة في مسألة نقض العهود والمواثيق وخطورتها، وضرورة الالتزام بالعهود والمواثيق.

---

٢٨٦. وسائل الشيعة ١٥: ٦٩ ح١.

٢٨٧. وسائل الشيعة ١٥: ٦٩ ح٢.

٢٨٨. الصحاح ٤: ١٥٠٠.

٢٨٩. وسائل الشيعة ١٥: ٧٠ ح٣.

القسم الثاني: الخطوط الحمر في موضوعة العهود والمواثيق

(وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَرِيمًا يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ، فَلاَ إِدْغَالَ، وَلاَ مُدَالَسَةَ، وَلاَ خِدَاعَ فِيهِ).

القسم الثاني من هذا الموضوع الشيق والأساسي، يتمثل بالخطوط الحمر في موضوعة العهود والمواثيق؛ قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ): الله (سبحانه وتعالى) جعل عهده وذمته في أمر، لأننا قلنا إن العهود والعقود مع الناس، هي عهد الله، فما أن يمضي إنسان عهدًا مع إنسان آخر حتى يصبح عهد الله، وإن كان هذا العهد مع عدو أو مشرك أو كافر.

(أَمْنًا): هذا الأمر الذي جعله الله تبارك وتعالى في عهده وذمته هو حالة الأمن والاستقرار والطمأنينة، حينما يلتزم الجميع بعهودهم وعقودهم، وبما قطعوه على أنفسهم، وبما يلزمون به أنفسهم.

(أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ)، الرحمة الإلهية تكون شاملة للأمة وللجماعة التي تلتزم بعهودها ومواثيقها.

(وَحَرِيمًا): الحريم هو المكان الذي يحرم مسّه، يحرم الاقتراب منه، يصبح هذا الالتزام بالعهود والمواثيق حريمًا، لا يحل الاقتراب منه.

(يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ): يلوذون به، يسكنون إليه، لأنه منيع وحصين.

(وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ): وينحازون إليه، ويفزعون إليه، ويتمسكون به، فالالتزام بالعهود والمواثيق يحقق الأمن المجتمعي، يحقق حالة من الاستقرار الاجتماعيّ، يستنزل الرحمة الإلهية، يوجد الملاذ الذي يلتف حوله الناس، ويلوذون به.

(فَلاَ إِدْغَالَ): قلنا الإدغال من الدغل، وهو المصطلح المستعمل في لهجتنا الدارجة لذلك العشب غير المفيد الذي يخرج مع الزرع.

(وَلاَ مُدَالَسَةَ، وَلاَ خِدَاعَ فِيهِ): يعني لا إفساد ولا خيانة ولا مكر ولا حيلة، في التعاطي مع هذه العهود والعقود، ويجب الالتزام بها بشكل كامل.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

الإضاءة الأولى

الدور الفريد للالتزام بالعهود والمواثيق في القيادة والإدارة

يتمثل الدور الفريد والمميز للالتزام بالعهود والمواثيق في القيادة والإدارة والمنظومة القياديّة، في أنه لا شيء يؤثر كالالتزام بالعهود والمواثيق، أي أن القائد والمسؤول والمدير عند كلمته؛ يفي بوعده، فالشعب عينه على القائد ماذا يقول، إن طمأنهم اطمأنوا، وإن وعدهم بشيء تيقنوا بتحققه، وهذا من شأنه أن يوجِد نوعا من الاستقرار والثقة والتماسك، وهكذا الأمر في المستويات الأدنى؛ فإنّ أي مسؤول في أي مستوى من المسؤولية، إذا كان ممن يفي بالالتزامات والعهود، ويقف عند كلمته ويلتزم بها، يكون قد أمسك بالمفتاح الأساسي الذي يجعل المنظومة القياديّة تتماسك بشكل كبير، ويجلب لها الثقة، والاطمئنان، والأمن، والراحة، والاستقرار، وهذا كله يأتي من خلال الالتزام بالعهود والمواثيق؛، فكل عهد، وكل عقد، لا يتقاطع مع الحق، فهو أمان يعيشون في ظله بسلام، أما إذا وجد شخص يبرم عقدًا أو يلتزم بقضية خلاف الحق؛ فيها باطل، كأن يتعهد بقتل فلان، فإن هذا الشخص يقال له: إن هذا خارج عن الالتزام بالعهود والمواثيق، لأنّ شرط العهد والعقد والالتزام هو أن يكون ما يتعاقد ويتعاهد عليه، متسقًا مع الحق، وأن لا يتقاطع مع الشرع أيضًا، فلا يجوز للإنسان أن يقطع وعدًا أو عقدا أو عهدًا فيه معصية لله (سبحانه وتعالى)، فيه وقوع في الحرام، بل العهد الصحيح هو العهد الذي ينسجم مع الحق، وينسجم مع الشرع، فمثل هذا يكون حريمه حريم الله تبارك وتعالى، ونقضه نقضًا للعهد مع الله (سبحانه وتعالى).

روي في السنن الكبرى عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «المسلمون عند شروطهم، ما وافق الحق من ذلك»[٢٩٠]، أي بشرط أن تلتصق بالحق، وتوافقه، فإذا وافقت الحق وجب الالتزام بتلك الشروط والعهود التي ألزم الإنسان بها نفسه.

وروي في المعجم الكبير عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «المسلمون عند شروطهم، إلا شرطًا حرّم حلالًا أو أحل حرامًا»[٢٩١]، الشرط غير المقبول هو الشرط

٢٩٠. السنن الكبرى ٧: ٢٤٩.

٢٩١. المعجم الكبير ١٧: ٢٢.

الذي يغير الموازين الشرعية، يتلاعب بالثوابت الشرعية، يحلل الحرام ويحرّم الحلال، أما الشرط الشرعي فهو شرط حق يجب الالتزام به، والعهد فيه هو عهد مع الله (سبحانه وتعالى).

إذن فالعهد يحقق ثلاثة أمور:

الأمر الأول: الأمن والاستقرار، ويتمثل هذا بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا أَفْضَاهُ).

الأمر الثاني: يستجلب الرحمة الإلهية، وهذا يظهر من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: (بِرَحْمَتِهِ)، الرحمة تأتي من خلال هذا الالتزام بالعهود والمواثيق.

الأمر الثالث: الحريم الذي يلوذون به، ويعتمدون عليه في حفظ مصالحهم، في الدفاع عن حقوقهم، وهذا يستفاد من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ)، فمن قطع معي وعدًا، أو عاهدني عهدًا، أو تعاقد معي على شيء، فما دام هناك عقد والتزام، فهناك شيء يرجع إليه الإنسان، فلا يبقى تائهًا، وعندها لا يقول: أقرضتك أموالًا، فأين الأموال؟ أو اشتريت منك سيارة، فأين السيارة؟ لأنّ الوفاء بالوعد والعقد والعهد يمنع من ذلك، فما دام العقد محترمًا، والعهد محترمًا، فعند الإنسان شيء يلوذ به عندما تحصل مشكلة، فهناك دائمًا حريم يعود إليه.

الإضاءة الثانية

الخط الأحمر في القيادة والإدارة هو الالتزام بالعهود والمواثيق

الخط الأحمر في القيادة والإدارة هو الالتزام بالعهود والمواثيق، فكل منظومة قياديّة، كل مجموعة من الناس، عندهم خطوط حمر، يضعون لأنفسهم خطوطًا حُمرًا لا يسمحون بأن يتجاوزها أحد، فما هو الخط الأحمر في المنظومة القياديّة لعلي عليه السلام؟ في رؤية الإسلام؟.

الخط الأحمر عند علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، في الرؤية الإسلاميّة، ليس هو النقد والاعتراض والاحتجاج، فهذه القضية حق مسلّم به من حقوق الناس، وتحدثنا سابقًا في هذا الموضوع، وذكرنا النصوص المؤيدة لذلك، وأثبتنا أنه حق واضح وثابت وبيّن، والخط الأحمر ليس هو الصراحة والشفافية والوضوح في السياسات، في الخطوات، في المواقف، في التشريعات؛ لأنّ هذه من أوضح معالم الحكم الرشيد، الذي ينظر إلى

الآخـرة، وإلى عواقب الأمور، وقد تحدثنا طويـلًا في الأيام الماضية في هذا الموضوع أيضًا.

الخط الأحمر ليس هو الإشراف، والتقييم، والمتابعة، والتفتيش، والتدقيق في أداء المسـؤولين والمدراء؛ لأنّ هذه قضية مسـلّمة، وبدونها سينتفض الشارع وستسقط هذه المنظومة القياديّة.

الخط الأحمر ليس هو الحفاظ على السـلطة، لأنّ السـلطة ليسـت غاية، بل السلطة وسيلة، فقيمة السلطة تتجلى حين يعتمدها الإنسان في الوصول إلى الغايات النبيلة؛ في إحقاق الحقوق، في نشـر العدل والإنصاف بين الناس، في خدمة الناس، سـلطة تحق الحقوق، وتشـيع العدل، هذه هي السـلطة المطلوبة. أما السـلطة التي تؤدي إلى الظلم والإجحاف بحق الناس، فهذه وبال على الحاكم الذي يتسلط على أولئك، فليست هناك قيمة ثابتة ودائمة للسلطة كيفما كانت، فقيمة السلطة بشروطها، ولأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حديث طويل ومتنوع في هذا المجال.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الخطبة الثالثة من نهج البلاغة: «أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، وخلق الأرواح، لولا حضور الحاضر»، نعرف أنّه كانت لعلي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بيعة عظيمة وكبيرة، فقد التف حوله آلاف الناس، وجلسوا في بابه يريدون مبايعته، وأصروا عليـه أن يتصـدى للخلافـة، بعد مقتل الخليفـة الثالث، وهذه البيعة التـزام من طرفين، فعندما تبايع الناس الحاكم يصبح إمامًا وخليفة لهم، وهو التزام من الطرفين.

«لولا حضور الحاضر» الذين جاؤوا للبيعة وجلسوا عند باب داري وبايعوني.

«وقيـام الحجـة بوجود الناصر» وتمت الحجة علـيّ بوجود ناصر يبايعني على خلافة المسـلمين، ووجود جيوش مسـتعدة للقتال تحت إمرتي، ونصرتـي في إحقاق الحق، وإقامـة العـدل، ففرض هـذا الحال عليّ التزامًا؛ لأني قادر مـن خلال هذا التصدي، أن أشيع العدل والإنصاف بين الناس، فهناك حجة أقيمت عليّ أمام الله (سبحانه وتعالى).

«وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا»، أن لا يوافقوا مقرّين.

«أن لا يقـارّوا علـى كِظـة ظالم»، كِظـة: هي حالة التخمة التـي تحدث للبعض عند الإكثـار مـن الأكل، عندمـا يأتي إلـى الطعام جائعًا، فيتنـاول مقدارًا أكثـر من حاجته، وعندما ينتهي لا يستطيع القيام من مكانه، وحالة التخمة هذه هي الكِظة.

«أن لا يقاروا»، أخذ الله جل جلاله على العلماء، أن لا يسكتوا عن كِظة ظالم، وهي كنايـة عـن ناهبي أموال الناس، إمكانات الناس، فهـو متنعم بالمال العام، هذه هي كِظة ظالم.

«ولا سغب مظلوم» ، السغب هو شدة الجوع ، وقد أخذ الله (تبارك وتعالى) على العلماء أن لا يقاروا ولا يسكتوا عن جوع المظلومين ، وعن تخمة الظالمين ، ولولا هذه الالتزامات ، لولا هذه الحجة التي أُقيمت ، بحضور الحاضر والالتزام الذي تحقق من البيعة .

«لألقيت حبلها على غاربها» ، يعني لتركت الأمر ، وتخليت عن هذه الخلافة .

«ولسقيت آخرها بكأس أولها» ، فأولها وآخرها لا يعنيان لي شيئًا .

«ولألفيتم دنياكم هذه» ، ليس الدنيا التي أرادها الله تبارك وتعالى للناس ، بل دنياكم ، دنيا المكر والخديعة واللعب والدجل والتآمر .

«دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»[٢٩٢] ، إذ لا قيمة لعفطة عنز - أجلكم الله - عند أحد ، وهي في الواقع لا قيمة لها ، فكل دنياكم هذه ، وما تتصارعون من أجل الحصول عليه ، هذه كلها أقل عندي من عفطة عنز ، يقولها علي عَلَيهِ السَّلَامُ وهو الصادق في ما يقول .

وورد في نهج البلاغة أيضًا قول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ عند خروجه لقتال أصحاب الجمل : « قال عبد الله بن العباس : دخلت على أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ بذي قار ، وهو يخصف نعله» ، يخيط نعله الممزق ، «فقال لي : يا ابن عباس ما قيمة هذا النعل ؟ فقلت : لا قيمة لها ، فقال عَلَيهِ السَّلَامُ : والله لهي أحب إليّ من إمرتكم ، إلا أن أقيم حقًا أو أدفع باطلًا»[٢٩٣] ، إذن فالإمرة التي فيها إقامة للحق ودفع للباطل هي التي لها قيمة ، أما الإمرة التي لا يستطيع فيها إقامة الحق والعدل ، وليس فيها إلا الدماء والقتال والحرب ، فلا خير فيها ، والنعل المخصوف أحب إلى علي عَلَيهِ السَّلَامُ منها .

وورد في نهج البلاغة في رسالة لأمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري ، وقصته معروفة حينما دُعي إلى وليمة فيها ما لذّ وطاب من الأطعمة ، ولبى هذه الدعوة ، التي لم يحضرها سوى الأثرياء دون الفقراء ، فأرسل له أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ كتابًا يقرّعه فيه ، إذ كتب عَلَيهِ السَّلَامُ له : «ألا وإن لكل مأموم إمامًا يقتدي به ، ويستضيء بنور علمه ، إلا وإنّ إمامكم» يقصد نفسه .

«قد اكتفى من دنياه بطمريه» الطمر هو الثوب الخلق ، الثوب العتيق ، ولم يكن علي عَلَيهِ السَّلَامُ يملك غير ثوبين عتيقين ، هما رداء وإزار .

---

٢٩٢ . نهج البلاغة ١ : ٣٦- ٣٧ الخطبة٣ .

٢٩٣ . نهج البلاغة ١ : ٨٠ الخطبة ٣٣ .

«ومـن طعمـه بقرصيه» واكتفى من الطعام برغيفين من خبز الشعير في اليوم ، وإدامه الملـح ، فـكان يوزع الحنطة بيـن الناس ويأكل خبز الشـعير ، ومعروف أن خبز الشـعير يابس ، وقد جاء في بيان مطعمه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه كان يفته من شدة اليبوسة ثم يلتهمه .

«ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك» لا تستطيعون أن تعيشوا هذه العيشة .

«ولكن أعينوني بورع واجتهاد ، وعفة وسداد» إعانة الحاكم الأعلى للمسلمين تكون بالورع ، ومخافة الله سبحانه ، والاجتهاد ، والعمل الدؤوب ، والعفة ، وهي غض البصر ، والتعامل بشكل سليم في الأمور الأخلاقية ، والتعامل بسداد أي بتصرف رشيد وبحكمة .

«فوالله ما كنزت من دنياكم تبرًا» التبر هو الذهب والفضة قبل أن يصاغ .

«ولا ادّخرت من غنائمها وفرًا» ولا جمعت لنفسي مالًا ، ولا ادخرت من غنائم الدنيا شيئًا .

«ولا أعددت لبالي ثوبي طمرًا» ولا فكرت بثوب جديد استبدل به هذه الملابس البالية إذا تهرأت وتمزقت ولم تعد تستر بدني .

«ولا حزت من أرضها شبرًا» ولا ملكت شبرًا من الأرض في هذه الدنيا .

«ولا أخـذت منـه إلا كقوت أتانٍ دبرة» وهي الدابة التي ينكسـر ظهرها ، فيقل أكلها ، يعني أنه يأكل من الطعام مقدارًا قليلًا كالدابة المريضة التي يقل أكلها .

«ولهـي فـي عيني أوهى وأهون من عفصة مقـرة» ، قال ابن منظور : «ثمرة عفص : لا تسـوغ في الحلق»[٢٩٤] ومقرة أي مرة ، قال الفراهيدي : «المقر : شـبه الصبر»[٢٩٥] ، فهذه الدنيا عند علي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أهون من حنظلة لا يستسيغها الآكل .

«بلى كانت في أيدينا فدك ، من كل ما أظلته السـماء» ، كانت عندنا فدك ، فيها كل ما لذّ وطاب .

«فشـحت عليهـا نفـوس قوم» بخلت فيهـا نفوس قوم ، أن تكون فـدك في أيدي أهل البيت ، ولم يصرّح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأسمائهم ، درءًا للفتنة .

«وسـخت عنهـا نفوس قوم آخريـن ، ونِعمَ الحكم الله ، وما أصنـع بفدك» ، وتركتها نفـوس أهـل البيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، وتركت المطالبـة بها ، مع أن أميـر المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان حاكمًـا ويسـتطيع إرجاعهـا إلى أبناء فاطمة الزهـراء (عليها السـلام) ، ولكنه لم يفعل ، فقـد زهـد هـو وأولاده فيها ، فقد مـرّ ربع قرن علـى غصبها ، ليبقى غصب فـدك عنوانًا

---

٢٩٤ . لسان العرب ٤ : ٣٥٤ .

٢٩٥ . كتاب العين ٥ : ١٦١ .

لمظلومية الزهراء، ولئلا يستغل الآخرون ذلك ويتحول عنوان الصراع من غصب الإمامة والولاية إلى غصب قرية فدك ذات البساتين المثمرة، ويكفي في فدك أن حق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد غُصب، لتبقى معلمًا على الدهور والأزمان.

«وما أصنع بفدك وغير فدك، والنفس مظانها»، يعني المكان الذي تظن أنها تلجأ إليه.

«في غدٍ جدث»، فإنّ النفس مآلها إلى القبر.

«تنقطع في ظلمته آثارها»، عندما يُدخل الإنسان إلى القبر في تلك الظلمة تنقطع فيه كل آثار الدنيا، فماذا يرى الإنسان في قبره؟ أموالا، جاها، أراضي، ذهبا؟ مهما ملك الإنسان فسيذهب بالكفن فقط، ولا يذهب معه أي شيء من دنياه.

«وتغيب أخبارها»، وستغيب في تلك الظلمة والحفرة جميع الأخبار.

«وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت يدا حافرها، لأضغطها الحجر والمدر»، وسينزل الإنسان إلى حفرة ضيقة، وإذا كان الدفان كريمًا ووسع له قليلًا في قبره، فسيملأ هذه الفسحة تراب الأرض المحيط بها، فلا ينفع الميت أن يوسع في قبره قليلًا.

«وسد فرجها التراب المتراكم»، الفرج هي الثغرات الموجودة في القبر، وسوف تسد بالتراب الذي سينهال عليها بمرور الأيام.

«وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى»، نفسي أذللها بالتقوى.

«لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر»، لتكون يوم القيامة آمنة من عذاب الله (سبحانه وتعالى).

«وتثبت على جوانب المزلق»، المزلق: مكان الزلل، يعني الصراط، هل تستطيع أن تثبت على الصراط ولا تنجر إلى النار؟ ولا تتصوروا عندما أقول لكم إن هذا طعامي ومشربي وملبسي أن ذلك يعني أنه ليس عندي شيء أكثر من ذلك.

«ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العسل»، يعني أستطيع الحصول على المصفّى من هذا العسل، وهو أرقى أنواع العسل.

«ولباب هذا القمح»، إذا كنتم تأكلون القمح بقشوره، فإني أستطيع أن أحصل على لباب هذا القمح، فإنّ أكله بلا قشور من أطيب ما يكون.

«ونسائج هذا القز»، أستطيع أن ألبس الحرير، لا أن ألبس ملابس خلقة.

«ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي»، الجشع شدة الحرص.

«إلى تخيُّر الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص»، هل آكل كل هذه الأطعمة، وقد يكون في الحجاز من لا يمتلك رغيف خبز يأكله.

«ولا عهد له بالشبع»، لا يتذكر وقتًا قد شبع فيه فهو دائمًا جائع.

«أو أبيت مبطانًا»، المبطان هو صاحب المعدة المملوءة.

«وحولي بطون غرثى» جائعة.

«وأكباد حرى» عطشى.

«أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داءً أن تبيتَ ببطنةٍ . . . وحولك أكبادٌ تحنُّ إلى القدِّ»

القد هو الجلد غير المدبوغ، يحن إليه الجياع.

«أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر؟»، فالمسألة ليست مسألة عناوين؛ هذا حاكم، وهذا مسؤول، وهذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر.

«أو أكون أسوة لهم»، المفروض أن أكون أسوة لهم.

«في جشوبة العيش»، خشونة العيش.

«فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات»، هل يكون كل اهتمامي في تناول الأطعمة اللذيذة؟ وتتبع أي كتاب ينزل إلى السوق يحتوي على طبخات جديدة؟.

«كالبهيمة المربوطة همها علفها»، فنكون كالبهيمة المربوطة شغلها الشاغل هو ما تتناوله من العلف.

«أو المرسلة»، البهيمة غير المربوطة التي تبحث عن طعامها.

«شغلها تقممها»، تبحث في القمامة عن شيء تأكله.

«تكترش من أعلافها»، يصبح لديها كرش من كثرة الأكل.

«وتلهو عما يراد بها»، وهي غافلة عما يريده بها أصحابها من الذبح، فهل أكون مثل هذه البهيمة؟.

«أو أُترك سدىً، أو أُهمل عابثًا»، هل أضيع وقتي عبثًا؟. هناك شيء يسمّونه قتل الوقت، كمن يقول لصاحبه: تعال نذهب إلى المقهى لنجلس ساعتين أو ثلاث ساعات لنقتل وقتنا، عجيب! تقتل الوقت وتضيعه؟

«أو أجرّ حبل الضلالة»، أو أسلك طريق الانحراف فأظلم هذا أو ذاك.

«أو أعتسف طريق المتاهة»، الاعتساف: السلوك في طريق غير واضح، لا يعرف سالكه إلى أين يؤدي به.

«وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب، فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان»، سيقول الذي يسمع كلامي هذا: إن علي بن أبي طالب

لضعيف، إذا كان طعامه هذا، وكل قوته رغيفان من خبز الشعير، فسوف يترنح بضربة واحدة من أقرانه في سوح المبارزة والقتال، ثم يجيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن هذه التساؤلات قائلًا:

«ألا وإنّ الشجرة البرية أصلب عودًا»، وهي الشجرة التي تنبت في الصحراء في ظروف غير ملائمة، حيث لا ماء، ولا تربة غنية بالعناصر، وتكون أصلب وأقوى من الشجرة التي تنبت في القرى، وتستطيع مقاومة العواصف العاتية، بينما لا تستطيع ذلك النباتات التي تنبت قرب الأنهار.

«والرواتع الخضرة أرق جلودًا»، الخضراوات والأشجار التي تنبت في أماكن قرب النهر طرية وإذا لم يصلها الماء ستموت، وهو مثل من الواقع ضربه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليبيّن للسائل أنّه كالنبتة البرية؛ أصلب عودًا وأقوى شكيمة من أولئك الذين تتغذى أجسادهم من لذائذ الأطعمة وألوانها، فلا تخافوا على إمامكم، وقد رأيتموه كيف جندل أبطالهم في ميادين القتال.

«والنابتات العذية»، يعني النباتات التي تستقي من ماء المطر، وهي تمتص ماء أقل من النباتات والأشجار التي تستقي من ماء الآبار والأنهار.

«أقوى وقودًا»، يكون وقودها أقوى من غيرها، عندما تجتث عيدانها لتكون حطبًا، لأنها يابسة، بينما تكون عيدان الأشجار الأخرى طرية، فلا تحترق بشكل كامل.

«وأبطأ خمودًا»[٢٩٦]، وعندما تُحرق تبقى أطول من غيرها حتى تخمد.

تشير هذه النصوص إلى أن السلطة لا تمثل الأساس والخط الأحمر في المنظومة القياديّة، بل السلطة هي لإحقاق الحق وإنصاف المظلوم، وهذه السلطة هي السلطة النافعة والمفيدة، إذن ما هو الخط الأحمر؟ الخط الأحمر كما يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الالتزام بالعهود والمواثيق، هو كرامة الإنسان، وحرية الإنسان، والالتزامات التي وضعتها المنظومة القياديّة في حفظ كرامة الناس.

ومن حكم أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «إنّ العهود قلائد في الأعناق إلى يوم القيامة، فمن وصلها»، فمن التزم بهذه العهود، «وصله الله، ومن نقضها»، نقض العهود، «خذله الله، ومن استخف بها»، قلل من قيمتها، «خاصمته»، شكته هذه العهود، «إلى الذي أكدها»، وهو الله عز وجل الذي أكد هذه العهود والمواثيق كما ذكرنا في الآيات التي استعرضناها في لقاءات سابقة، «وأخذ خلقه»، ألزم خلقه «بحفظها»[٢٩٧]، فلا

---

٢٩٦. نهج البلاغة ٣: ٧٢ - ٧٣ الخطبة. ٤٥

٢٩٧. شرح غرر الحكم: ٢: ٦١٦.

خـط أحمـر حقيقيًا إلا الالتزام بالعهود والمواثيق ، (فَلاَ إِدْغَالَ وَلاَ مُدَالَسَـةَ وَلاَ خِدَاعَ فِيهِ) ، وعليك أيها المسؤول الالتزام بالعهود والمواثيق بشكل كامل .

القسم الثالث: التدقيق في إبرام العقود والمعاهدات

(وَلاَ تَعْقِـدْ عَقْـدًا تَجُوزُ فِيهِ الْعِلَلُ ، وَلاَ تُعَوِّلَـنَّ عَلَى لَحْنِ القَوْلِ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوْثِقَةِ ، وَلاَ يَدْعُوَنَّـكَ ضِيـقُ أَمْـرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللهِ ، إِلَى طَلَبِ انْفِسَـاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَـى ضِيـقِ أمرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِـهِ ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللهِ فِيهِ طَلِبَةٌ ، لاَتَسْتَقِيلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلاَ آخِرَتَكَ) .

يرتبط هذا القسـم بالتدقيق في إبرام العقود والمعاهدات ، مراعاة الدقة في صياغة العقود والمعاهدات ؛ كيف تصاغ العقود؟ كيف تصاغ المعاهدات؟ .

(وَلاَ تَعْقِـدْ عَقْـدًا) : لا تُجـر صياغة - شـفاهًا أو كتابة - عقد شـراء أو بيع أو أي عقد آخر ، إلا بعد مراعاة الأمور التالية :

(تَجُـوزُ فِيهِ الْعِلَلُ) : العلل يعني التأويل ، يعني عبّر تعبيرًا واضحًا لا يحتمل التأويل ، لئلا يعترض معترض بعد ذلك فيقول إن هذه الكلمة فيها المدلول الفلاني ، وفيها المعنى الفلاني ، ولذا ينبغي أن تكون الصياغة دقيقة .

(وَلاَ تُعَوِّلَـن عَلَـى لَحْـنِ القَـوْلِ) : لا تعتمد علـى ليّ عنق العبـارة ، أو ليّ عنق كلام المتحـدث ، لتنتـزع منـه - بشـكل مـن الأشـكال - معنى آخـر ، فمثلًا قول رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ في بيعة غدير خم : «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»[٢٩٨] واضح جدًا ، وعرفت الناس منه ما يريد ، وبايعوا عليًا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ، وقالوا له : «بخ بخ لك يا علي أصبحت وأمسـيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»[٢٩٩] ، فالقائل يدري ما يريد ، والمسـتمعون عرفوا ما يريد ، ورتبوا عليه الأثر وبايعوا ، ثم يخرج لك شخص بعد مئات السنين ليقول لـك : إن هذه الولاية «من كنت مولاه» فيها سـبعة وعشـرون معنـى ، ولا نعلم أي معنى يـراد[٣٠٠] ! وغايتهـم تضييع المعنـى الحقيقي حينما ربطوه بكل هـذه المداليل العجيبة ، وعندمـا يقـال للبائع : ألم تبع الـدار بالمبلغ الفلاني إلى فلان ، فلماذا اسـتغفلته وكتبت

٢٩٨ . الكافي ١ : ٢٩٥ ح٢ ، مسند أحمد بن حنبل ١ : ٨٤ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ٢٥١ .

٢٩٩ . بحار الأنوار ٣٧ : ١٤٢ ح٣٦ ، البداية والنهاية لابن كثير ٧ : ٣٨٦ .

٣٠٠ . انظر : الغدير ١ : ٣٦٢ .

العبارة الفلانية، ثم ذهبت تشتكي وتترافع في المحكمة وتستند إلى هذه العبارة؟ وكل هذا لعب، واحتيال، واعتماد على تفسيرات وتأويلات لم تكن مقصودة في المعاملة، وهذا نقض للعقد، ولا يجوز بعدما كان المعنى واضحًا بينكما، (وَلَا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ)، على الكلام الذي يقال وتحاول أن توحي بأنّ المراد منه شيء غير ما قصد في العهد الذي تعاقدت عليه.

(بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوْثِقَةِ): أي بعد الانتهاء من صياغة العقد والتأكد مما جاء فيه، والإمضاء عليه من طرفي العقد، يأتي أحدهما فيقول: ما المقصود من الكلمة الفلانية أو العبارة الفلانية؟، فإنه لا معنى للاعتراض بعدها، ولا يجوز نقض العقد بعد إبرامه.

(وَلَا يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ): مثلا الشركات النفطية، لديها طريقان: الطريق الأول: عقود مشاركة؛ بأن تطلب مثلا نسبة (٢٠٪) من سعر البرميل الواحد، فإذا كان سعره مائة وعشرين دولارا فإنّ لها أربعة وعشرين دولارًا عن كل برميل، وإذا كان سعره عشرين دولارًا فلها دولار واحد عن كل برميل، فالنسبة ثابتة ولا يؤثر فيها صعود سعر البرميل أو هبوطه، والطريق الثاني: عقود خدمة، وهي أن تطلب الشركات النفطية حصة ثابتة، بغض النظر عن صعود سعر برميل النفط أو هبوطه، فلا علاقة لها بتغير أسعار النفط، فهي تريد مبلغًا مقطوعًا عن كل برميل، كأن يكون عشرين دولارًا عن كل برميل، وتتعهد الدولة المنتجة للنفط بدفع كل نفقات الإنتاج، وعندما رأى المسؤول المفاوض أن الأرجح هو إبرام العقد على أساس عقود الخدمة؛ لأنّ سعر برميل النفط عندها كان مائة وعشرين دولارًا، فكان يجب أن يدفع أربعة وعشرين دولارًا عن البرميل الواحد، بينما كان يجب عليه أن يدفع عشرين دولارًا للبرميل الواحد على أساس عقود الخدمة، ووقّع الطرفان العقد على أساس عقود الخدمة، ومضت فترة فهبطت أسعار النفط هبوطًا شديدًا، فذهبوا إلى شركات النفط وقالوا نريد الاتفاق على أساس عقود مشاركة، وهذا لا يجوز؛ إذا ارتفعت الأسعار نريد عقود خدمة، وإذا نزلت نريد عقود مشاركة، ولكن في بلادنا هكذا تجري الأمور، وقد واجهنا مشكلة بسبب عقود الخدمة، ومُنينا بضرر كبير، فقد كلّف استخراج النفط أحيانا أكثر من سعر البيع، نستخرج النفط وندفع أموالًا إضافية لكي نبيعه، فتكلفة الإنتاج ثمانية عشر دولارا ويباع النفط بخمسة عشر دولارا في بعض الحالات.

ومثال آخر: لو اشتريت دارًا بسعر معيّن، ثم حدثت أزمة اقتصادية خانقة وانخفضت على إثرها أسعار العقار إلى النصف، وأصبحت في ضيق، وخاصة أنك لم تدفع جميع السعر، وما زلت مدينًا بنصف السعر مثلًا، بينما نزلت قيمة الدار إلى نصف السعر، فلا

يحـق لك أن تقـول لأبحث لي عن حجة لألغي المعاملة ، (وَلَا يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللَّهِ) ، عقد أبرمته وصار عهدًا لله (سـبحانه وتعالى) ، (إِلَى طَلَبِ انْفِسَـاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) ، هناك فسخ بوجه حق وفسخ بغير وجه حق ، والفسخ بالحق كما لو أنك وضعت شـرطًا في متن العقد بأنّ لك أو للطرفين فسـخ العقد خلال مدة محددة ، فقمت بفسـخه خـلال هذه المدة ، فهذا جائز ، والفسـخ بغير وجه حـق أن العقد لا يتضمن هذه الفقرة ، ولم يكن هناك ما يوجب الفسخ والتراجع ، فلا يجوز الفسخ ، وربما يحدث هذا كثيرًا في تعاملات البورصة ، حينما تشتري سهمًا لشركة أو غيرها ثم يهبط أو يرتفع بعد ساعتين ، فيأتي الطرف المتضرر يريد الفسخ ، وهذا لا يجوز.

(فَـإِنَّ صَبْـرَكَ عَلَى ضِيـقِ أَمْرٍ تَرْجُـو انْفِرَاجَهُ) : أن تصبر على هذا الضيق والخسـارة وترجو الله أن يفرج عنك.

(وَفَضْـلَ عَاقِبَتِـهِ) : وترجو العاقبة الحسـنة حينما تلتزم بالعهـود والمواثيق في الدنيا والآخـرة ، لمـا مرّ سـابقًا مـن أن عقاب نقض العهـود يأتي بسـرعة ولا يتأخر ، وهو من العقـاب العاجل لا الآجل ، فإذا أردت الخلاص من العقوبة الدنيوية والأخروية ، فيجب عليك أن تتحمل الضيق ، تتحمل الخسارة ، وتمضي في هذا العقد والعهد.

(خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ) : من أن تغدر وتنقض العهد ، ثم بعد ذلك تقع في العواقب الوخيمة.

(وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللَّهِ فِيهِ طِلْبَةٌ لَا تَسْـتَقْبِلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ) : كن حذرًا من أن تنقـض العهـد ، وتغدر بذلك العقد الذي عقدته مع الآخريـن ، ثم تأتي طلبة الله ، عقوبة الله ، بطريقة تجعلك تطلب الرجوع إلى العهد ، والاستقالة هي الرجوع عن الشيء ، (وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللَّهِ فِيهِ طِلْبَةٌ) ، يعني أن تتوجه لك من الله طلبة بالالتزام بالعهود والمواثيق ، فلا تسـتقيل فيها ، أي لا تسـتطيع فيها أن تتراجع وتعود إلى الالتزام بالعهود والمواثيق ، فلا تستقيل فيها دنياك وآخرتك.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

الدقة في تنظيم العقود والعهود

تنسيق العلاقة بين أعضاء أي منظومة قياديّة، والبرامج التي تحقق أهداف هذه المنظومة، كلها تتطلب التزامات؛ تسمية الوصف الوظيفي، توزيع الواجبات والمهام، بيان مهام كل شخص ومسؤولياته وحقوقه، إلى غير ذلك من شؤون وأمور، وهذه فيها حقوق وواجبات لكل شخص، فيها بيان للمهام والالتزام على كل شخص، وفيها تحديد الفوائد والأطر والضوابط والمحددات التي يجب أن يلتزم بها كل شخص، وفيها تحديد للإيرادات والإنفاقات وما شابه ذلك من شؤون مالية أو غيرها، وكل هذه يجب أن تنظم بسياق معين، ومعاهدات وعقود، لكي لا يضيع حق أحد.

فإذا لم تتم صياغة هذه العقود والمعاهدات بشكل صحيح وواضح وبيّن وشفاف، وكتبت بطريقة ملتوية وفضفاضة، فإن هذا سوف يسبب الاختلاف عندما يفهم منها كل طرف شيئًا غير الذي يفهمه الآخر، وتصبح ورقة العقد هي السبب في خلافات كبيرة بين الأطراف، وقد تكون هذه الصياغة الركيكة نتيجة قلة معرفة، عدم خبرة، ولذلك يجب أن يتم اختيار خبراء وقانونيين متمكنين من صياغة العهود المعاهدات والعقود بطريقة تكون بعيدة تمامًا عن أي تفسيرات وتأويلات لاحقة، ففي كثير من الأحيان يكون ضعف الإمكانات العلمية أو العملية، هو الذي يُوقِع المتعاقد بكثير من الالتباسات والإشكالات، ونلاحظ في بلادنا في هذه السنين، أن الشركات العالمية لديها خبراء وتعرف كيف تصوغ العقود بطريقة تجر النفع لها لو حدث خلاف بين الحكومة والقطاع الخاص، بين الحكومة وشركة أجنبية، فحين تُرفع القضية إلى المحكمة يصدر الحكم لصالح الشركة، وليس لصالح الحكومة، لماذا؟ لأننا لم ندقق في الصياغة، ودائمًا ما يكون الطرف الآخر أقدر على الصياغة الأدق، إذ وضع في متن العقد نقاطًا تعطيه الحق في حالة حصول نزاع وخلاف مع الطرف الآخر، وهذا خلل، وعلينا أن نأتي بالخبير القانوني الذي يستطيع أن يصوغ العبارات بشكل صحيح، ويثبت حقنا بشكل سليم، وبدونها ستكون هناك أضرار كبيرة وفادحة تصيب المنظومة القياديّة.

(وَلَا تَعْقِدْ عَقْداً تُجَوِّزُ فِيهِ الْعِلَلَ)، لا تكتب عقدًا ذا صياغات مرتبكة، يجوز فيه التحايل والتأويل إلى غير ذلك، فيجب في العقد أن تكتب كل التفاصيل بدقة، وأن يكون

العقد ملمًا بكل الجوانب بشكل علمي وواضح وشفاف، لا يدع مجالًا للتلاعب بأي شكل من الأشكال، ولا يحتمل التأويل أو التنصل منه في وقت لاحق، ولا يفتح مجالا للاستغلال من قبل من يريد أن يتراجع أو ينقض العقد بشكل أو آخر.

الإضاءة الثانية

ضرورة تجنب تأويل العقود والمعاهدات بعد إمضائها

يجب علينا قبل إمضاء العقود السؤال والاستفسار عن كل كلمة وفقرة فيها، لأنه بعد الإمضاء عليها يصبح العقد ناجزًا، ولا يجوز لك أن تؤول وتحاول التملص من هذه العقود التي أبرمتها مع الآخرين، فلا يجوز نقض العهود والمواثيق والمعاهدات بسبب خسارة لاحقة تطرأ، أو خلل في العقد يُكتشف، لأنّ العقد قد أُبرم وانتهى، وكان عليك أن لا تنسى أن تكتب ما تريد، وكان عليك أن تأتي بخبير ليضع الأمور في سياقها الصحيح، أما أن تبحث بعد الخسارة عن تأويل، عن تحايل تنقض به هذا العقد، فهذا لا يجوز، (وَلَا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ بَعْدَ التَّأْكِيدِ).

بعد حرب صفين والصلح الذي أُبرم على يد أبي موسى الأشعري، خسر المسلمون خسارة كبيرة، لأنه كان وثيقة صيغت بطريقة ركيكة وهشة، استفاد منها جيش معاوية، وخرج جيش أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المنتصر عسكريًا؛ خاسرًا في هذه المعاهدة.

ذكر الدينوري – المتوفى سنة (٢٨٢) هجرية – في كتابه (الأخبار الطوال) كلامًا لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حكم نقض العقد الذي أبرمه أبو موسى الأشعري ممثلًا عن علي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع عمرو بن العاص ممثلًا عن معاوية، قال: «وأقبل سليمان بن صرد الخزاعي، إلى علي مضروبًا على وجهه بالسيف، فقال: يا أمير المؤمنين، أما لو وجدت أعوانًا ما كتبت هذه الصحيفة»، كيف تقبل أن نقرّ هذا الصلح المهين والمذل والمخزي للمسلمين ونحن منتصرون؟، فكيف نخرج مغلوبين بعد كل هذه التضحيات؛ خمسة وعشرين ألف شهيد؟ فدعنا ننقض هذا الصلح؟.

قال الدينوري: «وقام محرز بن خنيس بن ضليع، إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل؟ فوالله إني لخائف أن يورثك ذلًا، فقال علي: أبعد أن كتبناه ننقضه؟»[٣٠١]، يستنكر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عليهم هذا الكلام، فنقض العهود لا يجوز

٣٠١. الأخبار الطوال: ١٩٧.

حتى لو خُدع صاحبنا أبو موسى الأشعري، حتى لو خسرنا، أردت عبد الله بن العباس ولكنكم لم تقبلوا وأصررتم على أبي موسى الأشعري، وكنت أعلم أنه ليس كفئًا لعمرو بن العاص، وأنه لا خبرة له في التفاوض، واخترت أيضًا مالكًا الأشتر، ولم تقبلوا أيضًا وقلتم إن هذا رجل منك، ونحن نريد رجلا محايدا، ويقف على مسافة واحدة منك ومن معاوية، وأصررتم على أبي موسى الأشعري، فكان الذي كان[٣٠٢]، إذن حتى لو كنا غير راضين ومغبونين ومظلومين وكان الصلح مذلًا، فما دمنا وقّعنا فلا تراجع.

ورد في سيرة ابن هشام في صلح الحديبية، أن صلح الحديبية الذي عقده رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مع مشركي قريش، تضمن بنودًا لصالح المسلمين، وبنودًا ظاهرها لصالح المشركين، فقد شرط المشركون أن أي مسلم يهاجر من مكة إلى المدينة، يجب عليهم أن يرجعوه ويسلّموه إلى قريش، ووافق رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ على هذا الشرط، ووقعوا عهد الصلح، وبعد الإمضاء على الصلح، سمع أبو جندل بن سهيل بن عمرو، وكان مسلمًا وسجينًا في مكة، أن المسلمين قد جاؤوا إلى الحديبية، ففرّ من السجن، وجاء بأغلاله وقيوده إلى الحديبية، ليلتحق بالمسلمين وينجو بنفسه، ولكنه وصل بعد الاتفاق وبعد التوقيع، فرآه سهيل بن عمرو الذي كان مندوب قريش في هذه المفاوضات، فألقى القبض عليه، وقال للنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا؟ قال: صدقت»، أي أبرمنا الصلح وصار نافذًا قبل أن يصل إليك هذا، وجعل يجر أبا جندل ليرجعه إلى قريش، وكان هذا كبيرًا على المسلمين، «وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأُردّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فقال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإنّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنّا عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم»[٣٠٣]، الفرج قريب، ولكن يجب أن تذهب معهم الآن، وبالفعل لم تمر سنة واحدة حتى عاد المسلمون إلى مكة فاتحين، هكذا يكون الالتزام بالعهود والمواثيق.

٣٠٢. انظر: كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم: ٤٩٨ – ٤٩٩.

٣٠٣. السيرة النبوية ٣: ٧٨٣.

الإضاءة الثالثة

الصبر على الالتزام بالعقود والعهود

يجب الصبر على الالتزام بالعقود المبرمة، والعهود الناجزة، حتى لو تبيّن أن فيها خسارة؛ لأنّ العقد بين طرفين، وأنت تفكر فقط متى تربح، وإذا خسرت ترغب بأن تنقض الاتفاق، فلماذا تعاقد الطرف الآخر معك؟، أليس هو يطلب الربح مثلك؟ فإذا ربح فقد خسرت، وإذا خسر فقد ربحت، هذه هي طريقة العقد، فبالتالي سوف يخسر أحد الطرفين، ولذا عليك أن تضبط أمرك، وتدرس الموضوع جيدًا، ولكن إذا وقّعت فيجب أن تتحمّل النتائج، ولابد من أن تصبر، (وَلَا يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)، كل عهد مع الناس يتضمن عهدا مع الله (سبحانه وتعالى)، ولا يجوز نقضه، ويجب الصبر على العهود والعقود حتى لو كانت هناك خسارة لأحد الطرفين، ولكن هذا الصبر خطوة فيها حصافة، فيها حكمة، وفيها رضا الله (سبحانه وتعالى)؛ إذ تخسر جزئيًا ولكنك تربح، والمجتمع يربح، الثقة والأمان والاستقرار، والكل يثق في الكلام ويمضي ويتعاقد، فالمصلحة أعظم من أي خسارة جزئية تحصل لك في هذه القضية أو تلك، (فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ).

لاحظوا ما قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في نهج البلاغة: «وما يغدر من علمَ كيف المرجع»[٣٠٤]، الذي يعلم إلى أين المآل والعاقبة لا يغدر، ولذلك فإن نقض العهود والمواثيق والعقود يعد مَحْقًا للإيمان، إذ يزول الإيمان من قلب الإنسان، ويسقط الإنسان عن مقام إنسانيته، وهو يعبّر عن انحطاط وسفالة أجلّكم الله.

وفي شرح غرر الحكم: قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «الغدر أقبح الخيانتين»[٣٠٥].

وفي المصدر نفسه: «الغدر شيمة اللئام»[٣٠٦].

وفيه أيضًا: «إياك والغدر، فإنه أقبح الخيانة، وإنّ الغدور لمهان عند الله»[٣٠٧].

---

٣٠٤. نهج البلاغة ١: ٩٢ الخطبة ٤١.

٣٠٥. شرح غرر الحكم ٢: ٢٨.

٣٠٦. شرح غرر الحكم ٢: ٧٩.

٣٠٧. شرح غرر الحكم ٢: ٢٩٦.

اســأل الله (ســبحانه وتعالــى) أن يجعلنا ممن يلتــزم بالعهود والمواثيــق والعقود ولا يتراجع عنها ويبقى عند كلمته، كيفما كانت الأمور، وحتى لو خسر هنا أو هناك، ولكن الالتزام بالكلام والعهود والعقود منهج إسلاميّ أصيل يجب أن نتمسك به.

العنوان الثالث

استخدام القوة والقتل وسفك الدماء

(وإِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَة، وَلاَ أَعْظَمَ لِتَبِعَة، وَلاَ أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَة، وَانْقِطَاعِ مُدَّة، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِىءٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فِيما تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامةِ).

ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع للحديث عن جانب آخر في إطار السلم والحرب، هو مسألة استخدام القوة والقتل وسفك الدماء، وما هو المستنكر من ذلك، وما هو الجائز، وما هي حدوده. ونظرًا لطول هذا المقطع شيئًا ما، فقد قسمته إلى ثلاثة أقسام، ولكل قسم إضاءات ورسائل خاصة به، لكي نستوفيه بالنقاش والتداول والتدقيق.

القسم الأول: التحذير من سفك الدماء في غير حلّها

وهو قسم مهم وحساس، يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(وإِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا): إذن هناك دماء تسفك بحلّ، بحق، كما في القصاص عند الإفساد في الأرض؛ حينما ينحرف الإنسان إلى مستوى يكون فيه وجوده وحياته سببا في تدمير حياة الآخرين، وهذا ما سيتحدث فيه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لاحقًا، ولكن المبنى العام والأساس هو عدم سفك الدماء، وعدم القتل.

(فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَة): لا يوجد شيء يدعو إلى النقمة، إلى العذاب، إلى العقوبة.

(وَلاَ أَعْظَمَ لِتَبِعَة): ولا شيء أعظم في عواقبه وتبعاته.

(وَلاَ أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَة): ولا يوجد شيء أحرى، أليق، أقرب إلى أن يتسبب بزوال النعم.

(وَانْقِطَاعِ مُدَّة): ولا يوجد شيء أكثر تأثيرًا في زوال الحكم، في انهيار النظام، في سقوط النظام والحاكم في المنظومة القياديّة وانتقالها إلى آخر.

(مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا): لا يوجد شيء أعظم من سفك الدم بغير وجه حق، فهو الذي يتسبب بكل هذه الأمور؛ يأتي بالنقمة والعقوبة والعذاب الإلهي، ويترك التبعات الكبيرة والخطيرة والعواقب الوخيمة، ويزيل النعمة، وينهي السلطة، ينهي الحكم، ينهي النظام، هذه عواقب سفك الدماء بغير حق.

(وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالْحُكْم بَيْنَ الْعِبَادِ): أول ما يبتدأ به الحساب يوم القيامة.

(فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامةِ)، أول ما يحاسب عليه الإنسان في يوم القيامة هو سفك الدماء، من هو القاتل؟ من سفك دمًا؟ هذا أول من يحاسب في يوم القيامة.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

حق الحياة للإنسان

يشير هذا النص بوضوح إلى أن الأساس هو أن يعيش الناس، فحق الحياة حق ذاتي للإنسان، ويجب الحفاظ عليه وحمايته وصيانته، ويجب أن يشعر الإنسان في المجتمع بأن حياته مصانة، وأنه يجب أن يعيش في أمان واستقرار، وأن لا تتعرض حياته وحياة ذويه إلى الخطر، وقد يكون معترضًا، وقد يجهر باعتراضه، وقد يخالف السلطة في بعض التفاصيل، ولكن كل ذلك يجب أن لا يمنع من أن يعيش حياته بدون قلق على نفسه، فإنّ سلب الحياة من الناس، الاعتداء على حياة الناس بغير وجه حق، له آثار وخيمة.

لاحظوا قول الله عز وجل في سورة المائدة: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْس أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣٠٨].

هناك سببان يجوز فيهما القتل:

---

٣٠٨. سورة المائدة: الآية ٣٢.

الأول: القصاص، ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، ويتحقق في القتل العمد دون القتل غير العمد، فالقاتل العامد فقط يُقتص منه، دون القاتل عن خطأ وغير عمد فعليه الدية ولا يُقتص منه.

السبب الثاني: الإفساد في الأرض، ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾، فالمفسد في الأرض - بشروط ومحددات معينة - يجوز قتله، والمفسد هو من هدد الأمن العام بشهر السلاح وإخافة المواطنين، وهذا القتل بحق من شأنه إعادة الصلاح والإصلاح إلى المجتمع، لأنه إن كان قصاصًا فهو قتل بحق، وإن كان بسبب إفساد في الأرض ضمن شروطه فهو قتل بحق أيضًا.

ولكن ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، من قتل شخصًا واحدًا فقط بغير حق، فهو بمنزلة من قتل جميع الناس، من آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أي قتل الإنسانية جميعها، وفي مقابل ذلك، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾، من صان دم شخص واحد، من حفظ نفسًا واحدة ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، فكأنه حافظ على حياة الناس كلها، بمنزلة إحياء الإنسانية جميعًا.

إذن تتجلى أهمية حرمة حق الحياة في المنظومة القيمية للإسلام في حفظ حياة الناس وأرواحهم، وهي من الأهمية ما تجعل تفويت فرصة حق الحياة لشخص واحد وتغييبها، يعادل تغيب حياة الناس جميعًا، فمن يقتل فردًا واحدًا فكأنما قتل الناس جميعًا.

لماذا قتل إنسان واحد يعادل قتل البشرية بأسرها؟ ولماذا إحياء إنسان واحد يعادل إحياء البشرية بأكملها؟ ما هي فلسفة هذا الحكم؟ والجواب:

أولًا: إن من يقتل إنسانًا واحدًا بغير حق يتجرأ على قتل الناس جميعًا، فإنّ القاتل، سواء كان فردًا أو جماعة كانوا شركاء بهذا القتل ضمن إطار مجموعة مسلحة أو الحكومة في معناها الأوسع، إذا قتل شخصًا بغير وجه حق، فسوف يأتي بمبررات لممارسته القتل، كأنّ يقول: هذا تكلّم ضدي، أو هذا كتب ضدي بالفيس بوك، أو هذا فعل كذا معي، وهكذا يخلق ألف مبرر للقتل، فكل من يقتل بلا سبب دائمًا ما يأتي بتبريرات معينة غير مقبولة، وغير مقنعة، وهذا الذي يقتل بمثل هذه الأعذار سوف يقدم على قتل آخرين بنفس هذه الاعذار، فيقتل الأول والثاني والثالث والرابع والعاشر، والذي تتعود يده على استخدام الزناد يهون القتل عنده لكل من يفتح فمه معه، ولكل من يعترض عليه، هذه الثقافة والمنهجية التي تعدم حياة إنسان واحد، هي ذاتها قادرة على أن تعدم حياة الثاني والثالث والعاشر والألف، فتقتل مجتمعًا بأسره، ويتحول هذا القاتل إلى إنسان

خطير على المجتمع، يمكن أن يختلق أي عذر ويعدم حياة أي إنسان، وهذه مشكلة كبيرة، ولا حلّ لها غير القصاص.

ثانيًا: إن المجتمع هو حقيقة واحدة، وله أحكام موحدة، فمن يقتل نفسًا واحدة فكأنما قتل الجميع، والاعتداء على شخص واحد هو اعتداء على المجموع؛ لأنّ الأحكام أحكام موحدة، ولا يوجد شيء أعظم من حرمة القتل، وإراقة الدماء بهذه الطريقة.

وبنفس المنطق في البعد الإيجابي؛ فإنّ من يهتم بحياة إنسان واحد، له مبررات تجعله يبذل المستحيل لينقذ حياة إنسان آخر، وسيستحضر المبررات نفسها لينقذ الثاني والثالث والرابع والعاشر، وهذا الذي عنده قيم، ومُثل، ومبادئ، ومحددات، وضوابط في إيقاع السلوك وضبطه، بنحو يجعله غير مستعد لقتل حتى الذي يعتدي عليه، بل ويحييه وينقذه، ومثل هذا الإنسان بنفس هذه القيم يمكن أن ينقذ حياة الثاني والثالث والرابع والعاشر، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

وفي هذا السياق يقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»، هذا الذي يضع السنن الصحيحة، يضع تقاليد للعمل صحيحة، يغرس نبتة سليمة، يعلم الناس فكرة صحيحة، فله أجرها وأجر كل من يعمل بها، فإنه لولا تلك النبتة لما حصدت كل هذه الثمار، ولولا هذه الثقافة الصحيحة التي أرساها لما سار الناس على هذا النهج، «ومن سنّ سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[٣٠٩]، يجب أن نكون حذرين جدًا إزاء القضايا التي فيها أبعاد يمكن أن تتسع وتشمل آخرين، سلبًا أو إيجابًا، في سنّة، في ثقافة، في كلمة، في موقف، في سابقة معينة، فإن كانت جيدة فسيبقى الأجر مستمرًا له، وهذا ما يسمى بالصدقة الجارية، فهي تُكتب له بعد وفاته أيضًا، فعندما يغادر إلى ربه وقد سنّ سنّة طيبة، وعمل بها آلاف أو ملايين الناس من بعده، فله نفس المقدار من الأجر الذي يحصل عليه الشخص العامل، وكذا الأمر في البعد السلبي - مع الأسف - أيضًا، فمن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

٣٠٩. بحار الأنوار ٧١: ٢٠٤، صحيح البخاري ١: ٧٤ ح٢٠٣.

ورد في كتاب الكافي الشريف، في باب القتل من كتاب الديات: عن حمران بن أعين، وهو أخو زرارة بن أعين، وقد كان عالمًا جليلًا ومن كبار الرواة، قال: «قلت للإمام أبي جعفر الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ما معنى قول الله عز وجل: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾؟ قال: قلت: وكيف ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾؟ فإنما قتل واحدا، فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يوضع في موضع من جهنم إليه ينتهي شدة عذاب أهلها، لو قتل الناس جميعًا إنما كان يدخل ذلك المكان»، العذاب الذي يواجهه في ذلك المكان الذي في جهنم والذي يخصص له، هو مكان فيه من الألم والعذاب ما لو قتل الناس جميعًا لكان فيه. «قلت: فإن قتل آخر؟ قال: يضاعف عليه»[٣١٠]، حسنًا، لقد قتل شخصا واحدا وحصل على عذاب كهذا، فمن أي شيء يخاف بعده؟ سيقتل الثاني والثالث والعاشر، وفي المثل الشعبي: (المبلل لا يخاف من المطر)، فإذا كان من قتل شخصا واحدا، له عذاب من قتل الناس جميعًا، فما الذي يردعه عن قتل الثاني والعاشر والألف إذا لم يترتب عليه عقاب إضافي؟ والجواب: أن من قتل فردًا واحدًا يعاقب كما لو قتل الناس جميعًا، فإن قتل اثنين فسوف يعاقب كما لو قتل الناس جميعًا مرتين، وهكذا كلما زاد العدد ضوعف له العذاب، فمن قتل إنسانًا واحدًا لا يتصور أنه نجا من عقاب قتل الثاني والثالث... كلا، لكل جريمة قتل من العذاب والعقوبة ما يعادل قتل الناس جميعًا.

الإضاءة الثانية

ضرورة تجنب سفك الدماء بغير وجه حق

(إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا)، تصل حرمة الدم إلى مستوى لا تجوز معه إراقة الدماء حتى مع التقية، فالحكم الشرعي هو جواز التقية إذا تعرضت حياة الإنسان إلى الخطر، والمقصود من التقية - كما عرّفها الفقهاء - هي «إظهار الموافقة مع الغير المعاند، قولًا أو عملًا، لأجل الاحتراز من الضرر»[٣١١].

واستُدل لها بآيات وروايات كثيرة:

---

٣١٠. الكافي ٧: ٢٧١ ح١.

٣١١. مائة قاعدة فقهية: ١٠٢.

منها: قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[٣١٢].

ومنها ما رواه المعلى بن خنيس قال: «قال لي أبو عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا معلى اكتم أمرنا ولا تذعه، فإنه من كتم أمرنا ولم يذعه أعزّه الله في الدنيا، وجعله نورًا بين عينيه يقوده إلى الجنة، يا معلى إن التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له، يا معلى إن الله يحب أن يُعبد في السر كما يحب أن يعبد في العلانية، والمذيع لأمرنا كالجاحد له»[٣١٣].

فالتقية هي حكم يضطر إليه الإنسان المؤمن عندما تتعرض حياته إلى الخطر، فيخفي حقيقة ولائه لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ويظهر موافقة الحكام الظلمة، وينتقل إلى العمل بالسر لتقويض أركان الجور والكفر، وهو أسلوب متعارف عليه في العمل السياسيّ منذ القدم.

فقد رُوي عن الإمام الصادق أيضًا أنه قال: «ما بلغت تقية أحد تقية أصحاب الكهف، إن كانوا ليشهدون الأعياد ويشدون الزنانير، فأعطاهم الله أجرهم مرتين»[٣١٤].

والإنسان هو الذي يقدّر المصالح العامة العليا، ويقدّر الحفاظ على الأسرار، ويقدّر الحفاظ على حياته، والتقية تجوز لحقن دم الإنسان نفسه، ولكن لها حدود، وحدّها أن لا تكون على حساب دماء الآخرين، فإذا كانت التقية تعرّض حياة إنسان آخر للخطر، فلا تقية حينئذ، ومثال ذلك: لو أعطاك شخص مسدسًا وطلب منك أن تقتل شخصًا آخر، فهنا لا تقية، ولا يجوز قتل هذا الإنسان بذريعة التقية؛ لأنّ الأساس في تشريع التقية هو لحفظ الدماء، فإذا وصل الأمر إلى سفك دماء الآخرين فلا تقية، ولا يجوز لك أن تقتله، لأنه لا فرق حينئذ بينك وبينه.

ورد في كتاب الكافي الشريف عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «إنما جُعلت التقية ليحقن بها الدم، فإذا بلغ الدم فليس تقية»[٣١٥]، فلا معنى للتقية حينئذ.

إذن الدم هو الخط الأحمر، سفك الدماء هو الخط الأحمر، ويجب أن لا يُعتدى عليه من الأشخاص، أو الجماعات، أو الحكومات، ولكن إراقة الدم من الحكومات أشد خطورة من إراقته من قبل شخص أو عشيرة أو ما شابه ذلك؛ لأن الحكومة عندها غطاء

٣١٢. سورة آل عمران: الآية ٢٨.
٣١٣. وسائل الشيعة ١٦: ٢١٠ ح٢٤.
٣١٤. وسائل الشيعة ١٦: ٢١٩ ح١.
٣١٥. الكافي ٢: ٢٢٠ ح١٦.

كبير، إمكانات واسعة، عندها جهاز قضائيّ، عندها سجون، وتستطيع أن تأتي بأكبر رأس وتلفق له تهمًا وتعاقبه، والسبب الحقيقي هو معارضته للحكومة، ولكنها تحاكمه بتهم لا علاقة لها بمواقفه من النظام، وتسلبه الحياة بغطاءات وتبريرات كثيرة أخرى.

فإذا اعتادت الحكومة التساهل بالدماء، بالقتل والإعدام، تحت مثل هذه الغطاءات، فهو من أخطر الأمور؛ لأنه سفك للدماء بغير وجه حق تحت ستار القانون، فيُقتل بجريمة قتل لم يرتكبها، أو بتهمة التعامل مع دول أخرى، وغيرها من التهم الملفقة، والواقع أنه يُقتل باسم القانون لأنه معارض للحاكم، أو لجماعة نافذه بالحكومة، فيتم الضغط على القضاة لتمرير أحكام الإعدام بحق هذا وذاك، أو العكس حينما تعطل أحكام الإعدام بآخرين يستحقونها؛ لأنهم من جهاز السلطة، أو من أدوات القمع فيها.

فلا بد من وضع محددات صارمة وشروط دقيقة ومراحل متعددة ورقابة وإشراف دقيقين لكي تكون قضية الإعدام صعبة ومعقدة جدًا، لا يستسهلها أي قاض في أي قضية، فيجب أن تكون الأمور على أشد حال من التدقيق والصرامة، لكي لا تفلت الأمور من الحكومة.

ورد في كتاب الكافي عن الإمام أبي جعفر الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: «ما من نفس تُقتل، برّة ولا فاجرة، إلا وهي تُحشر يوم القيامة متعلقة بقاتله بيده اليمنى، ورأسه بيده اليسرى، وأوداجه تشخب دمًا»، أي إنسان يُقتل، سواء كان برًا أو فاجرًا، وسواء قُتل بحق أو بغير حق، يأتي يوم القيامة ودماؤه تسيل، وكأنه في اللحظة التي قُتل فيها، يمسك القاتل بيده اليمنى، ويمسك رأس القاتل بيده اليسرى، ويجره في يوم المحشر بين يدي الله (سبحانه وتعالى).

«يقول: يا رب سل هذا فيمَ قتلني؟ فإن كان قتله في طاعة الله»، قد يكون قتله في معركة حقة، أو كان مفسدًا في الأرض، أو قُتل لقصاص أو لأي جريمة استحق بها القتل.

«فإن كان قتله في طاعة الله أثيب القاتل الجنة»، يجزيه الله بدخول الجنة.

«وذهب بالمقتول إلى النار، وإن قال في طاعة فلان»، في يوم الحساب، لا يستطيع أحد أن يكذب؛ لأنّ الله (سبحانه وتعالى) يُخرس ألسنتهم، وتنطق أيديهم وأرجلهم وجلودهم، كما أخبر بذلك القرآن الكريم، ولذلك عندما يُسأل المجرم يوم القيامة يأتي الجواب كما هو في الحقيقة، لأنه يفقد السيطرة على جوارحه، فلا يستطيع أن يحرّف ويغيّر ويكذب، فهذه تحصل في الدنيا، ولا يمكن أن تحصل في الآخرة، فعندما يُسأل لماذا قتلته؟ يقول: قتلته لحساب فلان بن فلان، أو فلان من الناس أمرني، أو لكي

أُرضـي فلانًا، فهناك من الناس مـن يبيع آخرته بدنيا غيره، وهناك من يبيع آخرته بدنياه، وهو أهون من سـابقه، لأنه يسـتمتع بدنياه بنفسـه، ولكن أن يبيع آخرته ليسـتمتع الآخر بدنياه، فتلك هي الطامة الكبرى.

«وإن قال في طاعة فلان»، إن قال: قتلته من أجل فلان، «قيل له: اقتله كما قتلك»، اقتله بنفس الطريقة التي قتلك بها، «ثم يفعل الله عز وجل فيهما بعد مشيئته»[٣١٦].

وورد في المصدر نفسـه أيضًا، عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «إن رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقف بمنى حين قضى مناسـكها»، بعد انتهاء المناسـك في منى، في حجة الوداع، في آخر سنة من حياته الشريفة.

«فقال: أيها الناس اسمعوا ما أقول لكم، واعقلوه عني، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم في هذا الموقف بعد عامنا هذا»، لا تسـتطيعون رؤيتي بعد هذا الوداع، ولا أسـتطيع أن أقـف معكـم هذا الموقـف لاحقًا، ومـن أوصى ذويه وهـو ملقى على فـراش الموت، يكـون التركيز لسـماع ما يقول أكبـر، والإصغاء بإمعان أكثر، فكيف إذا كان رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ هو المتكلّم؟.

«ثم قال: أي يوم أعظم حرمة؟ قالوا: هذا اليوم»، إذ لا أعظم من يوم عرفة.

«قال: فأي شهر أعظم حرمة عند الله؟ قالوا: هذا الشهر»، شهر ذي الحجة.

«قال: فأي بلد أعظم حرمة؟ قالوا: هذا البلد»، مكة المكرمة، التي شُـرفت بالكعبة والبيت الحرام، إذن رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ اختار أعظم يوم في أعظم شـهر، وبقعة في أعظم بلد، ليخبرهم بأعظم كلام.

«قـال: فإنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شـهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه»، لا يجوز التعدي على أموال الناس ولا على أرواحهم.

«فيسـألكم عـن أعمالكم»، سـوف يأتي ذلك اليـوم الذي تقفون فيـه بين يدي الله، ويسألكم عن كل مال مددتم أيديكم إليه، وعن كل دم سفكتموه.

«ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد، ألا من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى مـن ائتمنـه عليها، فإنه لا يحل دم امرئ مسـلم ولا ماله إلا بطيبة نفسـه»، حتى المأخوذ حيـاء فهـو كالمأخوذ غصبًا، كما نـراه عند بعض ضعاف النفوس الذين ما إن يروا شـيئًا عند الآخرين كمسـبحة نفيسـة أو خاتم نفيس، حتى يقولوا لصاحبها: دعنا نرها، يا لها مـن مسبحة جميلـة أو خاتم جميل! ثم يطلبون بوقاحة إهداءهـا لهم، وهذا المؤمن من

---

٣١٦. الكافي ٧: ٢٧٢ ح٣.

حيائه يقول لهم: تفضلوا، وهذا حرام لا يجوز؛ لأنه مأخوذ حياء، وهو بمنزلة المأخوذ غصبًا، فلا تحرج الآخرين بمطالب وقضايا من هذا النوع، وأنا شخصيًا عندي خاتم واحد، و أعتز به كثيرًا؛ لأنه هدية من شهيد المحراب، أهداه لي بمناسبة زواجي، وهو خاتم أبيه، عن أجداده، ولهذا الخاتم تأريخ، وهو خاتم غير عادي، وعندما يأتي الناس ليسلموا عليّ يطلب البعض منهم هذا الخاتم، فأضطر في كل مرة لأن أقول هو هدية من شهيد المحراب، ولا أستطيع أن أعطيك إياه، وأقع في الإحراج في كل مرة لأني لا أستطيع إهداءه لأحد. فمن الإحراج أن تطلب من الناس أشياء تخصهم، يكونون أحيانًا معتزين بها، وأحيانًا يكون فيها بعد معنوي لهم، وأحيانًا لهم فيها ذكرى من حبيب أو شخص معين، ولذا يجب أن يدقق في هذا الأمور.

«فإنه لا يحلّ دم امرئ مسلم ولا ماله إلا بطيبة نفسه، ولا تظلموا أنفسكم، ولا ترجعوا بعدي كفارا»[٣١٧] لا تتركوا الإسلام بمجرد أن أرحل إلى ربي وتخرجوا منه، وترجعوا كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، كما كنتم سابقًا قبل أن يمنّ الله تعالى عليكم بالإسلام.

الإضاءة الثالثة

العواقب الوخيمة لإراقة الدماء بغير حق

يستعرض أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ خمس عواقب وخيمة لسفك الدماء بغير حق:

الأولى: أن سفك الدماء يعرض صاحبه إلى العقوبة الإلهية، الانتقام الإلهي، العذاب الإلهي.

الثانية: تترتب على إراقة الدماء أعظم التبعات والعواقب.

الثالثة: إراقة الدماء من أوضح الأسباب لزوال النعمة، فالإنسان في مرحلة ما من حياته يعيش حياة طيبة؛ لديه زوجة وأولاد صالحون، وحياة طيبة، وبيت جيد، ومقبولية حسنة بين الناس، ولكن فجأة يتعكر صفو دنياه، وينقلب عاليها سافلها؛ فتمرض زوجته وأولاده، وتحترق داره، ويخسر عمله، وتنتشر عنه شائعة بين الناس فيعرضون بوجوههم عنه، فيفقد كل هذه الأشياء مرة واحدة، وتزول النعم التي وهبها الله تبارك وتعالى له، وكل ذلك بسبب التساهل في سفك الدماء.

---

٣١٧. الكافي ٧: ٢٧٣ ح١٢.

الرابعة: يسبب التهاون في إراقة الدماء بغير وجه حق سقوط الأنظمة الحاكمة، وفقدان المكانة الاجتماعيّة والموقع الوظيفي الذي كان المسؤول فيه، كل بحسب موقعه؛ هذا آمر في فوج، وذاك مسؤول في وزارة، وذلك قائد في تيار سياسيّ... إلى آخره، تجري عليهم سنن الحياة، أو إذا كان حكومة ونظاما سياسيّا فسوف ينهار، حينما تخرج الناس وتحتج عليه، ومعنى ذلك أن هناك إراقة دماء بغير وجه حق.

الخامسة: أن أول ما يحاسب عليه في يوم القيامة هو مسألة الدماء؛ (فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ وَلَا أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ وَلَا أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

لاحظوا ما ورد في كتاب الكافي، الحديث الثاني من باب القتل: عن جابر بن يزيد، عن أبي جعفر الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: أول ما يحكم الله فيه يوم القيامة الدماء، فيوقف ابنَي آدم فيفصل بينهما، ثم الذين يلونهما من أصحاب الدماء، حتى لا يبقى منهم أحد»، تعالج وتحسم كل قضايا القتل أولًا، ثم ينظر في ما دون القتل مما تنازع فيه الناس.

«ثم الناس بعد ذلك»، ثم يأتي حساب الناس في القضايا الأخرى.

«حتى يأتي المقتول بقاتله فيتشخب في دمه وجهه»، يسيل دمه على وجهه.

«فيقول هذا قتلني، فيقول: أنت قتلته؟ فلا يستطيع أن يكتم الله حديثًا»[٣١٨]، يقول: نعم قتلته، إن كان بحق أو كان بباطل كما قرأنا في تلك الرواية، إذن أول ما يحاسب عليه يوم القيامة هو موضوع القتل وسفك الدماء.

القسم الثاني: خطورة تدعيم الحكم بسفك الدماء

(فَلَا تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَم حَرَام، فَإِنَّ ذلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ).

القسم الثاني من هذا المقطع المهم يتحدث عن خطورة تدعيم الحكم بإراقة الدماء، فالفكرة السائدة منذ القدم أن سفك الدماء هو السبيل الأمثل للبقاء في الحكم مدة أطول، فإن أردت الاستمرار في الحكم فما عليك إلا أن تضرب أعناق من تسول لهم أنفسهم معارضتك، وعندها سيستقر كل شيء بمكانه، وستحكم مطمئنا إلى

٣١٨. الكافي ٧: ٢٧١ ح٢.

نهايـة حياتـك، وأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هنـا يحذر من هذا المنهـج، ويبيّن أنه منهج خاطئ، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(فَلاَ تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَم حَرَام): لا تحاول أن تقوي سـلطانك، سـطوتك، تأثيـرك، بالقتل وسـفك الدماء بغير وجه حـق، وكل من يفتح فمه بانتقاد النظام فليس له إلا السيف وتجتث رأسه، مهما كانت منزلته ووظيفته، من داخل النظام أو من خارجه، ومهمـا كان ذلـك الاعتراض صغيرًا وتافهًا، فينال القتـل الوزير والمدير وكاتب التغريدة والذي سـرّ لبعض أصدقائه حديثًا تشـم منه رائحة المعارضة، بل قد يصل حكم الإعدام عند بعض الطغاة إلى من رأى حلمًا أنه صار ملكًا أو رأى أن الملك سقط من عرشه، ولا فرق في ممارسـة القتل بين من كان يعيش في منطقة قريبة من مركز الحكم، ومن يعيش في منطقة نائية في أطراف المملكة، ليكونوا عبرة لغيرهم، وتعيش الناس حالة من الهلع والخوف الشديد من التعرض أو السماع لحديث يتعلق بسلبيات النظام الحاكم، ويقابل هذا المنهج منهج آخر يدعو إلى سـعة الصدر في التعاطي مع هذه الأمور، ويعتبر سـفك الدم شيئًا عظيمًا تكاد السموات يتفطرن منه وتنهد له الجبال.

(فَإِنَّ ذلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ): يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لأصحاب هذا المنهج: أتحسـب أنك تقـوي حكمك بإراقة الدماء وقتل الناس بغيـر وجه حق؟ بل على العكس من ذلك؛ فإنّ هذا من شأنه أن يضعف الحكم ويوهنه؛ لأنّ الناقمين سيزداد عددهم يومًا فيومًا، ويتحولون إلى تيار عارم لا تستطيع الوقوف بوجهه.

(بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ): يعني يزيل السلطة وينقل المُلك إلى أشخاص آخرين، ومن يعتقد بأنه سوف يستمر بحكمه من خلال إراقة الدماء فهو واهم، والتأريخ المعاصر خير شاهد على ذلك؛ فقد رأيتم ما حلّ بصدام وأعوانه بعد الجرائم المريعة التي ارتكبها بحق أبناء الشـعب العراقي، ففي انتفاضة (١٩٩١) قتل خمسـمائة ألف إنسان في أسبوعين، وكم قتل من قبلهم ومن بعدهم، فما كانت عاقبته؟ أخرجوه من حفرة ضيقة مستسلمًا ذليلًا، بهيئة أثارت دهشـة كل من رآه، وكان يتوسـل بالأمريكان أن لا يضعوه بأيدي العراقيين، ومـا كان مصيـر أولاده عدي وقصي؟ فقد قُتلوا شـر قتلة في الموصل في الدار التي كانوا يختفون فيها بعد أن وشى بهم أحد المقربين منهم.

وأنـا أتذكـر يـوم مقتل ولدي صدام عـدي وقصي، وكان شـهيد المحراب حينها مـا زال علـى قيد الحياة، وعندما انتشـر الخبر كنا في النجف، التي امتلأت سـماؤها بالإطلاقات النارية ابتهاجًا وفرحًا وسرورًا بمقتلهما، فدخلت على شهيد المحراب، وكان جالسًـا متأملًا في غرفته، وليس على وجهه أي أثر من آثار الفرح، فقلت لعله

لم يسمع بالخبر، لأزف له خبر مقتلهما، فقلت له: سيدنا هل سمعتم بخبر مقتل ولدي صدام؟ قال: نعم سمعت، فزاد فضولي أكثر، فقلت له: سيدنا لا أرى على محياكم أي علامة للفرح والسرور، هؤلاء أناس ظلمة، والآن حصل بهم ما حصل، يُفترض بنا أن نكون فرحين وسعداء، ولا أرى ذلك ظاهرًا عليكم، فرفع رأسه وقال: يا عم، نحن لسنا أهل شماتة، ولا أهل ثأر، أنا الآن في لحظة اعتبار، أرى هؤلاء الذين كان العراق كله ضيعة من ضياعهم في يوم ما، والشعب العراقي عبيدًا لهم، هكذا ظلموا، هكذا تعاملوا، هكذا اعتدوا، هكذا تجاوزوا، وهكذا كانت نهايتهم، وهذه لحظة اعتبار، وليست لحظة فرح وإطلاق نار، نحن لسنا أهل تشفٍّ، لا نتشفى حتى بعدونا، وقد قمنا بمسؤوليتنا في الدفاع عن شعبنا، فوقفنا وضحينا وأعطينا كل شيء، ثم ذهبوا، وهذه هي سُنة الحياة، ويجب علينا أن نعتبر، فصُعقت جدًا من هذا الجواب؛ لانه كان درسا كبيرا في حياتي الشخصية.

(فَلَا تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ بَلْ يُزِيلُهُ)، فلولا تلك الدماء التي سفكها هذا الظالم لما انهار ملكه وسلطانه، ولبقوا متربعين على كرسي الحكم إلى يومك الحاضر، فالحمد لله الذي يهلك ملوكًا ويستخلف آخرين.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

التحذير من محاولات تدعيم السلطة بسفك الدماء

التحذير من محاولات تدعيم الحكم والسلطة بسفك الدماء بغير وجه حق، بقتل الناس ظلمًا، وسيادة فكرة الحفاظ على المسؤولية، الحفاظ على الموقع، الحفاظ على الحكم، كل بحسب مستواه، بأي ثمن كان؛ أكسر هذا، أضرب ذاك، وبتقرير كيدي أكسر رقبة منافس على موقع، وأزيح فلانًا من مكانه، فالمهم أن أبقى في الكرسي، ووصل الأمر من أجل الحفاظ على المنصب إلى مستويات هابطة جدًا، فترى آمر سرية أو مسؤولا تنظيميا في منطقة صغيرة، يقلب الدنيا رأسًا على عقب، وتراه مستعدا لأن يفعل كل شيء من أجل الحفاظ على منصبه أو موقعه، هكذا تفعل وأنت مسؤول صغير في مجموعة عسكرية في منطقة نائية، فكيف بك لو كنت قائدًا عامًا للقوات المسلحة؟! والحقيقة أن هذه نفسيات ليست لها علاقة بحجم المسؤولية، فربما تجد مسؤولًا في

مستوى عال من المسؤولية ليست لديه هذه الحالة، وفي المقابل تجد مسؤولًا في مستوى مسؤولية صغيرة جدًا، يريد أن يفعّل السلطة والنفوذ بأقصى قدر ممكن، ويقود الأمة على أساس ما يراه، هكذا يتعامل البعض.

إن فكرة ضرورة الحفاظ على الموقع، على الحكم، على السلطة، على الدور الذي هو فيه بأي ثمن كان، فكرة خطيرة قائمة على قاعدة الغاية تبرر الوسيلة؛ فما دامت الغاية هي السلطة، فكل شيء حلال ومباح، كل شيء جائز، كل شيء سائغ؛ أختلق أكاذيب، كل من ينافسني أكسره لكي أبقى أنا الرأس الأوحد، وهذا أمر خطير جدًا، يدفع الإنسان لارتكاب أبشع الجرائم، وصولًا إلى القتل، من أجل أن يحافظ على موقعه، على حكومته، وهذا أمر لم يرتضه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لنفسه، لم يرتضِ أن يُظلم أحد أو يُساء لأحد من أجل أن يبقى في السلطة، أو أن يكون حاكمًا، فلم يضغط أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على معارضيه لكي يبقى في السلطة، لم يفعل مثل هذا أبدًا.

لاحظوا ماذا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهدا»، حسك شوك السعدان، وهي نبتة فيها شوك شديد، وهي مؤلمة جدًا، وقد ورد أن سيد الشهداء الحسين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يخرج في ليلة عاشوراء، ويمشط المنطقة المحيطة بالخيام، ويرفع حسك السعدان هذا، لكي لا تصاب ذراريه وبناته ونساؤه في اليوم التالي بهذا الشوك، إذا فروا حفاة، لأنّ وخزته مؤلمة جدًا، ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لو كان نومي على حسك السعدان، الذي يمنع الإنسان من النوم، والنوم على هذا الشوك هو لون من ألوان التعذيب الشديد، لأنّ الإنسان يطلب الراحة عند النوم.

«أو أُجرّ في الأغلال مصفدا»، أي مقيدًا في الأغلال.

«أحب إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالمًا لبعض العباد»، تحمل هذا العذاب الشديد أحب إلى علي بن أبي طالب من أن يكون ظالمًا لبعض الناس.

«وغاصبًا لشيء من الحطام»، أو يكون مستحوذًا على بعض المال العام أو بعض المال الخاص من أموال الناس.

«وكيف أظلم أحدًا لنفس يسرع إلى البلى قفولها؟»، البلى: الفناء، قفولها: رجوعها، أي كيف أظلم وأنا أعلم أن نفسي ذاهبة إلى الموت والفناء، من أجل شيء زائل لا بقاء له، فارتكب هذه الظلامات بحق الآخرين، واعتدي على حياة الآخرين، على أموالهم، على أعراضهم، على حرياتهم؟.

«ويطول في الثرى حلولها»[٣١٩]، هذه النفس سيطول مقامها في التراب، فهي ذاهبة إلى القبر وستبقى في التراب إلى يوم البعث والحساب، أفيعقل أن أرتكب كل هذه الجرائم من أجل هذه النفس؟.

ومن كلام له في السياق نفسه يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها»، الدنيا وما فيها، بل العالم كله وهو أعم من الدنيا.

«على أن أعصي الله في نملة أسلبها»، لا أن أقتل هذه النملة، أو أسجنها، بل أن أسلبها.

«جلب شعيرة»، وهي قشرة حبة الشعير، لا حبة الشعير؛ لأنها لا تستطيع أن تحملها، فلو أعطوني هذه الدنيا وما فيها لكي أظلم هذه النملة، بأخذ هذه القشرة من فمها.

«ما فعلتها»، لما فعلتها مقابل الدنيا وما فيها، لأن في ذلك ظلمًا لهذه النملة.

«وإنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها»، الدنيا عندي أقل قيمة من هذه الورقة التي لا قيمة لها أصلًا.

«ما لعلي ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى، نعوذ بالله من سبات العقل»، نومة العقل.

«وقبح الزلل»، السقوط إلى الهاوية.

«وبه نستعين»[٣٢٠]

هكذا كان علي لا يقبل أن يظلم أحدًا من أجل موقع، ولا يقبل أن يعتدي على أحد، حتى لو كان هذا الاعتداء بسيطًا؛ هو أن يسلب نملة قشر شعيرة تحملها.

ومن كلام لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لما عوتب على التسوية في العطاء، بين الشريف والوضيع، بين الغني والفقير، بين أصحاب الوجاهات والناس البسطاء، وقد كانوا يرون أنه ينبغي أن يفعل كما فعل أسلافه في التمييز في العطاء، فلا يعطي الكل بالسوية، وقد ألفوا أن يُعطى البعض أكثر مما يُعطى الآخرون، فقد كانوا في عهد الخلفاء السابقين أصحاب تخصيصات وامتيازات، وكما يُطلق عليهم اليوم أصحاب درجات خاصة، ينبغي أن تُعطى لهم رواتب مضاعفة، فكيف يساوي علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بين الجميع في العطاء؟ فأجابهم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور؟»، يا أمير المؤمنين، هؤلاء البسطاء لا ينفعونك، والذين ينفعونك هم أبناء الطبقة المتنفذة، فهم يكتبون المقالات، وينظّرون في

٣١٩. نهج البلاغة ٢: ٢١٨ الكلام ٢٢٤.

٣٢٠. نهج البلاغة ٢: ٢١٨ الكلام ٢٢٤.

السياسات، ويخرجون على الشاشات، وهؤلاء هم الذين يصنعون الرأي العام، وهم الذين يرتقون المنابر، وهؤلاء وهؤلاء... فإذا أردت نجاح حكمك، فيجب عليك أن تميّزهم بالعطاء، كما كان يفعل الخلفاء السابقون، وستكون كل هذه الأصوات لك، فتزداد هيبة، وتكون لك مكانة أعظم.

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور» بظلم الناس وعدم المساواة بينهم.

« في ما وليت عليه؟ والله لا أطور به» لا أمرّ بهذا، ولا أقرّبه، ولا أريده.

«ما سمر سمير» أي مدى الدهر، ما دمت حيًا.

«وما أمّ نجم في السماء نجما» وما قصد نجم نجمًا آخر، ومتى يقصد النجم نجمًا آخر؟ مستحيل، لا يكون ذلك أبدًا.

«لو كان المال لي لسويت بينهم» لو كان المال ملكي خاصة، لعدلت بينهم في العطاء.

«فكيف وإنما المال مال الله، ألا وإنّ إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف»، فأعطي شخصًا خمسة أضعاف الآخرين، هذا إسراف وتبذير، وقد حرّمهما الله تبارك وتعالى، فقال: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾[٣٢١]، وقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٣٢٢].

«وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الدنيا، ويهينه في الآخرة»، كيف يرفع صاحبه في الدنيا؟ لأنه سيجد ألسنة تكيل له المدح والثناء، وكيف يضعه في الآخرة؟ لأنّ الله (سبحانه وتعالى) لا يرضى بغير المساواة في العطاء بين عباده؛ لأنّ المال ماله والناس عبيده.

«ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه ولا عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم»، هذا أثر وضعي لإنفاق المال في غير الوجه الذي يجب أن يُنفق فيه، بأن يصرف المال العام في غير موضعه، والأثر الوضعي لهذا العمل هو أن الله (سبحانه وتعالى) يحرمه شكرهم، فنرى من يقول: أنا حكمت العراق كذا سنة، أعطيتكم درجات خاصة، عيّنت منكم مدراء، أعطيتكم كذا من الأموال، وفعلت كذا وكذا، وكل ذلك لم ينفع، فلم يصوّت لنا هذا الشعب، ولم يقف إلى جانبي في الشدائد، وهذا أمر عجيب يذكره أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ يسلبه الله شكرهم، وهذا أثر وضعي.

---

٣٢١. سورة الإسراء: الآية ٢٧.

٣٢٢. سورة الأنعام: الآية ١٤١.

«وكان لغيره ودّهم»، دفع له ليصوّت له في الانتخابات، ولكنه ذهب وصوّت لغيره، إذ يجعل الله تبارك وتعالى الودّ لغيره.

«فإن زلت به النعل يومًا»، يعني إذا وقع يومًا من الأيام، بأن جاءته صفعة فأسقطته عن مكانته وموقعه.

«فاحتاج إلى معونتهم»، قد أقعدته الدنيا فاحتاج إلى مساعدة من كان قد عمل لهم معروفًا، أعرضوا بوجوههم عنه، ولم يردّوا له جميل ما أولاهم، فيصيح بهم: يا فلان ألم أجعل منك مديرًا عامًا بعد أن كنت موظفًا بسيطًا؟ يا فلان ألم أجعل منك وكيل وزير ولم تكن تحلم بذلك يومًا؟ وهكذا يبقى يستصرخهم واحدًا واحدًا من غير جدوى، ولا يجد آذانا صاغية، وهم عنه معرضون، وبه يستهزئون، فهذا يغلق هاتفه، وذاك يسدّ بابه دونه، وذلك يرفض لقاءه، وهكذا أصبح الجميع يتهرب منه بمجرد أن فقد منصبه وكرسيّه.

«فشر خليل، وألأم خدين»[٣٢٣]، الخدين: الصديق، فكل هذه الصداقات لا حقيقة لها، والهش والبش والضحك والكلام المعسول لا واقع لها، وكلمات التبجيل والاحترام وسيدي ومولاي ومعالي دولة الرئيس وفخامة الرئيس مجرد ألفاظ خاوية لا معنى لها في قاموس هؤلاء، وتتطاير بمجرد أن يفقد المسؤول منصبه، وما كان هذا الكلام منهم إلا وأنت تأمر وتنهى، وتعزل وتنصب، ولكن عندما تزاح عن الكرسي فهؤلاء غير مستعدين لأن يقفوا معك قدر أنملة، وأما الذي سيقف معك فهم هؤلاء الفقراء من الناس، الذين تركتهم وصرفت وقتك واهتمامك لهولاء الذين جاؤوك بحثًا عن مصالحهم، لا عن مصلحتك، وهم غير مستعدين لأن يضحوا من أجلك بشيء، لأنهم يريدون السلطة لهم، وانظروا إلى هذه الحكومة التي انتهت قبل أيام، فقد كانت خلال سنتين بقرة حلوبا لهم؛ أعطِ لبعض الكتل كذا، وأعطِ فلانًا كذا، وأعطِ وأعطِ وأعطِ، ولكن في اليوم الذي وقع فيه بمشكلة، وفقد منصبه، لم يقف معه أحد، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[٣٢٤] فاعتبروا أيها الناس.

في حرب أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ مع القاسطين، أي في صفين مع معاوية وأزلامه، وقف وجهاء جيش أهل الكوفة يثبطون الناس عن القتال، هؤلاء الذين وقف لهم عَلَيهِ السَّلَامُ كل تلك الوقفات المشرفة، وأنقذهم من الشرك إلى الإسلام، ومن الضلال إلى الهدى،

---

٣٢٣. نهج البلاغة ٢: ٦ - ٧ كلام ١٢٦.

٣٢٤. سورة آل عمران: الآية ١٤٠.

ومن الذل إلى العز، ومن الفقر إلى الغنى، تركوا عليًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - إلا القليل - واستجابوا للمتخاذلين، الذين اتصلوا بمعاوية سرًّا وتعهدوا له بتثبيط الناس عن القتال، وأخذوا يشككون في شرعية القتال، وفي جدوى قتال جيش الشام، بعد كل هذه التضحيات، فمارسوا دورًا تخريبيًا في تصديع وحدة الصف وتشكيك الناس بقيادة أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعندما رأى بعض أصحاب أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما يفعل هؤلاء، طلبوا منه أن يعاقبهم ويضرب على أيديهم ويمنعهم من الاستمرار في مؤامرتهم هذه، فلو تركهم يمارسون دورهم الخبيث هذا فسوف يصل الحال إلى نتيجة لا تُحمد عقباها، فعليك بالضغط عليهم ومعاملتهم ببعض القسوة ليعودوا إلى جادة الطريق، فأنت الحاكم ويجب أن تضغط عليهم بقطع الرواتب مثلًا، ولكن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يرتضِ هذا المنهج، ولم يضغط على أحد لكسب الموقف.

لاحظوا ماذا قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لهم:

«كم إداريّكم؟»، كم من وقت صرفته معكم؟ كم تحملتكم؟ كم عانيت من أجلكم؟.

«كما تداري البكار العمدة»، العمدة: الإبل الفتية بعد الولادة، وعندما تولد الإبل الفتية تكون متعبة، فيدارونها إلى أن تقف على أرجلها وتمشي، يقول لهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: هكذا داريتكم كما تُدارى هذه الناقة عند ولادتها.

«والثياب المتداعية»، داريتكم كما يدارى الثوب الخلق، فالثوب القديم يتمزق بأبسط جرّة، فيجب على صاحبه أن يداريه جدًا، لئلا يتمزق.

«كلما خيطت من جانب تهتكت من آخر»، تخيطه من هنا، ينفتق من هناك، فيضطر علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى أن يداريهم كما يدارى الثوب الخلق.

«أفكلما أطلّ عليكم منسر من مناسر أهل الشام»، المنسر: طليعة الجيش التي تتقدم قبل الجيش لاستطلاع المكان، والمعنى أنه كلما ظهرت على حدود العراق مع الشام سرية من سرايا جيش معاوية.

«أغلق كل رجل منكم بابه»، يعني إذا سمع الرجل منكم أنّ سرية عسكرية من جيش الشام وصلت إلى الحدود، سارعتم إلى بيوتكم وأنتم في الكوفة، وأغلقتم أبواب دوركم، مع أن مسيرها من حدود الشام إليكم يستغرق أيامًا، وكأن القضية لا تعنيكم، ولا أنكم المستهدفون من هذا الجيش، وهو استنكار صارخ لموقفهم المتخاذل هذا.

«وانجحر انجحار الضبة في جحرها»، انجحر يعني استتر، والجحر: بيت الضب، وهي حفرة يستتر بها تحت الأرض، الضبة: أنثى الضب، واستعمل لفظ الضبة بدل الضب كناية عن شدة الجبن، لأنّ الانثى تفر إلى بيتها عندما تسمع بأمر يخيفها، وأنتم

مثل الضبة التي تختبئ في جحرها عندما يتناهى إلى سمعها ما تخافه وتحذر منه، وهذا تقريع شديد لهم، وخاصة أنهم من قبائل قد مارست القتال ومقارعة الرجال جيلًا بعد جيل، ووصفهم بهذه الأوصاف يحط من كرامتهم، والظاهر أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يجد طريقًا آخر لاستنهاض هممهم غير هذه الكلمات والتشبيهات يعيّرهم بها، لعلهم يفيقون من سكرتهم، ويفيئون إلى رشدهم، وقد شبّههم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنثى هذا الحيوان، ولم يشبههم بالمرأة التي تفر إلى دارها وتغلق بابها عند إحساسها بالخطر، زيادة لهم في التنكيل والتحقير.

«والضبع في وجارها»، الضبع: حيوان بري معروف، وهو حيوان جبان يفضل الهروب والاختباء على مواجهة الأعداء، والوجار هو بيت الضبع، وهو رغم كبر حجمه نسبيًا يبالغ في حفر جحر له للاختباء به، والضبع مضرب أمثال عند العرب في شدة حماقته، فهو وإن كان محسوبًا من الحيوانات المفترسة إلا أنه لجبنه يعيش على الفطائس، ويكنيه العرب بأم عامر بكنية أنثى، ومن أقوال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «والله لا أكون كالضبع ينام على طول اللدم»[٣٢٥].

وفي الهامش: «قال أبو عبيد: يأتي صائد الضبع فيضرب بعقبه الأرض عند باب جحره ضربًا غير شديد، وذلك هو اللدم، ثم يقول: خامري أم عامر بصوت ضعيف، يكررها مرارًا فتنام، فيجعل في عرقوبها حبلًا ويجرها فيخرجها، وخامري أي استتري في جحرك، ويقال: خامر الرجل منزله إذا لزمه».

وهو تشبيه ثانٍ لأهل الكوفة عندما يترامى إلى سمعهم قدوم جيش أهل الشام إليهم، وهو تشبيه فيه من التقبيح والإهانة والعار أقصاه وأشده، لم يألفه العرب في أمثالهم.

ثم يقول لهم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«الذليل والله من نصرتموه»، الذي يضع مصيره بأيديكم يُذل؛ لأنكم سرعان ما تتخاذلون وتتركون نصرته، فيصبح بين يدي عدوه ذليلًا.

«ومن رمي بكم فقد رمى بأفوق ناصل»، الأفوق من السهام مكسور الفوق، والفوق: موضع الوتر من السهم، والناصل: العاري عن النصل، أي من رمى بكم فكأنما رمى بسهم لا يثبت في الوتر حتى يرمى، وإن رمى به لم يصب مقتلًا لأنه لا نصل فيه، وهو مثل يُضرب بمن استنجد من لا ينجده.

٣٢٥. نهج البلاغة ١: ٤١ كلام ٦.

«إنكــم والله لكثيــر فــي الباحات» ، جمع باحــة ، وهي الســاحات ، أي أنكم كثير في أماكن التســوق والتنزه والترفيه والتســلي ، «قليل تحت الرايات» ، قليل في ســاحة النزال عندما ترتفع الرايات لخوض المعارك ، فكل واحد منكم خبأ رأسه وجلس في بيته .

«وإنــي لعالــم بما يصلحكم» ، أعرف ما هو دواؤكم ، أعرف ما يصلح أمركم ، فقليل من الضغط حري بأن يجعلكم تمشون كما أُريد وأسوقكم سوقًا .

«ويقيم أودكم» ، الأود : الاعوجاج ، أي أعلم بالأسلوب الذي يصلح اعوجاجكم .

«ولكني لا أرى إصلاحكم بفساد نفســي» ، في منهج علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ لا مكان لإصلاح الرعية بفســاد الراعي والحاكم ، فإنّ اســتخدام القوة معكم من شــأنه أن يصلحكم ، ولكنه في الوقت نفســه يؤدي إلى فســاد نفســي ، وأنا غير مســتعد لأن أفعل ذلك .

«أضرع الله خدودكم» ، يعني أذل الله وجوهكم ، وكلامه عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا دليل على يأسه من هؤلاء القوم ، الذين لم ينفع شيء لإصلاحهم .

«وأتعس جدودكم» ، حظّ من حظوظكم ، والتعس : الانحطاط والهلاك والعثار .

«لا تعرفــون الحــق كمعرفتكم الباطل» ، إنكم تعرفــون الباطل بتفاصيله ، ولكنكم لا تعرفون الحق بهذا المستوى ، وهذه الصفة الأولى فيكم ، والصفة الثانية :

«ولا تبطلــون الباطل كإبطالكم الحق»[٣٢٦] ، فأنتم أســاتذة فــي التفنن بإبطال الحق ، وتفنيده والاعتراض عليه والانتقاص منه؟ ولكنكم لا تفعلون الأمر نفسه في إبطال الباطل والنيل منه . وكلمات أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ القاسية هذه تعبر عن ألم شديد ويأس فريد .

الإضاءة الثانية

العواقب الوخيمة والخطيرة لدعم الحكم بإراقة الدماء

يشــير أميــر المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أولًا إلــى الوهن والضعف في المنظومــة القياديّة ، ومن ناحية أخرى يشــير إلى ســقوط المنظومة واســتبدالها : (فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ) .

---

٣٢٦ . نهج البلاغة ١ : ١١٦ - ١١٧ الخطبة ٦٩ .

القسم الثالث: عدم تبرير إراقة الدماء

(وَلاَ عُـذْرَ لَـكَ عِنْـدَ اللهِ وَلاَ عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْـدِ، لأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَـدَنِ، وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَـوْطُكَ أَوْ سَـيْفُكَ أَوْ يَدُكَ بِعُقُوبَة، فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً، فَلاَ تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ).

هـذا هو القسـم الثالث من الجانب الذي يخص إراقة الدمـاء، الذي يتحدث فيه أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ عن أن إراقة الدماء لا تُبرر، لا تقبل التبرير، إذ لا يمكن القبول بأي تبرير لسفك الدماء، والحاكم عندما يريد أن يسفك الدماء لا يقول إنه متعطش للدم، ولا يقول إنه خائف على الكرسي، ويقتل الناس لكي يبقى على الكرسي، بل يختلق مبررات لقتل هؤلاء الناس، كأن يزعم أن هؤلاء مشـمولون بالمادة القانونية الرابعة من قانون مكافحة الإرهاب، والمعروفة باسـم أربعة إرهـاب، أو أن هؤلاء خارجون عن القانون، أو أنهم بغـاة، أو أنهـم يخلّون بالأمن المجتمعـي، وهكذا يختلق مائة تبريـر لكي يقتل الناس، ليبقـى فـي الحكم، وهنا يقطع أميـر المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ باب التبريرات مـن هذا النوع؛ إذ يقول:

(وَلَا عُـذْرَ لَـكَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدِي): يا مالـك، أنت ذاهب لتكون حاكمًا وواليًا على مصـر، فـلا عذر لـك عند الله عز وجـل، ولا عندي أنا إمامك علي بـن أبي طالب، في ماذا؟.

(فِي قَتْلِ الْعَمْدِ): أن تتعمد قتل الناس وسفك دمائهم بغير وجه حق.

(لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ): القود يعني القصاص، لا تقل إن هذا مواطن بسـيط وأنا الوالي والحاكم، فإذا قتلت بريئًا سأقتص منك وأقتلك مهما كان ذلك الإنسان بسيطًا في نظرك، فالأرواح متساوية، والناس سواسية في حق الحياة، بلا فرق بين الشريف والوضيع، بين المسؤول والمواطن البسيط، وهذا أمر لا يختلف فيه الناس، فهذا المواطن إنسان وأنت إنسان، فأنتما مشتركان في الإنسانية، لا يوجد تمييز لأحدكما على الآخر في الإنسانية، وإن كان ممكنًـا التمييـز في أمور أخـرى، فلا يُقبل لك أي عذر في القتل العمد بغير وجه حـق، وأي عـذر غيـر مقبول لا عند الله (سـبحانه وتعالى) ولا عندي، وسـأقتص منك وأقتلك.

(وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ): أما إذا وقعت في القتل الخطأ، أي لم ترد قتله ولكنه مات بفعل منك كالضرب عند التعزير أو إقامة الحد.

(وَأَفْـرَطَ عَلَيْكَ سَـوْطُكَ) : أردت أن تؤدبه فضربته بسـوطك فمات ، كأن كان مُبتلى بالمرض الفلاني فلم يتحمل الضربة غير القاتلة فمات .

(أَوْ سَيْفُكَ) : أردت أن تخوفه بالسيف ليكف عن مخالفة معينة ، ولكن ضربة السيف جاءت خطأ وقطعت رقبته مثلًا ، ولم تقصد ذلك ولكنه حدث .

(أَوْ يَـدُكَ بِالْعُقُوبَـةِ) : أو أردت أن تضربـه بيدك لتأديبه ، فجاءت هذه اللكمة على قلبه مثلًا فسقط ومات .

(فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً) : الوكزة : اللكمة ، وما فوق الوكزة : الضربة القوية ، فهناك بعض اللكمات والضربات والكدمات قد تؤدي إلى القتل .

(فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُـلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ) : أنا ضابط اسـتخبارات ، أنا مسـؤول في الموقع الفلاني ، يولد أحيانا شـعورًا بالزهو ، بالأنفة ، من تكون أنت؟ مسـؤول وصاحب قرار وصاحب مسـؤولية ، وتضع القيـود بيد هذا وذاك ، وتأخذهم إلى الاسـتجواب ، فمن قال لك إن التحقيق يعني الضرب واللكمات؟ من قال لك إن التحقيق يعني استخدام القوة؟ مما قد يؤدي إلى أخذ اعتراف بغير وجه حق ؛ فمن أجل الخلاص من الضرب ، يكتب الذي تريده ، ويوقّع على ما كتبت ، مع أنه لم يرتكب ما اعترف به .

(فَلَا تَطْمَحَنَّ) ، أي لا يرتفعنّ بك زهو السـلطان ، السلطة ، القوة ، الموقع ، النفوذ ، المكانة ، يؤدون لك التحية ، ويقولون لك : نعم سيدي ، فيدفعك ذلك إلى السطوة على النـاس ، والاعتداء عليهم ، وضربهم ، ثم حين تبالغ بالضرب ، ويسـقط أحدهم لا تريد أن تتحمـل مسـؤوليته ، ولا تريد أن يسـجل بملفك أنك قتلته ولـو خطأ ، فتذهب وتزور تقريرا طبيا ، وتكتب له شـهادة وفاة لأسـباب أخرى ليست لها علاقة بك ، وتتخلص من دفع الدية ، مع أنك قتلته ولو خطأ ، ولا تريد أن تدفع الدية لذوي المقتول ، لأولياء الدم ، وهذا لا يصح ؛ (فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُـلْطَانِكَ) ، لا تدفعك سـطوة الموقع الذي أنت فيه ، إلى أن تأنف أن تؤدي إلى أولياء المقتول الدية لقتل هذا الإنسان خطأ .

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

عدم القبول بأي تبرير للقتل العمد

من غير المقبول أن تشهر مسدسك وتقتل إنسانًا بريئًا، لا يستحق القتل، ثم تأتي بألف مبرر لقتلك إياه، كأن تقول إنك قد فقدت أعصابك عندما بصق في وجهك، أو إنه أجابك بجواب فقدت بسببه صوابك، أو إنه اتهمك بتهمة أنت بريء منها، أو عيّرك بقضية أنت خلو منها، فشهرت عليه مسدسك وأطلقت عليه رصاصة وقتلته، وهذه الأعذار وإن كانت حقيقية فإنها غير مقبولة، فإن كان قد بصق بوجهك، فليس جواب البصق هو القتل، وإن أسمعك كلمة خشنة، فليس جواب الكلمة الخشنة القتل، وهذا قتل عمد حكمه القصاص إلا أن يعفو أولياء الدم أو يقبلوا بالدية، ولا يُقبل تبرير القتل العمد بأي عذر من الأعذار، وبأي ذريعة من الذرائع، وأحيانًا يتذرع الحاكم بأنّ هذا القتل كان لحفظ النظام السياسيّ وحفظ الحكومة، وأن هذا المقتول (جوكري)، عميل لأجندة خارجية، ونحو ذلك، وهكذا يسول لنفسه القتل في السجون أو الشوارع، وكل يوم نسمع بقتل إنسان - في الأقل - بأمثال هذه الذرائع، مع أنه لا يجوز تحت يافطة حماية النظام، حماية السلطة، حماية الحكومة، الحكم على الناس بالتآمر، وافترضوا أنه متآمر، فالمتآمر بطريقة سلمية ليس عقابه القتل، خذه إلى القضاء وأثبت أنه متآمر، واحكم عليه بالسجن كذا سنة، وطبّق عليه القانون، أما أن تقتله تحت يافطة حفظ النظام، فلا يجوز لك القتل العمد، ولا يحق لك إراقة الدماء تحت يافطة حماية الدولة، فهذا أمر غير مقبول، وهذا ضد الرؤية الإسلاميّة والفهم الإسلاميّ للحكم والسلطة؛ فالإنسان في المنطق الإسلاميّ وفي الرؤية الإسلاميّة له حرمة عظيمة، تصل إلى حد أن قتل واحد منهم يساوي قتل الناس جميعًا منذ خلق الله تعالى الخلق إلى قيام الساعة؛ قال الله (سبحانه وتعالى): ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣٢٧] وقد تحدثنا عن هذه الآية الشريفة، وهذا الإنسان الذي له هذه الحرمة العظيمة إذا أعدمته الحياة وهو واحد، فكأنك أعدمت البشرية كلها الحياة.

---

٣٢٧. سورة المائدة: الآية ٣٢.

وقد ذكرنا في تفسير هذه الآية رواية نقلناها عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن قاتل العمد يوضع في النار وينال من العذاب الأخروي بقدر ما لو أنه قتل البشرية كلها.

لنعرف ما هي الحكومة؟ ما هي السلطة؟ ما هي فلسفتها؟ كما بينا في لقاءات سابقة، أن فلسفة الحكم والسلطة هي إحقاق الحق، إشاعة الإنصاف، الدفاع عن الناس، عن أعراضهم، وأرواحهم، وممتلكاتهم، وأمنهم، واستقرارهم، وكرامتهم، وسيادتهم، وإنما أصبح الحكم ذا قيمة لنا؛ لأنه وسيلة لحماية الإنسان وخدمة الإنسان، ثم تأتي أنت - أيها المسؤول - فتقتل إنسانًا بغير وجه حق، مع أن هذا الحكم هو وسيلة لحماية الإنسان ورعايته وخدمته وحفظه، وحفظ ممتلكاته، وإنك بقتل هذا الإنسان، إنما تستهدف الغاية التي من أجلها وُجد النظام، بحجة الحفاظ على الوسيلة، وهي الحكومة، كمن جلب علفًا بهدف اقتيات خروف له في البيت، فهو قد أتى به لخدمة الخروف، وأخفاه في مكان ما، فجاء الخروف وأكل كل ما اشتراه صاحبه، وكان حصة يومين، فغضب الرجل وقتل الخروف، ومثل هذا الرجل يعده العرف أحمق؛ لأنه قتل الخروف من أجل العلف، أي قتل الغاية من أجل الوسيلة، وكذلك الحكم ليس غاية، بل الحكم وسيلة لخدمة الناس، وأنت أيها الحاكم تقتل الناس من أجل الحكم، وهذا يؤدي إلى نفي الغرض، فلا يجوز ذلك.

وقد استعرض أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطب عدة - ذكرنا مقاطع منها في لقاءات سابقة - مفهوم أن الحكم لا قيمة له إلا بمقدار ما يدافع عن المظلوم ويوقف الظالم عند حده، كقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كِظة ظالم، ولا سغب مظلوم»[٣٢٨] أي ولا جوع مظلوم، وهذا هو الهدف من الحكم؛ أن لا يتخم الظالم، أن لا يستحوذ على المال العام، فيجوع المظلوم، فلا يجوز لك أيها الحاكم أن تقتل المظلوم من أجل الحفاظ على الحكم، فهذا نفي للغرض؛ ﴿وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ﴾، فيه قصاص، أي تُقتل كما قتلته.

---

٣٢٨. نهج البلاغة ١: ٣٦ الخطبة ٣.

الإضاءة الثانية

ضرورة تعويض أولياء الدم عند القتل الخطأ

إذا ما وقع القتل خطأ، من غير عمد، كما لو حدث في أثناء التحقيق والاستجواب، أو في ملاسنة، فضربه فوقع قتل بطريقة غير مقصودة، حتى لو كان المقتول خطأ مجرمًا، وقُتل أثناء الاستجواب والتحقيق معه، وضربه المحقق ضربة فوقع ومات، فيجب عليه أن يدفع الدية لأوليائه، إذا ثبت أنّ قتله كان خطأ، لا أنه استغل فرصة التحقيق معه ليقتله لعداوة له معه، بل ضربه ضربة غير مميتة فمات المجني عليه، كأن يكون ضعيفًا أو مريضًا أو تحرك المجني عليه فوقعت الضربة في مكان مميت، في قلبه مثلًا، فهذا المحقق مدان على كل حال؛ لأنّ غرضه من الضرب هو استخلاص المعلومات، أو مات المجني عليه في أثناء إقامة الحد أو التعزير، والغرض من العقوبة هو إصلاحه، وإرجاعه للطريق، وليس الانتقام منه، وهناك من يمارس الاستجواب بضرب المتهم في أي مكان من جسمه، على رأسه أو قلبه، فيكون انتقامًا وتشفيًا، وليس عقوبة للإصلاح، فهو يريد أن يتشفى، ليشبع نزوة في نفسه، وليظهر أمام الآخرين أنه قادر على انتزاع المعلومات منه بسرعة، وهذا تشفٍّ، وانتقام، وعدوانية، وخلاف الهدف المطلوب، فلا يمكن تجاهل أي مستوى من مستويات التقصير، فحينما يتجاوز المسؤول حدوده، ويعتدي على مواطن بما يؤدي إلى مقتله، فإن كان على وجه الخطأ يجب أن يدفع لأوليائه الدية؛ ﴿وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ سَيْفُكَ أَوْ يَدُكَ بِالْعُقُوبَةِ فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ﴾، أي لا ينبغي الشعور بالسلطة والقوة وبأنك أيها الحاكم فوق القانون، وأن الأمر إليك تفعل ما تشاء لأنك القانون، وأنت الذي تنفذ القانون، والسلطة شيء خطير؛ لأنّ الصلاحية الممنوحة للمسؤول، في جلب المتهمين وضربهم لمعرفة الحقيقة، قد تؤدي إلى المبالغة في الإساءة إليهم، استنادا إلى سلطته وصلاحياته، ثم بعد أن يقع القتل يبرر ذلك بألف تبرير، ويكتب في هذه التقارير الكثير من الأكاذيب، فالأداء غير ما يكتب في كثير من الأحيان، ويسعى للتنصل من مسؤولياته، فيكتبون مثلًا أنه أصيب بالحمى ومات، مع أنهم أخذوه سالمًا قبل أيام، فمن أين جاءته الحمى؟ ما هذه التبريرات الغريبة والعجيبة؟ وكيف تخرج شهادة من الطب العدلي خلاف الحقيقة؟ أتقتل إنسانًا مظلومًا ولا تعترف بخطئك، وتمتنع من دفع الدية وتعويض ذويه عما حصل؟.

لاحظوا ما ورد في بحار الأنوار عن الإمام الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : «إنه ليس شيءٌ مما خلق الله ، صغيرًا وكبيرًا ، قد جعل الله له حدًا ، إذا جوّز به ذلك الحد ، فقد تعدّى حد الله فيه»[٣٢٩] تجاوز حدود الله ، كل شيء فيه حدود ، فيه إطار ، والذي يتجاوز هذه الحدود فقد تجاوز حدود الله ، وهذه كلها حدود الله قد وضعها للحفاظ على النوع الإنساني .

ورد في الكافي : عن الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، « إن لكل شيء حدًا ومن تعدى ذلك الحد كان له حدٌ »[٣٣٠] ، الذي يتجاوز الحدود يجب أن يُحد ، يقام عليه الحد ؛ لأنه تجاوز الحدود ، وعندما يتجاوزها فله حد أيضًا ، فإن كنت تريد أن تقيم الحد على شخص وتضربه ثمانين سوطًا ، فلماذا تضربه خمسة وثمانين سوطًا؟ والله تبارك وتعالى لم يقدّر له هذه الأسواط الخمسة الإضافية ، وقد تجاوزت عليه ، وهذا الاعتداء له حد أيضا ، ويجب أن تُضرب خمسة أسواط .

وورد فيه أيضًا : عن أبي جعفر الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، قال : «إنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أمر قنبرًا أن يضرب رجلًا حدًا» ، قال له : اضرب هذا الرجل الحد الفلاني ، ثمانين سوطًا مثلا ، « فغلظ قنبر» ، ولعل بشاعة الجريمة دفعت قنبرًا إلى مواصلة الضرب ، «فزاده ثلاثة أسواط ، فأقاده عليٌ من قنبر ثلاثة أسواط»[٣٣١] ، فلا يجوز تجاوز الحدود ، ومن يفعل ذلك فعليه حد ، إذن حتى عند إقامة الحد يجب الالتزام بنفس المقدار ، وليس أكثر من ذلك .

يجب وضع أي شخص عنده سلطة أو نفوذ أو صلاحية في التحقيق مع الناس ، أو إقامة الحدود عليهم ؛ تحت المجهر ، تحت دائرة الضوء ، أمام كاميرات منصوبة ، تحت المراقبة والتفتيش والزيارات المفاجئة ، وسؤال من يخضعون للتحقيق وما شابه على انفراد ؛ هل هناك أمر خلاف القانون؟ هل هناك اعتداء تتعرضون له؟ يجب أن تتم كل هذه الإجراءات ووضع محددات صارمة ، وإجراءات مشددة ، وتعليمات حدية تمنع مثل هذا التجاوز والاعتداء على الناس تحت يافطة القانون وحماية الدولة وحماية الأمن العام ، ونحو هذه العناوين التي تُطرح ، ولو حصل الاعتداء فلا بد من تعويضه وتداركه وتلافيه ، فلا يجوز أن لا يتلافى .

٣٢٩. بحار الأنوار ٢ : ١٧١ ح ١٠ .

٣٣٠. الكافي ٧ : ٧٥ ح٦ .

٣٣١. الكافي ٧ : ٢٦٠ ح١ .

المقطع الثامن والعشرون

آفات الحكم والتصدي والمسؤولية

(وَإِيَّاكَ وَالإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا ، وَحُبَّ الإِطْرَاءِ ، فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ) .

يستعرض أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في المقطع الثامن والعشرين، آفات الحكم والتصدي والمسؤولية؛ أيها المسؤول، سواء كنت قائدًا للدولة، أو كنت قائدًا لقطعة عسكرية، أو كنت قائدًا لتيار سياسيّ، أو كنت رئيسًا لمصنع، أو كنت مديرًا لشركة، أو كنت رب أسرة وعندك عائلة أنت مسؤول عنها، وفي أي مستوى قياديّ آخر، فإن للتصدي وتحمّل المسؤولية عن عدد من الناس، سواء كانوا خمسة أشخاص، أو خمسين مليونًا، آفات يستعرضها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ويبين أحكامها.

الآفة الأولى

العجب وحب المديح والإطراء

من آفات المسؤولية والتصدي، أن يقع المسؤول في حالة من العجب وحب المديح والإطراء؛ بأن يرى نفسه هو الذي يفهم، وهو الذي يعرف، وهو الذي يمتلك الرؤية الثاقبة، وهو صاحب العقل المميز، وهو الحريص على الأمة، فلا يسمع إلى من يتكلم معه، وإن سمع لا يصغي، لأنه يعتقد بأن الآخرين لا يفهمون، وهو الذي يفهم فقط، ويسيطر عليه هذا الشعور، وهذا الانطباع، فكيف إذا كان يعيش في مجتمع يجعل المسؤول طاغوتًا؟!.

ونحن اليوم في حكومة جديدة لم يمض عليها إلاّ أربعة أو خمسة أيام، و(٨٠٪) من هؤلاء الوزراء كانوا مدراء عامين في نفس الوزارات، وبالأمس القريب لم يكن أحد يعير له اهتمامًا، واليوم نُصّب وزيرًا، فتراكض زملاؤه من المدراء الآخرين، معاليك، ما هذه الأفكار العظيمة.. لقد مضى عليّ معكم خمسة عشر عاما في الوزارة، لم أسمع منكم كلمة إطراء، ولم تهتموا بآرائي، والآن صرت أنا المفكر، وصرت الإنسان العظيم الذي بيده كل شيء؟.

هناك في كل منظومة قياديّة مجموعة من الانتهازيين والمصلحيين يحيطون بالمسؤول، يكيلون له آيات الثناء والمديح، وكأنه عبقري زمانه، ولم تنجب أنثى مثله، ويصورون

له أن أفكاره وآراءه لا مثيل لها ولا نظير ، ويستمرون هكذا شهرًا وشهرين وثلاثة ، حتى يصدق أنه كذلك ، ويرى أنه بالفعل فلتة زمانه ، ولسانه يلهج بالترحم على والديه اللذين أنجبا شخصًا مميزا مثله ، بالبويضة التي كانت أمه تحملها ، وبالنطفة التي لقّح بها والده تلك البويضة ، ولعلها جاءت بالقفزة الجينية التي انتقلت إليه من الجد السادس عشر ، كلا ، ليس الأمر كما تتوهم ، ويصوره لك المتملقون ، فحالك كحال البشر ، فلا تصدق ما يقولون ، وسترى أنه بمجرد صدور الأمر الديواني بإقالتك أو بانتهاء مدة حكومتك ، فلن يشتريك أحد بفلسين ، وسترجع كما كنت في زوايا النسيان والإهمال ، فلا تصدق ما يقال لك ، فالدنيا ليست هكذا ، واعلم أن العجب والنرجسية والاعتداد بالذات مهلكة للإنسان في مرحلة التصدي .

(وَإِيَّاكَ وَالإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ) : احذر أن تقع في فخ الإعجاب بنفسك .

(وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا) : ثم احذر من الثقة والركون إلى ما يعجبك من نفسك ، فتعيش في شرنقة ذاتك وتحدثها : أي كلام هذا؟ ، وأي أداء هذا؟ ، وأي مواقف هذه؟ ! أنا المسدد من الله تبارك وتعالى . على مهلك أيها المسؤول ، لدينا أربعة عشر معصوما فقط ، فلا تضعن نفسك في موضع من اختارهم الله عز وجل محلًا لخلافته في الأرض ، ولا تسولن لك نفسك والشيطان بأنك القائد الضرورة ، ولولاك لساخ العراق بأهله ، فمن تكون أيها المنفوخ حتى تضع نفسك في منزلة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟ ما لك وهذه القصة؟ وأنت ترى مراجع الطائفة يقضي أحدهم خمسين أو ستين عامًا من حياته في دراسة الفقه والأصول والرواية والدراية والرجال ، ثم يطبع رسالة عملية يكتب في أولها : العمل بهذه الرسالة مجزئ ومبرئ للذمة إن شاء الله ، ولا يكتب أنها مطابقة لحكم الله (سبحانه وتعالى) ، وعملك الذي تأتي به من المحتمل أن يكون خطأ ، وما أكثر الفقهاء الكبار الذين بعد ثلاثين أو أربعين سنة يحدث عندهم تطور في رؤيتهم الفقهية ، في نظرية رجالية معينة ، في متبنى أصولي معين ، فيغير الفتوى ، ونحن المقلدون لهذا المرجع قد عملنا وفقًا لفتواه السابقة أربعين عاما ، فماذا نعمل؟ هل تجب علينا إعادة أعمالنا السابقة؟ الجواب : لا يجب علينا الإعادة ، وعملنا السابق مبرئ للذمة ، ولكن علينا العمل من الآن فصاعدًا بالفتوى الجديدة .

وأنت أيها المسؤول لم تُنصّب بعد مدير شعبة ، فصار لسان حالك يقول : أنا ربكم الأعلى ؛ تفهم كل شيء ، ومسدد من الله سبحانه ، فمن أين أتيت بهذا؟ .

(وَحُبَّ الإِطْرَاءِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ) : هذا هو المدخل السهل ، والمفتاح السحري ؛ أن تسلم قيادك بيد الشيطان ، فيؤثر في نفسك ، فتصاب بالعجب ؛

فترى أنك وحدك الذي تفهم، وأنت لا سواك من تفكر جيدًا، وأنت العارف بكل شيء، وأنت الحاذق في عملك، وأنت الذي تمتلك موهبة قراءة الأمور بمهارة، والبقية كلهم صفر على الشمال، وأنت الأوحد الذي لا يضاهيك أحد في الأمور جميعًا، وهذه هي المهلكة العظمى.

(لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ): قدمت إحسانًا، أنجزت عملًا جيدًا، فأصبت بالعجب، فمُسح هذا الإحسان من قائمة أعمالك، ولم يسجل لك نتيجة العجب الذي وقعت فيه.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

خطورة العجب في القيادة والإدارة والتصدي

العجب في القيادة والإدارة والتصدي وتحمل المسؤولية، أيًا كانت هذه المسؤولية، خطر عظيم؛ لأنه يدفع الإنسان إلى حالة الغفلة، فلا يرى عيوبه، ويرى ما هو جيد فقط، ويرى العيب شيئًا حسنًا، وأنّ كل ما يقوله ويفعله أمر حسن، وأنه معجزة أنعمت بها السماء، فيندفع باتجاه أهوائه، ويبالغ في نرجسياته، ولا يترك فرصة للآخرين لنصحه وإرشاده، فلا يسمع من أحد، ومن ينتقده عليه أن يتحمل النتائج، ولو قيل له: معاليك، سيادتك، سعادتك، ما هو رأيك بالقضية الفلانية؟ لو كان الأمر هكذا ألم يكن أفضل؟ لو لم تقل الكلام الفلاني ألم يكن أجدر؟ لانقلبت الدنيا، ولطرد القائل وألقاه على قارعة الطريق، وعيّن من يقوم مقامه، ليعتبر من يريد أن يفتح فمه وينتقده، فلا يقبل نصح من ينصحه، ويريد له الخير ويريد أن يطوره، ولا يرى إلا نفسه، ولا يسمع إلا من نفسه، وكأنه يعيش وحده في هذا العالم، وربما رأيتم شخصا تجلس معه ساعة ولا يعطيك مجالًا أن تتكلم معه بجملتين، وبمجرد أن تفتح فمك في قضية، يتكلم وكأنه الخبير الأول فيها، فلو تحدثت بالطقس لقاطعك وتكلم وكأنه الخبير الأوحد بالأنواء الجوية، ولو تحدثت في السياسة لقاطعك وكأن لا أحد أفهم منه فيها، ولو تحدثت معه بالطبخ لقاطعك وكأنه شيف قصر الإليزيه، مهلًا وعلى رويدك! دعنا نتكلم بكلمتين، ما القصة؟.

قال الله تبارك وتعالى في إشارة إلى هذه الظاهرة: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[٣٣٢]، زُيّن له، وإلا في الحقيقة هو ليس هكذا، هو يراه كذلك؛ إذ أعجب بنفسه فرأى كل أعماله صحيحة لا يوجد أفضل منها.

العجب في المنظومة القياديّة والإداريّة لدى المسؤول يجعله يتمحور حول نفسه، ينكفئ على نفسه، ينطوي على نفسه، ولابد من أنكم رأيتم دودة القز كيف تلف نفسها بلعابها فتكوّن شرنقة تحجبها عن العالم الخارجي. مسكين هذا المسؤول؛ يحسب أنه يعمل وإذا به داخل شرنقة ذاته، لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلًا للخروج منها، فيزيد الطوق على نفسه، حتى يخنق نفسه فيموت، فهذا المسؤول مثل دودة القز؛ إذ يكون مآل أمرها أن تؤخذ مع شرنقتها وتحول إلى خيوط حرير تُصنع منها الملابس، فكانت نهاية هذه الدودة التي بذلت كل هذا الجهد بهذا الشكل، وهذا المسؤول يحيط نفسه بهذا النحو؛ لا يسمع من أحد، ويبقى يعمل معتمدًا على عقله فقط، إلى أن يسقط فيهوي إلى مكان سحيق.

ولذلك فالإعجاب يورث الجهل، ويبقي الإنسان جاهلًا، لأنه لا يشارك الآخرين عقولهم، وفي الحكمة عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «من شاور الرجال شاركها في عقولها»[٣٣٣]، وهذا المسؤول لا يريد أن يشارك الآخرين في عقولهم، فيصبح جاهلا، وبالتدريج يفقد القدرة على اتخاذ القرارات الصحيحة، فحين ينكفئ لا يستطيع أن يطور نفسه، ولا يستطيع أن يواكب المجتمع، فتكون قراراته خاطئة، أو غير مفيدة، فيتخذ قرارات لإصلاح الأمور، ولكنها تزداد سوءًا، وهو لا يدري لماذا تتعقد الأمور أكثر، وكل قرار يتخذه يزيده توغلًا أكثر في الطين، يجعله يتراجع أكثر، ينكسر أكثر، ومهما عمل لا يحصل على رضا الناس، فهو إما لا يعمل الشيء الصحيح، أو يعمل الشيء الصحيح بطريقة غير صحيحة، أو يعمل الشيء الصحيح في الوقت الخاطئ.

عليك أيها المسؤول في مثل هذه الحالة أن تسمع من الآخرين الذين هم حولك، اسمع ماذا يقولون، وهناك وزراء عندما يريد أحدهم أن يتخذ قرارًا يسأل الوكيل عن رأيه، فإن لم يقتنع يسأل المدير العام، فإن لم يقتنع يسأل هيئة الرأي.

أما الوزير الذي يدير الوزارة وحده، ولا يريد أن يسمع من وكيل، أو مدير، أو مستشار، أو خبير، وحينئذ ستتوقف المنظومة عن التطور؛ لأنه لا يوجد رافد جديد

---

٣٣٢. سورة فاطر: الآية ٨.

٣٣٣. عيون الحكم والمواعظ: ٤٤.

لها، وليس هناك غير عقله وطريقته، وربما تجد ديكتاتورًا قد عطّل التطور في بلد كامل، شعب كامل، أمة كاملة، مدة ثلاثين أو أربعين سنة، وبمجرد أن يموت يتحرك البلد في اليوم الثاني، ما سبب هذا الظلم؟ سببه أنه معجب بأفكاره ورؤيته وطريقته، والعجب يؤدي إلى انهيار المنظومة القياديّة، وتفككها، وتراجعها الخطير.

لاحظوا ما ورد في شرح غرر الحكم: عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «العجب عنوان الحماقة»[٣٣٤] من الحماقة أن يعجب الإنسان بنفسه، ولا يسمع من الآخرين.

وفي نهج البلاغة: قال عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصية لابنه الإمام الحسن: «واعلم أنّ الإعجاب ضد الصواب، وآفة الألباب»[٣٣٥]، الإعجاب هو استحسان ما يصدر عن النفس مطلقًا، وهو من أعظم الأخلاق ضررًا على عقل صاحبه، فيسلك به في الطريق الخاطئ، ويعطل عقله عن التفكير، ويحبسه في سجن ذاته.

وفي شرح غرر الحكم: عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «العجب يفسد العقل»[٣٣٦]، إعجاب المرء بنفسه يفسد عقله كما يفسد الخل العسل.

وفي نهج البلاغة: عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «الإعجاب يمنع من الازدياد»[٣٣٧]، الإعجاب يوقف التطور، النمو، الزيادة، ولذلك يجب قمع هذه الحالة، والإبادة الشاملة لظواهر الإعجاب في المنظومة القياديّة، فهو مثل الدغل الذي ينبت بين الزرع ويأخذ كل الماء ويقتل الزرع، وأينما وُجد الإعجاب فهو بحاجة إلى تنفيس، والتنفيس للشخص المعجب بنفسه يتم عبر تقليل مسؤوليته، وسحب بعض صلاحياته، فإن لم يجد معه نفعًا أُخرج من المنظومة القياديّة؛ لأنه فيروس خطير ينذر بقاؤه بتهشيم المنظومة القياديّة، وأيًا ما كانت أسباب العجب فلابد من التعرف عليها، وضربها وتفكيكها وإزاحتها وإبعادها، لكي تبقى المنظومة تعمل بجد، بعقل مفتوح وقلب مفتوح ورغبة بالتطوير والاستماع لكل ملاحظة، نراجع ولا نتراجع، فالمراجعة الدائمة شيء ضروري ومهم.

في شرح غرر الحكم: عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «اتهموا عقولكم، فإنه من الثقة بها يكون الخطأ»[٣٣٨]، لابد من التشكيك دائمًا في ما يتوصل إليه العقل من استنتاجات معينة،

---

٣٣٤. شرح غرر الحكم ١: ١٤٨.

٣٣٥. نهج البلاغة ٣: ٤٦ كتاب ٣١.

٣٣٦. شرح غرر الحكم ١: ١٨٩.

٣٣٧. نهج البلاغة ٤: ٤١ الحكمة ١٦٧.

٣٣٨. شرح غرر الحكم ٢: ٢٦٧.

فربما تكون هذه الاستنتاجات خاطئة في بعض الأحيان، واحتمل فيها الخطأ، فكلامك صائب يُحتمل فيه الخطأ، وكلام الآخر خطأ يُحتمل فيه الصواب، وهذا الاتهام للعقل يعني التشكيك بالنتائج؛ إعطاء فسحة وفرصة للوصول إلى الصواب بشكل أكثر دقة، فلا تقل مائة بالمائة، ولكن قل الظاهر هكذا، فمهما كنت مستوضحًا وواثقًا استمع لما يقوله الآخر بعقل مفتوح، لا بحكم مسبق، أي لا تضمر في نفسك أنّ هذا لا يفهم ولكن دعنا نسمع ما يقول لنرضيه، بل حاول أن تسمع بعقل مفتوح وقلب مفتوح، فلعل كلمة واحدة من كلامه تكون مفيدة، وتستطيع بها تطوير الفكرة التي عندك، والرؤية التي عندك.

وفي كتاب الكافي: عن علي بن سويد عن أبي الحسن الكاظم موسى بن جعفر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «سألته عن العجب الذي يفسد العمل؟ فقال: العجب درجات، منها: أن يزين للعبد سوء عمله»، عمل سيئ، عمل خاطئ، يُزيّن له، فيُجعل حسنًا وجميلًا في نظره فيقدم عليه.

«فيراه حسنا فيعجبه»، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٣٣٩]، الأخسرون أعمالًا هم أهل النار الذين يحسبون أنفسهم من أهل الجنة، فتراهم فرحين مطمئنين، لأنّ أنفسهم أو شياطينهم تزين لهم سوء أعمالهم.

«ويحسب أنه يحسن صنعا»، فرح بعمله وهو خطأ، فهو يظن أن عمله حسن جدًا.

«ومنها: أن يؤمن العبد بربه فيمنّ على الله عز وجل، ولله عليه فيه المنّ»[٣٤٠]، إذا قام يومًا لصلاة الليل، فيجب أن تعرف الناس أنه صلى تلك الليلة صلاة الليل، والذي لم ينتبه له يبقى يتثاءب أمامه لكي يسأله ماذا بك؟ فيقول: أشعر بالنعاس، أقمنا صلاة الليل بالأمس! وهكذا أفشى السر الذي ينبغي أن يكون بينه وبين ربه، ولسان حاله يقول: ماذا تريد أكثر من هذا يا إلهي؟، فهذه صلاة الليل قد صليناها.

أما إذا نزلت من عينه قطرة دمع عندما كان يقرأ دعاء، فتراه يمنّ على الله (سبحانه وتعالى) بذلك، مع أنّ لله عز وجل المنّ علينا إذا حصل عندنا انكسار قلب، فلذنا إليه بقلب منكسر، ولله الفضل علينا إذا أكرمنا بتوفيقه لزيارة أو دعاء أو نافلة أو قيام ليل أو خدمة للناس، كل هذا من فضل الله تبارك وتعالى علينا، أن هيأ لنا لطفًا من عنده، ووفقنا لهذه الطاعات لنكون أقرب إليه، وليست المنّة لنا على الله (سبحانه وتعالى).

---

٣٣٩. سورة الكهف: الآيات ١٠٣ - ١٠٤.

٣٤٠. الكافي ٢: ٣١٣ ح٣.

وفي الكافي أيضًا: عن أبي عبد الله الصادق (صلوات الله وسلامه) عليه، قال: «إن الرجل ليذنب الذنب فيندم عليه»، يرتكب معصية فيندم.

«ويعمل العمل»، يعمل الحسنة لكي يعوض، فيستغفر الله عز وجل، ويأتي ببعض الطاعات الأخرى.

«فيسره ذلك»، بعد أن تجف الدمعة يقول الحمد لله، لقد محوت الذنب، وغفر الله عز وجل ذنبي، وأصبح وضعي على ما يرام، والآن أستطيع أن آخذ راحتي.

«فيتراخى عن حاله تلك»، يفقد حالة الندم، وحالة الخوف من الله عز وجل، فيترك كثيرًا مما كان يعمل به من الطاعات، ويتحول إلى حالة الرضا عن نفسه، ويسترخي عن الاستمرار في ما كان عليه من الندم على ذنوبه والتفريط أيام حياته.

«فلئن يكون على حاله تلك - من الندم - خير له مما دخل فيه»[٣٤١]، حالة الندم التي كان عليها خير له من الرضا والاسترخاء، بعد ليلة القدر نسأل شخصًا ما هو انطباعك؟ فيقول: الحمد لله لقد وفقت لذكر الله عز وجل في خمس أو ست ساعات، أدعية ونوافل ودمعة وبكاء، عملي جيد وسأنام مرتاحًا، فهل هذه الحالة أفضل أو حالة الشعور بالندم؟ حالة الشعور بالندم أفضل لأنها تجعلك دائمًا مشدودًا لله (سبحانه وتعالى).

وفي الكافي أيضًا: عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال «أتى عالم عابدًا»، زار عالم عابدًا.

«فقال له: كيف صلاتك؟»، يا عابد كيف تصلي؟.

«فقال: مثلي يُسأل عن صلاته؟»، يستنكر العابد على العالم سؤاله عن صلاته، لأنّ المعروف أنّ العابد أكثر الناس اهتمامًا بصلاته، فيقول له: تسألني عن صلاتي، وأنا ليس لي شغل غير الصلاة؟، من الطبيعي أن أهتم بها.

«وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا»، وبدأ يبيّن له سنوات عمره المديدة التي قضاها في أداء الصلاة، فهل يُعقل أن من قضى عمره وهو يصلي لا يعرف كيف يصلي، أو لا يحسن كيف يصلي؟.

«قال: فكيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتى تجري دموعي. فقال له العالم: فإنّ ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وأنت مدلّ»، المدل هو المرتاح، المنبسط، المقتنع بعمله، الذي يرى أنّ الله (سبحانه وتعالى) راض عنه.

---

٣٤١. الكافي ٢: ٣١٣ ح٤.

«إن المــدلّ لا يصعد من عمله شــيء»[٣٤٢]، هذا الذي يرى نفسه أنـه أدى كل ما عليه، لا يصعد من عمله شيء.

وفيه أيضًا: عن بعض أصحابنا، عن أحدهما عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ - أي الإمام الباقر أو الإمام الصادق - قال: «دخل رجلان المسجد، أحدهما عابد والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صدّيق، والعابد فاسق»، يعني تغير الفاسق إلى مؤمن شديد الصدق، وتغير العابد إلى رجل فاسق، عجيب! فهذا دخل الى المسجد وليس للملهى، دخل عابدا وخرج فاسقا، بينما خرج الفاسق صدّيقًا.

«وذلك أنه يدخل العابد المسجد مدلًا بعبادته، يدل بها فتكون فكرته في ذلك»، يدخل العابد المسجد ويأتي بصلاته وهو يشعر بالمنة على الله جل جلاله بعبادته، وعندما يخرج من المسجد لا يستشعر الخوف من الله جل جلاله، بل يشعر بالمنة عليه سبحانه بأنّه قد أتى بما عليه، وأنّه ليس لله (سبحانه وتعالى) عليه حجة في معاقبته، بل له الحجة على الله (سبحانه وتعالى) في الرضا عنه وإدخاله الجنة.

«وتكون فكرة الفاسق في التندم على فسقه»، أما الفاسق فهو عندما يدخل المسجد، يأتي نادمًا على ما سلف منه في ارتكاب المعاصي، فيدخل المسجد وهو خائف من الله (سبحانه وتعالى) بسبب ما اقترفه من ذنوب، فهو يأتي بصلاته وهو يرجو من الله تبارك وتعالى غفران ذنوبه والرضا عنه وإدخاله الجنة، فيخرج من المسجد وهو بين الخوف والرجاء، فيدخله الله تبارك وتعالى في رحمته.

«ويستغفر الله عز وجل مما صنع من الذنوب»[٣٤٣]، وهو بهذا الاستغفار يخرج صدّيقًا، بينما يخرج العابد من المسجد مسترخيا مدلًا على الله (سبحانه وتعالى) بعبادته، فيستحق بذلك غضب الله (سبحانه وتعالى)، والطرد من رحمته.

وفيه أيضًا: عن عبد الرحمن بن الحجاج، قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق»، يعني يأتي بالطاعة وهو خائف لا يدري هل يقبل الله تبارك وتعالى منه أو لا يقبل؟.

«ثم يعمل شيئًا من البر فيدخله شبه العجب به»، ثم يأتي بعمل من أعمال البر، كالتصدق، فيدخل في قلبه ليس العجب، بل شبه العجب، وكم هو دقيق تعبير الرواية، فإنه لو دخله

٣٤٢. الكافي ٢: ٣١٣ ح٥.

٣٤٣. الكافي ٢: ٣١٤ ح٦.

العجب لفسد عمله قطعًا، ولذلك نجد جواب الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ دقيقًا جدًا يتناسب مع سؤال السائل.

«فقال: هو في حاله الأولى وهو خائف أحسن حالًا منه في حال عجبه»[٣٤٤]، أي أنّ حاله عندما كان خائفًا ومشفقًا، أحسن وأفضل من حاله وقد دخله شبه العجب.

وفيه أيضًا: عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: بينما موسى جالس إذ أقبل إبليس، وعليه برنس ذو ألوان»، البرنس: كل ثوب رأسه منه ملتصق به، دراعة كان أو ممطرًا أو جبة[٣٤٥]. أقبل إبليس عليه اللعنة وعليه برنس بألوان زاهية على نبي الله موسى (على نبينا وآله وعليه السلام)، وهو جالس وحده، وهذا من اللقاءات المباشرة بين اللعين والأنبياء، ودار بينهما الحوار التالي الذي ينقله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

«فلما دنا من موسى خلع البرنس، وقام إلى موسى فسلّم عليه، فقال له موسى: من أنت؟ فقال: أنا إبليس»، ويظهر من سؤال موسى (على نبينا وآله وعليه السلام) أنّ مظهر إبليس عليه اللعنة كان مظهرًا بشريًا عاديًا بحيث لم يستطع تمييزه عن باقي البشر.

«فقال: أنت! فلا قرّب الله دارك»، فانقبض موسى (على نبينا وآله وعليه السلام) عند سماعه ذلك، ودعا بهذا الدعاء، الذي يتعوذ به من إبليس عليه اللعنة، إذ لا ملاذ منه لعنه الله إلا بالله سبحانه وتعالى.

«قال: إني إنما جئت لأسلّم عليك؛ لمكانك من الله»، أنت نبي عظيم من أنبياء الله، وهذا هو ديدني في السلام على أولياء الله العظماء.

«فقال له موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: فما هذا البرنس؟ قال: به اختطف قلوب بني آدم»، أي أنه لعنه الله يختطف قلوب البشر بهذه الألوان الزاهية التي يلقيها على الأشياء؛ ليزداد تعلقهم بالدنيا.

«فقال موسى: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه»، أي ذنب هذا الذي يمثل مفتاحك السحري وبه تتمكن من الاستحواذ والسيطرة على قلوب الآدميين؟.

«قال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، وصغر في عينه ذنبه»[٣٤٦]، ذكر إبليس لعنه الله ثلاثة أسباب تمكّنه من السيطرة على قلب الإنسان، أولها وأخطرها هي إعجاب الإنسان بنفسه، ومعنى ذلك أنّ الإنسان هو الذي يمكّن الشيطان من نفسه، ويسلم له زمام قيادته،

---

٣٤٤. الكافي ٢: ٣١٤ ح٧.

٣٤٥. كتاب العين ٧: ٣٤٣.

٣٤٦. الكافي ٢: ٣١٤ ح٨.

فالشـعب الذي يقوده حاكم معجب بنفسـه، ليعلم أنّ الذي يقوده حقيقة هو الشيطان الرجيم، الذي أخبرنا الله تبارك وتعالى أنه العدو المبين للإنسان.

وورد في نهج البلاغة في السـياق نفسـه، قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إنّ المديح والإطراء يوقعان الإنسان في العجب، يقول:

«وقـد كرهـت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء واسـتماع الثناء»، إنّ غرضي من هذه الخطبة هو نفي ما قد يكون خطر في أذهانكم من أني أحب المديح والثناء، كما هو ديدن الحـكام الذيـن يحبون مديح الناس لهم والثناء عليهـم. وبهذا يكون أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أوصد الباب في وجه المتملقين من الشعراء والخطباء وغيرهم في الاستماع إلى مديحهم.

«ولسـت بحمـد الله كذلك»، ثم يحمد أمير المؤمنيـن عَلَيْهِ السَّلَامُ الله تبارك وتعالى على عدم اتصافـه بهـذه الصفة، وهي حب الإطراء والثنـاء، ويعني ذلك أنّ كراهية المـدح والثناء نعمة تستحق الحمد والشكر.

«ولـو كنـت أحـب أن يُقال ذلك؛ لتركته انحطاطًا لله سـبحانه عن تنـاول ما هو أحق به من العظمـة والكبريـاء»، ثم ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بيان حالة افتراضية، وهي أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لـو كان يحـب المديح والثناء؛ لقمع هـذا الحب وطرده من قلبه تواضعًا لله سـبحانه وتعالى، الذي هو أحق بالمدح والثناء، فليس هناك من يسـتحق الثناء غير الله (سـبحانه وتعالى)؛ لأنه صاحب النعم كلها.

«وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء»، هنا يتطرق أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ظاهرة شائعة عند الناس، وهي حبهم لتلقي المديح والشـكر بعد الجهد الذي يبذلونه في قضية ما، ويتكلل بالنجاح، وهو أمر لا بأس به.

«فلا تثنوا عليَّ بجميل ثناء»، ولكني لا أريد هذا الثناء أيضًا، وإن كان أمرًا مشروعًا.

«لإخراج نفسي إلى الله سبحانه وإليكم من التقية»، حتى أخرج نفسي بين يدي الله (سبحانه وتعالى) وإليكم من التقية، يعني من الخوف، في إشارة إلى العذاب.

«فـي حقـوق لـم أفرغ من أدائهـا، وفرائض لابد مـن إمضائها، فلا تكلموني بمـا تُكلّم به الجبابرة»، لا تتكلموا معي بالطريقة التي يتكلمون بها مع الجبابرة، باسـتعمال ألقاب التبجيل والتعظيم والقداسة.

«ولا تتحفظـوا منـي بمـا يتحفظ به عند أهل البادرة»، وهم أهـل الغضب، ولابد من أنكم رأيتـم شـخصًا غاضبًا جـدًا، كيف هي حاله عندما يتكلم، فتتحدث إليـه بكلام ناعم لتهدئه، حذرًا من تصدر منه كلمة خشـنة ضدك، أو تأتيك منه ضربة أو طعنة، إذ ينبغي الحذر الشـديد من هؤلاء الغاضبين في الكلام، فلا تكلموني بما تكلمون به هؤلاء الناس.

«ولا تخالطوني بالمصانعة» ، لا تعاملوني بالحركات المصطنعة التي يُتعامل بها مع الملوك والجبابرة ، كالانحناء والوقوف سماطين ونحو ذلك .

«ولا تظنوا بي استثقالًا في حق قيل لي» ، ولا تتصوروا أني إذا قلتم لي حقًا فسوف أستثقل ذلك وأتضجر منه ، كلا ، فأنا لا أكره ذلك .

«ولا التماس إعظام لنفسي» ، ولا أطلب أن أُعظَّم ويُتعامل معي بطريقة مختلفة عن الناس .

«فإنه من استثقل الحق أن يُقال له ، أو العدل أن يُعرض عليه ؛ كان العمل بهما أثقل»[٣٤٧] .

---

٣٤٧ . نهج البلاغة ٢ : ٢٠٠ الخطبة ٢١٦ .

الآفة الثانية

المنّ والتزيّد وإخلاف الوعد

(وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِي ما كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ، قَالَ اللهُ سبحانه: «كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ»).

حينما ينجز المسؤول والمتصدي خدمة معينة للناس الذين يتحمل مسؤوليتهم، أيًّا كان مستواه من المسؤولية، ينبغي أن لا يمنّ عليهم؛ أنا فعلت لكم كذا، وأنجزت لكم كذا، وأنتم كنتم حفاة وأنا ألبستكم أحذية، فحالة المنّ وإظهار الجميل من قبل المسؤول لإنجاز أو خدمة حققها للناس، ظاهرة سلبية جدًا، والتزيّد هو تضخيم وتهويل العمل الذي قام به، فيعطيه هالة وينفخ به ويكبره، وإخلاف الوعد أن يعد ويخلف وعده، لا يفي بوعده، وهذه الآفة الثانية من الآفات التي يتحدث عنها أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ.

(وَإِيَّاكَ) يا مالك (وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ): أن تمنّ على الرعية بالإحسان الذي تقدمه لهم، بالإنجاز الذي تحققه لهم.

(أَوِ التَّزَيُّدَ فِي ما كَانَ مِنْ فِعْلِكَ): كما في المثل الشعبي: (الحبة تسويها كبة)؛ شيّدت نافورة صغيرة، وأنت تعرّف الناس به كمشروع عملاق! فاخجل من نفسك، فالتضخيم والتهويل والتزيّد يشمل فعلا غير متحقق؛ إذ يدّعي كذبًا أنه فعل الشيء الفلاني، مع أن غيره فعله ولكنه ينسبه إلى نفسه، أو أنه بالفعل عمل شيئًا ولكن ليس بالحجم الذي يظهره ويبرزه، هذا هو التزيّد.

(أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ): تعد الناس بشيء ثم تخلف وعدك، ولا تلتزم به.

(فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الإِحْسَانَ): المنّ على الناس، يفسد ويزيل آثار الإحسان الذي قدمته، فأنت تخدم فعلًا، ولكن في ساعة تنفجر عندما يثيرون أعصابك، فتقول: ألست

أنا الذي فعلت لكم كذا؟ ألست أنا الذي أعطيتكم كذا؟ فتنسفها جميعًا في ساعة غضب، والناس لا يرتاحون لشخص يمنّ عليهم، حتى لو كان بالفعل قد عمل كل هذه الأشياء، لكن هذا المنّ مزعج للناس، ويبطل الإحسان.

(وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ)، التزيّد: هو التضخيم، ومنه نسبة الشيء إليك وأنت لم تفعله، وهو يزيل نور البركة الذي به تأثيره المعنوي.

(وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ): إخلاف الوعد يوجب حالة السخط والبغض.

(عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ): الله يبغضك ويسخط عليك، والناس أيضًا تبغضك وتسخط عليك، عندما تعدهم بشيء ولا تفي بوعدك.

(قال الله سبحانه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُون﴾)[٣٤٨] يستشهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بهذه الآية الشريفة على أن إخلاف الوعد يوجب المقت.

إذن آفة المن والتزيّد وإخلاف الوعد هي الآفة الثانية التي يتحدث عنها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

تجنب المنّ في المنظومة القياديّة

يجب تجنب المنّ في المنظومة القياديّة، من قبل القائد، والمسؤول، والمتصدي أيًا كان مستوى التصدي، وقد ذكرنا أنه يبدأ من رب الأسرة الذي يكون مسؤولًا عن عائلته، وإن كانت تتألف من شخصين أو ثلاثة، فهو يمارس دورًا قياديًا بهذا المستوى، وينتهي بالقائد العام للقوات المسلحة وزعيم الدولة وما إلى ذلك، وقد تحدثنا في أبحاث سابقة أن المسؤولية من وجهة نظر الإسلام ذات هوية خدمية، فالمسؤول خادم، وليس متسلطًا، وليس حاكمًا، ولما كانت المسؤولية ذات ماهية خدمية وليست تسلطية، فلا معنى لأن تمنّ على الناس وأنت خادم لهم، وكلما كانت مسؤوليتك أكبر وجب أن تتجلى الخدمة بشكل أوضح، فأنت خادم، والخادم يعمل بواجبه، بالمهام والواجبات المكلّف بها، لقد أُعطيت كل هذه الامتيازات، وهذا الموقع وتفصيلاته، والحمايات

---

٣٤٨. سورة الصف: الآية ٣.

التي معك، وصرت وزيرًا، أو مديرًا، أو مسؤولًا في مكانٍ ما، وحصلت على كل هذا الاحترام والتقدير والامتيازات والرواتب والسيارات... إلى آخره، أُعطيت كل هذه الأشياء لكي تخدم، وأنت الآن عندما تقوم بواجبك تريد أن تمنّ على الناس، وهذا لا يجوز، فما تقوم به هو واجبك ومهمتك المكلف بها، وقد وُضعت كل هذه الإمكانات المادية والمعنوية تحت تصرفك لكي تقوم بهذا العمل، والآن عندما جاءت لحظة العمل تمنّ على الناس، بأنك قد قدمت لهم هذه الخدمة، فلا معنى للمنّ في خطوة صحيحة وإنجاز كبير حققته، فهذا واجبك.

(إِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ)، تحذير شديد للحاكم والمسؤول من المنّ على الشعب؛ لأنه قدّم إليهم إحسانًا، فالملاك في نظر علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في العمل المبتني على الخدمة، وفي الإنجاز المبتني على الخدمة، هو أن لا يكون فيه منّ وجميل؛ لانه أداء لواجب، وهو نظير ما كان عليه بعض المسلمين في صدر الإسلام، الذين كانوا يمنّون على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بإسلامهم، فجاء الخطاب الإلهي موبخًا لهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣٤٩]، ويُستفاد من الآية الكريمة أنَ المنّ لله تعالى وحده، ولا يجوز لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن يمنّ على الناس؛ لأنه كان يقوم بواجبه في دعوتهم إلى الإسلام امتثالًا لما أمره به الله (سبحانه وتعالى)، وهذا المعنى مستفاد من الآية الكريمة، لا من ظاهرها، وظاهرها كما قلنا أن المنّ كان من المسلمين على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فالأمر كان معكوسًا، وكان عليهم الشكر له لما تحمل من أعباء ثقيلة في إيصال رسالة الله إليهم، ولا يؤثر في الأخبار أن رسول الله قد منّ على الناس بما عانى من أجلهم وقدّم لهم، فكيف يمنّون هم عليه؟.

ورد في شرح الغرر: عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «ملاك المعروف ترك المنّ به حتى يكون المعروف معروفًا»[٣٥٠]، العمل المنجز هو معروف إيجابي صحي مقبول، وما دام هو كذلك فيجب أن يُترك المنّ به؛ إذ المنّ دليل أنانية الفاعل للمعروف، فيقول: أنا عملت من أجلكم، أنا قدمت لكم، أنا خدمتكم، أنا علمتكم، أنا ربيتكم، وهذه نرجسية وأنانية، فالذي يمنّ على الناس هو الذي يعتدّ بنفسه بشكل كبير، ويرى نفسه

---

٣٤٩. سورة الحجرات: الآية ١٧.

٣٥٠. شرح الغرر٦: ١١٨.

شيئًا كبيرا، فيريد أن يشبع الأنا، فيمنّ على الناس ويذكّرهم بما فعله، وهذا أسوأ ما يكون.

وورد في شرح الغرر أيضًا: «لا سوء أقبح من المنّ»[٣٥١]، أقبح شيء هو أن يمنّ المسؤول على من هم دونه في المسؤولية، فهذا مسؤول تنظيم يقف ويخاطب التنظيمات: من أنتم؟ أنا الذي جمعتكم، أنا الذي فعلت لكم كذا وكذا، وهذا قائد في قطاع عسكري يمنّ على الجنود والمراتب، وهذا مسؤول في تيار سياسيّ يمنّ على تنظيماته، وناسه، وهذا مسؤول بمصنع يمنّ على عماله: لو لم أكن أنا مسؤولًا هنا لقتلكم الجوع، أأنت الرازق أم الله (سبحانه وتعالى) هو الرزاق ذو القوة المتين؟ فالأرزاق موجودة، وأنت لا تعطيه بالمجان، بل هو ما يستحقه من أجر إزاء ما يقدّمه من عمل، وقد كسب أجره من عرق جبينه وكدّ يمينه، فعلى أي شيء هذا المنّ والجميل؟! وإذا كان المنّ بالإحسان قبيحا، فالمنّ بالواجب أقبح، وهو أسوأ شيء.

ورد في كتاب الكافي الشريف: عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: إن الله تبارك وتعالى كره لي ست خصال»، أي منعني، حرّم عليّ، «وكرهتها للأوصياء من ولدي»، وأنا أيضًا حرمتها على أوصيائي الاثني عشر من بعدي، «وأتباعهم من بعدي»، وهي محرمة على شيعتهم أيضًا، «منها المنّ بعد الصدقة»[٣٥٢]، المنّ بعد الصدقة: المنّ بعد العطاء، وقد يكون هذا العطاء غاليًا، أو عطاء خدمة علمية، عطاء وقت جعلته في خدمة الآخر، عطاء خدمة قدمتها للآخر، عطاء علاقاتك التي استخدمتها بأن رفعت هاتفك واتصلت بمسؤول لحل مشكلة الآخر، دعاء دعوت به لأخيك المؤمن في ليلة القدر، في مظان الإجابة، في زيارة، كل هذه الأمور، من مصاديق العطاء.

الإضاءة الثانية

عواقب المنّ في المنظومة القياديّة والإداريّة

المنظومة القياديّة التي تعمل على أساس المنّ على الناس، والتفضل عليهم؛ لأنه قدّم كذا وكذا، هذه تخرج عن ماهيتها الخدمية، وتؤدي إلى ضياع الجهود بشكل كامل،

---

٣٥١. شرح غرر الحكم ٦: ٤٣٥.

٣٥٢. الكافي ٤: ٢٢ ح١.

كل هـذا العمـل الكبير الذي تقوم به يضيع ويذهب هباء منثورًا، عندما تمنّ على الناس، فتولّد عندهم حالة من السخط والغضب؛ (فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ)، هكذا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ؛ (يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ)، ينهيه ويلغيه، أتريد أن تمسح الناس من الذاكرة أي جميل قدّمته لهم، مهما كان جميلًا؟ فالمنّ يفسد العمل.

ورد في شرح الغرر: قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: «المنّ يفسد الصنيعة»[٣٥٣] الصنيعة أي الخدمة، الإنجاز، والمنّ يفسد هذه الخدمة وهذا الإنجاز كما يفسد الخل العسل.

وورد في كتاب الكافي: عن الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ، قال: «المنّ يهدم الصنيعة»[٣٥٤] المنّ يهدم المعروف كما يهدم المعول البناء، وجميع هذه الروايات تصب في نفس الاتجاه؛ الإنجاز يزول ويُعدم ويُمحى من ذاكرة الناس، مهما كان كبيرًا وعظيمًا، بسبب المنّ والتجميل.

ورد في شرح الغرر: عن علي عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: «ما كدرت الصنائع بمثل الامتنان»[٣٥٥]، ليس هناك شيء يكدر صفو الصنائع والإنجازات والخدمات ويمسحها ويشوش عليها بقدر الامتنان على الناس بها.

الإضاءة الثالثة

تجنب تضخيم الإنجاز ونسبته إلى المنظومة القياديّة

تجنب تضخيم الإنجاز، تهويل الإنجاز، ونسبته إلى المنظومة القياديّة، لا تزعم أنك أنجزته، إذا كان غيرك هو الذي أنجزه، والأحرى بك أن تنسب الفضل لأهله، فإنك إن فعلت ذلك تكبر في أعين الناس، وتشجع وتحفز الآخرين على العمل، لا أن تنسب كل شيء لك، وتصادر كل هذا العمل الذي تنجزه التنظيمات والمجموعات، فتأخذه كله وتمسح أسماءهم وتجعله باسمك، وكان الأجدر بك أن تنسبه لأصحابه، وتقول: إن هذا العمل أنجزه فلان، وذاك العمل أنجزه فلان، وهذا الابتكار للأخ الفلاني، وعندما تصل هذه الكلمات إلى مسامع هؤلاء فسوف يتشجعون، وسيكون حافزًا للآخرين أيضًا للقيام بمثل هذه الأعمال، لكي تُذكر أسماؤهم، فانسب العمل الذي أتى به غيرك لصاحبه،

---

٣٥٣. شرح الغرر ١: ١٩٢.

٣٥٤. الكافي ٤: ١٢٢ ح٢.

٣٥٥. شرح الغرر ٦: ٦٠.

وثمّن وقدّر صاحب الإنجاز، أما العمل الذي أنجزته أنت فاذكره بحجمه، ومن الأفضل للمسؤول أن يذكر إنجازاته بتواضع، فيقول: لقد أنجزنا هذا العمل المتواضع، لقد بذلنا هذا الجهد المتواضع لإنجاز هذا الشي البسيط، دع الناس هي التي تراه كبيرًا، فلا تبقَ تتحدث به وتكبره بالطريقة التي تحدث عند الناس ردة فعل معينة، لا تضخم، ولا تهول فعلا فعلته، ولا تنسب فعلا لم تفعله لنفسك، أو تتحدث عن إنجاز وهمي، فضائي، فلا شك في أن هذا أسوأ ما يكون.

(أَوِ التَّزَيُّد فِي ما كَانَ مِنْ فِعْلِكَ)، التزيّد مرفوض تمامًا وغير صحيح، وهو التهويل والتضخيم في العمل، أيًا كانت الأسباب، فهذا غش، وتدليس، وخداع للناس؛ تغشهم حينما تتحدث عن فعل غير موجود، عن إنجاز غير موجود، وتتحدث عن إنجاز لنفسك وهو لغيرك، فأنت تغش، كالغش بالامتحان؛ فهو يكتب الجواب الصحيح، ولكن هذا الجواب ليس له، بل يأخذه من الشخص الذي كان إلى جنبه، وينسبه إلى نفسه لكي يحصل على درجة النجاح، فهو يصادر جهد الآخر، ولذا عندما يخرج المسؤول للإعلام يقول: فعلنا كذا وأنجزنا كذا، أين فعلتم؟ وأين أنجزتم؟ هل أنت الذي فعلته أو غيرك الذي فعله وأنجزه ونسبته إلى نفسك؟ أو تراه يتحدث عن إنجاز أكبر من الواقع، ولا يمكن قبول هذا السلوك في المنظومة القياديّة السليمة أيا كانت الأسباب.

ورد في شرح الغرر: قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الغش شرّ المكر»[٣٥٦]، أسوأ حالات المكر هو الغش، ومن الغش أن تنسب عمل الغير إلى نفسك، أو تضخم من مقدار إنجازك.

وفيه أيضًا: قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الغش من أخلاق اللئام»[٣٥٧] اللئيم هو الذي يغش، فالكريم لا يسرق جهود الآخرين وينسبها إلى نفسه، وضده اللئيم الذي لا يرى غير نفسه على حساب الآخرين.

وفيه أيضًا: قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «شرّ الناس من يغش الناس»[٣٥٨]، أسوأ إنسان هو الذي يغش الآخرين، ويتحايل عليهم، تارة بإعطاء معلومة خاطئة؛ بيان خلاف الحقيقة، تضخيم الإنجاز، إنجاز وهمي غير موجود، هذا كله ظلم بحق الناس، غش للناس، فيا مسؤول لا تحدث الناس إلا عن إنجاز أنت حققته وعملته، وحينما تحدثهم عنه تحدث

---

٣٥٦. شرح الغرر ١: ١٩٢.

٣٥٧. شرح الغرر ١: ٣٤٣.

٣٥٨. شرح الغرر ٤: ٤٦٤.

بحجم الإنجاز ولا تكبره، وتجعل الناس تراه كبيرًا، فإنك عندما تكبره وتنفخ فيه تضلل الناس، وعندما يكتشفون الحقيقة يفقدون الثقة بك.

وجاء في كتاب الكافي: عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ليس منا من غشنا»[٣٥٩]، الذي يغشنا ليس بمسلم، فلا يحسب نفسه علينا، لا يقل أنا مسلم، فالمسلم لا يغش، فالذي يصادر إنجازات الآخرين ومكتسباتهم خارج عن دائرة الإسلام، فضلًا عن دائرة الإيمان.

الإضاءة الرابعة

عواقب تضخيم وتهويل الإنجازات

ماذا يحدث لمن يضخم حجم الإنجاز، ويعطي انطباعات غير واقعية للناس؟ عندما تسمع الناس الكلام أول مرة، أنّ هذا المشروع هو أكبر مشروع في الشرق الأوسط، أو أن هذا المول هو أكبر مول على وجه المعمورة، فسوف تعترض وتقول: متى رأيت الدنيا ليكون هذا أكبر مشروع أو أكبر مول؟ ولماذا أنت مغرم ومهووس باستعمال أفعل التفضيل إلى هذا الحد؛ أكبر، أعظم، أكثر، أضخم، أوسع، أطول؟ هكذا يصف المسؤولون أي إنجاز ولو كان بسيطًا جدًا، على مستوى نافورة مثلًا، والظاهر أن شعارهم اضحك على الناس، ولكن اليوم ببركة (گوگل) يستطيع الناس البحث عن أي معلومة، وكل شيء موجود حول الموضوع الذي يبحثون عنه، وسيعرفون هل هذه النافورة هي أعظم وأطول نافورة في العالم أو لا؟، وحينئذ سينكشف حجم التهويل والتضخيم الذي يمارسه هؤلاء المسؤولون، ومدى الانطباعات غير الدقيقية وغير الواقعية والمزيفة التي يعطونها للناس، وقد تصدّق الناس لأول وهلة، وتحمد الله تبارك وتعالى على أننا أصحاب أطول نافورة في الشرق الأوسط، حسنًا ثم ماذا؟ بعد يوم أو يومين أو ثلاثة، وأسبوع أو أسبوعين، سيكتشفون الحقيقة، وأنه توجد في الدولة الفلانية نافورة أطول بعشرين مترًا، وهكذا الحال بالنسبة للإنجازات الأخرى التي يتباهون بها، و(تطلع الشمس على الحرامية) كما يقولون، وينفضح أمرهم أمام الملأ وعلى رؤوس الأشهاد، ولكن لا حياء لمن تنادي، وقديمًا قيل: (إن لم تستحِ فافعل ما شئت)، بعد أن تظهر الحقيقة ليست كما يقول المسؤول، وأنّ نسبة الإنجاز ليست (٨٠٪)، بل كانت(٢٠٪)، وهناك تضخيم في

---

٣٥٩. الكافي ٥: ١٦٠ ح١.

الأمور، يتبين للناس أن هذا المسؤول غشهم، وكذب عليهم، وضخم إنجازه، وهنا سيهتز أهم عماد وأهم مرتكز تبتني عليه العلاقة بين المسؤول والناس؛ وهو الثقة، سيهتز هذا المرتكز، هذا العمود، ويسقط العماد وتُفقد الثقة، وحينما يخرج المسؤول في المرة الثانية، سيقول الناس: إنها مثل المرة الأولى، حين صرّح بما صرّح به ثم ظهر أنه غير صادق، فمن يقول إنه صادق في هذه المرة؟ فقد بالغ كثيرًا أول مرة، فمن يقول إنه لا يبالغ في هذه المرة أيضًا؟، وتبقى هذه القضية تلاحقه في كل كلماته، وفي كل مواقفه، فيظن الناس أنها مبالغ بها أو فيها غش أو أنها غير صحيحة، إذ تهتز الثقة، وعندما تهتز الثقة فإنّ استعادتها ليست سهلة، فهذا مثل الماء الذي يُسكب على الأرض، لا يستطيع أحد جمعه، فالثقة إذا اهتزت يصعب ترميمها واستعادتها، وأحيانًا يستحيل أن ترجع الثقة مهما صدق المسؤول بعدها، بل ينسحب عدم الثقة هذا على جميع المسؤولين وإن لم يكذبوا ويضخموا، ويترسخ لدى الناس انطباع أن هذا المسؤول كذاب، وكل ما يفعله ليعيد مصداقيته لن يجدي نفعًا، وسيبقى هذا الانطباع يلاحقه.

طبعًا لا ينحصر هذا الأمر بالمسؤول فقط، بل يشمل كل إنسان حتى في علاقاتنا الإنسانية البسيطة؛ فعندما لا يكون المسؤول دقيقًا ويضخم ويهول كل كلمة يتكلم بها، يبقى السامع يفلتر ويدقق ويتأكد من كلماته، وهذا يعني أن المتكلم غير موثوق به، وأنّى له إرجاع الثقة، الثقة إذا أُزيلت فمن الصعب، وأحيانًا من المستحيل، استعادتها، (وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ)، تذهب البركة من كلامه، وتزول قناعة الناس بهذا العمل.

ورد في بحار الأنوار، عن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أنه قال: «من غش أخاه المسلم، نزع الله عنه بركة رزقه»، يزيل الغش بركة الرزق، «وأفسد عليه معيشته»، يحرص الإنسان في حياته على أن يكون عزيزًا في قومه، محترما في جماعته، والشخص المشكوك به والمطعون بوثاقته يكون معزولًا اجتماعيًا، لا يريد أحد مخالطته، وحتى ذلك الذي يبتسم في وجهه ويجامله هو غير واقعي في سلوكه هذا، لأنه شخص عديم الثقة، «ووكله إلى نفسه»[٣٦٠] الله (سبحانه وتعالى) يكله إلى نفسه، فيسقط ويهوى ويضيع.

إذن كلما عظمت المسؤولية كانت آثار هذا التضخيم والتهويل أعظم وأكبر، فنرى مثلًا عندما يبالغ الطفل في كلامه، فالناس لا تؤاخذه بسبب قلة عقله، وتنزعج من الشاب الذي يبالغ في كلامه، والأمر أشد صعوبة في رجل يبالغ في حديثه، وإذا وصلت النوبة

٣٦٠. بحار الأنوار ٣٦٥:٧٦.

إلى القائم مقام أو مسؤول البلدية، تصبح استعادة الثقة من الصعوبة بمكان، وربما كانت مستحيلة، فكيف الحال بالمحافظ والوزير ورئيس الدولة والقائد السياسيّ المرموق؟ إذن كلما عظمت المسؤولية كان وقع التضخيم والتهويل وآثاره الهدامة وعواقبه الوخيمة أشد.

الإضاءة الخامسة

تجنب إخلاف الوعد في القيادة والإدارة

يا مسؤول، يا قائد، يا مدير، يا متصدّ، لم يصدر قرار تعيينك بعد، بدأت تذرع بالجنة كما في المثل؛ سأعمل لكم كذا وكذا... وهكذا، من الوعود التي تشنّف لها الأسماع ويسيل لها اللعاب، رويدك قليلًا، هل تعلم إمكانات هذا الموقع؟ وما هي صلاحياته؟ وهل تعرف ظروف البلد؟ لماذا تعد الناس؟ لماذا تتحدث بأمور لا تقدر على إنجازها؟ هذا لا يجوز، فاجعل لنفسك مصداقية، ولا تتجاوز بوعودك للناس ما تقدر عليه، فهذا الأمر يهز الثقة أيضًا إلى حد كبير، حين يظهر المسؤول أمام وسائل الإعلام ويعد الناس بأنّ الكهرباء ستكون أربعًا وعشرين ساعة في نهاية السنة، وسنقوم بتصديرها من السنة القادمة، وأسعارها في التصدير جيدة، فأين هذا الكلام؟ لماذا تُسمع الناس كلامًا غير دقيق؟ لماذا تعد الناس بأشياء لا تقدر عليها؟ هذا من شأنه أن يهز الثقة إلى حد كبير.

(أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ)، احذرا يا مالك أن تعد الناس ثم تخلف الوعد، فلن يجديك نفعًا أن تأتي بألف دليل لتتنصل من مسؤولية كلامك، وترجع ثقة الناس إليك، فلا ينبغي أن تعد بشيء لا تستطيع الوفاء به، ثم تبقى تختلق التبرير تلو التبرير لتستعيد الثقة التي تلاشت أوصالها، ويستحيل عليك أن تعيدها.

يجب عليك عندما تعد بشيء أن تأتي به بالكمال والتمام، وعندئذ تكون قد وفيت بوعدك، وتستحق أن يُقال لك: جزاك الله خيرًا، أما إذا لم تتمكن من أن تأتي به، فأنت مدان أمام الناس، ومدان أمام الله سبحانه يوم القيامة، في اليوم الذي يُنشر فيه كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ونحن الآن في عصر وصل فيه التطور التكنولوجي في فن الاتصالات إلى درجة يتيسر معها الحصول على أي معلومات بمجرد لمسات لا تستغرق ثواني على اليوتيوب أو (گوگل)، فيظهر كل شيء على الشاشة، ويظهر ما قال المسؤول الفلاني من الأول إلى الأخير؛ كذا قال قبل خمس سنين، كذا قال قبل أربع سنين، كذا تكلم قبل شهر، وهكذا تخرج لك المعلومة التي تريد في غضون

لحظات، وكل التفاصيل أمامك، ولا يضيع منها شيء؛ كلمة تكلمت بها، وعد وعدته، أين أصبح؟ يبقى يلاحقك.

التخلف عن تنفيذ الوعود قد تكون له أسباب مختلفة، فأحيانًا - وهو الأساس في الوعد - أراد أن يضلل الناس لكي يكسب أصواتهم في الانتخابات، وقبل كل انتخابات اشبعوا وعودًا أيها الفقراء؛ هكذا سنعمل لكم، هكذا سنوظفكم، وهكذا سنمنح رواتب الرعاية الاجتماعيّة لكل المستحقين بلا استثناء، ووعود كثيرة لا تُحصى، وعندما تنتهي الانتخابات ومنذ اليوم الثاني يُنسى كل شيء، ولم تكن وعودهم سوى هواء في شبك.

فالمسؤول أحيانًا عند الوعد يقصد التضليل، يقصد الإغواء، فهو يعلم أن ما يعد به لا يمكن أن يتحقق، وإذا قيل له: لماذا تعد؟ يقول: إنها الانتخابات، ولابد لنا من أن نتحدث للناس لكسب أصواتهم، وبعد ذلك الله كريم، نعم قد تسير الأمور هكذا منذ البدء، فهو يعرف من البداية أن ما يعد به غير قابل للتطبيق، وغير واقعي، ويعد طمعًا في صوت انتخابي لا أكثر، ويقصد منه تضليل الناس، ليس إلا.

وفي أحيان أخرى لا يقصد المسؤول التضليل، بل هو رجل صادق يريد أن يعمل، ولكنه ضعيف إداريًا، ليس عنده عمل مؤسسي، وليس لديه تخطيط، وأدواته ضعيفة، وآلياته ضعيفة، وسياساته ضعيفة، وخططة ضعيفة، وبرامجه ضعيفة، وتقديراته للموقف ضعيفة، فلا يستطيع أن يعمل الذي وعد به، فهو يريد أن يحقق إنجازًا، ويمكن تطبيق ما وعد به في ظل إدارة ناجحة، في ظل مدير قوي، في ظل منظومة إداريّة وقياديّة ومؤسساتية فاعلة، في ظل سياسات رشيدة، في ظل أولويات صحيحة، في ظل خطط ناجحة، وهو يفتقد كل هذه الأمور، فليس عنده الأدوات والآليات اللازمة.

وأحيانًا أخرى لا يتحقق العمل الصحيح بسبب المسؤول، عندما يسوّف ويقول لا أحد يحاسبني، فيقول: هؤلاء الناس لا يقرؤون ولا يكتبون، ولا أحد منهم يذكر أو يعرف، أطلق كلمتي وأعد بما أشاء، فيعد الناس مستخفًا بعقولهم، يعد الناس استنادًا إلى اعتماده على نفسه ونرجسيته، وأنه يفعل المعاجز، وليست عنده تقديرات صحيحة، فيعطي الناس وعودًا غير صحيحة.

وأحيانًا أخرى يكون المسؤول عجولًا، لا يطبخ الأمور حتى تنضج، فيطلق وعوده بلا دراية، بلا حكمة، بلا دراسة، وعندما يرجع إلى مستشاريه يقولون له: معاليك ماذا عملت؟ فخامتك ماذا فعلت؟ دولتك ماذا ارتكبت؟ سيادتك إلى أين نحن ذاهبون؟ كيف تعد الناس هكذا؟ وبأيّ ميزانية؟ وبأيّ ظروف؟ وبأيّ أدوات؟ لا نقدر على إنجاز ما وعدت به، فيقول: وما أدراني، سألني الصحفي وأعطيته إياها، ألقاها على مسامعهم

من دون دراية، وقد لا يكون يقصد التضليل، ولكنه لم يدرسها، ولم يخطط لها، ولم يستشر بها، وخرجت منه الكلمة عفويًا، كلمة تكلم بها، والله كريم، نعم صحيح أن الله دائمًا كريم، ولكن لماذا لا نكون نحن كرماء أيضًا؟ ما هي خططنا؟ ما هي رؤيتنا ودراستنا للأمور قبل أن نعد؟ فهذا أمر حيوي ومهم جدًا، ولكن أيا كانت الأسباب، تضليلية أو لقصور وضعف، قصد أن يضلل الناس، أو لم يقصد، وكان ناويًا أن يخدم الناس بالفعل، ويعمل لهم هذه الأشياء التي وعدهم بها، ولكن لم يدرس الأمور دراسة متأنية وصحيحة، فوعد بأشياء لم يكن قادرًا على أن ينفذها، أيًا كانت الأسباب، فالمسؤول حينما يعد ولا يفي بوعده تهتز الثقة بينه وبين الناس، فلا تصدق كلامه بعدها، لأنه هدم الجسور بينه وبينهم حين وعدهم فأخلف وعده.

ورد في كنز العمال: عن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «العِدَة - يعني الوعد - دَين، ويل لمن وعد ثم أخلف، ويل لمن وعد ثم أخلف، ويل لمن وعد ثم أخلف، كرّرها ثلاثًا»[٣٦١]، وتكرار رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لهذه الجملة ثلاث مرات، دليل على خطورة هذا الأمر، وعلى حجم الآثار المدمرة للوعد الذي لا يُنفّذ من قبل المتصدي والمسؤول، وعلى أهمية موضوع إخلاف الوعد وخطورته.

بل أحيانًا في المنطق الديني قد يكون الوعد أخطر وأهم وأشد من الدَّيْن، كما ورد ذلك في كنز العمال أيضًا: عن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «الواعد بالعدة مثل الدين أو أشد»[٣٦٢] أحيانا يكون الوعد أشد من الدَّيْن في رقبة الإنسان.

وفي نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «المسؤول حرّ حتى يعد»[٣٦٣]، فالمسؤول حرّ ما لم يعد، فإن وعد أصبح أسيرًا؛ لأنّ عليه أن ينفذ وعده.

وفي نهج البلاغة أيضًا في خطاب التنصيب في المدينة، قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ذمتي بما أقول رهينة»، ذمتي مرتهنة بكلامي، «وأنا به زعيم»، كل ما أقوله لكم فأنا أقصده، وليس عندي كلام فضفاض أحشوه، «والله ما كتمت وشمة»، الوشمة تعني نقطة، يعني لم أخفِ عنكم سرًا بمقدار نقطة، فقد شاركتكم الأسرار، شاركتكم الظروف، ولم أخفِ عنكم شيئًا، فأنا مسؤول عنكم، وأنتم أصحاب القرار، والمعنيون بقيادتي وإدارتي،

٣٦١. كنز العمال ٣: ٣٤٧ ح٦٨٦٥.

٣٦٢. كنز العمال ٣: ٣٤٩ ح٦٨٧٦.

٣٦٣. نهج البلاغة ٤: ٧٩ الحكمة٣٣٦.

فـلا أخفيكم شـيئًا، «ولا كذبت كذبـة»[٣٦٤]، ولم أبالغ يومًا فـي كلام غير صحيح وخلاف الواقع أبدًا، فقد قلت الحقيقة كما هي بلا رتوش، ولذلك يجب على المسؤول أن لا يقطع وعدًا يكون عاجزًا عن تنفيذه.

وفـي شـرح غـرر الحكم: قـال أمير المؤمنيـن عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا تعد عدة لا تثق من نفسـك بإنجازهـا»[٣٦٥]، حتـى لـو كنت ناويًا الإنجـاز فلا تثق بقدرتك عليـه، إذا لم تكن عندك ثقة بالإنجـاز فـلا تعد، إلا أن تكون متأكـدًا وواثقًا من أنك قادر على الإنجاز. أنا خادمكم حين يأتي أحدهم ويطلب مني شيئًا ما، أقول له: لا أعدك بالتنفيذ، ولكن أعدك بالمتابعة، لأنها بيدي وأنا قادر عليها، أما ذاك المسـؤول، اقتنع أم لم يقتنع؟، ما هي الضوابط والتعليمات والقوانيـن؟، مـا هي رغبة المسـؤول؟، ما هـو ضميره؟، فلا علم لي بها، لئـلا تأتيني غدًا وتقـول لـي: وعدت ولم تفِ بوعدك، أنـا لا أعدك بالتنفيذ، ولكن أعـدك بالمتابعة، وهو الأمر الذي أنا واثق منه ومتأكد منه.

فما كنت واثقًا منه أيها المسـؤول ومتيقنا من أنك قادر على أن تفعله يمكنك أن تعد به، أما الشيء الذي أنت غير متأكد من إنجازه فلا تعد به وإن كنت تحتمله، أعطِ وعدًا بالمتابعة ولكـن لا تعـد بالإنجاز، فلعله يحدث أمر يحول بينك وبيـن الإنجاز؛ «لا تعدنّ عدة لا تثق من نفسك بإنجازها».

وفي منطق علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا إذا وعدت بشـيء فيجب أن توفر مسـتلزمات تنفيذه؛ لأنّ التنفيذ يتطلب منك أشـياء ومسـتلزمات تكون مقدمة لتنفيذ الوعد، يجب أن تهيئها، فحينما يعـد المسـؤول النـاس بتوفير الكهرباء، فـإنّ ذلك يسـتلزم وزيرًا كفـوءا، ومنظومة نزيهة، وخبرات دولية، وميزانيات مناسـبة، وضربًا للمافيات والعصابات ومكافحة الفسـاد في هذا القطاع، يسـتلزم إيقاف المحسوبيات والمنسـوبيات، فطالما وعدت بتوفير الكهرباء فيجب أن توفر كل هذه المستلزمات لكي تتوفر الكهرباء.

ورد في شرح غرر الحكم: قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اذكر وعدك»[٣٦٦]، لا تعد بوعد ثـم تنسـاه، فيذهـب الوعد كأن شـيئا لم يكن، بل اجعلـه دائمًا نُصب عينيـك، تحت دائرة الضوء، اكتبه على مكتبك، علقه على الجدار، البيانات الحكومية التي قدمتها وأخذت الثقة على أساسـها، اكتبها وضعها على مكتبك أو علقها على جدار غرفتك، لتراها كلما دخلت

٣٦٤. نهج البلاغة ١: ٤٥ الخطبة ١٦.

٣٦٥. شرح غرر الحكم ٢: ١٧٢.

٣٦٦. شرح الغرر ٢: ١٧٢.

غرفتك، فتتذكر ما وعدت به، وأنا أنصح نفسي وأنصحكم جميعًا، كل مسؤول في أي موقع من مواقع المسؤولية، واجباته، وعوده للناس، عليه أن يكتبها على ورقة ويضعها أمامه؛ «اذكر وعدك»، عجيبة هذه الحكمة؛ عندما تعد بشيء فاجعله تحت دائرة الضوء لئلا تنساه.

وورد في كتاب الكافي: عن هشام بن سالم، قال: «سمعت أبا عبد الله عَلَيهِ السَّلَامُ يقول: عدة المؤمن أخاه نذر»، أي هي نذر حقيقة، فكما أن النذر يجب الوفاء به، فكذلك الوعد يجب الوفاء به، «لا كفارة له»، حنث اليمين له كفارة، فمن حلف يمينًا وحنث به عليه أن يدفع كفارة، وكذلك من نذر نذرًا ولم يستطع أن يفي به تجب عليه الكفارة، ولكن إخلاف الوعد لا كفارة له، فماذا يفعل؟ هل ينفع أن يستغفر الله ألف مرة؟ لا ينفع، فما دمت قد وعدت فيجب أن تفي بوعدك، ولا كفارة للخلف بالوعد، «فمن أخلف فبخلف الله بدأ»، إذا أخلفت وعدك الذي قطعته لأحد من الناس، فإنك قد أخلفت الوعد مع الله (سبحانه وتعالى)؛ لأنّ وعدك مع الناس التزام عند الله (سبحانه وتعالى)، «ولمقته تعرّض»، الذي يخلف الوعد مع الله يتعرض لسخط الله (سبحانه وتعالى)، «وذلك قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)»[٣٦٧]، لماذا تقول أمرًا لا تفعله، فيزيد السخط الإلهي عليك؟.

في كتاب الكافي أيضًا: عن أبي عبد الله الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ قال: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفِ إذا وعد»[٣٦٨]، ادّعاء الإيمان أمر سهل، ويحتاج إلى ما يثبت ذلك، إذ نقول نحن مؤمنون، ولكن كيف نثبت ذلك؟ فإذا كنت مؤمنًا حقيقيًا فعليك الوفاء بوعدك، فالدين المعاملة، الدين الوفاء بالوعد والعهد، الالتزام بالعهود والمواثيق، وليس فقط أداء الركعات المفروضة، وليس فقط عدم حلق اللحية ولبس المحابس، وليس فقط أن تحمل بكفك مسبحة، فهذه بعض المظاهر الدينية عند الناس، ولكن ليست هي الدين في جوهره، في عمقة، بل الدين هو التزام الصدق وحسن التعامل والتدبير والتعاطي بشكل سليم مع الناس، وتعزيز الثقة مع الناس، هذا هو الدين؛ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر»، إذا كنت مؤمنًا حقيقيًا فعليك أن تفي بوعدك، فهنا يتبين الدين؛ بالوفاء بالوعود يتبين مدى التزامك الديني.

نسأل الله (سبحانه وتعالى) أن يجعلنا من المؤمنين الملتزمين، ممن يفون بالوعود التي يقطعونها مع الناس.

---

٣٦٧. الكافي ٢: ٣٦٣ ح١.

٣٦٨. الكافي ٢: ٣٦٤ ح٢.

الآفة الثالثة

التسرع والتهاون في الأمور

(وإِيَّـاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ التَّسَـاقُطَ فِيهَـا عِنْدَ إِمْكَانِهَا، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذا تَنَكَّـرَتْ، أَوِ الْوَهْـنَ عَنْهَا إِذَا اسْـتَوْضَحَتْ، فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَـهُ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ).

تتمثـل هـذه الآفـة بحالة التسـرع فـي الأمـور، وكذلك حالـة التهاون فـي الأمور، ويأتـي التسـرع من حالات الإفراط والاندفاع الزائد، ويأتـي التهاون من حالات التفريط والإهمال، وكذلك اللجاجة؛ عندما يكون المسؤول والمتصدي لجوجًا في تحقيق أمور غير واقعية وغير موضوعية.

ومـا يقابل التسـرع هو التأنـي، وما يقابل التهاون هو الحزم، ومـا يقابل اللجاجة هو الواقعيـة، فبالتالي هذه الآفـات تعني أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يدعو المتصدي، القائد، المسؤول، المدير، إلى أن يتعامل دائمًا بتأنٍ وحزمٍ وواقعية.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

(وإِيَّـاكَ وَالْعَجَلَـةَ بِالأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا): احذر أيها المسـؤول أن تتعجل الأمور قبل أن يحيـن وقتهـا، وقبل أن تصل إلى الحـد الذي تتهيأ فيه جميع ظروفهـا اللازمة للإنجاز، كالجنين الذي تريد أمه إنجابه قبل أن تتم مدة الحمل البالغة تسـعة أشـهر، فإنه لا محالة سـيولد ميتًا، والمسـؤول الذي يتسـرع الأمور قبل أن يحين وقتها، يسـمّونه في اللهجة العامية «تشـربت»، يسـمّونه إسقاط واجب، يسـمّونه ذر الرماد في العيون. وهناك فرق كبيـر بيـن مـن يريد أن ينجز عمـلًا متقنًا، ومن يريـد ضجة إعلامية ليقـول للناس: إنني أنجزت هذه الأمور، في الوقت الذي كان يجب أن تُطبخ فيه حتى تنضج، وتُدرس دراسة عميقـة، ثـم بعد ذلك يتخذ فيها القرار، لتأخذ حيز التنفيد. إذن فالعجلة تفسـد الأمور؛ (وإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا)، قبل أن تصل إلى وقتها ونضجها المطلوب.

(أَوِ التَّسَاقُطَ فِيهَا): أو من جانب آخر التهاون فيها.

(عِنْـدَ إِمْكَانِهَـا) : عندما تصـل إلى لحظة الإنجـاز ، عندما تتوفر الظروف المناسـبة لتحقيـق الأمر ، فإنّ التهاون فيها ، والتباطؤ عنها ، مفسـدة لهـا أيضًا ، فتعجّل الأمور أمر غير سليم ، والتباطؤ بالأمور والتهاون أمر غير سليم وغير مقبول أيضًا .

(أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا) : أو تصر على الشـيء بشـكل غير منطقي وغير معقول ، كأن يأتي مسؤول ويجمع العاملين في مشروع معين ، ويقول لهم : كم بقي للمشروع حتى ينتهي ؟ فيقولون : بقي شـهران ، فيقول لهم : سـآتي بعد أسـبوعين وأرى المشروع كاملًا ، وإلا سأعلقكم جميعًا على حبل المشنقة ، أو أطردكم من وظائفكم . ليس هكذا تُدار الدولة ، فإنّ اختزال العمل من شـهرين إلى أسبوعين يعني تجاوز أعمال فنية وهندسية وإجراءات يجب أن تُعتمد ، وإنهاء المشروع في أسبوعين يعني تجاوز الرصانة ، والدقة ؛ لأنّه إنجاز ليس ضمن السـياق المطلوب ، وسـيخرب العمل ، فإنجاز المشـاريع ليس بالعنتريات ، وينبغي أن يكون وقت إنجازها محسـوبًا بشـكل دقيق ، واختزاله يربك العمل ، ويخرجه عن سياقاته الصحيحة ، وينتج مضاعفات سيئة ، فالمسؤول عندما يلح في قضية لا يمكن تحقيقها ، فهذا أمر غير صحيح ، ومن شأنه أن يفسد العمل ، فالمسؤول أحيانًا يعتقد بأنّ الإدارة الصحيحـة تكمـن في الضغط علـى العاملين ؛ بأن يطلب منهـم نتائج غير ممكنة التحقق في وقت ما ، وفي ظرف ما .

(إِذَا تَنَكَّـرَتْ) : إذ كانـت لـم تزل متنكـرة ؛ غامضة ، غير واضحـة ، غير معروفة ، لا يُعرف وجه الصواب فيها ، لا تُعرف البوصلة فيها ، فإن صحة سير العمل تكمن في التريث إلى حين انكشـاف الغموض ، كما لو أُرسـلت التربة للفحص ، فينبغي الانتظار إلى حين وصول نتيجة فحص التربة ، لنرى هل ظروف الأرض صالحة لبدء تشـييد المشـروع ؟ ، ولكن المسـؤول يطلب من العاملين البدء بالمشـروع وعدم الانتظار ، مما يسـبب نتائج كارثية لو جاءت نتائج الفحص بعد ذلك بعدم صلاحية التربة لإنشاء المشروع .

إذن إذا كانـت الأمـور غامضـة في قضية هندسـية ، أو سياسـيّة ، أو اجتماعيّة ، أو اقتصادية ، فاللجاجة في سـرعة إنجاز العمل دون التحري والتقصي والتأكد من صحة المسـارات والإجراءات والخطوات ، مضيعة للعمل ومفسدة له ، فاللجاجة في العمل مع الغموض خطأ فادح ينبغي تلافيه .

(أَوِ الْوَهْـنَ عَنْهَـا) : في المقابل إذا كانت الأمور واضحـة ؛ كانت نتائج فحص التربة إيجابيـة ، وكان كل شـيء جاهزا ، فـلا معنى للانتظار ، وينبغي البدء بالمشـروع ، وترك التسـويف والمماطلة والانتظار لما بعد شـهر أو شهرين وهكذا ، لماذا التأخير وكل شيء

جاهز؟ وهنا يحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من الوهن، والضعف، والإهمال، وعدم المبادرة لإنجاز العمل بعد الوضوح.

(إِذَا اسْتَوْضَحَتْ): يعني إذا وضحت وانكشفت الأمور، وأصبح الموقف واضحًا، فلماذا التماهل وعدم البت بالأمور؟ كما حصل في التشكيلة الوزارية الحالية التي ينقصها سبعة وزراء، وعندما يُطلب من رئيس الوزراء المبادرة إلى تقديم الأسماء إلى مجلس النواب لأخذ الثقة لإكمال الحكومة، يقول: كلا، الأفضل أن ننتظر إلى الشهر المقبل، لماذا الشهر المقبل؟ أو يقول: الأفضل الانتظار إلى ما بعد العيد، لماذا بعد العيد؟ لماذا لا تسرع الآن بإنجاز هذا العمل ما دامت ظروفه مهيأة؟ إذن فاللجاجة في شيء لم ينضج بعد خطأ، وكذا الوهن والتكاسل والضعف عن شيء ناجز خطأ أيضًا.

(فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ): ضع كل شيء في مكانه، أنجز كل أمر بالشكل الصحيح السليم.

(وَأَوْقِعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْقِعَهُ): تأكيد لما سبق؛ لخطورته وأهميته ووجوب بالغ العناية به، وهو أمر دقيق يحتاج إلى تقدير خبير لا يحسنه كل أحد.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

تجنب العجلة والتسرع في الأمور

الحكم أمانة بيد المنظومة القياديّة المسؤولة، ولذا يجب على المسؤول أن تكون قراراته وخططه وسياساته وإجراءاته مدروسة، لكي لا يندم عليها، ولا يؤدي إلى أخذ المنظومة القياديّة إلى إجراءات خاطئة، فالقيادة ليست موقعا لقرارات متسرعة وعجولة توقع الإنسان في مطبات ومشكلات، بل يجب أن تدرس الأمور دراسة متأنية في اتخاذ القرار وفي وضع الخطط الناجعة لتنفيذه، والمباشرة بالتنفيذ والإقدام على الأمر يجب أن تخضع لدراسة علمية متقنة رصينة، يتأكد من خلالها أن هذا القرار صحيح، وأنّ هذه الخطط دقيقة، وأنّ التنفيذ سيتم بأفضل ما يكون، ولذا يجب أن تُجرى استشارات عميقة لخبراء حقيقيين ومختصين، ويجب أن يكون هناك تقييم شامل لكل تداعيات هذا الإجراء، فمثلًا تُطرح مقترحات عديدة لمواجهة وباء كورونا، يدعو بعضها إلى اتخاذ إجراء حظر شامل، وبعضها إلى اتخاذ حظر جزئي، ويقترح آخرون الحظر المناطقي،

ويقترح آخرون تخفيف الحظر الجزئي بأن يكون من العاشرة ليلًا إلى السادسة صباحًا، بدلًا من السادسة عصرًا، من أجل فتح المجال للناس بالحركة بحرية أكبر، ويجري تداول أسباب وتداعيات كل مقترح من أجل الوصول إلى الإجراء الأمثل، فتُجرى دراسة واستقصاء شامل واستشارات دقيقة من مختصين، ونحتاج إلى تقييم شامل للآثار الاجتماعيّة، والسياسيّة، والخدمية، والنفسية على الناس، قبل أن يُتخذ أي قرار، ومن دون ذلك فالسير سيكون عشوائيًا؛ من غير تخطيط، أو دراسة، أو تدقيق، أو استشارة، وفيه مهلكة المنظومة القياديّة، وستحل الكارثة وتنهار المنظومة بقرار خاطئ يأخذها إلى الهاوية، أو أخطاء كارثية قد يصعب حلها ومعالجتها وتداركها.

نرى في بلادنا أحيانًا أنه يصدر أمر ديواني في شيء ما، وبعد ساعتين يصدر أمر يلغي الأمر الأول، ساعتان وليس سنتين! فما هذا التخبط في اتخاذ القرارات؟ وما هي الصورة التي تعكسها هذه القرارات والمواقف؟ وكل كتاب يذهب إلى عشرة أماكن؛ إلى كل الجهات المعنية، وكل ساعة يأتي كتاب ينقض الآخر، وهذا يكشف عن حالة من التخبط، وعن حالة من عدم الإدراك وعدم الدراسة الصحيحة والعميقة قبل اتخاذ القرار؛ التخبط في التعليمات، والإجراءات، والسياسات، والخطوات، وحتى على مستوى التشريعات؛ تشريع قراءة أولى وقراءة ثانية ولجان لكي يصوب التشريع، وعندما يُقر تقوم قيامة الجهة المستفيدة، فهل يجوز أن يقرّ قانون لا يُعرض على الجهة المستفيدة؟ وهل يجوز لمن يكتب تشريعات أن يجلس في غرفة مظلمة، ولا يتشاور مع الجهات المستفيدة؟ فمثلًا عندما يُراد كتابة قانون للمحامين، فينبغي التشاور مع نقابة المحامين بشأن رأيهم بمختلف فقرات القانون، قبل إقراره وتشريعه، وهكذا الأمر مع جميع الأصناف الأخرى التي يراد تشريع قانون لها، فأي تشريع يجب أن يلحظ الجهة المستفيدة، لكي يستطيع أن يحل مشكلاتها ويعالج تقاطعاتها ويطور أوضاعها، أما هذا التخبط وهذه العشوائية وهذا التعجل، فهي مضرة جدًا بالمنظومة القياديّة.

ولكن لا بد من التأكيد على ضرورة التمييز بين أمرين؛ بين السرعة والتسرع، فالتسرع أمر خاطئ، أمر مدان، آفة من آفات التصدي، أما السرعة في إنجاز العمل بعد اكتمال شروط انجازه، فهذا أمر مطلوب، فالسرعة جيدة، ولكن التسرع خاطئ.

(إِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا)، تحذير من العجلة بالأمور قبل أوانها، ولكن عندما جاء أوانها، ودرستها وناقشتها ووصلت إلى استنتاجات كاملة، فهنا يجب أن تباشر بالمشروع، ولا تنتظر. التسرع يكشف عن قلة حكمة، عن عدم إمعان النظر، عن عدم بُعد الأفق، عن عدم استشراف التأثيرات السلبية لهذا القرار.

ورد في نهج البلاغة من حكم أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «من الخرق المعاجلة قبل الإمكان»، من الحماقة التسرع قبل توفر الظروف الملائمة.. من السفه اتخاذ موقف قبل التهيؤ والاستعداد له.. من قلة العقل أن تتخذ خطوة تهيّج مشاعر الناس ضدك، وعليك أن تمهد الأرضية الملائمة، ليأتي القرار مقبولًا، ويحظى بغطاءات شعبية، وربما تكون الناس متفهمة، ولكنك أيها المسؤول لماذا تسلك بالقرار مسلكًا لا أحد يعرف ما هو؟ وكيف هو؟ فتنشأ اعتراضات توجب سحبه، هذا كله إضعاف للمنظومة الحكومية والقياديّة.

«والأناة بعد الفرصة»[369]، يعني من الحماقة التأني بعد الفرصة، فإذا توفرت الفرصة وكانت الظروف مؤاتية، وكل الإجراءات سليمة، وكل الدراسات كاملة، فلا يجوز لك الانتظار، ويجب عليك المبادرة؛ لأنّ «الفرصة تمر مر السحاب»[370] كما في حكمة أخرى لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فأسرع ما دام الوقت ملائما والأجواء مهيأة لاتخاذ القرار.

ورد في بحار الأنوار: في وصية أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنه الحسن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وأنهاك عن التسرع بالقول والفعل»[371]، التسرع بالقول أو بالفعل خطأ، فعليك أن تسأل وتدقق وتنظر، فربما تظهر لك كلمة أو رقم أو شيء ما، ثم لا يكون قولك أو فعلك صحيحًا ولا دقيقًا، فهذا من شأنه أن يضعفك إلى حد كبير، والتسرع في الفعل هو التعجل في الأفعال بالطريقة التي تفسد العمل، وهذا لا يصح.

وورد في شرح غرر الحكم: قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «العجول مخطئ وإن ملك، والمتأني مصيب وإن هلك»[372]، أي حتى لو تحقق الغرض يبقى العجول مخطئًا؛ لأنّه مخطئ بآليته، فقد تمر الأمور بخير في المرة الأولى، ولكنه سيقع في مشكلة في المرة الثانية، فإذا نجحت الأمور صدفة، بالرغم من التعجّل بلا دراسة، بأن عمل شيئًا وأتى بنتيجة إيجابية، فمع ذلك يبقى مخطئًا؛ لأنّ الآلية خاطئة، ولا يمكن بآليات خاطئة أن تتصور الحصول على نتائج طيبة وصحيحة، وإن حصل مرة صدفة وخدمته ظروف معينة، بأن تعجّل في أمر والله (سبحانه وتعالى) أتى بها صحيحة؛ كمن أغمض عينيه وعبر الشارع، وصدفة لم تدهسه سيارة، فلا يستطيع أن يبني عليها مرة أخرى، ويغمض

٣٦٩. نهج البلاغة ٤: ٨٤ الحكمة ٣٦٣.

٣٧٠. نهج البلاغة ٤: ٦ الحكمة ٢١.

٣٧١. بحار الأنوار ٦٨: ٣٢٩ ح٦.

٣٧٢. شرح غرر الحكم ١: ٣٢٢.

عينيه مرة ثانية ويعبر الشارع، فاحتمال تعرضه للدهس وارد جدًا، فالآلية خاطئة حتى لو جاءت النتيجة صحيحة، لذلك هو مخطئ.

«العجول مخطئ وإن ملك»، وإن حقّق ما يريد، «والمتأني مصيب»، الذي يدرس الأمور، الذي يدقق الأمور مصيب، «وإن هلك»، عندما درسها ودقق فيها ورآها صالحة، ثم قرر الدخول فيها والإقدام عليها، ولكنه مع الأسف لم يحصل على النتائج المرجوة منها، ولم تثمر، ولم تنتج، وفشل المشروع، وبما أنه استفرغ جهده فسيكون ضميره مرتاحًا، ولا يلوم نفسه؛ لأنه اتّبع الآليات الصحيحة، وهذه الآليات إذا أخفقت هذه المرة، فإنها ستنجح معه في المرات القادمة، أما آليات العجلة فإنها وإن نجحت معه مرة، ولكنها ستفشل معه في المرات القادمة، فالتعجل خطأ وإن أصات الهدف مرة، والتأني صحيح وإن أخطأ الهدف مرة.

وورد في شرح غرر الحكم: قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أصاب متأنٍ أو كاد»، المتأني إما أن يصيب الهدف، أو يكاد يصيبه، أي كاد يقترب من الهدف، «وأخطأ مستعجل أو كاد»[٣٧٣]، والمستعجل يخطئ الهدف أو يكاد يخطئه وإن أصاب، فهو قريب من الخطأ، ولذا يجب الدقة في هذا الأمر.

وفي شرح غرر الحكم: قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «العجل يوجب العثار»[٣٧٤] العثار من العثرة، أي العجلة توجب العثرة والزلة.

وفي شرح غرر الحكم أيضًا: «مع العجل يكثر الزلل»[٣٧٥]، مع التسرع يزيد الزلل، تزيد الإخفاقات، تزيد الأخطاء.

وورد في شرح غرر الحكم: قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «العجل قبل الإمكان»، يعني قبل التمكن من حيثيات الأمر، وقبل توفير الظروف المناسبة، «يوجب الغصة»[٣٧٦]، يوجب الألم والحسرة، عندما تتخذ قرارًا عجولًا وتخطو خطوة متسرعة فتفشل، فلا يبقى لك إلا الألم والغصة والحسرة.

وفي بحار الأنوار: قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مع التثبت تكون السلامة»، عندما تدرس الموضوع وتتحرى عنه وتدقق به وتتثبت منه يكون في ذلك السلامة والوصول

---

٣٧٣. شرح غرر الحكم ١:٣٤١.

٣٧٤. شرح غرر الحكم ١:١١٨.

٣٧٥. شرح غرر الحكم ٦: ١٢١.

٣٧٦. شرح غرر الحكم ١:٣٥١.

إلى النتائج، «ومع العجلة تكون الندامة»، وعندما تتسرع تندم ولا تتحقق النتائج، «ومن ابتدأ بعمل في غير وقته»، بدأ في العمل دون أن يوفر ظروف نجاحه، «كان بلوغه في غير حينه»[٣٧٧]، فسيكون وقت قطاف النتائج غير مناسب، أي سوف تصل لهذا الأمر ولكن ستقطف ثمره قبل نضوجه، فلا تستطيع أن تستفيد منه، كقطف العنب في أول ظهوره، ويسمى الحصرم، فهو لا يؤكل، ويحتاج إلى بقائه على أشجاره شهرا أو شهرين ليتحول إلى عنب لذيذ، وحينئذ يحين أوان قطافه، ولكن عندما تقطفه متعجلًا قبل وقت نضوجه تكون قد أفسدته، فلا تستطيع أن تأكله، ولم تتركه حتى وقت نضوجه ليكون صالحًا للأكل.

وجاء في دعاء الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في يوم عرفة: «وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجّلت»[٣٧٨]، الطلب من الله عز وجل أن لا نحب تعجيل ما أخّر، ولا تأخير ما عجّل، أي يا إلهي، لا تحبب إلينا تعجيل الأمر الذي لم يحن وقته بعد، ولا تبغّض إلينا تأخير الأمر الذي حان وقته؛ لأنه ربما كانت هناك مصلحة في التأخير، أو مصلحة في التعجيل، فلا نتمنى أن يتحقق الآن الأمر الذي أخّرته يا إلهي، أو يتأخر الأمر الذي عجّلته، وهذا الشيء مهم جدا؛ أن تتحقق الأمور في أوقاتها المناسبة.

وورد في كتاب بحار الأنوار: عن الإمام الجواد أبي جعفر الثاني عَلَيْهِ السَّلَامُ، عن آبائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال: «قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم»[٣٧٩]، التدبير والتخطيط والدراسة والاستشارة قبل العمل تؤمنك من الوقوع في الندم بعد الفعل.

وفي بحار الأنوار أيضًا: عن الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، عن آبائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهذه من روايات السلسلة الذهبية التي يرويها إمام عن إمام عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قال: «إنّ رجلًا أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله أوصني، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: فهل أنت مستوصٍ إن أوصيتك؟»، استفهام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من السائل عن مدى التزامه بالنصيحة التي سيقولها له، دليل على عدم التزام الناس بالنصائح التي يعرفونها، ويقال إن مجموعة من الناس جاؤوا إلى باب

---

٣٧٧. بحار الأنوار ٦٨: ٣٣٨ ح ٣.

٣٧٨. إقبال الأعمال ٢: ٧٨.

٣٧٩. بحار الأنوار ٦٨: ٣٣٨ ح ١.

أحـد العرفـاء، فلم يفتح لهم البـاب، فمكثوا عند الباب وهم يلحـون بطلب النصيحة، ولـم يبرحوا حتى استجاب لهم وفتح الباب، وقال لهم: إخوانـي أنصحكم بأن تعملوا بالنصائح السابقة التي سمعتموها.

البعـض يحـب اسـتماع النصيحة، ولكنه لا يعمل بها، وبالتالـي فهي لا تترك أثرًا في حياتهم، فالإنسـان عندما يسـتنصح الآخرين ينبغي أن يسـأل نفسـه: هل سأعمل بهذه النصيحة؟ ولما كان الناس غافلين عن ذلك، سـأله رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِۦوَسَلَّمَ: «فهل أنـت مسـتوص إن أوصيتك؟»، أتيت تطلب نصيحة، تطلـب وصية، فإذا أعطيتك إياها فهـل سـتعمل بها؟ «حتى قال ذلـك ثلاثًا»، أي أعادها رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِۦوَسَلَّمَ عليه ثـلاث مـرات، «في كلهـا يقول الرجل: نعم يا رسـول الله»، وتكرارها يعني أن رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِۦوَسَلَّمَ يـرى بعيـن الباطـن أن هذا الرجل ليس أهلًا للعمـل بالنصائح، وأنه يريد أن يسـمع فقط، «قال: نعم يا رسـول الله، فقال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِۦوَسَلَّمَ: فإني أوصيـك إذا أنـت هممـت بأمر فتدبر عاقبتـه»، انظر ما هي نتيجته؟ ما هـي عاقبته؟ تدبر فيه، دقق فيه، ادرسـه جيدًا، «فإن يكن رشـدًا فأمضه»، إذا رأيته جيدًا ونافعا لك، وفيه رشدك ومصلحتك، فاعمل به، «وإن يكن غيًّا فانتهِ عنه»[٣٨٠]، أما إذا رأيت أنه لا يحقق مصلحتـك الدنيويـة ولا الأخرويـة، فلا تمضه واتركه ولا تعمل بـه، فكل عمل عزمت القيام به فعليك أن تدرسه وتتأمل فيه، فإن رأيت فيه مصلحتك ما لم يكن معصية فاعمل بـه، وكـذا كل كلمة تريد أن تتفوه بها عليك أن تدقق فيها وتنظر إلى تبعاتها وآثارها، قبل أن تنطـق بهـا، فإنك إن نطقت بها، فلن تسـتطيع أن ترجعها، كالماء الذي ينسـكب من الإناء، فلا تستطيع له جمعًا.

وفيـه أيضًا: عـن أبي جعفر الباقر عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، قال: «قال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِۦوَسَلَّمَ: إنمـا أهلـك الناس العجلة»، «إنما» أداة حصر، يعني أن السـبب الوحيد في هلاك الناس هو العجلة والتسرع، «ولو أن الناس تثبتوا لم يهلك أحد»[٣٨١]، أي لو كان الناس يدرسون الأمر الذي يريدون القيام به، ويتأكدون منه، فلا أحد سيهلك، وسوف يسيرون بالاتجاه الصحيح.

---

٣٨٠. بحار الأنوار٦٨: ٣٣٨ ح٤.

٣٨١. بحار الأنوار ٦٨: ٣٤٠ ح١١.

وفيـه أيضًا : عـن أبي جعفر الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، قال : «قال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ : الأناة من الله ، والعجلة من الشـيطان»[٣٨٢] ، التأني والتروي هبة وتوفيق من الله عز وجل للعبد ، والتأني يعني الدراسـة والتدقيق والتشـاور ، ثم الإقدام على العمل الذي عزمت عليه .

الإضاءة الثانية

الحذر من التهاون في الأعمال

إياك أن تتهاون وتتباطأ وتتكاسل حين تحين الفرصة وتتوفر الظروف ، فما دام الحديد سـاخنًا - كمـا يقولـون - فاطرقه ، ولا تنتظر شـيئا ، وبادر للعمل ، فإنـك إن تركته حتى يبرد ، لم يجدِ الطرق عليه شيئًا ؛ (أَوِ التَّسَاقُطَ فِيهَا) يعني التهاون ، (عِنْدَ إِمْكَانِهَا) ، عندما تتوفـر ظروفها ، فأقدم ولا تتأخر ، فكما أن التعجل مضر قبل الدراسـة ، فكذلك التهاون والتكاسـل في اتخاذ القرار والمضي قدمًا عند توفر الظروف ، مهلكة أيضًا ، ونرى أحيانًا بعض القادة لديهم مشـكلة التسـرع ، فكل سـاعة يتخذ قرارًا ثم يتراجع ، والبعض الآخر لديه أزمة تباطؤ ، فعندما يتطلب الأمر صدور قرار منه ، يطلب تشكيل لجنة لدراسة القضية الفلانية ، وتأتي اللجنة بأكثر من رأي ، فيبقى في حيرته مترددًا ، لا يستطيع أن يتخد قرارًا ، فيطلب تشـكيل لجنة ثانية ، أو يحولها إلى الجهة الفلانية لاسـتطلاع آرائهم فيها ، إلى أن ينتهـي وقتهـا وتضيع ، ويضيع هو معها أيضًا ، ويضيع البلد معه . إذن فالتعجل والتسـرع بالقرار مهلكة ، وكذا التباطؤ والتهاون في اتخاذ القرار بعد نضوجه مهلكة أيضًا .

والطريقـة الوسـطى بيـن التسـرع والتسـاقط ، بين التفريـط والإفراط ، بيـن التعجل والتهـاون ، هـي الطريقة المثلى في اتخاذ القرار والإقدام علـى العمل ، أي «خير الأمور أوسطها»[٣٨٣] ، كما جاء على لسان علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ .

وورد فـي حكـم علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من نهـج البلاغة : «من حلم لم يفرط فـي أمره»[٣٨٤] ، الإنسان الحليم لا يضيع الفرص ، ولا يتهاون في أمره عند حلول الوقت المناسب ، لأنّ التهاون والتكاسـل والتردد في القرار ، في الخطوة بعد نضوجها ، تؤدي إلى إخلال كبير

٣٨٢. بحار الأنوار ٦٨ : ٣٤٠ ح١٢ .

٣٨٣. عيون الحكم والمواعظ : ٢٤٠ .

٣٨٤. نهج البلاغة ٤ : ٨ الحكمة ٣١ .

في إنجاز المهام القياديّة، و«الفرصة تمر مر السحاب»[٣٨٥]، إذا لم تستثمر ذهبت منك، والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، فبادر واستفد من الفرصة.

وورد في شرح غرر الحكم: «التفريط مصيبة القادر»[٣٨٦]، إن أهم مصائب ورزايا الإنسان القادر على الفعل الذي توفرت ظروفه وتهيأت شروطه، هو التفريط والتهاون والتكاسل؛ لأنه لا يعطي للفرص قيمتها، ويُظن أنه قادر على إنجاز كل عمل متى شاء، وبضياع الفرصة يضيع العمل منه.

وورد فيه أيضًا: «الفرصة سريعة الفوت، بطيئة العود»[٣٨٧]، الفرص تضيع بسرعة، ولا ترجع إلا بعد وقت طويل، فالله تبارك وتعالى يهيىء لك فرصة في الموضوع الذي هو موضع اهتمامك الآن، فعليك المبادرة والإسراع في استثمارها، فإن لم تفعل وفاتتك فعليك الانتظار طويلًا حتى تتهيأ لك فرصة أخرى. فحين تأتيك الفرصة، ويكون الظرف مناسبًا، فأقدم بسرعة ولا تتأخر، فحينما تتوفر فرص النجاح، ظروف النجاح، لا بد من اغتنامها والمضي قُدُمًا بلا تردد، وتحمل بعض المضاعفات، ولا يوجد شيء بلا مضاعفات؛ فالعلاج الذي ينبغي لنا أن نستعمله لنعالج أنفسنا من المرض، فيه أعراض جانبية، ومع ذلك نستعمله؛ لأنّ شفاءنا مرهون باستعماله، وتحمّل العوارض الجانبية أهون من الموت، ولا يوجد شيء بلا عوارض، وأنت أيها المسؤول عندما تمتنع من اتخاذ قرار خشية الأعراض الجانبية، فمعنى ذلك أنك تعرّض البلد للموت والضياع، والمنظومة القياديّة إلى التفكك والانهيار؛ (أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ)، إذا انكشفت ظروفها، فلا تهن ولا تتباطأ ولا تتكاسل، وأَمضِ على بركة الله.

الإضاءة الثالثة

الحذر من اللجاجة في الأعمال

اللجاجة هي الإصرار على شيء غير مدروس، غامض، مبهم، وقد حذّر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الحاكم من اللجاجة في الأمر من دون واقعية، أو دراسة، بغير وجه حق، بشيء غير ممكن التحقق، إرضاء لرغبته الشخصية وبحثًا عن الأمجاد، فيأمر برفع

٣٨٥. نهج البلاغة ٤: ٦ الحكمة٢١.

٣٨٦. شرح غرر الحكم١: ٢٤٢.

٣٨٧. شرح غرر الحكم ٢: ١١٣.

هـذا ووضـع ذاك، وبناء هذا ونقـض ذاك، ويضغط على العاملين معه، والمسـاكين لا يـدرون مـاذا يفعلون، وعندمـا يرتفع صوت معترضًـا أن ما تقومون به خطـأ، يقال له: اسـكت فهذا أمر المسـؤول، وعندما يطلب من المسـؤول مناقشـة هذا القرار؛ هل كان صائبًا أو هل هذه الخطوة صحيحة؟ لا يجد آذانًا صاغية.

إنّ اللجاجـة تُخـرج المنظومـة القياديّة من مسـارها الصحيـح، وتعرضها للانحراف ومخاطـر الانهيار، سـواء كانت اللجاجة في القـرار، أو في التنفيذ، فأحيانًا يكون القرار خاطئًا ويصر عليه المسـؤول، وأحيانًا يكون القرار صحيحًا ولكن المسـؤول يصر على طريقة غير صحيحة في التنفيذ تؤدي إلى إفساد العمل.

ورد فـي نهج البلاغة من حكم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللجاجة تسـلّ الرأي»[٣٨٨]، أي تفسد الرأي وتبعده وتزيله وتذهب به.

وفـي شـرح غرر الحكـم: قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ليـس للجوج تدبيـر»[٣٨٩]، لا يملك اللجوج القدرة على التدبير، ولو كان عنده تدبير ما ركب رأسـه، واسـتبد برأيه، وأصر على قراره الخاطئ.

ولذا يحذّر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا من اللجاجة فيها إذا تنكرت، أي لا تصر على أمـر عنـد الغموض، ولا تقدم عليه إلا إذا صار واضحًـا، وحينئذ أقدم على اتخاذ القرار وتنفيذه.

واللجاجة أمر غير منطقي، وتكشف عن مشكلتين في شخصية صاحبها:

المشـكلة الأولـى: داخلية ذاتيـة، فاللجوج عنده نقص ذاتـي، ولديه عقدة حقارة؛ لذلك يدّعي أنه قادر على فعل أشياء غريبة، إذن فهو صاحب مشكلة نفسية.

المشـكلة الثانية: خارجية، لا يسـتطيع أن ينجز الأمور بسياقاتها الصحيحة، فيختار طرقًـا غير مألوفة، وغير مدروسـة، فيها تهور، فيها مجازفة، فيقحـم المنظومة القياديّة والناس الذين هو مسؤول عنهم بهذا الأمر، ويدخل القضية من غير أبوابها، وقد أمرنا الله تبارك وتعالى أن نلج إلى الأمور من أبوابها، قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[٣٩٠]، لماذا تدخل من الشـباك؟ لماذا تعمل عملًا بطريقة تخاطر به، في الوقت الذي توجد فيه آليات صحيحة توصلك للنتيجة؟.

---

٣٨٨. نهج البلاغة ٤: ٤٢ الحكمة ١٧٩.

٣٨٩. شرح الحكم ٥: ٧٩.

٣٩٠. سورة البقرة: الآية ١٨٩.

وللجاجة تبعات وتداعيات، بعضها قصيرة الأمد، أي تظهر بسرعة، وبعضها بعيدة الأمد، أي لا تظهر بسرعة، وبعضها تظهر في الدنيا، وبعضها تظهر في الآخرة، بحسب طبيعة الموضوع الذي حصلت فيه اللجاجة.

جاء في شرح غرر الحكم: قال علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «اللجاج أكثر الأشياء مضرة في العاجل والآجل»[٣٩١]، يبيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خطورة اللجاجة والعناد والإصرار، بلا منطق ولا موضوعية، وأنها أكثر شيء يضر الإنسان في حاضره وفي مستقبل أيامه.

وورد فيه أيضًا: قال علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «راكب اللجاج متعرض للبلاء»[٣٩٢]، إن الإصرار الأعمى على أمر يوقع صاحبه في المشكلات، ويعرّض نفسه لألوان المحن والابتلاءات.

وورد في نهج البلاغة من وصية لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنه الإمام الحسن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وإياك أن تجمح بك مطية اللجاج»[٣٩٣]، تجمح يعني تأخذك مطية اللجاج، فالذي يركب اللجاج يأخذه إلى الهاوية.

وفي شرح غرر الحكم: «اللجاج يكبو راكبه»[٣٩٤]، اللجاج يكسر صاحبه.

وفي ميزان الحكمة مجموعة من الروايات في هذا السياق:

منها: «اللجوج لا رأي له»[٣٩٥]، لأنه لو كان صاحب رأي لما لجّ في موضوع لا يمكن تحققه.

ومنها: «اللجاج يفسد الرأي»[٣٩٦]، كما أن اللجوج لو كان صاحب رأي فإنّ اللجاج يفسد رأيه.

ومنها: «ليس للجوج تدبير»[٣٩٧]، ومن سلبيات اللجاجة أن صاحبها لا تدبير له.

ومنها: «اللجاج ينتج الحروب ويوغر القلوب»[٣٩٨]، اللجاجة توجد جرحًا في القلب لا علاج له، لأن اللجاجة في موضوع لا يمكن أن يتحقق تورث الحسرة والألم المستمر.

---

٣٩١. شرح غرر الحكم ٢: ١٥٦.

٣٩٢. شرح غرر الحكم ٤: ٨٥.

٣٩٣. نهج البلاغة ٣: ٥٣ كتاب ٣١.

٣٩٤. شرح غرر الحكم ٢: ٣١.

٣٩٥. ميزان الحكمة ٨: ٤٨٤.

٣٩٦. ميزان الحكمة ٨: ٤٨٤.

٣٩٧. ميزان الحكمة ٨: ٤٨٤.

٣٩٨. ميزان الحكمة ٨: ٤٨٤.

ومنها : «اللجاجة تورث ما ليس للمرء إليه حاجة»[٣٩٩] ، تورط صاحبها في أمور هو في غنى عنها .

ومنها : «احذر اللجاج تنجو من كبوته»[٤٠٠] ، ترك اللجاج يؤدي إلى النجاة من عثرته .

ومنها : «مطية اللجاج تكبو»[٤٠١] ، لا بد من أن يعثر اللجوج ، ويسقط في مهوى حماقته .

ومنها : «إياك واللجاجة فإنّ أولها جهل وآخرها ندامة»[٤٠٢] ،

ومنها : «من لج وتمادى فهو الراكس» ، يعني الناكث للعهد «الذي ران الله على قلبه» ، غطى على قلبه ، «وصارت دائرة السوء على رأسه »[٤٠٣] .

ومنها : «ثمرة اللجاج العطب»[٤٠٤] العطب يعني الهلاك .

الإضاءة الرابعة

وضع الأمور والأعمال في موضعها الصحيح

أوصى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا وكل حاكم من ورائه بأن يضع كل أمر في موضعه الصحيح ؛ (فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ) ، ويستفاد من هذه الصيغة شمول التوصية لكل أمر ، فكل شيء يجب أن يضعه المسؤول في موضعه الصحيح ، وهذا العموم (كُلَّ أَمْرٍ) يشمل كل الشؤون القياديّة ؛ في اتخاذ القرار ، في التخطيط ، في التنفيذ ، في التنظيم ، في التنسيق ، في القيادة ، في الرقابة ، في التقييم ، في التطوير ، في الإشراف ، وكل خطوة ، يجب أن تُدرس دراسة مستفيضة ، وتُوضع في موضعها الصحيح ، فالقيادة ليست لعبًا ، وإدارة عدد من الناس ليست لعبًا ، بل أمر يحتاج إلى دراسة ، يحتاج إلى عمق ، يحتاج إلى رؤية ، يحتاج إلى دقة ، يحتاج إلى تأن ، ومن دونها يظهر الوهن والتفكك في المنظومة القياديّة .

---

٣٩٩ . ميزان الحكمة ٨ : ٤٨٤ .

٤٠٠ . ميزان الحكمة ٨ : ٤٨٤ .

٤٠١ . ميزان الحكمة ٨ : ٤٨٤ .

٤٠٢ . ميزان الحكمة ٨ : ٤٨٤ .

٤٠٣ . ميزان الحكمة ٨ : ٤٨٤ .

٤٠٤ . ميزان الحكمة ٨ : ٤٨٤ .

من حكم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في نهج البلاغة: «العدل يضع الأمور مواضعها»[٤٠٥]، إذا كان من العدل وضع الأمر في موضعه، فمن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ولذا كان من الواجب على الحاكم المسلم المأمور باستعمال العدل في كل أموره، أن يضع كل شيء في موضعه؛ أن يكون كل شيء محسوبا، ومدروسًا، وليست هناك عفويات وانفعالات ومزاجيات وشخصنة في القيادة والإدارة.

لاحظوا كلام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في غرر الحكم: «قدّر ثم اقطع»، أيها الخياط؛ ليس هكذا تقص القماش، ثم تعتذر لصاحب القماش أنّ الثوب قد زاد شبرًا أو نقص شبرًا، بل عليك تقدير القماش وقياسه بشكل دقيق ثم اقطع، «وفكّر ثم انطق»[٤٠٦]، لا تحرّك لسانك بكلمة لتنطق بها قبل أن تفكر فيها، وفي عواقبها، وكذا ينبغي على الإنسان أن يستبين ويدرس ويدقق ويستشير ويتحرى ويستقصي قبل أن يقوم بأي عمل.

ورد في نهج البلاغة، الخطبة الخامسة من خطب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وجاءه أبو سفيان مصطحبًا معه العباس بن عبد المطلب، بعد أن تقمص رداء الإصلاح، وجاء يحرضه على رجالات السقيفة، وكيف أنهم اغتصبوا حقه، ويعرض عليه النصرة والقيام بالسيف، ولكن عليًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعرف حقيقته، وما أضمر من نية خبيثة للإيقاع به، ثم تركه فريسة سهلة لأعدائه، الذين كانوا أقرب إلى أبي سفيان عملًا ومنهجًا من علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان كلامه حقًا أراد به باطلًا، فمن المتيقن أن أبا سفيان لا يريد الخير لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو يريد بالإسلام والمسلمين السوء، فهو الذي حارب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ طيلة عقدين من الزمن، وهو الذي جيّش الجيوش ودخل مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في حروب طاحنة منذ الهجرة إلى حين فتح مكة، وقد انكشف زيف مزاعم أبي سفيان بعد أقل من عقد من الزمن حينما سُلّمت ولاية الشام لابنه يزيد، ثم لابنه معاوية بعد وفاة أخيه يزيد، وتسلّم بنو أمية القيادة والسلطة بعد وفاة عمر، وعزلوا جميع الصحابة من السلطة، واستمر حكمهم ثمانين عامًا، إلى أن انتقم الله عز وجل منهم شر انتقام، ومزقهم شر ممزق، بعد أن عاثوا في الأرض فسادًا.

قال الشريف الرضي جامع نهج البلاغة: «ومن خطبة له عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قُبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب في أن يبايعا له بالخلافة»، والصحيح أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ ألقى هذه الخطبة على جماعة من المسلمين قد اجتمعوا أمام باب

---

٤٠٥. نهج البلاغة ٤: ١٠٢ الحكمة ٤٣٧.

٤٠٦. شرح غرر الحكم ٢: ٧٦.

داره، وكان فيهم العباس وأبو سفيان، كما جاء ذلك صريحًا في آخر هذه الخطبة المباركة التي نقلها السيد علي خان المدني في كتابه الدرجات الرفيعة، قال: «ثم نهض ودخل منزله وتفرق القوم»[٤٠٧]، ويؤيده أيضًا ما قاله الحسين بن محمد بن الحسن الحلواني - تلميذ الشريف الرضي - في كتابه نزهة الناظر؛ قال في ديباجة نقله لهذه الخطبة: «لما قُبض رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ اجتمع أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وعمه العباس ومواليهما في دور الأنصار لإجالة الرأي، فبدرهما أبو سفيان والزبير وعرضا نفوسهما عليهما... الخ»[٤٠٨] وقال في آخرها: «ثم نهض عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقال أبو سفيان: لشيء ما فارقنا ابن أبي طالب»[٤٠٩].

ويمكن الجمع بين هذه النصوص المتناقضة بأنّ هذا الاجتماع الذي رتبه العباس مع الأنصار كان في أحد بيوت الأنصار، ثم انضم إليه أبو سفيان مصطحبًا معه الزبير، ثم جاؤوا إلى المسجد النبوي حيث باب لبيت علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى المسجد - كما هو معروف - وانضم إليهم في المسجد بعض المسلمين الذين كانوا هناك، فخرج إليهم أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وألقى هذه الخطبة، أو أن عليًا كان معهم في بيت ذلك الأنصاري ثم جاؤوا جميعًا إلى المسجد. ومضمون الخطبة يدل أيضًا على أن كلامه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن حصرًا مع العباس وأبي سفيان كما يُفهم من كلام الشريف الرضي. وتركيز البعض على دور أبي سفيان مبالغ فيه، فقد كان أحد الحاضرين لا أكثر، وقال ما قال، ولكن نُقل قوله ولم يُنقل كلام غيره سوى كلام العباس بن عبد المطلب.

قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «أيها الناس شقّوا أمواج الفتن»، تشبيه لكثرة الفتن وشدتها بأمواج البحر العاتية، وهنا يطلب أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الناس جميعًا، وليس فقط من المسلمين، مما يدل على أن هذه الفتن ستعم الناس جميعًا، ولا تقتصر على المهاجرين والأنصار المجتمعين لسماع خطبته، وأنّ ما هم فيه ليس فتنة واحدة، بل هي فتن يستتبع بعضها بعضًا، بأن يشقوا أمواج الفتن، لا بالهروب منها، أو الاستسلام لها، وإنما بمواجهتها وتحديها والتماس النجاة منها، ثم يذكر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الوسيلة التي يستطيع الناس النجاة بها من هذه الفتن العارمة، فيقول: «بسفن النجاة»، فمن هم سفن النجاة؟ ولماذا عبّر عنها

---

٤٠٧. الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: ٨٦.

٤٠٨. نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ٥٥ ح٣٩

٤٠٩. نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ٥٦ ح٣٩.

بصيغة الجمع؟ ولم يستعمل هذا الاصطلاح في النصوص الدينية والأدبيات الإسلاميّة إلا في آل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

فقد روى الصدوق عن علي بن موسى الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، عن آبائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «من أحب أن يركب سفينة النجاة، ويستمسك بالعروة الوثقى، ويعتصم بحبل الله المتين، فليوالِ عليًا، وليأتم بالهداة من ولده»[٤١٠]، ورواه الحسكاني عن الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا بنفس سند السلسلة الذهبية[٤١١]، وقد جاء التعبير بصيغة الجمع؛ لأنّ كل واحد منهم هو سفينة نجاة في زمانه، فعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ هو سفينة النجاة في زمانه، ثم الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم التسعة المعصومون من ذرية الحسين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وقد عبّر عنهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بسفينة نوح، قال: «مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركب فيها نجا، ومن تخلّف عنها غرق»، رواه الحاكم النيسابوري في مستدركه عن أبي ذر، وقال: «صحيح بشرط مسلم ولم يخرجاه»[٤١٢]، أي البخاري ومسلم في صحيحيهما، وكذا رواه الطبراني عن أبي ذر أيضًا[٤١٣]، ورواه أيضًا عن ابن عباس[٤١٤]، وكذا رواه الهيثمي عن ابن عباس[٤١٥]، ورواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري[٤١٦]، وكذا رواه الهيثمي عن أبي سعيد الخدري[٤١٧]، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ[٤١٨].

«وعرجوا عن طريق المنافرة»، أي ابتعدوا عن طريق الفرقة والخلاف، أي تمسكوا بطريق الوحدة ولا تتفرقوا، وكان التزام أتباع علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الكلام هو سبب وحدة المسلمين بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

---

٤١٠. عيون أخبار الرضا ٢: ٢٦١ ح٤٣.

٤١١. شواهد التنزيل ١٣٠: ٤ ح١٧٧.

٤١٢. المستدرك على الصحيحين ٣: ١٥١.

٤١٣. المعجم الأوسط ٤: ١٠، ٥: ٣٠٦، ٥: ٣٥٥، المعجم الصغير ١٣٩: ١، ٤٥: ٣، ٣: ٤٦.

٤١٤. المعجم الصغير ٣: ٤٦.

٤١٥. مجمع الزوائد٩: ١٦٨.

٤١٦. المعجم الأوسط ٦: ٨٥، المعجم الصغير ٢: ٢٢.

٤١٧. مجمع الزوائد ٩: ١٦٨.

٤١٨. المصنف ٧: ٥٠٣.

«وضعـوا تيجـان المفاخـرة» ، يعنـي انزعوا عن رؤوسـكم تيجان التفاخـر والتعالي والتكبـر ، فقـد أُبتلـي العرب دون سـائر الأمم بالتفاخر في أنسـابهم ، فـكل قبيلة تزعم أنها أفضل من غيرها ، حتى كان هو الأسـاس الذي اسـتند إليه رجال السـقيفة في غصب الخلافـة مـن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فاحتجوا بأنهم من قريش ، عندمـا أرادها الأنصار مناصفة ، وقريـش أفضل ممن سـواها من قبائل العرب ، وعندما سـمع علـي عَلَيْهِ السَّلَامُ بذلك قال : «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»[٤١٩] يقصد نفسه المقدسة عَلَيْهِ السَّلَامُ .

«أفلح من نهض بجناح» ، جناح يعني مكامن القوة ، أي يستطيع أن يتقدم ، أن يحقق ، أن ينجز ، وهذا هو الخيار الأول الذي طرحه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للنجاة من الفتن .

وهذا كلام في غاية الخطورة ، فهنا علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يطلب النصرة لاسترجاع حقه ، وقد أدرك ابن أبي الحديد معنى هذا الكلام ، فأتى به كاحتمال أخير من احتمالات ثلاثة ، مع أن الاحتمالين الأولين غريبان وبعيدان جدًا ؛ يقول : «أفلح من نهض بجناح ، أي مات ، شبّه الميت المفارق للدنيا بطائر نهض عن الأرض بجناحه . ويحتمل أن يريد بذلك : أفلح مـن اعتزل هذا العالم ، وسـاح في الأرض منقطعًا عـن تكاليف الدنيا . ويحتمل أيضًا أن يريد : أفلح من نهض في طلب الرئاسة بناصر ينصره ، وأعوان يجاهدون بين يديه»[٤٢٠] .

وقد أيّد غرابة هذين الاحتمالين الشيخ ابن ميثم البحراني في شرحه على نهج البلاغة ؛ إذ قـال بعـد نقله لقول ابن أبي الحديد المذكور آنفًا : «ولا يخفى بعدهما ، بل الأظهر في الروايتيـن أن المعنـى : فـاز من قام بطلب الحق إذا تهيأت أسـبابه أو انقاد لما يجري عليه مع فقدها»[٤٢١] .

«أو استسلم فأراح» ، وهذا هو الخيار الثاني الذي يطرحه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للنجاة من الفتن ، فمن لم يستطع النصرة ، فعليه أن يستسلم ويرضخ للواقع ، فيريح نفسه ويريح غيره من المنازعة بلا طائل ، وذلك عند عدم الناصر .

قال الشـيخ المجلسـي في بيان هذين الخيارين : «فاز من قـام بطلب الحق إذا تهيأت أسبابه ، أو انقاد لما يجري عليه مع فقدها»[٤٢٢] ، يعني إما أن يحكم علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ويأخذ الخلافة «بجناح» ، أي تقيض له ، ويبايع كما بويع بعد أربع وعشرين سنة من هذا الكلام ،

---

٤١٩ . نهج البلاغة ١ : ١١٦ الخطبة ٦٧ .

٤٢٠ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ٢١٤ .

٤٢١ . شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني : ١٠٤ الطبعة الحجرية ، نقلاً عن بحار الأنوار ٢٨ : ٢٣٤ .

٤٢٢ . بحار الأنوار٢٨ : ٢٣٤ .

أو يستسلم فيريح نفسه أو يعتزل، ولكن أن تأتي أنت يا أبا سفيان – تريد أن تملأها دماء، فما هي الفائدة من ذلك؟.

هذه الخلافة «ماء آجن»، ماء نتن، وهو الماء الذي يتغير لونه وطعمه ورائحته.

والخلافة «لقمة يغص بها آكلها»، الحكم والتصدي والمسؤولية لمن لا يكون بقدرها وأهلًا لها، لقمة يغص بها، مثل العظم الذي يقف في مريء الإنسان، فالحكم ليس لعبًا، ولا نزهة، فهل أنت – أيها المتصدي – بقدر المسؤولية؟ هل لديك مقوماتها؟ هل تستطيع أن تنجح؟ أو ليست لديك القدرة، وستخرج عليك الناس، تسبك وتشتمك، ولا تريدك وتريد تغييرك؟.

«ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها»، الذي يجلس في موقع الحكم أو في موقع المسؤولية، وهو ليس مؤهلًا، فمثله كمثل الذي يقطف الثمرة قبل نضوجها، فلا يستطيع أن يأكلها، ويحتار بها.

«كالزارع بغير أرضه»، الذي يزرع بأرضه يعرف وضعها؛ يعرف من أين ماؤها؟، وما هو زرعها؟، أما الذي يزرع بغير أرضه، فلا يدري ما هي؟ وقد تكون سبخة، فلا يحصل منها على شيء.

«فإن أَقُلْ»، إذا طالبت بحقي، وهو حق الأمة، ووقفت بوجوههم.

«يقولوا حرص على الملك»، سيقولون انظروا إلى عليّ يبحث عن كرسي الحكم، فلو وقف أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وطالب بحقه لقالوا معركة كراسي؛ يريد الحكم والسلطة.

«وإن أسكت يقولوا جزع»، خاف علي بن أبي طالب، وليس هو بقدر المسؤولية.

«جزع من الموت»، خائف على نفسه، يخاف أن يقتلوه.

«هيهات بعد اللتيا والتي»، بعد كل تلك الشدائد التي كابدتها، كبيرها وصغيرها.

«والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه»، الموت لا يخوفني، علي بن أبي طالب لا يخاف الموت، بل يأنس به كما يأنس الطفل بثدي أمه.

«بل اندمجت على مكنون علم»، يعني انطويت على علوم وحقائق أعرفها.

«لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة»[٤٢٣]، لحدث عندكم اضطراب، وهو تشبيه بالحبل عندما ينزل في البئر العميقة، وتعلمون أنه كلما كانت البئر أعمق فهي تحتاج إلى حبل أطول، وتكون حركته أكثر، فيتولد اضطراب شديد للحبل، وهنا يمثل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه لو باح لهم بما يحفظه في قلبه من أسرار ومعارف

---

٤٢٣. نهج البلاغة ١: ٤٠ الخطبة ٥.

وحقائق، لحدثت لهم حالة من الاضطراب أشـد من اضطراب الحبل في البئر العميقة، ولـذا فإن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقدر المواقف بشـكل سـليم وصحيـح، ولا يرتضي أن ينساق وراء أبي سفيان وفلان وفلان ويمزق الأمة.

الإضاءة الخامسة

تنفيذ الأمور

يجـب أن يتـم تنفيذ الأمور في ظروف وشـروط ملائمة؛ قـال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (وَأَوْقِعْ كُلَّ أَمْـرٍ مَوْقِعَهُ)، هيئ أولًا الظروف والأسـباب، ثم أقدم علـى الخطوة حين تكون ظروفها مناسـبة، فلا بد من الالتفـات إلى الظروف الاجتماعيّة والسياسـيّة والاقتصادية والأمنية والنفسـية، ولا بد من مراعاة ظروف الناس فـي الخطوات والقرارات والإجراءات، ولا بـد من مراعـاة عنصر المكان وعنصر الزمان في تنفيذ الأمور، وهذه مسـألة مهمة جدًا؛ أيـن تريـد أن تتخذ هذا القرار؟ ومتى تريد أن تتخـذه؟ إذ من الممكن أن يكون هذا القرار صائبًا في وقت، ولا يكون صائبًا في وقت آخر، ويمكن أن يكون صائبًا مع شـعب لديه ثقافة معينة، ولا يكون صائبًا مع شعب آخر ذي ثقافة مختلفة، فدراسة كل هذه الظروف، واختيار الوقت والمكان المناسـبين لأي خطوة عند اتخاذ القرار وتنفيذه مسـألة في غاية الأهمية.

لقد مر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد وفاة رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بظروف صعبة جدًا، وكان أمامـه طريقـان أحلاهما مـر، وكان عليه أن يختار أحدهما؛ إمـا أن يذهب باتجاه الصراع المسلح لاستعادة الحق المغتصب، وحينئذ ستراق الدماء، وستبدو القضية كأنها معركة كراسـي، كما بيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك في الخطبة الخامسة من خطب نهج البلاغة الآنفة الذكر، أو يتماشى مع الواقع المفروض، وسيبدو ضعيفًا وغير مهتم بأمور المسلمين، وما إلى ذلك.

لاحظوا وصف أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لهذا الأمر، كما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة، من خطبة له عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مسيره إلى البصرة، في طريقه لحرب الجمل، يقول: «وروى الكلبي: لما أراد علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المسـير إلى البصرة، قام فخطب الناس، فقال بعد أن حمد الله وصلى على رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: إن الله لما قبض نبيه استأثرت علينا قريش بالأمر»، وضعت قريش يدها على الخلافة واستأثرت بها.

«ودفعتنا عن حق نحن أحق به من الناس كافة»، أنا أحق من جميع الناس بالخلافة بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وليس لغيري أي حق فيها، وعندما سلبت قريش هذا الحق رأيت نفسي أمام خيارين.

«فرأيت أن الصبر على ذلك»، القبول بهذا الأمر الواقع والتماشي معه.

«أفضل من تفريق كلمة المسلمين»، أفضل من أن أفرق كلمة المسلمين، وما يستتبع هذا التفريق من خصومات ونزاعات تؤدي إلى الاقتتال.

«وسفك دمائهم»، قد يستمر هذا القتال وتكون نهايته مفتوحة، «والناس حديثو عهد بالإسلام»، لأنّ الغالبية العظمى من الناس في الجزيرة العربية قد دخلت الإسلام بعد عام الفتح، واعتنقت الإسلام جماعات جماعات، وعلى نطاق واسع جدًا، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فتح مكة، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[٤٢٤]، وكان فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، وكانت وفاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في السنة العاشرة للهجرة، وعدد كبير من الناس دخلوا الإسلام في أواخر السنة الثامنة للهجرة فما بعد، والمدة بين عام الفتح ووفاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سنة ونصف السنة تقريبًا، أي أن أغلب الناس دخلوا الإسلام خلال عام ونصف، فهم لا يعرفون إلا قليلًا عن الإسلام، وإذا ما وقع اقتتال بين أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فسوف يرتد كثير من هؤلاء الناس عن الإسلام؛ لأنهم سوف يفسرونها على أن الإسلام حكم وسياسة، وليس دينًا وعقيدة، وكان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ينظر إلى هذه الحقيقة.

«والدين يمخض مخض الوطب»، يمثّل علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الدين في ذلك الوقت بالإناء المملوء بالحليب أو اللبن، فعندما يُحمل هذا الإناء يسقط شيء منه بأبسط حركة، ولذا ينبغي الحذر الشديد عند حمله، فقد يراق جميع ما في الإناء لو اختل توازن حامله.

«يفسده أدنى وهن»، أقل حركة تريق الحليب، أي أن حال الناس عند وفاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كحال هذا الوعاء المملوء بالحليب، فلم يمض على إسلام أغلبهم إلا شهور، وأقل حدث يمكن أن يجعلهم يرتدون عن الإسلام، ولاسيما أنّ الكثير منهم لم يدخل الإسلام إلا بعد أن صار للمسلمين سطوة عظيمة، وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خلال هذه الفترة القصيرة يوجه الجيوش إلى القبائل في أنحاء الجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام، وكانت الناس تدخل فيه بلا مقاومة، ولذا فإنّ أدنى ضعف ووهن يتعرض

---

٤٢٤. سورة النصر: الآيات ١ – ٢.

لـه المهاجـرون والأنصـار ربما يؤدي إلى ارتداد المسـلمين الجدد، كمـا حصل بالفعل لبعض القبائل التي ارتدت بمجرد وفاة رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

«ويعكسه أقل خلف»، يعني أن أبسط حركة يمكن أن تؤدي إلى إراقة هذا الحليب.

«فولي الأمر قوم لم يألوا في أمرهم اجتهادا»، لم يبذلوا الجهد الكافي في حسن إدارة دفة القيادة.

«ثم انتقلوا إلى دار الجزاء»، ثم ماتوا وانتقلوا إلى ربهم.

«والله ولـي تمحيـص سـيئاتهم»، الله (سـبحانه وتعالـى) كفيـل بمحاسـبتهم علـى تقصيرهم.

«والعفو عن هفواتهم»، وبيده سبحانه وحده العفو عن ذنوبهم، إن شاء عفا وإن شاء عاقـب، وأنـا علي بن أبي طالب قد نصبني الله تبارك وتعالى إمامًا للناس بعد رسـول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في غدير خم بعد حجة الوداع، وقد أخذ لي رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ البيعـة منهـم، ولكني رأيت مصلحة الناس بأن لا أنازع قريشًـا على الخلافة، والآن بعد أربع وعشرين سنة بايعني المسلمون بعد أن وصل الأمر إلى ما وصل إليه.

«فما بال طلحة والزبير وليسـا من هذا الأمر بسـبيل»، طلحة والزبير يعلمان أن ولاية الأمر حقي، وليس لهما منها شيء، فلماذا يطمعان فيها، وقاما بتجهيز الجيوش لقتالي؟ بـأي حق يفعلان ذلك؟ لماذا لا يراعيان وحدة المسـلمين؟ لمـاذا لا يحافظان على دماء المسلمين، كما فعلت ذلك طيلة هذه المدة؟ فقد تنازلت عن حقي الذي جعله الله تبارك وتعالـى لي، فلماذا لا يتنازلان عن باطلهم ويسـرحان هذا الجيـش الذي أعدّاه لقتالي؟ هكذا يقارن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بين موقفه وموقف طلحة والزبير.

«لـم يصبـرا عليّ حولًا ولا شـهرًا»، لم ينتظراني سـنة، ولا حتى شـهر، لينظرا ماذا سأعمل، وهو شبيه بموقف المتظاهرين اليوم من حكومتنا الجديدة التي لم يمض عليها إلا أيـام معدودات، في حين ينبغي إعطاؤها الفرصـة الكافية لتنفيذ برنامجها، وقد حدد أميـر المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ سـنة واحدة، وبعدها يمكـن أن يُتخذ موقف منها، إذ لا يمكن أن يعمـل الحاكـم المعاجـز بيومين أو ثلاثة، فلم يصبر طلحـة والزبير على علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لا عامًا ولا شهرًا.

«حتى وثبا ومرقا»، خرجا عليه وارتدا عن بيعته، وحملا السيف عليه.

«ونازعاني أمرًا لم يجعل الله لهما إليه سبيلًا»، الله عز وجل لم يجعل لهما الخلافة، وجعلهـا لـي مـن دون الناس جميعًا، وهذا كتاب الله تبـارك وتعالى ينطق بالحق؛ إذ قال

عز من قائل : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٤٢٥] ، وليس في القرآن آية جعلت الولاية لطلحة والزبير ، ولا لغيرهما .

«بعد أن بايعا طائعين غير مكرهين» ، وقد بايعاني على الطاعة بدون إكراه ، فالبيعة ملزمة لهما .

«يرتضعان أُمًا قد فطمت» ، يعني أن طلحة والزبير يرضعان من ثدي أم قد فطمت رضيعها ، فجف الحليب من ثدييها ، ولعله إشارة إلى المرأة التي أخرجاها معهما ، وأنها لا تنفعهما شيئًا ، وسيلقيان مصيرهما المحتوم .

«ويحييان بدعة قد أميتت» ، الخروج بوجه الحاكم العادل بدعة ، وليست سنّة ، وهذه البدعة قد أميتت .

«أدم عثمان زعما؟» ، كان شعار طلحة والزبير هو المطالبة بدم عثمان ، الانتصار لدم عثمان ، الثأر لدم عثمان من علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وكانت كلمة «واعثماناه» يتردد صداها في معسكرهم ، وعليها اجتمع الناكثون ، ولم يبرزا نواياهما الخفية ، وهي طمعهما بالخلافة ، لأنهما لو زعما أنهما أولى بها لما وجدا أنصارًا ، ولما خرجت معهما المرأة .

«والله ما التبعة إلا عندهم وفيهم» ، وهنا انتقال بالكلام من صيغة المثنى إلى صيغة الجمع ، لاشتراك المرأة معهما في تحمل تبعات قتل عثمان ، فقد عُرف عنها أنها كانت تحرض على قتله ، وتقول : «اقتلوا نعثلًا فقد كفر»[٤٢٦] والنعثل هو كثيف شعر الرأس واللحية ، وهو لقب أطلقته المرأة على عثمان[٤٢٧] ، فعواقب دم عثمان هم يتحملونها وليس أنا .

«وإنّ أعظم حجتهم لعلى أنفسهم» ، حجتهم ترجع عليهم ، فإنّ عليًا هو أبرأ الناس من دم عثمان ، ونقل الطبري أن طلحة أسرّ إلى ابن عديس قائد القوة المسلحة المحاصرة لدار الإمارة ، بأن يمنع الدخول على عثمان والخروج من عنده ، فقال عثمان : «هذا ما أمر به طلحة بن عبيد الله ، ثم قال عثمان : اللهم أكفني طلحة بن عبيد الله ، فإنه حمل عليّ هؤلاء وألبهم ، والله إني لأرجو أن يكون منها - أي من الخلافة - صفرًا ، وأن يُسفك دمه ، إنه انتهك مني ما لا يحل له»[٤٢٨] .

---

٤٢٥ . سورة المائدة : الآية ٥٥ .

٤٢٦ . تأريخ الطبري ٣ : ٤٧٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ٥١ .

٤٢٧ انظر : شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد٦ : ٢١٥ .

٤٢٨ . تأريخ الطبري ٣ : ٤١١ .

«وأنـا راض بحجـة الله عليهم ، وعملـه فيهم» ، حجة الله تبـارك وتعالى على هؤلاء الناكثيـن ، ولعله إشـارة إلى قولـه تعالى : ﴿أَطِيعُـوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُـولَ وَأُولِـي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٤٢٩] ، أو لعله إشـارة إلى البيعة التي في أعناقهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾[٤٣٠] ، وقـال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : «الصـلاة المكتوبة إلى الصلاة المكتوبـة التي بعدها كفارة لما بينها ، إلا من ثلاث : شـرك بالله ونكث الصفقة وترك السـّنة ، أما نكث الصفقة فالإمام تعطيه بيعتك ثم تقبل عليه تقاتله بسـيفك» ، قال الحاكم النيسـابوري في ذيل هذا الحديث : «هذا حديث صحيح ولم يخرجاه»[٤٣١] أي البخاري ومسلم .

ثـم يبيّـن أميـر المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنـه راض بما ينزل الله (سـبحانه وتعالـى) بهما مما يستحقان .

«فإن فاءا وأنابا» ، إذا تابا ورجعا إلى الله (سبحانه وتعالى) .

«فحظهما أحرزا» ، يكونان من أصحاب الحظ الحسن ، لأنهما سيحفظان حياتهما في الدنيا ، ويتجنبان العقاب الإلهي في الآخرة .

«وأنفسهما غنما» ، وحافظا على حياتهما ، وأعظم بها من غنيمة أن يبقيا حيين .

«وإن أبيا» ، وأما إذا أصرا على الخروج وحملا السلاح وجيّشا الجيوش للقتال .

«أعطيتهما حد السيف» ، فحينئذ لم يتركا لي خيارًا غير قتالهما .

«وكفى به ناصرًا لحق» ، الله (سبحانه وتعالى) كفيل بنصر الحق ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾[٤٣٢] .

«وشـافيًا لباطل»[٤٣٣] ويتشفى من الباطل ويهزمه ، وبالفعل فقد قُتل طلحة والزبير في هذه المعركة .

وورد في نهج البلاغة في كتاب لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لمالك الأشتر : «أما بعد ، فإن الله سـبحانه بعث محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نذيرًا للعالمين ، ومهيمنًا على المرسلين ، فلما مضـى عَلَيْهِ السَّلَامُ تنـازع المسـلمون في الأمر من بعده ، فوالله مـا كان يلقى في روعي - في

---

٤٢٩ . سورة النساء : الآية ٥٩ .

٤٣٠ . سورة الفتح : الآية ١٠ .

٤٣١ . المستدرك على الصحيحين ٤ : ٢٥٩ .

٤٣٢ . سورة النساء : الآية ٤٥ .

٤٣٣ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ٣٠٨ .

قلبي – ولا يخطر في بالي ، أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن أهل بيته» ، تزعج يعني تبعد الخلافة عن آل محمد .

«ولا أنهم منحُّوه عني من بعده» ، ولا كنت أتصور أن العرب ينافسونني على حق جعله الله ورسوله فيّ .

«فما راعني – ما أفزعني – إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه» ، يعني تسابقهم إلى بيعة الأول .

«فأمسكت يدي» ، عندما رأيت الناس ذهبت باتجاه السقيفة وبايعت من بايعت ، أمسكت يدي ولم أبايع وتركت الناس وشأنهم ، متجنبًا سفك الدماء .

«حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام» ، حتى رأيت الناس قد ارتدت عن الإسلام ، ورأيت الإسلام يضيع ، وكان سلوكهم سببًا في هروب الناس من الإسلام .

«يدعون إلى محق دين محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ» ، يريدون أن يمحوا دين محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

«فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلمًا – خرقًا – أو هدمًا ، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم» ، فتركت ولايتكم ، الخلافة عليكم ، حفاظًا على الإسلام من الضياع ، فالإسلام عندي أعظم من ولايتكم .

«التي إنما هي متاع أيام قلائل» ، الإمارة أيام قلائل وتزول ، فالكرسي لا يدوم .

«يزول منها ما كان كما يزول السراب» ، السراب هو الشيء الذي يراه الظمآن من بعيد ويحسبه ماء ، ولكن كلما اقترب منه يراه يبتعد ، فهو ليس سوى وهم .

«أو كما يتقشع السحاب» ، ربما رأينا جميعًا قطع السحاب الكثيفة تملأ أجواء السماء ، فنظن أن المطر سيهطل بغزارة ، ولكن سرعان ما يتبدد هذا السحاب ويعود الجو صحوًا .

«فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق ، واطمأن الدين وتنهنه»[٤٣٤] يعني استمر الدين وحفظ .

وورد في نهج البلاغة في خطبة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في وضع الأمور في نصابها ، والتضحية من أجل أن تأخذ الأمور مساراتها الصحيحة ، فإنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لو كان قد أصر على أخذ الخلافة بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مباشرةً لأدى ذلك إلى حرب أهلية بين المسلمين وإراقة الدماء ، وإلى ارتداد مجموعات كبيرة من المسلمين عن الإسلام ، فصبر عَلَيْهِ السَّلَامُ أربعًا وعشرين سنة يرشد الناس ، إلى أن وصلت اللحظة التي

٤٣٤ . نهج البلاغة ٣ : ١١٨ كتاب ٦٢ .

أدركت فيها الأمة أن التجربة غير ناجحة، وغير منتجة، وأنّ هناك انسدادا سياسيّا بحسب تعبيرنا اليوم، فجاؤوا وانهالوا عليه يبايعونه. انظروا إلى هذا التقدير الصحيح للموقف، وإلى المكان والزمان وتأثيرهما، وإلى القرار الصحيح، وقد كانت هذه الخطبة بعد مقتل طلحة والزبير، والخطبة السابقة كانت قبل حرب الجمل.

«بنا اهتديتم في الظلماء»، نحن الذين هديناكم من الجاهلية.

«وتسنمتم ذروة العلياء»، أي ارتقيتم إلى العلى.

«وبنا أفجرتم عن السرار»، السرار: هو اليوم الأخير من الشهر وتكون فيه الظلمة قاتمة، فيكنى به عن الظلام، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بنا أفجرتم»، بنا خرج الفجر الساطع الذي جاءكم فأضاء لكم في لحظة الظلام.

«وقر سمع»، أي صُمَّ.

«لم يفقه الواعية»، يعني الصارخة، دعاء على السمع الذي لم يفقه الواعية بالثقل والصمم، يقصد أنه لم يسمع العبر، ولم يسمع المواعظ، التي كان أثرها شديدًا عليكم، ولكن بعضكم صمٌ لا يسمعون النصيحة والعبرة.

«وكيف يراعي النبأة»، الصوت الخفي.

«من أصمته الصيحة»، من لا يسمع الصيحة كيف يسمع الصوت الخفي؟، وكيف يلاحظ العبر الخفية من لم ينتفع بالعبر الجلية الظاهرة؟.

«ربط جنان لم يفارقه الخفقان»، وهو دعاء للإنسان الذي ما زال قلبه خائفًا من الله تبارك وتعالى يخفق بالثبوت والاستمساك.

«ما زلت أنتظر بكم عواقب الغدر»، أما الذين غدروا فسيرون نتائج غدرهم.

«وأتوسمكم بحلية المغترين»، استشرفكم وأنتم ترتدون لباس وزينة أهل الغرور.

«حتى سترني عنكم جلباب الدين»، ظاهر التدين، من الصلاة، وطول اللحية، وحف الشارب، وارتداء ثوب قصير، وما إلى ذلك من ظواهرالتدين في عرف الناس، هذا الإسلام ظواهر فقط، ولأنكم متجلببون بظاهر الدين، وكنتم على حكم الإسلام، منعني ذلك عن قتالكم، فإظهاركم لشعار الإسلام عصمكم مني مع علمي بنفاقكم.

«وبصرنيكم صدق النية»، صدق نيتي وهب لي البصيرة التي بها أراكم على حقيقتكم.

«أقمت لكم على سنن الحق في جوادّ المضلة»، بهذه البصيرة جعلني الله (سبحانه وتعالى) أتعامل معكم كمسلمين ظاهريًا، ولكن باطنيًا أعرف حقيقتكم وجوهركم الغدار.

«حيـث تلتقـون ولا دليـل» ، تجتمعـون وتحاولـون ، ولكـن ليس عندكـم أي دليل تستندون إليه في هذا الأمر .

«وتحتفـرون ولا تميهون»[٤٣٥] يعني تحفرون الآبـار ولا تحصلون على الماء ، أي لا تصلون إلى نتيجة ؛ لأنكم سلكتم الطريق الخاطئ .

إذن من أهم عناصر القيادة هو أن يتم وضع الأمور في مواضعها ، وأن تُدرس المسائل بشكل دقيق ، وأن لا يكون هناك تعجّل حتى لو كان لك حق ، فأحياناً هناك مصلحة أكبر فتتنـازل عـن حقك من أجل الآخرين ، وهذا ما فعله أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وقال مقولته الشهيرة : «لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين ، وكان الجور عليّ خاصة»[٤٣٦] .

نسأل الله (سبحانه وتعالى) أن يجعلنا من السائرين على نهج أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وممـن يعي هذه الحقائـق المهمة والمعارف الجليلة ، وأن نعمل بهـا في حياتنا اليومية ؛ لنفوز ونتقدم ونتطور ونحقق الإنجاز تلو الإنجاز بإذن الله تعالى .

٤٣٥ . نهج البلاغة ١ : ٣٨ الخطبة ٤ .

٤٣٦ . نهج البلاغة ٢ : ١٢٤ كلام ٧٤ .

الآفة الرابعة

عدم المساواة بين المسؤول وعموم الناس

(وَإِيَّـاكَ وَالاسْـتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْـوَةٌ، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّـا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ، وَعَمَّا قَلِيل تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُوم)

الآفة الرابعة من هذه الآفات، التي يتحدث فيها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هي عدم المساواة بين المسؤول وعموم الناس، أو بينه وبين من هو مسؤول عنهم، مهما كانت هذه الدائرة ضيقة أو واسعة، فالاستئثار وأخذ الامتيازات الكثيرة، والتمييز بين المسؤول والآخرين، في المواقع، في أماكن الجلوس، في الأدوار، في الامتيازات الأخرى المعنوية والمادية، في ما هو حق عام للجميع؛ أمر غير محبذ وغير صحيح، وآفة من آفات الحكم.

عندما يرى المسؤول لنفسه الحق في أن يتمتع بامتيازات، في ما هي شؤون عامة وحقوق مواطنة، يجب أن يشترك ويتساوى فيها الجميع، نراه يقدم نفسه على الآخرين في كل شيء، هكذا يتعامل البعض، وهذه آفة من آفات القيادة والإدارة والتصدي، انظروا ماذا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(وَإِيَّاكَ وَالاسْتِئْثَارَ): الاستئثار يعني أن تطلب الزيادة لنفسك، أيها المسؤول، أيها المتصدي، أيا كان مستوى مسؤوليتك، تريد أن تميز نفسك، فتأخذ امتيازات أكثر من الآخرين، وقد تكون هذه الامتيازات مادية أو معنوية.

(بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ): في الأمور التي يجب أن يكون الناس فيها متساوين، فهناك شيء اسمه حقوق المواطنة، وكل مواطن يحمل الجنسية العراقية وينتمي إلى هذا البلد له هذه الحقوق، أيًا كان موقعه، سواء كان فقيرا أو غنيا، لديه مسؤولية أو ليست لديه مسؤولية، فهذه حقوق مواطنة، وفي تلك الأمور التي يتساوى فيها الناس لا يحق لك أن تميز نفسك، نعم هناك أمور يجعلها لك القانون، كما لو كانت حياة المسؤول في خطر بحكم مسؤوليته، فلابد من أن يكون معه من يحميه مثلًا، وكذا البروفيسور صاحب الشهادة الفلانية، الذي أمضى سنين طويلة من عمره ليتمكن من علم ما، من معرفة ما، حتى أصبح لديه مستوى

علمي معين، فهنا يميز عن غيره بحسب القانون، كأن يعطى راتبًا أكثر من الإنسان العادي، وهذا استحقاق، وهكذا هناك أشياء يتميز بها المسؤول عن غيره بحسب الاستحقاق، ضمن القانون، ضمن السياق، وهذا لا بأس به، ولكن الكلام عما هو حق المواطنة المشترك، الذي يتساوي فيه الجميع، ويريد المسؤول أن يميز نفسه في هذه الأمور، فهذا لا يصح.

(وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ): يعني التغافل، تغمض عينيك عما يجب أن تهتم به في دائرة مسؤوليتك، في منظومتك القياديّة، من خروقات من مدراء تحت مسؤوليتك، أو أن مدراء تحت مسؤوليتك يرتكبون أخطاء، يعتدون، يتجاوزون، يميزون أنفسهم، وأنت تغمض عينيك لئلا تراهم، ولا تهتم بما يحدث.

(مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ): أي أصبحت هذه الخروقات واضحة، والكل يتحدث بها، الكل يراها، فعليك أيها المسؤول أن تضبط إيقاع المنظومة القياديّة؛ سلسلة المراتب التي تحتك، فلا يكفي أن تكون قائدًا للجيش، قائدًا لفرقة، آمرًا للواء، آمرًا لفوج، ويكون سلوكك جيدًا، بل انظر إلى من هم تحت إمرتك كيف يتعاملون مع الناس؟، وكذلك لا يكفي أن تكون قائدًا تنظيميًا، مسؤولًا عن مساحة معينة، بل انظر إلى القيادات التي دونك هل يتعاملون بشكل لائق مع الناس؟. إن كنت رئيس شركة فانظر إلى المدراء الذين هم تحت إمرتك كيف يتعاملون؟، وإن كنت وزيرًا فانظر إلى الوكلاء والمدراء كيف يتعاملون؟، فالمسؤول أينما كان، عليه أن يضبط إيقاع كل من هم دونه في المسؤوليات وفي المراتب، أما أن تضج الناس من سلوك مدير معين، والمسؤول عنه غير مهتم، ولا يستمع لهذه التظلمات، ولا يتخذ موقفًا من هذا المسؤول الأدنى، ويتغابى وكأنه لا يعلم بما يجري، فهذا غير مقبول.

(فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ): لو دامت لغيرك ما وصلت إليك، وما دامت المسؤولية قد وصلت إليك، فمعنى ذلك أن شخصًا بعدك سيأتي ويأخذها منك، كما أخذتها أنت من الذي كان قبلك، فالإهمال في المنظومة القياديّة، وعدم الاكتراث لأخطاء المسؤولين الأدنى، وعدم متابعة أدائهم وسلوكهم وتعاملاتهم، تؤدي بك - أيها المسؤول - إلى أن تفقد الموقع الذي أنت فيه، وستكثر اعتراضات الناس عليك ويزيد السخط حتى يقيلوك.

(وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ): عندما يقيلونك وتجلس في بيتك بعد إخراجك من دائرة المسؤولية، وهذه المسؤولية هالة، تجعل أناسا تجامل، وأناسا تنافق، وأناسا تتملق، ويخفون المعلومات غير الجيدة ويبعدونها عنك، ويوصلون إليك المعلومات التي يريدونها، كالإنجازات والانتصارات، وعندما يقيلونك، ستنكشف كل هذه وسترى الحقيقة كما هي، وستتعجب أن الأمر الفلاني كان هكذا، وذاك الأمر كان كذا،

وأنّ المسؤول الفلاني كانت لديه هذه المشكلة في الأداء القياديّ، وأن هناك مشكلات في المنظومة التي كنت تديرها، وهكذا تنكشف المشكلات والأخطاء.

(وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُوم): عندما كنت في المسؤولية تضرب هذا وذاك، تعتدي وتتجاوز وتتطاول، ولكن عندما تُرفع الحصانة عن النائب في البرلمان عندما تنتهي دورة مجلس النواب الممتدة أربع سنوات، يبقى هو وعمله، وكذا الوزير الفلاني؛ فما دام في الحكومة فأموره مستقرة، ولكن في اليوم الذي يخرج فيه من الوزارة، يستطيع موظف بسيط في النزاهة أن يفتح له ملفات ما كانت لتُفتح ما دام هو في الوزارة، ويجره إلى المحاكم، (وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُوم)، يؤخذ منك للمظلوم حقه الذي ظلمته فيه، (وَيُنْتَصَفُ) من الإنصاف، ينصف المظلومَ من خلال هذه الخطوة.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

الإضاءة الأولى

تجنب الاستئثار والتمييز في المنظومة القياديّة والإداريّة

يجب أن يكون الجميع سواسية في ما هو حق للجميع؛ كحق العضوية، حق الانتماء، حق المواطنة، وهناك آفة كبيرة؛ هي أن يحاول المسؤول، المدير، استغلال موقعه للحصول على المزيد من الامتيازات والاستئثار بأدوار معنوية ومادية هي ليست من استحقاقه، يأخذها بهذه الطريقة؛ (وَإِيَّاكَ وَالِاسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ)، يعني أن الجميع متساوون، لذلك كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتب التنصيب التي كتبها لولاته، يركز على هذا الموضوع دائمًا، ويحذرهم من أن يستأثروا أو يميزوا أنفسهم عن بقية الناس، وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ حريصًا دائمًا على أن لا ينفتح باب لمثل هذا التمييز والمقامات والشأنيات في منظومته القياديّة، وكان حين يحصل اختراق، حينما يعرف أن أحد ولاته ميّز نفسه عن الآخرين، يتخذ موقفًا حازمًا وشديدًا وسريعًا، لكي يقطع دابر هذا الأمر ولا يسمح بالاستئثار والتمييز في منظومته القياديّة.

ورد في نهج البلاغة من الكتاب الذي أرسله أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى محمد بن أبي بكر حين قلده ولاية مصر، يقول:

«فاخفض لهم جناحك»، أنت ذاهب إلى مصر، فعليك أن تتواضع للناس.

«وألن لهم جانبك»، تعامل بلين، بمحبة، باحترام، بتقدير.

«وأبسـط لهم وجهك» ، ابتسم وكن بشوشًـا معهم ، ولا تعبس بوجوههم ، فإنّ البعض يحسب أن المدير الناجح والمسؤول الناجح هو الذي يخوف الناس ، فيجب عليه أن يحمر عينيه قليلًا ، ليبدو إنسـانًا جافًا ، لكي تهابه الناس وترتجف منه ، ولكن من قال لك إن هذه هـي الطريقـة الصحيحـة لقيادة الأمـور ، فقد كان رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ وكذلك أمير المؤمنين عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ هشًا بشًا[٤٣٧] ، يتعامل بهشاشة وبشاشة دائمًا مع الناس .

«وآسِ بينهـم في اللحظة والنظرة» ، يعني سـاوِ بينهم ، حتى فـي النظرة ، ولا تبقَ مركّزًا على شـخص واحد ، أو جهة واحدة ، بحيث يشـعر الحاضرون وأنت جالس في مجلسـك بأنـك مهتـم بهم جميعا ، وحتـى في حركة العين فيجب أن تشـمل الجميـع ؛ «في اللحظة والنظـرة» ، فـإذا أردت أن تركز علـى أحد فيجب أن تركز على الثانـي والثالث و . . . لكي يتكـون شـعور عنـد الحاضرين في المجلـس بأنك مهتم بهم بلا تمييز بين شـخص وآخر ، ولكن تصوروا في مجلس يحضر فيه عشرة أشخاص ، فإذا كان المسؤول ينظر إلى شخص واحد ويتحدث معه ، ويهمل التسعة الآخرين ، فما هو الانطباع الحاصل؟ سيقولون إن هذا هو المقرب ، وهذا حاجته مقضية ، ونحن الضائعون ، كلا ، بل يجب عليك يا مسـؤول أن تسـاوي بين الجالسـين حولك حتى في النظرات ، في الاهتمام ، في تقاسـيم الوجه ، لكي تشعر الجميع بأنهم محترمون في مجلسك .

«حتـى لا يطمـع العظمـاء فـي حيفك لهـم» : إذا أكثـرت النظـر إلى واحد مـن وجهاء الحاضرين ، وميزته عن غيره في النظرة واللحظة ، أو أفردته بالحديث من بين الحاضرين ، فسـوف يطمع فيك ، وسـيقول : ما دمت قد حظيت بهذه المنزلة عند هذا المسـؤول فعليّ اسـتغلاله ، ومن الآن فصاعدًا سـألوي عنق من يتعرض لي من خلال هذا المسـؤول ، ولذا ينبغي أن لا يطمع فيك – أيها المسـؤول – أي شـخص من أصحاب النفوذ ، فيسـتخدموك لضرب منافسيهم وخصومهم ، أو للإساءة إلى الناس وظلمهم ، فتظلم الآخرين من أجلهم .

«ولا ييـأس الضعفـاء من عدلك عليهـم» ، إذا جاءك مظلوم وعنده شـكوى من وجيه ، فـرأى كل اهتمامـك بهذا الوجيه ، وقد جلس عندك ربع سـاعة ولم تنظـر له نظرة واحدة ، فسـوف يشـعر بأنـه لا توجد فرصـة للانتصار لـه ، إذن فهذه المسـاواة بالنظـرة واللحظة ، بالاهتمـام ، تمنـح الضعيف قـوة ، وعندما يرى القوي أنك وهبـت الضعيف قوة من خلال مسـاواتك بينهمـا ، فلن يجـرؤ على النيل منه ، ولكن عندما يرى القـوي أنك أوليته اهتمامًا أكثـر من الآخرين ، فسـوف يسـتخدم قوتك للنيل من خصومه ، وربمـا لم تكن ترى – أيها

٤٣٧ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ٢٥ .

المسـؤول - أن لهذا الأمر البسـيط في نظرك، وهو المسـاواة في اللحظة والنظرة، كل هذا النتائج الخطيرة.

«فإنّ الله تعالى يسـائلكم معشـر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة»، كل شـيء مساءل عنه الإنسـان، سـواء كان كبيرًا أو صغيرًا، جليلًا أو تافهًا، بل يحاسـب حتى على النظرة، وتقاسـيم الوجه، وإظهار الاهتمام أو عدم الاكتراث، وأحيانًا مجرد النظرة تكفي في معرفة أن فيها التعظيم والاحترام أو فيها الإهانة والإذلال، ولذا يجب أن يحظى الجميع باحترام المسؤول.

«والظاهـرة والمسـتورة»، فالله (سـبحانه وتعالى) يسـائل الإنسـان عن جميـع أعماله الظاهرة أو المخفية؛ لأنّ الله سـبحانه لا يخفى عليه شـيء، فهو العالم بما ظهر وما تخفي الصدور، فيحاسـب على ما يظهره الإنسـان وما يستره عن أعين الناس، لذا يجب عليك - أيهـا المسـؤول - أن تتعامل مع الجميع بمنطق واحد، فـلا تتعامل معهم في الظاهر بطريقة معينة، ولكنك تميّز بينهم في السر والخفاء.

«فـإن يعذب فأنت أظلم، وإن يعفو فهو أكرم»[٤٣٨] إذا عذبنا الله (سـبحانه وتعالى) فمن ظلمنا، وإذا عفا عنا فمن فضله علينا، وليس باستحقاقنا.

وورد أيضـا فـي مقطع آخر من نفس هذا الكتاب: «واعلم يا محمد بن أبي بكر، أني قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي، أهل مصر»، ومن كلامه هذا عَلَيْهِ السَّلَامُ يظهر ما يوليه عَلَيْهِ السَّلَامُ من حب لأهل مصر، وأنّ جنود مصر هم أعظم أجناد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

«فأنـت محقوق أن تخالف على نفسـك»، وفـي مقابل ما أعطيتك مـن ولاية هذا البلد القريب إلى نفسـي، والشـعب الـذي أحبه وأمّرتك عليهم، يجب عليـك أن تخالف هواك لكي تؤدي حق هذه المهمة الحساسة والخطيرة.

«وأن تنافـح عـن دينك»، تدافع عن دينك، تجاهد عن قيمك، وحذار من أن تفقد حالة الدفاع عن دينك وقيمك عندما تتربع على كرسي المسؤولية.

«ولـو لـم يكن لك إلا سـاعة من الدهر»، لو لـم يبق من عمرك غير سـاعة، ولا يقصد بالساعة معناها في زماننا، بل يقصد اللحظة، عليك أن تبقى مدافعًا عن دينك.

«ولا تسـخط الله برضا أحد من خلقه»، إياك يا مسـؤول أن تتعرض لسخط الله (سبحانه وتعالـى) مـن أجل رضا أحد من خلقه، مهما كان ذلك الشـخص مهمًا في نظرك أو في نظر الناس.

---

٤٣٨ . نهج البلاغة ١ : ٢٧ الكتاب ٢٧ .

«فإنّ في الله خلفًا من غيره» ، في الله تبارك وتعالى خلف من كل الناس ، فإنّ الله (سبحانه وتعالى) لو كان معك والناس كلها ضدك فأنت الرابح ، فلا تخف من أن يعرض فلان عنك بوجهه ما دام في ذلك لله رضا ، وما قيمة رضا فلان إذا كان في ذلك سخط له (سبحانه وتعالى) ، ولذا على المسؤول أن يضع في حسابه دائمًا في كل قضية إحراز رضا الله (سبحانه وتعالى) أولًا ، فإن كان ذلك العمل يرضيه فأقدم عليه ، سواء رضي فلان أو لم يرض ، وإن كان مما يسخط الله عز وجل فابتعد عنه ، ولا تسولنّ لك نفسك أو الشيطان أن لا تفكر بإحراز رضا الله (سبحانه وتعالى) ، أو أن في رضا فلان وفلان رضا لله سبحانه ، وحينئذ يحلّ عليك غضب الله ، ومن يحلل عليه غضب الله فقد هوى على أم رأسه في نار جهنم ، وكان لها حصبا ، واعلم أن في رضا الله (سبحانه وتعالى) خلفًا لك من الناس في الدنيا والآخرة ، أما إذا كان رضا فلان لا يتقاطع مع رضا الله ، فأنت في الحقيقة لم تعمل لأجل رضاه ، بل من أجل رضا الله (سبحانه وتعالى) ، وإن وقع رضا فلان عرضًا في طول رضا الله ، وأما إذا دار الأمر بين سخط الله ورضا فلان ، فلا والله ليضرب فلان رأسه بالجدار ولا تتركنّ رضا الله عنك ، فالمدار دائمًا وأبدًا هو على إحراز رضا الله تبارك وتعالى ، فإذن إذا كان فلان – مهما كانت منزلته الدينية أو الدنيوية – يطلب شيئًا خلاف الشرع ، أو خلاف المروءة ، أو فيه ظلم لأحد ، فلا يجوز الإقدام على ذلك العمل إذا كان فيه سخط الله عز وجل وغضبه ، واحرص على إحراز رضا الله تبارك وتعالى ؛ لأنّ في رضاه خلفًا وعوضًا من رضا الناس .

«وليس من الله خلف في غيره»[٤٣٩] ، أما أن تترك رضا الله (سبحانه وتعالى) ، فمن هو الخلف منه ؟ هل فلان أو فلان خلف من الله جل جلاله ؟ إذن ليس هناك خلف من الله تعالى ، ولا محيص من أن يكون رضا الله تعالى هو الأول ، وإن أدى ذلك إلى غضب جميع الناس ، فلا تقدم على عمل يغضب الله عز وجل ، وأقدم على ما يرضيه ولا تخف من النتائج والآثار المترتبة على سخط عبد من عبيده (سبحانه وتعالى) ، وتمسّك برضا الله (سبحانه وتعالى) وإن غضب الناس ، فالله تبارك وتعالى هو الذي يعوضك ، فعندما يراك قد آثرت رضاه على رضا غيره ، عوضك مما يمكن أن تخسره ، بل يزيدك من فضله .

وورد في نهج البلاغة في خطبة لأمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ ما يشير إلى مسألة مقتل عثمان بن عفان ، ثم ما حدث بعد ذلك من اتهام له عَلَيهِ السَّلَامُ بدم عثمان ، فقد كانت حرب الجمل –

---

٤٣٩ . نهج البلاغة ٣ : ٢٩ الكتاب ٢٧ .

كما تعرفون – عنوانها الانتصار لدم عثمان من قبل طلحة والزبير، وهنا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجواب عن هذه الشبهة:

«لو أمرت به لكنت قاتلًا»، لو كنت قلت اقتلوه لكنت شريكًا في دمه.

«أو نهيت عنه لكنت ناصرًا»، ولو كنت قلت لا تقتلوه لكنت ناصرًا له، وأنا في الواقع لم أقل اقتلوه، ولم أقل لا تقتلوه، أما لأني لم أقل للناس لا تقتلوه، وجلست في داري، تحملونني مسؤولية قتل عثمان، وأكون عندكم أنا قاتل عثمان، فهذا أمر عجاب.

«غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول نصره من هو خير مني»، يعني أن الذين نصروه ليسوا بأفضل من الذين خذلوه، لهذا لا يستطيع ناصره أن يقول: أنا خير من الذي خذله، ولا يستطيع خاذله أن يقول: إن ناصره خير مني، يريد عَلَيْهِ السَّلَامُ أن القلوب متفقة على أن ناصريه لم يكونوا في شيء من الخير الذي يفضلون به على خاذليه.

وهنا الشاهد: «وأنا جامع لكم أمره»، أريد أن أعطيكم تلخيصًا عن منهج عثمان بكلمتين.

«استأثر فأساء الأثرة»، ميّز عثمان نفسه عن الآخرين، ووضع امتيازات لنفسه، ومكّن أقاربه وأرحامه، فأخطأ في هذا التمييز، ولم يراعِ عدم الاستئثار في القيادة، فثارت الناس بوجهه.

«وجزعتم»، من استئثاره، وحدثت عندكم ردة فعل، وخرجتم ضده محتجين.

«فأسأتم الجزع»[٤٤٠]، لكن جزعكم أو اعتراضكم أخذ وتيرة متصاعدة، فحرقتم مقرات، وقتلتم الناس، وارتكبتم أعمالًا غير صحيحة، وقد بالغ ووقع في الخطأ حينما استأثر، وأنتم وقعتم في الخطأ حينما بالغتم في ردة الفعل بعد أن قتلتموه، وهذا شأنكم، فلا تحملوني ما لم أقله وما لم آمر به. ولكن بالتالي يؤدي الاستئثار في الحكم إلى رد فعل، إلى احتجاج، إلى ثورة، إلى حراك قد يخرج أحيانًا عن السيطرة، ويتجاوز حدوده، فيؤدي إلى نتائج ومضاعفات خطيرة، والخطر في هذا الاستئثار هو أنه يهدم جسر الثقة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم، عندما يتكبر المسؤول ويريد كل شيء له، ويترك الناس الذين دونه، ويميز نفسه عن غيره، فيفقد ثقة الناس بالتدريج، ويبتعدون عنه، وتزول المحبة، ويزول التفاهم، وتذهب الثقة، ويغيب التشارك، وهذه كلها مسائل أساسية لنجاح أي مسؤول في منظومته القياديّة.

٤٤٠. نهج البلاغة ١: ٧٥ الكتاب ٣٠.

الإضاءة الثانية

تجنب التغافل في المنظومة القياديّة والإداريّة

لا تتجاهل أداء المسؤولين والقادة الذين هم دونك، وراقب أداءهم، ويعدّ الإشراف الدقيق على سلوك المسؤولين في المنظومة القياديّة، مدخلًا أساسيًا من مداخل النجاح في القيادة والإدارة، وعلى الحاكم أن يمنع المسؤولين من الاجتهادات الشخصية، والأمزجة الخاصة، وخرق القانون، فقد يعتقد بعض المسؤولين بأنه مادام مسؤولا فهو يستطيع أن يخرق القانون ويتجاوز على القانون، ولذا على الحاكم أن يمنع الظلم والاعتداء والتجاوز على الآخرين من قبل منظومته القياديّة، ويعالج ضعف الأداء فيهم، ومن كان ضعيفا ولا يتقبل المعالجة فعليه أن يخرجه ويأتي بمسؤول قوي غيره، لئلا تبقى الناس متحيرة به، وعليه أن يمنع الإجحاف الذي يقوم به أشخاص في منظومته بحق الآخرين، هذه كلها أمور أساسية في القيادة والإدارة والتصدي.

(وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ)، إذا كان هناك مسؤول في منظومتك القياديّة قد وضح أمره للعيان، ورأى الناس بأجمعهم عدم التزامه بالقانون، وقد ضج منه الناس، وعنده مشكلات كبيرة، وأنت لم تُعِر الموضوع أي اهتمام، فعليك تقع مسؤولية إصلاح ومعالجة هذا الأمر، فتشخيص الخروقات في المنظومة القياديّة ومعالجتها مهمة قياديّة لأي مسؤول، وعليه أن لا يتباطأ في ذلك، وإلا فإنّ الناس حينئذ سترى أنك راض عما يفعله هذا المسؤول، وتحمّلك المسؤولية كاملة، فتتولد أزمة ثقة بينك وبين الناس، وبالتالي تنهار المنظومة القياديّة بشكل عام، ولذلك يجب الإسراع في التشخيص وفي المعالجة؛ لأنه إذا ما حصلت حالة من التغافل، أو حالات الاعتداء ضمن المنظومة القياديّة، أو التجاوز، أو الاستئثار، أو التمييز، أو أداء غير موفق، أو سلوكيات غير صحيحة، فيجب الإسراع في معالجتها، واتخاذ الموقف الواضح منها، أو ستكون النتائج غير محمودة.

(فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ)، اعلم أنّ هذا الموقع لا يدوم لك، ولا تتوهم ذلك، وبإهمالك لهذه الأمور قد يفاجئك على حين غرة الأمر الديواني بإقالتك.

(وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ)، حين تتضح الأمور، وينتصف منك للمظلوم.

الآفة الخامسة

حالات الانفعال والغضب والسباب والشتيمة

(امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذلِكَ، بِكَفِّ الْبَادِرَةِ، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الاْخْتِيَارَ، وَلَنْ تَحْكُمْ ذلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ).

قد يشعر المسؤول بحصانة لنفسه، فلا يتحرج في أن يكسر الآخرين ممن هم دونه في حالات الغضب، ويمسح بهم الأرض، فبعض الناس لا يتحمل ثقل المسؤولية وإن كانت صغيرة، فيبقى يتخبط يمينًا وشمالًا؛ ضابط في زاوية من زوايا البلد، عندما يُنصّب آمرًا لفوج، تنقلب الدنيا على رؤوس من هم تحت إمرته، ولا يستطيع أن يلتقي به من كان بالأمس يسمر معه، ماذا تغير؟ على مهلك ورويدك، ضع رجلك على الأرض لئلا تقذفك أمواج الهواء بعيدًا حيث لا تشتهي، وآخر عندما يُنصَّب أو يختار قائدًا تنظيميًا في منطقة ما، فالويل كل الويل للعاملين معه، فتراه قد نفش ريشه ونفخ نفسه، وأصبح يتكلم مع الناس بالمثاقيل، على مهلك يا أخي، لماذا تعاليت على إخوتك بمجرد منصب رمزي لا يستتبع شيئًا؟ وهناك موظف عادي جالس على كرسيه في دائرة خدمية، عندما تذهب إليه في أمر من أمور وظيفته، يقول لك: قف خارجًا، أو تعال غدًا أو في اليوم الفلاني، وتراه يصيح ويسيء ويهين، ويفعل ما لا يفعله المدير العام.

إنّ الأساس في نجاح المنظومة القياديّة هو العاطفة، واحترام الناس وتوقيرهم، وعدم الإساءة لهم، ومن آفاته الغضب، وفي هذا الشأن جاء قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ): في إشارة إلى الغضب، فالإنسان عندما يغضب يحمى أنفه، ولذا على الحاكم أن يسيطر على غضبه ويضبط نفسه.

(وَسَوْرَةَ حَدِّكَ): السورة تعني السطوة، الاعتداء، وحدّك يعني بأسك، يعني شدة الغضب، الإقدام، الكسر، فعليك - أيها الحاكم - أن تملك أعصابك، وتضبط إيقاعك..

لقد كان الناس منك في راحة، وما إن نُصبت مسؤولًا حتى أُبتلي بك الناس واستغاثوا منك، وعانوا بسببك أشد العناء، وهم يرتجفون منك خوفًا.

(وَسَطْوَةَ يَدِكَ): بمجرد أن يغضب المسؤول سرعان ما يرفع يده ليصفع المواطن بكل وقاحة واستهتار، وكأنّ الناس عبيد عنده، فما القصة؟ لماذا تتنمر على هؤلاء الناس الضعفاء الذين نصبت في موقعك هذا لخدمتهم؟ أمنت العقاب فأسأت الأدب، واطمأنت نفسك أن الذين في السلطة هم على شاكلتك، وسيقفون معك في حال حدوث أي مضاعفات لمثل هذه التصرفات الظالمة. اعلم أيها الضابط الذي تمارس هذه الأعمال يوميًا في مخفر الشرطة، أنك تتسلم راتبك من أموال هذا الشعب، فحين يُدخلون عليك شخصًا متهما بالسرقة، ولا تعلم هل هو سارق بالفعل أو لا، فلماذا تبادر بصفعه قبل أن تتكلم معه؟ وقبل أن يرفع رأسه تركله بقدمك، فمن أعطاك الحق في ضرب هذا الإنسان والاعتداء عليه؟ وأما الفحش والكلام البذيء - نستجير بالله - فحدّث ولا حرج، وينهال عليه بما يخرج من لسانه، من سباب وشتيمة وهتك عرض، وهذا أمر سيئ جدًا.

(وَغَرْبَ لِسَانِكَ): الغرب يعني الحد، أي للسانك حد كحد السيف، يقتل شخصية من ينال منه، كما يقتل السيف من ينال منه، ونستجير بالله من أصحاب الألسن البذيئة؛ إذ يتكلمون بكلمات لا تتصور أن ينطق بها بشر، ما هذا المنطق؟ ما هذا الاعتداء على الناس؟ ما هذا الهتك لأعراض الناس؟ ما هذه الكلمات النابية؟ من الذي أعطاك هذا الحق في أن تنتهك كل الحرمات والأعراض لأنك مسؤول؟.

(وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ): راقب لسانك، ويدك، وتقاسيم وجهك، ونظراتك، وتعاملك، وطريقة إغلاقك الباب، وحركاتك، وسكناتك.

(بِكَفِّ الْبَادِرَةِ): بإيقاف حالة الغضب بكل معانيه؛ غضب بشتيمة، غضب بضرب، غضب بنظرات مهينة، غضب بسلوك مهين، وكل أنواع المهانة للآخرين وانتهاك حرمة الناس، فكل هذا لا يجوز، وبحسب القواعد، عندما تكون غاضبًا وتستمر بالكلام والصراخ يزيد غضبك، فأنت تشعل نار الغضب أكثر، ولكن عندما تسكت وتلتزم الصمت تهدأ فورة الغضب، ومعنى (بِكَفِّ الْبَادِرَةِ)، أي لا تبادر بإظهار الغضب؛ لأن إظهار الغضب يزيدك اشتعالًا فتكثر أخطاؤك، عندما تكون غاضبا، حتى لو كان الفعل يستحق، فاصمت في لحظة الغضب، واجلس واذكر الله قليلًا؛ سبّح الله واستغفره واحمده وصل على محمد وآل محمد، وقل شكرا لله، لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، وكان عزيز العراق (رحمة الله عليه) عندما يغضب يكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، ويبقى يعيدها إلى أن يهدأ.

(وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ): لا ترتب أثرًا في لحظة الغضب، كأن ترفع سماعة الهاتف لتتكلم بما لا يجوز، أو تمسك بالقلم لتكتب به ما لا ينبغي، فأنت غاضب ويمكن أن تفعل كل شيء، فاجلس واصمت، واستغفر ربك إلى أن تهدأ، وعندما تهدأ سيكون قرارك صائبًا، وانظر في الموضوع بعد الهدوء؛ هل يستحق الاهتمام بعيدًا عن الانفعال؟.

(حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ): أخّر السطوة، أخّر الإقدام على أي قول أو عمل، حتى يسكن غضبك.

(فَتَمْلِكَ الِاخْتِيَارَ): لِمَ العجلة والأمور بيدك؟ فإن رأيت المصلحة في إقالة هذا الرجل فافعل ذلك، وتكون قد فعلت ذلك عن بصيرة، ولم تخسر شيئًا، فهذا الخيار موجود لديك، فانتظر ربع ساعة حتى يسكن غضبك، وينتهي الانفعال، لماذا الآن؟ فربما عندما تهدأ ترى القصة لا تستأهل، فالقاعدة العامة التي تشمل كل الناس، وهي تهم المتصدي أكثر؛ لأنّ مسؤوليته أكبر، هي السكوت في لحظة الغضب، لا قرار في لحظة الغضب، بل اجلس وأصبر واهدأ، وبعدما تهدأ قلّب الأمور وانظر أين هي المصلحة؟، وعندها اتخذ قرارك.

(وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ): لن تستطيع أن تفعل هذه الأمور؛ أن تكظم غيظك وتضبط مشاعرك وتسيطر على انفعالاتك، إلا حينما تكثر همومك، يعني اهتمامك، تركيزك، بذكر الآخرة، لأنك لو بادرت عند غضبك بظلم الناس فماذا ستقول لله غدًا؟ فاذكر الآخرة وركز عليها، فأنت غدًا نازل في تلك الحفرة الضيقة، وكل واحد منا سينزل في هذه الحفرة: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٤٤١] وكل هذه الأعمال سوف تبقى، نحن والكفن وما لدينا من أعمال، ولا شيء آخر، فلا تبالغ، ولا تخطئ بحق الآخرين.

الإضاءات المستفادة من النص

الإضاءة الأولى

خطورة القسوة والخشونة والحدية في تعامل المسؤول

القسوة والخشونة والحدية في تعامل المسؤول أمر مدان وغير صحيح، والقسوة في غير محلها للكسر والإساءة والإهانة من قبل المسؤول، أمر خطير، وهي تُفقد الإنسان

---

٤٤١. سورة الزمر: الآية ٣٠.

منزلته الاجتماعيّة، وتدعو إلى تركه والابتعاد عنه، قال الله تبارك وتعالى مخاطبًا رسوله الكريم: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٤٤٢].

لاحظوا ما ورد في شرح غرر الحكم: «الخرق شر خلق»[٤٤٣]، الخرق لغة ضد الرفق[٤٤٤]، يعني أن الشدة والغلظة أسوأ خُلق، حالة الشدة والغلظة والصراخ والشتيمة والاعتداء على الناس ليست من الأخلاق الشريرة فقط، بل هي من أشر الأخلاق، ولذا ينبغي على المسؤول تجنب هذه الحالة.

وفيه أيضًا: «أقبح شيء الخرق»[٤٤٥].

وفيه أيضًا: «أسوأ شيء الخرق»[٤٤٦].

وفيه أيضًا: «لا خلق أشين من الخرق»[٤٤٧]، أسوأ حالات الأخلاق الخرق، وهي حالة الغضب والشدة التي تعتري الإنسان عند انزعاجه وانفعاله.

وفيه أيضًا: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه»، عندما تتعامل مع أي قضية برفق وهدوء تزيده زينة وجمالًا، ولن تخسر أو تندم على موقفك، «وما كان الخرق في شيء إلا شانه»[٤٤٨]، يعني أنقصه وأعابه، حتى لو كان ذلك الشيء جيدًا، فقد يتلفظ الإنسان بقول أو يُقدِم على عمل في حال الانفعال يندم عليه بعد ذلك، ويتمنى أنه لم يقله أو يفعله، ويضطر إلى إراقة ماء وجهه لتقديم الاعتذر، فلا ينبغي للإنسان أن يتعامل بانفعال؛ لأنه في وضع غير طبيعي، وغير سوي، فتصدر عنه أقوال أو أفعال لا يرغب فيها، وعلى المسؤول أن يلوذ بالهدوء والصبر قليلًا إلى أن تنجلي سحابة الغضب، ويعود إلى حالته الطبيعية، لأنه لن يفوته شيء، فبيده زمام الأمور، ومن ارتكب جريمة مثلًا تستحق قطع رأسه، يمكن لك تسليمه إلى القضاء ليعدموه، إذن فلماذا الانفعال وبيدك مفاتيح الحل؟.

ورد في نهج البلاغة، الخطبة الثالثة المعروفة بالخطبة الشقشقية، وقد تناولنا منها سابقا بعض المقاطع، يصف فيها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أحوال الخلافة بعد رسول

---

٤٤٢. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

٤٤٣. شرح غرر الحكم ١: ٢٠٠

٤٤٤. الصحاح ٤: ١٤٦٦.

٤٤٥. شرح غرر الحكم ٢: ٣٧١.

٤٤٦. شرح غرر الحكم ٢: ٣٧٨.

٤٤٧. شرح غرر الحكم ٦: ٣٨٠.

٤٤٨. شرح غرر الحكم ٦: ٦٢.

الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وكيف أن الغلظة والشدة أخذت مأخذها في ذلك الحين، لاحظوا ماذا قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

«فيا عجبا»، يتعجب أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من تغيير منهج رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في الحكم بعد وفاته مباشرة.

«بينا هو يستقيلها في حياته»، إشارة إلى قول أبي بكر عندما بويع بالخلافة: «أقيلوني فلست بخيركم»[٤٤٩] طلب الإقالة والإعفاء من تولي هذا الأمر، وأن يختاروا غيره.

«إذ عقدها لآخر بعد وفاته»، ما معنى أن تزهد بها في حياتك، ثم توصي بها لشخص آخر بعد وفاتك؟! هذا لا ينسجم مع الزهد، هكذا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

«لشدّ ما تشطرا ضرعيها»، عندما يأتي شخصان ويريدان أن يحلبا الماعز أو ما شابه، وعندها ضرعان، يتقاسمان اللبن، فيأخذ أحدهما نصفًا ويأخذ الآخر نصفًا، هكذا يمثل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذه الحالة المعروفة للناس آنذاك، وكأنهما تقاسما السلطة والموقع؛ فحينما انتهت خلافة الأول أوصى بها للثاني ليأخذ حصته منها، وهكذا تقاسما الخلافة بينهما.

«فصيّرها في حوزة خشناء»، تحولت الخلافة إلى جهة صعبة المرام، خشنة الطباع.

«يغلظ كلمها»، الكلم هو الجرح، يعني أصبحت خشونتها تجرح جرحًا عميقًا، والناس متألمة من الخشونة التي تستخدم معهم، فلم يكونوا يعهدون هذه المعاملة في زمن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

«ويخشن مسها»، أصبح اسم الخلافة، اسم القيادة، خشن الملمس، أي يتأذى ويتضرر من يقترب منها، وعلى من يمسها تحمل الإساءة والضرب، وهذا في الحقيقة شيء خطير.

«ويكثر العثار فيها»، تكثر العثرات والزلات في خلافة مبتنية على أساس الانفعال والغضب والخشونة والكسر.

«والاعتذار منها»، ويكثر الاعتذار منها؛ يرتكب الحاكم زلة فيضطر إلى أن يعتذر منها.

«فصاحبها كراكب الصعبة»، الإبل الصعبة في قبال الإبل الذلول المطيعة، وهي التي يصعب ركوبها، وهو تشبيه للحاكم الذي يستخدم الخشونة والقسوة، فيسقطه الناس من

---

٤٤٩. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ١٦٩.

كرسيّه كما تسقط الإبل الصعبة راكبها؛ إذ يضغط عليه الجو العام، وهو في قلق دائمًا كأنه راكب الجمل العنود، غير المطيع، وغير الذلول.

«إن أشنق لها خرم»، إذا جر زمام الناقة العنود المشاكسة بقوة انخرم أنفها، فلا تستطيع المشي بعدها؛ لأنها ستختنق عندما تجر.

«وإن أسلس تقحم»، وإذا أرخى لها زمامها رمى بنفسه في الهلكة؛ لأنّ هذه الإبل العنود مضطربة الحركة، وسترميه في هاوية تكون فيها نهايته، وهنا يشبّه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحاكم الذي يستخدم العنف والقسوة منهجًا في التعامل مع الأمة براكب الناقة الصعبة التي لا تطاوعه في قيادها، فإن جرها بعنف آذاها، وإن تركها وأسلس نفرت به وآذته، فيبقى حائرًا لا يدري ماذا يفعل؛ إن تشدد معهم فسيواجه برد فعل عنيف، وإن تساهل معهم سيتجرؤون عليه ولا يطيعونه.

«فمُني الناس»، يعني أُبتلوا، «لعمر الله بخبط»، الخبط هو السير على غير هدى؛ أي انحراف في المسارات.

«وشماس»، هو رفض الفرس أن يمتطيها أحد.

«وتلون واعتراض»، فيصبح الحكم عملية صعبة جدًا ومعقدة، ومن غير الممكن إدارة هذا الموقع الحساس نتيجة هذا الوضع.

وفي شرح غرر الحكم: قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «من خشنت عريكته»، أي طبعه خشن وخلقه صعب، «أفقرت حاشيته»[٤٥٠]، تفرق الناس من حوله، وهذه قاعدة عامة، وقد خاطب الله (سبحانه وتعالى) رسوله الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٤٥١]، لا يجتمع الناس حول الإنسان السيئ الخلق، ويتفرقون عنه ويبقى وحده، وتفتقر حاشيته أي تصبح قليلة.

وورد في نهج البلاغة في كلام لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قاله لزياد بن أبيه حين ولاه بلاد فارس، خلفًا لعبد الله بن العباس، نهاه في أوله عن أن يزيد في الخراج؛ أي الضرائب، وأمره بانتهاج العدل، ثم قال له:

«واحذر العسف»، احذر الشدة بغير حق، من غير حاجة إلى الشدة، لا تتعامل معهم بالشدة.

---

٤٥٠. شرح غرر الحكم ٥: ٣٢٥.

٤٥١. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

«والحيف»، يعني الميل من العدل إلى الظلم، أي لا تظلم وكن عادلًا، ولا تقسُ على الناس بغير وجه حق.

«فإن العسف يعود بالجلاء»، سياسة العنف والقسوة تؤدي بالناس إلى الهجرة وترك البلاد، واليوم هناك الملايين من العراقيين في خارج العراق من أيام الديكتاتور، فما الذي حملهم على الهجرة إلى شتى أقطار الأرض وتحمُّل الغربة؟ إنها الشدة والعنف والتعامل القاسي، والجلاء يعني أنهم يجلون أنفسهم؛ أي يهاجرون إلى مكان آخر.

«والحيف يدعو إلى السيف»[٤٥٢]، أي يؤدي الظلم إلى أن ترفع الناس السلاح في وجه الحاكم الظالم، لتأخذ ثأرها ممن يظلمها ويسفك دماءها بغير وجه حق.

الإضاءة الثانية

ضرورة السيطرة على الغضب في المنظومة القياديّة والإداريّة

يجب السيطرة على نوازع النفس، ضبط الإيقاع، من الغضب، من الشدة، من الكسر، من الغلظة في المنظومة القياديّة والإداريّة. ويتم هذا الضبط عبر أمرين:

الأمر الأول: إصلاح النظام التربوي والثقافي، فعندما يصبح استخدام الكلمات النابية أمرًا اعتياديًا ومتعارفًا، وعندما تصل هذه الثقافة إلى حدودها القصوى، كما هو شائع في الثقافة الشعبية العراقية – مع الأسف – فيمازح الصديق صديقه بألوان الشتائم أو يناديه بألقاب نابية تمجها الآذان، ويكون المزاح عبارة عن شتائم وسباب وإهانة؛ فحينئذ نحتاج إلى عمل ثقافي كبير، وتغيير في الثقافات، وتنشئة صحيحة.

إن كنت تريد أن تمازح صديقك، فمازحه بشكل لطيف، لماذا تمازحه بشتيمة وسباب؟ ما هذا المزاح العجيب؟ تشتم عرضه بحجة المزاح، وتهينه أمام الآخرين بحجة المزاح.

نحتاج إلى ثقافة جديدة، وتنشئة جديدة، تدين الغلظة والشدة والتعامل غير اللائق واستخدام الكلمات النابية وما شابه ذلك.

الأمر الثاني: الحاجة إلى قوانين وتعليمات تعزز هذه الثقافة، فالثقافة وحدها لا تكفي من دون قوانين رادعة وتعليمات وإجراءات صارمة، فمثلًا موضوع التحرش؛ إذ صدرت فيه تعليمات، وسُنّت له قوانين، لأنه قضية شائعة، فأصبح حتى التحرش اللفظي يمكن

---

٤٥٢. نهج البلاغة ٤: ١٠٩ الحكمة ٤٧٦.

أن يعرّض مرتكبه للمساءلة القانونية إذا اشتكى المتضرر، بل مجرد إشارة يمكن أن تجعل صاحبها تحت طائلة القانون، أما في قضايا السباب والشتيمة واستخدام الشدة فلا توجد قوانين، ولا توجد إجراءات رادعة.

إذن، نحن بحاجة إلى ثقافة صحيحة من ناحية، وإلى إجراءات صارمة من ناحية أخرى، ضد تحقير الناس وإهانتهم، وحين يشكو شخص شخصًا آخر قد أهانه وسبه وشتم عرضه، تكون هذه قضية قانونية يُرمى مرتكبها في السجن إذا ثبت أنه قال ذلك، وعندها سينتهي الناس من الإهانة والسب والشتم، لأنهم سيحسبون ألف حساب، ولا ينفع أحدهم أن يقول إني كنت أمازحه، لأنه لا مزاح في عرف القانون بالإهانة والسب والشتم والهتك، فأي مزاح هذا الذي فيه هتك للحرمات؟ هتك لكرامة الإنسان؟ وقد انعكس ذلك أيضًا في الدراما العراقية في بعض الأحيان، ولكن عندما تنظر إلى الدراما السورية مثلًا تسمع كلمات: ابن عمي وابن خالي وهكذا، وكلها كلمات عائلية واحترامات، وحتى عندما يغضب لا تعرف أنه غاضب، بينما السائد عند العراقي هو الصياح، وحتى عندما يريد أن يُضحك الناس يجب أن يصرخ بزوجته، أو يصيح بابنه، فما هذه الثقافة الغريبة التي تسوّق من خلال بعض هذه الدراما العراقية؟، ومن قال إن الطبع العراقي هو دائمًا بهذه القسوة والشدة والحدة؟، يجب أن نضع الثقافات الصحيحة في هذا الأمر.

(امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ)، أي غضبك، (وَسَوْرَةَ حَدِّكَ)، أي بأسك، (وَسَطْوَةَ يَدِكَ)، لا تضرب بيدك أحدًا، (وَغَرْبَ لِسَانِكَ)، غلظة لسانك، (وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ)، بالهدوء وعدم المبادرة إلى التعبير عن الغضب وتأخير السطوة، ولا تقدم على قول أو فعل، (حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ)، إلى أن تهدأ، (فَتَمْلِكَ الِاخْتِيَارَ)، تكون وقتها مختارًا، فتنظر أين هي المصلحة؟، وما هي الخطوة الصحيحة فتتخذها.

وردت في كتاب وسائل الشيعة رواية أعجبتني كثيرًا؛ ليس فقط الشاهد فيها، بل موضوعها لطيف وشيق أيضًا؛ عن عمار بن أبي الأحوص قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن عندنا قومًا يقولون بأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ»، يعني يحبون عليًا ويوالونه، «ويفضلونه على الناس كلهم»، ويرونه أفضل من غيره، «وليس يصِفُون ما نصِفُ من فضلكم»، لكن لا يقولون بعصمته وإمامته كما نقول نحن بعصمتكم وإمامتكم أهل البيت، «أنتولاهم؟»، هل يجوز لنا مصادقتهم ونصرتهم؟.. هم يحبون عليا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ويحترمونهم ويفضلونهم، ولكنهم لا يعتقدون بإمامتهم وعصمتهم، بل يقولون هم علماء أجلاء، أعظم من غيرهم من العلماء.

«فقال لي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: نعم في الجملة»، يعني لا توثق علاقتك بهم، واقتصر على العلاقة العادية معهم، تواصلوا معهم، ابنوا علاقة معهم.

«أليس عند الله ما لم يكن عند رسول الله؟»، الله تبارك وتعالى أعظم من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فالرسول هو عبد من عبيد الله (سبحانه وتعالى)، فما كان لله أعظم مما كان لرسوله.

«ولرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عند الله ما ليس لنا»، ورسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أفضل من أهل بيته، فمكانته عند الله أعظم من مكانتهم، فالله أعظم من رسوله، ورسوله أعظم من أهل بيته.

«وعندنا ما ليس عندكم»، وعند أهل البيت من المقام والمرتبة الإيمانية، أعظم مما عند أتباعهم.

«وعندكم ما ليس عند غيركم»، ومستوى المرتبة الإيمانية لأتباع أهل البيت أعلى من مرتبة غيرهم، والمقصود طبعًا هم الأتباع الحقيقيون.

«إن الله وضع الإسلام على سبعة أسهم»، أي على سبع مراتب، هي:

«على الصبر، والصدق، واليقين، والرضا، والوفاء، والعلم، والحلم، ثم قسم ذلك بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل محتمل»، فالذي أعطاه الله تبارك وتعالى هذه المراتب السبع فهو الكامل الذي يتحمل من أسرار العلوم والابتلاءات ما لا يتحمله غيره.

«وقسم لبعض الناس السهم، ولبعضهم السهمين، ولبعضهم الثلاثة»، وهكذا حتى انتهى إلى السبعة، ثم قال:

«لا تحملوا على صاحب السهم سهمين»، الوعاء الوجودي لصاحب السهمين أكبر من الوعاء الوجودي لصاحب السهم الواحد، وإيمانه أعظم، فلا تحمل صاحب السهم الواحد ما تحمله لصاحب السهمين.

«ولا على صاحب السهمين ثلاثة أسهم»، ولا تحمل صاحب السهمين ما تحمله لصاحب الأسهم الثلاثة، وهكذا الأمر بالنسبة للمراتب الأخرى.

«ولا على صاحب الأربعة خمسة أسهم، ولا على صاحب الخمسة ستة أسهم، ولا على صاحب الستة سبعة أسهم، «فتثقلوهم»، الذي تحمله أكثر من طاقته الإيمانية تثقله.

«وتنفروهم»، وعندما تثقله تنفره، وعندما ينفر يترك الإيمان برمته، كمن يطلب ممن تعلم الصلاة اليومية توًا أن يستيقظ نصف الليل ويصلي صلاة الليل بكل مستحباتها مدة

ثلاث ساعات، ولا يطلب منه إتيان صلاة الليل بشكل عادي، بل يريدها منه كاملة، وفي اليوم الثاني يعتذر حتى عن الإتيان بصلاته اليومية، وكان الأجدر أن يتدرج معه شيئًا فشيئًا، كأن تقول لمن تريد أن تعلمه صلاة الليل أن يقتصر أولًا على إتيان الشفع والوتر ثلاث ركعات فقط، وهي لا تستغرق سوى ثلاث دقائق، فإن التزم بها مدة شهر، فحينها تقول له: ما رأيك لو أضفت إليها ثماني ركعات أخرى؟، ركعتين ركعتين، فيكون المجموع إحدى عشرة ركعة، لا تستغرق سوى إحدى عشرة دقيقة، وبعد سنة يضيف إليها المستحبات الأخرى، فتأتي تباعًا بالتدريج، أما أن تحمّله وهو ما زال في المرتبة الأولى ما يحمله من كان في المرتبة السابعة، فإنه لا محالة سينفر.

«ولكن ترفقوا بهم وسهلوا لهم المدخل»، سهّلوا لهم مدخل الطاعة والعبودية لله (سبحانه وتعالى)، ولا تتوقعوا منهم أن يقدروا على أن يأتوا بمثل ما تأتون به من العبادات والطاعات، بل ارفقوا بهم وليتدرجوا شيئًا فشيئًا بهدوء حتى لا ينفروا.

«وسأضرب لك مثلًا تعتبر به»، ثم يضرب الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ مثلًا عن شخص حُمّل ما لا يطيق فكانت عاقبة أمره خسرا:

«إنه كان رجل مسلم، وكان له جار كافر»، كان لمسلم جار كافر.

«وكان الكافر يرافق المؤمن»، وكان هذا الكافر متأثرًا بشخصية المسلم، وله معه رفقة وصداقة.

«فأحب المؤمن للكافر الإسلام»، عندما رأى المؤمن هذا الكافر إنسانًا خلوقًا وعاقلًا، عرض عليه الإسلام.

«فلم يزل يزين له الإسلام حتى أسلم»، أخذ يتحدث له عن الإسلام بهدوء، إلى أن اقتنع هذا الكافر، ونطق بالشهادتين وصار مسلمًا والحمد لله.

«فغدا عليه المؤمن»، دقّ عليه الباب عند الفجر.

«فاستخرجه من منزله»، أيقظه من نومه عند الفجر، وطلب منه أن يأتي معه لأداء صلاة الصبح في المسجد.

«فذهب به إلى المسجد ليصلي معه الفجر جماعة»، طلب منه أن يصليا الفجر جماعة في المسجد، فصلاة الجماعة خير ثوابًا من صلاة الفرادى، والصلاة في المسجد أعظم ثوابًا من الصلاة في البيت، فكانت هذه أول قضية تفاجأ بها هذا الرجل الذي لم يمض على إسلامه سوى يوم وليلة.

«فلما صلى»، فلما انتهى من الصلاة.

« قال له لو قعدنا نذكر الله حتى تطلع الشمس » ، وهذه من الأمور المستحبة ، أن يبقى الإنسان جالسًا في مصلاه إلى طلوع الشمس ، يذكر الله تبارك وتعالى بين الطلوعين ويقرأ القرآن .

«فقعد معه» ، وهذه المدة تستغرق ساعة ونصف الساعة ، وعندما طلعت الشمس نهض الرجل يريد الذهاب لأهله .

« فقال له لو تعلمت القرآن إلى أن تزول الشمس وصمت اليوم كان أفضل » ، طلب منه البقاء في المسجد إلى الظهر لكي يعلمه القرآن ، وأن ينوي صيام يومه هذا ؛ ليحصل على جزيل الثواب ، وسيسهل عليهما الصيام وهما جالسان في المسجد إلى الظهر ، فنوى الرجل صيام ذلك اليوم ، وفعل ما يملي عليه صاحبه ليرى إلى أين ستصل الأمور؟ .

«فقعد معه وصام حتى صلى الظهر والعصر» ، وتصور هذا الرجل أن الأمور فرجت وسيرجع إلى أهله ، ونهض ليقوم حاله كحال المصلين الذين أنهوا صلاتهم .

«فقال له : لو صبرت حتى تصلي المغرب والعشاء الآخرة كان أفضل» ، واستسلم الرجل لما دعاه له صاحبه ، فليبق في المسجد إلى حين صلاتي المغرب والعشاء ، وإنه ليوم عسير بالنسبة إلى إنسان حديث عهد بالالتزام بالإسلام والتدين ، وتحمّل الرجل التعب والجوع والعطش في أول يوم دخل فيه هذا الدين الجديد ، إذ لم يعهد من دينه السابق أمرًا كهذا .

«فقعد معه حتى صلى المغرب والعشاء الآخرة ثم نهضا ، وقد بلغ مجهوده» ، ورجع الرجل إلى بيته بعد تعب كبير .

«وحمل عليه ما لا يطيق» ، كيف يمكن أن يتحمل هذا الرجل كل هذا؟ ، نحن مسلمون ولا طاقة لنا بمثل هذا ، وأين هو المسلم الذي يذهب إلى المسجد فجرًا ويبقى فيه إلى العشاء مع الصوم وما يستتبعه من الجوع والعطش؟ .

«فلما كان من الغد غدا عليه» ، طرق صاحبنا الباب على جاره الحديث الإسلام قبيل صلاة الفجر .

«وهو يريد مثلما صنع بالأمس ، فدقّ عليه بابه ، ثم قال له : اخرج حتى نذهب للمسجد ، فأجابه» ، هذا الكافر الذي صار مسلمًا بالأمس :

«أن انصرف عني ، فإنّ هذا دين شديد لا أطيقه» ، أي دين هذا؟ ! فأنا لا أقدر عليه ، فدعني أرجع إلى الكفر خير لي .

وبعد أن يستشهد الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه القصة ، ومن المؤكد أنها قصة واقعية ، يقول :

«فلا تخرقوا بهم» ، وهنا الشاهد ، لا تستخدموا الشدة معهم .

«أما علمت أن إمارة بني أمية كانت بالسيف والعسف والجور» ، لقد قام نظام الحكم لبني أمية على أساس التعسف والجور والضغط والشدة والغلظة .

«وأن إمامتنا - أهل البيت - بالرفق ، والتألف ، والوقار ، والتقية ، وحسن الخلطة» ، يعني حسن العشرة والتعامل ، «والورع ، والاجتهاد ، فرغّبوا الناس في دينكم ، وفي ما أنتم فيه»[٤٥٣] ، رغّبوا الناس ولا تنفروهم بهذا النحو .

وورد في شرح غرر الحكم : «رأس السخف العنف»[٤٥٤] ، قمة السخافة استخدام العنف والغلظة والشدة مع الناس .

ولذلك يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ : (وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ) ، يعني اهتمامك ، (بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ) ، عندما تذكر الله (سبحانه وتعالى) ، عندما تذكر الآخرة ، سيتغير سلوكك ويكون بوضع مختلف .

---

٤٥٣ . وسائل الشيعة ١٦ : ١٦٤ ح٩ .

٤٥٤ . شرح غرر الحكم : ٥٠ .

الخاتمة

(وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ : مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ ، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا ، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هذَا ، وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ ، لِكَيْلاَ تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا .

وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ ، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فيهِ رِضَاهُ مِنَ الإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ ، مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ ، وَجَمِيلِ الأَثَرِ فِي الْبِلاَدِ ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ ، وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ ، وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ ، إِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ، وَالسَّلاَمُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الطيبين الطاهرين وسلّم تسليمًا كثيرًا ، والسلام) .

فـي المقطـع الأخير، وهو الخاتمـة التي بها ينتهي هذا العهد، يشـير أميـر المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أمرين:

الأمر الأول

المرجع في سياسات المنظومة القياديّة والإداريّة

(وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ: مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هذَا، وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ، لِكَيْلاَ تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا).

(وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ): أنت أيها المسوؤل، أيها القائد، أيهـا المتصـدي حيثما تصديت، وذكرنا في الحديث عـن القيادة والإدارة أنها لا تنحصر بالمواقع العليا في الدولة؛ بل هي من القائد الأعلى للقوات المسلحة إلى رئيس الدولة، نزولًا إلى المستويات الدنيا، وإلى كل حالات التصدي التي تحصل في المجتمع، انتهاء بالعائلة، حيث الرجل الذي يدير عائلة مكونة من بضعة أشخاص، هذه كلها معايير قياديّة تنطبـق علـى كل هذه المسـتويات القياديّة بشـكل واضح؛ فهنا يقول لـك أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: أيها المسؤول، لا تسر على منهج: كلما جاء مسؤول لعن الذي قبله، وسخّف وسـفّه وقلّل من قيمة المسـؤولين السابقين، ويعدّ كل شيء خرابا ودمارا، وأنه هو الذي سيصلح البلاد والعباد، ويقيم العدل والإنصاف، وكأن السابقين لا قيمة لعملهم، وهذه الحالة حالة سـلبية من النقد الكامل وعدم الاعتراف بأي شـيء قام به السـابقون، ولهذا نـرى المنظومـة القياديّة تعيش دائمًا حالة بناء وانهيار بشـكل متكرر، وليس فيها تراكم، فـي حين يُفترض في أي مسـؤول يأتي، أن يرى ما هـي الإيجابيات؟، ما هي نقاط القوة التي كانت للمسـؤولين السابقين؟، فيأخذ بها ويطورها وينميها، ويبتعد عن السلبيات،

والواجب عليك – أيها المسـؤول الجديد – أن تتذكر ما مضى ، وتركز على ما حققه من تقدمك من المسؤولين السابقين في هذا الموقع .

(مِنْ حُكُومَة عَادِلَة) : فقد يكون السابقون قد أشاعوا العدل والإنصاف في سلوكهم ، في خطواتهم ، في مواقفهم .

(أَوْ سُـنَّة فَاضِلَة) : أو أرسوا سـنّة صحيحة ؛ إجراءات وخطوات وسياسات ومواقف كانت سليمة وإيجابية ، فعليك أن تأخذ بها وتراكمها وتطورها .

(أَوْ أَثَر عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ) ، أو لعله كان لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في آثاره ، وسـلوكه ، ومواقفه ، حينما حكم ، سـياقات معينة ، وخطوات معينة ، يمكن أن تنفعك ، أو تنطبق على بعض المواقف التي تواجهك في موقع المسؤولية .

(أَوْ فَرِيضَة فِي كِتَابِ اللهِ) : أو هناك إشارات في القرآن الكريم لمجموعة من الشؤون ذات الصلـة بـالإدارة والقيادة ؛ فـي جباية الزكوات ، أو في العلاقـات الخارجية ، أو في التعامل مع الناس ، وكل هذه الفرائض التي أشـار إليها القرآن الكريم يجب أن تأخذ بها في عملية القيادة والإدارة التي تتصدى لها .

(فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَـاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا) : ثم تأخذ بما عمل به إمام زمانك ، أنا أمير المؤمنيـن إمامـك ، فتعمل بمثل ما شـاهدته من عمله ؛ انظر كيف أديـر الأمور؟ ، كيف أتعاطـى مع المسـائل؟ ، كيف أعالج الأزمات؟ ، كيف أواجـه الفتن؟ ، كيف أتعامل مع الناس؟ ، واقتدِ بمنهجي في القيادة والإدارة وخذ به ، وهذه إشارة يشير بها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى وضع المرجع ، في رسم السياسات العامة في القيادة والإدارة .

(وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هذَا) : عليك أن تبذل كل الجهد لتنفيذ ما جاء بهذا العهد ، وما كتبته لك ، وما وجهتك به .

إنّ أي مسؤول يتصدى لمواقع القيادة والإدارة ، مهما كانت بين يديه من أفكار عظيمة ، ومنهج واضح ، وسياسات ناجحة ، وخطوات مدروسة ، إذا لم ينفذها ، ولم يعمل بها ، ولم يسـتفد منها ، فمآله الفشـل الذريع . أنا علي بن أبي طالب قدمت لك في هذا العهد رؤية متكاملة للقيادة والإدارة ؛ مسـارات وخطوطـا عريضة ، لمعالجة كل الأزمات التي تحصـل فـي أدائك القياديّ والإداريّ ، ولكن عليـك أن تعمل بها ، فإنك من دون العمل بها لا يمكن أن تحقق النتائج المرجوة .

(وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ) : لقد بذلت جهدًا كبيرًا في صياغة هذا العهد ؛ في أن أضع كل ما هو عذر بيني وبين الله (سبحانه وتعالى) ، في نصحك وتوجيهك ، في ما يحقق مصالح الأمة .

(لِكَيْلاَ تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ): لكي لا يكون لك عذر أو تبرير.

(عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا): إذا لم تأخذ بهذا العهد، وهذه المسارات والقواعد والأطر التي وضعتها لك في القيادة والإدارة، وأخذت بهوى نفسك، وانحرفت عن المسار، فأنا معذور بين يدي الله (سبحانه وتعالى)، وتتحمل أنت كامل المسؤولية، لأني لم أُبقِ لك عذرًا، فلا يحق لك أن تقول لم أكن أعلم كيف أتعامل مع هذه الأزمة، أو كيف أتصرف في هذه القضية؛ فكل الأمور والشؤون والتحديات التي يمكن أن تواجهها في موقع القيادة والإدارة قد وضعتها في هذا العهد، وقدمتها لك على طبق من ذهب، فأعذرت نفسي أمام الله عز وجل، ولم أبقِ لك عذرًا أو حجة في ترك الاعتماد عليها، والاستناد إليها، فلم تعد تجهل الآن شيئًا من هذه الأمور.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

الإضاءة الأولى

ضرورة الالتفات إلى مرتكز الحق والعدل

يجب الالتفات إلى مرتكز الحق والعدل في المنهج القياديّ والإداريّ في رؤية أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولا يمكن أن تنجح إلا باعتماد الوسائل الصحيحة المبتنية والمعتمدة على أساس الحق والعدل، وكل ما ذكره أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا العهد، ونحن نشرحه منذ ثماني سنوات، ينصب جميعه في ترسيخ مفاهيم العدل والحق والإنصاف بين الناس.

ورد في نهج البلاغة حينما دخل عبد الله بن عباس على أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو في ذي قار في طريقه إلى حرب الجمل، وقد وجده جالسًا على الأرض يخصف نعله الممزق، فوجّه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ السؤال التالي لابن عباس: «ما قيمة هذه النعل؟ فقال: لا قيمة لها، فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: والله لهي أحب إليّ من إمرتكم، إلا أن أقيم حقًا أو أدفع باطلًا»، الحق والعدل هما محور القيادة والإدارة في منظور علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فإن كان القائد، المتصدي، المسؤول، قادرا على إحقاق الحق وإقامة العدل، فهو في الموقع اللائق به، والمسألة تستحق أن يتحمل من أجلها أعباء المسؤولية، وإذا كان لا يستطيع، تصبح هذه النعل أحب لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من إمارة المسلمين بأجمعهم، إذا لم يكن فيها إحقاق للحق.

وقـد ذكرنا في مقطـع آخر قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كِظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»[٤٥٥]، لا توجد قيمة للتصدي وتحمل المسـؤولية وممارسـة الأدوار القياديّة، إلا إذا كان فيها إحقاق للحق وإشـاعة للعدل، هذا هو المعيار والهدف الأساسي من التصدي للقيادة والإدارة.

ويلفت أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الانتباه إلى أن تحقيق هذا الهدف – إقامة الحق والعدل – يكون من خلال خمسة أمور:

الأمـر الأول: (وَالْوَاجِبُ عَلَيْـكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ): يجب على الحاكم أن يتذكر ويضع نصب عينيه ما كانت عليه الحكومة العادلة التي سبقته في حكم البلاد، ويلاحظ كل ملامح وسـمات العدل في الحكومات السابقة، ويتمسك بكل سلوك عادل، وموقف عادل، وخطوة عادلة، وإجراء عادل، وقانون عادل، وعليه التمسك بالقوانين والإجراءات والسياسات الصحيحة التي سنّها الآخرون السابقون.

الأمر الثاني: (أَوْ سُـنَّةٍ فَاضِلَةٍ): أي خطوات سليمة اُتخذت وساهمت في الدفاع عن الناس، وفي ترسيخ وتعميق حقوقهم، وإشاعة الإنصاف بينهم.

الأمر الثالث: (أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ): الإجراءات والسياسـات والمواقف والحلول والمعالجات التي اتخذها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في قضايا مشابهة.

الأمر الرابع: (أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ): الأسس والمناهج التي وضعها القرآن الكريم في مواجهة المشكلات والعقبات التي يتعرض لها الناس.

الأمـر الخامـس: (فَتَقْتَـدِيَ بِمَا شَـاهَدْتَ مِمَّـا عَمِلْنَا بِـهِ فِيهَا)، المنهج الـذي يتّبعه والخطوات التي يسلكها علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في إدارة وقيادة الدولة.

هذه الأمور الخمسـة هي منهج ورؤية أهل البيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، رؤية الإسـلام في القيادة والإدارة، وإذا ما اُعتمدت فسوف يستطيع الحاكم من خلالها أن يحقق الهدف؛ بإشاعة العـدل والإنصـاف والالتزام بالحق في المنظومة القياديّة والإداريّة، وهو ما أشـارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[٤٥٦]، وهو أمر صريح من الله (سـبحانه وتعالى) لرسوله الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، بأن يحكم بالعدل، وما أشارت إليه أيضًا الآية الكريمة:

---

٤٥٥. نهج البلاغة ١: ٢٦ الخطبة٣٣.

٤٥٦. سورة الشورى: الآية ١٥.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾[٤٥٧]، وهو أمر من الله (سبحانه وتعالى) بأن تدار الأمور وتقاد على أساس القصد والعدل.

وردت في نهج البلاغة خطبة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يصف فيها نهج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في القيادة والإدارة، قال فيها: «سيرته القصد»، كانت سيرته الاعتدال، في سلوكه، في تعاملاته.

«وسنّته الرشد»، سنته أن يعتمد حالة الرشد، النضج، الحكمة، الحصافة بالمواقف.

«وكلامه الفصل»، لا قول فوق قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فهو القرآن الناطق؛ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٤٥٨]، هو كلام الله (سبحانه وتعالى) يفسر ويترجم على لسان رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

والشاهد هو قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وحكمه العدل»[٤٥٩]، كان يحكم بالحق والعدل، وهو الأساس الذي يُعتمد في القيادة والإدارة، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في توجيهه لولاته الذين كان يوليهم في مناطق مختلفة، في الأمر الديواني أو المرسوم الجمهوري كما نسميه في هذا الزمان، كان يركز بشكل واضح على هذا الهدف الأساسي من القيادة والإدارة في تلك الوثائق التي وصلت إلينا تأريخيًا.

منها عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لعمرو بن حزم، قال فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا بيان من الله ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[٤٦٠]» يستشهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالآية الأولى من سورة المائدة.

«عهد من محمد النبي، لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن»، حين ولاه على اليمن.

«أمره بتقوى الله في أمره كله»، أولًا عليك بتقوى الله، في كل شؤونك، وقد يتصور البعض منا أن التقوى في الصلاة، وفي الشؤون العبادية فقط، والحال أن التقوى لها معنى واسع؛ فالتقوى في السياسة، والتقوى السياسيّة لها قواعدها؛ أي كيف يكون الإنسان متقيًا حين مزاولته للعمل السياسيّ؟، والتقوى في المعاملات، التقوى الاقتصادية؛ أي كيف نحافظ على التقوى ونحن نتعامل في السوق، نبيع ونشتري؟، بل لعل التقوى في هذه المجالات غير العبادية؛ في المجتمع، في الوضع السياسيّ،

---

٤٥٧. سورة الأعراف: الآية ٢٩.

٤٥٨. سورة النجم: الآيات ٣ - ٤.

٤٥٩. نهج البلاغة ١: ١٨٥ الخطبة ٩٤.

٤٦٠. سورة المائدة: الآية ١.

فـي الوضع الاقتصادي، قد تكون أصعب بكثيـر من التقوى في الأمور العبادية، وقد ورد في الأثر: «الدين المعاملة»[٤٦١]، ويتبين هنا مستوى تقوى هذا الإنسان؛ حين تعترضه منزلقات، وتواجهـه الفـرص غير الشـريفة، والمكائد، واللعب، والخداع؛ فكيف سـيتعامل معها وهو متربع في موقع القيادة والإدارة.

«﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾»، استشهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بهذه الآية.

«وأمره أن يأخذ بالحق»، وهنا الشـاهد، أمر رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الوالي بأن يأخذ بالحق.

«كما أمر به الله»[٤٦٢]، هذا أمر الله؛ قيادة بالحق، مسؤولية بالحق، التعاملات على أساس الحق والعدل.

«ويبشـر الناس بالخير، ويعلّم الناس القـرآن، ويفقههم بالدين، وينهى الناس، ولا يمس أحـد القـرآن إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم»، يجب أن تخبر الناس ما هي حقوقهم؟، وما هي واجباتهم؟، لئلا يأتي يوم تغتر فيه، ولا تعطيهم كامل حقهم، فيجب أن يعرفـوا ما هي حقـوق المواطنة؟، وأن تكون واضحة وبيّنة، لكـي يأتي المواطن ويطالبك أيها المسؤول، ويضغط عليك ليأخذ حقه، ويجب أن تبيّن للمواطن واجباته، لكي لا يعاقب على شيء وهو لا يدري؛ إذن، فواجبات المواطن ومسؤولياته وحقوقه يجب أن تُبيّن للناس، ليعرفـوا حقوقهـم وواجباتهم؛ هذا التوازن الدقيق بين الحقوق والواجبات في الإسـلام، فلا واجبـات بـلا حقـوق، ولا حقوق بـلا واجبات، هذه الثنائيـة يجب أن تُحفظ وتُرعى بشـكل واضح.

«ويلين للناس في الحق»، يكون ليّنًا معهم في ما هو حق، متواضعًا، ترابيًا، أخلاقه لطيفة، لا يتصنع في تعامله مع الناس.

«ويشـتد عليهم في الظلم»، ولكن حين يخرج الناس عن جادة الصواب، يجب أن يكون حازمًا شـديدًا، فالتواضع والترابية واللين حين يخطئ الإنسـان، تؤدي إلى انحرافات خطيرة في سلوكه؛ فمن أمن العقوبة أساء الأدب.

---

٤٦١ . عجائب الآثار للجبرتي ٣: ١٠٣.

٤٦٢ . تاريخ الطبري ٢: ٣٨٧.

«فإن الله عز وجل كره الظلم ونهى عنه، فقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٤٦٣]»، وهنا يستشهد رسولنا الكريم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ بالآية الكريمة، وترون أنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ في هذا العهد وفي عهوده لولاته، يأمرهم بالحق والعدل والإنصاف، وأمير المؤمنين عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ هو الابن البار لمدرسة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ، والتجسيد والمصداق الحقيقي لتنفيذ تعاليم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ، فجسّد العدالة والالتزام الحق بأوضح صورهما في فترة تصديه للمسؤولية.

وفي منطق علي عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ ورؤيته، تلازم العدالة أربعة مفاهيم أساسية لا يمكن أن نفصلها عن العدالة، ولا يمكن أن تحقق عدالة من دون أن تنفذ هذه الرباعية؛ وهي: الحرية، الأخلاق، الحقوق، القانون، هذا الرباعي يمثل الدعامة الأساسية للعدالة، والسلوك العادل من قبل المسؤول، المتصدي، ومن دون هذه الأربعة لا معنى للعدالة في التعامل، في التعاطي، ومن دون هذا الرباعي تكون العدالة مجرد شعار وليست شعورا أو سلوكا، ومن دون هذا الرباعي تكون العدالة أنانية ونرجسية وفرضًا لآرائه الخاصة – الحاكم المسؤول – على الناس، دون وجه حق، فأي عدالة والمسؤول يستخدم قيم الناس وأخلاقهم؟، وأي عدالة نتحدث بها والمسؤول يحدد ويضيق حريات الناس، ويتدخل في شؤونهم التفصيلية؟ وأي عدالة تُهتك فيها الحرمات؟ لا يمكن أن يكون هذا الشيء مقبولًا، فأي عدالة لا توفر أمنا واستقرارا، أو تحت يافطة الأمن والاستقرار يضيق على الحريات ويقمع الناس؟، هذا لا يجوز، فالحكم العادل يجب أن يستند إلى القيم الأخلاقية، ويجب أن يفي بحقوق الناس، وحرياتهم، ويجب أن يتعامل بمساواة؛ بتطبيق القانون على الناس من دون استثناء، فلا يميز بينهم؛ كما قال أمير المؤمنين عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: (فَتقتدي بما شاهدتَ ممَّا عملنا به فيها)، كما عملنا نحن في القيادة والإدارة، هذا – يا مالك – ما عليك أن تقتدي به؛ وهو اعتماد منهج الحق والعدل.

الإضاءة الثانية

الالتزام بالعهد بكامل تفاصيله

يجب الالتزام بالعهد الذي يقطعه الحاكم والمسؤول بكامل تفاصيله، لا أن يأخذ منه ما يناسبه ويهمل الجوانب الأخرى، فهذه نظرية متكاملة، ولا يمكن أن يكون فيها جور على بعض، فعليك أيها الحاكم المتصدي أن تراعي مصلحة الناس جميعًا، لا أن يكون

---

٤٦٣. سورة هود: الآية ١٨.

فيها ضغط على بعض الناس لبعض الأمور، وهذا من أجل تماسك المنظومة القياديّة؛ فهي وحـدة واحـدة غير قابلة للتجزئة، فلا يجوز أن تعمل ببعضها وتترك البعض الآخر، أو تنتقي بعضها وتهمل الأخرى؛ الانتقائية بالاستناد إلى بعض التعليمات الدينية أو بعض هذه الرؤية الإسـلاميّة في القيادة والإدارة وإهمال البعض الآخر، ففي كل جانب هناك طرف يسـتفيد، وآخر يُضغط عليه، فلا يصح أن تأخذ ما يفيدك فقط.

(وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِـكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عهْدِي هذَا)، في عهدي هذا يجب أن تبذل الجهد في اتّباع واعتماد كل ما ذكرته لك، في كل المجالات والجوانب، فلا تأخذ ببعضــه دون بعض، (وَاسْـتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِـي عَلَيْـكَ)، وما بذلته من جهد في تقديم هذه الرؤية الشـاملة الكاملة في القيادة والإدارة، (لِكَيْلاَ تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَـرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا)، لا يبقى لك عذر وذريعة تستند إليها في عدم الاعتماد على هذه الرؤية الواضحة العادلة، والذهاب مع ما ينسجم مع هواك.

الأمر الثاني

كيفية تحقيق النجاح في المنظومة القياديّة

(وَأَنَا أَسْـأَلُ اللهَ بِسَـعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَة، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ مِنَ الإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ، مَعَ حُسْـنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ، وَجَمِيلِ الأَثَرِ فِي الْبِلَادِ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ، وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ، وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّـعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ، إِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ، وَالسَّلاَمُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وسلّم تسليمًا كثيرًا، والسلام).

الأمـر الثانـي الذي يشـير إليه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خاتمة عهده لمالك الأشـتر، هـو النجـاح في القيادة والإدارة؛ كيف نحقق النجاح في المنظومة القياديّة؟ عندك مصنع كيف تنجحه؟، عندك شـركة كيف تنجحها؟، عندك تيار سياسـيّ كيف تنجحه؟، تقود دولة كيف تنجحها؟؛ يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَة)، الله تبارك وتعالى قادر على أن يعطي كل ما يسأله الناس، فهو يعطي ما يشاء لمن يشاء كيف يشاء، فالله تبارك وتعالى هو القادر على على كل شيء، وقد تعهد بنفسه باستجابة دعوة الداعين: ﴿وَقَالَ رَبُّكُـمُ ادْعُونِي أَسْـتَجِبْ لَكُمْ﴾[٤٦٤]، وهـل هناك أوفى بعهده منه (سـبحانه وتعالى)؟: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾[٤٦٥].

(أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ)، كل ما أطلبه من الله (سـبحانه وتعالى) هو لي ولك يا مالك، وهنا يضمّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا لأنهما شريكان في إنجاز المهام الواردة في هذا العهد الشـريف؛ أتريد نجاحًا؟ فالنجاح في رضا الله (سـبحانه وتعالى)، وأسـأل الله لي ولك رضاه (سبحانه وتعالى)، ثم يبيّن عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف يُنال رضا الله (سبحانه وتعالى).

---

٤٦٤. سورة غافر: الآية ٦٠.

٤٦٥. سورة الكافرون: الآية ١١١.

(مِنَ الإقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ)، «مِنَ» هنا بيانية، وليست تبعيضية، أي ليست الإقامة على العذر الواضح لله والناس من الوسائل والطرق للحصول على رضاه (سبحانه وتعالى)، بل رضا الله (سبحانه وتعالى) منحصر في هذا الطريق فقط، ويتحقق رضا الله (سبحانه وتعالى) بالأمور التالية:

أولًا: يجب أن يكون العمل بطريقة تبرئ ذمة الإنسان أمام الله (سبحانه وتعالى)، فيكون بها معذورًا بين يدي الله (سبحانه وتعالى). كما يجب أن يكون العمل بطريقة تجعل الإنسان معذورًا أمام الناس أيضًا، وذلك بأن يتعامل مع منظومته الإداريّة والقياديّة، والناس الذين هو مسؤول عنهم، بطريقة يعذرونه بها ويتفهمون مواقفه.

العذر لله (سبحانه وتعالى) يجعل رأس الإنسان مرفوعًا ووجهه أبيض بين يديه سبحانه، وإذا فعل الإنسان ما يجب عليه فقد أبرأ ذمته أمام الله عز وجل، وحينما تصدى لمهمة معينة فيجب عليه أن يكون معذورًا أمام الناس الذين هو مسؤول عنهم؛ فالقائد لبلد يجب أن يكون الشعب راضيا عنه، والقائد لتيار سياسيّ يجب أن يكون التيار راضيا عنه، ورئيس الشركة يجب أن يكون العاملون فيها راضين عنه، وهكذا مهما كان حجم المنظومة القياديّة، يجب أن يعذره العاملون فيها ويتفهموا ظروفه وطريقة إدارته وقيادته لهذه المنظومة، فرضا الله (سبحانه وتعالى) يحصل بهذا العذر لله وللناس.

ثانيًا: (مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ)، تمدح الناس هذا المسؤول وتثني عليه وتشكره وتقدره وتفتخر به، فهناك مسؤول عندما يأتي الأمر الديواني بإعفائه من منصبه، تفرح الناس وتهلل وتوزع الحلويات، ويكون ذلك اليوم يوم عيد لها، وهي تشكر الله (سبحانه وتعالى) للخلاص منه، وهناك مسؤول عندما يصل الأمر الديواني بإقالته من منصبه، يحزن العاملون معه ويبكون ويعزي بعضهم بعضًا.

ثالثا: (وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ)، يجب أن يترك المسؤول الجيد بصماته في إعمار البلد، وفي ترتيب أوضاعه، بنحو يبقي ألسنة الناس تلهج بإنجازاته؛ في فترة مسؤولية فلان بُني كذا مستشفى، وبُنيت كذا مؤسسة تعليمية، وأنشئت كذا محطة كهرباء وماء، وكذا وكذا.

رابعًا: (وَتَمَامِ النِّعْمَةِ)، إدارة الموارد بشكل صحيح، فالقيادة بشكل صحيح تؤدي إلى وفرة النعمة، بينما القيادة بشكل خاطئ تؤدي إلى شح النعمة، ورضا الله (سبحانه وتعالى) لا يتحقق إلا بتمام النعمة.

خامسًا: (وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ)، أي مضاعفة الكرامة، والكرامة هي العزة، والسيادة، والحرمة، فتزيد الحرمات، وترتفع قيمة المواطن، فتحفظ كرامته، ويكون عزيزًا،

ويفتخر بأنه عراقي، وهذا من شأنه أن يضمن رضا الله (سبحانه وتعالى) عن الحاكم، المسؤول، حينما يضاعف الكرامة للناس، حينما يكون منهجه بطريقة ترفع درجة الكرامة والعزة والسيادة.

(وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ، إِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ)، على الحاكم أن يجعل الآخرة نصب عينيه، وأن يكون هذا الدور القياديّ، هذه المهمة القياديّة، سبيلا لضمان آخرته.

(وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وسلّم تسليمًا كثيرًا، والسلام)، ينبغي مراعاة هذا الأدب الرفيع في كتابة الرسائل؛ فيبدأ بالسلام على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وعلى أهل بيته عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ثم يختتم الرسالة بالسلام على المرسل إليه. وبهذا المقطع ينتهي العهد الشريف الذي كتبه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمالك الأشتر حين ولاه مصر.

الإضاءات المستفادة من هذا النص

الإضاءة الأولى

المعيار في قياس حجم النجاح في المنظومة القياديّة

ما هو المعيار في قياس حجم النجاح وحجم التوفيق في المنظومة القياديّة والإداريّة؟ ما هو المقياس الذي على ضوئه نحدد نجاح هذه الحكومة في مهامها؟ هل هي حكومة تدير شؤون شعبها بالاستبداد والقتل؟ أو هي حكومة تدير شؤون شعبها بالرحمة والعطف والإنسانية ومراعاة الحقوق والواجبات بشكل دقيق؟ هل الحكومة التي تدير شؤونها بأنانيات ونرجسيات وشخصنة وانحيازات هي حكومة ناجحة؟ هل الحكومة الناجحة هي التي تستخدم القوة المفرطة والعنف والقسوة، فيرهبها الناس ولا يجرؤ أحد على مخالفة القانون، ومن يرفع رأسه ليتنفس يجد الساطور مشهورًا فوق رأسه؟ هل الحكومة الناجحة هي الحكومة التي تعتمد على المكر والخداع والتلاعب بمشاعر الناس وتضحك عليهم؟ هل الحكومة الناجحة هي الحكومة التي تكذب على الناس، وتهوّل أمورًا غير موجودة، وتظهر للناس شيئًا غير واقعي، وتقدم إنجازات وهمية؟ هل الحكومة الناجحة هي الحكومة التي ترتكب الجرائم وتزهق الأرواح للحفاظ على نفسها؟ ولو كانت هذه المعايير

هي معايير النجاح لكانت الحكومات المستبدة والدكتاتورية أنجح الحكومات في التأريخ، ولكن بالتأكيد ليست هذه هي معايير النجاح.

بحسب الفطرة الإسلاميّة السليمة، وبحسب الرؤية الإسلاميّة الصحيحة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن الحكومة الناجحة هي الحكومة التي تكرس الحريات، وتعتمد على العدل، وإحقاق الحقوق، في سلوكها، في أدائها، في تشريعاتها، في خطواتها، في إجراءاتها، وتحترم الإنسان، وتصون حقوقه وكرامته، أما الحكومة التي تعتمد على البطش، والإهانة، والإساءة، والضغط على الناس، والاستئثار، والاحتكار، والمكر والخداع، والتلاعب بمشاعر الناس، فلا يمكن أن تكون حكومة ناجحة، حتى لو استمرت مئات السنين، فطول عمر الحكومة لا يعني نجاحها؛ فقد تكون حكومة ناجحة بالرغم من قصر عمرها؛ كحكومة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبعد كل هذه السنين، نجد الإنسانية جميعًا، وليس المسلمين وحدهم، ترى في علي عَلَيْهِ السَّلَامُ رمزًا للعدالة، عدالة حاكم كل مدة حكمه أربع سنوات، مليئة بالحروب والفتن والاضطرابات السياسيّة؛ من الجمل إلى صفين إلى النهروان، حروب طاحنة، وقد بلغ عدد القتلى في صفين وحدها سبعين ألف قتيل؛ منهم خمسة وعشرون ألف شهيد من جيش علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، والباقي من جيش الشام، فإذا أردنا تقييمها بمعايير رقمية، فهي سنين عجاف، ولكنها مع ذلك أنجح حكومة؛ لأنها معيارية، قدمت نموذجًا يُحتذى به على طول التأريخ، فهنا النجاح لا يؤثر في تقييمه طول مدة الحكم أو قصرها، بل المعيار الصحيح هو سلوك الحاكم؛ كيف ينبغي أن يكون؟، والإدارة كيف يجب أن تكون؟.

ورد في نهج البلاغة من حكم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما ظفر من ظفر بالإثم»[٤٦٦]، لم ينتصر من انتصر بالمعصية، بسفك الدماء، بالاعتداء على الناس، باستعمال العنف؛ لأن الغاية لا تبرر الوسيلة، والوسائل يجب أن تكون من جنس الغايات؛ فإذا كانت الغاية نبيلة، فالوسيلة يجب أن تكون نبيلة أيضًا، فالوصول إلى الحكم لإقامة الحق والعدل أمر جيد، ولكن الوصول إلى هذا الهدف النبيل بالظلم والذبح واللعب والتزوير والاعتداء، أمر محرم وقبيح، ولا تبيحه أو تجعله حسنًا المزاعم القائلة: عندما نصل إلى الحكم فسوف نستعمل الوسائل النبيلة ونكون من أهل العدل، فلا يجوز ذلك؛ إذ لا يمكن تحقيق العدل من خلال الظلم، «ما ظفر من ظفر بالإثم»، فهنا انتصرت المعصية عليك، ولم تنتصر أنت، وفزت في الانتخابات، ولكن هل أنت فائز؟ كلا، بل المعصية هي التي فازت عليك، وإذا كنت قد وصلت من خلال

---

٤٦٦. نهج البلاغة ٤: ٧٨ الحكمة ٣٢٧.

التزوير والغش والضغط والتلاعب والالتفاف على الإرادة الشعبية، فأنت مغلوب، كما قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الغالب بالشر مغلوب»[٤٦٧]، الغالب بالشر، الغالب بطرق غير سليمة، بطرق غير صحيحة، بطرق غير منطقية، فهو مغلوب، وإن كان في الظاهر هو الغالب، ففي الحقيقة هو المغلوب، لذلك فالحكومة الناجحة هي الحكومة التي تمنح الحريات، وترفع مستوى الوعي لدى الناس، وتحقق العدالة، والمساواة، والأخوّة، والمحبة، وتؤدي الحقوق، وترسي القيم والمبادئ والمُثُل بين الناس، وتفتح الطريق لتحقيق العبودية الخالصة لله تعالى، وتشد الناس إليه (سبحانه وتعالى)، هذه الحكومة الناجحة فيها رضا الله تبارك وتعالى.

ورد في شرح غرر الحكم: «من جاهد على إقامة الحق وُفّق»[٤٦٨]، الذي يبذل جهده من أجل أن يقيم الحق، فإنّ الله (سبحانه وتعالى) يكتب له التوفيق وينصره، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٤٦٩]، هكذا كانت حكومة علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الإضاءة الثانية

مفتاح التوفيق في القيادة والإدارة

يرى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن مفتاح التوفيق، الذي يتحكم بكل الخطوات والإجراءات والمواقف والسلوكيات والخطط والمنظومة القيمية التي ترسيها المنظومة القياديّة، هو تحقيق رضا الله (سبحانه وتعالى)، هذا هو المفتاح؛ فإن حصل رضا الله فأنت ناجح، وموفق في أدائك القياديّ، ومهما كانت الظروف والنتائج المادية، إذا لم يكن الله (سبحانه وتعالى) راضيًا عنك فأنت غير ناجح؛ (وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَة، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فيهِ رِضَاهُ).

---

٤٦٧. عيون الحكم والمواعظ: ٤٤.

٤٦٨. شرح غرر الحكم ٤: ٣٣٩.

٤٦٩. سورة محمد: الآية ٧.

الإضاءة الثالثة

مداخل كسب رضا الله (سبحانه وتعالى) لتحقيق التوفيق والنجاح

كيف نكسب رضا الله (سبحانه وتعالى)؟ يستعرض أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ خمسة معايير:

الأول: تحصيل العذر عند الله عز وجل، بأن يكون الله (سبحانه وتعالى) راضيًا عن هذا المسؤول، وعاذرًا له؛ لما قدم، وتحصيل العذر عند الناس أيضًا؛ أي تشعر الناس بأن هذا المسؤول لم يقصّر، وأنجز ما عليه، وهي سعيدة بمسؤوليته؛ (مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ).

الثاني: أن يحظى الحكم بالسمعة الطيبة، إذ يذكرهم الناس بخير ويقولون: كان لدينا حكام أمامهم مائة مشكلة، ولكنهم مع ذلك وزعوا أراضي بين الناس، وما زالوا يذكرونهم حتى اليوم ويترحمون عليهم، أي يُذكر الحاكم بخير بسبب إنجاز؛ (مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ)، كيف ترى الناس الحاكم، لا كيف ينظر الحاكم إلى نفسه، فالحاكم يرى نفسه أنجح الناس، مع أن الناس غير راضية عنه، فلا يكفي أن تكون جيدًا في أدائك، بل يجب أن تقنع الناس بأنك جيد، وتسوّق للناس حسن أدائك، يجب أن يقتنع الناس بالمنظومة القياديّة، مهما كان حجمها.

الثالث: أن يترك بصمته في الإعمار، والتوسعة، والمشاريع، والخدمات، وتطوير أوضاع البلاد ماديًا وقيميًا؛ التزام الناس، أعرافها، تقاليدها، قيمها، مبادئها، أي سواء في جانب الإعمار، أو في الجانب المعنوي، فيجب أن يترك الحاكم بصماته، أن يترك أثرًا إيجابيًا؛ على مستوى تطور البلاد، وزيادة وعي الناس ومعارفهم؛ (وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ).

الرابع: إتمام النعمة في المنظومة القياديّة، في بُعديها المادي والمعنوي، وفي بُعديها الفردي والاجتماعيّ، (وَتَمَامِ النِّعْمَةِ) فقلة النعم تكشف عن سوء في الإدارة والتدبير، وعدم وجود الرؤية الصحيحة في قيادة الأمور وتدبيرها.

الخامس: مضاعفة العزة والكرامة وحرمة الناس، وترسيخ وتعزيز السيادة الوطنية، بحسب تعابيرنا هذه الأيام؛ العزة والكرامة للفرد، والسيادة للمجموع؛ (وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ).

الإضاءة الرابعة

العواقب والمآلات

كل مـن يتصـدى لموقع قيـاديّ يجب أن ينظر إلـى العاقبة، إلى المـآلات، إلى هذا الخـط؛ الى أيّ المآلات والعواقب يُفضي هذا السـلوك القياديّ، فلا تكون الناس فرحة بمـا بنيـت لهم، بينما أنت قد ضيّعت آخرتك، فماذا ربحت؟ وما هي الفائدة؟ فيجب أن تعمّر وتبني بطرق صحيحة، وبرضا الناس يرضى عنك الله (سـبحانه وتعالى)، فتضمن آخرتك، هذا هو الأساس؛ (وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ، إِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ).

نسـأل الله (سـبحانه وتعالـى) أن يجعلنـا ممـن ينهـل مـن فكر أهـل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ومعارفهـم، وأن ينفعنـا بهـذا العهـد، وكل الأبحاث الشـيقة والقيمة التـي طرحها أمير المؤمنيـن عَلَيْهِ السَّلَامُ فـي هذا العهد، وأسـأل الله أن يتقبل منكم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفهرست

المقدّمة ٥
تمهيد ٧

المقطع العشرون

ضمانات نزاهة القضاة ١٧

المقطع الحادي والعشرون

آليات ومعايير اختيار كبار مسؤولي الدولة ٣١

المحور الأوّل

آلية اختيار كبار المسؤولين ٣٣

المحور الثاني

معايير اختيار كبار المسؤولين وذوي الدرجات الخاصة في الدولة ٣٩

المحور الثالث

ضمانات سلامة أداء المسؤول ٥٢

المحور الرابع

العقوبات ٧٣

المقطع الثاني والعشرون

طبقة دافعي الضرائب ٨١

الأمر الأول

السياسات الضريبية ٨٤

الأمر الثاني
الاتجاهات الضريبية ٩٢
الأمر الثالث
الإعفاء الضريبي ٩٨
الأمر الرابع
الانكماش الاقتصادي ١١٥

المقطع الثالث والعشرون

طبقة الكتّاب ١٢١
المحور الأول
التدقيق في اختيار الكتّاب ١٢٣
المحور الثاني
نفي الاختيار بعيدًا عن المعايير ١٣٣
المحور الثالث
المعايير المطلوبة في الاختيار ١٣٨
المحور الرابع
تقسيم العمل ١٤٢
المحور الخامس
تكاملية الأدوار ١٤٥

المقطع الرابع والعشرون

طبقة التجار والصناعيين ١٥١
المحور الأول
تنمية التجارة والصناعة في الرؤية الإسلاميّة ١٥٣
المحور الثاني
ضرورة الرقابة على السوق ١٦٦
المحور الثالث
تنظيم السوق ١٧٢

المقطع الخامس والعشرون

الطبقة السفلى في المجتمع ١٨١

المحور الأول

أهمية هذه الطبقة ١٨٣

المحور الثاني

ضرورة تأسيس دائرة للرعاية الاجتماعيّة ١٩٤

المحور الثالث

العناية القصوى بالأيتام وكبار السن ٢٠٤

المحور الرابع

ضرورة تثبيت الحقوق وتحديدها ٢٠٩

المقطع السادس والعشرون

توصيات للحكام والمتصدين ٢١٣

التوصية الأولى

فسح المجال للاعتراض ٢١٥

التوصية الثانية

ثقافة الخدمة في المنظومة القياديّة والإداريّة ٢٤١

التوصية الثالثة

مباشرة القائد شخصيًا لبعض الأمور ٢٥٣

التوصية الرابعة

إدارة الوقت وأهميته في النجاح القياديّ ٢٦٠

التوصية الخامسة

بناء الذات والتوجه إلى الله ٢٦٦

التوصية السادسة

الاعتدال في العبادة ٢٧٩

التوصية السابعة

التواصل مع الناس ٢٩٠

التوصية الثامنة

خطورة الخواص في استغلال موقع المسؤولية ٣١٦

التوصية التاسعة

ضرورة المصارحة والمكاشفة والشفافية مع الناس ٣٥٤

المقطع السابع والعشرون

السلم والحرب..............................٣٦١

العنوان الأول

السلم والحرب وأحكامهما ٣٦٣

العنوان الثاني

العهود والمواثيق ٣٩٦

العنوان الثالث

استخدام القوة والقتل وسفك الدماء ٤٢٨

المقطع الثامن والعشرون

آفات الحكم والتصدي والمسؤولية......................٤٥٣

الآفة الأولى

العجب وحب المديح والإطراء ٤٥٥

الآفة الثانية

المنّ والتزيّد وإخلاف الوعد ٤٦٦

الآفة الثالثة

التسرع والتهاون في الأمور....................... ٤٧٩

الآفة الرابعة

عدم المساواة بين المسؤول وعموم الناس ٥٠٥

الآفة الخامسة

حالات الانفعال والغضب والسباب والشتيمة ٥١٣

المقطع الأخير

الخاتمة ٥٢٥

الأمر الأول

المرجع في سياسات المنظومة القياديّة والإداريّة ٥٢٧

الأمر الثاني

كيفية تحقيق النجاح في المنظومة القياديّة ٥٣٥